البلاط والمجتمع الإسلامي وعلم التأريخ

دراسة في سسيولوجيا الكتابة التاريخية عند المسلمين

المستشرق البريطاني

جيسي روبنسون



ترجمه عن الإنكليزية وقدم له:
الدكتور عبد الجبار ناجي

المركز الأكاديمي للأبحاث



المستشرق جيسي روبنسون

- حاصل على البكلوريوس في التاريخ من جامعة براون.
- حاصل على الدكتوراه من جامعة هارفرد.
- أستاذ كرسي الدراسات الإسلامية في جامعة كامبرج، كلية الدراسات الشرقية.
- مارس التدريس في جامعة أكسفورد منذ العام 1993م حتى عام 2008م.
- ترأس تحرير العديد من الأعمال والدراسات الموسوعية للتاريخ الإسلامي في جامعة كامبرج منذ عام 2003م.

مؤلفاته:

- إمبراطورية ونخب بعد الفتوحات الإسلامية، التحول في شمالي بلاد النهرين.
- عبد الملك 2005م.
- إعادة تقييم مدينة إسلامية من العصر الوسيط: سامراء 2001م.
- أسهم مع كل من البروفسور مايكل كوك ومايكل فارمو بدراسات الجزء السادس من تاريخ كامبرج الحديث عن الإسلام.
- له أكثر من (35) بحثاً علمياً منشور في مجلات عالمية.

البلاط والمجتمع الإسلامي و علم التأريخ

دراسة في سيسيولوجيا الكتابة التأريخية عند المسلمين.

المركز الأكاديمي للأبحاث

البلاط والمجتمع الإسلامي و علم التاريخ

دراسة في سيسيولوجيا الكتابة التأريخية عند المسلمين

تأليف

جيسي روبنسون

Chase F. Robinson

تعريب وتقديم وتعليق

الدكتور عبد الجبار ناجي

البلاط والمجتمع الإسلامي و علم التاريخ - دراسة في سيسيولوجيا الكتابة التأريخية عند المسلمين

The Palace, Islamic Society, and Historiography: A Sociological Study of the Islamic Historians

تأليف جيسي روبنسون Chase F. Robinson - تعريب وتقديم وتعليق: الدكتور عبد الجبار ناجي

تصميم الكتاب وغلافه: المركز الأكاديمي للأبحاث - التقويم اللغوي: د. حسين الوطيفي - تنضيد : علي الحسناوي.

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث

العراق - تورنتو - كندا

The Academic Center for Research

TORONTO - CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية/Library and Archives Canada

ISBN 978-0-9921030-1-9

بيروت - الطبعة الأولى ٢٠١٤

website\\www.academyc2010.com

Email - nasseralkab77@yahoo.com

توزيع : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر : بيروت - لبنان

الجناح - شارع زاهية سلمان - مبنى مجموعة تحسين الخياط

٢٠٤٧-٧٦١١ بيروت - لبنان

Fax: +961-1-830609 Tel:+961-1-830608

Email:tradebooks@all-prints.com

Website:www.all-prints.com

حقوق النشر والاقتباس كافة محفوظة للمركز الأكاديمي للأبحاث

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن آراء المركز الأكاديمي للأبحاث واتجاهاته.

مقدمة المركز الأكاديمي للأبحاث

يشكل البحث في موضوع تاريخ التاريخ أو تطور فكرة التاريخ عند المسلمين قاعدة ضرورية ومقدمة أساسية لاستيعاب الفلسفة الناظمة لنسيج الروايات المتنافرة أحياناً وميولها والتواريخ المتعددة المنتجة خلال مراحل التاريخ الإسلامي، فيبدو ان أهميتها في مجال الاستشراق جاءت بعد مرحلة البيبولوغرافيا وتحقيق النصوص ونشرها ،وهي تكاد تدخل ضمن مقدمات و آليات نقد النصوص وغربلتها والتعرف على مراحلها التكوينية ومنابتها الأولى والكشف عن إعادة الإنتاج المزمن الذي تعرضت له ؛ولذلك أصبحت ضمن الاشتراطات المتوافق عليها منهجياً في مجمل الأبحاث والدراسات الاستشراقية المتناولة للتاريخ الإسلامي،فتخصص لهذه المهمة الديباجة أو الفصول الأولى التي تعد من اعقد وربما أهم مفصل تلك الكتب لوفرت الاجتهادات وتنوعها مقارنة بدراسات أخرى خصت موضوعات متقاربة ،فضلاً عن قدرة تلك المقدمات على تهيأة محيط واعي ومدرك لنسل الروايات وجذورها بما يرتبط بعينات الدراسة .

وفي الآونة الأخيرة تتوازى ثلاثة أعمال استشراقية تتقارب بعضها مع البعض الأخر في معالجة علم التاريخ الإسلامي ربما يتقدمها في الشهرة والسبق كتاب المستشرق روزنثال (علم التاريخ عند المسلمين) الصادر عام ١٩٦٥الذي يلحظ على كتابة تأكيد واضح على المنهج التوصيفي والمسحي في استيعاب تشكل الكتابة التاريخية الإسلامية فقد أكد على عنصر الصورة الذي سعت تلك المصنفات على اختلاف مشاربها ومرجعيتها على تقديمها

وترويجها. فيما اعتمد ظريف الخالدي في كتابه (الفكر التاريخي العربي في المرحلة الكلاسيكية) الصادر من جامعة كامبريدج عام ١٩٩٥ على المنهج التفسيري و التعليلي والتركيز بشكل كبير على المراحل التطورية التي مر بها هذا العلم من بداية نشوءه المتواضع الملازم لظهور الإسلام حتى ذروته في القرن التاسع الهجري عند ابن خلدون.فيما يعد كتاب المستشرق الأمريكي فريد دونر (روايات من أصول إسلامية :بداية الكتابة التاريخية الإسلامية) أخر تلك المجموعة والصادر في العام ١٩٩٨م ففي الكتاب منهج تحليلي اعتمد على متابعة العلوم الأخرى المساهمة في بلورة علم التاريخ الإسلامي ولاسيما العلوم الشريعة التي يأتي في مقدمتها علم الحديث مع تقديمه لعرض نقدي وتصنيفي عميق لتداول هذا الموضوع في الدراسات الاستشراقية الآنفة.

فيما دشن كتاب (البلاط والمجتمع الإسلامي وعلم التاريخ :دراسة في سسيولوجيا الكتابة التاريخية عند المسلمين) للمستشرق البريطاني جيسي روبنسون حقل جديد في تناول علم التاريخي الإسلامي فهو ينتمي إلى صنف البحوث السسيولوجية في متابعة نشأة علم التاريخ الإسلامي وتطوره إذ ركز على الفواعل الاجتماعية وأثارها المباشرة والبعيدة على فكرة التدوين التاريخي وعلم التاريخ الإسلامي ،فقد صاغ المؤلف أسئلته الجوهرية ضمن افق تلك المنطلقات .فالكتاب يعد محاولة جادة ومبتكرة ـ الى حد كبيرـ في متابعة السياقات والظروف الاجتماعية الحاكمة والمحيطة بالمؤرخ ومنزلته العلمية فيرى المؤلف ان هذه المركبات الاجتماعية ذات فاعلية كبيرة في ترسيخ نمط محدد ومعين من الكتابة التاريخية على مستوى المنهج والرؤية والمطالب المنتخبة للمعالجة. فقد اولى عناية كبيرة لايدولوجيا العصر ومضاعفاتها على توجيه الكتابة التاريخية ، فقد تابع على سبيل المثال النشأة الأسرية والمدرسية

ومفاهيم الشريعة والدين الجديد وآثرها على المؤرخ في صياغة ملامح تفكيره وتوجهه، فالكثير من التصورات والصور المكونة عن الذات والآخر مستندة إلى تلك القواعد غير المرئية احياناً.

ينتمي مؤلف الكتاب جيسي روبنسون إلى مدرسة الاستشراق النقدي المعاصرة التي تمثله باتريشيا كرون ومايكل كوك الذين اخضعوا العديد من حوادث التاريخ الإسلامي للدارسة من جديد وقدموا فيها آراء ربما يكون بعضها مثير وجديد لما استقر عليه الاستشراق التقليدي والنمطي.فهذا التيار نفى الكثير من الثوابت واثبت أخرى اعتمادا على منهجيات حداثوية وظفت من جديد في إعادة دراسة تلك الموضوعات .

الدكتور نصير الكعبي

مدير المركز الأكاديمي للأبحاث

تورنتو- كندا

٢٠١٣

قائمة بالرموز التي استخدمها المؤلف في هوامش كتاب المؤلف وهي تمثّل مجلات علمية ومؤلفات كثيرة

تفصيل الرمز

1-AHR American Historical Review المجلةالتاريخيةالأمريكية

2-BEO Bulletin d'etudesorientales (مجلةالدراســات الشرــقية باللغةالفرنسية)

3- BSOAS Bulletin of the School of Oriental And African Studies (مجلةمدرسةالدراسات الشرقية والإفريقية تصدرهاجامعة لندن)

4- DI Der Islam الإسلام(باللغةالألمانية)

5- EI The Encyclopaedia of Islam دائرةالمعارف الإسلامية الطبعةالأولى

6- EI(2) The Encyclopdia of Islam دائرة المعارف الإسلامية الطبعةالجديدة

7- GAL C.Brockelmann.Geschichte der ArabbischenLitteratur

بركلمان :- تاريخ الأدب العربي

8- GAS F.Sezgin.Geschichte des arabischen Schrifttums,vol.I

فؤاد سزكين :-تاريخ الأدب العربي

9- IC Islamic Culture الثقافة الإسلامية

10- IQ Islamic Quarterly الفصلية الإسلامية

11- IS Islamic Studies الدراسات الإسلامية

12- IJMES International Journal of Middle East Studies

المجلة الدولية للدراسات الشرق أوسطية

13- JA Journal Asiatique المجلةالآسيوية (باللغةالفرنسية)

14- JAL Journal of ArabicLiterature مجلة الأدب العربي

15- JAOS Journal of the American Oriental Studies

مجلة الدراسات الشرقية الأمريكية.

16- JESHO Journal of the Economic and Social History of the Orient

مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق.

17-JRAS Journal of the Royal Asiatic Society

18- JNES Journal of Near Eastern Studies

مجلةالدراسات للشرق الأدنى

19- JSAI Jerusalem Studies in Arabic and Islam

دراسات أورشليم (القدس)في العربية والإسلام.

20- JSS Journal of Semitic Studies مجلة الدراسات السامية

21- MW The Muslim World العالم الإسلامي

22- MSR Mamluk Studies Review مجلة الدراسات المملوكية

23- REI Revue des etudes islamiques مجلة الدراسات الإسلامية

24- SI Studia Islamica (باللغةالفرنسية)

25- WI Die Welt des Islams

الدراسات الإسلامية (بالألمانية)العالم الإسلامي (بالألمانية)

26- ZDMG Zeitschrift der deutschen Morgenlandishen Gesellschaft

مقدمة المترجم

لنقل بصراحة في حالة إجراء موازنة بين مفهوم العرب للتاريخ كعلم سواء كان بين العرب في عصر الجاهلية او العرب المسلمين من جهة وبين الغربيين قبل المسيحية وبعدها من جهة أخرى، فإن علم التاريخ في منهجه وغرضه وابعاده وحدوده المعرفية هو صناعة غربية ، وهذا يشمل صناعة علم فلسفة التاريخ ايضا . اذ ولد كلّ من علم التاريخ وفلسفة التاريخ في الغرب ولاسيما في أوربا الوسطى وترعرع ونما نموا طبيعيا تمثلت ثماره في ذلك الانتاج الثرّ منذ أبعد العصور . ومهما يدل عليه تعبير استوريا Istoria (ومنه أخذت كلمة Historia اللاتينية) الذي عبّر عنه ابو التاريخ هيرودوتس اسطورة بمعنى الخيال أو في واقعه بحث واستقصاء فإنها تعدّ ثمرة رائعة في وضع أسسس فهم التاريخ بمعنى العلم . حقيقة أن نابليون بونابرت قد وصف التاريخ بأنه مجرد أسطورة أو خرافة متفق عليها History is a fable agreed upon هو بحدًّ ذاته تفكير ناجم عن تقدير نابليون ربما بقدرية التاريخ ، وان أحداثه لا تستند إلى عناصر المصادفة والمفاجأة والخيال . وعندما عبّر هيرودوتس عن أن التاريخ هو بحث واستقصاء عندئذ يكون قد سبق زمانه (قبل الميلاد) في إبراز حقيقة متميزة في تعريف علمي مبدع للعملية التاريخية البحثية المرهقة، تلك التي تتطلب أدوات أو روايات مكتوبة، فإن لم تكن موجودة بهذه الصيغة، فإنه اعتاد على شدّ الرحال الى ميدان الحدث التاريخي من معركة أو ما شابه ذلك بقصد المشاهدة العيانية كعنصر مهم في البحث والاستقصاء وفي التدوين التاريخي لدراسته. كذلك كانت الحالة نفسها بالنسبة الى المؤرخين اليونان والرومان

الآخرين المعاصرين لهيرودوتس أو الذين اعقبوه، فاضافوا الى بنائه مبانٍ بحثية جديدة أخرى.

إذن ، فالتاريخ كان قائما ومستقلا وذا كيان ووجود بحسب مصنفات التصنيف العلمي للعلوم . فهيرودوتس وثيوسيديدس وغيرهما كانا مؤرخين بالدرجة الأساس ولم يكونا فلاسفة أو علماء في الطبيعة، كان أرسطو طاليس فيلسوفا ومنطقيا وفيلسوفا في علم السياسة المدنية، وكان إفلاطون فيلسوفا ، غير أن فيثاغورس وأرخميدس وغيرهما كانا من علماء العلوم البحتة ولم يكونا مؤرخين .

فالتاريخ عندهم علم والمؤرخ مؤرخ خاض مخاضا فكريا وانطولوجيا . وكان الاسكندر المقدوني مضطرا لا مخيرا تحت ضغط خارطة استراتيجيته التوسعية الامبراطورية أن يحقق معرفة عن البلدان التي جابت حوافر خيول جيوشه وسفن أساطيله أراضي تلك البلدان البعيدة وبحارها، فلجأ الى هذا المؤرخ أو ذاك الجغرافي ليتزود بالمعلومات التي يمكننا عدّها معلومات مخابراتية نابعة من تجارب بحثية في التاريخ والجغرافية عبر دراسات وبحوث في هذين العلمين ، وكذا الحال في مؤرخيّ وسياسيّ العصر الحديث مع فارق بّين، فان صموئيل هنتغتن صانع نظرية الصراع الحضاري – الديني كان مناصراً ومنظرا لنظرية كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي، وكذا كان البروفسور برنارد لويس المؤرخ مستشارا تاريخيا للخارجية البريطانية والخارجية الامريكية بخصوص الشأن العربي التراثي والفرقي والسياسي ، وكذلك هي الحالة بالنسبة الى البروفسور موشي شارون بالنسبة الى رئيس الوزراء الاسرائيلي .

فالفكرة إن هؤلاء كانوا مؤرخين زمن الاسكندر وظلوا كذلك زمن كيسنجر وبوش الأب والابن . فقد كانوا مؤرخين وصنّاعا في البحث والاستقصاء وصناعة علم التاريخ .

فاذا ما التفتنا الى التجربة العربية الجاهلية التي لم تنتج شيئا يذكر وكذلك الإسلامية ، فسنجد أنفسنا أمام ضياع؛ إذ نفتش هنا وهناك عن مجرد كلمة تاريخ وليس عن علم التاريخ فلا نجدّ ضالتنا ، عندها بات علينا أن ننعت هذا العالم . وهو راوية في حقيقته . بمؤرخ وما هو بمؤرخ فعلا، وذاك بجغرافي وما هو بجغرافي فعلا . فالتاريخ عندنا خارج عن حدود ودائرة المعرفة الإنسانية وهو بكل تأكيد خارج عن حدود ومواصفات العلوم المتفق على تصنيفها إن كان ذلك عند ابن النديم في فهرسته أو عند الفارابي في أحصائه للعلوم أو غيرهما وحتى ابن خلدون الكارزمي التاريخي عندنا فهو أب التاريخ وفيلسوف التاريخ دون منازع، لكنه لم يجرأ على تعريف التاريخ الا بإعلانه بصيغة الأمر" اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب شريف الغاية..." (المقدمة – دار الفكر- ص٧) بدلا من ان يعلن صراحة بصيغة الأمر ايضا بهدف تأسيس نظرية " إعلم ان علم التاريخ علم عزيزالمذهب...الخ " . كان التاريخ فناً أي أدباً وكذا كانت حالته في جدولة تصنيف العلوم .

وفي التراث الجاهلي قبل الاسلام وكذلك في التراث الاسلامي والى ما بعد القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي تقريبا ، بالكاد لا نعثر على واقعية محدّدة لما يعرف بعلم التاريخ فضلا عن ضبابية تحديد هوية من هو مؤرخ . حقيقة كانت هناك في الجاهلية أيام العرب . واليوم هو حدث مشكوك بأمر حدوثه او بالاحرى واقعية حدوثه ولا بزمن حدوثه او من هو

الذي أحدثه . الايام هنا في الحقيقة هي مجرد خرافة تمّ الاتفاق عليها شفويا ، إنها مجرد أحداث قد انشغل بها العرب، بل وشغلوا أنفسهم وأوقاتهم تلك التي لم يملأها في الواقع سوى البحث عن المرعى والكلأ والماء. فقصة خيالية أهدر البدوي فيها اربعين سنة أو أكثر من ذلك أو أقل منه بأحداث وحروب لا تعدوا أسبابها أكثر من قصص خيالية لكنها دموية عن بعير بني فلان رعى في مراعي ومعاشب بني فلان دون أن نمحّص واقعية أو حتى الفرشة الجغرافية لهذه الاحداث ، والحقيقة فإنه ليس للبدو الرحّل مراعٍ ومعاشب دائمية بل كان البدوي في حركة مستمرة وهجرة دائمية للبحث عن أي موضع ربما نطلق عليه بلاده أو وطنه . الصحراء كلها وطنه ، وبلاده حيثما يهطل المطر فتعشوشب الارض فتتحول الى كلأ ومرعى .

أو قصة خيالية ودموية أخرى وقعت عن امرأة لبني فلان قد سبيت او أغتصبت من فرد أو افراد من قبيلة بني فلان ، والملاحظ أن هذه العادة ظلت باقية حتى هذه اللحظة من القرن الواحد والعشرين. وقصة ثالثة عن حرب دموية حدثت بسبب ظلم وتعسف ومصادرة لأموال تاجر غريب أوقعته عليه القبيلة المتغطرسة، القبيلة التي كانت جميعها أو بعض أفخاذها ، هي التي حازت مكانا مقدّسا قد أمر الله تعالى النبي إبراهيم ببنائه للناس أجمعين وليس لها وحدها ، وهي قريش في كل زمان، وفي كلّ زمان حتى زماننا هذا فهناك قريش المتعاقبة والمستثمرة للبيت العتيق .

فهشاشة الايام . في رواتها ورواياتهم . هي عبارة عن تقولات وقصص وشبه روايات شفوية لا قيمة توثيقية لهاوليس بالوسع اعتمادها في التدوين التاريخي لكونها شفوية ، فضلا عن أن همّها – أي همّ هذه الايام – المركزي هو أن معركة او مجموعة معارك يذهب ضحيتها الكثير من اولئك الضعفاء –

وقود أي حرب - ، أما راويتها فربما يكون حضريا أو بدويا ذا خيال جامح أوربما يكون أحد المتقاتلين على ذلك البعير الذي كان يتضور جوعا ويبحث عن مجرد أشواك وما أشبه ذلك . وهنا لا بدّ من ذكر راوية قصّاص كان مصدراً لرواية مبعث الرسول وهو عبيد بن عمير بن قتادة بن سعد بن عامر الليثي الذي كان من كبار التابعين من أهل مكة في زمانه وقد توفي سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م، وقد شهر أحد أبنائه بكونه يقلّب " الاسانيد من حيث لا يفهم من سوء حظه ، فلما فحش ذلك منه استحق مجانبته " (ينظر ابن حبّان البستي ، ابو حاتم ؛ المجروحين (تحقيق محمود إبراهيم زايد ، دار الوعي ، حلب ، دون تاريخ ، جـ٢ ص٢٥٧-٢٥٨) . وروايته عن المبعث تتجلى فيها ذلك الخيال الجامح أيضا، إذ ربما. وهو حقيق. كان هذا القاصّ أو القصّاص الذين رووا الروايات لا يعرفون القراءة والكتابة ، فتكون الطامّة الكبرى . حقيقة ان العرب معروفون بقابلياتهم الفذةّ في الحفظ عن ظهر قلب ، وصحيح أنهم كانوا يحفظون الشعر وينشدونه لكن الشعر لم يكن علما إنّما هو الهام اختصّ به نفر من الناس وان كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة ناهيك عن عدم معرفتهم لعلم التاريخ .

اذن ، التاريخ ليس يوما كما أنه ليس شعرا أو قصة، وهو كذلك ليس خبرا بالصيغة التي كان فيها الحكّام الطغاة يتبجحون بسماعهم للاخبار . فهذه الأخبار التي يتسلى بها حكّام بني أمية وحكّام بني العباس لم تكن أخبارا عن الممارسات الحضارية مثلا أو عن العلوم والمعرفة والثقافة ، بل بالاحرى إنها أخبار محددة بحدود عسكرية نابعة من اهتمام هؤلاء الحكّام بالحروب وبقتل معارضيهم من جهة ،ومحاولة منهم التعلق بقشّة تاريخية في مغازي الرسول لاثبات شرعية أبي سفيان وابنه وشرعية أبي جعفر وجدةّ الاعلى العباس .

فالايام والأخبار لا يماثلان علم التاريخ ، لذلك سبق ان قلنا بأن العرب من رواة كعروة والزهري ومن مؤرخين كالطبري لم يكونوا مؤرخين ممّن أسّس علم التاريخ . فالتاريخ عندهم هو تاريخ البلاطات الأموية والقصور العباسية.

فدراسة البروفسور جيسي روبنسون Chase F.Robinson هذه الموسوعة الموسومة بـ(البلاط والمجتمع الاسلامي وعلم التاريخ) ليست الاولى من نوعها في أسلوبها وعناصر محتوياتها وزمانها . ولعل الريادة في الكتابة عن علم التاريخ عند المسلمين تذهب الى البروفسور الالماني فرانز روزنثال الذي حصل على الدكتوراه من برلين سنة ١٩٣٥ ، وهاجر الى امريكا وعمل استاذ للغات السامية في كلية العبرية في ولاية أوهايو، ودرّس العبرية في جامعة بنسلفانيا وجامعة ييل . لذلك فهو الماني المولد أمريكي الجنسية وكتابه الذي ركّز فيه على مناهج البحث العلمية عند المسلمين.

The Technique and approach & Muslim Scholarship

قد ترجم أيضا الى اللغة العربية بعنوان (مناهج البحث عند المسلمين) . أمّا الكتاب المهم الذي استعرض تجارب العلماء المسلمين ومؤلفاتهم في علم التاريخ فهو الذي عنوانه بالإنجليزية A History of Muslim Historiography الذي طبع في بريل ليدن في الخمسينيات ، وطبعته الثانية في سنة ١٩٦٨ . وترجمه المرحوم الدكتور صالح أحمد العلي في سنة ١٩٦٣ (بغداد) تحت العنوان نفسه (علم التاريخ عند المسلمين) .

وللعلماء العرب اسهام في هذا المجال غير انه متأثر تأثيرا كبيرا بما ألفه البروفسور روزنثال ، فظهر في سنة ١٩٦٠ كتاب للمرحوم الدكتور عبد

العزيز الدوري بعنوان (بحث في نشأة علم التاريخ عند المسلمين) ويتضمن الموضوعات الآتية ونذكرها لتبيان مدى التأثر والتأثير :-

من صفحة ١٣-١٣٦ . تناول فيه البروفسور الدوري ما يأتي :

١- نشأة التاريخ عند العرب وتطوره خلال القرون الثلاثة الاولى (الأول والثاني والثالث للهجرة)
٢- مدرسة التاريخ في المدينة .
٣- بداية القصص التاريخية .
٤- مدرسة التاريخ في العراق .
٥- دوافع الكتابة التاريخية .

أما القسم الثاني، فهو نصوص مقتبسة عن : عروة بن الزبير ، الزهري ، موسى بن عقبة ثم الدينوري والطبري وهو يمثل القسم الاكبر حجما من الكتاب .

وكتاب البروفسور روبنسون على الرغم من حداثته موازنة بعمل البروفسور روزنثال في الخمسينيات، فإنه جدّد الدراسة بفقرات وآراء واستنتاجات قيّمة جداً ، فضلا عن أنه لم يقدّم نصوصا . بمعنى كتبا كالذي قدّمه روزنثال . وهناك فصل عن النصوص ولكنه لا يشابه ما قدّمه روزنثال . وحرص البروفسور روبنسون على أن تكون النصوص المعروضة ضمن خطة كتابه . وهي بالأحرى تحليل تاريخي ممتاز لتلك النصوص . تمثل خصائص التدوين التاريخي الإسلامي في الصيغة والأسلوب والفلسفة . لهذا فالكتاب ما زال يعدّ دراسة بكرا في الدراسات الاسلامية ، والمؤلف في كثير من المناسبات يوازن بين انتاجات ومناهج العلماء المسلمين بإنتاجات وعلماء اليهود والمسيحيين ، لا بل بعلماء اليونان والرومان والبيزنطيين أيضا .

لقد كان الدكتور روبنسون بارعا جداً في ترجمة النصوص العربية القرآنية والحديثية والتاريخية والأدبية معتمداً شعراً جاهلياً ونصوصا من مؤرخي العراق وبلاد الشام لإبن الاثير وابن العديم وكاتب صلاح الدين الاصفهاني وابن شداد وغيرهم كثر.

إن جيسي روبنسون Chase F.Robinson استاذ متميز في التاريخ الاسلامي ، ويعدّ أحد الخبراء البارزين من جيله بشأن التاريخ الYسلامي البكر ، واستاذ كرسي في جامعة كمبردج البريطانية في كلية الدراسات الشرقية . ومارس التدريس أولا في جامعة اكسفورد ١٩٩٣ . وحصل على منح عدّة من المؤسسات العلمية الآتية:

1- British Academy

2- Woodrow Wilson Foundation for Advanced Study at Princeton University-. The American Research Center in Egypt

وقد حصل على الدكتواره من جامعة هارفرد . وهو إلى حدًّ ما . كما يتضح من سيرة حياته المعلنة في الإنترنيت . يشغل منصب نائب رئيس مركز الدراسات العليا Senior Vice President of the Graduate Center (in the fall 2008)

وألف الكثير من المشاركات إن كانت كتبا أو دراسات ومن بينها الآتي:-

دراسته القيّمة (إمبراطورية ونخب بعد الفتوحات الاسلامية : تحول (او تحويل) شمالي بلاد ما بين النهرين Empire and Elites after the Muslim

Conquest:The Transformation of Northern Mesopotamia (Cambridge 2000)

ودراسته الاخرى (اعادة اعتبار ؛ مدينة اسلامية من العصر الوسيط ، توجه قائم على نظامين سامراء . المطبوع ٢٠٠١

A Medieval Islamic City reconsiders. An interdisciplinary approach to Samarra

وقد أسهم مع كل من البروفسور مايكل كوك Cook ومايكل فامرو بدراسات الجزء السادس من تاريخ كمبردج الحديث للاسلام : The New Cambridge History of Islam

ودراسات كثيرة أخرى .

ومع هذا وذاك ، فالعلماء الاوربيون من اوربا الوسطى بشكل خاص نالوا قصب السبق والريادة في الكتابة عن علم التاريخ وعن فلسفة التاريخ ، وقد خرّجت المانيا على وجه التحديد العديد من العلماء الذين وضعوا نظريات في فلسفة التاريخ وتفسير سيرة الأحداث التاريخية منذ القرن الثامن عشر، ولاسيما هيغل وكانت، وبعد ذلك كارل ماركس واوزفولد شبنجلر ، فالاول منهم قد القى محاضرات بعنوان فلسفة التاريخ تحوّلت فيما بعد الى كتاب شخّص فيه القانون الديالكتيكي (الجدل) في تطور الدول والحضارات بين الفكرة ونقيضها والمحصلة النهائية، وهكذا كانت مسيرة التاريخ العالمي،

كذلك فإن ديالكلتيك كارل ماركس ركزّ فيه على القانون نفسه ، النقيض ونقيض النقيض وتصارع المتناقضات في مسيرة تاريخ العالم وحضارته . ثم كانت الثورة في فلسفة التاريخ حينما فجّر شبنجلر اول مرة قنبلة مذهلة عن انهيار حضارة من الحضارات الخمسة المتبقية بحسب نظريته تلك التي كانت وما زالت تتبجح في رقيها الدائمي وهي حضارته الغربية في كتابه تدهور الغرب . وهكذا فإنه أثّر في هذه النظرية البارعة على ما بعده من العلماء فطبقها فيلسوف التاريخ البريطاني ارنولد توينبي على التاريخ الاوربي والحضارة الغربية وحضارات كثيرة قديمة جداً . ولأول مرة يضع البروفسور آرنولد توينبي نصب عينيه تشخيص المعالم الواقعية التي تنتظم موقع الحضارة الإسلامية في ما هو دائر حركة تدهور الحضارات. كان تأثير هؤلاء العلماء العلمي والتاريخي كبيرا على جميع العلماء والمفكرين والباحثين، وبضمنهم العلماء العرب ، فالى حدًّ الآن، نجد الكثير من باحثينا العرب . ناهيك عن مناهج فلسفة التاريخ في المؤسسات الأكاديمية . يعديون ويكررون ويقلدون أحيانا ويحاججون بدرجة اقل هذه النظريات في عرضها الدور الذي تؤديه الحضارة الإسلامية إن كان هناك أي دور على الإطلاق، لكونه قد فارق الحياة منذ القرن الثالث عشر للميلاد السابع الهجري.

مع ذلك فإن ذلك الاتجاه لم يكن مقصورا على علم التاريخ فحسب إنه علم خاص بالتاريخ العام الشامل وبتاريخ الدول والحضارات عموما ، بالفلسفة التي سجلها أولا فيلسوف ابن خلدون، فلسفة الولادة والنشوء والنضوج ثم التدهور .

جنبا الى جنب مع هذا الإنتاج الثرّ لعلماء وفلاسفة أوربا الوسطى ، ألمانيا أولا ثم بريطانيا ، فقد كان هناك علماء أوربيون يبحثون عن تفسير

لتساؤل جديّ ألا وهو: هل التاريخ علم أم فن أم ماذا ؟ فهذه دراسات في علم التاريخ ، وكذلك فإنها ظهرت منذ بداية القرن التاسع عشر كدراسة درويسن الدانمركي S.Droysen الموسومة خطط التاريخ . Grundris der Historik كذلك الف المؤرخ فريمان E.A.Freeman كتابا عنوانه مناهج كتابة التاريخ Methods of Historical Studies (طرائق الدراسات التاريخية) وطبع سنة ١٨٩٢ . وألف برنهايم E.Bernheim في سنة ١٨٨٩ كتابا باللغة الالمانية بعنوان (الطرق التاريخية)

Lehr buch der Historischen Methode

ثم درس كرمب C.S. Crump التاريخ في كتاب طبع سنة ١٩١٩ بعنوان (منطق التاريخ) The Logic of History ودرس ماير E.Meyer باللغة الألمانية الموضوع نفسه في كتاب طبع سنة ١٩٠٢ بعنوان (طرق التاريخ وعلميته) . ودرس كل من لانجلوا C.Y.Langlois وسينسيبوس C.Seignobos الموضوع في كتاب طبع سنة ١٨٩٨ باللغة الفرنسية بعنوان (المدخل الى الدراسات التاريخية)

Introduction aux Etudes Historiques وألّف المؤرخ الالماني هيرنشو F. Hearnshaw التاريخ بعنوان (علم التاريخ) في ١٩٢٠ . ويظل الباب مفتوحا أمام علماء الغرب ليسهموا في الكتابة عن هذا العلم الذي لا تنتهي أبعاده وواقعيته وطرق ومناهج دراسته وعلامات الاستفهام عن كينونته.

وهنا أيضا تبرز أهمية دراسات فرانز روزنثال وجيسي روبنسون بخصوص علم التاريخ أو بخصوص التدوين التاريخي الإسلامي .

كيف الوصول الى الموضوعية التاريخية ؟

هل ما زال ذلك الأمر يعدّ أملا وطموحا ؟

لطالما ساد اعتقاد بين أوساط المثقفين في أوربا والشرق مفاده :الحوادث التاريخية إنْ هي إلا حوادث قد وقعت صدفة وبشكل مفاجئ . وإنها بنسيجها الداخلي ما هي إلا أحداث عبثية كاشفة عن الفوضى التي تعمّ الكون، غير أن الدراسات الحداثوية في فلسفة التاريخ قد انطلقت من الضدّ تماما ، فالفلاسفة المؤرخون والفلاسفة الوضعيون تحركوا بسرعة الى الأمام يداً بيد مع الفلاسفة ليجدوا أن هذه الأحداث. إذا ما نظرنا إليها نظرة تجزيئية فهي أحداث عبثية وفوضوية إذا لم تدوّن أوغير موثوقة وصدقيتها مترجحة بين النقد والإيجاب إذا ما دونت وسجّلت. تنتظم مع بعضها البعض فتكون محصلتها وحدة موضوعية حيّة ومتحركة باتجاهات منهم من رأى أنها تتجه نحو الأمام . المستقبل . لتحقق المرام الذي صنع العالم والكون من أجله. ومنهم من وضع قوانين مادية ثابتة ، شأنها شأن العلوم الرياضية والفيزياوية دون التجريبية المختبرية ، لمجموع حوادث التاريخ الكلية وفسروها تفسيراً مادياً مستنداً الى مبدأ صراع المتناقضات والنفي ونفي النفي أو تفسيراً تعاقبياً دورياً وليس دائرياً، أو تفسيراً يهدف الى تحقيق الفيض الإلهي في عملية جدلية غير ماركسية وما إلى ذلك من نظريات وقوانين أدخلت الروح والحياة في جسم الحدث الماضوي الذي يتّصف دوما بالجمود إن كان جريئاً. وتلك الأيام نداولها بين الناس تشير الى أن العناية الإلهية قد جعلت تلك الأيام

(الحقب) متحركة لا تشابه حركة الدولاب حول نفسه إنما كل حقبة تتلو الأخرى بالمداولة نحو الأرقى .

بهذه المعارف الفلسفية والفاعلة ينبغي أن نفهم التاريخ ليس مجرد روايات مبعثرة قد أثبتت الدلائل والدراسات على عدم صدقية الكثير منها؛ وذلك لعدم صدقية وموثوقية رواتها ونقلتها الشفويين .

إن عنوان هذا المدخل يلبي مطلبا فلسفيا من الأجدر تمثيله في علم التاريخ وهو في الواقع يتضمن توليفة معقدة ومركبة تركيباً نسبياً والى حدّما متناقضاً . فأما بالنسبة الى أن التوليفة معقدة فذلك لأن الموضوعية هي عنصر من عناصر الفلسفة ولاسيما فلسفة التاريخ. وهناك العديد من الأمور المتقاطعة التي لا تلتقي بين الفلسفة والتاريخ لأن الفلسفة علم شمولي وفي أحيان كثيرة مطلق، وعلى هذا الاساس فإننا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار حقبا من التاريخ . وليكن التاريخ القديم . فإنه يعتمد مصادر مادية، وبذلك فإن الموضوعية في هذه الدراسات التاريخية القديمة والأثرية تأخذ بالتوسع إلا اللّهم في مسألة قراءة الخطوط المسمارية والاختلاف في الأسماء الواردة والمحفورة على النصب التذكارية وعلى الالواح وعلى غيرها من مواد كتابية . ولكن النسبية تظهر بشكل واضح في التاريخ الإسلامي وفي التاريخ الحديث والمعاصر؛ وذلك يرجع إلى نوعية المصادر التي يعتمدها مؤرخو العصر الاسلامي والعصر الحديث . إن هذه الحقيقة النسبية قد فسحت المجال إلى تعدد الآراء والتفسيرات فهناك آراء متعارضة جداً عن جدوى وقيمة التاريخ بصورة عامة فمثلاً قول (نابليون بونابرت) : التاريخ إن هو إلا أسطورة متفق عليها (History is a fable agreed upon) كما أن الشاعر النجفي قدّم وصفاً آخر إذ يقول فيه :

أحرق التاريخ إلا ما حوى من حكم   إنما التاريخ رمز لاختلاف الأمم

ينبش الأحقاد في ماض سحيق مظلم   ويثير الحرب بالذكرى لمسفوك الدم

وزاد الطين بلّة الرصافي حينما قال :

فما كتب التاريخ في كل ما حوت   لقرائها إلا حديـث ملفق

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنـا   فكيف بأمر الغابرين نصدّق

هذه المصداقية الحقيقية هي التي حفزتنا الى إثارة مجموعة من التساؤلات هي : هل تبقى الكتابة التاريخية ويبقى النظر الى التاريخ بهذا المنظار اللامصداقي والمتخوف ؟. أمامي رأي وهو للدكتور هشام جعيط وهو مؤرخ تونسي بدأ مسيرته التاريخية مع العصر العباسي، ومع مدينة الكوفة، وهو متأثر بالاستشراق الفرنسي وإن كتبه تنطق عن تفسير حداثوي قريب جدا من تفسير المستشرقين بما نسميه بالحداثوية والعقلانية ضدّاً بمدرسة التاريخ التقليدية . وربما نجد بعض التفسيرات حول أزمة الثقافة الإسلامية في كتابه الذي صدر عام ١٩٩٩ وتوجه فيه توجّها غير مألوف بين الدراسات التاريخية الإسلامية ؛ إذ أشار الى أزمة الكتابة التاريخية قائلاً: إن على المؤرخين العرب والمفكرين العرب أن يحدثوا تحولاً في تفكيرهم مثلاً ، وحسب ما يتصور الدكتور جعيط، وذلك عن طريق الدخول في تركيبة سلمية داخلية وخارجية . وهذا في الحقيقة عند تطبيقه على الكتابة التاريخية غير أحادية التفسير نجد من الضروري أن نهيئ مداخلات مع النص الداخلي ومع النص الأجنبي المعروض .

إن التدوين التاريخي (والكتابة التاريخية) . في الغالب . قد اتخذت نمطاً محدداً أو مجموعة أنماط محددة في الطريقة والنهج منذ القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي- أي منذ زمن العباسيين- حتى وقتنا الراهن . إنه منهج يمكن وصفه بأنه منهج استند إلى رواية تاريخية تمثل زاوية واحدة من الحدث التاريخي الحقيقي، ألا وهي الرواية الأموية المتمثلة برائدها عروة بن الزبير وأبن شهاب الزهري وصالح بن كيسان وغيرهم من رواة المدينة ، وبالرواية العباسية المتمثلة برواية الجاحظ والمعتزلة وبالرواية الكوفية التي حرّفها العباسيون ورواية البلاذري وغيرهم .

وقد ظلّت هذه الرؤية والرواية راسخة حتى أضحت وكأنها من الثوابت التاريخية سواء برموزها التي تمحورت حولها الأحداث التاريخية وأطّرت في مدحها وتعظيمها الأمويين والعباسيين من جهة وقدحت وذمت بل غيّبت الآخر من الفرق والمذاهب والأديان من الجهة الثانية . فإن الاهتمام بصياغة أو تحديث منهج بحثي جديد ، يعنى أن يصار الى تذليل المشاكل التاريخية التي تخضع للتدقيق والتحقيق التاريخي، وإن تذليل هذه المشاكل يمكن بلوغه باتباع أحد الأساليب الآتية :

الأسلوب الأول: الحصول على التواتر في النقل التاريخي، فإذا اتفق كلام عدد كثير من الناقلين على وصف حادثة معينة ، فإنّ هذا يكون كافياً من جهة على الشك فيه والريبة منه؛ لأن التواتر هاهنا قد يعني التقليد والتكرار أو حصيلة للتعصب العائلي والتعصب العشائري كالذي وجدنا في دراستنا (نقد الرواية التاريخية:- عصر الرسالة أنموذجا) في المدرسة الزبيرية واحتكارها

لرواية السيرة النبوية .ومن جهة أخرى قد يكون التواتر في النقل التاريخي كافيا لإثباته تاريخياً ، بل القطع به في كثير من الأحيان .

فلو اتفقت الروايات على بعض خصائص الحادثة ، كان ذلك ثابتاً بالتواتر، مع وجود احتمالية ضعفه وعدم صدقيته. ولو اختلفوا في كل الخصائص مع اتفاقهم على أصل الحادثة ، كان أصل حدوثها متواتراً فقط.

الأسلوب الثاني: إننا عندما لم ننجح في الحصول على مبدأ التواتر المنتج للعلم، فبالإمكان الحصول على الاطمئنان والظن الراجح بحصول الحادثة بعد الموازة والتحليل ، وهو معنى الاستفاضة في النقل ؛فيما إذا اتفق أكثر المؤرخين أو جملة منهم على شيء معين ، مع سكوت الباقين عن التعرض إليه أو نفيه وهاهنا فنحن بحاجة الى التريث في القبول الجازم .

وهذان الأسلوبان ، يدفعان . فيما يتحققان فيه . جميع الشبهات الثلاثة التي أوردناها . إذ بعد حصول العلم أو الإطمئنان بوقوع الحادثة، لا يضرّ أن يكون الناقل لها متحيزاً لمذهب أو لمصلحة أو أن ملاحظته لم تكن منظمة ولم تكن موثوقة.

إذن علينا أن نكون مطمئنين . الى درجة كبيرة . على سلامة المعلومة التاريخية لاسيما تلك الملفتة والمثيرة للجدل من صدقية راويتها، بعد التأكد والإطلاع على خصوصياته الشخصية ،وفيما إذا كان ثقة مأمونا وموثوقا وموثقا من المؤلفات الرجالية من الكذب والدسّ والخداع، وبعد تحليل الروايات المختلفة ولاسيما روايات علم التجريح والتعديل من المذاهب والملل كافة. عندئذ بالإمكان الإطمئنان الى كونه لا يتعمد الكذب في نقله التاريخي.

ثانيهما: الإطمئنان بوجود الروح العلمية الموضوعية في هذا المؤرخ أو الراوية نفسه ،وذلك أن الإنسان بعد تمرسه في البحث العلمي، وتعوده على الاسلوب العلمي، عندها يكون مستعدا لقبول الرأي الآخر المخالف لرأيه فتتحقّق أحد أهم العناصر في الموضوعية العلمية والتجرد عن الأنانية البحثية وعن التحزب لطائفة أو ملّة جهد الإمكان . أو في الأقل، لا يزوّر خبراً مكذوبا أو شفوياً منطلقا من انتمائه المذهبي أو نابعا من تلبية مصلحته ومصلحة فئته وعشيرته وعائلته أو بأي دافع شخصي آخر .

بهذه الأساليب وغيرها تلك التي تمليه ظروف من زمان ومكان وواقع اجتماعي واقتصادي وفكري ومذهبي على الباحث ، أي باحث في التاريخ بصورة خاصة، بإمكان الباحث أن يدفع الكثير من الشبهات المتعلقة بعملية النقل التاريخي، أو لنقل بإن اتباعها سيقود الى التقليل من تأثير العوامل الشخصية والعائلية والقبلية جهد الإمكان . فاحتمال التحيز والتعصب قد يرتفع قليلا أو كثيرا، مع تعدّد النقل وتوافر القرائن الخارجية على صدقه، كما أن احتمال الكذب بدافع شخصي آخر، يكون مرتفعاً للسبب نفسه.

كما أننا بعد تأكدنا يقيناً من مصداقية الرواية الساخنة والمثيرة فسوف لن نهتمّ بما يلحق ذلك من ملاحظات.

فالراوية الذي يعيش الحادثة ويشهدها فيندمج فيها إلى حدٍ كبير، وهو أمر سيؤدي الى رسوخها في ذهنه وتعمقها في ذاكرته، مما يفتح للمؤرخ فرصة كبيرة للاستفادةمن هذه المعاصرة والمشاهدة. ويندرج كأمثلة لذلك : حوادث الحروب والمناصب السياسية او الدينية، والأمور المالية المهمة، سواء منها الخاصة أو العامة، والمعجزات، والوساطات بين الدول أو بين أهل النفوذ، وغير ذلك .

على أننا لا نعدم الملاحظة المنظمة بالنسبة إلى جملة من المؤرخين، فإن المؤرخ، وإن كان يعرض للحوادث السابقة على عصره، بطريق الرواية، إلا أنه بالنسبة إلى سني حياته، ولاسيما بعد عزمه على تأليف كتابه التاريخي، لا شك في أنه سيلاحظ حوادث عصره بالملاحظة المنظمة الناشئة من تعمد التسجيل وعمق التفكير. وهذا يتوفر عادةً في اواخر جوامع التاريخ، كالطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم .

وعلى أية حال، فالتعرض لهذه المشكلات والصعوبات في الكتابة التاريخية وحلّها والتغلب عليها يعدّ اسلوبا متطورا لصناعة كتابة تاريخية موضوعية. إنها منهجية نطمح إلى أن يتفق عليه الأكاديمي المختص بالتاريخ والحضارة والباحث المهتم بتلك الحقول ورجل الدين من هذا المذهب أو ذاك أو من هذا المذهب الفلسفي والمعرفي أو ذاك. هذا في الواقع مطمح نتطلع دائما الى تطبيقه في منهجية لا تكرر الخطأ التاريخي للرواية. ونتطلع أن تكون منهجية تعتمد الموضوعية كفلسفة في السرد التاريخي دون إعادة أو تكرار نظريات التاريخ المألوفة. والتخلص من كون التاريخ هو تاريخ حروب أو تاريخ خلفاء وملوك .

فبوساطة تحديث هذا النهج المعرفي وغيره من مفاصل مكوناته التاريخية نستطيع التوصل إلى فهم أمثل للتاريخ وكيفية كتابته والبحث فيه . فمنذ عقود خلت وربما منذ قرون خلت ظلت الكتابة التاريخية- التاريخ الإسلامي ولاسيما- خاضعة الى توجيهات السلطة القائمة على التفسير الأحادي والرؤية الأحادية حتى أن العديد من التفسيرات الخاطئة تاريخياً والكثير من المرويات الزائفة وغير الصحيحة سنداً ومتناً أضحت وكأنها ثابتة لا يرقى إليها الشك يتناقلها أطفالنا وكبارنا دونما تفكير في مناهج التدريس

بدءا من مرحلة الابتدائية الى المرحلة الجامعية. وقد لا أكون مبالغاً إذا ما قلت أنها وصلت إلى مرحلة الدراسات العليا سواء في اختيار مواضوعات الرسائل الجامعية أو في تحديد عنوانات الاطاريح أو في منهج البحث التاريخي الذي يساير ويمالىء ميول الأستاذ المشرف .

رأي مقبول ذاك الذي يتحدث عن التطور الواسع الذي شهده منهج البحث العلمي في عصر النهضة العربية الإسلامية في القرن العاشر الميلادي وعصر النهضة الأوربية في القرن السادس عشر للميلاد، وبأن هناك وشائج من التعاون ومن التأثر والتأثير، قوية أحياناً وضعيفة أحياناً أخر، بين العلوم كافة، وفي مجال فلسفة التاريخ بين العلوم التي اصطلح على تسميتها بالعلوم الإنسانية. فعلماء تقسيم العلوم، اليونان أو العرب المسلمون يتباينون تقريباً في توثيق هذه المعلومة مع أنها قائمة . فمنهم من وضع الفلسفة في مقدمة هذه العلوم على أنها من العلوم الأساس؛ ومنهم من نظر الى الفلسفة كأحد العلوم النظرية. وليس هناك من تمييز بين الطبيعيات والرياضيات والالهيات...الخ.

فقد وقف ابن خلدون موقفاً خاصاً في مسألة تقسيم العلوم إذ صنفها ببساطة إلى تصنيفين: علوم عقلية وحددّها بأنها علوم الفلسفة والحكمة، ويقف علم المنطق على رأس هذه المجموعة من العلوم ، ثم يأتي علم الطبيعة والعلم الإلهي وعلم المقادير، وتشتمل على علم الهندسة وعلم الارثماطيقي وعلم الموسيقى وعلم الهيأة، فهذه حسب رأيه أصول العلوم الفلسفية وهي بدورها تتفرع إلى فروع . أما الصنف الثاني فوصفه بالعلوم النقلية الوضعية وجميعها تستند إلى الخبر عن الواقع الشرعي الذي لا مجال فيه للعقل إلا في إلحاق الفروع من المسائل بالأصول . وأصل هذه العلوم كلها الشرعيات من الكتاب والسنة .

فالمدارس على اختلاف ضروبها وأصولها يونانية كانت أم رومانية أم إسلامية، قد رسمت خطوطاً تعبر بوضوح عن استقلالية الفلسفة في الجدولة المفصلة لمجموعة العلوم العقلية أو العلوم العليا أو ما شئنا توصيفه، في حين لانعثر على أية شخصية مستقلة للتاريخ في حدود العنصر الذي يخضع للمقارنة. فالعلوم النقلية أو العلوم السفلى عند أفلاطون لا تمسّ من قريب أو بعيد جوهر التاريخ ولا تقترب حتى من حافاته الزمنية . فما علّة ذلك؟ ليس صحيحاً بالمرة القول بأن التاريخ ربما كان يفهم منه علم الحديث ضمن العلوم النقلية أو علم التصوف أو علم الأدب (بمعنى الفن)؛ لأن علم الأدب على وفق التصنيف الإسلامي كان يتضمن أيام العرب والأنساب والأخبار العامة، أو أن هذه العلوم الفرعية، كلّها او أيّاً منها، بإمكانه أن يكون بديلاً أو في الأقل أن يحلّ محل التاريخ لحلّ هذه الاشكالي.

أقصد بهذا الإجمال أن أيّاً من علماء تقسيم المعرفة الإنسانية اليونان أو العرب المسلمين قد انتبه إلى أن يحدد موقعاً للتاريخ، وهو أمر أثار فعلاً إشكالية في ما إذا كان التاريخ يتمتع هو الآخر بالاستقلالية أم أنه فن فرعي من فروع العلوم النقلية، وهذا ما يفهم من الوصفات التي حملتها عناوين مؤلفات شمس الدين السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، والشماريخ في علم التاريخ، ومؤلفات محي الدين محمد ابن سليمان الكافيجي (المختصر في علم التاريخ)، أم أن العلماء أصلاً لم يكونوا إلى هذه الدرجة من الضغينة على التاريخ بل لم تثر عندهم هذه المسألة أطلاقاً، ذلك لأن التاريخ هو علم يتداخل مع الصنفين (النقلية والعقلية) أو مع الأوصاف الأخرى العليا والوسطى والسفلى . فهو الوعاء الذي يحتضن بله وبحتوي على جميع العلوم . لهذا لعله من الجدير القول بإنّ للفلسفة تاريخ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الطب والهندسة والنحو والأدب والتصوف وغير ذلك من التطبيقات

الجزئية فلكلّ هذه العلوم تاريخ بما نعني به الجذور أوالأصول التاريخية . ففي هذا الجانب يقول ابن خلدون :" وهذا الفن- التاريخ- الذي لاح لنا النظر فيه نجد معه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع "، لذلك فهو " في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق . فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق" . ولعل هذا التفسير هو الأكثر صواباً أو قبولاً وإلا كيف نفسر غياب التاريخ من نظرية تقسيم المعرفة الإنسانية ، اللّهم إلا إذا افترضنا أن اليونان والعرب المسلمين جميعاً لم يعترفوا بالتاريخ علماً إطلاقا وهذا أمر ممكن أيضا ؟

ومع هذا التعميم بأن هناك وشائج قوية بين العلوم، وهناك ثمة أمور تفرض نفسها في العلاقة بين المصطلحين غير المتجانسين : الفلسفة والتاريخ، اللذين جمعا سوية مع الاختلاف الكائن فيهما من ناحية الجوهر والأداة والواقعية . وكثير من طلبتنا الجامعيين حتى هذه الوهلة لا يفرّق بين أن تكون هذه التوليفة (فلسفة التاريخ) فلسفة بحتة أو فلسفة لمفردها، ام يقصد منها تفلسف التاريخ، وهم على حق تماماً. فالباحث إذا أراد أن يفلسف التاريخ سيكون شاء أم أبى حيال قضايا فلسفية بحتة لا تخرج عن الدائرة الضيقة الواسعة للتقسيم الكلاسيكي للفلسفة، أعني مثالية أو مادية . فتفسير جورج ولهلم فريدريك هيجل . (المتوفى عام ١٨٣١م) . للتاريخ نابع بلحمته وسداه من فلسفته للكون المطلق، وقد صنّفت نظريته في الوجود بأنها مثالية شأنها شأن من سبقه من الفلاسفة الألمان الذين طبقوا فلسفاتهم الكونية على التاريخ كهردر وشلنج . في المقابل فإن نظرية كارل ماركس وانجلز في المادية التاريخية نابعة بالأساس من المادية الديالكتيكية للكون...وهكذا الحال ، فإن

النظريتين هما من بين أهم نظريات فلسفة التاريخ، وهما أساساً من الفلسفة لا من التاريخ.

في الواقع أننا أمام مصطلح متناقض في نسيجه الداخلي، إذ يصعب كثيراً الجمع بينهما . فالفلسفة هي أساس العلوم العقلية في منهجها المنطقي وفي رؤيتها الميتافيزيقية في الزمان والمكان وهي بذلك بعيدة كل البعد عن المركزية – في أحيان كثيرة الضيقة جداً- التي يدور حولها وفي أعماقها مسار الحدث التاريخي . والتاريخ حدث أو مجموعة أحداث بشكلها الفردي أو العام قد وقعت فعلاً، وأداتها الفاعلة الإنسان في زمان ومكان محدودين وهو الماضي في كل شيء . فبين الميتافيزيقي والحدث الواقع فعلاً بون شاسع، فلكل منهما وجهة وواقعية خاصة .

من الذي افترض وجود هذا المصطلح أو الجمع بين القطبين ؟ إنها أوربا عامة وخلال عصر نهضتها بشكل خاص، إذ ليس هناك تداول لهذا المصطلح بين العلماء العرب المسلمين . إنهم كانوا يستعملون الفلسفة والمنطق لكنهم لم يستعملوا فلسفة التاريخ . حتى بالنسبة إلى أولئك المؤرخين الذين دافعوا عن عملية التاريخ كابن خلدون والسخاوي والكافيجي ، لم يذكروا هذا المصطلح. لقد ظهر أولاً في فرنسا على لسان الكاتب المعروف فولتير المتوفى عام ١٧٧٨م ثم تطور أكثر ليكون عنواناً لمحاضرات ألقاها هيجل على طلبة جامعة برلين وهي محاضرات لها صلة وثيقة بالفلسفة أولاً ونشرت بعد وفاته في سلسلة محاضرات ، في فلسفة الدين، فلسفة الجمال وفي فلسفة التاريخ .

لقد اتّخذ مصطلح فلسفة التاريخ عند هيجل وجهة أكثر وضوحاً بالنسبة الى المنهج والهدف . فهو يعني قانوناً للتقدم يسير على وفقه التاريخ

العلمي . فمن يتأمل سير التاريخ وتقدمه يجده خاضعاً لعقل عام . فما تاريخ العالم إلا عملية عقلية وإن روح العالم هي القوة الرائدة لتقدمه ، وأن عباقرة الأمم وأبطالها هم الأدوات التي تتخذها تلك الروح بهدف الوصول الى مراميها . وبمعنى تاريخي ، فإن فلسفة التاريخ عنده دراسة التاريخ لا بوصفه مجرد حقائق نتثبت من وقوعها إنما التاريخ الذي يفهم عن طريق إدراك الأسباب التي من أجلها حدثت تلك الحقائق في الصورة التي حدثت فيها .

أيّ من هذين العلمين أحتاج احدهما للآخر ؟ وبمعنى أدق : هل هناك عوامل ضاغطة دفعت علماء ذلك العصر أن يجدّوا ويجتهدوا للجمع بين الحادث أوالواقع، وبين المطلق أو الميتافيزيقيا ؟ وإن كان الأمر كذلك ، فهل كان الفلاسفة هم المبادرون إلى عملية التوليف هذه أم إلى ما أحدثته نظرية فرانسيس بيكون حوالي نهاية القرن السادس عشر للميلاد ورينيه ديكارت في منتصف القرن السابع عشر في المعرفة الإنسانية من ضجّة علمية وهو موضوع – حسبما يبدو- كان محلّ جدال ومناقشة في الوسط الفكري في فرنسا وعموم أوربا . فاحتلّت الفلسفة أو علوم الفيزياء المكانة الأولى المتميزة من بقية العلوم أو الفنون التي تشتمل عليها المعرفة الإنسانية إبان يقظة الفكر وتحرره من سيطرة الأوهام الكنسية التي كانت سائدة . بينما نظر إلى التاريخ نظرة خاصة إذ ظلّ قابعاً في زاوية هامشية إن لم تكن عدمية، إذا ما وقفنا بدقة على ما تنطوي عليه كلمة الذاكرة (Memoire) التي صاغها ديكارت ، فالتاريخ ذاكرة غير قابلة للتصديق بل غير موثوقة لانعدام الوضوح والبداهة والدقة في نتائج أحداثه . وكان المؤرخون التقليديون الروّاد قبل أن يتصدى بيكون وديكارت إلى تصنيف المعرفة الإنسانية مندمجين باختصاصهم وغير متبرمين منه . إنهم كانوا واثقين بمصداقيته كل

الوثوق ، ومصدقين لما تم تأليفه حتى ذلك الوقت بدءاً بكتابات أبي التاريخ هيرودتس وانتهاءً بكتابات حقبة الكنيسة والعصور الوسطى الأوربية .

ومن الطبيعي أن هذه المصداقية لا تعدم وجود منهج بحثي، أي أنهم لم يكونوا مجرد نقلة لروايات التاريخ دون نقدٍ أو تمحيص . وحتى هيرودتس أو ثيوسيد في القرن الخامس قبل الميلاد كانا لا يقبلان بالرواية كيفما اتفق، فهما ارادا بالتاريخ (Istoria) معنى أنه البحث والاستقصاء . لكن علماء عصر النهضة الاوربية، عصر التقدم العلمي والتكنولوجي، وإرهاصات الثورة الصناعية عندما صارت هذه العلوم مطلباً أساساً لتوسيع عناصر هذه الثورة من جهة ،وبعد ظهور طلائع النتائج الباهرة لطريقة البحث الاستقرائي البيكوني في البحث والتأليف ، وبعد أن أصبحت مسائل الوجود وواجد الوجود ونشأة الخلق من العناصر الفكرية التي استحوذت على المناضرات بين علماء القرنين السادس عشر والسابع عشر وما بعده من أمثال توماس هوبز وجان جاك روسو وسبينوزا وليبنتز وجون لوك وبيركلي وهيوم وفختة وشلنج وهيجل وسبنسر. وفي خضم هذه التحولات الفكرية والعلمية الواعدة والمهمة لعجلة التقدم المادي لم يكن هنالك ثمة اهتمام مشابه بالتاريخ وأحداثه. إنه يتكون من مجرد أحداث فردية سبق حدوثها . أللهم إلا في حالة إعادة النظر في منهج كتابته ليرقى الى مستوى التصديق بأحداثه وجعله أكثر فائدة وأكثر نفعاً في مجتمع التطورات العلمية السريعة .

وليس من الغرابة أن نتصور حالة المؤرخين التي لا يحسدون عليها في أوربا وقتذاك وهم يرون أن الشيء الذي أفنوا أعمارهم في تعلمه والتخصص به لا جدوى منه حسب أنصار تقسيم المعرفة الانسانية وهم يوزعون الحقائب العلمية على مجموعة محددة من تكوينات المعرفة الإنسانية المجزية .

كيف لهم أن يدخلوا حلبة الصراع الفكري ؟ أيقبلون إهانة ديكارت، أم يقبلون تحديه للتاريخ فيفرطون في زيلوتيتهم- حسب تعبير توينبي بخصوص المتزمتين- وانطوائهم وعزلتهم الفكرية التي لا معنى لها ، أم يتقدمون في رؤاهم ويتسابقوا مع المتسابقين ويتشكلون مع المتشكلين ويفرطون في تبعيتهم لهذا العلم او ذاك ممن حصل على مركزه في دائرة المعرفة الانسانية وممن احتلّ مرتبة (الأس) في المعرفة الانسانية؟ أم- وهو أضعف الايمان- يعتمدون وسطاً بين هذين الاتجاهين المتطرفين؟

فالمؤرخون عموماً، ولاسيما التقليديون، لم ينجرفوا وراء تيار التشكيليين في عصر النهضة . والأمر معقول، إذ من الصعب جداً على التاريخ أن يتحول تكنولوجيا كما أنه ليس بالإمكان جعله فيزياء ولا حتى فلسفة . صحيح أن التكنولوجيا تاريخاً وللفلسفة والكيمياء تاريخاً لكن من جهة المناظرة الواقعية فإن من المستحيل أن يكون كيمياء في المنهج أو في البداهة والوضوح والدقة في المحصلة .

ويبدو أن الاغلبية منهم قد عزف عن الدخول في جدلية المعرفة وتوزيع مناصب حقولها المعرفية بين العلوم، والتزموا موقفاً تقليدياً . إن التاريخ علم لا أقل ولا أكثر! ومع هذا فإن عجلة التقدم البحثي آخذة بالانطلاق عبر حركة الاستنارة الأوربية غير عابئة بموقف المؤرخين، حتى بدا للرومانسيين وكأنهم يتراجعون ويتخلفون عن الركب كثيراً .

في الوقت ذاته، فإن انتقادات ديكارت لمصداقية التاريخ ولعلميته ظلت هي الحاسمة في الجدال الذي انشغل به المؤرخون . لا بد إذن من موقف وسط في خضم هذه العملية الجدلية غير المنتهية . وبالفعل جاء الحل الوسط من أيطاليا في حوالي العقود الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي إذ أبدى

جيوفاني باتيستا فيكو (المتوفى عام ١٧٤٤م وهو متأثر بالفلسفة والقانون معاً) موقفاً لوضع اسس جديدة في المناظرة مع الفلسفة الديكارتية التي كانت هي المنتصرة في الساحة الفكرية في نابولي وذلك في كتاب بعنوان (العلم الجديد).

(Scienza Nuovo) وترجم الى الانكليزية بعنوان (The new science of Ggiav Battista Vico) ومركز جاذبية جداله في مسألة الوضوح والبداهة كعناصر أساس في التمييز بين المعرف الانسانية وبين ما هو علم أو غير علم إنطلاقاً من انتقادات ديكارت وهو ما قاده إلى وضع تفسير له مواصفات القانون حيث الوضوح والبداهة ودقة النتائج. وأغلب الظن أن فيكو قد تأثر كثيراً في نظريته التعاقبية ذات المراحل الثلاث بنظرية ابن خلدون، فجميع دلائل المقارنة بين النظريتين تؤكد هذا الاتجاه.

ومنذ هذه المحاولة التي لعلها كانت جديّة؛ . إذ حققت نجاحاً في تحريك عجلة التاريخ التقليدية نحو الأمام. بدأت المحفزات لدخول عصر جديد في توضيح العوامل الخفية في مسيرة الأحداث التاريخية، وهي أحداث فردية- دون شك – لكن عدداً من العلماء، ممن تأثر بالمنهج الجدلي الفلسفي أمثال ڤيكو وهيجل وغيرهما، لم يكتفوا بهذا الفهم المبتور للحدث التاريخي بأنه فردي منعزل عن بقية الأحداث، إذن فهو في هذه الحالة يغدو غير ذي جدوى فعلاً. إنه فردي ومنعزل بسبب الخطأ الشائع عند المؤرخين ولا بد من أن يطبق على التاريخ منهج الشمولية والكليّة لأحداث التاريخ العالمي. عندئذٍ أخذ الفلاسفة زمام المبادرة في عرض هذه العناصر الفلسفية في الشمول والعليّة والتحليل لتكون منهجاً لدفع حركة التاريخ ليصبح له جدوى وفاعلية.

وهكذا صارت الحاجة ماسة إلى أن تنسب الفلسفة بمنهجها الجدلي وإطارها الكلي الشامل إلى التاريخ لا باحداثه الفردية إنما بالتاريخ من حيث عالميته وشموليته . واستثمر هذا المصطلح استثماراً قسرياً بمرور الوقت لإسباغ صفة العلمية على التاريخ وتحديد هوية أهدافه ووضوح نتائجه بفرض قوانين متباينة بتباين أهداف هذه الفلسفة الجاهزة أو تلك . وانفلت زمام التاريخ وتحزبت إنسانيته وروحه فصار غائباً مثالياً عند هيجل، والى حدٍ ما عندما كانت، وصار تقدمياً إلى ما لانهاية عند فولتير وكوندورسيه، وصار مادياً يهدف الى تحقيق طموح البروليتاريا في صراعها ضد الرأسمالية في نظر كارل ماركس، وصار قدرياً محكوماً بالعناية الإلهية عند ڤيكو . وهكذا كان المؤرخون التقليديون في عصر النهضة الحديثة هم السبب وراء هذه المعضلة، فهم الذين هيأوا الأرضية للعلماء، الذين كانوا جميعاً-عدا السير آرنولد توينبي- غير مؤرخين، ليستثمروا أدوات الفلسفة في تفسير التاريخ سواء أكان في تاريخ الدول- بنشوئها وارتقائها وسقوطها، أم في تاريخ الحضارات بمظهرها وارتقائها وتدهورها- أم بتفسير التاريخ متطوراً دوماً إلى الأمام بتحقيق مزيد من التقدم الروحي والتقني والعلمي . إنه الفراغ الذي تسبب في تناميه موقف هؤلاء المؤرخين. والحقيقة ان هذه العملية ضرورية جداً في إخراج الكتابة التاريخية من عزلتها الجامدة عن بقية العلوم، والعلوم الطبيعية التجريبية بوجهٍ خاص. وصحيح ان علينا عدم الركون إلى الحادثة التاريخية المروية القادمة إلينا عبر سلسلة طويلة أوقصيرة من الرواة دون مقارنة أو تحليل أو تعليل أو نظرة عامة إلى الاحداث المتقاربة لتلك الحادثة أو المجاورة لها ، لكن مع ذلك يظل السؤال قائماً حتى الوقت الراهن ويشير إلى بقاء الإشكالية نفسها: هل أفلحت الفلسفة باندماجها بالتاريخ، أو العكس، في وضع صيغة مقبولة ومحددة، لها بداية، وتمر عبر مراحل إلى نهاية محتومة

تشاؤمية أو تفاؤلية لتحقق أغراضها ؟ إن استقراء لما فشلت في تحقيقه النظريات والقوانين التي أستوعبها الفلاسفة والعلماء الذين تطلعوا من خلالها إلى تقنين التاريخ أصبحت بدون شك واضحة في الوقت الراهن : فأين تأثير حقب ڤيكو الثلاثية في البربرية الأولى ومرحلة البشر والبربرية الثانية التي امتدت حتى عصر ڤيكو لكنها لم تنته بالشكل الذي أرادته أو توقعته تلك النظرية ؟ إن ديالكتيك هيجل الرائع في تفسير روح التاريخ لم ينجح أيضا في الهدف الذي أراد الوصول إليه بغائية قانونه في تحقيق الوسط الذهبي في الدولة البروسية أو حتى عند من أنتفع من نظريته من النازيين في الدولة الألمانية . والشيء نفسه ينطبق على ذلك التطلع الجذّاب الذي تطلعت إليه المادية التاريخية بالوصول إلى الفردوس حيث البروليتاريا والشيوعية هي السائدة فيتحقق مبدأ (كل حسب قدرته) إلى (كل حسب حاجته) . لقد تحطم هذا الحلم، بانهيار المرحلة الشيوعية، إلى أتجاهات ومذاهب متلاطمة من المحلية الى العرقية الى الدينية الى الديمقراطية الليبرالية .

وعلى الرغم من أن السير آرنولد توينبي برع في التخفيف من هذه النهاية التشاؤمية وحاول نزع فتيل آلام البشرية في أوربا ، وهي تحتضر بانتظار نهايتها، بتركه المجال مفتوحاً أمام بارقة أمل معقودة على الجانب الروحي في الديانة الجامعة . وهو وإن بدا لا يعترف بمركزية الحضارة الغربية المسيحية لكنه جعل الديانات الجامعة المتبقية، هي الإسلام والبوذية والمسيحية الأرثوذكسية، وكأنها لم تفلح في الإبقاء على الحضارة الإسلامية أو الحضارة الهندية أو الحضارة الشرق أقصوية مستثنياً الأوربية المسيحية فقط التي بقيت حتى الآن تدعم الحضارة الغربية. إنها باقية. حسب مفهومه الغربي . بقاء هيمنتها وسطوتها، وإن كانت . حسب رأيه . في مرحلة الفراغ قبل السقوط .

كل هذه النظريات في تفسير قيام الدول والمجتمعات والحضارات لم تحقق ما كانت تصبو إليه . ولا ندري لعل نظرية صدام الحضارات لصموئيل هنتغتن تستطيع أن تحقق شيئاً بتوقعاته المستقبلية في تحالف الديانتين الجامعتين الكونفوشية والإسلام حيال اليهودية والمسيحية الغربية ، ولعل أحكام فوكوياما المتناقضة بين نهاية التاريخ وبين التدهور العظيم بامكانها أن تلقي بظلالها على عدم ثبوتية الحدث التاريخي المفرد أيضا.

إن ما سبق في حقيقته له أهمية بالغة في وضع قوانين أشبه بالقوانين الطبيعية في صياغة معنى وجدوى لمسيرة التاريخ العالمي والحضارات الإنسانية ،لكنها . واقعياً . عجزت عن مواجهة متطلبات ديكارت السابقة في أن التاريخ يفتقر الى الوضوح والبداهة والدقة، العناصر التي أضحت حكراً على العلوم الطبيعية . وربّ سائلٍ يسأل في ما إذا كانت عناصر الوضوح والبداهة والدقة صارمة وثابتة في العلوم الطبيعية ؟ أقول أنها مسألة نسبية لا جدال فيها حتى في تلك العلوم التجريبية كالكيمياء، أو الاستدلالية كالرياضيات والفيزياء والطب وغيرها، فعند دراسة تواريخ هذه العلوم سنجد حتماً أنها بدأت بفرضيات ومناهج بل ونتائج قد تغيرت وتبدلت عبر الدهور، شأنها شأن اختلاف الفلاسفة منذ ظهور الفلسفة عند اليونان حتى وقتنا الراهن، بشأن الوصول إلى إجماع في المسائل الحيوية التي تشغل بال الفلاسفة .

ومع كل هذه الرؤى التي تعبّر عن انطوائية التاريخ والكتابة التاريخية، فإن مما لا ريب فيه أن من أعظم النتائج التي أفرزتها الحقبة التي ظهر فيها مصطلح فلسفة التاريخ حتى الآن، أو تلك التي رافقت ظهور هذا الجمع البارع للعلمين، هي :

١. جدّية التوجه نحو الدراسات المقارنة في التاريخ وصولاً إلى الحقائق التاريخية قدر الإمكان وذلك بإدخال عناصر التحليل والجدل الفلسفي.

٢. بات من الضروري التوجه نحو الدراسات الحضارية ومعانقة العلوم الأخرى، كالفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

٣. التفكير الجدي بواقعية ثلاثية أو رباعية المراحل التي تمر بها الدول والحضارات، وأسباب وعوامل ظهورها وانحلالها . إنه أسلوب في النظر الفلسفي التحليلي .

٤. فاعلية دور الفرد في الحدث التاريخي والعلل المحركة لهذا الفعل التاريخي . ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا بالأخذ بالمنهج الفلسفي الجدلي .

٥. التفكير الجدّي في الأحداث التاريخية؛ هل يصنعها الإنسان بروح مستقلة مطلقة وبمعزل عن القوى الطبيعية التي يخضع لها الكون أو بمعزل عن القدرة الصمدية الموجودة دائماً وابداً " وتلك الأيام نداولها بين الناس، ولكل أجلٍ كتاب، وأن الله تعالى يعلم ما نسرّ وما نعلن وهو خالق كل شيء في السماوات والارض " .

٦. الوقوف بتمعّن على حركية القوانين التي تبدأ بالولادة لتنتهي إلى الموت . هل أن تطبيقها صحيح على الدول (كأنظمة سياسية) فقط أم على الدول والحضارات ؟ ومع أن الصواب مع الأولى، لكن كيف نسوغ غياب حضارات كثيرة عن مسرح التاريخ الحضاري الإنساني ؟ قد يقال إنها لم تمت إنما خلفت آثارها لمن ورثها من الحضارات . قد يكون كذلك لكنها واقعياً قد وصلت إلى نقطة الفراغ والشيخوخة والموت .

هل تمثل محاولة أم أنها ما زالت خطوات مثالية ؟

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذه الحقبة من تطور الكتابة التاريخية الإسلامية هو : هل خضعت الكتابة التاريخية إلى تأثيرات دينية تشابه تلك التي واجهت الكتابة الأوربية في فترة العصور الوسطى بسيادة الأفكار الكنسية؟ إن المؤرخ المسلم هو الآخر يؤمن بأن الله هو العالم وهو القدير وهو واجد الوجود، وأن العناية الآلهية وراء تغير الأحوال وتبدل الأمم ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الطبري في مقدمة تاريخه ما يأتي موضحاً منهج وهدف كتابه :" وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان، من ابتداء ربنا جل جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم، ممن انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بالآئه ونعمه فشكر نعمه، من رسول له مرسل، أو ملك مسلط، أو خليفة متخلف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمة في العاجل نعماً، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً، ومن أجزى ذلك له منهم، وجعله له عنده ذخراً. ومن كفر منهم نعمة فسلبه ما ابتدأه به من نعمة وعجل له نقمة . ومن كفر منهم نعمه فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه..." .

ويشير الروذراوي إلى الفكرة نفسها في حوادث سنة ٣٧٤هـ معلقاً على فشل هجوم قرامطة البحرين على الكوفة فيقول : "ولكل قوم سعادة تجري إلى أجل معدود وتنتهي إلى أملٍ محدود ثم تعود إلى نقصان وزوال وتغير من حال إلى سعادة الدين فإنها إلى نماء فإذا انفصلت من دار الفناء

اتصلت بدار البقاء..." أيضا فإن مبدأ نهاية العالم وان يوم القيامة هو اليوم الفاصل بين خير الأعمال وشرها يعدّ مبدأ مستقبلياً في نظرة المسلمين إلى التاريخ لا كما رأى هيجل بانتهاء التاريخ في الحاضر . ومع ذلك فإن الاختلاف الأساس بين كتّاب الحقبة الكنسية والإسلامية هو نظرتهما إلى الفرد، فبينما يراه رجل الدين "يتخبط فيما يأتيه من أعمال أو يقوم به من نشاط وليس من قبيل التخطيط العرضي ولكنه تخطيط لا مفر منه متوارث" وعلى هذا فإن "الإنسان لا بد أن يعمل في الظلام بدون أن يعرف نتيجة عمله" فصارت بذلك العلاقة بين الفرد وخالقه علاقة تتركز على مهمة تخليص الفرد نفسه من الخطيئة الأولى التي ارتكبها، نجد الفرد في الإسلام محدد بيوم الحساب، وهو يوم القيامة، يتحمل فيه مسؤولية خطئه وشرور أعماله ويثاب فيه على حسناته وأعماله الخيرة . فخلاصه، في هذه الحال، يتعلق بالإنسان وحده الأمر الذي يوضح قيمة ما يقوم به من أعمال لأنه سيحاسب عليها في المستقبل . وتقدم كتب الطبقات وكتب الرجال والنساء دليلاً على مكانة الفرد المسلم تبعاً لأعماله وإنجازاته التي قام بها بفضل أرادته . وفي الجانب الآخر فإن كتب التراجم والطبقات تعدّ سمة بارزة لاتجاه الكتابة التاريخية عند العرب، فهي لم تقتصر على القادة والساسة العظماء والخلفاء والنبلاء وإنما تتعلق أيضا بعموم أفراد المجتمع كالكاتب والشاعر والنحوي والمحدث والفقيه والعالم والطبيب والوزير والقاضي، كذلك تتعلق بالعيّار والبخيل والأحمق والمغفل والذكي...الخ . فيكون التاريخ العربي بهذا التراث قد سبق ما اعتقد به فولتير في عصر التنوير عندما سئل أيهما أفضل : الاسكندر أم يوليوس قيصر أم هولاكو، فأجاب : إنه نيوتن .

نخلص مما تقدم ذكره إلى القول بأن الكتابة التاريخية عند المسلمين، على الرغم من أنها قد سارت بخط موازٍ لمبدأ قدرة الله في صنع الأحداث، لكنها

لم تهمل دور الفرد، فهو العنصر المحرك للحدث التاريخي، لذلك فإن المؤرخ المسلم لا ينظر إلى التاريخ على أساس أنه ينقسم على مملكتين: مملكة الشر المتمثلة بالأمم القديمة ومملكة الخير المتمثلة بالعبرانيين، كما أنه كتب الحوليات التاريخية على وفق للتتابع الزمني. على الأغلب. لا على وفق التفكير الديني على طراز تقسيم كتاب العصور الوسطى الأوربية كتقسيم جواكيم، ذي الثلاث حقب: عصر الأب السابق للمسيحية، وعصر الابن الحقبة المسيحية، وعصر روح القدس المستقبل .

على الرغم من ظهور تلك التطورات على الكتابة التاريخية الإسلامية مقارنةً بالحقبة التي سبقت الإسلام فإن مفهوم التاريخ وموقعه بالنسبة للعلوم الأخرى ظل غامضاً .

فهل عدّ العلماء العرب التاريخ علماً مستقلاً ضمن تقسيمهم العلوم العقلية والنقلية؟ فالمستشرق روزنتال يذكر في كتابه (علم التاريخ عند المسلمين) أن العلماء العرب الذين كتبوا في أقسام العلوم أمثال الفارابي في كتابه (إحصاء العلوم) وابن سينا في رسالته (أقسام العلوم العقلية) لم يجعلوا التاريخ علماً مستقلاً، كذلك الحال بشأن المؤلفات المتأخرة عن موضوع تصنيف العلوم ككتاب (بيان زغل العلم) للذهبي . وأبدى روزنتال نتيجة مفادها أن الفهارس العربية القديمة وضعت التاريخ ضمن علوم الشريعة والفقه والعربية التي تحمل عنوان (الأخبار) أو علم الأخبار والسير) . والمهم أن ابن خلدون الذي يعدّ واضعا قانونا لتفسير التاريخ ومنظراً للتاريخ بدحضه مناهج الكتابة التاريخية التقليدية السائدة في عصره لا يذكر التاريخ ضمن القائمة المفصلة عن العلوم النقلية كعلوم القرآن والحديث

والفقه والكلام والعلوم العقلية كالرياضيات والهندسة والمنطق والطبيعيات والطب والإلهيات .

إن ما تم تأليفه من كتب تاريخية خلال العصر الإسلامي يمثل قفزة كبيرة في تطور منهج الكتابة التاريخية، إذ اعتمد مؤلفوها من أمثال خليفة بن خياط في تاريخه واليعقوبي في التاريخ، والطبري في تاريخ الرسل والملوك وغيرهم منهجاً قائماً على عنصر التحري عن الروايات والتروي في قبولها، واتباع نهج السنوات في تدوين المعلومات والتدقيق في ذكر اليوم أو الشهر الذي وقعت فيه الحادثة التاريخية . فضلاً عن ذلك فإن تواريخ اليعقوبي والطبري وابن الأثير تميزت بطابع الشمولية إذ توجهت اهتمامات المؤلفين فيها إلى التطرق إلى تواريخ الأمم المجاورة كالفرس والبيزنطيين فاتسع إطار الحدث التاريخي إلى خارج دائرة مركز الخلافة . ولتوضيح ما سبق ذكره من سمات يذكر الطبري منهجه في مقدمة كتابه قائلاً : " وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما حضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على مارويت من الأخبار التي أن ذاكرها فيه الآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى ما يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس " .

ويضيف قائلاً بأن: " ما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه بأن أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي

إلينا..." . فالطبري في هذا الموضوع يضع أمام قارئ كتابه، التاريخ، مجموعة من الروايات التاريخية المسندة بسلسلة من الرواة، وأنه نادراً ما يتدخل في سردها والاستنتاج بأسباب حدوثها لأنها تمت إلى حقبة بعيدة عن حقبته؛ ولأنه لا سبيل إلى إبرازها إلا بإرجاعها إلى رواتها، وبذلك فإن مدى صحة هذه الرواية أو تلك تعتمد على مكانة الراوي ومدى الثقة به . إن المنهج. وكما هو معروف. يتضمن أسساً هامة للأمانة العلمية والصدق في نقل المعلومات والتجرد من التحزب لواحد من تلك الروايات دون الأخرى لا سيما بالنسبة لبعض الأحداث التاريخية الهامة التي سبقت فترة معاصرة الطبري . فهو في الحقبة التي عاصرها يخرج عن منهج النقل فقط إلى منهج يدخل فيه عنصر الإستدلال والإستنتاج. أما المسعودي فكان هو الآخر دقيق في تفصيل منهجه في الكتابة في مقدمة كتابه المشهور (مروج الذهب ومعادن الجوهر) إذ يقول بأن:" كتابنا هذا كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر..." وعبارة بحث ونظر دقيقة ومهمة إذ أنها تظهر تفهم المسعودي لعملية البحث التاريخي والتدقيق في الأخذ بالروايات والمعروف أن هيرودتس، أبو التاريخ، عّرف التاريخ بأنه بحث واستقصاء . ورؤية أبن الأثير إلى التاريخ وكتابة التاريخ توضح لنا التقدم الذي طرأ على الكتابة التاريخية فهو يقول في مقدمة كتابه(تاريخ الكامل) :" فلما رأيت الأمر كذلك- شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينها ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا " .

إن وضوح المنهجية في الكتابة التاريخية عند المسلمين إن هي إلا حصيلة لما شهده المجتمع الإسلامي من تحولات حضارية، فإن المؤرخ المسلم اعتمد

على خبرات الأمم الأخرى عن طريق ما تم ترجمته من الفارسية واللاتينية فأضافها إلى الخبرات والممارسات العربية السياسية منها والعلمية .

إن أي تفهم لآراء ومنهجية ابن خلدون في الكتابة التاريخية تتطلب منا نظرة شمولية إلى ما حققه المؤرخون المسلمون الرواد، لأن التفسير الخلدوني للتاريخ الإسلامي لا يمكن عزله عن الإرث التاريخي العربي بمراحله المختلفة إنما هو حصيلة متطورة لخبرات الأمة عبر تاريخها . فلقد تجاوز عطاء ابن خلدون في التاريخ حدود منطقته . شمال أفريقيا . ليشمل العالم الإسلامي بل العالم الأوربي ولاسيما عندما صارت نظريته في التاريخ والاجتماع مصدراً هاماً للتفسيرات القانونية التنبؤية التي توصل إليها عدد من فلاسفة التاريخ .

ومن مزيات هذا النوع من الكتابة:

١. ذكر الأحداث التاريخية دون الاهتمام بسندها وفيما إذا كانت صحيحة أم لا.
٢. غلبة عنصر التكرار في الموضوعات التي تطرقوا إليها متبعين بذلك المؤرخين المتقدمين .
٣. غلبة الطابع القصصي .
٤. إهمالهم عنصر التحري والتحليل عند تطرقهم إلى ظهور الدول وانحطاطها فيقول بهذا الصدد: " إذ تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً محافظين على نقلها وهماً أو صدقاً، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها مفتشاً عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها، باحثاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها... " .

ويصنف ابن خلدون كتابات المؤرخين المتأخرين ضمن الاتجاه الرابع، وهو اتجاه اقتصر فيها مؤلفو التواريخ على نقل ما تم إنجازه من قبل . ولم يكتفوا بهذه العملية التقليدية غير المبدعة، بل إنهم تجاوزوا إلى اختصار تلك التواريخ اختصاراً شديداً فيقول عنهم: " ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار وذهبوا إلى الالتقاء بأسماء الملوك والأنصار مقطوعة عن الإنسان والأخبار، موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار " . وكان موقف ابن خلدون من هذه الكتابات شديداً ووجه إليها انتقادات لاذعة فقال: " وليس يعدّ لهؤلاء مقال، ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما أذهبوا من الفوائد وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد " .

لقد كان هدف ابن خلدون من عرضه للاتجاهات والمناهج التي سادت كتابة التاريخ الإسلامي منذ القرن الثالث للهجرة حتى حقبة معاصرته تشخيص مواطن الضعف في هذه المناهج وإبراز الفكرة بأن حقبة الإبداع والتجديد قد اقتصرت على المنهجين الأولين فقط، بعد ذلك أخذت الكتابة التاريخية تواجه صعوبات إذ سادت حقبة من الركود والتخلف متمثلة بالاتجاهين الثالث والرابع. وبمعنى أدق فإن ابن خلدون كان معاصرا لحقبة تخلف وركود الكتابة التاريخية. ومن الجدير ذكره أن المجتمع الإسلامي شهد خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ضروباً متعددة من التخلف والانحطاط، فكان على الصعيد السياسي ممزق الأوصال إلى دويلات وإمارات متنازعة فيما بينها، وكان بعض تلك التكوينات أجنبي الأصل ثم رافق هذا التخلف السياسي تخلفاً حضارياً وفكرياً لا في مجال الكتابة التاريخية فقط وإنما في مجال الإبداعات العلمية والثقافية بصورةٍ عامة .

إذ عّمت السلفية على الفكر والثقافة وازداد الانغماس في التصوف والانعزالية فركدت لهذا القدرة الإبداعية وخيّم الجهل . وكان هذا التخلف عاماً لم يقتصر على المجال العلمي بل شمل العلوم النقلية أيضا فيذكر ابن خلدون: " لقد نفقت أرزاقها- أي العلوم النقلية- بل شمل العلوم النقلية- في هذه الملة بما لا يزيد عليه، وانتهت مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها".

ويضيف أيضا: " وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأنها لم تكن " فكان نتيجة ذلك أن " كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب تناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم..." من هذا كله يمكننا القول بأن دراسة ابن خلدون وتشخيصه للأسباب الكامنة وراء هذا التخلف لاكتشاف عناصر التجديد والإبداع في المجتمع العربي تعدّ دراسة مثمرة؛ لأنها اعتمدت التاريخ العربي وأسباب تطوره وانتعاشه ومن ثم ركوده متبعاً في ذلك أسلوباً ومنهجاً علميين استناداً إلى عنصري التعليل والكلية .

ويوضح ابن خلدون الدوافع التي دفعته إلى أن يطرح مشكلة الكتابة التاريخية وضرورة إعادتها بنظرة مستقبلية فيقول: " ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الأمس واليوم نّبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم وسمت التصنيف في نفسي وأنا المفلس اليوم، فأنشأت في التاريخ كتاباً رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً باباً، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً، وبنيته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الإعصار، وملأوا أكفاف الضواحي منه والأمصار وهما العرب والبربر... فهذبت مناحيه تهذيباً وقربته لإفهام العلماء

والخاصة تقريباً وسلكت في تربيته وتبويبه مسلكاً غريباً، واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً وطريقة مبدعة وأسلوباً..." .

لقد كانت ردود فعل ابن خلدون ـ كمفكر ـ عاش ظروف التخلف الفكري وجمود الإبداع، نقدية من جانب وموجهة في جانب آخر . فهو أولاً هاجم الكتابات التاريخية السابقة هجوماً عنيفاً متناولاً عدم اعتمادها منهج التحليل والتعليل، وإتباعها النقل والتقليد، وتركيزها على سير الملوك والنبلاء وسني حكمهم . أما من الجانب الآخر فإنه عرض عدداً من الأسس والقواعد التي من الضروري على المؤرخ أن يتبعها ويأخذ بها ليلم بالدوافع المحركة للمجتمع ونشاطه وفعاليته . ويذكرنا موقف ابن خلدون هذا بموقف ديكارت من الكتابة التاريخية في أوربا عندما وجّه هجوماً عنيفاً على التاريخ ومناهج كتابته السائدة آنذاك، وعندما بيّن موقفه من الرواية التاريخية وعدّها رواية لا يمكن الوثوق بها كلية لوجود عنصر الكذب والمبالغة، فأخرج بذلك التاريخ من دائرة المعرفة الإنسانية . ولقد أنبثقت من هذا الاتجاه مدرسة تاريخية جديدة اعتمدت عناصر التحري والتعليل والشك في الرواية والاعتماد على مصادر متعددة وثائقية أم غير ذلك .

لقد حاول ابن خلدون ـ ونجح في محاولته هذه ـ ابتكار طرق ومنهج يختلف عما كان سائداً من قبل واستعمل ذلك في إعادة الكتابة التاريخية منطلقاً بذلك من دراسة المجتمع العربي دراسة نقدية وتحليلية داخلية .

كيف فهم ابن خلدون التاريخ، فهل فهمه على أنه أحداث قد وقعت في الماضي، وبناءً على ذلك فإن دراسته لا تعدو أكثر من دراسة ذلك الحدث الماضي الذي يتمحور حول أبطاله من خلفاء وأمراء وإعطاء ثبت بسني حكمهم، أم أنه فهمه بغير ذلك؟ للإجابة عن ذلك لا بد من الإشارة إلى

تعريف ابن خلدون للتاريخ، فهو يرى أنه: " فن من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشدّ إليه الركائب والرحال وتسموا إلى معرفته السوقة والإغفال وتتنافس فيه الملوك والأقيال، إذ هو في ظاهره لايزيد على أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى...،" ففي هذا الجزء من التعريف يشير ابن خلدون إلى عدم استقلالية التاريخ كعلم وهو عبارة عن أخبار الماضي، ويقتصر غرضه على الاتعاظ بتلك الأخبار والتسلي بها والتعرف على أحوال الأمم السالفة . ومع ذلك فإن ابن خلدون يتجاوز ذلك الذي يعدّه الفهم الخارجي البراني للتاريخ أما " في باطنه فهو نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق " .

فالمفهوم الحقيقي للتاريخ إذن نظر وتحقيق وليس مجرد حكايات لأيام العرب وقصص يتعظ ويتسلى بها، وعبارة " نظر وتحقيق " تحمل أهمية بحد ذاتها فهي التي أسبغت على هيرودوتس لقب (أبو التاريخ)؛ لأنه عرف التاريخ بأنه بحث واستقصاء كذلك فإن العبارة تشير إلى مبدأ ابن خلدون في الكتابة التاريخية يستند إلى فهمه الجديد للتاريخ وبأنه لا يقصد منه الذاكرة إنما التنقيب عن المصادر والتحقق عن الروايات لإظهار صدقها من كذبها من أجل الوصول إلى الحقيقة . فمنهجه باختصار منهج يقوم على مبدأ اللاإستقراء . وفوق ذلك فإن ابن خلدون أشار بوعي إلى عنصر فلسفي علمي صرّح به فلاسفة أوربا فيما بعد في عصر النهضة وهو عنصر العلية . فالتاريخ في نظره لا يفهم على أنه قصة روائية بدايتها واضحة ونهايتها مقدرة حتمية بل إنه دراسة اجتماعية تتمركز على فعالية الإنسان والكائنات الحية وتتجه نحو إيجاد الروابط، جدلياً، بين الأحداث التاريخية التي لعب فيها الإنسان الدور الفاعل . فعلم التاريخ بناءً على هذا الفهم تجاوز اختصاصه المتعارف عليه والمركز

على معرفة أخبار الماضين وأعمال وسير الملوك، وصار علم بكيفية وقوع الأحداث التاريخية وأسبابها وظروف حدوثها ونتائجها .

فضلا عن ذلك فإن ابن خلدون لم يقتصر منهجه على مبدأ دراسة الحدث التاريخي وتركيباته الداخلية بعمق فقط وإنما التفت إلى العوامل الأخرى المؤثرة فيه والمساعدة في الوقت نفسه على تطوير المجتمع. فالعامل الاجتماعي بما يتضمنه من تكوين نفسي وفيزيولوجي للفرد والجماعة . والعامل الاقتصادي القائم على العمل والكسب هما من بين العوامل الفعّالة عند دراسة الحدث التاريخي، فيقول في هذا الصدد أن التاريخ: " خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرضه لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما تنشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها... " ،

إن الصيغ التي أستعملها ابن خلدون في العبارة السابقة تعدّ تصويراً للمراحل التطورية التي مرّ بها المجتمع، أقصد : البدائية القبلية، وفيها الاعتماد اقتصادياً على الوعي- التأنس بالإنسان والحيوان وتمثل مرحلة الزراعة بما تتضمنه من نزاعات وخصومات بينهم من جهة وبينهم وبين ملاك الأراضي من جهةٍ أخرى من أجل توسيع غلبتهم. إنها تقسيمات توافق إلى حدٍ كبير ما عرضه مؤيدو نظرية التقدم في التاريخ خلال حقبة عصر التنوير الأوربية، وبصورة خاصة قسيمات كوندروسيه في القرن الثامن عشر للميلاد ذات المراحل التسع. والأهم من ذلك فإن ابن خلدون يعطي أهمية بارزة في تقسيماته إلى تبدل الأحوال الى الخليقة . أيضا فإنه لم يغفل الإشارة إلى أثر العامل الاقتصادي، فهو يضيف إلى ما تقدم ذكره قائلاً:" وما ينتحله

البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعة الأحوال " .

كان إذن فهم ابن خلدون للتاريخ واسعاً وشاملاً وبذلك أيضا اتسعت فوائد التاريخ ومنافعه . فلم يعد التاريخ دون شخصية مستقلة وينظر إليه كجزء متصل بالدراسات العربية والفقهية، ولم تقتصر فائدته على العظة وتسلية الأمراء والملوك وتعريفهم بأخبار الماضين وبطولات الأفراد، لقد صار عند ابن خلدون علم بأسباب الوقائع وكيفية حدوثها، وصار نظراً وتحقيقاً وتعليلاً فهو: " أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق "، وإنه " عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية " . والتاريخ يوقفنا على أحوال الماضين في أخلاقهم والأنبياء في سيرتهم والملوك في دولهم وسياساتهم .

شدّد ابن خلدون في دعوته لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي على وفق منهج علمي على عدد من القواعد، وهو بذلك يكون قد سبق فيكو وأنصار مدرسة التقدم التنويرية. وقد عدّ ابن خلدون هذه القواعد والتوصيات أسساً يعتمد عليها في عملية الكتابة التاريخية، ومن جملة هذه القواعد :

أ. إنه أعطى الأولوية في الدراسات التاريخية لعنصر التحليل والتركيز على العلل والأسباب المؤدية إلى تطور الدول والعمران . فكان في هذا الاتجاه قد سبق فولتير في نظرته إلى أن التاريخ تاريخ حضارات لا تاريخ ملوك وأمراء.

ب. ركز في منهجه على دراسة أحوال العمران والتمدن وما يعرض من عوارض ذاتية للإجتماع الإنساني . فهو بذلك مهد الطريق أمام

المرء في أن يتعرف على كيفية ظهور الدول ونموها، والدوافع المحركة للحدث التاريخي . فضلاً عن نظرته الشمولية للتاريخ .

ج . وجه الإهتمام لدراسة آثار ونتائج العوامل الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية. بما فيها المناخ والهواء والجفاف والرطوبة والخصوبة. على نمو وتطور المجتمعات، فكان بهذا قد سبق مونتسيكو وهردر.

د. دعا إلى كتابة التواريخ العامة لا التواريخ المحلية ذات النزعة الضيقة وعدها الأسلوب الناجع في عملية إعادة الكتابة التاريخية . ويعود سبب اتجاهه هذا إلى ما ساد شمال أفريقيا من أوضاع مضطربة وما أنتجته من تبدل في أحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره ..فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها، ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرخين..." .

هـ. يرى ابن خلدون باتصال علم التاريخ بالعلوم الأخرى، وعلى هذا فالكتابة التاريخية تتطلب التزود من معين المعرفة والتجربة من العلوم المختلفة كالسياسة والأخلاق والاجتماع، فالمؤرخ عليه أن يكون ملماً " العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، وبالإحاطة بالماضي " كذلك فإنه بحاجة إلى حسن نظر وتثبيت " يفيضان بصاحبها إلى الحق، وينكبان به عن الزلات " .

مخرجات ترجمة كتاب البلاط والمجتمع الاسلامي وعلم التاريخ
للبروفسور جيسي روبنسون

إذن، يمثل كتاب البروفسور روبنسون الذي نترجمه الآن ثمرة طيبة جدا في دراسة الفكر التاريخي الإسلامي والتخصّص فيه . وإذا ما وضعنا جهد البروفسور في هذا الكتاب إلى جانب دراساته العميقة الأخرى عن مناحي شتى من التاريخ الاسلامي تكون المحصلة أن على المفكر والباحث والمؤرخ والطالب في التاريخ العربي الإسلامي أن يقرأ ويعمل في هذا التخصّص الفريد من أجل تخليص الرواية التاريخية من الشوائب والتكرار والتقليد الذي اتسع انتشاره خلال القرون الأولى للهجرة، وأن يطّلع عن كثب على تحزّبات المؤرخين والمحدّثين المسلمين بغية الوصول قدر الإمكان إلى الحقيقة التي نرجو بل نبحث عنها دائما في متون الأصول التاريخية، وقد نجد بعض أطرافها وقد لا نجد ذلك بالمرة . فالعهدة على الراوي وعهدتنا على المؤرخ الذي اعتمد هذا الراوي نفسه دون راوية ومصدر آخر. فهل أحسن هذا المؤرخ أو ذاك مثل هذا التصرف أم لا؟

لقد أبدع الأستاذ روبنسون في تحليلاته واستنتاجاته ومسيرة أحداث كتابه، إذ لم يترك شاردة ولا واردة – كما يقال – الا وكان لقلمه الدور البارز فيها .

وقبل أن نغلق باب الإطراء عليّ أن أقدّم بعض المعاناة التي شهدتها وخبرتها خلال ترجمتي الكتاب :-

١. لغة الكتاب تبرز مدى ثقافة الأستاذ وتبحرّه في اللغة الإنكليزية، إذ جاءت في الكثير من تحليلاته وموازناته صعبة معقدة .
٢. ولاسيما باستخدامه . المملل كثيراً . في الجمل الاعتراضية القصيرة والطويلة . فأحيانا أراقب وأتتبع الكلمات كلمة كلمة حتى أجد ضالتي بأن الجملة الاعتراضية قد انتهت . ولكن:-
٣. ما أن تنتهي هذه الجملة الاعتراضية إلا وأعقبتها جملة اعتراضية قصيرة أو طويلة أخرى، عندئذ تضيع الجملة الأصلية، وبذلت عناء في ملاحقة الجمل الاعتراضية الكثيرة جداً جداً، وفوق هذا:-
٤. إنه لا يكتفي بجملة اعتراضية تعقبها جملة أو جمل اعتراضية أخرى؛ إذ إنه يفتح أقواسا ضمن الجمله الاعتراضية في كثير من الأحيان (كذا) وهذه أيضا تمثّل جملة اعتراضية من نوع ثالث . هذا فضلاً عن أنه . أحيانا . يداخل هذه الجمل الاعتراضية بفتح علاقة اقتباس " " لاقحام رأي أو مداخلة لمؤرخ أو أديب أو محدّث ضمن هذه البنية المركبة لمقاطع كتابه . وقد قبلنا ذلك لكن:-
٥. في مرّات ليست قليلة يقحم مصطلحا فرنسياً او ألمانياً أو ايطالياً بين الجمل التي ليست هناك حاجة ماسة إلى هذا التعبير أو ذاك مما يؤدي الى تشتيت أسلوبه البارع في الكتابة . فاللغة الإنكليزية بالتأكيد غير عاجزة عن هذا المصطلح أو ذاك لكي يستعيره الأستاذ من الألمانية أو الايطالية، فتراني أتنقل بين معجم لغوي إيطالي إلى الانكليزية أو الألماني إلى الانكليزية وهكذا... ولكن لا بد من القول...

٦. إن ترجمته للآيات القرآنية الكريمة وللأحاديث الشريفة وللنصوص العربية المعقدة كنصوص الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص، وللعالم والأديب الجاحظ وللعتبي الذي تمثل أسلوبا بالتعقيد وزيادة السجع، فقد أبلى الأستاذ روبنسون بلاءاً حسنا، علما بأنه في حالات يعتمد تلك النصوص من باحثين مستشرقين آخرين . والمهم:-

٧. المصادر التي اعتمدها المؤلف في كل فقرة من فقرات كتابه كانت رائعة جداً وحديثة بحدود الزمان الذي طبع فيه كتابه .

والخلاصة أن كتاب البلاط والمجتمع الاسلامي وعلم التاريخ كتاب شامل وافي واتسم بكثير من الموضوعية والحيادية والابتعاد عن الدسّ والتشويه، أنما قد كان الأستاذ داعما لتقدم التدوين التاريخي الإسلامي مقارنة بالأمم والثقافات والتجارب المتعاصرة من يهودية إلى مسيحية إلى فارسية .

٨. بذلت قصارى جهدي في ترجمة أهداف ومقاصد الأستاذ روبنسون دون أن أقحم أي تفسير أو رأي يخصّني . ولذلك اضطررت إلى اتخاذ الطريق الآتي :-

١. إما أن أفتح معكفين وبتشديد لون الحبر للتعقيب السريع أو للتوضيح السريع لما يقصده المؤلف .
٢. أو أن الجأ إلى التعليقات المطولة في الهامش تحت علامة(*) .
٣. أو أن أضطر إلى نقل نص المؤلف ثم أضع النص الصحيح من المصدر الذي اقتبس منه المؤلف قوله ويتضح هذا في نصوص كثيرة شدّدت عليها الحبر ووضعت كلمة (المترجم) .

٤. وقد تدخلت في مسألة السنوات، إذ إن الأستاذ المؤلف دائما يحيل إلى السنة الميلادية فوضعت إلى جانب كل سنة ميلادية ما يقابلها بالتقويم الهجري .

أ.د. عبد الجبار ناجي

قسم الدراسات التاريخية

بيت الحكمة

الشكر والعرفان

على الرغم من أن فكرة هذا الكتاب قد ظهرت من خلال القراءة والتدريس وإن كانت بصورة بطيئة (غير أنها في أوقات كانت على مضض جداً)، فالتوتر والعصبية لتحمل ثقله قد نتج خلال محادثة جرت مع مدرسي السابق كيفن راينهارت Kevin Reinhart الذي ذكرني في إحدى الأمسيات في ساحة هارفرد بأن الإسلاميين هم المسؤولون ليس فقط بالنسبة إلى زملائهم الإسلاميين، إنما بالنسبة إلى زملائهم وطلبتهم. وليس هنالك من حاجة إلى القول بأن المدرسين السابقين هم مؤهلون لأن يقبلوا ويفتخروا بشرف إنجازات طلبتهم، لكن هذا ينبغي أن لا يحسب له حساب بالنسبة إلى مواطن ضعفهم. والكثير من عملية البحث والتأليف هذه قد حدثت خلال السنة المثمرة لـ ١٩٩٩-٢٠٠٠، تلك التي أمضيتها في مركز الدراسة العليا في برنستون Advanced Study in Princeton وهي فرصة يسرني أن أتقدم بشكري إلى كادر المركز بصورة عامة وإلى كرون P.Crone بصفة خاصة، فقد دعم سنة البحث والتفرغ في مجلس الكلية للدراسات الشرقية في جامعة أوكسفورد Board oF Faculty of Oriental Studies of Oxford University لذا فإنني دائماً مدين له، وإن القسم الكثير من كتابي هذا قد أنجز أو تمّ في مدينة مردث Meredith، هامبشر الحديثة New Hampshire تلك التي سهّلت الأمر وجعلته ممكناً، والذي يرجع أيضاً إلى كرم والدي المتميز سواء في الوقت أم في الطاقة والنشاط. كذلك أشكر الأكاديمية البريطانية على منحها البحث منحة إذ تحملت قسطاً من النفقات.

وأما أولئك الذين قدّموا المساعدة بمختلف الطرق والوسائل (نظير قراءة المسودة، والإجابة عن استفساراتي وتوفير المادة العلمية لي، فلهم مني الشكر الخالص أمثال: بون H.Bone، وكرون P.Crone، ودونر F.M.Donner وفوت R.Foote، وفان كلدر G.J.Van Gelder ، وكيلفن J.Gelvin، وغوردون M.Gordon، وهوارد – جونستون J.Haward- Johnston، وجيمسون H.Jamieson، وجميل N.Jamil، وجونز J.Johns، ولاندو – تسرون E.Landu- Tasseron، ومرشم A.Marsham، وميسامي J.S.Meisami، وملشرت C.Melchert، وريتشاردز D.S.Richards، وروبنسون J.S.Robinson.

المؤلف

البروفسور جيسي روبنسون

التمهيد

تستعمل الكلمة الإنجليزية (Hisroty) على نحو شائع، ففي هذه الحال تشابه الكلمة العربية (تاريخ) وهي ثنائية المعنى. فهي عادة يقصد بها الماضي، إن كان هذا الماضي يتعلق بما قبل التاريخ أو التاريخ القديم أو الوسيط أو التاريخ الحديث وحتى التاريخ المعاصر. ومثل ذلك قد سجّل أو دوّن في يوميات، لكن (history) بوسعه أيضاً أن يقوم بمهمة وصف وتصدير أفكارنا كذلك بمهمة التدريس والكتابة عن الماضي – بمعنى فرع من فروع التعليم والمعرفة – وإنه ولهذا المغزى والمعنى فإن طلبة الجامعة البريطانية يقرأون التاريخ، أمّا الطلبة الأمريكان فالتاريخ هو الحد الأعلى والأكثر في نظام الكورسات، وهكذا فالتاريخ يتداخل ويتشابك مع التدوين التاريخي أو علم التاريخ Historiography. وهذا مصطلح وتعبير غير مصقول وغير أنيق بصورة جيدة مع أنه نافع ومفيد إلى أبعد حدّ؛ وذلك لأنه يعني أولاً وقبل كل شيء: الكتابة أو التأليف عن الماضي، ولما كان التدوين التاريخي لا يفهم منه أو لا يعني سوى الكتابة عن الماضي، لذا فإن عنوان هذا الكتاب يوحي بأنه يتعلق بالكيفية التي كتب بها المسلمون التاريخ ولماذا كتبوا؟ وهذه هي الحقيقة عينها ، غير أنه أيضاً مصطلح غير دقيق، ـ طالما أنني في واقع الحال ـ أصف وأصوّر كيف كتب المسلمون التاريخ باللغة العربية خلال الحقب القديمة الكلاسيكية والحقب التكوينية أو التأسيسية للإسلام، فلماذا العربية فقط؟ ولماذا الحقب التأسيسية أو التقليدية فقط؟ لذلك كلمات من الشرح والتفسير لابدّ من طرحها.

فاعتماداً على تقويم أو استنتاج حديث، هناك أكثر من بليون مسلم يعيشون اليوم، وإن الغالبية العظمى منهم يعيشون في آسيا وأفريقيا، إلا أن أكثر من اثنين وثلاثين (٣٢) مليوناً منهم يعيشون في أوروبا، وبحدود خمسة ملايين مسلم يعيشون في شمال أمريكا ؛ وهم يتحدثون بلغات متنوعة، وينتمون إلى مجموعات إثنية مختلفة أيضاً.

وإن الكثير من تنامي الإسلام أو تزايده يعدّ ظاهرة حديثة نسبياً، غير أنه وعبر حوالي كل حقب التاريخ الإسلامي، فقد دعم المسلمون وشجعوا (وفي حالات نادرة جداً قد أجبروا) التحول الى اعتناق الإسلام. وذلك عن طريق ضرب أمثلة ونماذج لها تأثير مؤثر وملهم، إمّا بعرض وتقديم محفزات مادية أو تجارية، أو بتشييد مدن أو بتحويل أنماط أو أساليب الإستيطان والمستوطن وحياته الإجتماعية. فكانت النتيجة أن العرب وخلال جميع حقب التاريخ الإسلامي تقريباً كانوا في عداد الأقلية.

والواقع إن الإسلام قد ولد بين العرب في جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، وإن جميع المناصب والوظائف في السلطة و- تقريباً - إبّان الدولة المبكرة (الخلافة) قد احتكرها العرب. أيضاً وبناءاً على ذلك فجميع أولئك الذين حدّدوا أو عرّفوا مركز أو منصب الخليفة قد شغل أو تولاه أحد أقارب أو أحد نسابة أولي رحم Kinsman محمد نفسه، أي عضو من القبيلة العربية قريش.

إلا أنه وبعد حوالي سنة ٩٠٠مفالتاريخ الإسلامي لم يعدّ تاريخاً للعرب والقبائل العربية وبالقرابة والنسابة – أكثر مما يعمل به ويتعلق بالفرس والأتراك والكثير من المجموعات الإثنية الأخرى ومن غير العرب.

ومع أن موطن الإسلام ومدينة محمد ظلّت مكة التي بقيت دائماً تمثّل مركز عالم الشعيرة الدينية وفي الأقل بالنسبة إلى أولئك الذين يتوجهون بالصلاة المنتظمة إليها والقيام بالحج إلى هناك وبالفعل فإنه بنهاية القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري تخلى المسلمون عن مكة كمركز لعالمهم السياسي ذلك العالم الذي صنعوه أولاً في سوريا ثم بعد ذلك في العراق. واحتّل الشرق الأدنى Near East لمدة طويلة أهمية إستراتيجية بالنسبة إلى أولئك الذين انشغلوا بالتجارة بين الشرق والغرب، لكن الجزيرة العربية الحقيقية في الوقت الراهن لها أهمية سياسية أساس بسبب من فرصة اكتشاف النفط.

حتى وإن أزيحت الإثنية العربية بعيداً عن المسرح الرئيس للتاريخ الإسلامي في وقت مبكر نسبياً، فإن لغتهم في الكتابة والتأليف ظلت محتفظة دوماً بهيبتها وعدّها بين المسلمين بجميع خطوطها وطرز كتابتها تقريباً. واللغة العربية تهمّ المسلمين أكثر مما تهمّ اللغة اللاتينية المسيحيين وحتى أكثر مما تهمّ اللغة العبرية اليهود، فمسؤولية الهيمنة على بعض اللغة، حتى وإن كان مجرد مرور للمعرفة أو للمعرفة السريعة بألفبائها أو حتى بحفظ ـ عن ظهر قلب ـ عدد من الآيات القرآنية* وهو أمر يشعر به بشكل اعتيادي المسلمون من غير العرب، حيثما كانوا يعيشون. وجزئياً، فإنه يمكن شرح أو تفسير هذا بالمواقف تجاه الكتاب المقدس، أو تجاه الشيء المكتوب، أو بشكل أكثر دقة بالمواقف المتعلقة بالكتاب المقدس ومؤلفها؛ في حين أن مسيحيي حركة الإصلاح قاموا بترجمة العهد القديم أو التوراة اللاتيني إلى اللغات الدارجة أو لغات الأقاليم المختلفة كزءا من برنامجهم في مسألة تحريف النصّ أو في

* [الواقع أن اختيار المؤلف Lines بدلاً من veres بالنسبة إلى الآيات القرآنية غير واقعي من جانبنا – المترجم]

تعهد الإساءة إلى النصّ بعيداً عن هيأة رجال الكنيسة المؤسسة، فإن عربية القرآن اعتقد بأنها ـ بصورة عامة ـ سليمة من قبل جميع المسلمين مصلحين كانوا أو من نوع آخر.

فعندما وعظ أو بشّر أبن تومرت (المتوفى سنة ٥٢٥هـ / ١٣٠) بالإسلام المتزمت بين صفوف البربر في شمال أفريقيا، عدّ تعلمهم اللغة العربية أمراً أساساً بغية أن يكون بإمكانهم قراءة القرآن بلغة الله الخالصة. وهذا ما يقال، مواقف تجاه الكتاب المقدس وحدها لا يمكن أن تفسر أوتشرح الاحتكار الذي كان العرب يتمتعون به فعلياً على جميع حقول التعلم العالي في شمال أفريقيا والشرق الأوسط الذي بقي راسخاً خلال القرنين السابع والثامن الميلادي/ الأول والثاني الهجريين، وعلى أية حال فالمواقف تجاه الكتاب المقدس قد تأثرت بالإتجاهات العريقة. فعندما دفعت الفتوحات في منتصف القرن السابع بوساطة الجيوش الإسلامية البيزنطيين من شمال أفريقيا ومصر وسوريا وفلسطين ووضعت حدّا للحكم الساساني في العراق وإيران، الحكم الذي امتد به العمر لأربعمائة سنة، قد أنتجت هذه الفتوحات دولة إسلامية، حكمها أولاً العرب المسلمون، وبعضهم كان من أهالي المدن، لكن الكثير منهم كانوا يعدّون أنفسهم رعاة أو من أهل الريف.

ومع ذلك ـ وكما عبّرت ـ حكمة صينية (من الممكن خلق إمبراطورية من على سرج الحصان، لكن يستحيل حكمها من ذلك الموضع) فالمسلمون، أيضاً، قد أدركوا أن بناء الإمبراطورية إنما يعني الإستقرار وبناء المدن، وترتيب إدارة وبيروقراطية أو دواوينية، كذلك إحداث نسيج من الثقافة يكون فيها العرب وغير العرب على حدٍّ سواء بإمكانه المساهمة فيها، وخلال القرون الأولى من الحكم الإسلامي، العرب وغير العرب والمسلم وغير

المسلم – في الواقع، وفعلياً أي فرد من أي تطلع من التطلعات الفكرية – بناءاً على هذا قد تبنى أو اتخذ اللغة العربية لغة ثقافية رفيعة الدرجة. ولقد أخذت عملية التعريب اللغوي هذه، تلك التي ينبغي تمييزها من الإسلاموية (بمعنى اعتناق الإسلام) بعض الوقت، ومن الطبيعي فإن سيرها وتقدمها قد اختلف من منطقة إلى منطقة، ولكن بشكل أو بآخر، كان ذلك المسار لا يقاوم تقريباً. فاللغة العربية قد حلّت بشكل كامل محل اللغة الآرامية كلغة مشتركة Lingna franca في الهلال الخصيب، بينما كان تأثيرها في إيران والأقاليم والمناطق الأخرى حيثما كانت الإدارة الإسلامية الأولى ضعيفة والثقافة المحلية أكثر قوة ونشاطاً، ومع ذلك فقد كان التأثير قوياً: فقد ظلت اللغة الفارسية حيّة، ولكن بلباس عربي فقط ، وقد كتبت على وفق الألفباء العربي وكانت تعجّ بالكلمات العربية الدخيلة، لذا ـ وعلى الرغم من ذلك ـ فإن الوحدة السياسية للشرق الأوسط تلك التي نتجت بفعل الفتوحات الإسلامية في منتصف القرن السابع/ الأول الهجري كانت قصيرة الأمد نسبياً. وحتى بالنسبة إلى تلك الدويلات الإستثنائية الرائعة (بضمنها الدولة الفاطمية التي كانت غير محدّدة الحدود) هذه الدولة التي كانت لها مشاركات وحدانية وتماثلات شيعية إذ حذت حذوها. هذه التجاذبات وصلات النسب التاريخية كالذي وجد بين التشيع وإيران التي يرجع تاريخها إلى ما بعد اكتشاف العالم الجديد بمدة قصيرة، وهو تاريخ حديث بالنسبة إلى مصطلحات الشرق الأدنى.

وحول هذه المسألة فإننا نكون قد دخلنا مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وهو القرن الذي أنتج الكثير ليس فقط إقامة دولة جعلت التشيع عقيدة رسمية للدولة الإيرانية (الصفويون)، ولكن أيضاً حدث فيه الغزو العثماني للقاهرة فوضعت حداً للدولة المملوكية التي عاشت في مصر طويلاً

(تقريباً من ٦٨٤هـ / ١٢٥٠م إلى ٩٢٣هـ / ١٥١٧). فالتعليم والتعلم باللغة العربية قد أبقى على قيد الحياة كلّ من الصفويين والعثمانيين، وفي بعض الحالات انتعش هذا التعليم وازدهر أيضاً. إلا أنه وبسبب غرض هذا الكتاب وهدفه، فإن مثل هذه الأحداث تشير إلى نهاية ما سميناه بالحقبة الكلاسيكية، وإنني ـ في بعض الحالات الاستثنائية ـ سأشير إلى أو أتحدث شيئاً عن الرواية الحديثة بعد سنة ١٥٠٠م.

ولما كانت اللغة العربية هي اللغة ذات الاعتبار والمقام والمكانة في البحث العلمي، فإنها كانت لغة التدوين التاريخي وعلم التاريخ، ولاسيما عند المسلمين الأوائل، وعلى نحو متزايد حتى بالنسبة إلى المسيحيين الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الإسلامي. وظل هذا النمط أو هذه الكيفية باقية حتى أواخر القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد الرابع والخامس الهجريين، ذلك حينما بدأت الدويلات في العالم الإسلامي تستعيد اللغة الفارسية بقوتها ونشاطها كلغة كتابة، وكانت في البداية في الشعر ثم بعد ذلك في الجانب النثري؛ فالمؤرخون الذين يتحدثون باللغة الفارسية نظير ابن فندق والبيهقي كانا يكتبان باللغة العربية، وحتى بعد أواسط أو منتصف القرن الثاني عشر للميلاد (السادس الهجري)، غير أن الطريقة والنمط الآن أصبح متغيراً، فالشرق في نهاية المطاف أخذ ينتج رواية نابضة بالنشاط في التدوين التاريخي الفارسي.

وفي حقبة متأخرة جداً كان الأتراك العثمانيون يرعون التدوين التاريخي التركي. أما اللغات الإسلامية الأخرى فقد أنتجت أيضاً روايات خاصة بها، ومما لا شك فيه فإن بعضاً من ملاحظاتي النقدية سوف تركّز على هذه المسألة، وإنني ألحّ بإصرار على أن هذا الكتاب كان من المفروض أن

يعنون بعنوان مثل التدوين التاريخي الإسلامي أو علم التاريخ في اللغة العربية (فالمقاطع المذكورة آنفا ينبغي أن تجعل الأمر واضحاً عن السبب الذي صار فيه التدوين التاريخي العربي ليس له أمل في الفوز أوالنجاح . غير أن التدوين التاريخي الإسلامي باللغة العربية هو تسمية غير لائقة فضلاً عن أنها مجرد حشو من الكلام. وسواء عليك أن ترضى بهذا أو لا ترضاه، فالحقيقة هي أن الكثير مما كتب باللغة العربية خلال هذه الحقبة إنّما قد تم كتابته من قبل غير العرب (ولعل من الصحيح القول إن من أعظم المؤرخين في القرون الثلاثة الهجرية الأولى وهو أبو جعفر الطبري، كان فارسياً، الذي كان – كبقية العلماء المسلمين – عبّروا عن أنفسهم بحسب المعايير والنماذج اللغوية لذلك الزمن. وهذا يعني الكتابة باللغة العربية. فالتدوين التاريخي الإسلامي هو تعبير يضم مجموعة من اللغات، ولكنه دائماً كان مجهوداً أو جهداً جمعياً أو جماعياً. وبمرور الوقت بدأ المسلمون يكتبون تاريخهم باللغات الفارسية والتركية، وقد اتّبع هذا التقليد والرواية عدداً من النماذج القابلة للتمييز. وبعضها قد دوّن فعلاً بحوالي منتصف القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري، ونماذج أخرى ظهرت في القرن الثاني عشر أو في القرن الثالث عشر/ السادس والسابع الهجريين.

ومن أجل فهم أو إدراك التدوين التاريخي أو علم التاريخ الفارسي فإن المرء بحاجة ليس الى الرواية الفارسية فحسب ، بل الى بعض المبادئ أيضا في الرواية العربية التي نشأت منها. وكذلك بحاجة الى فهم وإدراك بعلم أو بالتدوين الفارسي مكملا فقط ما بوسع الرواية العربية أن تعلمنا بشأن التدوين التاريخي الإسلامي أو بعلم التاريخ الإسلامي. ومسح مصدري مماثل ومشابه لذلك الذي يعرض أو يظهر الفاعلية الضخمة لكتابة التاريخ الفارسي، وأيضاً يتحدث عن الاستمرارية والتواصل الملفت والرائع لتلك

الرواية من العربية إلى الفارسية و الشيء نفسه بالنسبة إلى اللغة التركية:- فليس هنالك في اللغة العربية من شيء ربما يضاهي أو يباري السيرة الذاتية لبابور المؤلفة باللغة التركية الجغتية Chagatai Turkish، ولكن بحدود هذا الوقت (أوائل القرن السادس عشر) فإن معارضات أو اعتراضات مبكرة لكتابة السير الذاتية صارت سائدة في اللغة العربية، وكما هو الحال في رواية التدوين التاريخي الفارسي، فإن التركية قد تجذرت في الرواية العربية - الإسلامية[1].

يفترض في هذا الكتاب، أن يكون القارئ محباً الإطلاع بدرجة كافية وبشأن التاريخ الإسلامي والتدوين التاريخي أو علم التاريخ الإسلامي لكي يزعج نفسه في القراءة عنه، إلا أنه أو أنها لا يمتلكان التعلم والمعرفة في التاريخ الإسلامي، وإلى حدٍّ أقل في اللغة العربية ؛ والواقع فإنني أنظر إليه أو أعدّه رهان عمل ناجح ringing success حتى وإن كان عدد هؤلاء

• [وهذه توافق سنة ٢٨٨ هجرية التي لا تعني بالضبط تدفق العناصر غير العربية في السلطة العباسية والجيش العباسي، إنما يرجع ذلك إلى زمن المعتصم العباسي بحدود سنة ٨٣٥م لا سنة ٩٠٠م - المترجم].

[1] عن الرواية المحلية الفارسية ينظر دراسة لامبتون باللغة الإنجليزية A.K.S.Lambton الموسومة (التواريخ المحلية الفارسية: الرواية خلفها وانتحالات أو وافتراضات مؤلفيها)
Persian Local histories: the tradition behind them and the assumptions of their authors.
وهذا البحث منشور في كتاب Yad- name
في ذكرى الكسندرو بوساني Alessandro Bausani (روما / ١٩٩١) ص ٢٢٧-٢٢٨؛ وبالنسبة إلى مديونية الرواية الفارسية المتكلفة للعربية ينظر لوثر K.A.Luther (اللغة المتكلفة الإسلامية والمؤرخون الفرس ١١٠٠-١٣٠٠م
ينظر بيلمي J.A.Bellamy (المحقق) دراسات في ثقافة وتأريخ الشرق الأدنى في ذكرى أرنست عبد المسيح Ernest T.Abdel Massih (أن اربور Ann Arbor ١٩٩٠) ص ٩٣، وعن ترجمة حياة بابور نامه، مذكرات بابور، الأمير والإمبراطور، ترجمة ثاكستون W.M.Thackston (واشنطون D.C ١٩٩٦)، وعن دراسة ديل S.Dales (سهب أو سهوب الإنسانية: كتابات ترجمة سيرة حياة ظهير الدين محمد بابور ١٤٣٨-١٥٣٠)في مجلة IJMES / مجلد ٢٢/ ١٩٩٠، ص ٣٧-٥٨.

القراء قليل قد أثيروا أو اندفعوا إلى أمّا اتخاذ موقف في اختيار أحد الموضوعين، أو انطلاقا من كوني أقلق أو أزعج نفسي في ترجمة حروف اللغة العربية إلى لغة أخرى transliterate المصطلحات العربية إلى صيغها المعيارية أو القياسية. وأولئك الذين يتعلمون اللغة العربية عليهم أن يعرفوا كيفية تلفظ حروف (z في مقابل ظ و t مقابل في طاء و s مقابل في ص وهكذا) والمحّبون للغة العربية والمبغضون لها على حدٍّ سواء Arabophile and Arabophobe ، هناك بضعة نقاط نحوية مبسطة وبضعة مفردات معجمية يجب على الطالب، على أية حال، الشروع بها في البداية.

أولاً إن أداة التعريف العربية (ليس هناك أداة غير معرّفة) هي الـ (AL) التي تتصدر الاسم المحدد؛ وهكذا يكون كتاب والكتاب، **ثانياً**: عندما تستعمل الأسماء المؤنثة فإنها توضع في حالة تركيبية، إذ أن (a) في آخر الكلمة تصبح (at) هكذا تكون (سيره) بمعنى ترجمة محمد، وسيرة محمد (بمعنى حياة محمد) وهي إشارة إلى المسألة نفسها ، **وثالثاً**: فإن ابن (Ibn) يقصد به (son) ويظهر في الغالب بصيغته المختصرة (.b) وهذه الغالبة في سلاسل الأنساب كما أن (أبو Abu) (وفي حالة الإضافة أبي Abi وعلى هذا النحو في علي بن أبي طالب وهو الاسم الكامل لابن عم محمد وزوج ابنته وحرفياً علي بن أبي Father (وإن .bt اختصار لبنت)، **ورابعاً**: الصفة النهائية في الكلمة (أ ألف) وللمؤنث 'iyya، إنما تدل أو تشير إلى العلاقة بين نوع أو آخر، مثال: الطبري (جغرافياً يعني الشخص الذي هو من طبرستان) والحنبلي (متفق مع تقاليد مذهب ومن اتباع مذهب أحمد بن حنبل) والقريشي (قبلياً، الشخص الذي هو من قبيلة قريش).

وبهدف تبسيط وتوضيح الأمور بالنسبة إلى غير العرب وغير المسلمين، فقد لفت النظر إلى بعض التوضيحات والشروح من الترجمات المتوافرة قبلاً، وضمّنت مسرداً مختصراً، وخرائط وتواريخ، وتواريخ وفيات، وبعض المقترحات من أجل قراءة ومطالعة إضافية أكثر؛ ولذلك، فقد قمت أحياناً بتدوين التاريخ الإسلامي الذي يستند إلى الدورة القمرية أكثر من الدورة الشمسية، تلك التي تبدأ بسنة ٦٢٢م للتقويم الشائع الميلادي (C.E) وهذا التاريخ الهجري الذي اشتق اسمه من هجرة محمد (الهجرة) من مكة إلى المدينة، وفي كثير من الأحيان تظهر هنا في تفصيلات النشر للنصوص العربية حيث تشير بإشارة (هـ H) وفي الكتب المطبوعة في إيران هذا التاريخ الهجري يستعمل عموماً بناء على التقويم الهجري المعدّل، الذي لا يفيدنا ولسنا بحاجة إليه *.

وفي حالات فإنني أذكر أكثر من طبعة عربية للكتاب، ولكن في هذا الخصوص ـ كما هو الحال في كثير غيره ـ لم أقم بمحاولة لأن أكون شاملاً أو واسع الإدراك، وعلى القارئ أيضاً أن يعرف أن أكثر المؤلفين والكتب المذكورة هنا يمكن تعقب أثرها أو اقتفاء أثرها في الطبعة الجديدة في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة ليدن ١٩٥٤) التي وصلت حروفها الآن إلى حروف y * وكذلك عند J.S.Meisami P. Starkey (المحققان) لدائرة معارف الأدب العربي Encyclopedia of Arabic Literature (المطبوعة في لندن – نيويورك ١٩٩٨م) وهي كاملة. وكلاهما يزودان الباحث بفهارس مصدرية كثيرة. أما بالنسبة إلى أولئك الطموحين بشكل

* [ربما يقصد المؤلف التاريخ الشمسي]
* [الواقع أن دائرة المعارف الإسلامية قد انتهت من جميع الحروف الأبجدية اللاتينية وهي الآن كاملة تماماً وقد طبع لها الملاحق أيضاً. المترجم]

أكثر من هذا ويعرفون أوليات اللغة الألمانية، فإن المراجع الرئيسة هي (تاريخ الأدب العربي) لكارل بروكلمان Geschicte der Arabischen Litteratur وطبع في فايمار، ليبزج وليدن من ١٨٩٨-١٩٤٩ **(وقد ترجم إلى العربية)**. وفؤاد سزكين تاريخ الأدب العربي (وطبع الجزء الأول في ليدن ١٩٦٧) وقد غطىٰ بروكلمان جميع ما تناولته في هذا الكتاب، ولكن كتاب فؤاد سزكين قد غطىٰ الأربعة قرون الأولىٰ من الإسلام، فهذان الكتابان باللغة العربية مع تقريبا الكتاب المعروف لمؤلفه عمر رضا كحالة (معجم المؤلفين دمشق ١٩٥٧-١٩٦١) الذي أعيد طبعه مرات عديدة في بيروت.

وبما أن هذه هي مقدمة لما يمكن أن بقي من الأمور المستعصية علىٰ المعالجة، فهناك مجال أو حقل وعر ومنفر، إذ كان الهدف من هذا الكتاب أن يكون تكملة أوتتمة لبعض الأدب والكتب السابقة الموجودة قبلاً، ولاسيما كتاب فرانتز روزنثال F.Rosenthal، تاريخ التدوين التاريخي للمسلمين Hisroty of Muslim Historiography (الطبعة الثانية، ليدن ١٩٦٨) وكتاب خالدي T.Khalidi الموسوم بـ (الفكر التاريخي العربي إبّان الحقبة الكلاسيكية) كمبردج ١٩٩٤ وكذلك ميسميJ.S. Meisami في الكتاب الموسوم بـ (التدوين التاريخي الفارسي حتىٰ نهاية القرن الثاني عشر للميلاد) أدنبره ١٩٩٩، فجميع هذه الأعمال من الضروري قراءتها من قبل أي شخص لديه هوىٰ واهتمام بالموضوع الذي ظل باقياً في هذا الكتاب الحالي.

هذه المؤلفات قد تختلف عن الأمر الذي نطلبه من القارئ وما نسأل عنه، وأكثر أهمية في هذا الشأن أن نستفسر عن المنهج المتبع في الكتاب. وبما أنني مؤرخ اجتماعي الذي يستند عملي بشكل أساس (لكن ليس قصراً) الىٰ

أسس النصوص، فقد وضعت ما يمكن أن يشعر به القارئ وإلى حدٍّ ما ضغطاً أو تشديداً على المهمة الإجتماعية وعلى الأثر الإجتماعي لرواية التدوين التاريخي وعلم التاريخ.

وبكلمة أخرى، فقد ذكرت بقدر ما هو متعلق بالسبب الذي حدا بالمؤرخين المسلمين على أن يكتبوا بقدر ما ذكرته بخصوص ما الذي كتبوه. وإنني أترك الأمر إلى القارئ لكي يحدد إنْ كان هذا التشديد مفرطاً وغير ضروري ولا يستحق هذا الضغط والتشديد أو كما اعتقد بكونه متأخرا وفات موعد استحقاقه. ويكفي قوله هنا، فإن نيتي وقصدي لم يكن مجرد مسح مصدري ومسح الروايات (كما فعله روزنثال) وليس مجرد تفسير (كما فعله خالدي بالنسبة إلى الرواية الكلاسيكية) بقدر ما هو عمل لجعل الموضوع أكثر شمولية وأكثر إمكان في فهمه وإدراكه.

ولقد بدأت بتنفيذ هذا الجانب من اتجاهين أو من طريقين: أولهما، حاولت وصف نتائج التدوين التاريخي ضمن حقل التعلم والمعرفة في علم الإجتماع – السيولوجي المفهوم فهماً عاماً-- والذي يقصد منه وضع أيدينا لمعالجة مختصرة لكل شيء بدءاً من مديونية المؤرخين المفاهيمية للشريعة (القانون) الإسلامي إلى كيفية كسبهم أرزاقهم وكيفية ترتيبهم وتنسيقهم لملاحظاتهم.

وثانياً قدّمت عرضاً يتكون من ثلاثة محاور هي:- دراسة علم النماذج الشخصية typology للتدوين التاريخي – والتاريخ الكرونغرافي، وتراجم سير الحياة، والطبقات أي البروسوغرافي – وهذا ما قصدته من فرض نظام أو ترتيب على مجاميع من الكتب ضخمة وصعبة الاستخدام والمراس.

١-بالنسبة إلى الكرنوغرافي Chonography أقصد به تلك الأنواع أو الضروب الأدبية التي تصوّر و تصف الأحداث كما حدثت فعلاً في زمانها، وأمّا ترتيبها وتنظيمها فهو حسب مداخلها الحولية السنوية (وفي حالة كهذه فهي حولية تتعلق بتدوين الأحداث عاماً بعد عام)، أو على وفق عهود حكم الخلفاء. والتواريخ الشاملة أو الجامعة هي التي تبتدأ من عصر الخليقة، وتغطي العالم غير الإسلامي، وهذا بصورة عامّة بقدر ما يتعلق الأمر بالتاريخ الإسلامي، فهو من الناحية الإصطلاحية كرونوغرافي، والتاريخ المحلي فهو أقل بكثير من ذلك، طالما أن التاريخ المحلي يتخذ في الأعم الأغلب صيغة الطبقات أو غيرها.

٢-والرواية الإسلامية قد أنتجت رواية سيرة الحياة من مختلف الأصناف، ولكنني أقصد بترجمة الحياة Biography الأعمال التي تتناول موضوعاً واحداً ومفرداً ذلك الذي يرتبط بحياة شخص، والتغطية هنا في العادة تمثيلية وأنموذجية أكثر من كونها شمولية وكما سنرى. ففي اللغة العربية هناك اصطلاح يدعى السيرة، الذي يعبّر بوضوح عن أنموذج أو مثال القوة في الكتابة عن ترجمة الحياة. فإن كانت صيغة الاحترام والمقام العالي للتاريخ الحولي الجامع، وكان موضوع الإحترام والمقام العالي والمكانة السامية في ترجمة الحياة السيرة النبوية، غير أن هناك تراجم أخرى، حتى في الحقبة المبكرة جداً غير السيرة النبوية.

٣-أما بالنسبة إلى البروسوغرافي Prosopography، فإنني أقصد به الكتابة عن مجموعات أو جماعات اجتماعية، أكثر من كونها دراسة جمعية للجماعات الإجتماعية، كالذي يفهم من المصطلح بشكل عام من قبل المؤرخين اليونان البروسوبون Prosopon يعني الوجه أو الشخص. في

الوقت الذي يقصد به ترجمة حياة وهي دراسة عن أفراد أنموذجيين أو أمثلة يقتدىٰ بها أو بهم أو بطريقة أخرىٰ أفراد متميزين أولئك الذين كانت حياتهم ـ علىٰ أية حال ـ بطولية أو استثنائية- وتأخذ معناها من أزمنتهم وعصورهم. وتجمع هذه البروسوغرافي وتنظم وترتب هذه المفردات للمعلومات التراجمية عن الحياة بحيث تشير إلىٰ عائدية أو انتمائية هذا الفرد إلىٰ الجماعة، فمدخل الفرد بصورة عامة يدعىٰ ترجمة (وسنرىٰ أن نمو وازدهار الترجمة سوف تعيش حية. والجدير ذكره ان التمييز بين البروسوغرافي والبايوغرافي غير واضح تماما.وأن الكثير من هذه الأعمال، التي لها ما يماثلها وما يوازيها في الروايات الغربية وغير الغربية (مثال الصينية) وهي اصطلاحاً تسمىٰ قواميس أو "معاجم لتراجم حياة الأشخاص"[1].

وهناك الكثير الذي سنذكره عن هذه التعريفات في الفصل الرابع.

ويكفي هاهنا إبداء ملاحظة بأن الأصناف أو المقولات تلك إنما يقصد بها أساساً لكي تكون عوالم مساعدة للطالب من أجل اكتشاف الأمور بنفسه أكثر من كونها براغمتيكية واقعية، وهذا الكتاب هو ليس كتيباً heuristic معدّا لأصحاب المهنة، وجميع ما قمت به تحديد نفسي ببعض التعقيبات العامة المألوفة بشأن المنفعة والفائدة من المصادر في التاريخ الإسلامي. وحول المناقشات الرائعة التي تتماشىٰ مع هذه الخطوط في البحث، فالقارىٔء ربما في بحثه باللغة الفرنسية C.Cahenيرجع للاستئناس بآراء كلود كاهين الموسوم بـ(مقدمة في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط من القرن السابع إلىٰ القرن الخامس عشر: طرق بحث ومبادئ في تدوين البيلوغرافيا والفهرسة) Introduction a L'histoire

[1] لم أكن الأول في استعمال مصطلح البروسوغرافي بهذا المعنىٰ، ينظر يونغ M.J.L. Youngفي بحثه الموسوم بـ " الحياة العربية"، المنشور في M.J.L,Young et al.,eds. Religion Learning and Science in the Abbasid Period (Cambridge 1990,) P. (170

du monde musulman medieval: vlle-xvc siècle methodologie et elements de bibliograite.

المنشور في باريس ١٩٨٣ (وهو في الواقع إعادة وتقويم للكتاب الذي نشره مع البروفسور سوفاجيه J.Sauvagel الموسوم بمقدمة عن تاريخ الشرق الإسلامي.

Introduction a Lihistoire de La Orieut Musulan

المطبوع في باريس ١٩٦١. وهذا الكتاب قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية بعنوان (مقدمة لتاريخ الشرق الإسلامي : دليل ببليوغرافي).

Introdution to the history of the Muslim East: A. Bibliographical guide (Berkely 1965.)

كذلك كتاب همفريز R.S.Humphreys الموسوم بـ (التاريخ الإسلامي: إطار أو نطاق للتحقيق أو للإستعلام). المطبوع في برنستون في أمريكا

Islamic History= A Framwork for Inguiry (rev.ed. Princeton 1991).

وكتاب نيجل T.Nagal الموسوم بـ (العالم الإسلامي حتى ١٥٠٠م) وهو باللغة الألمانية Die Islamische welt bis 1500 وقد طبع في ميونيخ عام ١٩٩٨.

فهذه الأعمال الثلاثة هي أعمال مميزة وأنموذجية في عدد من النواحي.

الكتاب هو كتاب سياحة في التدوين التاريخي أي أن المصادر التاريخية المتوافرة هي بالأساس مسألة تاريخية بحدّ ذاتها. وبالحال نفسها يمكن ذكرها بالنسبة إلى الأفكار والمقولات التي يمكن قولها بأن المؤرخين قد ابتدعوها من أجل أن يقدموا معنى، لمصادرهم. فالمحتوى التاريخي لهذا

الكتاب ولهذه السلسلة إن هي إلا تنامي الدراسة الأكاديمية في أوربا وأمريكا عن الإسلام والتاريخ الإسلامي.

وإن أهدافها ومقاصدها من أجل فتح بوابة أمام الدراسات الإسلامية بهدف البحث وبهدف مناقشة نواحي ضرورية جداً لم يبتدأ العمل فيها أيضاً، وهذا أمل وتمن خاص بيّ. وبغية تقديم خدمة إلى جمهور القراء بصورة أوسع – سواء من الطلبة أو العلماء أو الباحثين، أو من الإسلامويين غير المتخصصين أيضاً – وقد حاولت أن أحقق نوعاً من التوازن بين حالات التبسيط والتعميم والموازنة من جهة ؛ وبين الأنموذجية كأن يكون مثالاً من جهة أخرى، إن بناء أو تركيب هذه الجملة أو تلك حالة تخلّ بالتوازن ويفقد العقل بشكل مقصود ومتعمد. هاهنا وفي كل موضع من هذه الدراسة تبنيت حكمة موثوق بها، فقد قال هنرو H.H. Hunro (في بعض الأحايين فإن قليلاً من عدم الدقة أو من الخطأ يوفران أطناناً من الشرح و التفسير).

الجزء الأول

أصول وجذور وأصناف

الفصل الأول

الأصول أو الجذور

كان ابن النديم يقطن في محلة السيادة السكانية فيها من المسيحيين وهي في مدينة بغداد، فضلاً عن اتّخاذه اسماً مستعاراً ولقباً مستعارا (نديم، وكان يسمىٰ به أيضاً النديم، وصيف المرح بمعنىٰ tout court أي مطربي البلاط) ومن خلال موضعه ووظيفته كأحد رجال حاشية البلاط لسيد واحد في الأقل، ولعله كان الحاكم العباسي، أو أحد أفراد العائلة البويهية – وهي إمارة إيرانية سبق لها أن استحوذت علىٰ سلطة الخلفاء العباسيين غير الشرعي، إنما اتخذ صفة الأمر الواقع de facto.كان مؤلفنا ربما في العشرين أو الخمس والعشرين سنة من عمره في ذلك الوقت، أي أنه ما زال شاباً بما فيه الكفاية لأن يتكيف مع المتغيرات السياسية والثقافية التي شرعت في الحركة وانطلقت من قبل المغتصبين• لسلطة العباسيين. ولما كان ابن النديم بائعا أو تاجر كتب فإنه بالتأكيد قد أسهم في تجارة الكتب التي كانت مزدهرة في بغداد في القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري•.

• (يقصد المستشرق البويهيين وهو وصف مبالغ به. المترجم).

•وتعقيباً علىٰ ما أورده البروفسور روبنسون إن ابن النديم قد صدّر كتابه إلىٰ السيد الفاضل الذي ربما يكون داعم ابن النديم وراعيه المادي والمعنوي نديمه والسيد الفاضل هو (عيسىٰ بن علي بن عيسىٰ بن الجراح) أي ابن الوزير المشهور علي بن عيسىٰ الذي وزر للخليفة العباسي المقتدر حقبا

وبغداد ما زالت في هذه الحقبة تحتل دور عاصمة الخلافة تماماً كما كانت عند التأسيس منذ سنة ٧٦٢م / ١٤٥هـ، وفي ذات الوقت ظلت حتى هذه الحقبة تعدّ واحدة من أعظم مدن العالم ومن أعظم مدن الثقافة في العالم: وإن سوق الوراقين** الذي كان يقع في الجانب الشرقي من المدينة" وهو الجانب الأكثر رخاء وازدهاراً. والمسألة الأساس في الموضوع فيحقّ لهذه السوق أن تتباهى وتفتخر بضمّها حوالي مائة دكان لبيع الكتب(١).

وفي هذه السوق كانت الكتب تباع وتشترى ويتم المتاجرة فيها، إذ كان يؤخذ عمولات وخصومات على الكتب الجديدة، وقبل تسعمائة سنة من ظهور المطابع على شكل واسع الانتشار كانت الكتب في بغداد تنسخ بغير إتقان وتبذل الجهود المضنية في نسخها من قبل النسّاخ سواء كان ذلك يتم

عدة، ويحتمل أن ابن النديم كان نديماً لهذا الرجل أو ممن كان يواظب على حضور مجالسه الثقافية. فابن النديم يطلق على عيسى هذا لقب (سيدنا أبو القاسم عيسى بن علي)، ينظر ناجي، د. عبد الجبار: بيت الحكمة البغدادي (بغداد ٢٠٠٨) والفصل السادس: ابن النديم وخزانة بيت الحكمة ص ١٣٥-١٨٣، وبلاسيما ص ١٤٢-١٤٣) [المترجم].

** كان ابن النديم ورّاقاً يبيع الكتب ويشتريها ولعله كان أيضاً ينسخ الكتب، فهو حسبما ورد ذكره كان يسكن في محلة الشماسية، وهي من المحلات المشهورة في موقعها الجميل (حالياً في منطقة الصليخ) ولذلك كانت محلاً لسكنى التجار والأمراء أيام البويهيين وكان سوق الوراقين الذي كان ابن النديم يعمل بها تقع في محلة الرصافة الملاصقة لمحلة الشماسية (الصليخ الحالية + الرصافة + الأعظمية) مع العلم بأن محلة الكرخ البعيدة عن الشماسية، بحسب قول اليعقوبي في كتابه(البلدان) يقول وكان هناك سوقاً أخرى للوراقين وتقع بالقرب من قصر وضاح وكان يضم في عهد اليعقوبي مائة حانوت للوراقين وأصحاب الكتب وبالفعل فقد أتى ابن النديم على ذكر هذه السوق خلال حديثه عن القاضي أبي محمد عبد الله بن أحمد بن زيد الذي كان وراقاً يبيع الكتب ويورّق للناس بقصر وضاح. ووضاح مولى لابي جعفر المنصور، والمعروف أن السوق قد تلاقحت فيها الثقافات العلمية والأدبية إذ يتم التداول والتعاطي بالكتب والمؤلفات وأخبارها. وكان سوق الوراقين بالرصافة سوقاً كبيراً تعقد فيها مجالس العلماء والشعراء. ينظر اليعقوبي، أحمد بن جعفر، البلدان (طبعة أولى / النجف ١٩٥٧، ص ١٦؛ مؤرخ العراق ابن عقيل في كتاب جورج مقدسي: خطط بغداد في القرن الخامس الهجري (ترجمة د. صالح أحمد العلي، بغداد ١٩٨٤) نصّ ابن عقيل ص ٢٢؛ ناجي، د عبد الجبار، بيت الحكمة البغدادي ص ١٥٣، ١٥٤). [المترجم].

(١)م.ن..)

بحسب الطلب أي على وفق طلب المشتري أو بحسب توقّع النسّاخ في بيع هذا الكتاب أو ذاك.

ولذلك فقد كان ابن النديم على إطلاع ومعرفة واسعتين بسوق الكتب هذه، وبحسب إمكاناته وقدراته كنديم في بلاط الخليفة – وربما يقصد بالنديم مستشار الخليفة أو رفيق جلسات شرب الخليفة أو الشخص البارع في رواية الأخبار والقصص التاريخية يقصّها على مسامع سيده الثري – على وفق هذا كان ابن النديم قريباً من ثقافة البلاط ومن جميع الأنشطة التي كان البلاط يفضّلها أو يستحسنها، كالسحر والرجم بالغيب أو العرافة أوالقدرة على تحويل الشيء المبتذل إلى شيء نفيس، فضلا عن شيوع الكلام البذيء ribaldry والتهريج والهزل الماجن، جنبا إلى جنب مع الفلسفة والموسيقى والحساب والتنجيم. كل هذه المعارف تميز بها كتاب ابن النديم، ومرّة أخرى يمكن القول إن دمجا وتوليفة مثل هذه الحال بين هذه العناصر العلمية والهزلية ربما تبدو غريبة بالنسبة إلينا، لكنها تعدّ سمة عادية ومألوفة تماماً بالنسبة إلى ثقافة البلاط في ذلك الزمان سواءاً كانت هذه الحال شائعة بين الحكام المسلمين وغير المسلمين[1].

---

[1] الطبعة القياسية للكتاب هي الآن رضا – تجدد: الفهرست (طهران (١٩٧)، التي أعيد طبعها (دون تصديق أصلي من المحقق) في بيروت؛ أما عن ترجمته مع فهرست مفيد ينظر B.Dodge: فهرست ابن النديم (بالإنجليزية، نيويورك، ١٩٧٠)؛ وحول ابن النديم ينظر مقالات المؤتمر التي قد جمعت في كتاب بالألمانية بعنوان (ابن النديم والأدب العربي Ibn an-Nadim und die mittelalterliche arabische Literatur المطبوع في فيسبادن ١٩٩٦. وحول مؤسسة النديم ينظر A.Chejne في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(النديم في العصور العباسية الأولى) المنشور في مجلة JAOS مجلد ٨٥/ ١٩٦٥، ص ٣٢٧-٣٣٥؛ وحول وصف مدينة بغداد بشكل مفصل ينظر لاسنر Lassner.لفي كتابه الموسوم بـ (طوبوغرافية بغداد في أوائل العصور الوسطى: نصوص ودراسات) (المطبوع في ديترويت Detroit ١٩٧٠).

وعلىٰ المرء أن يتخيل أن هناك في مدينة بغداد تجّار كتب آخرين غير ابن النديم أولئك الذين كانوا يؤدون دوراً إضافياً إلىٰ دورهم كتجّار فكانوا بمثابة أحد رجال الحاشية الخليفية، وهم رجال كانوا علىٰ إطلاع وعلم بفاعلية السوق ونشاطه وعلىٰ إطلاع أيضاً بأذواق البلاط وما يحتاجه من كتب. وما جعل ابن النديم متميزاً من معاصريه تدوينه معارفه الضخمة في الكتاب الذي ألفه، فخّلف وراءه ما قد يبرهن في نهاية المطاف أنه أفضل مصدر بالنسبة إلينا فيما يتعلق بالتعلم والمعرفة Learning الإسلامية في وقت مبكر من العصر الوسيط.

وعنوان كتابه الفهرست، وهي الكلمة التي تترجم بشكل عادي ومألوف بـ (Index) أو كاتلوك. ومن أجل إعادة صياغة مقدمة*** الكتاب المختصرة جداً؛إذ إنه لم يقدم شيئاً معرفياً سوىٰ مسح شامل وعام للمؤلفات العربية وعن التعلم والمعرفة، سوية مع معلومة تراجمية عن سير حياة مؤلفي تلك الكتب. فالكتاب لهذا السبب يتعلق بالكتب والناس الذين يؤلفونها ويكتبونها. وفي آن معاً فإن انتاج بائع كتب لا يخدع بسهولة Hard-headed (إذ إنه عيّن بشكل خاص طول وحدود بعض الكتب بدقة، ولأن النسّاخ العديمي الضمائر كانوا في أحيان يبيعون أجزاء غير كاملة إلىٰ الزبائن الغافلين). وإن دليل أو فهرست هذا الرجل المثقف كان ربما سيحقق نجاحاً

*** بالفعل كانت مقدمة ابن النديم مختصرة إذ قال فيها :(استعنت بالله الواحد القهّار النفوس (أطال الله بقاء السيد الفاضل) تشرأب إلىٰ النتائج دون المقدمات، وترتاح إلىٰ الغرض المقصود، دون التطويل في العبارات؛ فلذلك اقتصرنا علىٰ هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا إن كانت دالة علىٰ ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله. فنقول وبالله نستعين، وإياه نسأل الصلوة علىٰ جميع أنبيائه وعباده المخلصين في طاعته. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.هذا فهرست كتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجود فيها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم، ومصنفيها، وطبقات مؤلفيها وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم، ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اخترع إلىٰ عصرنا هذا وهو سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة. [المترجم].

(لو كان عنون الكتاب بعنوان آخر بدلاً من الفهرست) بما كان يعتقد من توفيره وتزويده بالكتب.

لقد قسّم ابن النديم فهرسته على عشرة فصول، وانقسم كل فصل على عدد من المباحث الفرعية*

قال ابن النديم تحت عنوان (اقتصاص).

ما يحوي عليه الكتاب وهو عشر مقالات*

المقالة الأولى وهي ثلاثة فنون:

الفن الأول: في وصف لغات الأمم من العرب والعجم، ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها.
الفن الثاني: في أسماء كتب الشرائع المنزّلة على مذاهب المسلمين ومذاهب أهلها.
الفن الثالث: في نعت الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأسماء الكتب المصنفة في علومه، وأخبار القرّاء وأسماء رواتهم والشواذ من قراءتهم.

المقالة الثانية: وهي ثلاثة فنون في النحويين واللغويين.

الفن الأول: في ابتداء النحو، وأخبار النحويين البصريين وفصحاء الأعراب، وأسماء كتبهم.

---

* [لقد اعتمدت تقسيمات ابن النديم نفسه من الفهرست بدلاً من ترجمة عنوانات البروفسور روبنسون الذي كان يبدأ النقاط بصيغة مثل on poetry and poets المترجم].

* [ملاحظة استخدم البروفسور روبنسون كلمة Chapter تعبيراً عن مقالة، مع أن الفصل يعني المقالة ولربما كلمة Category أنفذ للمقالة من Chapter المترجم].

الفن الثاني: في أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين، وأسماء كتبهم.
الفن الثالث: في ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين، وأسماء كتبهم.

المقالة الثالثة: وهي ثلاثة فنون في الأخبار والآداب والسير والأنساب.

الفن الأول: في أخبار الإخباريين والرواة والنسابين، وأصحاب السير والأحداث، وأسماء كتبهم.
الفن الثاني، في أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين، وأسماء كتبهم.
الفن الثالث، في ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين ،وأسماء كتبهم.
المقالة الثالثة، وهي ثلاثة فنون في الأخبار والآداب والسير والأنساب

الفن الأول:في أخبار الاخباريين والرواة والنسّابين وأصحاب السير والاحداث ، وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار الملوك والكتّاب والمترسلين، وعمّال الخراج وأصحاب الدواوين، وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في أخبار الندماء والجلساء (والأدباء) والمغنين والصفادمة والصفاعنة والمضحّكين، وأسماء كتبهم.

المقالة الرابعة: وهي فنان في الشعر والشعراء.

الفن الأول: في طبقات الشعراء الجاهليين، والإسلاميين ممن لحق الجاهلية، وصناع دواوينهم، وأسماء رواتهم.
الفن الثاني: في طبقات شعراء الإسلاميين والشعراء المحدثين إلى عصرنا هذا.

المقالة الخامسة: وهي خمسة فنون في الكلام و المتكلمين.

الفن الأول: في ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة ، وأسماء كتبهم.
الفن الثاني: في أخبار متكلمي الشيعة الإمامية والزيدية وغيرهم من الغلاة والإسماعيلية، وأسماء كتبهم.
الفن الثالث: في أخبار متكلمي المجبّرة والحشوية، وأسماء كتبهم.
الفن الرابع: في أخبار متكلمي الخوارج وأصنافهم، وأسماء كتبهم.
الفن الخامس: في أخبار السيّاح والزهّاد والعبّاد والمتصوفة المتكلمين علىٰ الوسواس والخطرات، وأسماء كتبهم.

المقالة السادسة: وهي ثمانية فنون في الفقه والفقهاء والمحدّثين.

الفن الأول: في أخبار مالك وأصحابه، وأسماء كتبهم.
الفن الثاني: في أخبار أبي حنيفة (النعمان) وأصحابه وأسماء كتبهم.
الفن الثالث: في أخبار الإمام الشافعي وأصحابه وأسماء كتبهم.
الفن الرابع: في أخبار داود وأصحابه، وأسماء كتبهم.
الفن الخامس: في أخبار فقهاء الشيعة، وأسماء كتبهم.
الفن السادس: في أخبار فقهاء أصحاب الحديث والمحدّثين ، وأسماء كتبهم.
الفن السابع: في أخبار أبي جعفر الطبري وأصحابه ، وأسماء كتبهم.
الفصل الثامن: في أخبار فقهاء الشراة ، وأسماء كتبهم.

المقالة السابعة: ثلاثة فنون في الفلسفة والعلوم القديمة.

الفن الأول: في أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجودة منها وما ذكر ولم يوجد وما وجد ثم عدم.
الفن الثاني: في أخبار أصحاب التعاليم، المهندسين، والارثماطيقيين والموسيقيين والحُسّاب المنجمين وصنّاع الآلات وأصحاب الحيل والحركات.
الفن الثالث: في ابتداء الطب وأخبار المتطببين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها.

المقالة الثامنة: وهي ثلاثة فنون في الأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعبذة.

الفن الأول: في أخبار المسامرين والمخرّفين والمصورين وأسماء الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات.
الفن الثاني: في أخبار المعزمين والمشعبذين والسحرة وأسماء كتبهم.
الفن الثالث: في (أسماء) الكتب المصنفة في معان شتى لا يعرف مصنفوها ولا مؤلفوها.

المقالة التاسعة: وهي فنان في المذاهب والاعتقادات.

الفن الأول: في وصف (مذاهب) الحرّانية الكلدانيين المعروفين في عصرنا بالصابة – الصابئة – ومذاهب الثنوية، من المنّانية والديصانية والخرمية والمرقيوئية والمزدكية وغيرهم وأسماء كتبهم.
الفن الثاني: في وصف المذاهب الغريبة الطريفة كمذاهب الهند والصين وغيرهم من أجناس الأمم.

المقالة العاشرة: وتحتوي على أخبار الكيمائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم.

(ملاحظات على ما أورده البروفسور روبنسون):

١- في الفصل الرابع لم يشر ابن النديم إلى الشعراء الأمويين إنما قال (الجاهليين والإسلاميين ممن لحق الجاهلية).

٢- والمقالة الخامسة خصّها ابن النديم بالكلام والمتكلمين وليس الفقهاء والزهاد والعباد كما أوردها البروفسور روبنسون.

٣- في الفصل الثامن فإن البروفسور لم يذكر جميع الفنون إنما أشار إلى مصطلح وغيرها المرتبطة بها.

٤- من الفصل التاسع نصّ البروفسور روبنسون على غير الإسلامية والروايات المتعلقة بهم، لكن ابن النديم خصّ حرفيا المذاهب والإعتقادات الفرق.

٥- في الفصل العاشر اقتصر البروفسور روبنسون على ذكر (الكيمائيين) فقط بينما نصّ ابن النديم فيه الكيميائيون والصنعويون من الفلاسفة القدماء والمحدثين.*

(ويستمر المؤلف قائلا):هناك في الأقل أمران ينبغي ذكرهما بشأن محتويات الفهرست.

أولهما: هو ذلك الذي سأناقشه في آنفا، المتعلق بالمقولات التي قد اختارها ابن النديم في وصفه وتصويره ثقافة الكتابة في بغداد. فالفصل

* [مناقشة المترجم لمحتويات كتاب الفهرست لابن النديم كما وردت نصّاً في الفهرست. المترجم].

الثالث قد نطلق عليه تسمية مؤلفات الأنساب، والسير (وهي كسير القديسين) والأسطورة والتاريخ الحولي، والجغرافية، والطبقات البروسبوغرافي، والأثرية، والتاريخ الطبيعي، والإدارة، وترجمة الحياة والكثير جداً من الأمور إلى جانب هذا، فما الذي يقصده ابن النديم بدمج جميع هذه المحاور في فصل واحد؟ ولماذا كان التدوين التاريخي ـ وهو لا يماثل الشريعة والفلسفة ـ قد أخفق في تأمين فصل خاص به؟ إن كلا هذين السؤالين لا يدخلان في الإعتبار أولا يقبلان الإيحاء بأن جميع النقاد الغربيين متفقون على الكيفية التي يصنف فيها فن سرد الأخبار أو الرواية بالكيفية التي يؤلف فيها التدوين التاريخي، وفي الوقت نفسه فإن المسلمين في العصر الوسيط لم يسلكوا نهجاً معيناً ومحدّداً ولم يعرّفوا التدوين التاريخي بطريقة مستقلة أو مفردة أو بطريقة أخرى خاطئة. فسرد الأخبار والرواية، سواء أكانت حقيقية أم خيالية، شعرية أم نثرية، عربية أم إنجليزية، إنّما هي سلسلة متصلة تعيّن وتفرض أو تحدث جميعاً ، إن كنا نقاداً أو مؤرخين، أو قراء أو كتاباً ومن ثم نفرض عليه تصنيفاتنا أو مقولاتنا الخاصة.

فنحن بحاجة إلى مقولات وتصنيفات اصطلاحية متفقة مع القواعد المقررة أو مألوفة من اجل أن نتحدث أو نناقش بعضنا البعض الآخر بشأن الأدب والمصادر، لكن علينا أن لا نخدع أنفسنا في التفكير بأن هذه التصنيفات والمقولات ناشئة في نفسها أو قائمة فيها: ففائدة استعمال هذه التصنيفات مشروطة في التاريخانية، وإلى حدٍّ ما بالسياسة. هذه حقيقة الرواية التي يفهم منها ظاهرياً كونها تصف الماضي (كتاب أو عمل تاريخي) كالحال

في رواية أو قصة تستحضر في ذهن القارئ صورة ماضي كرواية أو قصة novela"[1].

إن الفهم الشائع والمألوف عليه اليوم بالنسبة إلى التاريخ (هو مجموعة متنوعة أو ضرب من غير القصة ذلك الذي يتميز من الأدب literature، وإن كان فرعا مستقلاً عن فروع المعرفة- إنه نسبياً جديد وأضيق تماما عن الروايات التي انبثق عنها . إنه قد أربك الكثير من الكتّاب قبل الزمن الحديث، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين (الكلمة الإنجليزية history جاءت أو انتقلت عبر اللاتينية ومن ثم إلى الإغريقية historia التي كان يقصد بها بصورة عامة الاستقصاء)؛ وقد وصفت قديماً بأنها مجموعة متنوعة من الأدب أو ضرب من الأدب كالرواية والمسرحية والمقالة، وهذا بضمنها الجغرافية والفولكلور التراث الشعبي والإثنوغرافيا الوضعية فضلاً عن ما قد نفهمه بصورة عامة ومألوفة (بأن يكون تاريخا History)،ولأننا ننظر إلى التاريخ بوصفه مفيداً ونافعاً، فإلى حدٍّ ما أنّنا نجذّر هويتنا القومية في التاريخ أيضاً. ونطلق عليه مجموعة متنوعة من الصيغ أو الأشكال المؤسساتية، نظير المتاحف، والجمعيات التاريخية المحلية، ونخصّص ونكرس له أقساماً في محلات بيع الكتب وفي المكتبات، والأقسام الجامعية. فضلاً عن أننا نميّز ونمنح بعض أشكال التاريخ على الأشكال أو الصيغ الأخرى امتيازاً، وللمرة الثانية نقول كل ذلك لأسباب وعوامل ثقافية وسياسية. أما وقد كان التاريخ بالتأكيد مهماً للمسلمين في الحقب الكلاسيكية، فإننا بالكاد نحتاج الى الإشارة الى أن هذا الكتاب في التاريخ يستأهل ويستحق أن يكتب؛ وذلك

---

[1] سوف نتحدث عن المزيد في آنفا بخصوص الأصناف الأدبية. والآن ينظر بيترسن L.Petterson في دراسته بالإنجليزية (مناقشة الماضي: الفهم التاريخي لأدب العصر الوسيط) المطبوع في مديسون Madison ١٩٨٧، ولاسيما ص ٤١ وما يعقبها.

لأن المسلمين قبل التاريخ الحديث قد كتبوا الكثير جداً من الكتب والمؤلفات عن التاريخ، وملأوا مكتباتهم بمجلد إثر مجلده. غير أن أكثر العلماء المسلمين في تلك الحقب قد أسبغوا على المؤرخ مرجعية وموثوقية أقل بكثير مما نعمله نحن الآن وفي الوقت الحاضر، وصوروا فعاليته ونشاطه بصورة ليست أكثر من كونه فرعاً من فروع المعرفة الإنسانية مستقلاً عن فروع المعرفة الأخرى. ولكنه هو نوع من تطبيق عملي لسرد الرواية. والمؤرخون المسلمون في العصر الوسيط، بخلاف المؤرخين الغربيين المحدثين، نادراً ما يصرّون بإلحاح على كونهم يعملون في حقل خاص. فالذي يميّز المؤرخ المسلم، ذلك الذي كان يسمى في العادة اخباري (الشخص المهتم بأحداث الماضي) فالمؤرخ Historian أو (أو الكرونولجر Chronologer) لم يكن ذلك الشخص الذي ينتمي إلى قسم التاريخ، ويدفع رسوماً إلى عضو متناظر في الجمعية التاريخية الأمريكية، كذلك هو ليس الشخص الذي يرى في نفسه في المقام الأول اخبارياً أو مؤرخاً. إنه أقرب إلى الشخص الذي يقوم - بشكل خاص - مقام المربي أو المعلم الخصوصي، وذلك لأن المؤرخين المسلمين كانوا يكسبون رزقهم بالقيام بعمل في مجال غير التاريخ ، فالتعليم (ولاسيما علوم الشريعة) ومنذ بداية منتصف حقبتنا، وفي مؤسسات التعليم، وفي الكتابة أو التأليف – كل شيء ابتداءاً من نسخ الكتب إلى وضع مسّودات الرسائل أي رسائل الإنشاء إلى السيد الداعم للمؤلف. وفي الواقع سوف نرى بإنه عبر أكثر الحقبة الكلاسيكية القديمة، حافظ المؤرخون المسلمون على رباطة جأشهم و المحافظة على طأطأت وخفض رؤوسهم، بل اختاروا طريقاً لمتابعة الأساليب أو النماذج الثقافية والأكاديمية تلك التي وضعت وأسّست من قبل أولئك الذين كانوا يتمتعون بالسلطة الإجتماعية الواسعة النفوذ– الفقهاء – تلك التي كانت تؤدي ثمارها مناصبهم الرفيعة، ولاسيما خلال القرنين التاسع

والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين. فالذي جعل المؤلف مؤرخاً كان هو؛ لأنه أختار منهجاً في ترتيب وتنظيم الروايات روايات أحداث ماض (أخبار) بطريقة أو أكثر من الطرق المتميزة وهو خلاف أولئك الآخرين من الممّونين أو المتعهدين للرواية المكتوبة، تلك التي كانت في التاريخ الحولي الكرونولوجي إما بشكل بيّن وصريح أو بشكل مفهوم ضمنياً كانوا كرولونوجيين. فقد تساءل أحد المستعربين الفرنسيين الكبار مرّة فيما إذا كان المسعودي (ت ٣٤٥هـ / ٩٥٦م) مؤلف التاريخ الثقافي للعالم الضخم والواعد، مؤرخاً أو رجل أدب أو كاتب محترف، والجواب عن ذلك إنه كان يجمع بين الإثنين التاريخ والأدب[١].

هذه المسألة تأخذنا وتنقلنا إلىٰ مسألة ثانية علينا ذكرها بما يتعلق الأمر بمحتويات كتاب ابن النديم، وهي علىٰ أية حال محتويات تظهر أولاً شهية الحصول علىٰ العلم والمعرفة في بغداد في القرن التاسع/ الثالث الهجري، وبضمنها الرواية التاريخية التي قد صوّرت أو وصفت في فصله الثالث بشكل جليّ جداً. فالتدوين التاريخي أو علم التاريخ لم يؤمّن ولم يحصل علىٰ موضع ذي هيبة ومكانة في معرفة العالم الإسلامي الوسيط كما حصلت عليه الفروع المعرفية الأخرىٰ، ولاسيما الشريعة ؛ ولكن مع هذا ظلّ ينتج بشكل كبير. فمن بين العشرة فصول في فهرست ابن النديم، يشغل الفصل الثالث قرابة ٢٠٪ من جميع متن الكتاب وقدّم قوائم بأسماء كتب تقدر بمائة مؤلف تقريباً،

---

[١] وحول أصل كلمة تاريخ ينظر روزنثال F.Rosenthal في دراسته بالإنجليزية (تاريخ التدوين التاريخي الإسلامي) طبع في ليدن، طبعة ثانية، ١٩٦٨، ص ١١ وما بعدها؛ ويجد المرء في مرات كلمة خبري بدلاً من إخباري، نظير ما موجود عند ابن عبد المؤمن الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار (بيروت ١٩٧٥) ص ١٣٣، وإن المؤرخ الفرنسي شارل بلا C.Pellat بحث في بحثه بالفرنسية هذا الموضوع في بحثه الموسوم بـ (هل كان المسعودي مؤرخاً أو أديباً؟) ونشر البحث في مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية J.P.H.S. مجلد ٩ لسنة ١٩٦١ ص ٢٣١-٢٣٤.

وإن الكثير من الصفحات واللمحات عن حياة هؤلاء المؤلفين بحساب مقاييس هذا الزمن أو غيره من الأزمنة، والفصل يغطي أكثر من ألف عنوان (وسنرىٰ أن هذه العنوانات هي في واقع الأمر جزءا من الإشكالية). وكل ذلك قد جمعه الكتاب وضمّه بين دفتيه، وضم فعلاً لأكثر من مائتي سنة. وعند موت المؤرخ الواقدي (ت ٢٠٨هـ / ٨٢٣) قيل إنه ترك خلفه لا أكثر من ٦٠٠ ستمائة صندوق من الكتب، وكان يحمل كل صندوق شخصان (وإنه قد شغّل كاتبين لنسخ الكتب له، وكان كلاهما، بحسب ما ورد في الرواية ـ يعمل في النسخ ليلاً ونهاراً ـ)، فبوسعنا فقط أن نتخيل ونقدر أعداد تلك الكتب التاريخية. وقيل إن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) وهو كاتب الرسائل الذي أصيب في كبره بالشلل، كان ـ حسبما هو معروف ـ قد عصر إلىٰ حدِّ الموت بسبب كتبه، ولعل القصة ملفقة لكنها تبقىٰ قصة دالة ومؤثرة. وهناك رواية عن أحد الحمّالين في القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري قد امتنع عن مهمة عمله بحجة صعوبة نقل مكتبته، التي كما قيل إنها كانت تضمّ حمل أربعمائة جمل من الكتب – وكان جميعها يمثل كتباً بعنوان الفقه فقط، وكذلك فإن واحدة من مخطوطات التاريخ التي كتبها الطبري (ت ٣١٠/ ٩٢٣م) ذكرت اسم الكتاب بأنه مختصر، واعتماداً علىٰ بعض الروايات، فإن هذه النسخة هي النسخة الكاملة وكان طولها وحدودها تقدر بعشرة أضعاف النسخة الموجودة والباقية فعلاً – وافتراضنا أنها كانت بحوالي ٧٧.٨٧٠ ورقة طولاً ! وهذا وإن كان بالتأكيد لا يمكن تصديقه للوهلة الأولىٰ، إلا أنه كان حالة مألوفة. وفي الحقيقة أن سوق الكتب والمعرفة والتعلم كانت بقدر ما هي تروق ذوي الثقافة الرفيعة بقدر ما هي لا تشبع نهم المثقفين. فإحدىٰ مكتبات القاهرة في أواخر القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري يظهر أنها كانت تضمّ مئات أو آلاف الكتب بضمنها عدّة نسخ مضاعفة كثيرة، تلك

التي صارت في حينها تواريخ ذات قيمة قياسية ومعترف بها. في الواقع ليس هنالك في العالم المسيحي المتعاصر - إن كان في الشرق أو الغرب، بالإمكان موازنته ومقارنته مع هذا الولع الشديد في اقتناء الكتب - كذلك فإن الإغريق والرومان لم ينتجوا أي شيء موا زية مع هذه النسبة والدرجة عند المسلمين. ولعله يمكننا استثناء الصين، فما عدا ذلك على المرء أن ينتظر ويمهل ليرى مطابع طبع الكتب من أجل إيجاد ظاهرة قابلة للموازنة مع ما أنتجه المسلمون[1].

في الحقيقة، فإن نشأة أو أصل الكتابة التاريخية في الإسلام يتوافق ويقابل حقبة دولة التانغ T'ang (٦١٨م – ٩٠٧م) في الصين، تماماً تقريباً، ولكن في الأقل اختلافاً حاسماً واحدا بين ثقافة الأدب الصيني وثقافة الأدب الإسلامي. لقد كان ولع واهتمام دولة التانغ باقتناء الكتب أيضاً : وأبتدء مع كونفشيوس ConFucius (ت ٤٧٩ق. الميلاد)؛ إذ كان الورق متوافرا وموجوداً لخمسمائة سنة تقريباً. وكان العباسيون، مماثليهم، قد فجّروا ثورة امتدت مدة أربعة أو خمسة أجيال. فالنبي محمد قد توفي سنة ١١هـ / ٦٣٢م. وكان في الواقع يتصف بالبطولة الهائلة (كارزما)، وكان رجلاً ذكياً وموهوباً – وكان رجلاً كما ذكر أيضاً أميّاً. ولعله بوسعنا القول إن معرفة القراءة والكتابة بين الصفوة أو النخبة الإسلامية قد ابتدأت تنتشر وتصبح شائعة مع

---

[1] عن الواقدي ينظر ابن النديم فهرست ص ١١١ (Dodge، فهرست ص ٢١٤)؛ ورجل البلاط في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري هو الصاحب بن عباد، وعنه ينظر متز A.Mez دراسته المترجم إلى الإنجليزية (نهضة الإسلام) ترجمة S.K.Baksh and D.S.Margoliouth المطبوع في بتنا Patna ١٩٣٧ ص ١٧٤؛ وعن الطبري ينظر روزنثال في دراسته بالإنجليزية الموسوم بـ (مقدمة عامة، ومن الخليقةحتيالطوفان) المطبوع في الباني Albany، ١٩٨٩؛ ترجمة الطبري جزء أول؛ وعن المكتبات وتكاثر الكتب بصورة عامة ينظر بدرسون J.Pederson في كتابه المترجم إلى الإنجليزية بعنوان (الكتاب العربي) ترجمة G.French (والمطبوع في برنستون ١٩٨٤) ولاسيما الفصل التاسع.

جيل حفيده، وبعد ذلك تزايدت بسرعة كبيرة جداً: فالكتاب المصدري السليم والقياسي (المثير للجدال والخلاف) قد نسب إلى ابن حفيده علي بن الحسين (ت سنة٩٨هجرية/ ٧١٥م)، وكان بسبعة عناوين، وإن حفيد علي المتبحّر في العلم والمعرفة جعفر الصادق (ت ١٤٨/ ٧٦٥) له من الكتب ٣٢عنواناً، فهذا الفصل حاول ويحاول أن يسلّط الضوء على كيفية تميز وتصوير التدوين التاريخي في ذلك النمو الإنفجاري أو المتفجر في الثقافة المكتوبة، التي بدورها قد حدثت وتفجّرت بظهور الإسلام[1].

الشفاهية أو الشفوية والرواية والتاريخ:

أظهر جعفر الصادق المثل العليا والأفكار الثقافية في الكوفة في العصر العباسي المبكر، فهذه المدينة المزدهرة في جنوب العراق تلك التي عاش فيها الصادق وتعلم، هكذا أيضاً ما قام به محمد الذي ولد في مدينة مكة في الجزيرة العربية حوالي سنة ٥٧٠م، وفيها أنزل الله سلسلة من الوحي، الآيات، التي جمعت بعد وفاته لكي تكوّن وتنظّم القرآن. وبخلاف الكوفة في حقبة أواخر القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة، فإنه في عالم محمد الصغير

---

[1] الإشارة المصدرية المثالية كتاب فؤاد سزكين باللغة الألمانية تاريخ الأدب العربي الذي يرمز له GAS صفحة ٥٢ وما يعقبها من الصفحات؛ وعن التدوين التاريخي او علم التاريخ الصيني المتعاصر ينظر D.Twitchelt في الكتاب باللغة الإنجليزية (كتابة التاريخ الرسمي تحت حكم التانج T'ang) المطبوع في كمبردج ١٩٩٢؛ وكذلك حول مقالات أقدم التي بقيت مفيدة ينظر المحققان E.G.Pulleyblank and W.G. Beasley لكتاب (مؤرخو الصين واليابان) بالإنجليزية، المطبوع في اكسفورد ١٩٦١ وكذلك بحث E.G.Pulleyblank الموسوم بـ (رواية التدوين التاريخي) بالإنجليزية في كتاب من تحقيق R.Dawson الموسوم بـ (تراث الصين) المطبوع في أكسفورد/ ١٩٦٤ ص ١٤٣ وما بعدها من الصفحات.

لم يترك مجالاً وحيّزاً للكتابة، وفي الأقل الكتابة إلى ما بعد الحقبة التي كتبت فيها الاتفاقيات التي كانت تعقد في مناسبات. أيضاً أقل من ذلك ما أعدّ ونظّم على شكل كتب، وذلك لأن تنظيمها الإجتماعي – العوائل والعشائر والقبائل – والتحالفات القبلية، جميع هذه الأنماط قد توّحدت وتماسكت بطريق القرابة والنسابة، إن كانت حقيقية أو خيالية ومزيفة** – فهذه لا تحتاج إلى الكتابة، في الوقت الذي يسودها مستويات واطئة في التنمية الإقتصادية، وهذه التنمية هي التي تحدّد شكلها بنسبة سكانية قليلة وضعيفة من الرعاة ومن المستقرين في بلدات Towns وواحات صغيرة متناثرة ومتفرقة، وهذه جميعاً لا تدعم الكتابة أو لا تشجعها، فبلدة مثل مكة تغاير وتختلف في ثقافتها الفقيرة جداً في الكتابة مع مدينة الكوفة العباسية في عهد جعفر الصادق، بل كذلك تختلف مع تلك البلدات والمدن المتعاصرة معها في الجنوب المستقر، حيث الثقافة المكتوبة (وبضمنها أنظمة التوقيت والتأريخ التي كانت مكتوبة) وكانت صقيلة ومعقدة نسبياً. وإن الحال المتواضعة والبسيطة في معرفة القراءة والكتابة في الحجاز قد برزت في تقنية الكتابة نفسها. وكما مارسه وخبره محمد، فإن القرآن كان سلسلة متتالية من المعلومات البليغة من الوحي قد نقلت شفوياً من الله بوساطة الملك جبرائيل، وحينما كتبت ودوّنت كانت منقوشة على قطع من الجلد أو على عظام الحيوانات. وقد قدم القرآن نفسه ذكر بعض الكتب ومواد كتابة أخرى، ولكن جميع هذه ـ وبصورة عامة ـ كانت ترتبط بالتوحيد والإيمان بالله الواحد، فالمشروع الثوري الذي جاهد فيه محمد حارب وناضل بصعوبة جداً ـ وبجدّ ـ من أجل نشر الإسلام بدلاً من الوثنية التي كانت هي الصيغة والشكل ذي الاعتبار في الدين المتكلف

** كذلك، فالمؤلف وازن بين الكوفة والإمام الصادق وبين مكّة والرسول في الجوانب الثقافية، وهو موضوع جدير بالمناقشة فالكوفة قد صارت بعد تمصيرها مدينة قطنها الكثير من صحابة الرسول وقد أدّوا أدواراً ثقافية وعلمية كبيرة [المترجم].

عند الجاهليين[1].وليس هناك من شيء استثنائي حول المستوى البسيط والمتواضع جداً في معرفة القراءة والكتابة والأدب في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري. فالعرب وغير العرب الرعاة وشبه الرعاة في الحقب القديمة والمبكرة والتي أعقبتها قد أنتجوا بصورة عامة كتابة ولكن بشكل قليل، معتمدين بدلاً من الكتابة على واسطة مرنة وملائمة لهم في الشفاهية. وبين العرب ـ قبل الإسلام ـ كانت الشفوية هي من أعلى الوسائل للتدوين والظاهر أنها احتلت مكاناً بسيادة الشعر، ولاسيما بالقصيدة الشعرية الغنائية. وكما ذكر اليعقوبي أن العرب قبل الإسلام (ليس لديهم شيء لأن يشيروا به إلى قراراتهم وأفعالهم سوى الشعر؛ ففيه يتنازعون ويختصمون ومنه يتعلمون الدروس، وبه يتنافسون بقوة فاعليتهم وبه يتحاسدون وبه يتمثلون ويتفاخرون بمفاخرهم، وبه يقسمون ويتقاسمون وبه يحارب بعضهم بعضاً وبه يمدحون ويهجو بعضهم بعضاً. وبالشعر تسنح لهم فرصة الرواج والتنقل كعملة متداولة*، وعن طريقه يكون هناك تنوع واسع في التعاملات

---

[1] عن الحجاز والرعي في الجزيرة العربية بصورة عامة ينظر F.M.D Onner في دراسته بالإنجليزية (الفتوحات الإسلامية الأولى) المطبوع في برنستون ١٩٨١ ص ١١ وما بعدها من الصفحات؛ وعن العربية الجنوبية ينظر A.F.L.Beeston (نقوش العربية الجنوبية عن التقويمات والتوقيت) بالإنجليزية المطبوع في لندن ١٩٥٦؛ وعن استعمال بسيط لكتابة الوثائق ينظر G.Schdeler باللغة الألمانية Schreiben und Veroffentlichen: zu Verwendung und Funkton der schrift in den ersten islamischen Jahr hunderten المنشور في مجلة DI مجلد ٦٩ / ١٩٩٢ ص ٢ وما بعدها من الصفحات، وقد ترجم جزء منها بعنوان (الكتابة والنشر حول استخدام ووظيفة الكتابة في القرون الإسلامية الأولى) باللغة الإنجليزية المنشور في مجلة أرابيكا Arabica؛ وينظر مركتين M.Maraqten في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (مواد الكتابة في الجزيرة العربية قبل الإسلام) المنشور في مجلة JSS مجلد ٤٣/ ١٩٩٨ ص ٢٨٧-٣١٠ (الجلود، النباتات، والأشجار، والملابس أو القماش والمعدن والعظام والأحجار وكسر الأواني).

* وقف اليعقوبي في تاريخه في الجزء الأول ص ٢٢٣ من التاريخ الذي علق عليه وحققه خليل المنصور والمطبوع في بيروت الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٢ على أهمية الشعر عند العرب قبل الإسلام فقال ما نصّه (كانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة وكثير العلم، فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر المصيب المعاني المخيّر الكلام احضروه في أسواقهم التي كانت تقوم لهم في السنة ومواسمهم عند حجهم البيت حتى تقف ومجتمع القبائل والعشائر، فتسمع شعره ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم

الثقافية، وعن طريق الشعر بوسعنا أيضاً أن نعيد إلى الحياة بعض مفاهيم ومعاني عرب قبل الإسلام بالنسبة إلى الزمن والوقت والمصير والقضاء والقدر. والأبيات الشعرية الآتية في آنفا قد نسبت إلى الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص، الذي يبدو أن تاريخه يرجع إلى النصف الأول من القرن السادس، وهذه الأبيات الشعرية إن هي إلا إنموذجاً في الشكل والمحتوى: •

تحقيق سير جارلس ليل **Sir Charles Lyall)**

١/ من هي الديار على البقعة المكسوة بالحصى لروحان ما ثارهم تقريباً قد غابت أو تلاشت قد غيرتها الأزمان.

١/ لمن الديار ببرقة• الروحان درست وغيّرها صروف زمان

٢/ لقد أوقفت بعيري أو جملي هناك، وذلك لكي أسألهم. بعدها انصرفت بالبهيمة، والدموع تجري من عيوني.

وشرفاً من شرفهم) ج١ ص ٢٢٣. وبالنسبة إلى النصّ الذي ترجمه البروفسور روبنسون هو كالآتي عند اليعقوبي في تاريخه. يقول اليعقوبي (ولم يكن لهم - يعني للعرب - شيء يرجعون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر، فيه كانوا يختصمون، وبه يتمثلون وبه يتفاضلون، وبه يتقاسمون وبه يتناضلون وبه يمدحون ويعابون، فكان ممن قدّم شعره في جاهلية العرب على ما أجمعت عليه الرواة وأهل العلم بالشعر، وجاءت به الآثار الأخبار من شعراء العرب في جاهليتها مع من أدركه الإسلام فسمي مخضرما فإنهم من دخلوا مع تقدم فسمّوا الفحول، وقدموا على تقدم أشعارهم في الجودة) تاريخ اليعقوبي ج١ ص٢٢٣ [المترجم].

• [تعقيب المترجم، وسوف اترجم كل بيت شعر كما نصّ عليه البروفسور روبنسون ثم أعقبه بنصّ البيت الأصلي الذي ورد في ديوان عبيد بن الأبرص السعدي الأسدي/ المطبوع في ليدن - بريل سنة ١٩١٣].

• (والبرقة حجارة ورمل أو حجارة وطين، وجبل أبرق وبرقاء إذ كانت تربته فيه سواد وبياض المترجم).

٢/ فوقفت فيها ناقتي لسؤالهافصرفت والعينان تنبتدران (وقيل تنبتدان)

٣/ اسكب كما لو كانت عيناي قد تثيران تعجبي بدموعها [مثل المطر الغزير] على البعير المذبوح.

٣/ سجماً كأن شنانه رجبية سبقت إلي بمائها العينان

٤/ أتذكر الأيام عندما كان أهلي أفضل من أي جمع من الناس أولئك الذي عانوا من المجاعة والحرمان والضيق والسجن.

٤/ أيام قومي خير قوم سوقه لمعصب ولبائس ولعاني.

٥/ كم كان هؤلاء فضلاء وممتازين الذين يلعبون الميسر على البعير المذبوح، عندما ريح الشتاء هبت بشدة وتجمع الجيران سوية.

٥/ ولنعم أيسار الجزور إذا زهت ريح الشتاء ومألف الجيران

٦/ وحينما جاءت لتدّخر على العطش، وقد اعتادوا أن يصبغوا رؤوس رماحها بالدم.

٦/ أما إذا كان الطعان فإنهم قد يخضبون عوالي المرّان

٧/ وحينما تأتي إلى ضرب السيوف، فإنهم أسود، يحمون أشبالهم.

٧/ أما إذا كان الضراب فإنهم أسد لدى أشبالهن حواني

٨/ وعندما تتعالى الصرخة أن يترحلوا أو ينزلوا، فإنهم سيسارعون إلى الإمام (للقتال مشاة) بدروعهم المزرّدة.

٨/ أما إذا دعيت نزال فإنهم يحبون للرّكبات في الأبدان

٩/ ولقد بقيت بعد رحيلهم، مع أنني سوف لن أبقىٰ هناك إلى الأبد لأن الدهر مليء بالمتغيرات والمظاهر المتعددة الألوان.

٩/ فخلدت بعدهم ولست بخالد فالدهر ذو غير وذو ألوان.

١٠/ الله يعلم ما لم أعلم عن مصيرهم. وذكرياتي لما مضىٰ مني في أي وقت مضىٰ.

١٠/ الله يعلم ما جهلت بعقبهم وتذكّري ما فات آي أوان*.

هناك شك يتعلق ببداية البيت الأخير (الله يعلم) فمن المحتمل أنها قد دسّت أو أدخلت في النصّ – أي نص البيت الشعري – من قبل الراوية المسلم. فليس هناك من علاقة بهذا البيت والبيت الشعري الذي يسبقه، إذ إنه في البيت السابق عبّر عن الدهر Fortune تعبيراً بارعاً ودقيقاً. فالدهر تعبير قد تخلل الشعر قبل الإسلام كثيراً ضداً بما قد وجهه قرآن محمد من درس أخلاقي[1].

---

*ينظر ديوان عبيد بن الأبرص الأسدي، تحقيق شارلز ليل Sir Charles Lyall المطبوع بمناسبة سلسلة في ذكرىٰ وفاة E.J.W.Gibb من ليدن – ابريل ١٩١٣، ص ٤٩–٥٠ [المترجم].

[1] وعن المؤرخ في القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري وروايته عن الشعر، ينظر اليعقوبي، تاريخ (ليدن ١٨٨٣) ج١ ص ٣٠٤ (وقد أشير إليها بالفعل في كتاب تي. خالدي في كتابه الموسوم بـ (الفكر التاريخي العربي في الحقبة الكلاسيكية) باللغة الإنجليزية المطبوع في كمبردج ١٩٩٤ ص ٢، إذ الترجمة تختلف نوعا ما ؛ ينظر أيضاً ابن رشيق كما ترجم في بحث S.P.Stetkevych في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (شاعر عباسي يفسر التاريخ: ثلاث قصائد لابي تمام) المنشور في مجلة JAL مجلد ١٠/ ١٩٧٩ ص ٤٩؛ وقد اعتمدت على ترجمة شعر عبيد بن الأبرص من كتاب A.Jones الموسوم بـ (الشعر العربي القديم أو المبكر)، جزء أول: أشعار المراثي والصعاليك (ريدنك Reading 1992) ص ٥٨ وما بعدها من الصفحات؛ وعن الجبرية والإيمان بالقضاء والقدر ينظر كاسكل W.Caskel في دراسته باللغة الألمانية Das schicksal in der altarabischen Poesie: Beitrage zur arabischen Literatur und allegeinen Religion sgeschichte المطبوع في لايبزك Leipzig / ١٩٢٦.

ففي عصر ما قبل كتابة الكتب والمجلات والراديو والتلفزيون والحاسوب، كانت المهمة في تداول الأخبار، والتنبؤ بالمستقبل ومن ثم الإنتقال إلى الحكمة والموعظة والمشورة العملية، وهي التي تمثل رأي إحدى الجماعات إزاء الأخرى، وتوفير المتعة والتسلية – جميع هذه كانت تنقل من قبل المتكلمين: القصّاص والعرّافين والمتكهنين والمتنبئين والخطباء أو الناطقين باسم قبائلهم (والملاحظ أن هذه الأصناف كانت متداخلة ومتشابكة فيما بينها). فالشفوية قد اختيرت اختياراً غير متقن – وذلك لجعلها تتلاءم مع عرب الحجاز قبل الإسلام؛ إذ كانت تخزن في رأس أو ذهن المرء ثم تنقل بصيغة الصوت أو الشعر أو أي صيغة أخرى من صيغ الشفوية، لذلك فإنها لا تتطلب جهداً في نقلها كما أنها غير مكلفة للحصول عليها نسبياً، فأي قطعة ربما لا تكلف إلا وجبة طعام. ولكونها قصة مهمة، فإن محتوياتها يمكن أن تتكيف تبعا للمتطلبات المتغيرة للمجموعات القبلية، إذ تحدّدت هوية الفرد أساساً على روابط النسب والقرابة المفهومة. وبتعبير دقيق، فإن الفرد في القبلية يسوّغ أو يفسّر صلاته وروابطه الإجتماعية والإقتصادية مع المتعاصرين من القبائل إمّا بخلق أو إيجاد صلات مع أسلافه المزعومين أو بقطعها. وكان هؤلاء الأجداد والأسلاف المفضلين إما كونهم أحلاف في الحروب أو رعاة إذ يتقاسمون حقوق الرعي والكلأ والماء، وهم متحّدون ومندمجون في ماض مشترك (وتعبير نهاجر معاً) أو (نقاتل معاً) أو (ننحدر معاً في الرجل نفسه). وأما أولئك المكروهين والمذمومين فإنهم لا يمنحون إلا جزءاً ضئيلاً من هذا الماضي المشترك. هذا أمر طبيعي لأن هذه التحالفات القبلية كانت تتبدل وتتغير عبر الزمن وعلى كرور الأيام، كذلك تتغير سلاسل أنساب القبيلة وماضيها. فالتاريخ الشفوي أكثر بكثير من التاريخ المكتوب العسير والمستعصي على القبائل الرعوية، فالتاريخ الشفوي هو

الأكثر ملاءمة للفرد القبلي الرعوي وذلك لبناء هوية ومجتمع من التاريخ العسير كتابته. وبخلاف كتب التاريخ تلك التي ينبغي أن تحرّم وتحجب أو بطريقة أخرىٰ تقمع وتكبح، فإن التاريخ الشفوي تاريخ متحرك وديناميكي يكون حيثما يريده المجتمع أي مجتمع.

إذن، فهناك اسباب لكي نعتقد أو نفكر بأن التاريخ يهتم بقدر كبير بأفراد القبائل في الحجاز، وقد أثبت هذا القرآن نفسه وذلك واضح في سورة الأعراف وهي مكية آية ١٧٦ (قصّ عليهم التاريخ (القصة) ليتنكروا) والآية كما جاءت في القرآن هي قوله ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾،

والآية (ألم)تشير إلىٰ تاريخ (أو قصة) أولئك الذين قبلك قد وصلت إليك، من قوم نوح أو عاد أو ثمود وأولئك الذين جاءوا من بعدهم) سورة إبراهيم وهي مكية آية ١٩ ونصّ الآية هذه تذهب إلىٰ قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾. إلّا أن التاريخ من ناحية الشكل والنظام والأهمية بالنسبة إلىٰ عرب قبل الإسلام يختلف بوضوح عن التاريخ الذي هو مفهوم عند مؤرخي الحوليات الكرونولوجي وهم يعملون ضمن مادة مكتوبة، من دون أن نذكر المؤرخين المحدثين، والمؤرخين المحترفين. فالمؤرخ الحولي إن هو إلّا نتاج ثقافة تلك التي تقوّم التدوين ويعمل علىٰ حفظ وتأسيس هذه القيمة في المكتبات والأرشيفات. ومؤرخ الحوليات ربما يكون متحزباً أو متحيزاً وحتىٰ ربما يكون مخادعاً أو ماكراً disingenuous، لكنه

مع هذا يظل مشاطراً رأيه الثقافي على أن الماضي هو ماض وأنه موضوع خاضع للتدوين. فإن كان هذا المؤرخ موّحداً أو توحيدياً، فإنه أيضاً يعتقد بأن للعالم بداية في الزمن (أي الخليقة) وإن له نهاية، أما القاصّ srorytelle في سياق كلامه أو مغزاه هو اللا مثقف أو اللا متعلم واللا توحيدي، إذ هو بصورة عامة يؤمن برأي متواصل تماماً وأكثر مّما هو متوقع، بخصوص الزمن، وإن برنامجه ليس بقدر ما هو تدوين وتسجيل ونقل إنما كونه إعادة إبداع للخيال، وواقعاً فإنه في غياب الرواية أو القصة المكتوبة، فإن التقنيات المؤسسة من أجل الاستظهار أو الحفظ عن ظهر قلب أو المذكِّر- من يذكره غيره بالشيء – المحترف (جميع ذلك كان في الحجاز في حقبة قبل الإسلام يفتقر إليه حسبما يبدو، فالماضي، بتحديده المجرد والمطلق، هو مطواع plastic. بينما يمكن إنجاز التاريخ المكتوب والقيام به ليكون مطابقاً بشكل وثيق مع الحاضر الذي لا سبيل إلى تجاهله، والتاريخ الشفاهي أو الشفوي يكون مطابقاً بشكل دائمي له. وإن عملية نقل الرواية شفوياً تنزع بشكل خاص إلى أو تميل خاصة إلى شكل الساعة الرملية hourglass، بذكريات تتحلق حول أصول تكوينية أو شكلية (في الغالب أسطورية وخيالية)، وإن الأجيال الأكثر حداثة (عادة الآباء والأسلاف). وحقيقي إن التاريخ الشفوي باستطاعته أن يرجع إلى الوراء لثلاثة أو لأربعة أجيال بشيء من الدقة والصدقية، لكن هذا ربما يبدو حالة استثنائية أكثر من كونها قاعدة عامة، حتى وإن كانت بمثل تلك الحالات الاستثنائية فإن ما يمكن تذكره في العادة هو ذلك الذي يتعلق بأهميته الإجتماعية.والأكثر من ذلك، فإن التاريخ المحلي الصحيح والدقيق نسبياً قد يُبنى على أو يدل ضمنياً ـ تقريباً ـ على نظام اجتماعي ثابت ومستقر، فالمرء الذي يعتقد بالحقائق القديمة أو بالأعراف القديمة وخاصة في مجتمعات تخضع لمتغيرات اجتماعية وسياسية سريعة (نظير

ما هو متمثل في حقبة بداية الإسلام) عندها يكون التاريخ الإجتماعي يميل أو ينزع إلى الكثير من عدم الدقة وعدم الضبط. ويحتمل أن تكون المادة أو المعلومة التاريخية موثوقة، أو في الأقل تلك التي تمثل محاولة أصيلة لإدراك معنى ومراد للعالم ولنفهم العالم، وبما أن هذا الأمر قد يكون داخلاً ضمن اهتمام الأنثروبولوجي – عالم الإجتماع – أو ضمن اهتمام المؤرخين الذين يميلون أو ينزعون في اختصاصهم إلى التاريخ الأنثروبولوجي أي بما يتعلق بعلم الجنس البشري وتطوره وأعرافه وقيمه. ولكن في هذا المعنى فإنه من المفيد كثيراً جداً بوصفه مقياسا لتسجيل المتغيرات (بارومتر barometer) الإجتماعية – ولاسيما لفهم كيف وصل الناس إلى تفاهم مع الحاضر لإعادة فهم الماضي – أكثر من كونه سجلا لما قد حدث فعلاً[1].

وسنرى أن القسم الأعظم من مفهومية التدوين التاريخي الإسلامي أو علم التاريخ الإسلامي المبكر قد صارت كذلك لأن يمسك هذا التدوين

---

[1] على الرغم من القدر الكبير الذي قد تم كتابته عن الشفوية، فإن هناك ندرة بشأن دليل متعاصر يجعل من الصعوبة معرفة موقف الشفوية الحجازية إزاء التقاليد أو الروايات الأخرى؛ وعن مناقشة مفيدة جداً لدليل من أفريقيا ينظر J.A.S.Evans في كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (هيرودوتس) مكتشف الماضي: ثلاث مقالات)، المطبوع في برنستون ١٩٨١، ص ١٢٠ (وربما يكون دليل Bobangi of Zair (بوبانجي زئير) هو أقرب جداً؛ وحول جدل ومناقشة عن الرواية التي ظلت باقية مدة طويلة بشكل استثنائي ينظر J. Fadiman في الكتاب باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(متى بدأنا – هناك عرّافون أو سحرة: تاريخ شفوي من جبل كينيا Mount Kenya) المطبوع في بيركلي Berkeley ١٩٩٣) (ومن أواخر القرن الثامن عشر الميلادي حتى أواخر القرن العشرين؛ أيضاً ينظر J.K.Davies بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(مصداقية الرواية الشفوية) في الكتاب الذي حققه كل من L.Faxhall and J.K.Davies الموسوم بـ (حرب تروجان: تاريخها ومغزاها) باللغة الإنجليزية المطبوع في برستول Bristol ١٩٨٤) ص ٨٧-١١٠؛ وكذلك O,Murray في البحث الموسوم بـ(هيرودتس والتاريخ الشفوي) باللغة الإنجليزية المنشور في الكتاب الذي حققه كل من H.Sancisi Weerdenburg and A.Kuhrt الموسوم بـ (تاريخ الأخميني الثاني: المصادر الإغريقية) باللغة الإنجليزية المطبوع في ليدن ١٩٩٧، ص ٩٣-١١٥؛ كذلك T.Spear في البحث بالإنجليزية الموسوم بـ (الروايا الشفوية من هو التاريخ؟) المنشور في مجلة تاريخ أفريقيا مجلد ٨/ ١٩٨١ ص١٦٥-١٨١.

بإحكام وأن يستحوذ على الروايات الشفوية – على أساس ظهور الإمبراطورية التي هي إمبراطورية بيروقراطية- حينها فإن الروايات الشفوية قد صارت متمّمة و ملحقة به وإلى حدٍّ ما قد استبدلت بالتاريخ المكتوب . إن تحول القصة إلى تاريخ قد تحدّد وتقرر ليس فقط بعادات وطبائع البيروقراطية في حفظ التدوين والتسجيل. ومهما يكن فالمواقف أو الاتجاهات الدينية قد أدّت دوراً في ذلك أيضاً. وبوسعنا ملاحظة هذا الأمر بوضوح كثير إذا ما وازنا باختصار بين بداية المسيحية وبداية الإسلام. فحسبما يبدو أن المسيحيين الأوائل كانوا مهتمين بصورة أساس بمسألة بعث المسيح والمعنى المقصود من هذا البعث بالنسبة إليهم، فاللحظة المحددة أو الحقبة المعينة لحياته وحتى موته، وإيمانهم برجعته أو بانبعاثه من جديد كان هو من أكثر الأمور وضوحاً في التمييز بين المسيحيين من غيرهم من المتعاصرين زمنياً معهم. وبالنسبة إليهم يبدو أن المسلمين الأوائل قد اهتموا بل رغبوا بشكل أساس في سيرة كارزمية لمحمد كنبي الله، وأن اللحظة المحددة أو المدة المعينة في حياته إن هي إلّا مبعثه ودعوته بالرسالة ونبوته – تلك التي كما هو معروف أنها قد وقعت وحدثت حينما كان عمره أربعين سنة. وإن الإيمان بنبوة محمد، أكثر من معرفة شيء عن طفولته أو سيرته كتاجر، كانت بما يميّزه المسلمون من الموحّدين الآخرين. ولما كانت هي المسائل والقضايا التي تحدّدهم ، فقد كانوا كما كان المسيحيون الأوائل والمسلمون، أي بما انتقوا واختاروا من أجل أن يتذكروه.وعلى أية حال ففي كلتا الحالتين،لقى أو واجه المؤمنون معارضة ومشكلة من قبل المتشككين والمرتابين أولئك الذين تحدّوا آراءهم ومواقفهم، والذين طالبوا بمعرفة أكثر عن المسيح أو محمد: فما هي دلائلهم وأوراق اعتمادهم أو مصداقية إيمانهم؟ وكذلك لمعرفة فيما إذا كانت أعمالهم هذه هي عمل من الله؟ وقد اختلف المؤمنون أيضاً وتنازعوا وتحدّى كل واحد منهم

الآخر في كل ما كان مثاراً في تلك الأسئلة. فهذه الأسئلة ينبغي أن يجدوا جواباً لها، وهكذا كانت الحال. فالتقدم على الخصم في هذا الشأن من ماض كانوا يتذكرونه بالفعل (والمرور عبر الزمن قد منحهم حرية أكبر؛ وذلك لكي يخلقوا أو يصنعوا واحداً آخر من جديد وكذلك لأن يجدّدوا نشاط ذاكرتهم)، وبما أنهم دخلوا إلى سوق المنافسة، منافسة الأفكار والمحاججة، المسيحيون الأوائل وكذلك المسلمون الأوائل، وأخيراً وصل الطرفان إلى نتيجة هي الكشف أو الإعلان عن القصة كلها. فالذي كان بوسعهم أن يتذكروه توفر لديهم في حينه وعلى نحو وافٍ بصيغة أساطير وخرافات myths واحتمالات وتخمينات مقبولة، وكان جميع ذلك يدور حول مسائل لم يمتلكوا عنها ذكريات حقيقية، طالما أنها كانت لا تثير اهتماماً واقعياً قبل ذلك. وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا السبب في أن روايات الإنجيل Gospel عن مولد المسيح، تلك التي دوّنت أولاً في الكتابة بعد حوالي الجيلين من موته، كانت غير معتمدة كتاريخ أكثر من كونها مرويات عن آلامه ومعاناته، في حين أن علامة الصليب Mark كان يوقع بها وأن الصكوك Acts كانت نتيجة لآرائهم ومواقفهم الأولى وهي لا تكشف ولا تدلي بأية معلومة عن مولد المسيح. غير أن كلا من لوقا Luka وماثيوس – متى – Mattew قد عمل ذلك، وذلك لأن هاذين الكاتبين المتأخرين رأيا في هذه المسألة فرصة مهمة للسعي إلى تحقيق أهداف فقهية ثيولوجية. وهكذا أيضاً بالنسبة إلى المسلمين فلماذا شرع المسلمون إلى أن يضيفوا معلومات مفصلة عن سيرة محمد قبل المبعث أو قبل النبوة مفترضين أو معرضين عدداً من الحلول المتناقضة مع نفسها والمتضاربة إزاء التساؤلات النظرية والعلمية؟*. فما نوع قوافل التجارة التي كان

* موقف روبنسون من معلومات السيرة النبوية المعنية بطفولة الرسول موضوعية إذ أنه يردّ على ما فسّره معظم المستشرقين من وجود ثغرات في حياته وتساؤلات عن عمره عند وفاة والده ووالدته

القريشيون منهمكين بالعمل فيها قبيل أو في عشية ظهور الإسلام؟ وإلى أين ومتى كانت هذه القوافل التجارية ترتحل؟وكم كان عمر محمد بالضبط حينما توفي والده؟ فمصادرنا – غير مقيدة بذاكرة واقعية – توّفر لنا وتزوّدنا بمجموعة متنوعة وواسعة من الإجابات عن أسئلة من قبيل تلك الأسئلة (والمؤرخ لم يزل في الرحم in utero فقد كان عمره ستة شهور، وكان عمره ثمانية عشر شهراً). فالأجوبة هنا تعطى وذلك لأن العقيدة الآن تحتاجها، والكثير من التعبيرات أمثال (تفويض أو الهبةالإلهية الدائمة للروح spirit (الله) هي التي قد منحت رواة رواية المسيح الحرية الخلّاقة). وهكذا أيضاً فالمؤرخون المسلمون قد أفلحوا بوساطة النجاحات المذهلة والمقصود بها إثارة التعجب أو الدراماتيكية للمجتمع الإسلامي الأول – وبالتأكيد فإن امتحان الله للمجتمع بأن يقوم بواجبه بحسب إرادة الله وقدرته – لأجل تزويد أو توفير أجوبة مقنعة ومعقولة للتساؤلات التي قد أثيرت من قبلهم أو من قبل الآخرين حول ماضيهم"[1].

وفي ظل هذه الظروف وعلى وفق معايير أكثر المؤرخين، فإن هذه الأمور والمسائل في العقيدة وبشأن محمد قد اخترعت وأعدّت. وعلى وفق

وغيرها من الأسئلة التي جعلها الكثير من المستشرقين مادة لإثارة النقاط المذكورة آنفا وعلى أن الرواة قد أضافوا أو اختلقوا هذه المعلومات [المترجم]

[1] وحول الأناجيل Gospels والتاريخ، فقد اعتمدت على R.E.Brown في كتابه بالإنجليزية الموسوم بـ (مولد المسيح: تعليق أو تعقيب على قصص الطفولة في أناجيل متي ولوقا) المطبوع في نيويورك ١٩٩٣) وهي طبعة عصرية؛ والمناظرة عن ولادة محمد ينظر M.Lecker في البحث الموسوم بـ (موت والد النبي محمد: هل الواقدي قد اختلق بعض الأدلة؟) المنشور في مجلة ZDMG وهو باللغة الإنجليزية ، مجلد ١٤٥/ ١٩٩٥ ص ٩-٢٧؛ وعن دراسة الصعوبات ينظر f.e.Peters في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ (البحث عن محمد التاريخي) المنشور في مجلة JMES مجلد ٢٣ لسنة ١٩٩١ ص ٢٩١-٣١٥ الذي أعيد طبعه في الوراق المحقق لكتاب (البحث عن محمد التاريخي) باللغة الإنجليزية ، المطبوع في أمرست، نيويورك ٢٠٠٠، ص ٤٤٤-٤٧٥؛ والاقتباس من J.D.Crossan في كتابه بالإنجليزية الموسوم بـ (المسيح، سيرة ثورية) المطبوع في سان فرنسيسكو ١٩٩٤، ص ٨.

لإمكاناتي كمؤرخ فإنني لا أستطيع خلق أو صنع قصة بشأن الماضي، حتىٰ في العقيدة أي عقيدة صالحة أؤمن بها لكي تكون حقيقة لكي أستطيع الزعم بأنها تتمتع بالمصداقية وأن تكون صحيحة وواقعية إلىٰ أبعد الحدود. ففي الوقت الحاضر فإن المؤرخين الذين يقومون بذلك هم مؤرخون تنقصهم الثقة والصدقية. إلا أنه ليس هنالك من شك في مشروع مثل ذلك ينتج معلومة جديدة عن سيرة حياة إن كان من قبل الكتّاب المسيحيين أو المسلمين. وذلك بسبب ما يعتقدون ويؤمنون به من رأي أو وجهة نظرعن ذلك وهو أن ذلك التاريخ يختلف عن تاريخنا. وسوف نرىٰ في الفصول الخامس والسادس والسابع أن أكثر المؤرخين المسيحيين والمسلمين-- غرض التاريخ بصورة عامة أنه ليس اختبار أو مقياس—يسبر لتحقيق اختبار دقيق أو يفسر أو يعلل. فضلاً عن ذلك فإن هدفه لم يكن توفير تقديم بيانات عن جميع الأحداث التي تتناظر أو تتوافق علىٰ وجه الدقة والضبط مع ما كان قد حدث في مرّة من المرات. ففي حالة من الحالات ربما يكون بعض من هذه الجوانب الأكثر شيوعاً منها هو أن تعلّم وتلهم بالتوضيح أو بضرب الأمثلة ؛ ولكن عادة هناك الكثير من الأمور الأخرىٰ. إذن فبالنسبة إلينا تكون أهمية هذه التفصيلات في سير التراجم أو في تراجم الحياة والسير بخصوص المسيح ومحمد هي ليست تلك التي تزودنا بالدليل الذي بوسعنا إعادة مباني حياتهما بكل ما في هذه الكلمة من معنىٰ وبشكل تام جداً. مع أنها تعدّ نتيجة واضحة في تحول التفكير بشأن الماضي. وبمعنىٰ آخر فإن مؤلفات السيرة تعيّن وتحدّد دليلاً بتاريخية الأفكار أكثر من كونها تؤلف أو تعيّن دليلاً عن تاريخ شعبين. فالتفاصيل من وجهة نظر حياة محمد قبل النبوة قد أخذت أولاً تهمّ مؤرخي وكتّاب تراجم القرنين الثامن والتاسع الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين، أولئك الذين، ولأي سبب كان (إما أن يكونوا بدافع حب الاستطلاع أو

حب الفضول أو من دافع الإيمان بالعقيدة والولاء أوأن يكونوا مدفوعين بالإكراه والطموح أو بمهمة أو تفويض مقابل عمولة للسيد الداعم والراعي). لقد حاول هؤلاء إعادة البناء من جديد للأحداث التي كان للمسلمين الأوائل ارتباط قليل بها وهي لم يتمّ اختيارها لتكون جزءاً من تاريخهم الشفوي. فالأمثلة النظرية والعلمية كالتي سبق ذكرها تتحول كما تمّت كذلك كثيراً بخصوص أسئلة عن الوقت والزمن، وهكذا يتم اختيار المقطع الانتقائي من الرواية إلى التدوين التاريخي أو الى علم التاريخ.

فالفارق المميز بين الرواية والتاريخ يعدّ من الأهمية بمكان، غير أنه يجب علينا أن لا نندفع بعيداً جداً. ففيما يتعلق بمعلومة المصدر، يكون التاريخ المكتوب نفسه وليس بحاجة إلى أن يستند حصراً الى المواد المكتوبة، سواء أكانت هذه المواد قصص أم روايات أم وثائق أم مدوّنات. وليس هنالك من صدقية كصدقية هيرودتس الذي "أفلح في إنتاج تاريخ جدير بالإحترام؛ إذ استند فيه بشكل رئيس إلى التاريخ الشفوي فضلاً عن مشاهداته "sightseeing. وفي الواقع فإن تقنيات رواية القصص كانت دائماً تستخدم التاريخ الروائي أو القصصي، وإنها ربما أدّت دوراً في جذور تكوينه، وهو – كما سنرى – يبدو أنه كان متواجداً فعلاً أو أنه كان حقيقياً بالفعل في رواية التدوين التاريخي الإسلامي. أما بخصوص المنظور، أي مظهر الموضوع كما يراه العقل من زاوية معينة، فالتاريخ قد يظهر التحزبات والتحيزات والأهواء، ولأنه أيضاً يمكن أن يؤدي وظائف ومهمات اجتماعية وسياسية: فبوسعه أن يعلّم ويرشد أو يعظ وأن يرفع المستوى الأخلاقي وأن يثقّف ويهذّب ويثير الحماسة ويسلي القارئ أو الجمهور، وبمقدوره أن يشرّع أو يجيز، ومن الجانب الآخر بوسعه أن ينتقد وضعاً أو نظاماً اجتماعياً، كالحاكم والدولة. فالمؤرخون الأمريكان ـ في الكثير من تواريخهم ـ قد كتبوا

الأقل عن أي اهتمام هادف وغير متحزب وبما له علاقة بالماضي أكثر من اهتمامهم الشديد بدعم صياغة هوية قومية، وهذا حسب ما يبدو واقعاً لا بالنسبة إلى تاريخهم فحسب، بل أيضاً بالنسبة إلى تاريخ العصور الوسطى. تماماً حتى في حالة المؤرخين المحترفين، فالموضوعية هي فقط طموح، وهنالك أمثلة كثيرة عن التحيز والتحزّب عند المؤرخين[1].

فإن كان التاريخ المكتوب يتقاسم السمات البارزة مع الرواية الشفوية، فإن ذلك أقل كثيراً من مطواعية أو مروية بين التاريخ المكتوب وبين الرواية الشفوية، تلك التي تتلاشى أو تسقط من التداول حالما تفقد وثاقتها وصلاتها بالموضوع. فالتنقيح والنقد للتاريخ، حتماً ممكن القيام به، وأن النسخ الجديدة المنقّحة بوسعها أن تتفوق على تلك القديمة، غير أنه نادرا ما يمحى التاريخ أو يلغى. ويرجع سبب هذا ـ إلى حدٍّ ما ـ إلى أن الحجارة والطين والألواح وورق البردي وجلود الحيوانات والورق العادي وغير ذلك من مواد الكتابة تعمّر أكثر من ذكريات الإنسانية أو البشرية، ولكن في جزء آخر من المسألة وهو معادل تقريباً فإن للتاريخ حرّاسه – المؤرخون – أولئك الذين يملكون بأيديهم مادة ومعلومات هي دائماً وباستمرار يعاد تدويرها للأجيال اللاحقة. فهذا الكتاب هو حالة وثيقة الصلة بالموضوع: إذ إن بعض

[1] أخذت هذا الاقتباس من موميغليانو A.Momigliano في البحث الموسوم بـ (مكانة هيرودوتس في علم التاريخ أو في التدوين التاريخي) باللغة الإنجليزية المنشور في كتابه دراسات في التدوين التاريخي (نيويورك وايفنستون New York and Evanston ١٩٦٦، ص ١٢٩، وعن هيرودوتس كعامل ميدان Fieldworker ينظر Evans في دراساته (هيرودوتس) ص ١٣٢ وما أعقبها؛ وعن المؤرخين الأمريكان ينظر نوفيك P.Novick في دراسته باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(ذلك الحلم النبيل: إشكالية الموضوعية ومجموعة المشتغلين التاريخية الأمريكية) المطبوع في كمبردج ١٩٨٨)؛ وحول بعض التدوين التاريخي الحديث عن العصور الوسطى ينظر فريدمان وشبيغل P.Freedman G.M.Spiegel في بحثهما باللغة الإنجليزية (القروسطية القديمة والحديثة: إعادة اكتشاف البديل في دراسات العصر الوسيط في شمال أمريكا) المنشور في مجلة AHR مجلد ١٠٣/ ١٩٩٨، ص ٦٧٧-٧٠٤.

ما يقرأه القارئ يعتمد على عمل المؤرخين المحدثين أو حتى منتزع من أعمالهم، لكن فيه الكثير من المعلومات التي جاءت من المصادر الأصلية نفسها، وفي هذه الحال فإن الأفكار التاريخية التي أعتقد بها بل وفهمت في القرن الثامن للميلاد / الثاني للهجرة سوف تنتعش وتبقى حية في القرن الواحد والعشرين. بالمقابل، بوسعنا فقط لأن نعرف القصص التي في القرن الثامن للميلاد/ الثاني للهجرة تلك التي رواها أو ذكرها المسلمون بعضهم للبعض الآخر إذا ما دوَّنها المؤرخون كتابة.

التأليف والجمع:

إن ظهور ونشوء رواية التدوين التاريخي، تعزى إلى ظهور الإسلام. وفي الحقبة القصيرة بين جيلين طويلين – وللنظر بعينين نصف مفتوحتين – إلى عالم متحرك لإمبراطوريات قديمة ونبقي أو نمسك بقوة على الروايات – من المنظر السياسي والديني لعالم البحر المتوسط الذي قد أعيد رسمه من قبل العرب المسلمين، الذين استجابوا لأمر الله الذي أمرهم أن يقوموا بذلك. فالذي كان في عقل الله كان موضوعاً قد اختلف عليه المسلمون كثيراً، ولكنهم وصلوا إلى إجماع بينهم حول موضوع واحد ألا وهو (القتال في سبيل الله) * وهذه آية واحدة من بين الكثير من الآيات الأخرى التي يقصد من ورائها نشر الديانة التوحيدية من أجل توكيد الفكرة بأن المشركين قد تحولوا

* [تعليق المترجم، ليس هناك ذكر لهذه الآية في سورة مريم ١٩/ آية ٩، والآية المشار إليها من البروفسور روبنسون نصّها القرآني (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)، ولعل الأكثر صواباً الإشارة إلى سورة التوبة بدلاً من سورة مريم ورقمها ٩/ آية ١٩ إذ هي: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المترجم].

إلى الإسلام وقد اعترف غير المسلمين من الموحدين بسلطة الله وسيادته، وأولئك الذين سمح لهم المسلمون بالإبقاء على عقائدهم، سلطة الله ممثلة بالخلفاء، فالمسلمون الأوائل - أقل ما يقال - لم يكونوا مبشرين بالدين الإسلامي أكثر من كونهم مندفعين دينياً ضد المستعمرين.. إذن من وجهة نظر العرب المسلمين، إن الله قد أنقذهم وحرّرهم من الجهل في جزيرة العرب قبل الإسلام (الجاهلية)، والله قد نصّبهم حكّاماً على كثير من العالم المعروف: فالحكم الإسلامي للمدة بين سنة ٦٤٥م و ٧١٥م قد تأسّس في رقعة كبيرة من البلدان تمتد من البلاد المعروفة الآن بموريتانيا وأسبانيا إلى حدود الهند. بالمقابل صار المسيحيون واليهود الآن ينتمون إلى عقائد مهملة obsolete، مع أن ممارستهم وطقوسهم الدينية قد لاقت تسامحاً (وفي أحيان لاقت تشجيعاً ودعماً) أما ممارستهم لأي سلطة سياسية فكان لا مجال في التفكير بها، طالما أنها قد مرقت أو خرجت عن إرادة الله.

وهكذا انتقل العرب من الحافات الدينية السياسية لعالم البحر المتوسط إلى قلب المسرح ومركزه؛ ذلك لأنهم قد أصبحوا أدوات في مخطط الله ومشروعه. ولعله يمكن تفسير هذه المسألة وتعليلها بأنها واحدة من أكثر الأوجه اللافتة للنظر في الإندفاع السريع في تاريخ ما بعد الفتوحات: فالثقة التي استجاب بها الغزاة للتحديات الثقافية التي حيّر وضعها أولئك الذين صاروا خاضعين سياسياً لسلطتهم وحكمهم. فالعرب الفاتحون كانوا برابرة موازنة برخاء وثقافة وعالمية جيرانهم البيزنطيين والساسانيين في بلاد فارس، كانوا كالقبائل الجرمانية الذين أيضاً كانوا بموازنة مع المجتمعات الرومانية برابرة لكنهم اجتاحوا البلاد قبل قرنين من الزمان. وكان أداؤهم السياسي هامشياً في منطقة قد سيطرت وهيمنت عليها قوتان عظيمتان.وكانوا لا يملكون إزاءها أية معرفة أو ثقافة للتصريح بها والإعلان عنها؛ فإن كانوا

يدّعون شيئاً فإنه ليس أكثر من أنهم كانوا شجعان لا يعرفون الخوف وتملأهم حماسة وحيوية، وكانوا يندفعون في الحرب بعناد وصلابة وهم مندفعون بحماسة وإقدام، وأفضل ما يمكن ترجمة تصرفاتهم هذه بتعبير هو (الجاهلية). كان المسلمون بخلاف القبائل الجرمانية يمتلكون دون ريب ثقة وواقعية دينية وهي: إن الله قد اختار واحداً من بينهم ليتحدث معه بلغتهم الخاصة، وليبقى هادئاً منذئذ فصاعداً، ويمثل سلطته أولاً محمد (بوصفه النبي الخاتم) ومن بعده إلى أولياءه أو نوابه (الخلفاء). وكان هؤلاء يمتلكون كلا من السيادة والسلطة السياسية وثقة ثقافية تلك التي ولدت من ذلك اليقين والحقيقة الدينية. فالعرب المسلمون كان بوسعهم أن يقاوموا التمثل أو الاستيعاب الإلزامي للتعاليم والتقاليد الثقافية المعقدة في الشرق الأدنى،الذي كان بصورة عامة قدر الفاتحين البرابرة، تماماً كمعاصريهم اللومبارديين في إيطاليا وكذلك فيما بعد كالمغول في إيران والعراق[1].

فبينما تبنى المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر/ السابع والثامن الهجريين بسرعة القيم والتقاليد الثقافية الفارسية الإسلامية للبلاد التي احتاجوها، فالعرب في القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة كان بوسعهم أن يختاروا أو يلتقطوا ما كان معروضاً أمامهم، يؤيدون أو يناصرون ما يحلوا لهم وما هو مفيد لهم، ويرفضون كل ما يكرهونه أو يجدونه عقيم وغير نافع. وقد انتقوا من خارج تقاليدهم وقيمهم حجماً كبيراً من الثقافة القديمة تلك التي أصبحت متوافرة لهم عبر وسيلة الترجمة من اللغة الإغريقية والسريانية (وهذه لغة آرامية محلية) ومن اللغة الفارسية. فكانت مؤلفات

---

[1] استعرت عبارة (الإندفاع العنيد أو المستعصي) من S.P.Stetkevych في دراسته بالإنجليزية (الكلام الصامت الخالد: شعر ما قبل الإسلام والطقوس والشعائر الشعرية) المطبوع في Ithaca and London / ١٩٩٣ ص ٢٠٦.

وأعمال مهمة جداً في الفلسفة والعلم الطبيعي والطب والرياضيات وقدر أعظم وأكثر من جوانب علمية أخرى إضافية (وفهرست ابن النديم هو أيضاً فهرس للكتب والعلماء ويتضمن شواهد وأدلة على هذا الإنفجار في المعرفة). ومن جانب آخر فقد تمّ الإبقاء على كثير من المعرفة والعلم العمليين، في حين أن الكثير من الميتافيزيقيا وما وراء الطبيعة وكذلك في المذهب العقلاني قد تركت، طالما أن هذه العلوم في النهاية تبرهن على أنها لا تتواءم مع الشريعة الإسلامية والثيولوجي الفقه الذي كان يعمل بنجاح خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين. وعبر تراثهم الثقافي الخاص بهم، فقد ناصروا الجانب الذي جعلهم بالفعل متميزين بين مثقفي وموحدي الشرق الأدنى – وهذه بمعنى عام شفهيتهم ولغتهم، وكذلك شعرهم وقصّاصهم بصورة خاصة. فالنحو العربي خلال القرنين الثامن والتاسع / الثاني والثالث الهجريين كان قد نظّم ورتّب منهجياً، وقد جمع الشعر العربي وقدّم كشعر وإنجاز ثقافي عظيم انتجه عرب قبل الإسلام، وأضحى الهلال الخصيب معرباً بصورة متزايدة[1].

وهكذا صار التضلع باللغة العربية أمراً لابد منه بالنسبة إلى أي شخص له تطلعات للعمل في الإدارة الإمبراطورية وثقافتها، وكانت صيغ روايات اللغة العربية وقصصها هي التي رسمت ما يمكن تسميته بفن كتابة القصة الشفوية البلاغية والمنمقة. وفي هذا الجانب نجد العرب المسلمون قاموا أكثر بكثير مما هو مجرد تكملة أو تتمة أو إضافة إلى هو موجود من التقاليد الثقافية للشرق الأدنى في التعلم والمعرفة العربية الإسلامية. فقد

---

[1] وعن الرأي بشأن نقل التعلم والمعرفة الإغريقية ينظر روزنثال في كتابه بالإنجليزية (التراث الكلاسيكي في الإسلام) المطبوع في بركلي – ولوس انجلس / ١٩٧٥) وكذلك D.Gules في دراسته باللغة الإنجليزية (الفكر الإغريقي والثقافة العربية) المطبوع في لندن ١٩٩٨.

أنجزوا شيئاً أكبر من كونه عملاً مبدعاً وخلّاقاً تماماً. لقد رفعوا ما كان بصورة عامة معبراً عنه ثقافياً "واطئاً أو الثقافة الدونية" أو "شعبياً" إلى ما صار معبراً عنه في الثقافة نحوياً أو "فئوياً أو نخبويا" و"سامياً أو مرتفعا". وإن استمرارية وتواصل الأهمية الدلالية والإجتماعية للشفوية في وسط أو في غمرة إمبراطورية بيروقراطية ومثقفة بشكل متزايد قد برز في عدد من الميادين المؤسساتية والتطبيقية. وهؤلاء جميعاً بضمنهم القصّاص، الذين أقر عملهم بحسب نصّ قرآني، الذين ظلوا يتمتعون بإعجاب السكان الحضريين. وأيضاً قد برز مثل ذلك في مواقف الكثير ممن نقلوا الأحاديث النبوية أو رووها (وهؤلاء هم المحدّثون الذين سنقف على شرح أوضاعهم بشكل أكثر في الفصل الخامس) وواقعاً كانوا يكرهون بل يشمئزون من إتاحة الفرص أمام كتابة هذه الأحاديث النبوية، بحجة أنهم يحاولون البرهنة بان المفروض أن تبقى هذه الأحاديث في ذهن الشخص أفضل من أن تكتب في دفتر. فبقاء الشفوية على قيد الحياة بين القضاة وأهل الشريعة لغرض الشهادة الشفوية، ضداً أو معاكسة منهم لما هو مكتوب (بمعنى الشفوية في تلفظ القسم يعدّ السمة البارزة في تاريخ الإسلام السياسي والإجتماعي)[1].

ومما له أهمية خاصة في فهم ظهور رواية التدوين التاريخي هو السمة القصصية، وهي سمة تلفت النظر، في الرواية أو القصة العربية المكتوبة (سواء أكانت تلك القصة خيالية أم حقيقية). فالتعبيرات الحاسمة في هذا المجال هي الحديث والخبر (وجمعها أخبار) فكلا التعبيرين ينتميان إلى أفعال

[1] وعن القصاصين ينظر K.Athamina في البحث بالإنجليزية الموسوم بـ(القصاص: ظهورها أو نشأتها، وأصولها أو نشأتها، وأصولها الدينية وتأثيرها الإجتماعي والسياسي على المجتمع الإسلامي المبكر) المنشور في مجلة SI مجلد ٧٦ (١٩٩٢) ص ٥٣-٧٤؛ وكذلك شارل بلا في دراسته باللغة الفرنسية الموسومة بـ بـ(البيئة البصرية وتكوين الجاحظ) المطبوع في باريس ١٩٥٣، ص ١٠٨ وما بعدها من الصفحات (وقد ترجم الى اللغة العربية. المترجم)

إنما تعبّر عن مفهومية الإبلاغ Informing أو reporting أو recounting بمعنى أن نقول أو نروي قصة أو نعدّ أو نهيئ مسألة. وأحياناً نستعمل هذه التعبيرات الواحدة بدلاً من الأخرى، بمعنى أنها قابلة للتبادل فيما بينها، ولكن مصطلح أو تعبير الحديث يستعمل بصورة عامة بالقرينة المخصصة بكلمات وأفعال النبي، في حين يستعمل الخبر بشكل عام وشامل للإشارة عملياً إلى أي صنف من أصناف الرواية. فالخبر أو الحديث هو هكذا رواية أو بيان بشكل أو بآخر. مع أنه بالإمكان أن يكون التعبير هذا بسطر واحد أو بسطر أطول من ذلك بعشرات الصفحات (وهذا النوع بصفحات كثيرة نادرة جداً)، وهو يحمل دائماً اسماً مميزاً أو تعبيراً على نحو موصول (رمزي أو مجازي) ويرتبط ارتباطاً قوياً ببداياته: أي هو الاسم أو التعبير المميزين الذين يسمى الإسناد. فإن كانت الرواية أو الخبر حديثاً نبوياً يرجع إلى الحقبة القديمة، أي من أواخر القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري فصاعداً- فإن إسناده يتضمن سلسلة من الأسماء، التي تبدأ أولاً بمصنف الكتاب، ثم تنحدر متسلسلة عبر أجيال من الرواة والنقلة، إلى أن ينتهي في العادة بشاهد عيان أو دليل، (كذا عن كذا قال لي) أو (على عهدة كذا عن كذا الذي قال) أو (فلان عن فلان قال لي، أو على عهدة فلان وفلان قال لي، كنت يوماً مع نبي الله فقال (أطلب العلم وإن كان في الصين). أو إن كان خبراً فعندئذ يكون الإسناد كاملاً، لكن ليس بالضرورة أن يكون دائماً كذلك، طالما أنه قد يتضمن أو يحتوي على ناقل أو راوية واحد فقط من بين رواته، وحذف أسم الشاهد أو الدليل أو أي من المعلومات الداخلة أو المتخللة فيه. وهكذا يحتمل أن يجد المرء خبراً يتقدم عليه الإسناد الآتي، بناء على سيف بن عمر (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦) "أمر الخليفة عمر خالد بن الوليد "قائد جيوش الفتوح" التوجه إلى سوريا". ها هنا نجد أن سيف بن عمر هو راوية ثقة، ولكن ليس

هنالك من ذكر لأسماء أخرىٰ متخللة في السند ولا إلىٰ شاهد عيان، ولهذا فإسناد كهذا هو إسناد متحزب إلىٰ فئة partial"[1].

فالفارق بين الأسانيد الكاملة والأسانيد الجزئية (أو تسمىٰ الغافلة والفاقدة) قد عدّت حاسمة من قبل أهل الحديث الذين كانوا لا يرفضون النظر في عمل الأخباريين ولا يمنعونه إلا قليلاً. ومع أن التمييز بين الحديث والخبر قد أؤكد في طرق أخرىٰ، وأن هناك القليل من القول بشأن التمييز بين هذا وذاك بالنسبة إلىٰ القصة أو الرواية: فشاهد العيان أو القاص يروي حدثاً (أو سلسلة من الأحداث) ولعل هذه الرواية قد رويت شفوياً وعلىٰ نحو مسلسل (أو سماعاً بمعنىٰ أن الراوية قد سمعها وذلك حينما تقرأ الرواية المكتوبة أو تذكر إلىٰ مسامع المستمعين والنساخ). وفي النهاية يجد الراوية مكانها بين مجموعة أخرىٰ مكتوبة. وفي الواقع إن أعمال الحديث والخبر قد فصّلت أو قطعت من اللباس نفسه ، وذلك بما أنهما يعدّان بشكل ما، مجاميع ومصنفات تكون جميع عناصرها منطوية في هيكلية واحدة أو تامة بحدّ ذاتها، أو قصص مستقلة تنسب إلىٰ مرجعيات أقدم من حيث المدة الزمنية؛ لذلك من الصعوبة بمكان التحدث عن مرجعية هذه الأعمال، أو في الأقل بما هو مألوف ومعروف بالنسبة إلىٰ القراء الغربيين. فالمؤرخون الكلاسيكيون الذين يكتبون باللغة الإغريقية واللاتينية بصورة عامة يبذلون قصارىٰ جهودهم في الكتابة بأسلوب جذّاب ومثير، وقد عدّت مؤلفاتهم وقيّمت بحسب جماليتها لا مصداقيتها. وخلاف هذا، فإن المؤرخين المسلمين الأوائل ـ وهم يحذون حذو الفقهاء ـ Jurists كانوا عموماً لا يولون أهمية إلا قليلاً بتأليف أو

---

[1] وعن الأخبار بمعنىٰ الحديث ينظر G.H.Juynboll في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ (مقدمة مسلم لصحيحه ترجمة ووضع حواشي مع ذيل لشرح تاريخي للفتنة والبدعة) المنشور في مجلة JSAI المجلد ٥ (١٩٨٤) ص ٢٦٥.

تصنيف جذّاب للقصة بل بالأحرىٰ يسهمون في عملية الجمع المضني والمواظب والحصيف، وكانوا يعنون باختيار ما تتضمنه هذه المؤلفات وعلىٰ أي ترتيب أو نظام قد طبقته في ما احتوته من معلومات. وعلىٰ هذا الأساس فإنها مصنّفات تتسم بحسن التمييز – وتتألف من روايات قد رويت معتمدة رّوية ثقة أو مرجعية من الرجال الصادقين ومن النساء الصادقات من عصر قديم يسبقهم – بمعنىٰ تقدّم أفضل الإدعاء والزعم وصولا الىٰ الحقيقة. فمن أدب الحديث مثال هو صحيح البخاري (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م) الذي انتفىٰ من أحاديث كتابه التي مجموعها ٢٧٦٢ حديثاً من بين ٦٠٠.٠٠٠ حديث قال عنها إنها الأحاديث التي كانت متوافرة لديه. ومن أدب الأخبار هناك مثال هو أخبار الموفقيات الذي جمعه مؤلف متعاصر جداً مع البخاري وهو الزبير بن بكار (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠) ويتضمن كتابه ٤٢٩ أربعمائة وتسع وعشرين خبراً (وقد ضمنت هنا بعض الأشعار) من بين عدد غير معروف من القصص المتوافرة لديه.

وفي ضوء هذه النشاطات الواضحة والواسعة، فما الذي يميز الأحاديث من الأخبار؟ أساساً بالنسبة إلىٰ موضوعاتها أو موضوعات البحث والكتابة فيها. لقد كان أهل الحديث يعنون عناية ـ بالدرجة الأولىٰ ـ بالشريعة؛ ولذلك جمعوا الأحاديث والمرويات المخصوصة بما قاله النبي وما عمل به، لأن جميع ما قاله وما يحمله يوظف ـ تقريباً ـ كسابقة شرعية. والبخاري واحد من بين المشهورين كثيراً أي أنه جمّاع للأحاديث المبكرة، إذ يقدم في كتابه مسائل وأمور كثيرة في عددها، من زواج إلىٰ صلاة إلىٰ صوم إلىٰ مواصلة الجهاد إلىٰ فرض الضرائب؛ وفي أحيان يظهر كتابه بوصفه واحداً من ستة من الكتب تعدّ مرجعيات قد جمعت فيها الأحاديث النبوية. وكانت اهتمامات هؤلاء الذين جمعوا الأخبار ورووها إلىٰ حدٍّ بعيد أوسع، ولكن في

نظر الفقهاء وإلى حدٍّ بعيداً أيضاً أقل وزناً من حيث الأهمية؛ إذ إنهم جمعوا مادة عظيمة ومتنوعة (وبشكل أساس القصص، ولكن أيضاً جمعوا أقوالاً مأثورة وأقوالاً بارعة وملاحظات ظريفة bons mots وأبياتاً من الشعر، ولأسباب متنوعة، إما للتسلية والاستمتاع أو للتثقيف والتهذيب، وأما للتربية ورفع المستوى الأخلاقي. فمن بين الـ ٤٢٩ خبرا التي ذكرها الزبير بن بكار هنالك عدد لا بأس به من الشعر، غير أن الأغلبية العظمى منها قصص تتراوح قيمتها بين الإتزان والحلم، مثال الخطبة أو الموعظة التي ألقاها الخليفة الأول أبو بكر عند تلقيه البيعة oath of allegiance (ص ٣٧٩ عند ابن بكار) و (مسيحي يمدّ الخلفاء بالروايات) (ص ٢٠٩ عند الزبير بن بكار) وللغرابة والبذاءة (الخليفة يزيد بن معاوية يجعل نديمه قرداً) (ن.م ص٢٠٠). وترتيب هذه الأخبار لم يكن ترتيباً كرونولوجيا أي حولياً (كما هو متوقع في التأليف التاريخي) ولا هو موضوعياً أو له علاقة بالأحداث الجارية (كما هو متوقع في أكثر الأعمال الشرعية). وواقعاً ليس هنالك من إنموذج قابل لأن يكون مميزاً على الإطلاق، ويرجع هذا ربما إلى تصنيف أو تأليف الكتابة ذات الفحوى الإجتماعي، وهو لا يشابه ما هو موجود في المصنّفات الحديثية تلك التي ينبغي أن تكون مادتها قابلة للإستعمال من قبل الفقهاء، فهذه لا تفرض واحدة من القصص التي تقصّ أو تروى في المجالس (وقد أخذت الكثير من الكتب عناوينها منها أي المجالس) وهذه بالإمكان روايتها بأي ترتيب ممكن وليس بالضرورة بحسب الترتيبات المعروفة. وكما قالها واحد من أكثر المصنفين في الأدب شهرة وسمعة وهو التنوخي* قال: (ما

---

* قال القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي (المتوفى ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) "واتفق أيضاً أنني حضرت المجالس بمدينة السلام في سنة ستين وثلاثمائة ... فوجدتها مختلفة ممن كانت به عامرة... وجرت المذاكرة فوجدت ما كان في حفظي من تلك الحكايات قديماً قد قلّ وما يجري من الأفواه في معناها قد اختل حتى صار من يحكي كثيراً مما سمعناه يخلطه بما يحيله ويفسده، ورأيت كل حكاية

صنّفته قد أتى مما كنت أتذكره منذ وقت طويل، وهو ممزوج بما سمعته حديثاً من دون أي ترتيب مني كوضعها في فصول؛ وذلك لأن أخبار هذا المصنف يمكن روايتها في مجالس متنوعة)[1].

لكن التاريخ ليس بوسعه ذلك ، وأن هؤلاء جمّاع تلك الأخبار الذين ركّزوا اهتمامهم بشكل رئيس (لكن ليس على الوجه الحصري) على أحداث الماضي ثم نظمت ورتبت بناءً على ميولها من الكرونولوجي الضمني والواضح والصريح، لأن الإخباريين، أقل كثيراً من مؤرخين. ونحن نطلق عليهم مؤرخين وعلى أعمالهم التدوين التاريخي أو علم التاريخ.

مما أنسيته لو كنت باقياً في حفظي لصلح الفن من المذاكرة ونوع من نشوار المحاضرة فاثبت ما بقي على ما كنت أحفظه قديماً واعتقدت إثبات كل ما أسمعه من هذا الجنس وتلميعه بما بحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدثين أو مجيد من الكتّاب المتأدبين).
ينظر التنوخي، أبا علي المحسن بن علي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (تحقيق عبود الشالجي ١٣٩١/ ١٩٧١ ص ١٠.(المترجم)

[1] وعن الرأي بشأن الأحاديث (بضمنها أحاديث البخاري) ينظر غليوم a.Guillaume في دراسته بالإنجليزية (الأحاديث الإسلامية) المنشور في أكسفورد ١٩٢٤؛ وأعيد طبعه في بيروت ١٩٦٦؛ وعن الزبير وأخباره للموفقيات (بغداد ١٩٧٢) وابن النديم، الفهرست ص ١٢٣ وما بعدها./ (ينظر Dodge : الفهرست ص ٢٤٢ وما بعدها) ومثال أنموذجي عن المجلس كتاب مجالس ثعلب (القاهرة ١٩٦٠) ؛ وعن التنوخي نشواره للمحاضرة (بيروت ١٩٧٣) جزء ١ ص١٢ [يقرأ وكان]؛ ولترجمة النشوار مرغليوث D.S.Margoliouth بعنوان باللغة الإنجليزية The Table- lalk of a mesopolanian Judge المطبوع في لندن ١٩٢٢ ص ٩.

الفصل الثاني

انبثاق التصنيف أو التأليف

لكي نعيد ما سبق ذكره لحدّ الآن باختصار، وبحدود وحجم صغيرين؛ وذلك بهدف توقع ما يعقب ذلك في هذا الفصل: فالفتوحات الإسلامية في أوائل القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، قد بشرت باقتراب الدخول أو الولوج إلى حقبة من تكوين مركّب ثقافي متميز جداً، ذلك الذي يسرته وسهلت على حدوثه الدولة الأموية والدولة العباسية، وهما دولتان قد تسامحتا بصورة عامة ورعتا كثيراً التبادل الثقافي المسلم وغير المسلم، وفي أثناء هذه العملية الجمعية المركبة باللغة العربية المشتركة Lingua Franco التي أسست نفسها كلغة إدارية وكلغة الأدب الذي أصبح تدريجياً وبطيئا ما عُرِفَ بعالم الشرق الأدنى الإسلامي ؛ وصيغ من اللغة العربية الشفوية (صيغ الشعر والقصة)، وهم الصيغتان اللتان انتجتا أشكالاً وصيغاً أدبية. وفيما يتعلق بالنثر أصبحت صيغة الرواية في نهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري معيارية وقياسية في مستواها المحلي أو الأصغر micro وحدة تامة بحدّ ذاتها (بمعنى الخبر المفرد والحديث المفرد) وتنسب إمّا إلى شاهد عيان للحديث نفسه أو إلى جامع الأحاديث الموثوق به. وفي مستواها المحلي أو الأصغر قد صارت مجاميع من أخبار وأحاديث، اختيرت أو انتقيت ثم ركبت وجمعت من قبل المصنفين—والمؤلفين، الذين يتطلعون

بل يطمحون أن يكونوا ثقة وجديرين بالأعتماد أكثر من كونهم يتمتعون بالأصالة، تلك المرجعيات التي تستند شهرتهم وسمعتهم إلى مقدار انتقاءاتهم أو اختياراتهم وعلى نوعية هذه الإختيارات.

وهكذا فإن الغالبية العظمى من المؤرخين قد تابعوا ذلك النهج والأسلوب الذي هندسه أو تدبّره "أهل الحديث"، والأنموذجي منه قد ساد وغلب خلال القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وكان المثال والأنموذج هو جمع الأحاديث أكثر من كونه تصنيفا أو تأليفا، وواقعياً فإن جميع الأعمال (الكتب) المبكرة الباقية حتى الآن كانت تطابق وتماثل هذا الوصف. وهناك أمران بحاجة إلى أن نذكر شيئا بصددهما ذلك المتعلق بنشأة الأنموذج أو المثال في التأليف أو التصنيف الأدبي وغيره: وأولهما المتعلق بالمادة أو المعلومات العلمية المتوافرة لغرض التصنيف أو التأليف سواء في أعمال مؤلفات الحديث أو في مؤلفات الخبر وهي المتمثلة بكونها متباعدة كثيراً في وقتها وزمانها، فضلاً عن كونها محدودة ومحدّدة، فكانت نتيجة هذه العملية ظهور مصنفات متجانسة نسبياً وذلك بسبب انبثاقها ونشوئها في زمان مشترك. ويشمل هذا التجانس الأسلوب والمحتوى. وهذا الأمر الذي ينضم أو يوّحد تلك الحماسة الواسعة الانتشار بقدر ضئيل من الموضوعات التي انتزعت من التاريخ المبكر – ولاسيما تلك الخاصة بالفتوحات والحرب الأهلية – هو الذي يقصد به قراءة تواريخ الحقبة الأولى من الخلافة وهي التي منحت فرصة لظهور الحس والإدراك بالاستمرارية للحدث التاريخي كما رأينا بالفعل (déjà vu)، فكانت في الأغلب الأعم مؤلفات أو كتب مختلفة كثيراً ما كانت تغطي الموضوع نفسه. أما الأمر الثاني الذي علينا ذكره بخصوص مثال أو أنموذج التأليف هو الإفراط في التبسيط – وسنلحظ أن هذه النقطة سوف تتكرر مرات عدة ضمن هذا الكتاب . بحيث ينتج سوء

فهم وهو أن ليس جميع مؤرخي هذه الحقبة المبكرة قد هدفوا إلى تصنيف أو تأليف أعمال شاملة وواسعة المعرفة، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين ألّفوا في هذه الصيغة وبهذا الأسلوب (بمعنى أسلوب وصيغة الجمع أو التجميع) كانوا مع ذلك تواقين إلى رواية قصصهم بصورة واقعية ومؤثرة. فبعض العلماء المحدثين في الوقت الحاضر قد أظهروا بالفعل مقدار الصعوبة في التمييز بين الأسلوب الخيالي والأسلوب الواقعي في رواية القصة في أساليب القصّاصين، وعلى الضدِّ من الحكمة المألوفة والمتفقة مع القواعد المقررة، هناك مؤرخون لم يقوموا بعملية رواية أو نقل الرواية وتدوينها فحسب، إنما كانوا يعيدون صياغة – وفي الحقيقة كانوا يقومون حتى في اختلاقها وتلفيقها واختراعها – ونحن سوف نتحدث عن هذه المسألة ومسائل أخرى قريبة ومتصلة بها لاحقاً.

ولكي نلحظ في شيء من التفصيل كيف ظهرت رواية التدوين التاريخي؟ فنحن بحاجة إلى أن نغطّي هذا الموضوع تغطية دقيقة ومتأنّية بشكل أكثر، وواحد من رسمنا المفصّل لا يتجاوز كثيرا سوى فهرست ابن النديم. لقد كان مصنّفو وجماعو الأخبار أو مصنفو الأخبار والأحاديث ـ في زمان ابن النديم ـ منشغلين لأكثر من مائتي سنة، وقد أنتجت ثقافة قوية ونشيطة في التعلم والمعرفة والكتابة لمجموعة متنوعة من الصيغ والأشكال الأدبية. وكانت مدينة بغداد مدينة ابن النديم فيها متجر إثر متجر لخزن هذا النوع من هذه المعرفة والتعليم والكتابة، علماً بأن القدر الأعظم من هذا المخزون العلمي إما قد ضاع وفقد منذ زمن (بمعنى دمّر أو ضيّع أو قد تم تجاهله) أو صار مصدراً غنياً لأولئك الجمّاعين والمصنفين اللاحقين. ما الذي يقدّمه الفهرست؟ ما هو إلا لقطة snapshot في التاريخ الإسلامي وهو ينتقل من أوجهه وحالاته التكوينية إلى حالة التقليدية، وهو يعدّ أداة ووسيلة

لا تقدر بثمن من أجل توثيق عالم المعرفة والتعلم، ذلك العالم الذي أصبح خلال أيامه بالفعل حالة متوارية بل مختفية، والذي يستحيل تقريباً بناءه وتنظيمه من جديد بعد ألف سنة من ذلك الزمان. وفيما يأتي إنني أعتزم أن ولادة رواية التدوين التاريخي مرّت بثلاثة أوجه، وسأتناول كل منها على حدّة وبالتعاقب.

مع هذا فهناك تحذير لابدّ منه، فطالما ليس لدينا إلا القليل من علم التاريخ أومن التدوين التاريخي الذي بوسعه إرجاع تاريخه بأمان إلى حقبنا المبكرة جداً، فإن إعادة المباني التي تعقب ذلك تعدّ ضرورية واستدلالية. (فالإسلاميون المحترفون قد اعتادوا على مثل هذا الصنف من المطاطية وبكون ذلك غير ملزم، غير أنه لابد من كونه لافت للنظر بالنسبة إلى أي شخص آخر). ومقياس ونطاق مشكلتنا لعلها تتغير أكثر بإجراء وسيلة الموازنة بين الأمور بحالة أقرب قليلاً من بلادنا. فبيد المبجل Venerade Bede (المتوفى سنة ٧٣٥م) قد انتهى من كتابة تاريخ الكنيسة للشعب الإنجليزي في دير نورثهمبرين Norflhumbrian وعنوانه Eccleslastical History of the English People في سنة ١١٦هجرية/ ٧٣١م، وأبعد من هذا الكتاب فنحن لا نعرف شيئا تقريباً عن إنجلترا في القرن الثامن الميلادي / الثاني الهجري. هذا فضلاً عن أننا لا نعرف شيئاً عن ايرلندا وويلز في هذا القرن أيضاً والأكثر دقة وضبط فنحن عندئذ نكون تحت رحمة الدليل المادي لذلك الوقت، إذ لا نملك ـ تقريباً ـ أي دليل تاريخي مادي معاصر يختلف عن ذلك التاريخ أو عن نوع آخر. وما هو جدير بالملاحظة واللافت للنظر بالنسبة إلى كتاب (بيد)إنه ليس ببساطة خصلته ونوعيته العالية – بل رؤية المؤلف وملاحظاته الذكية. وقد اعترف بنوعيته وخاصيته مباشرة بعد تأليفه حتى أن عناية كبيرة قد اتّخذت في سبيل

حفظه والاحتفاظ به: وهذا يفسر (جنباً إلى جنب إلى النهضة الكارولنجية Carolingian) التقليد في التقدير الواسع والكريم للمخطوطات، وفيها رقم (٢) مخطوطتان وهو شيء قديم جداً (في أواخر القرن الثامن/ الثاني للهجرة) وبشكل دقيق جداً في عدد النسخ تلك التي يحتمل أنها قد كتبت من قبل تلميذين من تلامذة المؤلف. "إن قارئ (بيد Bede)" اعتماداً على المحققين المحدثين جداً "ليس بحاجة إلى عناء كبير بالنسبة إلى التفاصيل بخصوص النقد النصي للكتاب أكثر مما يحتاجه قارئ كتاب جيبون Gibbon أو كتاب ماكولي "Macaulay. والآن بحوالي في الوقت نفسه تقريباً، هناك شخصيات بارزة من أمثال عروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة ومعمّر بن راشد (ولعله تطول القائمة وتتسع) كانوا جميعهم يجمعون مادة أو معلومات ترجمة سيرة النبي. وفي الوقت نفسه هناك آخرون قد شرعوا في الجمع أو الكتابة عن تاريخ الخلفاء والتاريخ الحولي، فكانوا يملأون أوراقاً طويلة بروايات عن الفتوحات وعن الحرب الأهلية وعن الثورة العباسية، كذلك هناك آخرون غيرهم يحولون مباشرة وبسرعة اهتماماتهم لتنظيم مادتهم وترتيبها في نمط أو في تأليف الطبقات. ولكي نحكم على ذلك المجهود أو نكوّن رأياً من الإقتباسات المتبقية فقط، فإن أعمال العلماء المسلمين لابد من إنها قد فاقت بكثير إنتاج (بيد Bede) ولعوامل عدة. لكن بينما نمتلك كتاب (بيد) بنسخة مشابهة إلى حدٍّ كبير بالشكل والصيغة التي تركها بيد نفسه، فإن هذه الاقتباسات عن أولئك العلماء هي كل ما نملكه منه. فالأصول – كما كانت بالفعل – قد ضاعت، فضلاً عن فقدان الدليل عن المخطوطة، إن كانت مبكرة في تاريخها أو متأخرة مضبوطة في وقتها أو غير مضبوطة صحيحة أو غير صحيحة، بغية أن تتقدم بالعمل في ضوئها. فالمخطوطات باللغة العربية القديمة يتم اكتشافها بين

الفينة الأخرى وأحياناً توجد مقطوعات أو أجزاء ، لكننا مع هذا لا نمتلك أي شيء يشابه الدليل وإن كان بصفحتين نحن بحاجة إلى قراءتها ورؤية كيف كانت صيغ ونظم علم التاريخ أو التدوين التاريخي الإسلامي في القرنين السابع والثامن الميلاديين / الأول والثاني الهجريين[1].

ولهذه الأسباب وأسباب أخرى، لم يندفع القارئ ولم يتشجع إلى موازنة الفكرة الآتية في إعادة مباني أو تجديد في التدوين التاريخي الإسلامي أو علم التاريخ الإسلامي مع غيره[2].

---

[1] عن بيد (Bed) ينظر كتابه باللغة الإنجليزية (تاريخ كنيسة الشعب الإنجليزي) تحقيق وترجمة B.CoLgrave and R.A.B. Mynors والمطبوع ثانية في أكسفورد ١٩٩١) ص ٣٩؛ وبصورة عامة بنظر G.H.Broon في كتابه بالإنجليزية (بيد المبجل) المطبوع في بوسطن ١٩٨٧، ومعلومات عن هذه وعن مرجعيات ونصوص السيرة يمكن توافرها في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة جديدة) تحت عنوان (سيرة تعلم رافين Raven وكستر M.Kister والسيرة في كتاب بالإنجليزية L.I.CONARD بعنوان (التاريخ والتدوين التاريخي في الأزمنة أو العصور الإسلامية الأولى، الذي سيصدر قريباً في برنستون [المترجم وقد صدر فعلاً]؛ وحول رأي عن المخطوطات في القرنين الثامن والتاسع / الثاني والثالث للهجرة ينظر F.Deroche بحثه باللغة الفرنسية (المخطوطات العربية للقرنين الثالث والرابع الهجريين) المنشور في مجلة REI مجلد ٥٥-٥٧ (١٩٨٧-١٩٨٩) ص ٣٤٣-٣٧٩؛ وبالنسبة إلى المخطوطات العربية باللغة الألمانية Beitrage zur Geschite der Hadit und Rechtsgelehrsamkeit der Maliliyya in Nordafrica bis zum 5, JH.D.H. المطبوع في فيسبادن عام ١٩٩٧، وللمؤلف نفسه دراسة أخرى بالألمانية أيضاً طبعها في شتتغارت Stuttfart عام ١٩٩٩ وعنوانها:

Die Rechtsbucher der Qairawaners sahnun b.Sa'Id: Entstehungsgeschichte und werkuber liegerung.(Stuttgart .1999)

(ويشتمل على أمور مهمة عن النقل للمعلومات الشرعية في القرن التاسع الميلادي؛ وهناك قطعة مهمة عن السيرة وردت في ورق البردي التي حققها خوري R.G.Khouri باللغة الألمانية وعنوان الرسالة:

Wahb b.Munabbih: der Heidelberger papyrus psr heid Arab 23 .

المطبوع في فيسبادن ١٩٧٢.

[2] الأساس بين هذه بنظر F.M.Donner في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (أصول الروايات الإسلامية: بدايات الكتابة التاريخية الإسلام) المطبوع في برنستون ١٩٩٨؛ وكذلك E.L.Petersen في كتابه بالإنجليزية الموسوم بـ (علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة: دراسة في نشأة ونحو الكتابة التاريخية الإسلامية حتى نهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، المطبوع في كوبنهاكن ١٩٦٤) (وقد قمت (أي المترجم) بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان

الدور الأول[1]* من حوالي ٦١٠م إلى ١١٢ هجرية / ٧٣٠م.

خلال هذه الحقبة الأولى، التي تبتدأ من إيحاءات – وحي- محمد الأولى وتنتهي في حوالي سنة ٧٣٠م، فإن الغلبة كانت للرواية الشفوية التي ظلت تعدّ السمة المميزة التي اتسم بها الحجاز في حقبة قبل الإسلام. فأولئك الذين كانوا يعرفون النبي رووا أخباراً وقصصاً عنه وعن خبراتهم وتجاربهم جنباً إلى جنب معه أو برفقته، إنهم مقاتلون في معارك الفتوحات يصفون حملاتهم ومعاركهم (وكانت هذه في الغالب هي المعارك المتألقة والرائعة)؛ وأجيال متعاقبة من الأسر والعوائل وهم يروون تواريخ أسرية وعائلية. وهكذا ـ على أية حال ـ هو الشيء الذي نستدل عليه ونستنتجه من مصادرنا المتأخرة، وإن كان الإنطباع بفكرة الاستمرارية والتواصل، فهناك متغيرات مهمة ومؤثرة أيضاً. ولأن المعالم والأوتاد هي أعلى بكثير مما كانت عليه الحال في الحجاز، فالذين يعيبون على الدولة أو ينتقدونها والمدافعون عنها كانوا يروون روايات بشكل مغاير ومختلف عن الحروب الأهلية وعن الثوّار،

(علي ومعاوية في الرواية العربية المبكرة،وطبع في سنة)٢٠٠٩)؛ وكذلك د. عبد العزيز الدوري في دراسته باللغة العربية (ظهور الكتابة التاريخية عند العرب) وحققها وترجمها إلى الإنجليزية L.I.Conard بترجمته العنوان:

The Rise of Historical Writing Among the Arabs.

وطبع في برنستون سنة ١٩٨٣؛ ,وهناك طبعة ثانية في أودنس Odense عام ١٩٧٤: ودراسة A.North بالتعاون مع L.I.Conrad خى (سيذكر فيها بعد على شكل (Noth/Conrad بعنوان (الرواية التاريخية العربية المبكرة) الذي ترجمه M.Bonner، وطبع في برنستون Princeton عام ١٩٩٤؛ وكذلك R.S.Humphreys في دراسته بالإنجليزية بعنوان (التاريخ الإسلامي: هيكلية أو إطار في الاستقصاء) طبعة منقحة، برنستون ١٩٩٤.

*[1] القراء الذين يفتحون ص ٥٤٧ من كتاب الأدب العربي حتى نهاية الحقبة الأموية، باللغة الإنجليزية المطبوع في كمبردج ١٩٨٣؛ كذلك (تاريخ كمبردج للأدب العربي، بالإنجليزية

كذلك فإن القصاص المحترفون (وكانت تُدفع إليهم الأموال) قد دخلوا في خضم هذا المزيج، وهو يعتمدون على الماضي بهدف انتقاد أو توجيه اللوم إلى أولئك الذين كانوا هم المسؤولون عن الحاضر، وهذه مهمة كأهمية الثقافة الوثائقية أو التوثيقية التي بدأت تنبثق أيضا، وهنالك أيضاً سبب للاعتقاد بأن التاريخ الشفوي قد تمتع بعض الشيء أقل مرتبة من الاحتكار التام الذي سبق للماضي أن تمتع به"[1].

كان لظهور انبثاق ثقافة التوثيق التي قد تفجّرت أو أسحدثت بشكل أساس بوساطة وظائف الدولة (نظير. فرض الضرائب أو دفع أرزاق الجند، أو إعمار أو بناء المنشآت العامة) تلك التي تمّت بشكل معقد خلال القرنين السابع والثامن / الأول والثاني للهجرة، ولاسيما إثر تسلط وصعود الفرع المرواني إلى السلطة في الدولة الأموية سنة ٦٣هـ / ٦٨٠ . فعن هؤلاء قد توثقت المعلومات بوضوح في ما بقي من أوراق البردي (توجد في مصر بأعداد كثيرة وفي فلسطين أعداد قليلة جداً منها) كذلك من النقود سواءً النحاسية منها أوالفضية والذهبية، وإلى درجة أقل بكثير من الوثائق النقوش (إذ وردت أول علامة لطريق بري مؤرخة من تلك السنة التي ظلت قائمة ومنصوبة في سنة ٧٣هـ / ٦٩٢. وهناك أيضاً بعض النقوش والرسومات البسيطة وغير الأنيقة الموجود على الأسوار والصخور Graffiti. ولما كان القدر الأكبر من عملية التوثيق هذه تحمل تواريخ، فإن ظهور الدواوينية الإدارية كان لها تأثير ـ من وجهين ـ على تشجيع ودعم الوعي الكرونولوجي التاريخي ومعرفة القراءة والكتابة بين النخب العربية. وبالكاد نحن بحاجة

تحقيق A.E.A.Beeston ربما يتوقعون وجود تقويم وإطراء سخي وواسع لثقافة الكتاب في هذه الحقبة، غير أن الاتجاه العام للموضوع قد ذكر فعلاً على صفحة ٣ وما يعقبها، إذ يتحدث (بيستون) عن رعاية عباسية أيضاً للإنتاج الأدبي.

إلى الإشارة إلى أن أي من هذه التطبيقات والممارسات كانت فريدة من نوعها أو استثنائية بالنسبة إلى الإمبراطورية الإسلامية المبكرة. فالدولة بصورة عامة كان لها اهتمام واعتناء بصيانة وحماية تأدية وظائفها ومهامها الاعتيادية والنظامية وتلك التي يتنبأ بها، لهذا بوسعنا الحديثعن لماذا أدخل استخدام البيروقراطية في تثبيت وترسيخ توثيق وحتى الإعلان عن التوقيت، والتواريخ، وجداول الأعمال على نطاق واسع؟ ففي الولايات المتحدة الأمريكية هناك طوافات عيد الشكر Thanksgiving Floats تبدأ مسيراتها من يوم الثلاثاء وحتى نهاية تشرين الثاني، ولكن الجميع تقريباً يعرفون أن موعد استحقاق الضرائب دائماً هو يوم ١٥ نيسان. كذلك على المرء أن لا يعتقد أن الناس قبل العصر الحديث كانوا على إطلاع أو كانوا مدركين كرونولوجيا – تاريخياً – كما هو الحال بالنسبة إلى المحدثين، الذي يحاطون ـ كما هو شأننا الآن ـ بالساعات وجداول الأعمال وجداول مواعيد الأمطار أو مواعيد إقلاع الطائرات والمذكرات والتقاويم: وحتى بالنسبة إلى حالة مؤرخ رفيع الثقافة كابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١) بوسعه أن يقدّم السنة المقاربة التي ولد فيها[1].

[1] فيما يتعلق بصلة القراءة والكتابة بالإدارة "أكثر من أي خلاصة للثقافة أوالأدب"، فقد اتبعت إجماعاً واسعا، فمثلاً بـ M.T.Clanchy في دراسته باللغة الإنجليزية (من الذاكرة إلى الرواية المكتوبة: انجلترا بين ١٠٦٦-١٣٠٧) المطبوع طبعة ثانية في أوكسفورد ١٩٩٣ "الاقتباس من ص ١٩؛ وعن الدليل حول تنامي الدولة ينظر بحث F.D.Donner باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (تشكيل أو تكوين الدولة الإسلامية) المنشور في مجلة JSAI مجلد ٢٤ (سنة ٢٠٠٠) ص ١٨٠-٢١٦؛ وعن علامات الطريق ينظر (مجموعة النقوش العربية الفلسطينية Corpus Inscriptionum Arabicorum Palestiniae مجلد I تحقيق M.Sharon، المطبوع في ليدن ١٩٩٧، ص ١٠٣ وما بعدها من الصفحات وأيضاً ينظر A.ELad في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (جنوب الجولان في الحقبة الإسلامية المبكرة: أهمية معلمين حديثين مكتشفين لعبد الملك) المنشور في مجلة DI مجلد ٧٦ (١٩٩٩، ص ٣٣-٨٨؛ وعن ابن الجوزي ينظر سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان مجلد ٨ (حيدر آياد ١٩٥٢) ص ٤٨٣.

ومما هو ملفت للنظر بخصوص حالة الإسلام في مرحلته المبكرة هو كيف أصبح التوقيت كثير الإستعمال وبهذه السرعة. فالبعض يعتقد بإنه كان ـ بحسب الظاهر ـ مكرس في التقويم ويبدأ من وفاة محمد سنة ١١هـ / ٦٣٢م، غير أن المسلمين الأوائل اتفقوا على ضرورة أن يبدأ التاريخ بالهجرة، أي هجرة محمد من مكة إلى المدينة، ونتيجة لهذا صارت سنة (١) هجرية توافق سنة ٦٢٢ للميلاد؛ وهذا هو التقويم القمري، الذي هو يخالف التقويم الشمسي. وكان لهذا الاختيار معنى، وكما عبّر عنه أحد المؤرخين بقوله: "هجرة محمد هي الخط الفاصل بين الحقيقة والكذب". وابن الأثير (المتوفى ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣) يروي بصبر وطول أناة لقرائه بأنه على الرغم من أن بعض العلماء يعتقدون بأن محمداً هو الذي وضع هذا التقويم، إلا أن الفكرة في الواقع ترجع إلى الخليفة عمر (خلافته من ١٤هـ / ٦٣٤ إلى ٢٠هـ / ٦٤٤م). والآن فإنه حقيق بأن نظام التوقيت الجديد لم ينتشر استعماله مباشرة في جميع الوسط العربي والوسائل، وذلك لوجود أبيات من الشعر ترجع الى بداية الإسلام مثلاً، يبدو أنه قد احتفظ بنظام التوقيت لما قبل الإسلام، لكن الشعر مشهور بمحافظته على القديم. لذلك فليس هناك من شك بشأن أي نظام في التقويم كانت الدولة قد روّجت لاستعماله: إن التقويم الهجري قد ثبت وجوده في أوراق البردي في تاريخ يرجع إلى سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢ وبعد جيل من ذلك ظهر على نقود الفضة والذهب (وفي حالة نادرة جداً على النحاس) فضلاً عن ذلك ظهوره في عدد من النقوش. وفي نهاية القرن السابع الميلادي/ نهاية القرن الأول الهجري صارت السنوات الهجرية بالفعل تذكر في المؤلفات التاريخية السريانية من قبل المسيحيين الذين كانوا يعيشون في عهد الحكم الإسلامي. وإن أقدم ذكر نسبياً لتبني التقويم الهجري قد يساعد على تفسير وشرح السؤال المتعلق، وهو لماذا ذكرت تواريخ أحداث القرن السابع

الميلادي/ الأول للهجرة بشيء من الوضوح في مصادر القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين، وفي الأقل فإنها قد بدأ الأخذ بها في فتوحات تلك الحقبة (فتاريخ النبوة، يبدو إنه كلّ ما في هذه الإشكالية، بما أننا نفتقر إلى أو ينقصنا الكثير من معيار أو مقياس ضابط خارجي، ذلك الذي يحقق في صحة ذلك و مدى دقته). فمؤرخونا المتأخرون نسبياً يختلفون حول مجموعة متنوعة من المسائل، غير أنهم بالنسبة إلى تحديدات دقيقة لتواريخ الأحداث في حقبة ما بعد النبوة فإنها نادراً ما كانت تتضارب أو تتعارض بشكل مثير. وأنها كانت كثيراً ما تبدي سيطرة وضبطاً حقيقيين بخصوص تواريخ الوفيات. وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا أن الانقطاع أو القطع بين حقب الجاهلية والإسلام قد حدّدت أو عينت بوضوح في التقويم الهجري، وهذا ما وفّر للمؤرخين المسلمين المتأخرين قدراً كبيراً من الأداء والعمل[1].وجنباً إلى جنب مع الوثائق التي انتجت بشكل رئيس من أجل ولأجل ولادة إدارة الضرائب وأصلها، التي كان الكثير منها قد زوّد الإدارة بهيأة بكادر من الموظفين من غير العرب، والمادة أو المعلومات الوثائقية التي

[1] وعن ابن الأثير ينظر كتابه الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٥) مجلد ١ ص١٠؛ واعتماداً على بعض المصادر (مثال السيوطي: ألشماريخ في علم التاريخ (طبع ليدن ١٨٩٤) ص ٥ وما بعدها، فإن الخليفة عمر قد أسس ممارسات أو تطبيقات التوقيت بعد سماعه روايات عن التوقيت اليماني، وهذه يبدو أنها حقيقية؛ وعن مثال من امثلة التضارب في كرونولوجية النبوة ينظر P.Crone في دراسته بالإنجليزية (التجارة المكية وظهور الإسلام) المطبوع في برنستون ١٩٨٧، ص ٢٢٤ وما بعدها من الصفحات؛ وعن شعر منسوب إلى شاعرين مسلمين مبكرين، إذ ذكرت الشهور مربوطة بالفصول ينظر محقق الكتاب C.J.Lyallلكتاب (المفضليات: مقتطفات أدبية لقصائد شعرية odesغربية قديمة) المطبوع في اكسفورد ١٩٢١-١٩٢٤ جبيهة أو جبهة الأشجعي الذي كان معاصراً للفرزدق (الأصفهاني: كتاب الأغاني القاهرة ١٩٢٧-١٩٧٤) مجلد ١٨ ص ٩٤، ويرجع إلى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن/ القرنين الأول والثاني الهجريين؛ وعن تواريخ الحوليات ينظر Donner في دراسته (أصول الروايات الإسلامية) ص ٢٣٠ وما بعدها من الصفحات؛ وعن العمل المضني الذي كان على المؤرخين عمله من أجل التمييز من (العصر البطولي Herois) ينظر C.W.Fornara في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(طبيعة التاريخ اليوناني وروما القديمة) بيركلي ولوس انجلس ١٩٨٨، ص ٧.

من الضروب الأخرىٰ (أي كالمعاهدات والرسائل والخطب والمواعظ) قد برزت أو نتجت لكي نكّون رأياً أو نقدر أدب القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين والتي قد تم حفظها في مناسبات كثيرة. ومن بين أكثر الأمثلة إثارة وتعجباً مجموعة من الوثائق قد صيغت من قبل محمد نفسه في المدينة، تلك التي كما رويت أو نقلت في عدد من كتب التاريخ، فالعلماء بشكل مضلل قد أطلقوا عليها (دستور المدينة Constitution). وقد أثبت ذلك الزعم أنه في غاية الصعوبة، البرهنة علىٰ مدىٰ صدقية هذه الوثائق التي نسبت إلىٰ محمد والخلفاء الأول* ويبدو أن جميعها ـ تقريباً ـ قد عدّلت وحوّرت بشكل أو بآخر، واعتيادياً فإنها قد نقحت وحققت لجعلها موافقة ومطابقة لقيم الحقب اللاحقة وتقاليدها. فالرسائل المنسوبة إلىٰ محمد أو تلك المنسوبة إلىٰ الخليفة عمر مثلاً في الغالب تتخذ أو تلبس إطاراً عسكرياً وإدارياً، فهي إنما رتبت ونظمت لأجيال متأخرة، فهي تلائم وتوافق بشكل وافٍ وواضح منتصف القرن الثامن الميلادي/ أي منتصف القرن الثاني للهجرة أكثر من ارتباطها ببداية القرن السابع الميلادي/ بداية القرن الأول الهجري.وفي الواقع علينا أن نتوقع قدراً كبيراً من إعادة إعداد أو إعادة وضع المسودات، بالنظر لأن الكثير من هذه الوثائق تعدّ وثائق حية Living ومباشرة بمعنىٰ أنها قد وردت أو أدلي بها في الجدل السياسي والمالي (مثال بين دافعي الضرائب وجباة أو عمال الضرائب) إن كانوا مسلمين أو غير مسلمين؛ ذلك لأنه لا يوجد لحدِّ الآن أية مؤسسة إدارية، نظير الأرشيف؛ ذلك الذي قد صمم وتخصّص لحفظ الأصول ونسخها.وبخصوص هذه المسألة لا ريب

* بمعنىٰ أن المؤلف قد حدّد المرحلة الأولىٰ من المبعث ونزول الوحي علىٰ رسول الله في غار حراء، ولكنه وضع سنة ١١٠هـ/ ٧٣٠م سنة لانتهاء هذه المرحلة من التدوين التاريخي، ولا نعرف لماذا هذا التحديد، فأبان بن عثمان وعروة بن الزبير قد توفيا قبل هذه السنة وابن شهاب الزهري قد توفي بعدها [المترجم].

في أن نندهش قليلاً إذ المادة أو المعلومات التوثيقية الأولى لم تؤرشف أي لم تدخل في حيّز ومكان لحفظ الوثائق – بمعنى إن نسخاً مطابقة لتلك الوثائق لم تنجز ولم تنظم لغرض خزنها – ولأن الصيغ والتوجهات الأرشيفية تعقب الإنتاج الواسع النطاق للوثائق ولم تسبقها (سأترك الحديث فيها بعد عن السؤال المتعلق بالتوقف النسبي للأرشيفات للحقبة التي سبقت العثمانيين). بالإضافة إلى الحالات الاستثنائية والمكتشفة مصادفة، التي تتضمن نقل المعلومات الوثائقية بوساطة المتضلعين في الأدب والمتعلمين الذين كانوا في العادة من المهتمين بهذا الأسلوب، علينا أن نفترض أن مثل هذه الوثائق المبكرة التي ظلّت باقية في أدب الحقب المتأخرة قد جددت أو أصلحت خلال مرحلة نقلها. ولنضع المسألة بطريقة أخرى، فإن هذه الوثائق المزيفة أو المنحولة بطريقة ما بحيث صارت تقدّم فكرة خاطئة لمثل تلك الاصول كما كانت، إلا أنها تعدّ نماذج عن القيم والتقاليد الإجتماعية المتغيرة تلك التي حدّدت وجعلت تلك العملية من التجديد والتصحيح في حالة جيدة[1].

و الحال نفسها يفترض أن تكون حقيقية، أي قوائم الأسماء التي يظهر أنها صارت معروفة باتجاه نهاية هذه المرحلة، أي المرحلة الأولى، والتي يحتمل أن تكون نتيجة لانبثاق ثقافة الكتابة، فهناك مثال هو شرحبيل بن سعد البالغ من العمر مائة سنة (ت ١١٢هـ / ٧٤٠م) أتهم بتزوير قوائم الأسماء مقابل دفع الأموال له. وبتداول قوائم أسماء مثل تلك نظير: (أولئك الذين

---

[1] وعن (دستور المدينة) R.B.Serjeant المنشور في مجلة IQ مجلد ٨ (١٩٦٤) ص ٣-١٦ وكذلك ينظر Humphreys : التاريخ الإسلامي ص ٩٢ وما بعدها من الصفحات، وعن الوثائق في السيرة ينظر R.Sellheim في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ(النبي والخليفة والتاريخ: السيرة النبوية لابن إسحاق) المنشور في مجلة Oriens مجلد ١٨-١٩ ١٩٦٧، ص ٤٦ وما بعدها من الصفحات وص ٧٣ وما بعدها من الصفحات (حيث عدّت بصورة عامة أنها موثوقة) كذلك ينظر North/Conrad في دراسته (الرواية التاريخية العربية المبكرة) ص ٦٢ وما بعدها من الصفحات (فوثائق حقبة الفتوحات التي وصفت بصورة عامة بأنها غير موثوقة).

قاتلوا جنبا إلى جنب مع محمد في معركة بدر) (المسلمون انتصروا على المكيين في سنة ٧هـ / ٦٢٤م) وكذلك (أولئك الذين قاتلوا محمد في معركة بدر)، عندئذ فليس من الصعوبة أن نرى لماذا يدفع المرء أموالاً مقابل أن يحذف اسم جده من قائمة ليضاف إلى قائمة أخرى، ولاسيما حينما يعلم أن الخلفاء كانوا معروفين باستقصاء المعلومات عن المعارك، وعن معركة كهذه معركة بدر. وصادف إن قائمة شرحبيل تظهر في سيرة النبي المعياري أو الأنموذجي، ولعلها أيضاً قد صنعت قبل هذا التاريخ. أما قوائم الأسماء الاخرى التي شملت أو عالجت مجموعة متنوعة من الحقول (مثال: صحابة الرسول، واعتيادياً البالغين المعاصرين للرسول من المحدّثين والقضاة والفقهاء والحكّام والولاة) التي يظهر فيها الكثير من المصادر، وربما ترجع إلى حقبة ثانوية. والشكر موصول إلى ما تبقى من قائمتين باللغة السريانية بأسماء الخلفاء، إحداهما التي من المؤكد أنها اعتمدت أو استندت إلى الأنموذج الأصلي، وهناك سبب معقول إلى أن نستنتج وجود قوائم بأسماء الخلفاء مرتبة ترتيباً حسب مدد خلافتهم في أوائل القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة. فإن كان هذا الاستنتاج صحيحاً، فربما قد وظفت قوائم الخلفاء والولاة كمنصّات متتابعة قد أسس أو بنى عليها المؤرخون في أواخر القرن الثامن الميلادي والقرن التاسع الميلادي / أواخر القرن الثاني للهجرة والقرن الثالث للهجرة تواريخاً لدويلاتهم[1].

---

[1] عن شرحبيل ينظر J.Horovitz في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (السير المبكرة جداً عن الرسول ومؤلفوها) المنشور في مجلة IC مجلد ١ (١٩٢٧) ص ٥٥٢ وما بعدها [وقد ترجم إلى اللغةالعربية ترجمة د. حسين نصار، المترجم] وهناك دليل معارض، ولكنني أتابع J,Goody في دراسته بالإنجليزية الموسومة بـ(تأهيل أو ترويض العقل البدائي أو المستوحش) المطبوع في كمبردج ١٩٧٧، في مشاهدة قوائم الأسماء لكننا لمعرفة القراءة والكتابة؛ ينظر أيضاً D.Henige في دراسته بالإنجليزية الموسومة بـ(كرونولوجية الرواية الشفوية) المطبوع في اكسفورد ١٩٧٤) وكذلك Evans في دراسته عن (هيرودوتس) ص ٩٨ وما بعدها؛ وعن اهتمام مروان بن الحكم

لذلك فإن القوائم المتعاقبة والمتتابعة كانت عاملاً مساعداً في تنشيط أو الحث على رواية مرتبة ترتيباً زمنياً – حولياً – غير أنه باستثناء ذلك فهناك القليل الذي بالامكان ذكره بثقة تامة وكبيرة، وهنا تستحق المسألة إعادة نظر، وذلك لأن نشوء الصيغ المتنوعة للتدوين التاريخي هو موضوع من الصعب إعادة مبانيه، نظراً لأنه واقعياً ليس هنالك من شيء على قيد الحياة باقياً من الحقبة التكوينية. وفي ظل الظروف الراهنة فإن أدب القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين كثيراً ما تنسب معلوماته المكتوبة (وبضمنها عنوانات المؤلفات التاريخية) إلى عدد من العلماء والشخصيات البارزة في القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري وفي أوائل القرن الثامن الميلادي/ أوائل القرن الثاني للهجرة في بلاطات الخلافة، ولعله من أفضل الأمثلة عروة بن الزبير (ت ٩٥هـ / ٧١٢) فتقرأ أن عروة كان معتاداً على التحدث في التاريخ في مساجد مكة والمدينة، وكان خبيراً بسيرة الرسول، وهو أيضاً كان يدوّن روايات عن معركة بدر في كتابته إلى الخليفة عبد الملك بن مروان (حكم من سنة ٦٥-٨٦هـ / ٦٩٢-٧٠٥م) بصيغة كتاب –

بمعركة بدر (حدثني حديث بدر) ينظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك (ليدن ١٨٧٩-١٩٠١) مجلد ١ ص ١٣١٣ وما بعدها، الذي ترجمه M.V.Mcdonald بعنوان The Foundation of the community (أساس المجتمع) الباني Albany ١٩٨٧؛ الطبري ترجمة مجلد ٧ ص٥٠؛ إن الباحث الأول الذي يعترف بأهمية القوائم السريانية يبدو أنه G.Rotter في بحثه باللغة الألمانية الموسوم بـ(أبو زرعة الدمشقي) (٢٨١/ ٨٩٤)
Abu zur'a al-Dimasqi und das problem der fruhen arabischen geschichtsschreibung in syrien
المنشور في مجلة Die des orients مجلد ٦ (١٩٧١) ص ٩١؛ أيضاً ينظر crone في دراسته بالإنجليزية (عبيد وخيول: تطور السياسة الإسلامية) المطبوع في كمبردج ١٩٨٠، ص ٢١٣ وما بعدها، ملحوظة رقم ٩٩ و ١٠٢؛ وعن قوائم الأسماء في الرواية الإسلامية المبكرة ينظر J.Schachl في دراسته بالإنجليزية الموسومة بـ(حول موسى بن عقبة وكتاب المغازي) في مجلة Acta orinlatia مجلد ٢١ (١٩٥٣) ص ٢٨٨-٣٠٠؛ كذلك Conral/NORTH في دراسته (الرواية التاريخية العربية المبكرة) ص ٩٦ وما بعدها من الصفحات و M.Lecker في دراسته (المسلمون، اليهود والوثنيون بعدها من الصفحات.

واقعاً، فإنه ربما كتب في السيرة بصورة كاملة (أو في المغازي)* ففي المقاطع التي وجد فيها بعض العلماء البداية في رواية التدوين التاريخي أو علم التاريخ. وهناك على أية حال أسباب مقبولة لأن نكون حذرين بشأن هذه المرويات. وليس هناك الكثير يمكن قوله لكن العلماء قد تتضارب آراؤهم بخصوص العنوان – عنوان كتابه- الذي نحن بصدده أو حتى محتوياته، وبالأحرى أي كتاب قديم جداً غيره، طالما أن التضارب والتعارض في الآراء يعدّ مزية بارزة في الرواية الأولى والمبكرة كلها. والأحرى أن نسبة الكتاب- هي على نحو متماثل - متأخرة، وأن مثل هذه الكتابة على ما هي وفي هذه الحقبة المبكرة جداً ربما قد تم إنجازها للوقوف ضد الجدل الحاد والمناظرة الحادة ضد الكتابة بحدِّ ذاتها، وأخيراً نحن نعلم بأن المتفق عليه وحسب العادة المتبعة في الكتابة والتأليف قد تدفقت بالفعل في قرن لاحق وليس في القرن السابع الميلادي. ففي الحال الحاضرة، عن عروة**، وبحسب معرفتنا أنه ليس هنالك من سبب في أن يشك المرء فعلاً بوجود علماء وشخصيات بارزة نظير عروة، وإن أمثال هؤلاء العلماء قد أولوا اهتماماً بالماضي، أو قد تداولوا

* لم يثبت أن عروة بن الزبير قد خلّف كتاباً عن المغازي، وإن ما تم نشره في الوقت الحاضر مجموعة روايات عروة بشأن المغازي، وكان عروة مقرباً من البلاط الأموي؛ إذ يرجع إليه الأمويون لاستشارته بشأن المغازي. وقد نشر بالفعل المرحوم الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه عن نشأة علم التاريخ نصوصاً برواية عروة بن الزبير عن المغازي فقد وردت رواية عن راوية عروة بن الزبير وهو عبد الرحمن بن أبي الزناد قوله:إن عروة قال له (كنا نقول لا نتخذ كتاباً مع كتاب الله فمحوت كتبي، فو الله لوددت أن كتبي عندي وأن كتاب الله قد استمرت مريرته) ينظر ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٤ ص ٢٥٨؛ المزي: تهذيب الكمال ج٢ ص ٢١، وهذه الرواية لم تأت على مسألة مهمة أكانت تلك الكتب التي محاها أو قيل في رواية أخرى أحرقها هي مؤلفاته أم أنه جمع كتباً لآخرين؟ وهل أنه محا كتاباً بعينه أم كتباً كثيرة من الحديث والفقه والتفسير مثلاً. على أية حال فقد وقفت على هذه الرواية وروايات أخرى مشابهة في كتابي نقد الرواية التاريخية ص ١٩٥-١٩٨ [المترجم].

** كما تقدم ذكره فلم ترد معلومات عن أن عروة بن الزبير قد خلّف كتاباً عن السيرة النبوية أو عن المغازي ولكنه وابنه هشام وابنه الآخر عثمان يعدّون الحلقة الأساس في مرويات السيرة النبوية والمغازي، وقد أحصيت مروياته في مؤلفات المسانيد والسنن والتاريخ، ينظر ناجي، عبد الجبار: نقد الرواية التاريخية ١٢٤-١٣٢ [المترجم].

القصص، ويحتمل أيضاً أنهم علّموها للغير، وليس هناك سبب لكي نعتقد بأن هؤلاء العلماء قد أدّوا أية مرجعية كمؤلفين (أكثر من كونهم قصّاصين) وأقل كثيراً من كونهم مؤرخين متميزين"[1]

الدور الثاني من سنة ١١٠هـ - ٢١٥هـ / ٧٣٠م - ٨٣٠م.

خلال هذه المرحلة الثانية بوسعنا أن نبتدأ الحديث عن التدوين التاريخي الإسلامي أو عن علم التاريخ الإسلامي. إذ بحلول سنة ١١٠هـ / ٨٣٠م ظهرت ترجمة الحياة والطبقات البروسوغرافي والتاريخ الحولي الكرونغرافي، وقد ظهرت جميعها بصيغ ممكن تمييزها طيلة الحقبة القديمة. وحسبما يبدو أن التدوين التاريخ لهذا السبب كان قديماً أيضاً كقدم التعلم والمعرفة الإسلامية، وأعني بهذا أن لا شيء أكثر من إنتاج وتصنيف المعرفة والتعلم بصيغة الكتابة وبكتب مكتوبة لا روايات شفوية. وكالفروع المعرفية

---

[1] وعن مناقشة لصالح عروة بنظر هورفيتس بحثه (سير حياة) ص ٥٢٤ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك الدوري "ظهور الكتابة التاريخية" ص ٧٦ وما بعدها من الصفحات، أم جرّار M.Jarrar دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ (السيرة النبوية في إسبانيا الإسلامية) Die propheten biographie im islamischen spanien المطبوع في فرانكفورت+ مين main ١٩٨٩، ص ٢٠ (إن عروة بن الزبير قد كتب عن المغازي هو موضوع لم يعدّ خاضعاً للمناقشة وقوله بالنسبة إلى المناقشة ضد عروة كذلك E.Landau- Tasseronr في بحثه (حول إعادة مباني المصادر الضائعة) المنشور في الكتاب الذي حققه Conrad بعنوان (التاريخ والتدوين التاريخي في العصور الإسلامية الأولى)؛ ينظر أيضاً G.Schoeler دراسته باللغة الألمانية (حول شخصية ومصداقية المؤلفات الإسلامية عن سيرة النبي محمد) المطبوع في برلين ١٩٩٦، ص ١٩ وما بعدها من الصفحات ,وصفحة ٢٨ وما بعادها من الصفحات، وعن حظر عبد الملك لأحد أبنائه من قراءة المغازي ينظر جولد تسيهر I.Goldziher في كتابه (دراسات محمدية) ترجمة إلى الإنجليزية من قبل C.R.Barber و S.M.Stern المطبوع في شيكاغو ١٩٦٦، مجلد ٢ ص١٩١؛ وعن هجوم ضد الكتابة ينظر M.Cook في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ(معارضو كتابة الحديث في الإسلام المبكر) في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ٤٤ (١٩٩٧) ص ٤٣٧-٥٣٠؛ وهناك قدر كبير ومفيد من المعلومات قد جمعها كستر M.J.Kister في بحثه باللغة الفرنسية (لا تقرأ القرآن على مصحفيين ولا تهملوا العلم عن الصحفيين، بعض الملاحظات حول نقل أو رواية الحديث) في مجلة JSAO مجلد ٢٢ (١٩٩٨، ص ١٢٧-١٦٢).

الأخرى، فقد تفجّر التدوين التاريخي كجزء ونتيجة تعاظم سرعة الثقافة المكتسبة عن طريق التعلم في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين / القرن الثاني واوائل القرن الثالث الهجريين.

وفيما يتعلق الأمر بالتدوين التاريخي، فقد اتسمت الحقبة نفسها بشدة وتوتر بين التوسع الهائل في مجاميع كاملة من معلومات الأخبار، وكثير منها قد وظف في الظاهر للكتابة عنه في الحقبة الحديثة فقط، كذلك فإن بناء أطر الرواية قد هندّست ودبّرت لتحتويها وتنتظمها. ومع ذلك فنحن لا ندرك كثيراً الصلة بين الاثنين. فكيف وضع التدوين للكتابة لتحبير to ink التاريخ الشفوي الذي يرجع إلى حقبة ظهور المشاريع التاريخية الحولية الكرونولجية؟ فهل قام مؤرخونا وهم يعتمدون على مجموعة كاملة من المادة المكتوبة التي كانت موجودة قبلاً، ومن ثم فرضوا عليها تعيينات في التاريخ الحولي؟ أم هل كانوا يمارسون العمليتين معاً أي مهمة صنع المعلومات التاريخية وخلقها ثم مهنة تنظيمها وترتيبها – ثم إنتاج مشاريع وخطط في التاريخ الحولي لتلك المعلومات التاريخية المطلوبة الضخمة التي بقيت في صيغتها الشفوية؟

الجواب عن هذه التساؤلات كما يتصور المرء هو نوع من الجمع أو التوفيق بين كليهما. فمن ناحية فإن الكثير من العناوين التي تعود في تاريخها إلى هذه الحقبة يبدو أنها تظهر تطلعات وطموحات في التدوين التاريخي وهي إلى حدٍّ ما بسيطة. فدراسة علمية في حقل ضيق من حقول المعرفة نظير (مسيلمة الكذاب) وهو معاصر في حقبة ظهوره مع حقبةمحمد الذي وصمه بوصمة يصعب محوها ألا وهي النبي الكذّاب والزائف. هذا من جهة بينما

موت الحسين – وهو حفيد محمد، الحسين* الثائر المتوفى سنة ٦٠هـ / ٦٨٠م، ومعركة الجمل سنة ٣٦هـ / ٦٥٦م، تلك المعركة التي وقعت بين زوج محمد عائشة وبين صهره هي أحداث يظن أنها قد تم التأليف عنها كثيراً؛وذلك لأغراض سياسية وفرقية. وهي بوضوح تومىء إلى أدب ـ فضلاً عن الرواية الشفوية ـ له دور وأداء يؤدي في السياسة. إلا أنه ليس هنالك من سبب للإعتقاد بأن الكثير من هذه الكتب تعطي انطباعاً بكونها قصيرة بعض الشيء – وعبارة كتيبات tracts فرقية للموالاة والمشايعة – وبعضها ربما لا يشابه تماماً الكتيبات الثورية لباريس أو بوسطن في القرن الثامن عشر للميلاد- ولا تطرح هذه الكتيبات أي مشاكل جدية بالنسبة إلى كتب الكرنولوجي الحولية ولا إلى مسألة الترتيب التزامني للأحداث التاريخية. أما الزهري (ت ١٢٤هـ / ٧٤٢م) الذي كان حسبما يبدو منهمكاً على نطاق واسع في مشروع تدوين تاريخي معقد يتكون من إعادة مباني سيرة محمد، الذي يقول لنا بأنه قد اعتمد على نصوص ومراجع كثيرة "كل منها أسهم بجزء من القصة، وأحدهم يتذكر معتمداً على الآخر، وما قمت به إلا مجرد دمجها معاً لتقدم لك بما قاله لي الناس". وها هنا يظهر أن لدينا لمحة عن كيفية تكوين بنية السيرة الواعدة والطموحة، وكيف أن هذه العملية قد أدّت إلى انهيار التاريخ الشفوي: ولكي نحكم ونقدر من هذه الروايات ومما نظن ونستنتج أن يكون مخططا ومشروعا هذا العمل، بأن الزهري كان مؤرخاً على وفق أي تعريف ملائم للمصطلح[1].ومع هذا فهناك في الأقل عنصران معقدان بشأن هذه المسألة

---

* اعتماداً على فهرست ابن النديم فإن أبا مخنف لوط بن يحيى الأزدي هو أول من خصّص لمقتل الإمام الحسين بن علي كتاباً سماه (مقتل الحسين) وتوفي أبو مخنف سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٣، وأعقبه في الكتابة أبو الفضل نصر بن مزاحم المنقري فألف كتاباً عنوانه (كتاب مقتل الحسين بن علي عليهما السلام) الفهرست ص ١٠٥،١٠٦ [المترجم].

[1] أمثلة عن هذه العناوين ينظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي GAS ص٢٥٧ وما بعدها من الصفحات، وكذلك Donner: أصول الروايات الإسلامية ص ٢٩٧ وما بعدها من الصفحات؛

أولهما هو أنه ليس لدينا وسيلة للوصول والأقتراب المباشر واقعياً لما كتب الزهري نفسه، بالنظر إلى أن هذه الاقتباسات والاقتباسات الأخرى الموجودة هي التي بقيت في المصادر المتأخرة: ولم يبق أي من أعمال أو مؤلفات الزهري الخاصة (بالنسق التي كانت عليه فعلاً). وفي هذه الحال فنصوصه قد رويت من قبل ابن اسحاق (ت ١٥٠هـ/ ٧٦١م) في سيرته النبوية. وكتاب السيرة النبوية هنا قد نقل أو روي اعتماداً على رواية البكائي (ت ١٨٤هـ/ ٨٠٠م) وهذه الرواية بحدٍّ ذاتها قد اختزلت أو اختصرت ومن ثم حققت بنشاط وهمّة من قبل ابن هشام* (ت ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م). وبعض المعلومات التاريخية نسبت إلى الزهري ولعلها موثوقة، غير ان بعض هذه المعلومات غير موثوقة بشكل واضح، والعمل المضني بفرزها وإعادة تصنيفها قد تمّ البدء به حديثاً. أما الثاني، وكما هو موجود في أي مكان آخر في الرواية الأولى والمبكرة، هو العادة المتبعة والتقليد المتبع في عملية نقل أو رواية الرواية الشفوية بمعنى مثلاً (كما قال لي الناس) فإن هذا التعبير قد يحرّف أو يشوّه رواية المصادر المكتوبة، إذ من المحتمل أن يكون الزهري قد ألف أو نقل من مادة أو معلومات مكتوبة، تلك التي بدورها قد رويت إليه شفوياً. فإذا ما وضعنا

وعن المصادر المكتوبة والشفوية المتوافرة لسيف بن عمر ينظر M.Hinds في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ "مصارد أو موارد سيف بن عمر عن الجزيرة العربية"، المنشور في الكتاب الذي حققه عبد الله A.M.Abdalla الموسوم بـ (مصادر عن تاريخ الجزيرة العربية) المطبوع في الرياض ١٩٧٩، القسم الثاني ص٣-١٦ (وقد أعيد طبعه في كتابه "دراسات في التاريخ الإسلامي المبكر" تحقيق J.Bocharach والمطبوع في برنستون ١٩٩٦ ص ١٤٣-١٥٩؛ وعن الزهري ينظر Schoeler في كتابه المذكور آنفاً (شخصية ومصداقية) ص ٣٢ وما بعدها من الصفحات (إذ قيل إن المادة أو المعلومات المتبقية أو الباقية قد جاءت من ملاحظات خاصة.

* زياد بن عبد الله أو عبيد الله البكائي قيل إنه توفي سنة ١٨٣/ ٧٩٩ وقد ضعّف عدد من علماء الجرح والتعديل كالعقيلي في كتابه الضعفاء ويحيى بن معين في تاريخه والإمام أحمد بن حنبل في علله وعلي المديني، والواقع أن محمد بن إسحاق كان قد أملى على البكائي السيرة مرتين وأنه كتب السيرة في الحيرة قبل بناء مدينة بغداد (ينظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٨ ص ٤٧٨) [المترجم].

هذين العنصرين المعقدين جانباً، عندئذ تكون النتيجة بأن ليس هنالك من سبب في الشك في أن المؤرخين القدامى أو حتى المبكرين قد اعتمدوا على مصادر شفوية بأعداد كثيرة، طالما أن القيمة الإجتماعية للدليل الشفوي لابد من أنها ظلت باقية كأي جزء أو مجلد من رواية مكتوبة كانت في الوقت ضعيفة نسبياً. وفي الواقع فإن توليفة مشابهة في جمع المعلومات الشفوية وترتيبها أو تنظيمها، قد أثبتت صحتها في أسبانيا المسلمة، إذ يبدو أن التدوين التاريخي قد ظهر بعد حوالي قرن من الزمان أبعد بكثير من ظهورها في الهلال الخصيب. وبموازنة مع الصيغ المعتبرة والنافذة لرواية التدوين التاريخي الإغريقي والروماني، تلك التي وضعت أهمية عالية جداً على الدليل الشفوي للتاريخ المعاصر، فالخيار الذي حدّده أو قام به المؤرخون المسلمون الأوائل في الاعتماد على الدليل الشفوي في التاريخ غير المعاصر، هو لافت للنظر، ويشير إلى أهمية وعلى القويم العالي الذي وضعه المسلمون الأوائل واليهود الربانيون تلك التي فرضوها ووضعوها على النقل الشفوي. آخذين بنظر الاعتبار الموارد التاريخية المتوافرة لديهم، ولعله من الممكن القول بأنهم عملوا بمقتضى أو استناداً إلى الضرورة. فلماذا لم يجد التاريخ المعاصر تشجيعاً أو رعاية حتى الحقبة المتأخرة أو الثانوية؟ علماً بأن هذا هو سؤال منفصل سوف نتحدث عنه تباعاً في الفصل الخامس[1].

---

(1) وحول مناقشة بعض الصدقية في مادة الزهري ينظر G.Schoeler في بحثه (مغازي موسى بن عقبة) المنشور في الكتاب الذي حققه H.Motzki الموسوم بـ (سيرة حياة محمد: مسألة المصادر) المطبوع في ليدن سنة ٢٠٠٠ ص ٦٧-٩٧؛ ينظر أيضاً جرّار Jarrar كتابه بالألمانية الموسوم بـ (سيرة محمد) ص ٢٣ وما بعدها من الصفحات؛ وعن أسبانيا ينظر شارل بلا CH.Pellat في بحثه الموسوم بـ (جذر أو أصل وتطور التدوين التاريخي في أسبانيا) المنشور في الكتاب الذي حققه هولت P.Holt وبرنارد لويس B.Lewis باللغة الإنجليزية والموسوم بـ (مؤرخو الشرق الأوسط) المطبوع في ليدن ١٩٦٢، ص ١١٨-١٢٥؛ وكذا ينظر جرّار Jarrar في كتابه (سيرة محمد).

ومهما كانت الصلة دقيقة بين الرواية الشفوية والمكتوبة في هذا الدور المبكر جداً، إلا أننا متأكدون بكل معنى الكلمة بخصوص زمانها: إذ برزت الرواية خلال حقبة التعاظم السريع للمعرفة والتعليم في أواخر القرن الثامن الميلادي/ أواخر القرن الثاني للهجرة، والرواية نفسها توحي بأن رعاية العباسيين الأوائل تعدّ العامل الأساس والجدي لهذا التعاظم والإتساع السريعين للمعرفة والتعليم، والرواية تصف كيف إن العباسيين الأول قد وجّهوا اهتمامهم نحو ترجمة المصادر الإغريقية والفارسية إلى اللغة العربية. وهناك قصص متنوعة وحكايات قد دوّنت ونسخت في الكتابة، وإن سيرة محمد قد كتبت. ومع ذلك فإن شخصية بارزة كابن اسحق نفسه هو الذي ألف سيرة ضخمة لمحمد، وقيل إن الخلفاء قد كلّفوه أو قلدوه عملية القيام بهذه المهمة*. وهناك الكثير من الأدلة تزكي الدور الحاسم لهذه الرعاية**. فقد كان العباسيون الأول ثواراً، ، إذ دحروا آخر خليفة أموي في سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م وأقدموا على استئصال كل أفراد البيت الأموي ووصل هؤلاء حديثوا النعمة arrivistes إلى السياسة والثقافة بصورة عامة (فالعائلة العباسية لم يكن لها تاريخ متميز في العهد الأموي، وجاءت سلطتهم العسكرية من جيش من غير العرب ومن الشرق الإسلامي). وبالنتيجة فقد واجهوا معارضة بطيئة وتدريجية ولاسيما من شيعة الكوفة، وكذلك من نزعات الشك من

---

* أورد الخطيب البغدادي رواية مفصّلة عن مسألة انتقال محمد بن إسحاق من المدينة المنورة إلى العراق وأسباب ذلك. ثم يبين اتصال ابن إسحاق بالمنصور في الحيرة إذ قدّم كتابه إليه هدية، وأنه أجرى عليه تعديلات وإضافات، ولعل ذلك كان في صالح العباسيين والعباس بن المطلب وابنه بشكل خاص. فالمنصور الذي كان مهتماً بالأخبار والتاريخ أو ابنه المهدي هما اللذان طلبا من ابن اسحاق كتابة تاريخ منذ خلق الله تعالى آدم إلى اليوم الذي التقى فيه ابن اسحق بهما (ينظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١ ص ٢٣٦-٢٣٧؛ ج٨ ص ٤٧٨) [المترجم].

** وعن علاقة محمد بن إسحاق بالمنصور والمهدي يراجع الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج١ ص ٢٣٦؛ مرغليوث، دراسات عن المؤرخين العرب (تعريب د. حسين نصار، دار الثقافة، بيروت ص ٩٦؛ فؤاد سزكين: تاريخ الأدب العربي، (تعريب محمد حجازي، السعودية ١٩٨٣) ج١ ص م ص ٩١ [المترجم].

الأقلية الدواوينية الإدارية وإلى مدى محدود جداً من النخبة العسكرية، تلك التي كانت في خدمة الأمويين. فتاريخ الرعاية والتشجيع هكذا قد قدّم للعباسيين مسوغاتفي تأسيس ثقافة بالإمكان الاعتماد عليها. لشرعنة العنف والقسوة التي قد جاءت بهم إلى السلطة. فاعتماداً على بعض الروايات فإن ابن إسحاق وبعد تسلمه تفويض الخلافة بكتابة سيرته أخذ يقدّم مؤلفه على شكل محاضرات أمام علماء الكوفة[1]. فإن كان للعباسيين من سبب وجيه ومقبول لرعاية العلماء ورجال العلم، فقد كان لديهم أيضاً الوسائل والموارد في دفع الأموال إليهم، وأن يلجأوا إلى دفع الأموال المجزية والكبيرة جداً للتعليم والمعرفة بصورة عامة، ومن هذا كلّه فقد كانت الظروف الإجتماعية والإقتصادية لصالح هذا التفجّر في التعليم والثقافة. ودعونا نضع الاستنتاجات جانباً، فإن آفاق الأمويين الثقافية كانت بسيطة وضيقة وضعيفة، وكانت بلاطاتهم المتنقلة peripatetic في الأُقل بمقاييس العباسيين التي كانت متجانسة فضلاً عن كونها محدودة. فمعرفة القراءة والكتابة، وهي وسيلة أقل بكثير من أهمية التعليم والمعرفة، لم يكن بوسعها أن تؤسس لنفسها بعداً وتقديرا وقيمة ثقافية. لكن الخلافة العباسية قد تزامنت في بداياتها (وإلى قدر ما فقد سهلت ويسرت هذه العملية) مع ارتفاع الإقتصاد العراقي إلى ذروته، وبذلك توسع اعتماد العباسيين عليه ليس فقط في دفع أرزاق ورواتب الجيش والأجهزة الإدارية إلى درجة لا سابقة لها، بل كذلك في أسس النمو المتفجر أو الانفجاري لعاصمتهم مدينة بغداد العالمية

---

[1] عن الدور الحاسم لرعاية العباسيين لسيرة ابن اسحاق ينظر Sellheim كتابه (النبي، الخليفة والتاريخ) باللغة الألمانية ص ٣٩ وما بعدها من الصفحات وكذلك ينظر بصورة عامة Donner في كتابه (أصول الروايات الإسلامية) ص ٢٨٠ وما بعدها؛ وعن السياسة الثورية والتدوين التاريخي، ينظر Lassner.في دراسته باللغة الإنجليزية (الثورة الإسلامية والذاكرة التاريخية) المطبوع في نيوهفن New Haven سنة ١٩٨٦.

(الكوزموبوليتينية) وغير المحدودة. وهنا وفي مدينة بغداد احتشدت وتزاحمت بالوافدين والقادمين الجدد من جميع الخلفيات الممكن تصورها، فاستطاع التعليم والمعرفة والفنون أن توفر لأولئك الذين لديهم طموح وموهبة فرصة للهروب من الجذور والخلفيات الإجتماعية المتواضعة جداً التي كانوا عليها قبلاً (كالعبيد المعتقين والمتحررين من العبودية الذين أسروا خلال عمليات الفتوح وكذلك الفلاحين السابقين أي المتواجدين في المنطقة) وحتى بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا بالفعل يمتلكون مهارات مناسبة (الرهبان والقساوسة والبيروقراطيين الساسانيين والبيزنطيين) لاستخدامهم وتوظيفهم في هذا العالم الجديد. إنه وسط ومحيط كان الشعراء من أمثال بشار بن برد (ت ١٦٨هـ / ٧٨٤) ومؤرخون من أمثال ابن اسحق، ومن الجدير بالذكر فإن أجداد كليهما – بشار وابن اسحاق- كانا من أسارى حقبة الفتوح، وقد أفلحا في أن يجدا الشهرة والحظ[1].وفي خضم هذا الانفجار الإقتصادي والثقافي ظهر إنتاج الورق المحلي الذي يتجذّر تاريخه في العراق إلى حقبة أواخر القرن الثامن الميلادي/ أواخر القرن الثاني للهجرة، وعلى هذا الأساس قلّت بل انخفضت كلفة مادة الكتابة. (وأقدم مخطوطة ورقية ظلت باقية ترجع إلى تاريخ سابق من سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م). والتحديد القاطع والحاسم قد يتجه إلى التشديد على الدور أو الأداء في إنتاج الورق ضمن هذا الانفجار المعرفي وفي التعليم والمعرفة. غير أن مادة الكتابة، ولاسيما بالنسبة إلى ورق البردي المصري، كان كثيراً نسبياً، وواقعاً فقد استغرق الورق بعض الوقت لكي يحتكر ويغرق السوق خلال القرنين

---

[1] وعن ابن إسحاق ينظر ابن قتيبة: كتاب المعارف (القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٨١) ص ٤٩١ وما بعدها (إذ يذكر أن جده أخذ من عين التمر وأرسل بعدها إلى أبي بكر)؛ وحول أوامر الخليفة العباسي الأول أن الملاحظة البارعة يجب أن تسجل في الكتابة وأن تجمع، الزبير بن بكار: أخبار الموفقيات ص ١٩.

التاسع والعاشر الميلاديين، الثالث والرابع الهجريين. وعلىٰ أية حال فإن موحدين آخرين قد تدبروا أمرهم في إنجاز أعمال كتابية من غير الورق ولعله من الموثوق به الاقتراح بأن دخول الورق الذي جُلِبَ بسبب من أن العباسيين كانوا يؤسسون إمبراطورية علىٰ درجة من الضخامة والكبر، قد ساعد هو الآخر علىٰ الإسراع في الحركة تجاه ثقافة التعليم والمعرفة، وما أن انتشر التعليم انتشاراً واسعاً ومطرداً مقارنة بما كان عليه الحال زمن الأمويين الذين سبقوهم. فالماكنة الإدارية التي أدخلها العباسيون كانت إلىٰ مدىً معين قد تأسست وبنيت علىٰ جزء أو علىٰ المألوف من المعرفة من أجل تسهيل أو تزييت ناقل الحركة gear. وكانت تلك المدن المزدهرة في العراق العباسي، وفي إيران وفي بلاد ما وراء النهر هي ذلك الجزء الذي استخدمت معا الورق، الذي أثبت في خاتمة المطاف إنه الوسيلة الرخيصة بل الأرخص من أجل الإنتاج مما هو عليه الحال في ورق البردي، فضلاً عن عملية معالجة جلود الحيوانات. وكان ضمن هذه العملية ما أحدثه العباسيون من سياسة تتمثل بالطرقات المتكررة Hammering لشريعة الإمبراطورية كان جزءا من هذه العملية. وهكذا أيضاً ـ كما سنرىٰ ـ فإن أنواعاً أساس من أدب التدوين التاريخي الإسلامي أخذت بالظهور. وباختصار فقد كان العباسيون وهم مدفوعون بدوافع ومآرب قد اندفعوا إلىٰ احتضان ورعاية التعليم والمعرفة في نطاق معين، وكذلك الإشراف علىٰ الظهور الكبير والواسع لثقافة المعرفة والتعليم الأكثر ازدهاراً ورخاءاً مما كانت عليه الحال زمان الأمويين. فالأصول العميقة لرواية التدوين التاريخي وعلم التاريخ قد تموضع في تربة أموية، لكنها تربة كانت صخرية جداً ليس بالوسع العمل علىٰ ازدهارها وتنشيطها[1].

---

[1] وعن دخول الورق ينظر بيدرسن Pedersen في كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الكتاب

فالنطاق الواسع للتعلم والمعرفة في الدولة العباسية كان في كل المجالات وفي كلّ الأنحاء. فالأخباريون أمثال أبو مخنف (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤) وسيف بن عمر؛ وكلاهما قد أسهم في الرواية التاريخية بشكل كبير وضخم، إذ نسب إليهما حوالي (٣٠) ثلاثين إلى (٤٠) عنواناً لكل منهما وبالتتابع. وامتداد حياة إخباري آخر هو أبو الحسن المدائني تتطابق وتتوافق جداً مع هذا الدور (فقد ولد المدائني حوالي سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م وتوفي في وقت بين ٢١٥هـ / ٨٣٠م و ٢٣٦هـ / ٨٥٠م) ويحتمل أنه مؤلف لمائتي كتاب. والظاهر أن اثنين فقط من هذه الكتب الكثيرة قد بقي حياً (وواحد من الاثنين قد ظل باقياً بشكل جزئي)، لكن المدائني كان هو المؤرخ المفضل عند المؤرخين المتأخرين. وإن أعماله لا سيما تلك التي عن الفتوحات قد بقيت على شكل اقتباسات طويلة. وواقعاً فالمثير للإعجاب هو ليس فقط عدد عناوين كتب المدائني لا سيما وأن الكثير منها متداخلا جزئياً أو مشتركا في صفاته. بل الأهمية الأكبر هي في سعة مساحة مؤلفاته وسعة نطاقها (فلدينا عناوين لها علاقة بحياة الرسول، والفتوحات، وأحداث الحربين الأهليتين الأولى والثانية، وبتراجم حياة ولاة وثوار، والكثير الكثير جداً غيرها)

العربي) ص ٦٠ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك ينظر G.Enderss في البحث باللغة الألمانية الموسوم بـ Handschriften Kund المنشور في كتاب حققه فشر W.Fischer باللغة الألمانية وعنوانه Grundrip der Arabischen philolgie Band1 sprachwiss enschaft المطبوع في فيسبادن ١٩٨٢ بصورة ولاسيما ص ٢٧٥ وما بعدها، وحاليا ينظر J.Bloom في كتابه بالإنجليزية الموسوم بـ (الورق قبل الطباعة: التاريخ وتأثير الورق في العالم الإسلامي) المطبوع في نيوهفن New Haven ٢٠٠١، الفصل الثاني، دخول المخطوطة الورقية المبكرة جداً ينظر G.H.A.Juynboll في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(أصول أو جذور النثر العربي) المنشور في الكتاب الذي حققه Junynboll الموسوم بـ (دراسات حول المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري) المطبوع في Carbondale and Edwardsvilie ١٩٨٢ ص ٢٥٥؛، ولكن ينظر ايتان كوهلبرغ E.Kohlberg في كتابه (عالم مسلم من العصر الوسيط: ابن طاووس ومكتبته) المطبوع في ليدن ١٩٩٢ ص٨٥ ملاحظة ١٠٧، الذي يقترح فيه بأن هناك ربما شيئاً ما مبكر جداً قليلاً.

والأشكال والصيغ المختلفة العناصر (أي المرويات إن كانت بسيطة أو مركبة أو معقدة، وقوائم بأسماء وخطب ومواعظ ومجاميع متنوعة أخرى) وربما الأكثر إلهاماً وإثارة هي المرويات الكثيرة عن التسلسل الهرمي للسلطة. وهذه الأخيرة تتضمن كتاباً كبيراً لمرويات حول الخلفاء. والذي يدلّ ضمناً على أن لديه كتابا آخر أصغر (والكتاب المختصر عن الخوارج، والخوارج مجموعة فرقية). وهذا الكتاب يوحي بأنه كتاب مفصّل. فإن كنا نميل إلى تصديق ذلك وقبوله والدليل على ذلك بما يوحي أن الكتابة التاريخية لم تظهر فقط في أوائل القرن التاسع الميلادي/ القرن الثالث الهجري إنما بدأت تنضج وتزدهر[1].

إن سعة إنتاج المدائني إن هو إلا تمثيل لتوجهات واسعة، وهي أيضاً تمثل منزلة ووضع علمنا علم التاريخ. فإعادة المباني السابقة يفترض ضرورة إجراء مسوحات عن التعليم والمعرفة بالدقة المتميزة نسبياً وكذلك لمسوحات التعليم والمعرفة في الحقب المتأخرة، بطريقة تشابه المتوافر في فهرست ابن النديم الذي الذي يمثل القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري. فإن فهمنا وإدراكنا لعمل المدائني فيما يخص الفتوحات يسوّى ويحقّق عن طريق المصادر المتأخرة التي قد صادف كونها ظلت موجودة ومحافظة على الاقتباسات من مؤلفاته. ولحسن الحظ فلدينا دليل على النوعية والجودة العالية – النسخ المتأخرة للمؤلفات التي تنسب إلى شخصيات بارزة وعلماء في أواخر القرن

---

[1] وحول ابن مخنف، اعتمدت على الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٢٢ ص ٤١ وما يعقبها من صفحات، كذلك ينظر U.Sezgin في دراستها عن أبي مخنف باللغة الألمانية وعنوانه:
Ein Beitrag zur Historiographie des umaiy adischen Zeit
المطبوع في ليدن ١٩٧١ وخاصة ص ٩٩ وما بعدها ؛ وحول عمل المدائني عند الطبري ينظر G.Rotter في بحثه باللغة الألمانية وعنوانه:
Zur uberlieferung einiger historischer werke Mada'inis in Tabaris Annalen
المنشور في مجلة Oriens مجلد ٢٣-٢٤ ١٩٧٤ ص١٠٣-١٣٣.

الثامن وأوائل التاسع الميلاديين/ الثاني والثالث الهجريين – وهذه المؤلفات والأدلة يبدو أنها صورة للاتجاهات والتوجهات التي سبق بالفعل أن استنتجناها من المقتبسات فقط. (من أجل هدفي في الوقت الراهن، فإنني افترض أن هذه المؤلفات هي أعمال موثوقة وصدقية). ولهذا، واعتماداً على أعمال جيلين قبل المدائني، هناك أجزاء قد تم اكتشافها حديثاً هي من مؤلفات وأعمال سيف بن عمر المتعلقة أيضاً بالفتوحات. كذلك وردتنا مؤلفات من جيل واحد فقط يسبق جيل سيف، بمعنى ابن إسحاق وسيرته (أياً كان شكلها وصيغتها المضبوطة والدقيقة). ويرافق هذين العملين مؤلف من ثلاثة أجزاء وجميعها تقريباً قد كرّست للعشر سنوات الأخيرة من حياة محمد، فالمغازي للواقدي (ت ٢٠٨هـ / ٨٢٣) وهو كذلك من معاصري المدائني، كتاب ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥) وهو كتاب الطبقات عن الشخصيات البارزة من الرجال والنساء وفي ثمانية أجزاء[1].

يعدّ المدائني مثالاً واحداً يوضح فقط فكرة تنامي التفجّر في عملية التدوين التاريخي. فقد أحدثت هذه التوجهات بدورها توجهات ونزعات خاصة بها. ومن بين هذه فإن المهم جداً تنامي التخصص في تبادل مثل تلك الأخبار، وهذا اتجاه يبرز في ظهور الأنواع الأدبية الواضحة وضوحاً تاماً وبضمنها ذلك النوع وهو التاريخ. وأحد الأمثلة الواضحة تماماً تلك التي

---

[1] حول كتاب سيف بن عمر ينظر كتاب (كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل ومصير عائشة وعلي: نسخة أو طبعة طبق الأصل لقطع محفوظة في مكتبة الجامعة الجامعية الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض) المطبوع في ليدن ١٩٩٥؛ وحول سيرة محمد بن إسحاق – ومغازيه في نسخة من كتاب ابن هشام: السيرة النبوية (تحقيق السقا وآخرون) القاهرة (طبقات كثيرة) التي ترجمت من قبل غليوم A.Guillaume في كتابه باللغة الإنجليزية (حياة محمد) المطبوع في لندن ١٩٥٥ وأعيد طبعه في كراتشي ١٩٧٨؛ الواقدي: كتاب المغازي (المطبوع في لندن ١٩٦٦ وأعيد طبعه في بيروت؛ ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى، المطبوع في ليدن ١٩٠١-١٩٤٠؛ وفي بيروت ١٩٥٧-١٩٦٨، وقد ذكرت الطبعة الأولى خلال الكتاب.

تعرف برواية السيرة النبوية، وهي الآن تسمى اصطلاحاً السيرة، تلك الكلمة العربية التي تعني بحدّ ذاتها "سيرة العمل" مع أننا نرى ضبابية في الحديث عن جذور وأصول السيرة النبوية، إلا أن هناك دليلاً وشاهداً جيداً يوحي إلى النوع الأدبي الذي تميز بمصطلح المغازي (والتعبير يعني حملات) وبمعنى أكثر دقة تلك الحملات التي تولاها محمد ضد المكيين بعد هجرته إلى المدينة، فلماذا أصبح الاستخدام العام والشامل المغازي قد تفوق عليه وبزّ تعبير السيرة في أوائل القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري مع أنه الأصل؟.
والجواب، إلى حدّ ما يكمن في تنامي وتزايد حجم التعلم والمعرفة تلك التي توافرت خلال أواخر القرن الثامن وفي القرن التاسع الميلاديين، وجميع هذه في الواقع تتطلب تصنيفاً ما، وتماماً كالذي حدث في حقبة تفجّر التعليم والمعرفة بتعليم الحديث (فنجد محدّثاً قد نسب إليه خمسون حديثاً في حوالي سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م) ونسب إليه في قرن لاحق ٩٠٠ حديث)، فأنتج ذلك التفجّر سلسلة من المصنفات الحديثية، في الوقت نفسه تفجّرت عملية التعلم والمعرفة في الأخبار (فهناك الإشكالية في تاريخ ولادة محمد، يبدو أنها ظهرت أيضاً في هذه الحقبة) التي انتجت – أي الأخبار- أيضاً أعمالاً متميزة وموثوقة عن السيرة والمغازي. وما تبقى من السؤال في آنفا يكمن في تلك التقليدية في انتقال هذه التقاليد وهي متمثلة بما أنتجه ابن مسعود في التسعمائة حديث.
فابن اسحق عاش في عصر حينما كانت المعرفة بالماضي الإسلامي لم تزل بسيطة ومعتدلة نسبياً وهي تكشف أيضاً عن وحدة موضوعية متراصّة، وسيرته واحدة إذ نجد أهمية محمد لم تعدّ تركز على الجانب الثقافي وبصفته قادراً على توفير سوابق ونماذج ثقافية عامة وبشكل عام. فالواقدي (ت ٢٠٨هـ / ٨٢٣) الذي يعدّ الأول في تحديد كتابه والاقتصار على المغازي بمعناها التقليدي القديم المعروف بالحملات أو الغارات. فقد عاش الواقدي

في عصر حينما تنامت فيه المعرفة والتعليم وأخذا ينموان نموا مطردا أو بسرعة فائقة، ويعد الواقدي في كتابه مثلاً في إبراز محمد صاحب الشريعة قد بدأ يبزّ ويتفوق على محمد الكارزمي البطل في الجهاد. فما الطريقة الأفضل للتعبير عن هذا التحول في صناعة السيرة (سيرة وأسلوب الحياة) وهو التعبير الشامل والعام للسيرة؟. فعلم المصطلح الفني كأي نوع من الأنواع الأدبية إنما يظهر تاريخاً اجتماعياً وسياسياً"[1].

إن إلقاء ضوء مركّز على السيرة وعلى حساب المغازي على هذه الشاكلة قد يكون له صدى في تنامي الأهتمام بالإيفاء لدور محمد المثالي والأنموذجي من قبل المشرعين المسلمين، وهو يظهر أيضاً تنامي التنوع في المعرفة والتعليم. وهذا الأمر هو الذي يفسر السبب عن السؤال لماذا وصفت شخصيات بارزة أو علماء من أمثال الواقدي بكونهم خبراء في حقول بارزة في المعرفة اعتماداً على الثقة التي صوّرها القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري. فالواقدي كان عالماً في المغازي والسيرة والفتوحات وكذلك في

---

[1] وجهات نظري هنا حول المغازي والسيرة قد استندت الى بحث (هندز M.Hinds) الموسوم بـ (المغازي والسيرة في البحث العلمي الإسلامي الأول) المنشور في الكتاب الذي حققه . تي فهد T.Fahd باللغة الفرنسية الموسوم بـ (حياة النبي محمد) المطبوع في باريس ١٩٨٣ ص ٥٧-٦٦ (وأعيد طبعه في الكتاب الذي حققه Bacharach وآخرون الموسوم بـ (دراسات في التاريخ الإسلامي)) ص ١٨٨-١٨٩؛ غير أن المناقشة بإن مصطلح السيرة قد استعمل منذ البداية؛ هكذا عند Sellheim في كتابه بالألمانية (النبي، الخليفة والتاريخ) ص ٤٣، وكذلك عند جرّار Jarrar في كتابه بالألمانية (سيرة النبي) لاسيما في ص ١٤ وما بعدها من الصفحات؛ وحول تقويم لذلك ينظر M.Schotter في دراسته باللغة الألمانية المعنونة:
Exegetisches Denken und propheterbiographie- Eine quellenkritische Analyse der sira- Hberlie Ferung zu Muhammads Konfliki mit den Juden.
المطبوع في فيسبادن ١٩٩٨، ص ٣٧ وما بعدها من الصفحات، عدد ابن مسعود قد جاء عند G.H.A.Juynboll في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(الرواية الإسلامية: دراسات في الكرونولوجي) مصدر وتأليف الحديث المبكر المطبوع في كمبردج ١٩٨٣ ص ٢٩، وحول تبدل أهمية محمد خلال القرنين الأولين الإسلاميين، ينظر M.Hinds و P.Crone في دراستهما بالإنجليزية (خليفة الله: السلطة الدينية في القرون الأولى للإسلام) المطبوع في كمبردج ١٩٨٧.

شؤون الناس الذي اختلفوا أو اتفقوا حول مسائل تتعلق بالشرع. والتوجه والتخصص نفسه بالامكان تتبعه في فروع أخرىٰ في رواية التدوين التاريخي. وواقعاً فإن هذا الوصف عن الواقدي كونه عالماً في المغازي قد أورده ابن سعد في كتابه الطبقات الكبير، ويعدّ هذا الكتاب من النماذج الأولىٰ والمبكرة لعدد كبير من كتب الطبقات، أي تلك الكتب المعنية بتصنيف المعلومات عن سير الحياة وقد رتبت ونظمت ترتيباً حسب نظام تاريخي حولي كرونولوجي، وبناءاً علىٰ معيار أو مقياس مرن مطاطي تقريباً لما يشكل أو يتألف لجيل من الناس (والمعروف أن كلمة طبقة تظهر في القرآن بمعنىٰ طور أو طبقة). فالكتاب الذي كان في مجموعه يشتمل علىٰ ٤.٢٥٠ شخصاً (بضمنهم حوالي ستمائة (٦٠٠) امرأة) لعله كان الأول من نوعه في كتب الطبقات المتوافرة لكنه من المؤكد لم يكن الأول في تصنيفه وتأليفه. فقبل قرن من الزمان، يبدو أن واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ/ ٧٤٨م) قد حقّق أو أنجز كتاباً، كالذي قام به عدد من العلماء الثقاة الآخرين في أوائل القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، بضمنهم الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ/ ، ٨٢٢م) وكان أيضاً مؤرخاً جديرا بالاهتمام وأول من ألف كتاباً حولياً في التاريخ. وهكذا إذن يقف ابن سعد قريبا من نهاية نهضة أو ظهور رواية الطبقات، إذ يرىٰ المرء آثار هذا التنوع في المعرفة والتعليم، وكذلك ظهور التقليدية. إن كتاب واصل بن عطاء وعنوانه متواضع هو (طبقات العلماء والجهّال) يبدو أنه يظهر العالم نفسه أي عالم المعرفة والتعلم ،ويكشف عن وحدة كلية وتناغم وهو العالم نفسه الذي عاش فيه إبن اسحاق. إنه عالم ما زال بسيطاً أو ساذجا naiveلأي سمة أكاديمية ولأي تخصص أكاديمي (ولقد تم اقتراح هاتين السمتين البسيطتين علىٰ أنهما مؤشر علىٰ منافسة مجموعات الفقهاء مع أنه إيحاء يبدو بعيد الاحتمال). وخلال قرن من الزمان علىٰ أية حال، فإن أصنافاً من

الطبقات قد تضاعفت وتشظت، فلدينا الآن كتباً بقوائم أسماء الشعراء فحسب ولطبقات المغنين(وأخرىٰ كثيرة من هذه المجموعات)،تلك التي تميز بين الفقهاء والمحدّثين، وبين تلك التي تحددت باصناف من الرواة، إذن إن أعمال أو كتب كهذه تظهر مدىٰ التنامي بصورة عامة ومدىٰ التكلف والتعقيد في الصناعة الأدبية وفي الثقافة الأدبية العربية وبظهور رواية التدوين التاريخي المتنوعة بصورة خاصة[1].

الدور الثالث من حوالي ٢١٥هـ/ ٨٣٠م إلى حوالي ٣١٢هـ/ ٩٢٥م

إذن، وكما اقترحت في آنفا، إن التدوين التاريخي الإسلامي أو علم التاريخ الإسلامي قد ظهر خلال ذلك الدور الثاني حوالي ٧٣٠م إلىٰ ٨٣٠م، ولماذا ألحّ بإصرار علىٰ الدور الثالث هذا؟ دعونا نبدأ بسؤال آخر.

فلنفترض للحظة بأن علماء قرننا الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع الميلادي/ الثاني والثالث الهجريين، كانوا مؤلفين بالمعنىٰ العام للمصطلح – أي أنهم ألفوا أعمالاً أو مؤلفات قد نسخت بصدق وإخلاص وقد نقلت ككتب منسوبة حصراً الىٰ أفراد وككتب قد تمّ الانتهاء منها – فالذي نريد معرفته هو كم من التعلم والمعرفة قد تم إنجازها في هذه المدة، كذلك أن نعرف بالدقة ما نوعية الصيغة أو شكل ذلك الإنتاج؟. ومرّة ثانية، فإن مشكلتنا هي في الواقع افتقارنا إلىٰ البيّنة والدليل المباشر:مع أننا نعلم بأن

---

[1] وعن (التعليم والمعرفة والجهل) في النص المنشور لواصل ينظر H.Daiber في دراسته بالألمانية (واصل بن عطاء Wasil ibn ata als prediger und Theologe) المطبوع في ليدن ١٩٨٨ ص ٤١؛ ينظر أيضاً ياقوت، إرشاد جزء ٤ ص ١٦٥ وما بعدها من الصفحات (وعن خالد بن يزيد) الذي إراديا وطوعيا قال: (لي اهتمام في الكتب، ولكنني لم أحسب بين المتعلمين أو الجهال)؛ وقيل لنا أيضاً أنه كان توّاقاً بشكل كبير لنقل أو لرواية الأحاديث وإنه إذا اخفق أن يجد أي شخص مناسب، فإنه يروي عن الفتيات الإماء ؛ وعن الطبقات وجميع الموضوعات التي شملتها ينظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

المسلمين قد شرعوا في كتابة التاريخ، فهناك فقط قدر قليل من المؤلفات في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ظل حيّا أو موجوداً، وليس من هذه المؤلفات قد ظل باقياً في هيأة مخطوطات مبكرة (إن أكثر هذه المخطوطات يرجع تاريخها بشكل موثوق إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين وهي نسخ قرآنية أو نسخ من القرآن). وهناك قليل من الشك بأن عدداً من المخطوطات الأولى قد بقيت حيّة في الحقب اللاحقة. فمثالاً على ذلك مجموعة الكتب التي جمعها العالم الشيعي ابن طاووس (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) التي تضمنت مخطوطة يرجع تاريخها إلى سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٤ (وهي نسخة قديمة جداً بحسب كلمات ابن طاووس نفسه) ومخطوطة أخرى يرجع تاريخها إلى سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٣م ومخطوطة ثالثة يرجع تاريخها إلى سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٥م. وحقيقة أن ابن طاووس كان مولعاً ومحباً بجمع الكتب، وأنه ربما تكون عملية جمع الكتب هي همّه الأول مصوّباً نحو المخطوطات المهمة والاستثنائية والنادرة (الذي يستحق ملاحظته أن ابن طاووس يحكم على نسخة ترجع إلى أواسط القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري بأنها قديمة جداً. مع ذلك فهناك مصادر أخرى كثيرة لكل من الحقب الأولى والمتأخرة قد استخدمت كثيراً في الأعمال والكتب التاريخية المبكرة، وفي الأغلب الأعم كانت تذكر بالاسم. في الواقع، هناك أسباب عدة في الإعتقاد بأن الكثير من هذه الكتب قد كانت موجودة في نسخ مبكرة). فابن النديم نفسه يذكر أنه قد قرأ "في كتاب يظهر لي أنه كان بخط قديم، والذي يبدو أنه جاء من مكتبة المأمون (حكم بين سنة ١٩٨هـ إلى ٢١٨هـ / ٨٣٣". وبملاحظة تتعلق بترجمة حياة مسلم من القرن الثاني للهجرة يعتمد المقريزي (ت ٨٤٦هـ / ١٤٤٢) على سلسلة نسب كتبها ابن الكلبي (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) ويصرّ فيها على أنه يمتلك نسخة من حياة المؤلف نفسه. وقد استخدم في خططه سلسلة من

المصادر الكثيرة يرجع فيها إلى المراحل الأولى للرواية. وأن كلاً من ابن العديم (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) والسخاوي (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧) يعلنان أو يعلمان عن معرفتهما وتعلّمهما في المكتبات وذلك بذكر أعمال ومؤلفات في تراجم حياة الأشخاص وهي موجودة بنسخ - بمعنى نسخ قد كتبها مؤلفوها. فكيف لنا أن نشرح أو نفسر أن الكثير من هذه النسخ ونسخ أخرى قد انقرضت أو لم تبق على قيد الحياة إلى القرنين التاسع عشر والقرن العشرين[1]؟.

لقد اختفت المخطوطات نتيجة مجموعة من الأسباب، السبب الأول منها هو الوسيلة المختارة للمخطوطات العربية - أي الورق- وهو وسيلة لا تتحمل كثيراً وليست لها قابلية التحمل، ولاسيما في الجو الحار والرطب الذي يتصّف به مناخ (الشرق الأوسط في الغالب). وسوف نلاحظ أو نشاهد أن اختيار الورق قد يكون ناجحاً؛ لأنه يفضي إلى فهم السبب الذي جعل عدد الوثائق التي بقيت موجودة قليل جداً. وها هنا مما يستحق ذكره (وواقعا نتفجع عليه) بأن وجه التباين والإختلاف بين هذا الوضع وهذا الموقف الكئيب والقابض للصدر وبين البقاء النشيط نسبياً للمخطوطات في أوروبا، إذ كانت جلود الحيوانات والرق هي وسيلة الخيار أو الإمكان هذه. فقد اختفت المخطوطات أو فقدت لأسباب أخرى أيضاً لأنها قد وضعت في غير

---

[1] وحول ابن طاووس ونسخه القديمة ينظر كوهلبرغ Kohlberg في كتابه بالإنجليزية (عالم مسلم من العصر الوسيط) ص ٨٤ وما بعدها من الصفحات؛ وحول ابن النديم: الفهرست ص ٢٤ (الفهرست ص ٤١ Dodge) (إذ الترجمة غير صحيحة)، وحول السيرة الذاتية لابن الكلبي، المقريزي كتاب المقفى الكبير (بيروت ١٩٩١) جزء ٢ ص٤١٨؛ وحول مصادر خططه ينظر A.Guest في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ (قائمة باسماء الكتاب والكتب والمرجعيات الأخرى المذكورة من قبل المقريزي في الخطط) المنشور في مجلة JRAS (١٩٠٢) ص ١٠٣-١٢٥؛ وحول التطبيق المرتبك في ذكر الأعمال الأساس أو الأولية عبر المصادر الثانوية غير المعترف بها ينظر Landan- Tasseron في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (حول إعادة مباني المصادر المفقودة).

موضعها المناسب، أو أنها قد سرقت أو أنها دمرت بقصد أو بغير قصد. فالقرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين قد تأكد بأن – المخطوطات قد أخذت على حين غرة وبقسوة ووحشية بفعل الاضطرابات السياسية بصورة عامة وبفعل كارثة وفاجعة تدمير المغول بغداد بصورة خاصة. فقد وقعت المشاكل في الحقيقة في وقت مبكر، ولم تكن هذه المشاكل محدودة على العراق وإيران – فالحال المثيرة، ولكنها ليست بأية حال من الأحوال غير أنموذجية، قد جاءت من القاهرة في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري عندما نهبت مكتبات المدينة بشكل منظم من قبل الجنود والإداريين الذين لم يدفع لهم الفاطميون أرزاقهم، وكان الفاطميون هم حكّام مصر منذ سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م . فنقرأ مثلاً أن (١٨) ألف مجلد من العلوم و ٢٤٠٠ نسخة مخطوطة من القرآن مزخرفة بالذهب قد نهبت من بلاط الخليفة الفاطمي سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٨، وفي شهر محرم خرج (٢٥) خمس وعشرون جملاً محملاً بالكتب في يوم واحد من البلاط إلى بيت الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر الذي كان له في ذمة الدولة خمسين ألف دينار لم تدفع له. (وفي هذه الحقبة المماثلة فإن نسخة من تاريخ الطبري كانت تباع وتطلب بمائة دينار وهو مبلغ ضخم من النقود. ولنأخذ مثالاً واحداً من بين الكثير من الأمثلة الأخرى فالمسجد الجامع في دمشق كان يضم مكتبات عدّة ، وقد اشتعلت فيها النيران إبّان إنتفاضة)[1].

(١)وعن تدمير مكتبات الفاطميين ينظر H.Halm كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الفاطميون وتقاليدهم في التعليم والمعرفة) المطبوع في لندن ١٩٩٧، ص ٧٧؛ وحول خلفية هذا الصنف ينظر Y.Levفي دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(دولة ومجتمع في مصر الفاطمية) المطبوع في ليدن ١٩٩١ ص ٤٣ وما بعدها من الصفحات، وحول ثمن تاريخ الطبري ينظر المقريزي : كتاب الخطط (بولاق ١٢٧٠هـ) جزء ١ ص ٤٠٨؛ وحول وصف مترجم الجامع الكبير في دمشق والرواية بشأن حريقه ينظر (سوفاجيه H.Souvaue في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم بـ (وصف

لذلك فالمخطوطات العربية كانت قابلة للتلف وغير حصينة، فضلاً عن كونها سريعة الزوال وضعيفة في بنيتها. ولعل مثل هذا قد كان ـ بشكل خاص ـ موجوداً في القرن الأول من الإسلام، حينما كانت المؤسسات لم تؤسس بعد. فالمؤلفات الموثوقة تلك التي ترجع تواريخ تأليفها إلى أواخر القرن التاسع والعاشر الميلادي/ الثالث والرابع الهجريين قد حفظت في مخطوطات ترجع تواريخها عموماً إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين – في أوائلها ولم يبقَ منها إلا القليل حتى وإن كان عملاً منتجاً بشكل متميز وحتى في رواية التدوين التاريخي المتأخر نسبياً نظير تلك التي ازدهرت في بغداد العباسية في الحقبة المتأخرة، التي بلغت أوجها عند ابن الساعي (ت ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦) وابن الفوطي (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٣). ومن الطبيعي، وبحسب الحقيقة التي تفيد بأن المؤلفات من القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين قد بقيت – وهذه الحال، وعلى الرغم من أن الكثير منها هو مطول جداً، الأمر الذي يدعو إلى إضاعة الوقت فضلاً عن غلاء النسخ-- وهذا يوحي بأن مسائل تخصّ الذوق والميل والشكل كانت ذات تأثير أيضاً. فانتقال تقاليد المخطوطة يمكن أن تصل إلى نهاية، وهذا يحدث ليس بسبب نسخ الورق أو احتراقه بالنار أو أن تأكله الديدان فقط بل أيضاً بسبب إن العمل به في التدوين أصبح غير سليم وغير صحيح وتافه أو صار مهملاً وغير ملائم وقديم في البحث العلمي اللاحق، وبالنتيجة فإنها تفقد وتخسر أسواقها. كان نسآخ الكتب في حقبة قبل الزمن الحديث لا يقدمون على نسخ الكتب غير المطلوبة أو غير المرغوب بها من قبل القراء، بخلاف ما يقوم به الناشرون اليوم من طبعها

دمشق) والمنشور في مجلة JA مجلد ٧ لسنة ١٨٥ وما بعدها من الصفحات (بداية الحريق على صفحة ٢٠٨).

وهذا هو السبب نفسه الذي يعلل ضياع أو اختفاء الكثير من المؤلفات. وهذا يبدو بشكل أكثر دقة ما حدث في أواخر القرن التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين حينما أصبحت حقول ومجالات المعرفة والتعلم قد رتبت ونظمت منهجيا، وحينما ظهرت مجاميع من المصنفات كمصنفات مرجعية موثوقة.

لقد رأينا بالفعل أن البخاري الكبير (ت ٢٥٧هـ / ٧٨٠م) قد جمع مجموعته التي انتقاها من الأحاديث النبوية في هذه الحقبة، جنباً إلى جنب مع هذا المشروع بوسع المرء أن يضع مجموعة الأخبار المنتقاة من قبل المؤرخين. وكما هو الحال في كتاب البخاري ومعاصريه في أواخر القرن التاسع والقرن العاشر الميلاديين، فإنهم جعلوا مجموعة من مصنفات الحديث المبكرة وصرفوها إلى الإهمال وعدم الشهرة، كذلك فعلت مجموعة المصنفات التاريخية الكبيرة لهذه الحقبة، تلك التي حجّمت المجهودات والمساعي المبكرة سواءاً كان ذلك في حجمها وأبهتها. ففي مطلع هذه الحقبة لدينا ابن هشام، إذ كانت روايته لسيرة ابن اسحاق تامة ونهائية، وبالاتجاه نحو أواسط هذه الحقبة لدينا طبقات ابن سعد، وفي نهاية الحقبة لدينا أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م). فالطبري الذي أصبح كتابه المؤلف من ستة عشر جزءاً (١٦ جزءاً) هو تاريخ الرسل والملوك المثال البارز لرواية الحوليات. وبنطاق أوسع وأعمال ومؤلفات تركيبية أكبر مثل تلك المؤلفات، فما هو السبب الذي نتضايق منه أو ننزعج من قراءة (وهكذا الحال في نسخها) القطع الأقدم أو الأطول أو الأصغر منها وهي قد استندت اليها، ولاسيما إن كان مؤلف مبكر جداً قد اعتنق أفكارا قد أصبحت مشكوك بصحتها؟ وعلى وجه الدقة والضبط فإن هكذا تبدو الحال مع سيف بن عمر، الذي كان يعتنق بما صار رأياً لفرقة غير شعبية عند بداية الخلافة، والذي كان عمله-- فضلاً عن ما

وجده أو يرآه أحد المحدثين في الوقت الحاضر-- ظل باقياً حصرياً تقريباً في اقتباسات عند الطبري ومصادر أخرى متأخرة نسبياً[1].

ففي هذا الدور ـ إذن ـ قد تركنا خلفنا عصراً في حقل أو موضوع مختصر ومفرد، ودخلنا في عصر التأليف على نطاق واسع وكثير المؤلفات . فنسبة التقدم التي أضحت فيها الدراسات المحدودة والمفردة قد برّت بمجاميع من المصنفات التي تختلف من موضوع إلى آخر، لكن مع هذا فالأسلوب والشكل كان متيناً وثابتاً بما فيه الكفاية ويبدو أنه في القرن ما بين سنة ٧٥٠م/ ١٣٢هـ و ٨٥٠م/ ٢٣٥هـ هناك ما لا يقل عن أربعة عشر كتابا مستقلا قد ألف عن معركة صفين؛ أما في القرن بين ٨٧٠م / ٢٥٧هـ إلى ٩٥٠م/ ٢٤٠هـ فإن العدد قد انخفض إلى حوالي سبعة كتب. ومؤلفات الدراسات المحدودة عن المقاتل، تلك التي تسرد وتذكر وفيات شخصيات مبّجلة ومحترمة revered فقد ألفت بأعداد كثيرة خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث الهجريين. ولعل أبا مخنف قد ألف ما لا يقل عن ثلاثة عشر عنواناً؛ غير أن هذا العدد قد انخفض بشكل مفاجىء في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري،وقد انتهى هذا النوع من التأليف تماماً بعد الاصفهاني (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) الذي صنف تصنيفه عن مقاتل الطالبيين* ومع هذا فهناك مثال آخر نجده في رواية الفتوحات، فيبدو أن القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري هو العصر الذهبي للدراسات والرسائل القصيرة عن الفتوحات، وهي الكتب التي تسرد فيها روايات عن المدن الفردية أو الأقاليم والمناطق معاً في أعمال ومؤلفات منفصلة ومتميزة.

---

[1] وحول وجهة نظر سيف غير الشعبية ينظر تقويم P.Crone بتحقيق السامرائي لكتاب سيف بن عمر الردة والفتوح، المنشور في مجلة JRAS (سلسلة ٣) مجلد ٦ (١٩٩٦) ص ٢٣٧-٢٤٠.

* [وقد ترجم المؤلف المقاتل بتاريخ الشهداء العلويين Alid martyrologies وترجم الطالبيين بالعلويين، المترجم].

وقد قدر لبعض هذه المؤلفات البقاء نظير أعمال ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م) حول مصر، والأزدي (الذي كان حيّاً في أواخر القرن الثامن أو أوائل القرن التاسع الميلادي/ القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة) بشأن سوريا [بلاد الشام].وعلى أية حال فإن الكثير لم تكن لتتفوق أو تبزّ المؤلفات الطويلة التأليف عن الفتوحات من جهة نظير فتوح البلدان للبلاذري، والتدوين التاريخي الحولي من جهة أخرى نظير كتاب الطبري. وقد قام الطبري باستثمار فتوح خراسان - الذي صنفه المدائني - بجلاء وبشكل كبير، وهذا الأمر يدل على أنه كان يمثل قطعة عمل أدبية أساس وجوهرية، وكان المدائني على الرغم من كل ذلك خبيراً ومعترفاً به من قبل المؤرخين، أما شرعية وموثوقية مروياته فمن الصعب أن يضاهي تلك التي اتصف بها الطبري الموسوعي (الانسلكوبيدي) المتعدد الجوانب الثقافية، ولهذا فإن كتاب الفتوح على وفق ذلك لم يعتمده المؤرخون المتأخرون[1].

---

[1] وعلى الدراسات المحدودة عن الحقبة المبكرة ينظر بيترسن: علي ومعاوية ص ١٧ وما يليها (لقد استعار التعبير نفسه عند H.A.R.Gibb في بحثه باللغة الإنجليزية (تاريخ) في ملحق دائرة المعارف الإسلامية (طبعة أولى) ليدن ١٩٣٨ ص ٢٣٣-٢٤٥، التي أعيد طبعها في كتابه بالإنجليزية الموسوم بـ (دراسات في الحضارة الإسلامية) تحقيق S.J.Shaw و W.R.Polk المطبوع في برنستون ١٩٦٢، ص ١٠٨-١٣٧ [وقد ترجم إلى اللغة العربية المترجم]، وحول الأعمال والمؤلفات عن معركة صفين، فقد اعتمد على بحث (صفين) في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة ثانية) بقلم Lecker ولكنني عددت ابن اعثم بأنه من علماء القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وإلى هذه القائمة ينبغي إضافة محمد بن سليمان (أبو جعفر)؛ [ملاحظة وفي ترجمتي لكتاب البروفسور بيترسن علي ومعاوية وقفت على موضوع الكتابات عن معركتي صفين والجمل. المترجم]؛ ينظر اللهجي al-lahji : سيرة الإمام أحمد بن يحيى الناصر لدين الله، طبع في اكستر Exeter سنة ١٩٩٠، ص ١٨؛ وحول المؤلفات عن مقتل الحسين ينظر GAS الفهرست؛ أيضاً كوهلبرغ Kohlberg في دراسته (عالم مسلم من العصر الوسيط) ص ٤٣ وصفحة ٢٥٤؛ وينظر S.Guntger في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (أدب المقاتل في العصر الوسيط) المنشور في مجلة JAL مجلد ٢٥ (١٩٩٤) ص ١٩٢-٢١٢؛ وللمؤلف نفسه دراسة باللغة الألمانية بعنوان:

Quellenuntersuchugen zu den Maqtil at- Talibiyyin des Abu- L-FARAG AL- Isfahani (gest 356/967)

المطبوع في Hidescheim ١٩٩١.

حتىٰ الآن مضينا دونها ذكر شيء مهم وهو أنه ينبغي علينا عدم المبالغة بالمتغيرات والتبدلات، فرسائل الفتوح قد تسترد مركزها ومكانتها في أزمنة تشتد فيه الصراعات والحروب مع المسيحيين، ونظير ذلك خلال عملية الريكونكويستا Reconquistaأي استرداد أسبانيا وفي الحروب الصليبية في سوريا وفلسطين. وبصورة مماثلة، فإن المعالجات في الرسائل الخاصة بموت حفيد الرسول الحسين بن علي التي يظهر أنها كانت شعبية بشكل هائل وضخم ليس فقط في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، فلدينا رسائل تنسب إلىٰ أبي عبيدة وإلىٰ أبي مخنف ونصر بن مزاحم والواقدي وجابر الجعفي وهؤلاء أمثلة من بين آخرين كثر). وأيضاً في القرن العشرين. وهذا حسب المعتقد أنه كان لأول مرة، فيجب علينا الملاحظة والإنتباه الىٰ كيف تكون الرواية وسيلة للحفاظ علىٰ القديم؟ مع أن هذه لم تكن المرة الأخيرة ومثل هذا قد قيل بأنه يماثل ظاهرة (الخطف gobbling) في دمج مؤلفات وكتب الرسائل القصيرة في المصنفات الكبيرة جداً -- وهي تعد سمة فاعلة لرواية القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين، وأنها ستؤدي او تفضي، أحياناً إلىٰ عرض لتفسير السبب الذي جعل الكثير جداً من رواية الطبقات المبكرة قد ضمرت؟ ولماذا بقينا مع ما احتفظ البلاذري والطبري به من أعمال المدائني في الفتوحات أكثر من اعتمادنا علىٰ مؤلفات المدائني نفسها؟ وكذلك لماذا بقينا مع ما احتفظ به ابن إسحاق + ابن هشام من مؤلف الزهري أكثر من أن نعتمد علىٰ مؤلف الزهري نفسه[1]؟.

كيف حدث مثل هذا الخطف gobbling up؟ فيما مضىٰ كأن مؤلفو القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين قد ظلوا

[1] والمؤلفات عن تواريخ بعض الفتوحات الصليبية ينظر أسفل؛ وهناك دراسة حديثة عن حفيد النبي هو لعبد الرزاق المقرّم: مقتل الحسين (قم ١٩٩٠).

منهمكين ومستغرقين في مشروع الجمع الواضح المعالم تقريباً، إذ ظلّوا ينتقون وينظّمون ويرتّبون ما كان متوافراً من أخبار بحسب تقديرهم الصحيح وبحسب مخططاتها السردية كالذي كان موجوداً. فقد كانوا مراجع ومصادر موثوق بها ، كما كان يعتقد، وذلك لأنهم وبشكل أساس كانوا مؤلفين جمّاعين أو مصنفين طموحين جداً ويعملون من دون كلل وعناء، فكانت مؤلفاتهم مسوحات شاملة وواسعة الإدراك. ووجهة النظر هذه ملائمة ومناسبة وذلك لسببين. أولهما، في وصف وتصوير هؤلاء المؤلفين الموثوقين مجرد جماعين للروايات، وهذا ينسجم مع الترفع أو الازدراء لما يشعر به بعض المستشرقين إزاء التعليم والمعرفة بصورة عامة وإلى علم الرواية الإسلامية بشكل خاص: فرأيهم بأن هناك القليل من الأصالة في كل ما عملوه، طبعاً كما كان يعتقده أنصار هذا الرأي. أما ثانيهما فإنه ينسجم مع منهج من المناهج الأساس المتّبعة من قبل مؤرخي النصوص أو الذين يتعلقون بقراءة النص في القرنين التاسع عشر ومعظم القرن العشرين (في مسح المصادر أو في بحث المصادر)وهو بحث باللغة الألمانية Quellenforschung وهويعزّز البحث العلمي الأوربي المبني على الهوامش والحواشي عن التوراة العبرية والعهد الجديد. وبذلك فقد منح للإسلامويين أداة يستطيعون بواسطتها الحفر في النصوص من أجل المطابقة وتحقيق الهوية وهم يقومون بعزل أو حفر الكتب الأولى تلك المودعة في الكتب المتأخرة. ومع ذلك وعلى الرغم من أن أنواعاً من البحث عن المصادر، كما عبّر عنصر المصطلح الألماني ،Quellenforschung قد واصلت واستمرت في إنتاج نتائج مهمة، فإنها أيضاً قد أصبحت عرضة للنقد. وإن بعض هذه الانتقادات عادلة ومشروعة: فهناك القليل الذي نجنيه ونحصل عليه من رؤية أو قراءة فصول من كتاب أنساب الأشراف الضخم (وهو عمل نسبياً مملوء بالمادة والمعلومات التاريخية) "وفي جزئه الأكبر ما هو

إلا رسائل قصيرة وكتب لأبي مخنف والمدائني. وبحسب كلمات هودجسون M.G.S.Hodgson وهو واحد من حفنة قليلة من المؤرخين الإسلاميين المهاجمين للمؤسسات التقليدية Conoctastic في القرن العشرين، فبعض العلماء ربما مذنبين لما قد أطلق عليه تعبير reductivism أي الذين يحجمون ويصغّرون من حجم المسألة – وفي العادة فإن طبيعة هؤلاء المؤرخين الذين شغلوا أنفسهم في الواقع بقطعة أدبية كبيرة من العمل ولكنهم يعاملونها معاملة خاصة مجرد كونها مجموعة من المكونات وهي ليست كبيرة كما يزعم[1].

وبالتأكيد فإن أي إمرئ قد كتب تاريخاً هو الذي بوسعه أن يندهش ويتعجب بشأن تنوع وعدد مصادر الطبري وبأي مقياس من المقاييس المقبولة والمعقولة، فإنه كان عالماً وداهية بشكل استثنائي. والمسألة ليست مسألة إعجاب بحجم عمله وسعة مداه على أية حال. وبما أن الكتاب مثير فهو فوق كل ذلك مترابط بشكل إجمالي ومنطقي ومتماسك. أنه سرد ضخم وطموح ذلك الذي يبدأ من الخليقة وينتهي به إلى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٥م، والذي يتمحور حول ولادة الإسلام على سيرة النبي ومجرى حياته، وعلى الفتوحات والخلفاء الأول وأوج إرادة الله للتاريخ الإنساني. وبالضبط فإنه بهذا الترابط والتماسك المنطقي ذلك الذي يفسح المجال أمام الشك بأن الطبري في كتابه إن هو إلا عمل وتأليف أكثر من كونه مجرد جمع أو جمّاع للروايات ومنظمها

---

[1] مثال واحد عن أدب الحفر هو W.Hoenerbach في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ(كتاب الردة في كتاب الإصابة لابن حجر) المطبوع في فيسباون ١٩٥٧؛ وعن فصول البلاذري ينظر S.D.Goitein في مقدمته على أنساب الأشراف ج٥ (أورشليم / القدس/ ١٩٣٦) ص ١٦؛ وعن التحجيم والتصغير Reductivism ينظر M.G.S.Hodgson في بحثه باللغة الإنجليزية (مؤرخان مسلمان قبل الزمن الحديث: مآزق مستورة وفرص في تقديمها إلى المحدثين) المنشور في كتاب J.Neff (المحقق) الموسوم بـ (إزاء عالم اجتماعي) المطبوع في The Hague ١٩٦٨، ص ٦٤ وما بعدها.

ومرتبها فحسب•. وفي الواقع أصبح واضحاً وحتىٰ الآن بأن معاصريه قد ألّفوا وعملوا أكثر بكثير من ذلك. فالجمّاعون أو المصنفون في أواخر القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين قد بصموا في أن خلّفوا أثراً قوياً حسب رؤيتهم اعتمادا علىٰ معلومات ومادة ليست مجرد انتقاء وتنظيم وترتيب لما كان متوافرا من أخبار، لكن بتفريقها وتوزيعها أو بقطع استمراريتها عن طريق إعادة أسلوبها ثم تكملتها والإضافة إليها، وإعادة تأليفها ثانية وبشكل جديد. وكان (هودجسون) صحيحاً حقاً قبل ثلاثين سنة [أو أكثر] حينما عبّر قائلاً (كان الطبري مؤلفاً)؟

وهكذا فإن جمع المادة وبناء حجمها أو قدر أكبر من المرويات التاريخية خلال القرنين التاسع والعاشر/ الثالث والرابع الهجريين ليست عملية سهلة ولم تكن هذه العملية إطلاقاً كونها خطوات "طبيعية أو فطرية" لظهور الرواية، لابد منها أو يتعذر اجتنابها. وعلىٰ الرغم من كون الطبري جامعاً فإنه كان لا يكلّ ولا يتعب، وأنه كان اكثر من ذلك بكثير جداً. وهناك بشكل خاص مزية مثيرة في هذا الدور تتعلق بمسألة الرواية، التي كما يبدو كان المصنفون منشغلين بها أو التي كانت ذات أثر وهي كل من سيرة الحياة وكذلك الروايات الحولية الكرونولوجية أي التاريخ بحسب السنين، وهي تجزئة الروايات الطويلة نسبياً إلىٰ أخبار قصيرة تتقدمها الأسانيد، وبالإمكان ملاحظة ذلك عند سيف بن عمر (ت ١٨٠هـ / ٧٩٦م) الذي كان كتابه متوافرا قبل ذلك عند علماء الحقبة الحديثة فقط كما هو مروي ومنقول من قبل مؤرخي القرنين التاسع والعاشر وحتىٰ قرن متأخر، غير أن بعض هذه المرويات قد حققت في الوقت الحاضر مستندة إلىٰ مخطوطة فريدة وهنا

• (طبعا هنا المستشرق يضاد ما قاله الطبري في مقدمته ، ماهو إلّا جمّاع للروايات ؛ وإنه لا يتدخل في رواياتها بل يعدّها علىٰ عهدةرواتها. المترجم)

فالرواية هي رواية متواصلة بشكل أكبر مما يجده المرء مقتبسة في المصنفات المتأخرة.* فالأعمال، أي المؤلفات التي تقاوم هذه الحركة وإزاء رواية قصيرة أو مختصرة نسبياً مع إنها مزودة بالإسناد نجدها أحياناً قد تذوي وتفتر كالمثال الآتي: فالدينوري (ت ٢٧٨هـ/ ٨٩١م) في كتابه الأخبار الطوال الذي كان يتجنب الإسناد في تزويد الأخبار بإسناد الرواية لصالح مؤرخ واحد. وهناك المزيد الذي بوسعنا قوله بخصوص الأسانيد والروايات فيما بعد؛ ويكفينا ها هنا إلى إبداء ملاحظة عن التغييرات التي يبدو أنها كانت فعالة في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ألا وهي تجزئة الرواية المطولة كثيراً والاستعمال الشائع والمألوف للأسانيد – ربما تؤدي بالمرء إلى الاستنتاج بأن هناك نقلة في الرواية التاريخية من ذلك الأسلوب إلى أسلوب بلاغي يتسم بالمغالاة. والواقع فإن هناك خيارات بالنسبة لهذا التدوين التاريخي التقليدي، فالمسعودي (ت ٣٤٦/ ٩٥٦) كان مطبوعاً على كرهه بشدة للمحدّثين

* (من الجدير بالذكر هنا إن المستشرق يعتقد بعدم وجود كتاب الردة والسقيفة في الحقبة التي كتب فيها الطبري كتابه وانتهى منه في سنة٣٠٢هجرية. فالطبري نفسه قد اعتمد على ما حدّثه به عمّ عبيد الله بن سعد الزهري المديني الذي كان يمتلك نسخة من الكتاب قد أعطاه اليه عمّه يعقوب بن إبراهيم الزهري.فأبن حبيش الأندلسي المتوفيسنة٥٨٤هجرية/ ١١٨٨م كان يمتلك نسخة من كتاب الردّة ، وأنه قرأه وأخذ منه واستنسخ الكثير من معلوماته عن الغزوات من كتاب الردّة. فقد كرّر تعبيرات تدل دلالة قاطعة على إنه كان ينقل أو يستنسخ من كتاب الردّة لسيف مثل" قال سيف"و" عن سيف وأشياخه" و " في كتاب سيف" (ينظر كتابه الموسوم بـ (كتاب الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة) ، تحقيق د. سهيل زكار ،دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هجري/ ١٩٩٢م. جزء ٢ ص١٣،٧،،٦،٥. والواقع إن الطبري لم يكن لديه نسخة من الكتاب لهذا فإن قول البروفسور روبنسون بحاجة الى إعادة نظر. إن هذا لا يعني فقدان كتاب سيف. وفضلا عن هذا وذاك فقد اعتمده المؤرخون المتأخرون ؛ فالذهبي في كتابه تاريخ الإسلام وقف من سيف بن عمر موقفا غير إيجابي ؛ وعلى الرغم من عدم اعتماده على كتاب سيف الردّة لكنه أشار الى الكتاب في مقدمة تاريخه مبينا إنه كان أحد مصادره المعتمدةوإنه قد اطّلع عليه. وتوفي الذهبي في سنة٧٤٨هجرية/ ١٣٤٧م ،يراجع تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (عهود الخلفاء الراشدين) ، تحقيق د. عمر عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٢٣هجرية/ ٢٠٠٣م. الجزء الخاص بعهود الخلفاء الراشدين صفحة ٢٤.)

بصورة عامة فلم يستخدم الأسانيد، ولعل ذلك لم يأت مصادفة، لأنه واقعياً كان الوحيد بين المؤرخين المتمرسين في هذه الحقبة، ويبدو أنه عدّ علم التاريخ أو التدوين التاريخي على إنه "منظم بشكل جيد وعلم ثابت". غير أن تقويمنا لمنهج المسعودي ولا سيما بالنسبة إلى ميوله الحضرية والمتحررة والواسعة الأفق، والجانب الأخير، أي الحضرية، قد عبرت عن أولويتها في توجيه مؤلفه بوضوح- إن مؤرخاً (نظير ابن خلدون المتميز) نادرا ما يعترف ويستحسن بما الذي كان المسعودي يقوم به. ومثل هذا يمكن قوله بالنسبة إلى التواريخ المماثلة في ضدّيتها للمعتقدات أو التقاليد المنهجية نظير تاريخ اليعقوبي (ت ٢٢٨هـ / ٩٠٠)* الذي كان محجوباً أو غير منظور في الرواية التاريخية ليس ببساطة لأنه كان يتجنب الإسناد ولكن؛ لأنه يقدّم ويعرض رؤية شيعية للخلافة ؛ وجغرافيته التي لم تفش سراً عن معتقداته قد استعملها واعتمد عليها المؤلفون المتأخرون. فقد يكون الطبري أنموذجاً متمسكاً بالتقاليد بشكل لافت ومعتدل وواسع الأفق، ذلك الأنموذج الذي ينبغي أن يهيمن[1].

---

* الآراء قد اتفقت الآن على أن وفاة اليعقوبي هي في سنة ٢٩٢/ ٩٠٤م وليس في ٢٨٤هـ/ ٨٩٧ [المترجم].

(1) القطعة المنشورة حديثاً من مجموعة سيف ألا وهي كتاب الردّة والفتوح وكتاب الجمل ومصير عائشة وعلي، وحول التشظية fragmeutalion للرواية ينظر Donner في دراسته الموسومة بـ(أصول الروايات الإسلامية) ص ٢٥٨ وما بعدها . (وحول الرواية الأساس للطبري ص ١٢٧ وما بعدها من الصفحات؛ وعن الأخبار الطوال للدينوري (ليدن ١٨٨٨)، ينظر الدوري، ظهور الكتابة التاريخية ص ١٦٨وما بعدها، وعن كيفية ظهور أو انبثاق التقليدية قد أدت إلى إهمال أو هجران الروايات المبكرة، ينظر J.Bellamy في البحث بالإنجليزية الموسوم بـ(مصادر ابن أبي الدنيا في كتابه مقتل أمير المؤمنين علي) المنشور في مجلة JAOS مجلد ١٠٤ (١٩٨٤) ص ١٦؛ وعن التاريخ كونه علماً ينظر المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت ١٩٦٢-١٩٧٩) جزء ١ ص ١٢ الذي ترجم من قبل: J.B.Pavet de Courteille و C.Barbier de Meynard (شارل بلا) ترجمة إلى الفرنسية بعنوان Les praires d'or المطبوع في باريس ١٩٦٦-١٩٦٧، ج١ ص ٤، أيضاً ينظر شبول A.-Shboul دراسته باللغة الإنجليزية (المسعودي والعالم) والمطبوع في لندن ١٩٧٩، ص ٣٧ (بالنسبة إلى رأيه الضعيف بشأن المحدّثين).

وبشكل واضح فإن هناك الكثير من التغيير في هذه الحقبة، ومع ذلك فإن إعادة المباني السابقة لم تزل أقل مما تقتضيه الدرجة للتغيير في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري. وهذا يرجع الى أنني قد افترضت أن تلك النماذج والعيّنات من الروايات التاريخية المفقودة من القرنين الثامن والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث للهجرة بالأساس قد نظمت ورتبت في عملين منفصلين وغير مترابطين (الكتب، والعنوانات) وقد نسبت تقريباً إلى مرجعيات (إلى مؤلفين). وبكلمة أخرى، إنني قد افترضت أن التعلم والمعرفة الإسلامية المبكرة قد ابتدع أو صنعت ثم روت بشكل مماثل جداً لما كان عليه التعليم والمعرفة الإسلامية المتأخرة. غير أن السؤال هو كيف طبقت هذه التطبيقات أو الخبرات الثقافية في الكتابة والنقل المتأخر عملياً أو وضعت في حيز الاستعمال في شتى صيغ الرواية؟ فنحن نعلم أن التاريخ الكنسي للشعب الإنجليزي الذي ألّفه (بيد Bede) وعنوانه: Ecclesiastical History of English people ، ولأن (بيد) كان يعمل أو يشتغل بثقافة كانت تقريباً تشاطر مفهوميتنا في فن التأليف، وتفرض ونضع بديلا عنها مؤسسات لضمان وتأمين تلك الكتب، "وما أن تكتب تلك الكتب حتى تبقى أعمالا منيعة أو لا تنتهك فيها حرمة مؤلفيها"، أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة إلى "نسّاخها". وعملياً فهذا يعني أن أولئك النسّاخ والمؤلفين قد تدربوا على جميع المهارات المطلوبة (ولاسيما النحو وفنون الخط) وكدحوا في مكتبات أو خزائن الديّارات وحجرات النسخ في الدير في العصر الوسيط (بمعنى حجر النسخ)، وهم ينتجون نسخاً من المخطوطات، أما وضوح هذا النسخ أومدى دقتها فهذا لم بكن دائماً يكمن في مكان ما بين سكانر آلة الحاسوب Computer scanner اليوم وبين ماكنة الاستنتساخ الألكترونية. ولنضع هذا الكلام بصيغة أخرى، فإن تقديم دمج أو توليفة من التوجهات والمواقف

كذلك من طرق البحث ومن تقنيات الكتابة كل ذلك قد أنتج ضروباً أو أصنافاً معينة من النصوص ونصوص المرويات. وعلى الرغم من أن توليفة ودمج مترابط ومروي قد أسس بنفسه بين العلماء المسلمين، فكان ذلك بالنتيجة إنتاج رواية ليست مقبولة وليست دقيقة وواضحة من قبل النسّاخ، وقد أخذت هذه العملية بعض الوقت.

كم من الوقت الذي نفترضه بأن تلك المفاهيم والأفكار العامة ستتبلور في حقبة لاحقة، ولكن فيما يتعلق بالجدل والمناظرة بخصوص ما كان معروفا فإن الكتابة نفسها قد بدأت في مرحلتها الأولى لتكمل الرواية الشفوية خلال القرنين السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين/ الأول والثاني الهجريين، وفي الحقيقة فإن أكثر العمل الدقيق والمعتنى به قد استند إلى معلومات ومادة خاصة بسير الحياة والشريعة، وهذا يوحي بأنه من الممكن القول بأن التأليف قد تبلور خلال القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري فقط. وبناءً على قول بعض العلماء فإن المسألة الحاسمة قد جاءت في أوائل القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري، في حين بناءً على قول آخرين أنها انبثقت في الحقبة المتأخرة من ذلك القرن؛ وفي الأقل جزئياً فالأجوبة في المناظرة تعتمد على النصوص وعلياالأنواع الأدبية التي تقرأ أو التي هي خاضعة للمطالعة والقراءة. وعلى أية حال فلدينا، ما وراء هذا التبلور شيئاً آخر، فبعيداً عن أن يكون الكتاب مكتوباً أو منشوراً فإن الكثير من العناوين الأولى والمبكرة التي لدينا يظهر أنها تأصلت وكانت موجودة في دفاتر لتعليم وتدريب الطلبة والعلماء Copy books, notebooks وهذه الوسائل جميعها كان يتم تداولها بادئ ذي بدء بين الطلبة الرفاق وبين العلماء والأصدقاء. وربما أن ذلك كله كان معرضاً للتعديل والتبديل تقريباً، فهذه الكتب والأعمال عندئذ ستزل عن موضعها الحقيقي أو الأصلي (إن كان

بقصد أو بغير قصد) ومن ثم هي التي تنتشر وتتداول بشكل أوسع بين القراء، وفي أوقات كثيرة فإن هذه المدونات ربما تظهر كتبا في حقبها وأحياناً أخرىٰ قد تظهر بعد موت مؤلفها الحقيقيين الذائعي الصيت. هو أمر طبيعي، فعملية مطولة في التصنيف والتأليف مثل هذه لا تنتج نسخة واحدة أصلية ومفردة إنما تنتج أيضاً حفنات Chilch من النسخ والروايات، والمهم أنه لا يمكن تمييز أي واحدة منها من أجل إرجاعها إلىٰ مدّعيها (المؤلفون). ولهذا فإن الإخلاص والأمانة هما فقط المنهج ـ في الحدِّ الأدنىٰ ـ لما كان ينوي المؤلف قوله، وهؤلاء النقلة والرواة كانوا لا يتعاملون بحرية مع النصوص فحسب بل كانوا ينتجون أنفسهم نصوصاً قد لا يكون المؤلف الأصلي قد قالها فعلا. وبناءاً علىٰ هذا النمط والأنموذج من الكتابة قد كان موجوداً في حقبة الإسلام الأولىٰ والمبكرة فابن إسحاق لم يكن مؤلفاً لرواية موثوقة ومرجعية للسيرة تلك التي نسبت إليه، وليس بوسعه حظر ومنع ذكربعض الأخبار غير الواقعية بل الخيالية تلك التي شوّهت هذا الأنموذج، كما أنه ليس بمقدورنا إعادة مباني أي نسخة أصلية كانت فعلاً تعدّ هي نسخته. والذي نريد قوله علىٰ أية حال هو أن موثوقيته ومرجعيته بحاجة تقريباً الىٰ مجموعة من الصيغ الثابتة علىٰ الثلاثة* تنقيحات الرئيسة التي تمثّل رواة سيرة ابن إسحاق، وعلىٰ ما تمثله النسخة التي احتفظ بها ابن هشام. فعملية كهذه في جمع ما كتبه رواته الثلاثة هي التي ستوفر مسألة المناظرة عن مرجعية سيرة ابن

* ويقصد المؤلف الرواة الثلاث لسيرة ابن اسحاق هم – زياد بن عبد الله البكائي توفي سنة ١٨٣هـ ـ ٧٩٩م ويونس بن بكير مولىٰ بني شيبان وكان صاحباً لمحمد بن إسحاق وتوفي في الكوفة سنة ١٩٩هـ / ٨١٤م في زمن المأمون وضعّفه ابن سعد / طبقات ح ٦ ص ٣٩٩؛ وسلمة الأبرش بن الفضل ثقة وصدوق وصاحب ابن إسحاق وروي عنه المبتدأ والمقاري وتوفي في الري، وكان قد تشيع، بنظر العقيلي: ضعفاء العقيلي ج٢ ص ١٥٠ [المترجم].

إسحاق[1]. وبوسعنا القول أكثر من الذي سبق بخصوص العمل الذي قد تمّ تأليفه عبر جيلين تاليين، في الوقت الذي لم نزل فيه نتعامل مع مثال خلّاق ومبدع في نقل الرواية. ولعل أفضل مثال على ذلك حالة ترجع الى أوائل القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري متمثلة بالهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م) والذي قد سبق أن ألتقينا به على أنه أول من رتّب الأخبار اعتماداً على المنهج الحولي. ومع أنه لم يبق من تأليفه سوى جزء واحد. ولكن المصنفين أو الجماعين والمؤرخين المتأخرين قد احتفظوا بحجم كبير جداً من الأخبار التي تعيّن هويته وتكشف سلسلة الأسانيد عن كونه المنشيء لهذه الروايات. والسؤال هو كم من هذه المعلومات التاريخية هي أصلاً للهيثم وكم هو حقيق نسبتها إليه؟. فالصورة معقدة أكثر مما يتخيله ويعتقده المرء. فمن جانب، إنها لا تبدو كذلك بالمرة وبالجملة كونها تلفيق واختلاق من قبل رواته. وعلى خلاف الكثير جداً من رموز وشخصيات شبه أسطوريه أو شبه خيالية التي مرّت بنا في القرن السابق، فيظهر أن ابن الهيثم قد كتب مجموعة متنوعة من الموضوعات الواسعة والجديرة بالقبول، فالجزء الأساس من معلومات ومادة ابن الهيثم يمكن تمييزها وإدراكها وقد ظلت باقية، أما من الجانب الآخر، فإن

---

[1] عن التأليف وابن إسحاق بنظر Schoeler في دراسته باللغة الألمانية الموسومة (شخصية ومصداقية)؛ أيضاً البحث الآخر بالألمانية الموسوم بـ Schreiben und Veroffentlichen وينظر أيضاً M.Muranyi في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ (كتاب المغازي لابن إسحاق في رواية يونس بن بكير) المنشور في مجلة JSAI مجلد ١٤ (١٩٩١) ص ٢١٤-٢٧٥؛ كذلك ينظر r.Sellheim بحثه باللغة الألمانية الموسوم بـ
Muhammed's erstes offenbaryngserlebnis: zum problem mund licher und schriftlicher uberlieferung in 1/7 und 2/8 Jahrhundert"
المنشور في مجلة JSAI مجلد ١٠ (١٩٨٧) ص ١-١٦؛ ينظر أيضاً L.I.Conrad في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ (استعادة نصوص ضائعة: بعض المسائل في منهج البحث) المنشور في مجلة JAOS مجلد ١١٣ (١٩٩٣) ص ٢٥٨-٢٦٣، الذي أعيد طبعه من قبل ابن وراق (المحقق) كتاب (البحث عن محمد التاريخي) ص ٤٧٦-٤٨٥؛ وينظر D.Wasserstein في بحثه باللغة الإنجليزية (ابن حزم حول أسماء تلتقي بالخلفاء) المنشور في Chiers d' onomastique arabe 1986-1992 المطبوع (١٩٩٣) ص ٦١-٨٨.

وجود الإسناد بالتأكيد لا يمكن جعله ضمانة للموثوقية والصدقية لجميع المعلومات والمرويات المنسوبة إليه. وذلك لأن رواة ابن الهيثم في كثير من الأحيان أما أنهم قد نقّحوها أو أعادوا تنقيحها أو أعادوا صياغتها حتى كيّفوها، أو بطريقة أو أخرى عدّلوها أو صوروا تلك المعلومات والروايات لأسباب متعددة. ففي حالة كهذه، ليس هناك حسبما يبدو سوء نية أو سوء قصد، مع أن نسبة المعلومات إلى مؤلفين ومصادر أقدم لأسباب في الجدل الضيق لم تكن عادة غير مألوفة. وإن الكثير من هؤلاء الرواة والنقلة قد شعروا بأنهم أحرار في اتخاذهم دوراً في تكييف وتنقيح وإعادة تنقيح المعلومات بعينها إن كانت هذه المعلومات لديهم أو تلك التي كانوا يحتفظون بها. إنهم في الواقع ينقلون أو يروون المعلومات بناءً على قواعد النقل والرواية تلك التي كانت معيارية خلال زمانهم»[1].

[1] عن الهيثم بن عدي ينظر S.Leder في دراسته باللغة الألمانية بالعنوان الآتي:
Das Korpus al – Haith ibn Adi (st.207/822) Herkunfl uberlieferung, Gestatt fruner Teyte der Ahbar Literatur
المطبوع في فرانكفورت ومين Main ١٩٩١، وللمؤلف نفسه بحث باللغة الإنجليزية بعنوان (التأليف والنقل في الأدب غير المؤلف: الأخبار المنسوبة إلى الهيثم بن عدي) المنشور في مجلة Oriens مجلد ٣١ (١٩٨٨) ص ٦٧-٨١؛ وكذلك للمؤلف بحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (سمات القصة أو سمات غير المألوف في التدوين التاريخي المبكر: سقوط خالد القسري) المنشور في مجلة Oriens مجلد ٣٢ (١٩٩٠) ص ٧٢-٩٦؛ وحول الخط الضبابي بين التأليف والنقل عند المدائني ينظر Rotter في بحثه Liberlieferung ص ١١٠ البحث بالإنجليزية الموسوم بـ (عمليات الاختصار: حالة وفد التميميين الى النبي محمد) المنشور في مجلة BSOAS مجلد ٤٩ (١٩٨٦) ص ٢٥٣-٢٧٠، وحول النشاط نفسه أو الفعالية بعد ذلك ينظر J.Ashtiany في البحث بالإنجليزية (الأسانيد وأنموذج الأبطال: أبو زيد nyالطائي، محبو التنوخي المتباعدين وأبو العباس الصيمري) المنشور في كتاب (العربية وآداب الشرق أوسطين مجلد ١ (١٩٩٨) ص ٧-٣٠.

الفصل الثالث

نتائج منطقية ونماذج

بنهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، ظلّت حالة التدوين التاريخي متحركة وديناميكية، مع أن النماذج والأمثلة القابلة للفحص والتمييز قد أضحت في هذا القرن أكثر ملاءمة ومناسبة، كذلك فإن مسار التدوين التاريخي قد بدأ في هذا القرن يتحدد تماماً. والذي يستحق منّا هو أن نذكّر أنفسنا بشأن متغيرين مهمين قد حدثا في هذه الحقبة.

أولهما، ذلك التنامي الإنفجاري للرواية التاريخية في القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين – والملاحظ أن مؤرخي بغداد قد انتجوا خلال القرن التاسع الميلادي كثيراً من التاريخ القصصي أو الروائي ففي أسبوع واحد أنتجت ما انتجته كل من فرنسا وألمانيا المتعاصرتين في سنة بأكملها – وما أعقبهما حقبة من الجمع والتنقيح الجدير بالاعتماد والقبول، إذ تم إنتاج أكبر قدر ممكن من النصوص التي هي الآن موجودة في المؤلفات. والواقع أن هذه الحقبة الختامية والنهائية تعدّ بالتأكيد من أكثر الحقب إثارة للتعجب والإعجاب، غير أنه يمكن القول بأن هذه المؤلفات الكثيرة والنصوص الكثيرة كانت من زاوية جانبها التخطيطي والتصميمي إنما تعدّ مقلّدة أو بالأحرىٰ متابعة لأثر مجموعة من الأمثلة والنماذج التي تهيأت ووضعت أصلاً خلال الدور الذي أطلقنا عليه بالدور الثاني (من سنة

١١٢هـ / ٧٣٠م – ٢١٥هـ / ٨٣٠م) فهاهنا حسبما يبدو تكمن جذور وأصول علم التاريخ الإسلامي أو التدوين التاريخي الإسلامي . فإن كان أدب الأخبار المبكر جداً قد هيمنت عليه مسألة محددة وضيقة في آن واحد من مؤلفات سير الحياة تلك التي تتضمن نبذة مختصرة عن الترجمة هذه، لكن هذا واقعاً بالنظر إلى تبصر مؤرخينا الأوائل ونفاذ بصيرتهم في التمييز بل والتعريف بتدوين ماض متنامي دوماً، وهذا يتطلب صيغا مطواعة بشكل أكبر بما له علاقة بالرواية. وعلى وجه الدقة فإن هذه المرونة والمطواعية هي التي تفسّر لنا الأسباب والعوامل التي جعلت مشاريع وخطط أخرى للرواية التاريخية كالفتوح على سبيل المثال (بمعنى الأعمال التي تمّ كتابتها عن الفتوحات الإسلامية الكبيرة) وعن المناقب (أي الأعمال التي كتبت عن حياة عدد من الشخصيات القيادية الرئيسة المختلفة تلك التي تتعلق بوفيات رجال أو شخصيات مبجلة ومحترمة ولاسيما أئمة الشيعة)، سيكون الحديث عنها بأنها أعمال ونشاطات هي خارج الخط المباشر الذي نحن بصدده مع أنها قد استمرت بوصفها أعمالا مختارة إلا أنه لا يمكن مضاهتها بالمؤلفات التاريخية أو التأليفية الكبيرة على وفق خصائصها وصيغها الثلاثة الأساس التي سبق ذكرها.

أمّا ثاني المتغيرات، فهو ظهور صدقية ومرجعية الكتّاب الأصليين – ونقصد بهم المؤلفون المتميزون والمعترف بهم – في التدوين التاريخي، كما عهدنا ذلك في العلوم الشرعية والأدب. وبكلمة أخرى، فإن التأليف والتصنيف والنقل كلّ ذلك أصبح بحالة مفككة بشكل متزايد. ويحتمل أن هذه العملية قد ابتدأت بوقت أقدم من أواخر القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، مع أننا نصل إلى نوع من الخط الفاصل في منتصف القرن التاسع، كما حدث بالفعل في جيل المدائني (ت٢٢٩هـ / ٨٤٣) وبالتأكيد في جيل

البلاذري (ت ٢٨٠هـ / ٨٩٣م)*. ومن الطبيعي، إن هناك دوماً معياراً أو مقياساً من الاستمرارية كالتي في الأساليب التي كتب أو ألّف فيها المؤرخون كتبهم ونشروها أو أعلنوها، فمثلاً إن الكثير من المؤرخين سيستمرون ويواصلون النشر أو الإعلان عن مؤلفاتهم لا عن طريق صياغتها في قالبها النهائي، ومن ثم ينجز النسّاخون النسخ المنتهية، لكن الأصح أن ذلك يتمّ ذلك عن طريق إلقائهم المحاضرات أو عن طريق التملية من مسوّداتهم ومدوّناتهم الموجزة (وهناك ملاحظة متباينة عن هذه تماماً، تلك العملية التي أنتجت حديثاً، وهي مجموعة محاضرات قد نشرت حديثاً من قبل أدوين W.H.Auden بعد موت شكسبير، فقد أعيد تشكيلها وتأليفها اعتماداً بالأساس على مدوّنات مختصرة للمحاضرة قام بها أحد الطلبة أو أحد الأصدقاء الأثيرين والمفضلين). ومن ثم، كما هو واقع الآن، يبدّل العلماء ويغيروا أفكارهم ورغباتهم عبر الوقت، وبعدها فإن الطلبة الذين كانوا يسيئون فهم العلماء أو أولئك المهملين للدروس الذين يدمجوا القراءتين (فبوسعي فقط التخيل ماذا سيكون شكل هذا الكتاب إنه سيكون أشبه بنسخة مثل هذه). ومهما تكن الحال، فالنتيجة تكون مجموعة من التنقيحات المتعددة، وهذه بالفعل ظلت هي السمة البارزة لرواية التدوين التاريخي بقدر ما نستطيع متابعة ذلك. ومهما تكن الحال فالاستمرارية والتواصل يبقى مع ذلك عالم من الاختلاف والتباين بين ابن اسحق من جهة والبلاذري من جهة أخرى. فكان الأول مرجع قد بزّ عمله الأصلي بما صار قياسياً ومعيارياً برواية

* المتعارف عليه أنه توفي في ٢٧٩/ ٨٩٢ [المترجم].

ابن هشام. وكان الآخر، مؤرخاً ثقة ومبدعاً، ذلك الكتاب الذي نسخه الناسخ[1].

ما الذي يمكننا تفسيره من هذه المتغيرات الأساس؟ فالذي يأتي الآن في آنفا سوف يتفحص آليات وتأثيرات أو مؤثرات فاعلة، ومن ثم سوف نتحول إلى النتائج التي نعيد بها بناء التاريخ الإسلامي.

أهمية التغير في القرن التاسع:

وهنا لابد من التأكيد أن هناك عملاً فعّالاً وذي تأثير أكثر من مجرد تبصر أو نفاذ بصيرة لكل مؤرخ من المؤرخين، مهما يكن هذا المؤرخ أو ذاك مجدّاً وذكياً وداهية. فنشوء وظهور رواية التدوين التاريخي، ووسواء كانت قد حدثت أو انطلقت برعاية وتشجيع الخلافة أم لا، إنها بالفعل كانت عملية سياسية وبشكل خطير. وذلك لأن إخضاع أو تدوين التاريخ الشفوي (أو روايات) للكتابة قد كانت جزءاً من تنظيم أو إعادة تنظيم أكبر وإعادة تسليط الضوء على القوة الإجتماعية، وذلك طالما أن العلم والدراية صار يتماثلان ويتطابقان مع الكتابة ومع النصوص، وهكذا صار التركيز متزايدا بأقلام أو بمداد أولئك الذين ينتجون أو يشرحون ويفسرون هذه النصوص، سواء أكان هذا في القرآن أم الحديث أم الأخبار. والذي كان يعرف بـ (مجتمع الفكر المركزي logocentric community- أي المجتمع الذي ينظم حول الكلمة المكتوبة – مثل هذا المجتمع بدأ بالظهور). وأياً ما كان ربما يفكر به

---

[1] مثال تاريخ متأخر نسبياً الذي وجد في نسختين منقحتين، إحداهما ربما محفوظة في مسوّدة، ينظر L.Guo في كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التدوين التاريخي المملوكي المبكر: ذيل مرآة الزمان لليونيني) المطبوع في ليدن ١٩٩٨، ص ٢٨ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك فإن محاضرات أودين Auden قد أعيد مبانيها في محاضراته عن شكسبير حققها A.C.Kirch وطبعت في برنستون Princeton ٢٠٠١.

القبلي المهاجر بشأن هذه الفتوحات الماضية، فهذه الآن قد وضعت بخلاف الروايات المكتوبة – التي كانت بحسب تعريفها الدقيق جداً الشيء المحفوظ من نفس النخب الحضرية تلك التي تدّعي بالمطالبة بضرائبه (وكان العباسيون متحمسين إلى أبعد الحدود في أخذ الضرائب من المسلمين، ورفقائهم في الدين أكثر مما كان عليه الأمويون). كان هناك بالنسبة إلى الكوفيين شيئاً واحد ليزينوا التاريخ العائلي وذلك بوساطة تكليل وتتويج مساهماتهم البطولية في فتوحات الكوفة (وكان هذا في الغالب على حساب البصريين)، ولكن حينما يوازن المؤرخ بين الفتوحات الكوفية والفتوحات البصرية، دامجاً أو موّحداً بين النتائج المقاربة إلى كتاب عن الفتوحات بشكل إجمالي، ويقوم في النهاية بتوحيد ودمج هذا الكتاب المفترض عن الفتوح في مؤلف تاريخي شامل، عندئذ تكون حصيلة هذا الإنتاج دون شك مخططة تخطيطاً أو تصميماً إمبراطورياً، فالتاريخ المفرد، والقائم بذاته والتاريخ القبلي أو التاريخ المحلي والتاريخ الإسلامي – فإن القدر الكبير من ذلك يعتمد على منظور أو وجهة نظر، وهو المنظور الذي كان مؤرخونا يفرضونه على مروياتهم. وهكذا أيضاً بالنسبة إلى الأنساب، إنها كانت أحد الأمور بالنسبة إلى البدوي لكي يزعم بأنه ينحدر من جدٍّ قصيّ ومتباعد إلى حدٍّ ما، في الوقت الذي يزعم فيه الآخر، ذلك الذي يتشاطر جوانب أو معارك معه، أنه ينحدر من الأعداد النسبي نفسه. كان آمراً مختلفاً عندما ينظم عالم نسب محترف جميع معلوماته النسبية من أجل أن يظهر أو يعرض أن هناك نوعين من المقاتلين المستقرين– أحدهما يقطن الجزيرة العربية بينما يسكن الآخر في العراق، كانا قريبين نسباً أو غير قريبين في الرابطة النسبية[1].

---

[1] وحول بناء أوبنية التاريخ عندما تتعارض وتتضارب الدول والقبائل في الشرق الأوسط الحديث، ينظر A.Shroyck في بحثه باللغة الإنجليزية (الأسنبا الشعبية القومية :– كتابة التاريخ

ولهذا فإن دمج الروايات المتباينة والمتفاوتة والجزئية -في أجزاء- إلى الكلّ الواحد، في المؤلفات الكثيرة الأجزاء أو التأليفية الطويلة للقرن التاسع/ الثالث الهجري تمثل أكثر من كونها حلاً بارعاً وموفقاً لمشكلة شائكة، ألا وهي كيفية ترتيب وتنظيم جميع المعلومات المتوافرة بصورة متزايدة عند المؤرخين عبر مرور الزمن وبين إنتاج علم. إن هذا يؤشر إلى مشروع ضخم في إعادة التفكير في التاريخ، فالتاريخ المثير للجدل والخلاف والتاريخ غير المسرّ كان بين الفينة والأخرى يغيّب ويقمع، وهناك مثال مبكر على هذا وهو تجاوزات أو إفراطات العباسيين، في الذبح الفضيع لأفراد العائلة الأموية التي أخذها العباسيون على عاتقهم، فالطبري وهو يكتب كما لو أنه كان يسكن في بغداد العباسية، لم يتفوه بكلمة واحدة، في الوقت الذي يصف فيه كتاب تاريخ مكتوب في أسبانيا يرجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري وهو تاريخ مجهول المؤلف، في أسبانيا التي كانت خارج السيطرة العباسية، بشيء من التفصيل عن هذا العنف والقسوة. وفي أغلب الأحايين، فإن التاريخ المثير للخلاف والجدل يبدو أنه قد تم حفظه، ثم أعيد صياغته كي يكون منسجماً أو أو جعله متأقلما إلى ما يقترب من رؤية مشرقة عن الماضي الإسلامي. فالمعومات المتعلقة بالجماعات الفرقية المبكرة كالشيعة والخوارج يبدو أنها كانت متوافرة بأحجام كبيرة، والكثير منها كان

والهوية بين قبائل البلقا Balqa في الأردن) المطبوع في مجلة دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ مجلد ٣٧ (١٩٩٥) ص ٣٢٥-٣٥٧؛ وللمؤلف نفسه دراسته بالإنجليزية بعنوان (القومية والمخيال النسبي: تاريخ شفهي ومرجعية نصية في الأردن، المطبوع في بريكلي ولوس انجلس ١٩٩٧) وحول مناقشة عن حالة إسلامية مبكرة ينظر H.Kennedy في بحثه باللغة الإنجليزية (من الرواية الشفهية إلى الرواية أو التدوين المكتوب في الأنساب العربية) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ٤٤ (١٩٩٧) ص ٥٣١-٥٤٤؛ ان مصطلح وتعبير logocentric community قد جاءت من بحث كارتر M.G.Carter باللغة الإنجليزية الموسوم بـ الهيمنة أو السيطرة اللغوية هي كأنها السيطرة على الناس في الإسلام الوسيط: أهداف النحاة في السياق الثقافي) المنشور في مجلة الأبحاث مجلد ٣١ (١٩٨٣) ص ٧٢.

قد نقل من قبل الخوارج والشيعة. ولمّا كان الحجم الأكبر منها قد ظل موجوداً في المؤلفات التاريخية المطولة التي ألفها مؤلفون متسامحون من السنة، وعلى وفق ميولهم الواسعة الأفق، فإنها كثيراً ما كان يعاد صياغة الرواية بلغة تتعاطف أو تميل إلى القضية السنية. ولما كان السنة هم أقرب صلة بالسلطة السياسية،عندئذ تكون النتيجة في حالات كثيرة جداً، نصرا وانتصار سنيا معتدلا، فتشرعن عبر الروايات التاريخية ما يعدّه الشيعة والخوارج على حدٍّ سواء بأن الحكم هو حكم غير شرعي"[1].

فأنظمة العلم والمعرفة ليست محايدة أو طبيعية بالمرة، وهي دائماً تتحدث عن المنظم أو المسؤول عن النظام وثقافته. وهكذا أيضاً في الضروب والأنواع الأدبية المختلفة، تلك التي تظهر مصادفة. وسوف نشهد أن النماذج والأمثلة الفارسية والمسيحية ربما مارست بعض التأثير على ولادة الرواية، غير أنه من الصعب تخيل أو تصور أن المؤرخين المسلمين قد أنتجوا تواريخ شاملة وجامعة بحسب المعيار والمقياس في الشكل والصيغة التي قد قاموا بها فعلا، إنها كانت على الضدِّ من الحال التي قدّموها عن محمد في السلسلة النسبية التوحيدية التي تصل أو ترجع إلى الوراء عبر إبراهيم وإلى آدم،

---

[1] وحول الكتابة والثقافة ينظر مثلاً J,Goody في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (منطق الكتابة وتنظيم المجتمع) المطبوع في كمبردج (١٩٨٦) خاصة صفحات ١٦ وما بعدها؛ وأيضاً D.Oleon في دراسته باللغة الإنجليزية (العالم على الورق: المضامين المفاهيمية والمعرفية للكتابة والقراءة) المطبوع في كمبردج ١٩٩٤؛ وعن الجدل بأن العربية لا تشابه اللاتينية قبل الحقبة الكارولونجية Carolingian قد زودت جيداً بالنسبة إلى المنطق، ينظر P.Saenger في دراسته باللغة الإنجليزية (الفراغ بين كلمات: أصول القراءة الصامتة) المطبوع في ستانفور Stanford ١٩٩٧، خاصة ص ١٢٣ وما بعدها من الصفحات؛ المصدر الأسباني هو الأخبار المجموعة، الذي حققه وترجمه بهذا العنوان Ajbar Machmua وطبع في مدريد (١٨٦٧) ص ٤٧ وما بعدها من الصفحات.

* كتبت بحثا عن آل النبوة في القرآن الكريم في دراسات المستشرقين تحدثت فيه عن هذه المسألة المهمة. وهو منشور في مجلة المصباح للدراسات القرآنية العدد الثاني عشر تحت الطبع .المترجم.

وكذلك عن المزاعم المطلقة في حكمها على الخلافة نفسها. التي قد حكمت بشكل مباشر أو غير مباشر الكثير جداً من العالم المتمدن (لقد عدّ آدم في القرآن خليفة وإن الخلفاء الأول قد قدّموا أنفسهم على أنهم ورثة النبي)*. ومع أن الكتابة في صيغة أو شكل التاريخ الجامع والشامل قد جعلت المؤرخين بالتأكيد يميلون بل يقتنعون بشرعية مؤسسة الخلافة السنية، التي هي من المحتمل أن تكون سؤالاً مفاده لماذا كانت التواريخ الجامعة والشاملة وفي مداها البعيد والطويل قد برهنت على نفسها بكونها غير شعبية وغير شائعة بين صفوف الشيعة؟ لكنها ليست بالضرورة تقنع المؤرخ كفرد يشرعن أي خليفة. في الواقع، ففي دراسة حديثة قد عرضت أو أظهرت ب الضبط كيف أن الكثير من التاريخ الجامع والشامل للحقبة العباسية الأولى كان محرجاً جداً بالنسبة إلى أفراد عائلة من البيت الحاكم. وأقل تعجباً واندهاشاً، فالطريقة الأفضل لأن نقرّع خليفة أو وزير بدلاً من أن نرسم صورة جذابة لإنجازاته وأعماله وأفعاله مقابل ستارة الباب الخلفي backdrop للتاريخ؟ فالكرونوغرافي ـ التاريخ الحولي ـ قد كتب كثيراً من قبل الفقهاء، وهو في هذا المعنى مقارن وموازن بالشريعة، تلك التي بوسعنا وصفها بوضوح بإنها نظام في التفكير قد صمّم للتعبير عن المثل العليا للمجتمع ونحدد الإفراطات الزائدة عن الحاجة تلك التي قررت الدول الإلتزام بها. واقعياً، يحتمل القول أن الرواية التاريخية- وفي أكثر الأحيان ليس لدينا أكثر من الحرب الأهلية، أو اغتصاب السلطة والكثير من الحروب الأهلية – والأكثر تكرار هو تسليط الضوء و التركيز على الفجوة بين المثال الأعلى الذي أدرك أولاً تحت زعامة النبي والحكّام الأول من جهة، وبين الحاضر المهادن الذي يقبل بتسويات مذلة أو بحلول وسط من الجهة الأخرى. ولعله من المفيد أن نذهب إلى أبعد من ذلك لمتابعة أحد علماء تاريخ التوراة، الذي يعتقد بأن الكتابة قد ظهرت

"عندما صارت أعمال الملوك وأفعالهم تصوّر في مغزاها الأكبرالشعب ككل، وعلىٰ هذا الأساس فهي تشكل القسم الأعظم من التاريخ القومي الذي يكّون رأياً أو يحكم علىٰ الملك، وليس الملك الذي يصنع رواية خاصة بالتاريخ". ولكن مع هذا فمن العدل والمناسب أن نرىٰ الكثير من الشريعة والتاريخ الكرونوغرافي وسيلتين متممتين للتعبير عن معارضة السلطة الدولة. وباختصار، فإن محاولات العباسيين الأول في رعاية واحتضان التاريخ لأغراض دفاعية وتسويغية* يبدو قد نجح نجاحاً جزئياً فقط، وأن التاريخ الكروفوافي سيعبّر عن نفسه إلىٰ (نقد القيصر Kairekritik)وهو فن أنواع مختلفة ومتعددة[1].

فظهور التاريخ الكثير الأجزاء أو التأليفي الكبير هكذا قد ارتبط بظهور التقليدية من جهة، وبظهور الرواية الإمبراطورية (الخلافة) من جهة ثانية، وهي مسائل سنتوجه الىٰ دراستها بشكل أوسع تماماً في الفصول (٥، ٦،

* كان أبو جعفر المنصور له ولع بالاستماع إلىٰ النسّابة ورواة الأخبار والمغازي والفتوح، فيذكر ابن الفقيه الهمذاني (توفي بعد سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) أنه - أي أبو جعفر - كان معنياً بالأسحار والأخبار فيحفظها (ينظر مختصر كتاب البلدان، نسخة مصورة عن ليدن، دار صادر- بيروت ١٩٨٤ ص ٢. ويذكر المسعودي أنه عندما ذكر في مجلس المنصور عن تدبيرات هشام بن عبد الملك في الحروب أرسل علىٰ الفور في طلب رجل من أهل الشام له دراية بتلك التدابير ليستفسر منه (ينظر مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف أسعد داغر، بيروت ١٩٨٤ ج٣ ص ٢٨٥-٢٨٦. ويروىٰ أنه كان يستمتع بسماع أخبار معركة ذي قار. ويذكر الخطيب البغدادي أن المنصور طلب من محمد بن إسحاق تأليف كتاب شامل عن التاريخ. كما أن هارون الرشيد طلب من القاضي أبو يوسف كتابة كتاب جامع عن الخراج (ينظر تاريخ بغداد، بيروت ج١ ص ٢٢١، ج١٣ ص ٢٤٢-٢٥٥، ابن خلكان: وفيات ج٦ ص٣٧٨ [المترجم].

[1] الكتاب الحديث هو الحبري T.EL-Hibri باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (إعادة تفسير التدوين التاريخي الإسلامي: هارون الرشيد ورواية الخلافة العباسية) المطبوع في كمبردج ١٩٩٩؛ وعن الشريعة كوسيلة معارضة للحكومة ينظر كالدر N.Kalder في بحثه بالإنجليزية (صلاة الجمعة والنظرية الفقهية للحكومة، سركشي وشيرازي وماوردي) في مجلة BSOAS مجلد ٤٩ (١٩٨٦) ص ٣٩؛ وبشأن الملوك والتاريخ ينظر فان سترس J.Van Seters في دراسته باللغة الإنجليزية (في البحث عن التاريخ: التدوين التاريخي في العالم القديم وأصول أو جذور التاريخ التوراتي Bilblical) المطبوع في نيوهفن New Haven ١٩٨٣ ص٢.

٧). وهنا في هذه الحال تتضمن تذكرة بأن الأمور قد تتطور بصورة مختلفة، وواقعاً فإنه من منظور أو من زاوية سنة ٨٠٠م/ تقابل ١٨٤هـ، ربما يعتقد المرء بأن المستقبل لم يكمن في التقليدية الرزينة والواقعية أو تلك المروي عنها كالتي مثّلها الطبري والبلاذري، لكنه قد روىٰ بروايات أقل واقعية (وفي بعض الأحيان بصورة ملحمية) كما عند الأزدي وابن أعثم الكوفي، وكلاهما كان من كتّاب مؤلفات الفتوح، إذ نرىٰ البطولة الخيالية وغير الواقعية جليّة وواضحة بينما يختفي التاريخ الدقيق والحصيف.فمؤلفات الفتوح كالتي ذكرنا، كثيراً ما تماثل كتاب سيرة النبي لأبي الحسن البكري، الذي يبدو في بعض صيغته وشكله يرجع إلىٰ القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، فهذه جميعها تتميز بأساليب الرواية القصصية، تلك التي تدفع جانباً (إن لم تقصها وتغيّبها بالمرة) بما قد ظهر من الرواية المعيارية، تاركة مؤلفيها مضمورين وقليلي الشأن، وتاركة تواريخهم النقلية معقدة بشكل خاص. وعلىٰ الرغم من المعالجة القاسية والفظة فإن هذه النصوص ستستلمها أيادي الكثير من الفقهاء والمستشرقين الأوائل (فلهذا سمي البكري بالكذّاب) وهم بوسعهم أن يسلّطوا الضوء علىٰ الخلفية في إعادة ظهور الأسطورة والخرافة في مؤلفات الفتوح في القرنين الثاني عشر والثالث عشر/ السادس والسابع الهجريين، تلك التي نسبت خطأً إلىٰ مصنفين وجماعّي القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، نظير الواقدي، ولكن نشر الملاحم الشعبية التي ما زالت تفعل وتعمل في يومنا هذا. ولعل الأكثر أهمية القول، أنهم قد قدموا ووفروا معياراً مقابل ذلك الذي عن طريقه نستطيع الحكم علىٰ المتغيرات التي تحدث ضمن الرواية السائدة نفسها. وفعلاً فلدينا بذور معجزة النبوة عند ابن اسحق-- ابن هشام -- التي ستزدهر في رواية السيرة المتأخرة، تماماً كما ظهرت في بعض السمات الخرافية والأسطورية في التاريخ المملوكي وفي السير المملوكية

وهي بالفعل محاكاة وصدىً لاستثمار قادة حقبة الفتوح عند الأزدي وابن أعثم. إن هذه التوجهات البديلة قد همّشت شيئاً من المرجعية الفكرية للتقليدية[1].

جذور الرواية: بعض الإشكاليات وحلولها:

إذن هنالك أسباب وجيهة ومقنعة بخصوص اختيار المؤرخين بل اتفاقهم على صيغهم في الكتابة. فالمهمة التي بقيت هنا هي محاولة تمييز المكونات الثقافية المتوافرة لأولئك المؤرخين الذين كانوا يصنّفون الأساليب والأنواع الأدبية للتاريخ (الكرونوغرافي) ولترجمة الحياة (البايوغرافي) وللطبقات (البروسوغرافي). فالسؤال من الناحية الاصطلاحية يؤطر

---

[1] وحول التوقيت للقرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري للأزدي البصري وفتوحه للشام (الطبعة المفضلة هي طبعة كلكتا ١٨٥٤، وينظر الآن مراد S.Mourad في بحثه بالإنجليزية (حول التدوين التاريخي الإسلامي – أبو إسماعيل الأزدي فتوح الشام) في مجلة JAOS عدد ١٢٠ (٢٠٠٠) ص ٥٧٧-٥٩٣، الذي أسّس بحثه على ما كتبه كونرد L.I.Conrad في بحثه بالإنجليزية (تاريخ الأزدي عن الفتوحات العربية في بلاد الشام: بعض الملاحظات بشأن التدوين التاريخي) المنشور في الكتاب الذي حققه بخيت M.A.Bakhit وعنوانه (أوراق أو أبحاث الندوة الثانية عن تاريخ بلاد الشام خلال الحقبة الإسلامية المبكرة حتى سنة ٤٠ هجرية / ٦٤٠م) مجلد ١ عمان ١٩٨٧، ص ٢٨-٦٢؛ (وبشكل مغاير لما كان سائداً في رواية القرن التاسع الميلادي ينظر صفحة ٤٦ وما بعدها في محاضرات الندوة تلك)؛ كتاب ابن أعثم هو كتاب الفتوح (حيدر آباد ١٩٦٨-١٩٧٥)؛ وبالنسبة إلى البكري ينظر شوشان B.Shoshan في دراسته (الثقافة الشعبية في القاهرة في العصر الوسيط) المطبوع في كمبردج ١٩٩٣، ص ٢٣ وما بعدها من الصفحات؛ وعن الأسطورة المتأخرة في مؤلفات الفتوحات، ينظر باريت R.Paret بحثه باللغة الألمانية الموسوم بـ الأسطورة في أدب الفتوح Die Legendare futuh- Literatur المنشور في كتاب باللغة الفرنسية الموسوم بـ La poesia e La sua formazione المطبوع في روما ١٩٧٠، ص ٧٣٥-٧٤٩؛ وحول الطبعتين لمؤلفات الواقدي ينظر فتوح الشام (كلكتا ١٨٥٤) وتاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق، المطبوع في دمشق ١٩٩٦؛ وعن الملاحم الشعبية ينظر ليونز M.C.Lyons في دراسته بالإنجليزية (الملحمة العربية: قصاصو الملاحم والشفوية جزء ١ المقدمة) المطبوع في كمبردج ١٩٩٥، كذلك هيث P.Heath في دراسته (السيف العطشان : سيرة عنتر والملحمة العربية الشعبية) المطبوع في Salt lake city ١٩٩٦.

ويتشكل بما له علاقة بالتأثيرات المحلية والطبيعية (الإلهام، الوحي) والخارجية؛ وكلا الأنموذجين والأسلوبين يفترضان أن عرب قبل الإسلام كانوا سذجاً وبسطاء في مسألة التدوين التاريخي المعقد. على الرغم من أن هذا يعدّ أسلوباً وسبيلاً غير وافٍ بالنسبة إلى تقريب المشكلة؛ وسابدأ بتوجيه النقد والمحاججة الذاتية[1].

هناك ثلاثة عوامل داخلية (أو ذاتية) للرواية الإسلامية بصورة عامة، ندلي بها من أجل تفسير بداية نشوء التفكير التاريخي (عن طريق تضمين صيغ التدوين التاريخي). الأول منها، لقد أشرنا إلى أن القرآن يحدّد وضع الإنسان داخل سياق من التعاقب أو التسلسل الشامل للأحداث (الخليقة، سلسلة من الأنبياء، وحي محمد، يوم القيامة) ويميّز عدة أحداث تاريخية (بضمنها المعركة بين الفرس والبيزنطيين) ويميز بين العلامات أو الإيحاءات الحقيقية وبين وعد الله وجزء من قصص القدامى، ويعلم الحكماء أيضاً كيفيستمدون الدروس عن الماضي•. وهكذا يظهر الوحي ـ كما تمّ الجدل في هذا الموضوع ـ طبع في ذهن المسلمين الأوائل رؤية عن التاريخ، لذلك كان التفكير أو الفكر التاريخي قديماً كقدم القرآن نفسه. وثانيها، لقد تمّ الإقتراح أو الاعتقاد بأنه طالما كانت المرويات وقصص المعارك في حقبة قبل

---

[1] يوجد ملخص مختصر في كتاب شبرنغبرغ M.Springberg – Hisnsen باللغة الألمانية الموسوم بـ
Die zeit vor dem Islam in arabischen universal geschichten des 9. Bis, 2, Jahrhunderts
عن التاريخ الشامل عند العرب المسلمين المطبوع في فرزيبرغ Warzburg ١٩٨٩ ص ١٢ وما بعدها.

• [ويشير المؤلف إلى سورة رقم ١٢ وهي سورة يوسف آية ١١١، إذ جاء في الآية (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب – وترجمها المستشرق بجملة Men of understanding التي لا تماهي "أولي الألباب" تماماً إنّما تعني العلماء أو الحكماء المترجم]

الإسلام (وتدعى أيام ومفردها يوم) تلك التي دوّنت ثم جمعت في حقبة الإسلام المبكر، تحتوي على أو تحمل مشابهة شديدة بالرواية التاريخية المبكرة، وهنا يحتمل أن هناك رابطة أو صلة أصلية وتاريخية أو تطورية بين الاثنين؛ وكذلك ترتبط بعلم الأنساب، وأن جمع ورواية هذه الايام ـ كما يعتقد ـ قد عمل على بلورة الفكر التاريخي. وثالثها، إن الأمر كان معروضاً للمناقشة، وهو أن تعلّم ومعرفة الحديث قد أدَّ دوراً حاسما وذلك عن طريق تعزيز ورعاية فكر تاريخي نقدي؛ لأن معرفة وتعلم الحديث لا يمت بصلة إلى جميع المرويات النبوية فقط ، بل ايضاً يستدعي تقويماً حصيفاً وسليماً لمصداقية تلك الأحاديث اعتماداً على معيار تاريخي كرونولوجي (في الأقل)، ونحن نعلم بأن الكثير من الأخبار القديمة أو المبكرة كانت من قبل جماعين ومصنفي الأحاديث أو رواتها ونقلتها.

فهل القرآن أدخل أو غرس نوعاً من الروح التاريخي عند الكتّاب المسلمين في القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة، في هذه المرويات عن يوم المعركة أو عن الروايات النبوية، تلك التي بوسعنا أن ننسبها إلى المؤلفات التاريخية المبكرة جداً؟ كل ذلك ممكن، وفي الوقت نفسه جميعها يعسر حلّه أو البتّ به وهو يحتمل نقاشاً ومحاججة. وإذا ما تركنا جانباً ثغرة لا يمكن تفسيرها(طالما إن المعلومات التاريخية تبدأ بكونها مرتبة ومنظمة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة فقط، فسيحتاج المرء إلى تفسير سبب ممارسة القرآن لتأثيره الحاسم في المرحلة الثانوية فقط)، مع ذلك تبقى مشكلة تلازم أو تبقى على مقربة من الوحي القرآني. فاهتمامات القرآن بشكل أساس هي اهتمامات أخلاقية، وإن وجهة نظره عن الماضي هي وجهة توجيهية ذرائعية وتعليمية. وهاهنا فإن التاريخ الكرونولوجي بتقسيم الزمن إلى حقب هو بحدِّ ذاته لا يؤدي دوراً مهماً، فالماضي قد أصبح راكد

وثابتاً، و أسطوانة فوتوغرافية a platter، تعرض عليه أو يقدّم دوماً خيارات ومجموعات أخلاقية للفرد• (وهو هكذا دائماً) فاهتمامات مثل هذه قد أعطت بالتأكيد قوة دافعة إلى ظهور وجهة نظر ضيقة عن الماضي، ولكنها ليست عن التدوين التاريخي المعقد أو عن الحقبة العباسية الأولى. والتوراة أيضاً تحضّ قراءها ومستمعيها على أن يتذكروا الأحداث مثل استعباد الإسرائيليين (ينظر التوراة سفر التثنية ٥/ ص١٥) غير أن هذه المقاطع بالكاد يمكنها أن تفسر طبيعة التدوين التاريخي بين اليهود والمسيحيين. فالمحاججة والجدل حول دور (أيام المعركة) تتماثل مع تلك بكونها مجهدة ومتكلفة، طالما أن المجاميع الأولى من هذه المرويات والقصص قد ظهرت جنباً إلى جنب، وفي بعض الأمثلة ظهرت بعدها فحسب، مع أمثلتنا المبكرة جداً للتاريخ.وهنا أيضاً ففي أي حدث فإن إدراكاً أو شعوراً منظوراً وواضحاً للتاريخ الكرونولوجي هو غائب ولا وجود له تماماً، فقد كانت هذه المرويات والقصص تحتفظ بقدر كبير من المادة والمعلومات القبلية والجغرافية، واعتمادا على بعضها بوسع المرء أن يستنتج سلسلة متعاقبة من المشاهد، ولكن تعاقبها يختلف اختلافاً كبيراً عما هو موجود في التاريخ الكرونولوجي، وأخيراً ماذا بشأن تأثير الحديث؟ حتى وإن اخترنا إهمال حقيقة أن ظهور الحديث أوبداية ظهوره هو غامض كالغموض الذي يواجهنا بشأن التدوين التاريخي، والظاهر إن المؤرخين المبكرين جداً قد تجاهلوا الكثير من قواعد النقل، تلك القواعد التي كان المحدّثون منشغلين بوضعها وبرسمها نظير وضع استخدام الإسناد. وكما رأينا بالفعل بأن معايير الحديث يبدو أنها قد فرضت على كتابة التاريخ في مرحلة ثانوية. وعلى الرغم من الاحتمال المؤكد بأن الحفظ أو الاختلاق المباح للمرويات قد أعدّ ليكون أساساً لقانون (شريعة) سرمدية لا

يبلى على كرور الأيام Timeless فضلاً عن كونه ثابتاً وغير قابل للتغيير وليس هنالك من دليل بأنها تتغير بالفعل[1].

قد تكون مصادر المؤرخ شفهية، إلا أن التفكير التاريخي- ولاسيما المنظم والمتماسك والذي ينقل الفكر التاريخي – إن هو إلا ظاهرة نصيّة أو تتعلق بالنصّ، وعلى هذا الأساس فإن هناك أملا ضعيفا في الوصول إليه أو إيجاده قبل تثبيت النصيّة. وكما عبّر عنه أحد مؤرخي التاريخ القديم "البيّنة من الماضي، والماضي هو المصدر لمجموعة من الصيغ لجذر معين Paradigms هو أحد الأشياء. فالتاريخ دراسة نظامية مصاغة في مجموعة من الأفكار، وكفرع من المعرفة، فهو شيء آخر". أي إن المؤرخين نظير أبو شامة (المتوفى ٦٦٠هـ / ١٢٦٧) قد ارتكزت مشاريعهم بشأن القرآن وسنّة النبي إذتحدثوا كثيراً جداً عن السلطة التقليدية الدينية أكثر من حديثهم عن الجذور أو الأصول الحقيقية للرواية[2].

ومن الطبيعي القول بأنه ليس هنالك من سبب يدعونا لأن نشك بما تلّمس وشعر به العلماء المسلمون للحقبة المبكرة جداً عن مجريات

---

[1] وعن تاريخ القرآن يوازن ما جاء به خالدي Kahalidi في كتابه المذكور آنفا (الفكر التاريخي العربي) ص ٨ وما بعدها من الصفحات؛ وكذلك ابوت N.Aboot في الدراسة الموسوم بـ باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(دراسات في ورق البردي عن الأدب العربي ج١ : نصوص تاريخية) المطبوع في شيكاغو ١٩٥٧ ص ٦ وما بعدها من الصفحات، مع دراسة Donner المذكور آنفا (مرويات عن أصول الإسلام) ص ٨٠ (وقد اتبعته في هذا الموقف)؛ ينظر أيضاً روزنثال: تاريخ المشار إليه آنفاص ٢٧ وما بعدها؛ كذلك برتلر M.Z.Brittler في الدراسة باللغة الإنجليزية (صنع أو خلق التاريخ في إسرائيل القدية) المطبوع في لندن – نيويورك ١٩٩٥) ص ١٣٦ وما بعدها؛ ينظر أيضاً استنتاجات (مير W.Meyer) في الدراسة باللغة الألمانية الموسومة بـ Der historische Gehalt der Aiyam al- arab المطبوع في فيسبادن Wiesbadou ١٩٧٠ لاسيا ص ٥.

[2] المؤرخ المختص في التاريخ القديم هو (فنلي M.I.Finley) في الدراسة باللغة الإنجليزية (الأسطورة، الذكرى والتاريخ) المنشور في كتابه الموسوم بـ(استعمال وإساءة استعمال التاريخ) المطبوع في لندن، إعادة طبع ١٩٩٠، ص ١٢؛ عن وجهات نظر أبو شامة ينظر كتابه (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) طبع القاهرة ١٩٥٦، ج١ ص ٢.

الأحداث التاريخية وواقعياً فإن جميع الأديان المؤسسة حول الوحي تجذّر نفسها في التاريخ. وفعلاً كان ما يبدو أن يكون في رسالة من أواخر القرن السابع/ الأول للهجرة، التي حفظت في مصادر متأخرة جداً، إذ لدينا عناصر من (إنقاذ وتخليص التاريخ من الخطيئة) وصارت هذه الفكرة مألوفة لدينا كثيراً في رواية القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين. كذلك ليس هنالك من سبب يدعونا إلى الشك في ان الكثير من غير المتعلمين ممن تلّمس مجريات هذه الأحداث التاريخية أيضاً، ويعيشون في عالم يوجد فيه من يذكرهم (المذّكرين) باستمرار عن الماضي، كل شيء من أهرامات وقبور الفراعنة إلى المسارح والحمامات الإغريقية والرومانية، إلى العصور الساسانية والكنائس البيزنطية وإلى أفراد الطبقة الحاكمة الفارسية وهم يتبخترون في مشيتهم ويلبسون ملابسهم الحريرية المزركشة إلى الرهبان الحالقي شعورهم والذين هم في ملابسهم الصوفية الرمادية المتسخة إلى أعمدة الرهبان والقساوسة الغريبة اللافتة للنظر بخرابها، وهم مقيمون على ارتفاع عال يبلغ ارتفاعه خمسين قدماً معلقاً في الهواء. وإلى أنصبة أو معالم تذكارية لإمبراطوريات في الماضي تلك التي كانت سميكة وثخينة كثيراً على أرضية آسيا الصغرى في القرن السابع الميلادي عمّا هي عليه الآن في القرن الواحد والعشرين. وواقعاً فإن المسلمين الأوائل المؤيدين للحكم الإمبراطوري كانوا متعلمين ويتعلمون بسرعة. فالمعالم التذكارية والنصب الباقية الآن، نظير قبة الصخرة في القدس، والبلاط أو القصر في الصحراء السورية، المعروف بقصير عمره، تحكي لنا أنه كان هناك وبحدود القرن السابع وأوائل القرن الثامن / القرنين الأول والثاني للهجرة كيان باسم الدولة الأموية التي بدأت تمثل نفسها كوريث للتوحيد وللماضي الهلنستي، كلاهما كان خاصّاً أو سراً وعلناً. وهكذا فمما يتفاخر به ويتباهى به أن قصير عمره يعدّ لوحة جصية

جدارية مذهلة جداً تمثل ستة ملوك، أربعة منهم بالإمكان تحديد هوياتهم بشكل سليم ومطمئن وهم: قيصر (بيزنطة) وخسرو – أي كسرىٰ -- (الساساني) ورود ريك (الفيسكوثي القوط الغربيين) ونيغوس (الحبشي). والأمر الذي يحثنا علىٰ مشاهدة هذه الإنتاجات الثقافية (الحضارية) البارعة أن بعض الأسلاف الذين يمثلون توليفة من تاريخ قبل الإسلام والأسطورة أو الخيال قد تكشف في النهاية دليلا في هذه التواريخ الجامعة والسير النبوية[1].

وهذا فليس هنالك من تساؤل بأن الكثير من المسلمين الأوائل كانوا يفكرون تفكيراً تاريخياً. غير أن هذا كله بالكاد يجعلهم مؤرخين أكثر من أنهم كانوا يحاولون تحديد أصول وجذور التفكير أو الفكر التاريخي في الحقب المظلمة والضبابية من القرن السابع والبداية المبكرة للقرن الثامن الميلاديين / الأول وبداية القرن الثاني للهجرة، ولعلنا نقوم بفحص وبحث تلك الخطط والمشاريع التاريخية التي اختيرت في نهاية القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين / نهاية القرن الثاني وأوائل القرن التاسع الهجريين، عندما ظهرت مؤلفات السيرة والطبقات البروسوغرافيا (علماً بأن تراجم الحياة أو سير الحياة ما زالت غير واضحة في هذه الحقبة وهي مترادفة مع مشروع الطبقات) وهما يسيران جنباً إلىٰ جنب مع التاريخ الحولي – أي في الوقت الذي أخذت

---

[1] وعن الرسالة في أواخر القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري ينظر فان آس J.Van Ass في بحثه باللغة الألمانية (عن كتاب الأرجاء للحسن بن محمد بن الحنفية) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica عدد ٤١ (١٩٧٤) ص ٢٠-٥٢؛ وهناك دراسة مؤثرة بشأن معلم تذكاري وتاريخي وهو للونثال D.Lowenthal بعنوان (الماضي في بلد أجنبي) المطبوع في كمبردج ١٩٨٥ وعن مناقشات وأوصاف الجدارية الجصية لقصير عمره ينظر جريبر O.Graber في بحثه (رسم أو صورة ستة ملوك في قصير عمره) المنشور في مجلة Ars Orientalis مجلد ١/ ١٩٥٤ ص ١٨٥ وما بعدها من الصفحات؛ والآن ينظر فاردن G.Faeden في دراسته باللغة الإنجليزية (إمبراطورية إلىٰ رابطة دول Commonwealth: نتائج عن التوحيدية في الحقبة القديمة المتأخرة)المطبوع في برنستون ١٩٩٣) ص ١٤٣ وما بعدها.

فيه الأفكار التاريخية البدائية والناقصة تتبلور لتتحول إلى صيغة أو شكل أدبي.

وعلى الرغم من أن المرء قد يتوقع بأن السيرة النبوية مدينة بدين بصورة غير مباشرة أو دين انعكاسي أو انكساري refracted نابض بالحياة والنشاط إلى الرواية المسيحية القديمة المتأخرة Antique في سير القديسين، لكن مع هذا ليس لدينا دليل واضح بخصوص ذلك. ومهما يكن ففيما يتعلق بسيرة الحياة المبكرة فإنها كانت السيرة النبوية، وأن أوائل الطبقات البروسوغرافيا كانت معنية ومهتمة بتدوين رواة الحديث. والمرء ربما يكون مفتوناً ومنجذباً إلى أنموذج أو مثال ذاتي ذلك الذي يحدّد حقبة لظهور السنة النبوية، التي احتفظ بها الرواة كالذي حدث بشأن الحديث الذي يمثل موقع المركز بين الصنفين. "وتكمن أصول أدب السيرة العربية في النقد الأدبي الموّجه إلى الحديث أو الرواية النبوية" كما عبّر عنه أحد العلماء بصراحة وكذلك بأدب ترجمة الحياة البايوغرافي فالعالم يقصد بذلك كل من السيرة النبوية والطبقات البروسوغرافيا وعلى أية حال، فإن هذه الإشكالية لها وجهان، الأول منهما: تتعلق بترجمة الحياة إذ لم تكن متعلقة حصراً بالسيرة النبوية؛ وسوف نأتي على ذكر بعض الأمثلة من سيرة حياة غير نبوية. وثانيهما، أن الطبقات البروسوغرافيا المبكر لم تكن هي الأخرى تتعلق برواة الحديث حصراً، ومن المنطقي افتراض أن اهتمامات مؤلفي الطبقات البروسوغرافيا حسبما يظهر من الأمثلة المبكرة جداً كواصل من عطاء – وكان فقيهاً عقلانياً – الذي يقع خارج نطاق الأحاديث، وهنا الذي يستحق الذكر أن المؤلف التالي للطبقات هو طبقات الشعراء ليزيد بن مبارك اليزيدي (المتوفى ٢٠٣هـ / ٨١٨م) كانت طبقات عن الشعراء أكثر من كونها عن المحدّثين أو الرواة. ولابد من ملاحظة أن كليهما يرجع تاريخه الى الحقبة التي كانت فيها السلطة

التشريعية للرسول، وكما نقلت عبر الحديث، لم تؤسس بعد بصورة واضحة، وفي الواقع فإن المرء ربما يتشكك أيضاً ـ في الأقل ـ بإن بعض هذه قد نشأت أو ظهرت على الرغم من عدم مبالاة وعدم أهمية المؤسسة الحديثية السنيّة آخذين بنظر الاعتباركيف أو إلى أي درجة كان تأليف موضوع ترجمة الحياة والسيرة الذاتية سيصبح شاقاً وعملا غير مصقول من بين صنوف غير المحدّثين وغير السنّة بصورة عامة[1].

ومع أن تخطيط الطبقات يظهر بكونه فريداً sul generis من نوعه، وفي بعض الوجوه لا يبدو أنه قريب الصلة بالمحادثة أو الشفهية أو التطبيق الإسلامي الذي يتجه نحو الرمز والشعار في إظهار الترابط في سلسلة النقل والرواية باتجاه الروايات التاريخية والشرعية أو الجائزة شرعاً. فإن نشوء وظهور السنّة النبوية لا يتسع ولا يوفر كلّ البيّنة والدليل ، وليس بوسعها تماماً أن يحسب لها حساب في مسألة ظهور كل من ترجمة الحياة ومن الطبقات البروسوغرافيا. لهذا فإن نشوء الكتابة عن ترجمة الحياة لابد من أن يكون لها علاقة ولو لبعض الشيء مع ظهور شخصية متميزة وفرد متميز في أواخر القرن الثامن والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث الهجريين أكثر مما هو الحال بظهور شخص بشخصية النبي، كما دوّنت أو اضمحلت الإنتسابات القبلية

[1] جئت بهذا الإقتباس من سبايس O.Spies في دراسته باللغة الألمانية (من تاريخ الأدب العربي Beitrage zur arabischen literaluurgeschichte المطبوع في لايبزوج ١٩٣٢ ص ١؛ وحول عنوانات الطبقات ينظر هفصي I.Hafsi في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (دراسات عن الطبقات في الأدب العربي للقرون الأولى والثانية والثالثة الهجرية) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica عدد ٢٣/ ١٩٧٦ ص ٢٢٧-٢٦٥؛ والمجلد ٢٤ من المجلة (١٩٧٧) ص ١-٤١، ومن صفحة ١٥٠-١٨٦؛ وينظر جورج مقدسي G.Makdisi في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(طبقات: شريعة أو قانون وتقليد قديم في الإسلام الكلاسيكي) المنشور في مجلة (IS) مجلد ٣٢/ ١٩٩٣، ص ٣٧١-٣٩٦، والبحثان قد عولجا وصححا من قبل روبنسون (مؤلف هذا الكتاب C.F.Robinson) في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم (المعافى بن عمران وإرهاصات أو بدايات أدب الطبقات) المنشور في مجلة JAOS مجلد ١١٦/ ١٩٩٦) ص ١١٤-١٢٠.

وذوت أهميتها نتيجة للاستقرار الحضري والانصهار في المجتمع الحضري بصورة عامة. في حين إن نشوء وظهور الطبقات البروسوغرافيا لابد من أنه مدين بقدر كبير الىٰ تنامي وتزايد الحرفية والاشتغال بالمهن أوأي إنتماء جمعي ل الحقبة نفسها التي أدّىٰ فيها رواة الحديث دوراً رئيساً ولكنه ليس بالدور الوحيد والواحدي فقط.

مسألة أو حالة التاريخ الكرونوغرافيا:

نقف الآن علىٰ أرض صلبة حينما نأتي إلىٰ مسألة ظهور التاريخ الكرونوغرافي. وبادئ ذي بدء، هناك سبب للإعتقاد بأن الصيغتين اللتين كانتا سائدتين – الكرونغرافية الخلافية – أي الخلافة والكرونغرافية الحولية [ويقصد المؤلف تاريخ الخلافة والتاريخ الحولي]- وقد ظهر تاريخ الخلافة أولاً، ولاسيما منذ ـ ما يبدو ـ أول مؤلف حوليّ مبكر جداً يظهر أنه قد استند الىٰ تواريخ نظّمت ورتّبت علىٰ وفق فترات حكم الخلفاء. وواقعياً مع ابن اسحاق؛ إذ لدينا تاريخ يفهم منه ظاهرياً بأنه تاريخ الخلفاء، وهو تاريخ قد سبق المؤرخ الحولي المبكر جداً الهيثم بن عدي بحوالي ستين سنة، وأبو معشر (المتوفىٰ) سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦ الذي ينسب إليه تاريخ آخر هو تاريخ الخلفاء، والذي سبق الهيثم بن عدي بحوالي أربعين سنة (والكتاب الأقدم جداً ضمن هذا النوع الأدبي يبدو أنه يرجع إلىٰ ابن ماجه (المتوفىٰ ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م). ومما له علاقة بهذين الضربين الأدبيين (تاريخ الخلافة والتاريخ الحولي) * وربما يوحي بأن المخطط والمشروع يلائم البيئة والمغزىٰ السياسي المبكر، عندما كانت السلطة سلطة الخلافة في أوجها. ولعله يمكن شرح وتفسير المخطط نفسه علىٰ أنه حالة من تضخم وتوسع قوائم أسماء وأشخاص الخلفاء، تلك

* يبدو أن (مهد الحياة Sitz in leben]مصطلح ألماني يستخدمه المؤلف [المترجم]

التي نعرفها من الرواية السريانية التي كانت متداولة في أواسط القرن الثامن الميلادي / الثاني الهجري؛ والتي يظهر الاستخدام الكثير لهذه الرواية المروية والمدروسة. وفي الواقع إن القوائم، قوائم الأسماء – ليس فيما يخص الخلفاء فحسب، ولكن أيضاً قوائم بأسماء الولاة، والقضاة والإداريين – يبدو أنها كانت متوافرة عند الأخباريين المتحمسين المبكرين جداً-- وواحدة منها قد ظلت باقية بشأن ظهور الصيغ الحولية أو الكتب الكثيرة الأجزاء أو التأليفية في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري[1].

مثل هذا الأنموذج والمثال – وهو قوائم بأسماء الخلفاء على وفق تواريخ عهود حكمهم – لعله يفسر ظهور تواريخ كرونوغرافية للخلافة في نهاية القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة. ولما كان تاريخ الخلافة الكرونغرافي يطرح صعوبات غير مناسبة ومربكة بالنسبة إلى الرواية، كما سنرى لاحقاً في الفصل الرابع، فإنه ليس من الصعب رؤية لماذا أو ما السبب في أن يؤدي ذلك إلى ظهور التاريخ الحولي الكرونغرافي كخيار جذّاب ومغري في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري؟. فإن كان المرء يميل بصورة مماثلة نحو تفسير ذاتي وداخلي أكثر من ميله إلى تفسير خارجي؛ فإن سبب ظهور التاريخ الحولي الكرونوغرافي؛ هو وجود مثال أو أنموذج يمكن اتّباعه، إن ظهور صيغة التأليف الأدبي (أي التاريخ الحوّلي – ذلك الذي أطلقت عليه الكرونوغرافيا الحولية) من المدّونات أو المرويات العامة المؤرخة

---

[1] وعن قوائم الأسماء ينظر الفصل الثاني آنفا، وعن المثال بالنسبة القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري ينظر كونرد G.Conrad في دراسته باللغة الألمانية (أبو الحسين الرازي ت ٣٤٧/ ٩٥٨).
Abu 'L-Husain al – Razi (347-958) und seine schriften: Unter suchungen zur fruhten damas zener Geschichtsschreibung
المطبوع في شتوتغارت Stuttgart ١٩٩١ ص٢٣ وما بعدها، كذلك ينظر Donner في دراسته بالإنجليزية (مرويات عن أصول أو جذور الإسلام) ص ١٨٢ وما بعدها من الصفحات؛ وقد طبع تاريخ الخلفاء لابن ماجه في بيروت ١٩٧٩.

بشكل منتظم (ونقصد بها اليوميات أو الملاحظات التي تدوّن يومياً). وفي هذين الاثنين، فإن حفظ اليوميات هي الصيغة الأكثر واعدة، وليس هناك من دليل وبيّنة واضحة على وجود حوليات مدنية أو إمبراطورية في الإسلام المبكر تماهي قوائم البابوية Labulae pontificum في روما في القرن الثالث قبل الميلاد، كذلك ليس لدينا أي مؤشر واضح (فيما يتعلق بهذا الموضوع) لمدونات المدينة تلك التي تبدو بأنها تخفي وراءها نشوء وظهور الرواية السريانية. ولسوء الحظ، فإن تطبيق وممارسة اليوميات في هذه الحقبة يحتاج إلى قدر كبير من البحث[1].

هناك كثير من الجدل بشأن التفسير الداخلي أو الذاتي. والمؤرخون الآخرون قد افترضوا أن المؤرخين المسلمين المبكرين جداً كانوا على إطلاع

[1] وعن التاريخ أو التوقيت النسبي لتاريخ الخلافة أو التاريخ الحولي ينظر (المؤلف) روبنسون C.F.Robinson في بحثه (دراسة التدوين التاريخي الإسلامي: رواية متقدمة) المنشور باللغة الإنجليزية في مجلة JRAS (السنة الثالثة مجلد ٧ (١٩٩٧) ص٢٢٢ وما بعدها من الصفحات، وعن السنوات أو الحوليات والتاريخ في الرواية المسيحية ينظر كروك B.Croke في بحثه باللغة الإنجليزية (جذور الكرونولوجي المسيحي) المنشور في الكتاب الذي حققه كروك Crok.B وايميت A.M.Emmet الموسوم بـ(التاريخ والتدوين التاريخي في العصر القديم المتأخر) المنشور في سدني Sydeny ١٩٨٣) ص ١١٧ وما بعدها من الصفحات، والذي أعيد طبعه في كتاب ل المؤلف نفسه بعنوان (الحوليات المسيحية والتاريخ البيزنطي في القرنين الخامس والسادس الميلاديين) والمطبوع في لندن ١٩٩٢، وللمؤلف كتاب آخر بعنوان (حوليات المدن في العصر القديم المتأخر) المنشور في الكتاب الذي حققه كلارك G.Clarke وآخرون الموسوم بـ (قرّاء الماضي في العصر القديم المتأخر) المطبوع في سدني ١٩٩٠، ص ١٦٥-٢٠٣، والذي أعيد طبعه أيضاً في كتاب (الحوليات المسيحية)؛ وعن جذور أو أصول كتابة السريان التاريخية في الحوليات المحلية ينظر ونكسفسكي W.Witakowski في كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التاريخ الحولي السرياني للمزيف Pseduo ديونيجسوس Diongsiusالتلمحري: دراسة في تاريخ التدوين التاريخي) المطبوع في ابسالا Uppsala ١٩٨٧ ص ٧٧؛ وعن الجدل لصالح دور اليوميات Diary في ظهور الرواية الإسلامية المبكرة ينظر جورج مقدسي Makdisi في بحثه باللغة الإنجليزية (اليوميات في التدوين التاريخي الإسلامي: بعض الملاحظات) المنشور في مجلة التاريخ والنظرية مجلد ٢٥ لسنة ١٩٨٦ ص ١٧٣-١٨٥؛ وعن الجدل حول دور اليوميات في الرواية الإسلامية المتأخرة كثيراً ينظر كوك M.Cook في بحثه باللغة الإنجليزية (مؤرخو نجد قبل الحقبة الوهابية) المنشور في مجلة (SI) مجلد ٧٦/ ١٩٩٢ ص ١٦٥ وما بعدها من الصفحات.

جيد بصيغ التدوين التاريخي، وكانت هذه الصيغ مألوفة عندهم وذلك من الحوليات غير الإسلامية، ولأنه ليس هنالك من بينة جيدة وسليمة ومقنعة بشأن تبادل الأفكار في مسألة التدوين التاريخي فيما بين المسلمين و المسيحيين واليهود إبّان القرنين الثامن والتاسع الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين، غير أن المصادر الإسلامية من القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري تذهب إلى أنهم مدينون للتواريخ المسيحية بشكل صريح. ولدينا وفضلا عن ذلك حالة مثيرة وهي حالة أوروسيوس Orosius في تاريخه (تاريخ الوثنيين الأعداء Historia adversus paganos•، الذي ترجم إلى اللغة العربية في أسبانيا في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري. فهل يحتمل أن الرواية الوليدة والناشئة، وهي تتطور وتنمو باتجاه إيجاد أجوبة عن مسألة التاريخ الكرونوغرافي بنفسها، ربما قد اعتمدت على خطط ومشاريع غير إسلامية تلك التي كانت متداولة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين[1]؟

• [ترجمة الكتاب التقريبية هي من المترجم]

(1) حول مديونية رواية التدوين التاريخي، قارن الدوري: ظهور الكتابة التاريخية (المشار إليه آنفاً) ص ٦٠ (الترجمات من اللغة الإغريقية إلى السريانية لا تحتوي على شيء مباشر، وإن التدوين التاريخي الإغريقي والسرياني (ليس له أي تأثير على الكتابة التاريخية) وينظر ردتكه B.Radtke في البحث الموسوم بـ(باتجاه تبولوجي الحوليات عباسية جامعة) المنشور في Occasional Papers of the School of Abbasid studies مجلد ٣/ ١٩٩١ ص ١٢ (والأحسن بوسع المرء التحدث عن التطورات الموجودة أو المتزامنة والمؤثرات غير الواضحة أو المبهمة) عند روزنثال في كتاب التاريخ المشار إليه ص ٧١ وما بعدها من الصفحات (حيث يجد المرء الكثير من الأدلة الاستدلالية عن الاقتباس أو الإعارة، التي نعد من اكثر الأشياء التي يتمناها بالنسبة إلى الظروف)؛ ينظر أيضاً فان ستيرس Van Seters في كتابه المشار إليه (في البحث عن التاريخ) ص ٨١؛ كلمة Spectaculau هي كلمة H.Busse في كتابه باللغة الألمانية (التدوين التاريخي والتدوين التاريخي العربي) المنشور في الكتاب الذي حققه H.Gatje باللغة الألمانية الموسوم بـ Grundrib der Arabischen philplogie, Band: Literaturwissenschaft المطبوع في فيسبادن ١٩٨٧، ص ٢٧٠ حيث يذكر ليفي ديللا فيدا G.Levi Della Vida في الدراسة باللغة الإيطالية الموسومة بـ La traduzione araba della storie di orosio

من المؤكد أن المسلمين قد صدّروا كلًّا من المعلومات أو المادة التاريخية وصيغ التدوين التاريخي. فمثلاً نحن نعلم أن الحاخامات الربانيين rabbis اليهود قد اختاروا واتّخذوا مخطط أو مشروع الطبقات بنسخة إسلامية مطابقة، وكذلك كان المسيحيون على صلات حسنة مثال ثيوفيلوس الحمصي- الأديسي من (أديسا) Theophilus of Edessa الفلكي الملكي كان يعمل للخليفة المهدي (حكم بين ١٥٨هـ / ٧٧٥- ١٦٩هـ / ٧٨٥) وقد كتب هذا تاريخا اعتمد فيه على المعلومات الإسلامية، من بين مصادر وأمور أخرى. وواقعاً فإن ثيوفيليوس كان على مقربة من بداية سلسلة المنجمين المسيحيين واليهود، أولئك الذين لقوا حظوة في بلاطات الخلفاء فكانوا مستوردين ذوي منزلة رفيعة لما تعصب وتحمس له الساسانيون بالنسبة الى تاريخ علم النجوم، والإشارات بل العلامات المبكرة جداً لمثل هذا التحمس والتعصب ظلت باقية وحيّة منذ أواسط القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة. غير أن رسم السماء أو خارطة النجوم التي كان يستعملها المنجمون للكشف عن خارطة البروجhoroscopes ربما قد رتّبت أو نظّمت للخلفاء في أواخر القرن السابع الميلادي / الأول الهجري. وبوسعنا أن نرى في الكثير من الأحايين كيف أن تاريخ التنجيم الساساني قد صار مشابهاً أو يتماهى مع التاريخ الكرونوغرافي / الحولي/ الإسلامي، ومثل هذه الحال عندما نظمت ورتبت مصنفات أو مجموعات من رسوم أو خرائط النجوم في القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة كانت على وفق أنظمة متباينة ومختلفة قد أدخلت من أجل جعلها منسجمة وتواريخ الخلافة في القرن

المنشور في مجلة الأندلس مجلد ١٩/ ١٩٥٤ ص ٢٥٧-٢٩٣؛ وعن دليل من القرن الثامن الميلادي حول اعتماد المسيحيين على الروايات الإسلامية ينظر وولف K.B.Wolf في دراسة باللغة الإنجليزية (الفاتحون والمؤرخون الحوليون لإسبانيا في العصر الوسيط المبكر) المطبوع في ليفربول Liverpool طبعة ثانية ١٩٩٩، ص ٢٧.

التاسع الميلادي/ الثالث للهجرة. وفضلاً عن ذلك، نحن نعرف أن الساسانيين قد انتجوا رواية محترمة في الحوليات (وهذه يذكرها كتّاب الإغريق في القرن السادس الميلادي). وربما قد ترجم بعضها إلى اللغة العربية بالفعل إبّان خلافة هشام بن عبد الملك (حكم بين سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤ إلى ١١٦هـ / ٧٤٣م). وهناك رأي بأن رواية التدوين التاريخي الفارسي، كان مركزها الأساس الملك، وهذا أيضاً لعله أثّر على المثال أو الأنموذج الملكي للتاريخ الحولي / الكرونوغرافي الإسلامي[1].

وحالة أخرى بوسعنا وضعها إلى الجانب المسيحي. إذ لدينا روايات وأخبار بأن تواريخ برواية إيسوبنية Eusebian قد ترجمت إلى اللغة العربية خلال عهد المنصور (حكم من سنة ١٣٧/ ٧٥٤ إلى سنة ١٥٨/ ٧٧٥) ويظهر من خلالها أن نصاً إسلامياً خاصّاً بسفر الرؤيا أو خاصاً برؤيا يحتمل Apocalyptic قد كتب حوالي سنة ١٦٤هـ / ٧٨٠م وهو في

---

[1] عن تبني الحاخامات rabbis لمخطط الطبقات ينظر ابراهام بن داود في كتابه باللغة الإنجليزية (كتاب الروايات Sefer ha- qabbalah الذي حققه وترجمه كوهين G.D.Cohen (وطبع في فيلادلفيا ١٩٦٧) ولاسيما صفحات (li) أي صفحة٥١. والصفحات التي تعقبها؛ وقد حصل المسلمون على الرواية التاريخية الفارسية بشكل واضح وخاص في حاله كتاب المسعودي التنبيه والإشراف (طبعة ليدن ١٨٩٣) ص ١٠٦ (عندما شاهد المؤلف في مدينة اصطخر كتاب أو مجلد ضخم كان يغطي العلوم والتاريخ والطوبوغرافي والسياسة) وبصورة عامة جداً ينظر شبول Shboul في دراسته (المسعودي وعالمه) المشار إليه آنفاً ص ١٠٢ وما يليها من الصفحات؛ وكذلك ميسمي J.S.Meisami في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(التدوين التاريخي الفارسي حتى نهاية القرن الثاني عشر) المطبوع في أدنبره ١٩٩٩م ص ٩؛ وعن دليل مبكر حول دور الخليفة المهدي ينظر بروك S.P.Brock في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (رسالتان للبطريرك تيموثي Timothy من أواخر القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة حول الترجمة من الإغريقية) المنشور في العلوم العربية والفلسفة مجلد ٩/ ١٩٩٩ ص ٢٣٣-٢٤٦؛ وكذلك بالنسبة إلى تاريخ الفلك ينظر بنغري D.Pingree في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(رسم السماء أو خريطة البروج التاريخية) المنشور في مجلة JAOS مجلد ٨٢/ ١٩٦٢ ص ٤٨٧-٥٠٢؛ كذلك شتيرن S.Stern في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ(كرونوغرافي أبو عيسى من المنجم) المنشور في الكتاب الذي حققه شتيرن S.Stern وآخرون الموسوم بـ (الفلسفة الإسلامية والرواية الكلاسيكية) المطبوع في اكسفورد ١٩٧٢ ص ٤٣٧-٤٦٦.

واقعه تجديد أو تصحيح وترجمة لرواية مسيحية كتبت في سوريا. أما الحال بالنسبة إلى أثر البيزنطيين (الإغريق) فقد كان أضعف من ذلك بالنسبة الى المجموعة السريانية المتنوعة، ولاسيما لأن الكتابة التاريخية البيزنطية يظهر أنها قد انتقلت من حالة تاريخ الكرونوغرافي خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين / الأول والثاني الهجريين باتجاه صيغ وأشكال أخرى نظير سير حياة القديسين .Saints Lives وكذلك فإن التأثير والأثر قد ضعف بسبب المظهر أو الهيأة الجغرافية للرواية الإسلامية المبكرة. وبما أن الأثر أو التأثير الإغريقي على مؤلفي التاريخ الكرونغرافي / الحولي كان حاسماً، فربما نتوقع أن هؤلاء المؤلفين قد مارسوا تأُثيراً كبيراً في سوريا، وأن المسلمين السوريين ربما أظهروا براعة وتقدّماً على زملائهم العراقيين. ومهما يكن فإن الحال على الضدّ تماماً. فسوريا الإسلامية في الحقبة المبكرة قد أنتجت بالفعل شيئاً من التدوين التاريخي، وقد ظهر الكثير منه إلى النور حديثاً، لكن ذلك لا يمكن موازنته بالإنتاج العراقي"[1].

وباختصار هناك دليل معقول ومقبول عن التطور في قائمة أسماء الخلفاء إلى تاريخ الخلافة وكذلك عن التأثير أو الأثر غير الإسلامي بشأن ظهور التاريخ الحولي الكرونغرافي، ولعل الأفكار بشأن التدوين التاريخي قد اجتازت على الظهر والكتفين* في المواصلات أو النقل البطيء والثقيل

---

[1] وفيما يتعلق بسفر الرؤيا ينظر كوك M.Cook في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(التاريخ الحولي الإسلامي المبكر للرؤيا النبوئية) المنشور في مجلة JNES مجلد ٥٢/ ١٩٩٣ ص ٢٥-٢٩؛ وكذلك بحثه الآخر (الدولة الهرقلية في الإيمان بالأخرويات الإسلامية) المنشور مجلة القنطرة مجلد ١٣/ ١٩٩٢ ص ٣-٢٣؛ وفي حالة ووضع التدوين التاريخي البيزنطي ينظر (ويتبي m.Whitby) في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(الكتابة التاريخية الإغريقية بعد بروكوبيوس Procopius: تنوع وحيوية أو تنوع ونشاط) المنشور في كتاب المحققات Cameron and Conrad الكتاب في الإنجليزية الموسوم بـ(البيزنطيون والشرق الأدنى الإسلامي المبكر الجزء الأول ص ٢٥-٨٠.

* [وهو ترجمة لهذا المصطلح piggy back المترجم]

للتعليم والمعرفة الساسانية – المسيحية، تلك التي بدأت تتدفق نحو بلاطات وقصور الخلافة في القرن الثامن / الثاني للهجرة. وإن الأخير هو الذي ربما كنا نتوقع منه ذلك بطريقة أخرىٰ، فمرويات التدوين التاريخي الأخرىٰ قد تنعم أو تتمتع بقفزات مفاجئة Jump-startsوبالضبط الطريقة بنفسها ، ومع ذلك، فإنها لم تكن مجرد غنيمة أو ريع ضرائب، وقعت بأيدي المسلمين الأوائل، ولكنه ذلك الأثر المتراكم من عدة مرويات للتدوين التاريخي في الشرق الأدنىٰ، الذي كانت فيه الإسهامات المسيحية واليهودية الودائع الأكثر حداثة بكثير. وهذا ما اعتاد علىٰ تسميته الإقتباس والإستعارة borrowing الذي كان في إحدىٰ المرّات مصطلحاً محترماً، واتّخذ الآن بشكل مستمر ـ كثيراً ـ ليدلّ ضمناً ويلمح إلىٰ المسلمين الذين كانوا يفتقرون إلىٰ أفكار نابعة من عندهم، فقد اضطروا إلىٰ الوصول إلىٰ خارج حدود رواياتهم، أو حتىٰ أسوأ من ذلك، بأنهم كانوا لم يكونوا أكثر من متلقين مستسلمين للأفكار الأجنبية. وهذا هو تماماً الفهم الخاطئ للأشياء. الواضح، أننا لا نتعامل ولا ندرس هنا موضوع الاقتباس (أو الإعارة) بالمعنىٰ نفسه الذي يشابه قولنا إنني استعير سيارة جيراني التي أتوقع أن أعيدها ثانية إليه، أو أن استعير كوباً من الشكر الذي سوف يتركني ملتزماً بأن أردّه إليه فيما بعد أو إلىٰ تبادل العواطف بالمثل – فالمسلمون وغير المسلمين كانوا جيراناً ببيوت متجاورة وممتلكات مستقلة ومنفصلة-- فهم ربما كانوا في نزاعات وخلافات حول مسائل كبيرة وصغيرة، ولنقل إنهم كانوا دوماً يتفاعلون بنوع من تكافلية وتعايشية متآلفة ومتناسقة. وهذه الجوانب قد ترجع أو تمتد الىٰ فترات بعيدة جداً. ومع ذلك، فالمسيحيون واليهود والمسلمون والزرادشتيون (أنني آخذ بنظر الاعتبار هنا أو أدخل في الحساب هنا فقط أولئك الذين قدّموا إسهامات حقيقية وقوية إلىٰ ثقافة التعليم والمعرفة والذين عاشوا في عالم للنصوص والكتب المقدسة

المشتركة. وقد كانت هذه الحال بالفعل قائمة في القديم وفي الحقبة التكوينية، قبل أن ينتج المسلمون أنفسهم رواية متميزة وخاصة بهم. كان المسيحيون يكتبون التاريخ السرياني جزئياً استناداً إلى المصادر الإسلامية، وكانوا في بعض الأحيان يستخدمون التاريخ الهجري أيضاً وتابع المؤرخون الإغريق المؤرخين السريان في الكتابة اعتماداً على الأنموذج أو المثال اليوسيبني Eusebian، وكما رأينا بالفعل أن اليهود قد انتحلوا رمز التنوع الأدبي من الطبقات الإسلامية. فإن كانت المرويات الموقّرة أو المبجّلة ممكن استعارتها واقتباسها بهذه الوسائل، فلمّ لم تكن هذه القفزات أو الوثبات المفاجئة ربما لأغراض جدلية بشكل خاص؟ فإن كانت ثقافة العراق في الحقبة الإسلامية المبكرة شيئاً ما، فإنها كانت ثقافة عالمية كوزموبوليتانية وغير محلية أو غير انتقائية[1].

---

[1] المؤرخ اليوناني ثيوفانس Thophanes حسب ما تابعته من مانحو C.Mango في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ(رواية التاريخ الحولي البيزنطي) المنشور في دراسات هارفر الأوكرانية Harvard Ukrainian stadies مجلد ١٢-١٣ (١٩٨٨-١٩٨٩) ص ٣٦٩؛ وعن وجهة النظر بأن الإسناد ربما يكون ذا أصول حاخامية abbinic وعبرية متأخرة، ينظر Cook في بحثه بالإنجليزية (أعداء أو معارضو تدوين الحديث أو الرواية في الإسلام المبكر) ص ٥٠٨ وما بعدها من الصفحات.

النتائج:

فإعادة مباني علم التاريخ أو التدوين التاريخي الإسلامي المبكر ذلك الذي وصفناه في آنفا إنما يقصد منه وضع الأسس لمفهومية علم التاريخ الإسلامي أو التدوين التاريخي الإسلامي المتأخر، ذلك الذي سوف نتحول للحديث عنه الآن. مع إنه كان له نتائج واضحة وبيّنة في فهم التاريخ الإسلامي المبكر، ولهذا فلعله من المهم تفسير وشرح ـ بالضبط وعلىٰ وجه الدقة ـ ما تلك النتائج؟ ولأن أسئلة بخصوص موثوقية وصدقية الرواية المبكرة (وعلىٰ ولاسيما السيرة) قد تمّ إثارتها في وقت أبكر في العشرينيات للقرن العشرين، وإن علماء منذ حقبة كانوا يشكّون بشأن سيف بن عمر، لكن تحولاً حاداً إزاء الشكّية قد أتخذ في السبعينيات والثمانينيات. ومنذ ذلك الحين، فإن الإجماع حول الكيفية التي أعيد فيها بناء هذه الحقبة – وواقعاً، بشأن التوقع أن بالإمكان إعادة البناء في أي تفصيل حقيقي – قد أخفق بالمرة تقريباً، فكانت النتيجة فإنه قد تم نسبيا كتابة التاريخ خلال القرنين السابع وأوائل الثامن الميلاديين/ الأول وأوائل القرن الثاني الهجريين علىٰ مدىٰ الـ ٢٥ خمس وعشرين سنة الأخيرة أو ما يقارب ذلك.

وليس هنالك من طريقة أو وسيلة حول حقيقة أن ما نعرفه عن رواية القرن الثامن وأكثر القرن التاسع الميلاديين يتألف، بما يرىٰ المؤلفون والمراجع المتأخرة وما يعتقدون بأنه يستحق الجمع والمحافظة عليه. وإن بعض هذه المرجعيات أو المؤلفين المتأخرين ممن ينتمي إلىٰ أجيال جاءت بعد ذلك مباشرة، غير أن مؤلفين آخرين ممن ينتمي إلىٰ حقب متأخرة جداً، حتىٰ وإن كانوا من القرون الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر الميلادية/

السابعة والثامنة والتاسعة للهجرة.عندئذٍ وبالنتيجة نجد أنفسنا على بعدين من الأحداث المبكرة نفسها، في تدوين تاريخي توقيتي (decalage) لأكثر ضرب في التدوين الذي أفقده معرفة هويته. والحق فإن الثغرة بين الحدث والتدوين في الإسلام المبكر ضبط نسبياً موازنة بمصدر معلوماتنا عن الإسرائيليين القدامى تلك المعلومات التي عادة ما تؤرخ في عدة قرون بعد الحقائق التي تم الاعتقاد بأنها تتعلق بها ؛ وحقيقي أيضاً أن المصادر غير الإسلامية التي في متناول أيدينا أو التي في حوزتنا هي معلومات موّثقة أكثر بكثير بما يخصّ تاريخ الإسلام المبكر جداً عما هو الحال بالنسبة إلى ما قدمته المصادر المسيحية بشأن المسيح وحركته[1]. ولهذه الأسباب وغيرها، فإنه من غير المحتمل جداً إن تيار الشكّية ذلك الذي جرف ومحى الدراسات الإسلامية المبكرة سوف ينهض أو يعود إلى الظهور في أي وقت وبشكل أعلى

---

[1] وعن التاريخ الإسرائيلي ينظر عرض بروفان I.Provan المنشور باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(نهاية التاريخ الإسرائيلي؟)المنشور في مجلة (JSS) مجلد ٤٢ (١٩٩٧) ص ٢٨٣-٣٠٠؛ وعن المصادر غير المسيحية عن اليسوع ينظر فان فورست R.E.Van Voorst في دراسته بالإنجليزية (اليسوع خارج العهد الجديد: مقدمة إلى دليل القديم) المطبوع في Grand Rapids ٢٠٠٠) وقد استعرت تعبير decalage من شابي J.Chabbi في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم بـ(تمثيل أو تقديم الماضي من القرون الأولى للتدوين التاريخي الخلافي)
La repress sentation the du passé aux premiers ages de L'Historiaqraphie califale
المنشور في الكتاب الذي حققه كل من كوريل R.Curiel وجيسلين R:Gyselen باللغة الفرنسية الموسوم بـ
Itinerares d'Qrient – hommages a Claud Cahen
المنشور في Bures – sur- Yvetle سنة ١٩٩٤؛ Res Orientales vi ص٢٥؛ المؤرخ الاستفزازي هو هوارد – جونستون J.Howard- Johnston في ترجمته لسبيوس Sebeos في دراسته (التاريخ الارمني المنسوب إلى سيبيوس) ترجمة ثومسون R.W.Thomson مع تعقيب كتبه هوارد – جونستون) المطبوع في ليفربول ١٩٩٩، الجزء ٢ ص ٢٤٣؛ والمناقشة حول عن طمس أو إزالة المعلومات التاريخية الموثوقة لم تعدّ إعداداً جيداً كما فعله كونرد L.I.Conrad في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ (فتح ارواد: دراسة نقدية لمصدر في التدوين التاريخي للشرق الأدنى الوسيط) المنشور في الكتاب الذي حققه كونرد L.I.Conrad وكاميرون A.Cameron الموسوم بـ (البيزنطيون والشرق الأدنى الإسلامي المبكر الجزء الأول، صعوبات ومشاكل في مصدر المعلومات الأدبي) المنشور في برنستون ١٩٩٢، ص ٣١٧-٣٤٠.

مما كان عليه وإلى الحدِّ الذي تمحى فيه سمات محمد وصورته أو تجرف. وهكذا قيل، إن فقدان طبقات الرواية الأولى ليست أقل من كارثة، وبكلمات استفزازية ومثيرة قالها أحد المؤرخين " إن قصور وفشل التدوين التاريخي كان في نطاقه الواسع جداً الذي نتصوره، ولولا وجود القرآن وحفنة قليلة من الاستثناءات فإن المؤرخين المحدثين قد سلبوا من أي دليل أدبي فعلي وعملي ذلك الذي ألّف ونظّم بحدود الذاكرة السوية والفطرية للفترات الكبرى في تاريخ الإسلام المبكر"، دعوة محمد بين المشركين في مكة، ثم انتقاله إلى المدينة، تلك التي تأسس فيها مجتمعه ومنها تابع بالحرب حتى النهاية ضد المعارضة المكية، وعن الصراعات والنزاعات بشأن مسألة التعاقب النكدfractious والحروب الأهلية في القرن السابع الميلادي/ الأول للهجرة ؛ وكذلك عن الظهور البطيء لحركة ثورية في المشرق، وعن التدهور الشديد الإنحدار لجيوش الأمويين أمام جيوش العباسيين في سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م إلى ١٣٣هـ / ٧٥٠م. ومن الطبيعي فإن ما نذكره هو المنظور فحسب. فيا حبذا لو عرفنا شيئاً عن الجانب الدنيوي، أو عن خلفية الضوضاء أو الضجيج ضدّ الذي ربما نحتكم إليه ونكوّن رأياً عن جميع هذا التبدل أو التغير الصاخب فكيف يحدث أن الرعاة الوثنيين، قد قفزوا على جميع الفرص حالما اعتنقوا الإسلام ، ومناقشة العمليات الصعبة والعقبات في قضية الاستقرار والإقامة في المساكن والتمثل والإستقرار والاستيعاب؛ وكيف تحولت المستوطنات العسكرية إلى مدن مزدهرة، وكيف كفلت وضمنت النخب الإجتماعية؟ وكيف حافظت هذه النخب على منزلتها أو وضعيتها الشرعية أو كيف فقدت ذلك وخسرته وسط جميع هذا التغير؟ فهذه وغيرها والكثير من الأسئلة الأخرى التي تقدم لنا النصوص أجوبة عنها، ولكنها هي تقوم بذلك بمثل هذا البعد الجغرافي والثقافي والزمني من

الأحداث التي نحن بصددها، فهي أبعد من أن تكون مصادر أساس، إنها تشكل في الواقع مصادر ثانوية أو حتىٰ في المرتبة الثالثة من حيث زمانها، تلك التي تقف بشكل مشكوك فيه علىٰ أسس غير ثابتة من الرواية الشفوية، وهي الرواية التي في كثير من الأحيان تحدثنا الكثير عن تاريخ تأليفها أكثر من حديثها عن الأحداث التي زعمت أنها ترتبط بها. والمدهش قليلاً إن قدراً كبيراً من البحث العلمي الحديث يهتم كثيراً بالتساؤلات عن التدوين التاريخي – فهل بالوسع تحديد هوية المعلومات المبكرة ضمن هذه المجموعة الكاملة المتأخرة؟ - بقدر ما هو عليه الأمر في التاريخ الفعلي الواقعي، بما يفترض أن تظهره الرواية، وهذا الكتاب وثيق الصلة بهذه الحال.

لهذا فما قد ضمنا عند الهيثم بن عدي، رابطة أو صلة بين العالم المفقود للقرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة، وبين المصادر المتوافرة التي بقيت حيّة من أواخر القرن التاسع والقرن العاشر الميلاديين / أواخر القرن الثالث والقرن الرابع الهجريين، ومن خلالها بإمكاننا إعادة مباني تاريخ الأمويين بشكل معقول ومقبول وحتىٰ تاريخ ما قبل الأمويين وبشيء من التفصيل. والآن فنحن لسنا متأكدين، فما الذي نعنيه بأن مصادر معلوماتنا التي تطورت ونمت بمثل هذا النمط المتقطع وغير المتواصل، وأن تلك المؤلفات المعزولة أو المنعزلة والمعادة في بنائها بصيغتها الأصلية والموثوقة والجديرة بالاعتمادة والقبول هي بشكل مؤكد تقريباً وهمية وخيالية؟ فمن المحتمل أننا لا نعرف إلا القليل عما كنّا نعتقد بأننا نعرفه عن التاريخ الإجتماعي والديني للقرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، ولكن من المؤكد أننا نعرف الكثير جداً عن كيفية معالجة المسلمين وتدابيرهم لتاريخهم في القرنين الثاني والثالث، وما كانوا يعتقدون بشأنه. وعلىٰ الرغم من أن ترجمة متبصرة للتدوين التاريخي إلىٰ علم ومعرفة تاريخية إيجابية، وكون ذلك حسب

رأي البعض ـ عمل بسيط وساذج ـ فليس هنالك من إشارات ودلائل ضمن حقل التاريخ الإسلامي الكلاسيكي لهذا ،فمثل هذا المشروع سيهمل أو سيتخلىٰ عنه في أي وقت قريب، وتقريباً فإن جميع أهل الخبرة ما زالوا يؤمنون ويعتقدون بأن مصادرنا تشير إلىٰ ماضٍ من الممكن إعادة بنائه[1] وفي هذا المجال، فإن الدراسات الإسلامية الكلاسيكية القديمة ـ لحسن الحظ ـ ما زالت باقية حرّة ومطلقة نسبياً في المناظرات المزعجة والنكدة التي تثار وتحتدّ علىٰ نحو مألوف في حقول المعرفة الأخرىٰ، التي يجسّم فيها المؤرخون الإيجابيون – أي أولئك الذين يعتقدون بأن مصادرنا تشكل مرجعيات عن ماض – خلافاتهم مع منتقديهم سواء أكانوا هؤلاء "ضد مزاعم" الذين يعتقدون بأن الموضوع ليس كذلك أي أن هذه المصادر لا تشكل مرجعيات عن ماض، أم بطريقة أخرىٰ فإن المؤرخين ما بعد الحديث ممن يعتقد بأن جميع حالات الاحتجاج هي المهيمنة بشكل جوهري وأساس. فالمناقشة والمناظرة عن التحولات التي طرأت علىٰ الدراسات الإسلامية لا تدور كثيراً حول المسألة أو حول الخلاف الفلسفي، أي فيما إذا كان التاريخ معروفاً، ولكن الأهم هو كم بوسعنا استرداده من المدة المبكرة جداً، ثم كيف لنا أن البحث من أجل عمل كهذا. فإعادة المباني الذي قدمته لحدِّ الآن سيعدّ شكّياً علىٰ وجه خاص وبإفراط من قبل أولئك الذين يستبقون أو يولون ثقة تامة وإلىٰ قدر كبير علىٰ الإسناد في التمييز بين الأصالة في الرواية المبكرة وبين غيرها،

---

[1] وعن الكتب الثلاثة المختلفة تماماً والمؤثرة تماماً ينظر نوث A.Noth في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ
Quetlenkritische studien zu Themen, Formen und Tendeczen frahislamischer Geschichtsaber Lieferyng
المطبوع في بون ١٩٧٤ (نوث Nothوكونرد Conrad في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الرواية التاريخية العربية المبكرة)؛ ينظر كرون P.Crone وكوك M.Cook في دراستها (الهجرية: صنع العالم الإسلامي) المطبوع في كمبردج ١٩٧٧؛ وينظر أيضاً وونسبورو J.Wansbrough في دراسته باللغة الإنجليزية (دراسات قرآنية: مصادر ومناهج أو طرق تفسير الكتاب المقدس) المطبوع في لندن ١٩٧٧.

وأولئك الذين على وفق ذلك يقدّمون سلسلة من البيّنات والدلائل الإيجابية فالكتابة قد ظهرت بالفعل مبكراً والأشخاص البارزين المبكرة كانوا مؤلفين (وفي كثير من الأحيان كانوا مؤرخين حقيقيين أيضاً)؛ وقد نقل كتابهم أو عملهم بشكل أمين وسليم عبر سلسلة الأسانيد؛ ولهذا فبوسعنا استرداد أصول التاريخ الإسلامي أو الإسلام بحالة من التفصيل الدقيق.وينبغي أن يكون واضحاً الآن بأن اولئك الذين لم يشاطروا أو لم يشاركوا في هذه الثقة التامة بنظام الأسناد فهم بصورة عامة ينكرون وجود جميع تلك الإثباتات والبيّنات، وهم يجادلون بأن القرن الأول أو ما شاكله بالامكان استرداده فقط بالقدر الذي يمكننا فيه استخدام مجموعة متنوعة من المصادر إسلامية أو غير إسلامية، أدبية معنوية أو مادية. فمن أجل إدراك سمة الإدارة الأموية مثلاً على المرء أن يعمل أكثر من أن يقرأ في روايات وبيانات عن الحقبة العباسية وكيف كان أداؤها في مهمتنا، أي في التفصيلات التي قد تظهر. ولعل من المفيد القول إن المرء ربما يعمل بشكل أفضل في جمع وتفسير مجموعة من المصادر المادية والمتعاصرة كالنقود الذهبية والفضية والنحاسية، لأن هذه النقود (والكثير منها يحمل تواريخ وأسماء دور الضرب) يمكن أن تخبرنا المكان الذي كانت ماكنة الدولة تدار وبأية سرعة، فضلاً عن بضع الشيء بالنسبة إلى كيف كان المروانيون يفكرون في عرض وتقديم أنفسهم. ولكي نفهم طبيعة الخلافة الأموية، وكمثال آخر، من الأمثلة الأكثر جدلاً، وهو ربما لا يأخذ المرء بما يقوله العلماء في القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري عن ذلك الموضوع ولكن ببعض الوثائق والتوثيق المعاصر أو القريب من المعاصر نظير النقود الباقية والأشعار والرسائل المحفوظة في المصادر الأخرى يمكن كلّ ذلك أن يقول شيئاً[1]. هنا لابد لنا من التركيز والتأكيد عليه وهو أن

---

[1] بالوسع أن نجد بعض المعنى لإثارة المعارك في مكان آخر ينظر جويس P.Joyce في بحثه باللغة

هذه المصادر المادية البديلة هي أبعد من أن تكون الدواء Panacea الشافي لجميع الأمراض. وحينما نحصل عليها أو نمتلكها؛ فإن النقود هي فقط التي ستخبرنا بالكثير جداً، فإن المسائل المحفوظة أو المؤرخة والمصانة المبكرة جداً قد ظهرت أولاً في الحقب الأخيرة من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، وكانت في الكثير من المناطق منقطعة ومتفاوتة الجودة. وتعدّ الآثار، بجميع ما تحمله من مزايا وفاعلية، هي البارومتر – مقياس التسجيل – الأفضل بكثير من أية عمليات طويلة الأمد نظير نماذج من المستوطنات ونماذج من كيفية اشتماء الأرض، فهي أفضل من هو في التغيير السياسي. فالآثاريون قد اكتشفوا حديثاً في جنوب الأردن مجمع قصور كان العباسيون بالتأكيد تقريبا قد دبّروا أو خططوا فيه لثورتهم ضد الأمويين، غير أن الاكتشاف لحدِّ الآن لم يكن له تأثير أو أثر على فهمنا بالنسبة إلى مدى فائدته في هذه الثورة، وليس هنالك من سبب يدعونا إلى الأعتقاد بأنه سيكون كذلك فالنقوش العاجية الجميلة المحفورة لا تخبرنا عن طبيعة تفكير أو فكرة العباسيين عن الأمويين. ولا يفيدنا أيضاً قراءة ما كتبه السريان المسيحيون أو ما كتبه اليهود باللغة العبرية – فلن ينقذنا هذا أو يحررنا من الإشكالية، إشكالية نزعة التحيز والمحاباة، حتى وإن كان كذلك. إنها على خلاف من تلك المصادر الإسلامية، فهي معاصرة (أو في الأقل مبكرة نسبياً). وليس أقل من المسلمين في كتابة تاريخهم، فإن المسيحيين واليهود كان لهم فؤوسهم في

الإنجليزية الموسوم بـ(تاريخ وما بعد الحداثة) المنشور في مجلة الماضي والحاضر مجلد ١٣٣ (١٩٩١) ص ٢٠٤-٢٠٩ وعن ثلاث حلقات حديثة في المناظرة والمناقشة ينظر زاكورين P.Zagorin في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ(تاريخ، مرجع ورواية: انعكاسات أو ملاحظات عن ما بعد الحداثة الآن) المنشور في تاريخ ونظرية مجلد ٣٨ (١٩٩٩) ص ١-٢٤؛ وينظر جينكنز K.Jenkins في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ(إجابة ما بعد الحديث إلى بيريز زاجورين Perez Zagorin) المنشور في تاريخ ونظرية History and Thory مجلد ٣٩ (٢٠٠٠) ص ٢٠١-٢٠٩؛ وعن المفهومية الإسلامية المبكرة للخلفاء على أساس هذه المصادر التوثيقية والشبه توثيقية، في كتاب كرون Crone وهندز Hinds (خليفة الله).

الحفر ولهم أهدافهم التي يسعون إلى تحقيقها axes to grind، وهم بخلاف المسلمين، وواقعياً من دون استثناء كانوا أجانب وبهيأة متفرجين، فقد كان المسيحيون واليهود يكتبون في بعدين الجغرافي والثقافي اعتماداً على الأحداث التي يدوّنونها. وسوف لن نجد نصّاً سريانياً يرجع إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين / الأول والثاني الهجريين يقدم لنا أي شيء نظير وصف البعثة النبوية لمحمد النزيهة، وأننا لا نجد إلا في النادر روايات غير عربية – قد كتبت كما كانت ثابتة وغير متغيرة، خارج الجزيرة العربية – تلك التي لا تبين أي تفهم حقيقي عن الكيفية التي كانت فيه الدولة الإسلامية المبكرة تعمل فعلياً وواقعياً. فقيمة المعلومات غير الإسلامية لا تكمن كثيراً في أوصافها المنتظمة والترتيبية عن الإسلام كما هو الحال في النظرة الخاطفة والومضة العرضية والمناسباتية لتطبيقات أو ممارسات المسلم الحيّة، والتي ينبغي لها بصورة عامة أن تستعمل الى جانب الرواية الإسلامية، أفضل من أن تكون بديلاً عنها[1].

إذن فليس هناك من خلاف أو جدل لأن نتخلى عن الرواية الإسلامية لصالح معلومات مصادر أخرى سواءاً كانت أدبية معنوية أم مادية، يحتمل أنه مفهوم بأن عشرة صفحات من مؤلف الطبري فيها الكثير لتعلّمنا عن التاريخ الإسلامي أفضل من مائة صفحة من المؤرخ الأب الكبير ميخائيل السوري Michael the Syrian في القرن الثاني عشر للميلاد/

[1] وعن مجمع البلاط في الأردن ينظر اوليسون J.P.Oleson وآخرون في البحث باللغة الإنجليزية (تقرير أولي لمشروع تنقيبات الحميمة ١٩٩٥ و ١٩٩٦ و ١٩٩٨، المنشور في حولية قسم الآثار القديمة في الاردن Annale of the Dept of Antiquities of Jordon مجلد ٤٣/ ١٩٩٩ ص ٤١١-٤٥٠؛ وحول معالجة منتظمة للمصادر غير الإسلامية ينظر هويلاند R.Hoyland في دراسته بالإنجليزية الموسومة بـ(أنظر إلى الإسلام كما نظر إليه الآخرون: مسح وتنقيب للكتابات المسيحية واليهودية والزرادشتية في الإسلام المبكر) المطبوع في برنستون ١٩٩٧.

السادس الهجري. وميخائيل السوري مؤلف التاريخ السرياني النفيس، وواقعياً صعوبة فهم الطبري فهماً مناسباً ولائقاً بأن الكثير مما كرّس من البحث العلمي لجيل. وبشأن هذه النقطة، ليس هناك لبس أو غموض فعلىٰ الرغم مما يقرأه المرء أحياناً، فإن أكثر العلماء الذين كانوا يقومون بذلك لمجرد أن المصادر المبكرة متحيزة (والواقع فإن جميع المصادر منحازة بطريقة أو بأخرىٰ) وبالتأكيد ليس بسبب من أنها تؤمن ببعض من نظرية المؤامرة الكبيرة علىٰ وفق ما كان المسلمون في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري يطمسون أو يقمعون بانتظام انتشار الحقائق من جذورهم، وبناءً علىٰ ذلك يختلقون وضعاً ليحلّ محله. فالمؤرخون الجدّيون الذين لا يعتقدون بنظريات المؤامرات بشأن نشوء الإسلام، يرتابون في الرواية المبكرة بسبب ما يعتقدونه بأن الأمثلة والنماذج الثقافية هي خاضعة للتاريخ، وإن التاريخ الإسلامي المبكر هو زمن وعصر التغير الإجتماعي الكبير، وإن هذه النماذج قد تغيرت أيضاً. وأن النماذج السائدة في الإسلام المبكر قد قيّمت وقدّرت ذلك التكييف والتنقيح وإعادة صياغة الرواية التاريخية أفضل من حفظ وصيانة معلومات تاريخية جامدة وخاملة، وهنا بالتأكيد سيجعل عملنا الحاضر أكثر صعوبة. ولكنه مهم جداً أن نرىٰ بأنها كانت جزءً من الدينامية الناشطة جداً تلك التي جعلت الإسلام المبكر مثيرا للإعجاب وتأملي وخلّاق ومبدع، ولكي نعمل لجعل هذه المرجعيات والمصادر موضوعية في عرضها ولجعل الرواة موثوقين في معلوماتهم عن أصول الإسلام فهذا ليس ببساطة مفارقة تاريخية، أنها تقلل من قيمة القدرة الإبداعية للمسلمين الأوائل[1].

---

[1] الأدب الثانوي أي غير الأصيل يتحدث في بعض الأحيان عن (التحريف والتزييف) ولكن هذا ينبغي أن لا يتخذ ليقصد به الكذب الدولي Internationald lying ينظر التعليقات التي قدمها لاندوا – تاسيرون Landan- Tasseron في دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (التنقيح redaction) ص ٢٦٢ وما بعدها (وأن النتيجة الطبيعية للافتراض أو

للاستدلال بقرينة وبتفكير استنباطي) وعن أصالة أوالمتسم بالإبداع للأدب الإسلامي الشرعي ينظر كالدر N.Calder في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(الشريعة أو الفقه الإسلامي المبكر) المطبوع في اكسفورد ١٩٩٣، ص ١٩٨ وما بعدها من الصفحات (ومما يستحق ذكره أن واحداً من أكثر المؤرخين النزّاعين إلى الشك في هذا المجال رأى أن الفكر والكتابة الإسلامية الشرعية المبكرة هي دينامية ومبدعة كثيراً جداً وأكثر من كتب النقاد انتقاداتهم العنيفة).

الفصل الرابع

ثلاثة أصناف

السيرة والطبقات والتاريخ الحولي

رأينا أنه بحلول نهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري فإن التدوين التاريخي قد أنتج ثلاثة اتجاهات وطرق بهدف تنظيم الرواية التاريخية وترتيبها – وهذه الأصناف والاتجاهات أطلقت عليها السيرة والطبقات البروسوغرافيا والتاريخ الحولي الكرونوغرافيا. وهناك البعض الذي يجادل بأننا سوف نتناول مؤلفات السيرة والطبقات والتاريخ، حتىٰ لو أن أسئلة ربما تثار حول الزمن الذي دوّنت فيه مؤلفات هذه الأصناف بصيغتها النهائية، بمعنىٰ متىٰ تمّ وضع وتشخيص هذه الأصناف الثلاثة؟. فنصّ طبقات ابن سعد مثلاً قد انتهىٰ بعد عدة عقود من وفاته، وهكذا الحال أيضاً فيما يخصّ تاريخ المدينة الذي ألفه عمر بن شبه (المتوفىٰ ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م) وحسبما يبدو أن الكتاب قد وضع بصيغته النهائية من قبل أحد تلامذته، والجدير بالذكر فإن نصوصاً أخرىٰ قد انجزت أيضاً بعد موت مؤلفيها. (وسوف أتغاضى في جميع هذه الحالات عن احتمالية تنقيح المؤلفات أو إعادة كتابتها، مفترضاً أن الصيغة المقدمة للنشر أو بالأحرىٰ للإعلان قد ت ظهر تخطيط أو تصميم مؤلف الكتاب نفسه).إن الذي يثير النقاش والجدل هو كيف حدّدت

وعرّفت تصنيفاتي الثلاثة، فضلاً عن الأهمية التي علقتها على هذه التصنيفات. ولذلك فإنني أكون مديناً الى قرائي في التفسير والشرح. وعلى هذا الأساس، فإن هذا الفصل سيخدمنا في تفسير وشرح هذه التعبيرات وكذلك في توسيع وتطوير بل وتفصيل الصيغة والنوع الأدبي الذي نحن بصدده. (فالقرّاء المطّلعون على الأنواع والأصناف الأدبية التي نحن بصددها ربما يودون أن ينتقلوا مباشرة وبسرعة إلى الفصل الخامس)[1].

التدوين التاريخي ومصادر التاريخ:

لقد تحدثت عن علم التاريخ أوالتدوين التاريخي، وأقصد به العروض أو الصور النثرية عن الماضي والتي يمثل الكرونولوجي التاريخ الحولي ـ سواءً ـ الذي يعدّ واضحاً وصريحاً في عرضه أم الضمني منه، سمة حيوية ومهمة. وإن هذا التحديد والتعريف بحدود بعض القياسات بما يوحي اليه تعبير الرواية نفسها: أنه بالكاد تحديد للسؤال لماذا يحتفظ الكتّاب بصورة عامة بتعبيرات من أمثال إخباري أو أهل السيرة (أو أهل السير) أوالمؤرخ بالنسبة لأولئك الذين يعملون في واحد أو غيره من هذه الصيغ الثلاث التي نناقشها هنا، أو أولئك الذين سنذكرهم جميعا لاحقاً، اعتماداً على ابن النديم في الفصل الثالث من كتابه الفهرست. كذلك ليس من باب

---

[1] بالنسبة إلى التوقيت قبل الحديث لابن سعد، كتاب الطبقات ينظر ملجرت C.Melchert في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(كيف توصل الحنيفية إلى أن يبدأوا في الكوفة والتقليدية أن تُبدأ في المدينة) المنشور في مجلة القانون الإسلامي والمجتمع Islamic law and society مجلد ٦ / ١٩٩٩ ص ٣٢٥؛ وعن عمر بن شبه ينظر جونثر S.Gunther في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(نتائج جديدة في نظرية نقد المصدر في الأدب العربي الوسيط) المنشور في مجلة الأبحاث مجلد ٤٢ (١٩٩٤) ص ١٢؛ GAS باللغة الألمانية ص ٣٤٥ وما بعدها؛ كتاب عمر بن شبه هو تاريخ المدينة المنورة (بيروت ١٩٩٠).

المصادفة أن المؤلفات أو الأعمال التي تحت المناقشة هنا هي المعتمدة مصادر ثابتة من مصادر التاريخ* المعتمدة للبحث التاريخي في تاريخ الإسلام أو في الإسلام الوسيط، وفي الأقل إن هذه المنهجية قد طبقها الكثير من المؤرخين. فكل عمل أو تأليف سأذكره قد يعلّمنا شيئاً ما بشأن الكيفية التي كان فيها المسلمون يعيشون ويفكرون في الحقبة التاريخية الوسيطة، حتى وإن لم تكن هذه الدروس مفهومة دائماً وعلى الفور. فمثلاً، إن الكثير من المؤرخين عن الإسلام في القرنين الأول والثاني الهجريين يعتقدون ـ في الوقت الحاضر ـ بأن السيرة النبوية لابن هشام ربما تروي لنا أقل مّما هو واقع في موضوع بحثها البيّن والواضح – حياة النبي محمد وعصره – مما تروي لنا عن مواقف الأمويين والعباسيين إزاء النبوة، أو الشريعة الدينية أو نظرية الحكم، فجميع ذلك يتضح في الكيفية التي مثلّت فيه أو صوّرت فيه الأحداث. فبعض الروايات السياسية العباسية ـ وبقدر ما يتعلق الأمر بالعباسيين ـ ربما ليس فيها إلا القليل من السياسة العباسية عما يفعله ويقوم به مؤرخون لهم اهتمامات وعناية أخلاقية بخصوص المجتمعات التي كانوا يحيون فيها. والمؤرخون في العادة يبغضون أو يكرهون الإعتراف بأن المسألة المهمة التي علينا أن نستفسر عنها أولاً هذه الرواية للماضي كيف لها أن تقول شيئاً عن حاضرها[1]. لهذا فإن تعريف التدوين التاريخي الذي هو عامل في هذه الدراسة يظهر في أحد جوانبه الحقيقة البسيطة والواضحة بأنه ـ أي التدوين التاريخي ـ

* [استخدم مؤلف الكتاب مصطلحاً هو bread and butter]

[1] وحول المواقف والاتجاهات إزاء حياة محمد (وبالأحرى المعطيات والمخرجات عن بنائها) ينظر روبين U.Rubin في كتابه باللغة الإنجليزية (عين الملاحظ أو الناظر: حياة محمد كما نظر إليها المسلمون الأوائل: تحليل نصّي) المطبوع في برنستون ١٩٩٩؛ وحول بعض المرويات العباسية السياسية ينظر الهبري EL-Hibri في الدراسة المشار إليها آنفاً باللغة الإنجليزية (إعادة تفسير التدوين التاريخي الإسلامي).

هو الأمر الذي يعدّ شرطاً ضرورياً لبحثنا sine qua non ولكنه مثل نماذج الثلاثة ، أي السيرة والطبقات والتاريخ الحولي، ذا ثلاثة أقسام، تهدف إلى رسم مميزات وسمات وبخلاف ذلك تكون غامضة. فمصطلح التدوين التاريخي أو علم التاريخ Historiography غرضه الخاص أيضاً أن يكون موجهاً ومساعداً في الكشف عن نفسه Heuristic، وعلى الرغم من كل الإختلافات الموجودة بين هذه الصيغ فإن السيرة والطبقات (البروسوغرافيا) والتاريخ الحولي (الكرونوغرافي) يتشاطرون التاريخ المعروف أو المألوف. وليس بالإمكان قول الشيء نفسه على الأنواع الأخرى من روايات الماضي، وكذا الحال بالنسبة إلى التدوين التاريخي أو علم التاريخ Historiography كالذي استخدمناه في هذا الكتاب، إذ يستثني أنواعاً أدبية ذات مظهر متأخر في زمنه نظير علم الأنساب، والجغرافية وعلم البدع والهرطقة (أي بمعنى الكتابة عن المدارس الفكرية الفرقية والدينية والفلسفية) ونظير تفاسير القرآن والكتابات الشرعية والفقهية لمختلف الأنواع (وبضمنها علم الحديث)، والنثر الأدبي (ولا سيما رسائل وكتيبات عن الموضوعات التاريخية) فضلاً عن أنواع أخرى كثيرة جداً لا يسع المجال إلى ذكرها. وإلى درجة متفاوتة فإن المؤلفات والأعمال التي ألّفت في هذه الأصناف الأدبية قد تجذّرت وتأصّلت ب الأندفاع التاريخي العميق نفسه– فإن الشعور بأنها ترجع إلى التاريخ وتصنع التاريخ الإنساني – ذلك الذي يساعد على دفع وحثّ الكثير في مشروع التدوين التاريخي نفسه – وبعض من المؤلفات قد كتبت من قبل أناس إذ أقدرهم أنهم مؤرخون، حتى وإن كان التقليد أو العرف لا يعترف بهم كذلك. ولعله من أكثر الأمور أهمية للكثير من المؤرخين في أيامنا هذه، الكل يمكن أن يكون نافعاً جداً ليكون رهن الاستعمال من أجل إعادة مباني الماضي، فالكتابة الجغرافية للقرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري مثلاً تقدّم

معلومات قيّمة وثمينة عن نماذج وأمثلة من التجارة، وعن الجغرافية الطبيعية والبشرية في العالم الإسلامي، دون أن ننسىٰ ذكر مساعدة قيّمة أخرىٰ في عملها كمصادر في التدوين التاريخي ذلك الذي يفترض في أن يكون قراؤها علىٰ اطّلاع ومعرفة بالآلاف من أسماء المواقع الجغرافية والتفاسير. والمعاجم اللغوية والنحوية لأي مقطع من مقاطع القرآن غير الواضحة، ولنأخذ مثالاً مختلفاً جداً، قد يبدو أنه مصدر لا يتعلق بالتاريخ الإجتماعي، ولكن إذا ما عولج معالجة أنيقة وجيدة، فإنه سيلقي بعض الضوء علىٰ الكيفية التي نظرت فيه تلك المجموعات أو الجماعات الإجتماعية نفسها. فأعمال ومؤلفات مثل هذه ربما ستشاطر أيضاً المصادر المألوفة والمعروفة في تدوين تاريخي ملائم (نظير حالة التفسيرات والتأويلات القرآنية) والمعروف إن الأخباريين يعتمدون دائماً عليها في تواريخهم (مثل حالة الجغرافية). وطالما أن أكثر مجموعة للروايات الشاملة كثيراً ما تعدّ هي الأفضل، عندئذ فإن المؤرخ الممارس والمتمرس سيجد نفسه مقتفياً ومتعقباً آثار الروايات المتماثلة والمتماهية لحادثة مفردة وواحدة في التواريخ المؤلفة من أجزاء كبيرة الحجم، ومن مؤلفات الشريعة والمؤلفات الأدبية في الشعر والرواية . فلهذه الأسباب ولأسباب أخرىٰ، يجدر أن لا يكون هناك أي شك بأن هذه المصادر هي مصادر مهمة ومباشرة بالنسبة إلىٰ المؤرخين المحدثين؛ فإنهم يلائمون ويخصّون في أي كتيب للتاريخ الإسلامي»[1].

ومهما يكن، فإن هذا الكتاب هو ليس كتيباً، وبناءً عليه فإنني أشعر بكوني متحرراً من أية مسؤولية إزاء المؤرخين (وعلىٰ أية حال فإن

---

[1] وحول كيفية استخراج بعض التاريخ الإجتماعي (بالعصر Squeeze) من التفاسير القرآنية ينظر متحدة R.P.Mottahcdeh في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(المناظرة الشعوبية أو الجدل الشعوبي والتاريخ الإجتماعي في إيران في الحقبة الإسلامية المبكرة) المنشور في مجلة IJMPS مجلد ٧/ ١٩٧٦ ص ١٦١-١٨٢.

احتياجاتهم يمكن أن تتوفر في مكان آخر، فليس هنالك من قصور في مسار المصادر أو في الأدلّة التي تشير إلى مصادر التاريخ الإسلامي). وعلى الرغم مما تقدمه هذه الكتب المؤرخين المحدثين من منافع، لكنها تبقى مؤلفات لا تعادل علم التاريخ أو التدوين التاريخي؛ إنها آمال قد فشلت ليس بسبب من إن الرواية الإسلامية قد أخفقت في مسألة تحديد هوية مؤلفيها كمؤرخين، ولكن أيضاً بسبب كونهم قد رتّبوا ونظّموا رواية بأسلوب أو بنمط تابع وثانوي للتاريخ الحولي الكرونولوجي. فمثلاً يقدّم الجغرافيون في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري مسحاً مرتباً ومنظماً وبصورة عامة تزامنياً للعالم الإسلامي – وفي بعض الأحيان خارج أو أبعد من العالم الإسلامي. إنه كذلك اجابة عن لماذا التاريخ الكرونوغرافي للقرن العشر الميلادي/ الرابع الهجري هو أكثر فائدة من الجغرافية المحلية للقرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري بشكل عام لإعادة بناء نماذج وأنماط في التحول الحضري والتغير في الإستيطان والإقامة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين؟ ولكي نكون متأكدين من ذلك، فهنالك حدود سهلة ورخوة بشأن البنية الصلبة للجزء المركزي والثابت في التاريخ الكرونوغرافي. وسوف نرى حالياً أن بعض المجموعات المتنوعة للسيرة النبوية – وهو الذي سأطلق عليه بالسيرة التعبدية – لا تعمل بالعلاقة نفسها إلا قليلاً مع التاريخ الكرونولوجي الحولي. بشكل مشابه من أجل أن نتخلص من الترتيب الالفبائي الحولي، فإن واحداً من المسارات المنحنية trajectories لرواية الطبقات البروسوغرافيا التضحية بشكل جلي بالنظام الحولي للتاريخ وذلك بهدف تحقيق الملائمة. وإن كان كذلك فإن الحدود الغامضة وغير الواضحة لا تلّمح ضمناً إلى أن الظاهرة تفتقر إلى خاصية مميزة كما وصفها أحد نقّاد الأدب. وعلى الرغم من جميع هذه الهنات والعيوب، فإن علم النماذج

الشخصية (التايبولوجي) المقترح هنا يفهم أن المراد منه ربما يكون بمعزل عن حجمه الكلي، وهو السمة اللافتة كثيراً في رواية النثر العربي: والآن ربما نتسائل كيف روّج الجمّاعين والمصنفين أو المؤلفين وحدات أو مجموعات لرواية مستقلة بنفسها (الأخبار من جهة والأحاديث من جهة أخرىٰ) عبر الضروب المتنوعة للرواية، في جمعها ونسخها وإعادة صياغتها وتعديلها أو تكييفها أو تذييلها بتأليف الذيول والتتمات ثم تدوينها علىٰ وفق خطط أو مخططات محدّدة بعض الشيء وكذخيرة راسخة وثابتة. كذلك نتساءل لماذا يكون هذا الأمر هكذا؟ وهو سؤال سنهتم به لاحقاً ؛ ويكفينا القول هنا، بأننا سنشهد في مناسبة أخرىٰ متكررة أخرىٰ كيف أن هذه العناية بالكرونولوجي التاريخ الحولي سيعزز ويدعم هذه الأنماط من التدوين التاريخي"[1].

ولهذا فإن التحديد الفاعل للتدوين التاريخي هو ذلك الذي أنتجه وأحدثه عدد من الاعتبارات. وهي إلىٰ أي مدىٰ تصحّ تلك التعريفات أو التحديدات التي ذكرت. وكما اقترحت في الفصل الأول، فإن تلك الأصناف أو الضروب لم تكن ذاتية أو داخلية بالنسبة إلىٰ الرواية ففي قراءتها والتفكير بها ثم كتابتها، عندئذ نحن الذين نفرضها ونرتبها، وحيثما يرسم المرء خطابين الشريعة أو الفقه فإن العالم هو الذي يرسم هذا الخط الفاصل ، فهو يرسمه بقدر ما يقوم به هذا العلم في النصوص نفسها. أي أنني مؤرخ وربما أني لم أكن قريباً من الحقيقة التي أحسب فيها الطبقات علىٰ أنها صيغة من صيغ التدوين التاريخي، في حين قد حسب ذلك طالب في الفقه الإسلامي علىٰ أنه واحد من ضروبه الثلاثة في الكتابة الفقهية أو الشرعية. وفي الوقت الحاضر فالمرء لا ينبغي عليه أن يكون مؤرخاً ليرىٰ المصاعب في التقدير أو الحكم

---

[1] والنقد الأدبي هو كتاب آلتر R.Alter باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(متعة القراءة في عصر مثالي) المطبوع في نيويورك ١٩٩٦، ص ٢٩.

الأخير الذي أشرت إليه آنفا، نظير العنوان المنسوب إلى واصل بن عطاء، فضلا عن على أنه من أعمال الطبقات غير الفقهية التي صارت كثيرة. غير أن المرء لكونه مؤرخاً فإن ذلك مؤكداً سيساعد، كما لو أنه يساعد أمرا آخر يحاول البرهنة على التداخل والتشابك الجليّ بين الحديث والأخبار، إن تصنيف أو تأليف الحديث النبوي صار في الأعم الأغلب يتضمن جانباً أو قسماً من المغازي. والعلماء المخلصون والأمينون سيقبلون بأن تدريبهم المنظور في تكييف أو وضع شرط على فهمهم للنصوص. إذن كيف على المرء أن يميز بين "التاريخ الذي يفرغ في قالب روائي أو خيالي" وبين "الرواية أو الرواية الخيالية التاريخية"، فهذا اعتيادياً سوف يتحول إلى وضع يكون الشخص فيه إمّا أنه مهتم بالحقائق أو بالخيال. والسؤال هذا لم يكن سؤالاً غير مجدي أو لا قيمة له، وسوف نرجع إليه في الفصل الثامن. ولكن العلماء المخلصين والأمينون سيصرّون بشكل متكافىء بأن بعض الخطط والمشاريع قد تتسع لجميع الأدلة والبيّنات المتوافرة بصورة فاعلة ومؤثرة أكثر من الآخرين، فهي الطريقة الجيدة بالنسبة إلى المؤرخ المحترف ليقول أنها أفضل من غيرها. ولذلك فما هو مقترح هنا إنه محاولات لإيواء بيّنة أو دليل أكثر من أن نحدد حقائق، وإنني في الواقع يقظ وواع لكوني أعمل على وفق قواعد مهنتي أكثر من أن أعمل طبقاً لقوانين الطبيعة[١].

---

[١] وحول طريقة أخرى لتصنيف الرواية ينظر دوغلاس F.Mati –Douglas في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (النصوص والتحريفات Tortures: عهد المعتضد والبناء في المعنى التاريخي) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ٤٦/ ١٩٩٩ ص ٣١٣-٣٣٦؛ وكذلك لدر S.Leder وكلبا ترك H.Kilpatrich في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(أدب النثر العربي الكلاسيكي: خارطة باحث وصفية) المنشور في مجلة JAL مجلد ٢٣/ ١٩٩٢، ص ٢-٢٦؛ وحول وجهة النظر بأن الطبقات ترجع إلى أدب الفقه ينظر كالدر N.Calder في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ(القانون أو الشريعة) المنشور في الكتاب الذي حققه نصر S.H.Nasr وليمان O.Leeman الموسوم بـ(تاريخ الفلسفة الإسلامية)، المطبوع في لندن ١٩٩٦ ص ٩٧٩-٩٩٨؛

وهذا هو الطبيعي فليس أقل من أن يقال عن الرواية التاريخية نفسها في أي إمكان أو احتمالية تاريخية في تصنيف الرواية. فتصنيفات ابن النديم تضيء الدرب بالنسبة إلى وضع التدوين التاريخي في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، أي لماذا استخدمت فهرسته بهذه الكثافة والغزارة؟.بما نرى كيف رتّب النقّاد المسلمون رواية فهو موضوع يعدّ مفيداً جداً، ولاسيما ما أن الترياق antidote يقدّم إلى الذين يتظاهرون بالكسل، فلعلنا نرتبه على أسس أخرى ونجعل رواياتنا الخاصة بنا تواكب القرن التاسع عشر الميلادي أو القرن العشرين، تلك التي تنزع إلى الدفاع بله الى مناصرة التاريخ الكرونوغرافي على حساب الصيغ التاريخية الاخرى.فالمؤرخون يكتبون تاريخاً؛ والنبلاء أو الرجال الجنتلمان يكتبون ترجمة حياة أو سيرة حياة. فقد قبل مرة أن ابن النديم كان ذا حظ وافر لأن يكون بسيطاً أو ساذجاً في مثل هذا التمييز الزائف. غير أن تصنيفات ابن النديم ظلت متميزة بوصفها تصنيفات ابن النديم، ومهما تكن هذه التصنيفات جديرة بالتصديق فإنها تتضمن موثوقية ومرجعية ليس لأنها لامست أي عصب مهم وحيوي من الرواية الأدبية، بل لكونها قد تمّ نقلها عن طريق الرواية، كتابة، ثم نسخ الكتاب، ثم يعاد نسخه ثم في المحصلة يصبح مقروءاً وبعد ذلك يصبح مذكوراً عند المؤلفين المتأخرين (نظير ياقوت الحموي) ثم يصبح أثراً أدبياً رفيعاً من الطراز الأول. وليس بوسع ابن النديم أن يخبرنا ماذا كان يقصد بالتدوين التاريخي، وليس بوسع أي غيرابن النديم أن يخبرنا أيضاً. فالمصطلح (تأريخ History) يدلّ على أنه فرع من التعليم والمعرفة، ذلك الفرع المعني بالبحث بما له علاقة بالأحداث التي حدثت في زمن وقوعها، وبهدف بناء

طريقة فهم أدبي للحديث ينظر سبايت M.Speight في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(مباني أو بنى الرواية في الحديث) المنشور في مجلة JNES مجلد ٥٩/ ٢٠٠٠ ص٢٦٥-٢٧١.

شخصيتها ودورها، ومكان وقوعه. وهذه هي وجهة نظر السخاوي (المتوفى ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) وإنني بالكاد عليّ أن اقترح بعضا من تعريف السخاوي وهو غير صحيح، غير أنه بالإضافة إلى الحقيقة بكون التعريف متأخر جداً (وبناءً على ذلك فإن الدليل غير مقبول ذلك الذي يتعلق بالحقبة التكوينية للرواية)، وسوف نرى أن السخاوي كان يبرهن حالة تتعلق بالتاريخ الكرونوغرافي في وقت كان خطر أهل الحديث على التدوين التاريخي قد تفكك[1].لذلك لا يكفي إعادة وتكرار المصنفات الفطرية أو الطبيعية، طالما أنها لا تؤدي بنا ولا توجهنا باتجاه أي معنى موثوق واحد من النصوص أو من الضروب الأدبية. وبما أننا مؤرخون، فإن جلّ هدفنا هو الكشف عن بعض الوسائل المختلفة التي فهم بوساطتها المسلمون هذه النصوص، وكذلك حيثما كان هذا ممكنا في أن نرى كيف كانت فيه بعض المفاهيم سائدة على مفاهيم أخرى، اعتمادا على السياق السياسي والأكاديمي والثقافي الذي تمّ إنتاجه ونقله. تلك هي المؤلفات الرئيسة للمؤرخ ؛ إما بشأن البقية الباقية فهي تكون أو حالة من حالات النقد الأدبي أو هي حالة في الميل والولع.

ثلاثة أصناف:

من أجل أن نصنف التدوين التاريخي إلى تاريخ كرونوغرافي وترجمة أو سيرة حياة وطبقات بروسوغرافيا فإن هذا يعني أننا سنعرض علماً هو علم التايبلوجي Typolpgy أي علم النماذج الشخصية. وكما هو في جميع

---

[1] وعن نقل التاريخ لابن النديم: الفهرست ينظر لدر S.Lader في الدراسة باللغة الألمانية الموسوم بـ
Grenzen der Rekonstraktion alten schrigttums nach den Angaben im Fihrist in Ibn- Ndim und die mittelalter liche arabische Literatar, pp. 21f.
وعن تعريف السخاوي، ينظر روزنثال: تاريخ المذكور آنفا ص ٢٧٣.

أصناف النماذج الشخصية الأخرىٰ فإن هذا التصنيف يشير إلىٰ نماذج وأمثلة تعدّ مثالية بحدٍّ ذاتها؛ ذلك وعن طريقه بوسعنا الحصول علىٰ المغزىٰ والمعنىٰ الذي نريده، الذي تشير إليه جميع المؤلفات في التدوين التاريخ تقريباً، وليس عملاً واحداً مباشراً فقط. وعملياً فهذا يعني إن أكثر الكتب التي كتبت بعد تلك الحقبة من حوالي سنة ١١٠هـ / ٧٣٠- ٢٣٥هـ / ٨٥٠ وهي الحقبة المبدعة والتجريبية بشكل ضخم وهائل التي تطابق وتماثل واحد من تلك التصنيفات الثلاثة، وهذا يعني أيضاً أن العالِم الذي يكرّس نفسه لأكثر من تصنيف واحد فإنه بصورة عامة إنّما يفعل ذلك في مؤلفات مفصلة أو مستقلة. غير أن أعمالاً ومؤلفات أخرىٰ سوف لن تتفق أو تنسجم بشكل دقيق ومحكم مع هذا، وعلينا أن نتوقع بعضاً من الاخضاب التهجيني* Cross- Fertilization لتظهر لنا جهوداً هجينة أو مولدة، ومثال علىٰ هذا، العملين أو المؤلفين اللذين نشرا حديثاً، وهما يرجعان إلىٰ القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري أحدهما للأسباني عبد الملك بن حبيب (المتوفىٰ ٢٤٠هـ / ٨٥٣م) والكتاب الآخر كتاب المعرفة والتاريخ للمؤلف الفارسي يعقوب بن سفيان الفسوي (المتوفىٰ ٢٧٦هـ / ٨٩٠م) فلدينا تلك مؤلفات التي تدمج أو تجمع بين الكرونوغرافيا (وهي في هذه الحال الحوليات) مع (الطبقات البروسوغرافيا). ويبدو أن هذه الخطة قد تمّ التخلي عنها في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، ولذلك فإن هذه المسألة تحثّنا علىٰ مناقشة أهميتها باستمرار علىٰ أساس إنها مبكرة جداً؛ ولأنها تؤخذ بعين الاعتبار أو تدخل في التواريخ الحولية الكرونولوجية فبحوزتنا قوائم مندمجة أو منضمّة إلىٰ بعضها (أمثال القضاة والولاة أو الحكام وأولئك الذين يتزعمون طرق

* (وهذا هو مصطلح استعمله المستشرق وهويتحدث بصدد مؤلفات بتوجهات متداخلة .المترجم)

الحجاج) والذين أيضاً يذكرون وفيات من يستحق الذكر من الشخصيات البارزة (ولاسيما أفراد من عائلة أو آل النبي والمحدّثين)؛ فإن هذه المؤلفات في الطبقات المتداخلة في مؤلفات الكرونولوجي أي الحوليات سوف تنتعش وتزدهر مؤخراً أي في القرن الثاني عشر للميلاد/ السادس الهجري في كتاب المنتظم لابن الجوزي، إذ نجد التراجم والسير الشديدة الإيجاز تكون قريباعند الانتهاء من الحديث عن حوادث كل سنة من السنوات. وهناك نصّ آخر شاذ في الظاهر يمكن العثور عليه أو إجادة في طبقات ابن سعد المتعددة الأجزاء، وهي بروسوغرافيا (طبقات) تبدأ بالسيرة النبوية، طالما أن السيرة والبروسوغرافيا (الطبقات) تسلك طرقاً منفصلة. وعلى أية حال، وللمرة الثانية، نلحظ تلك النصوص قد دأبت على التشابك فيما بينها: فكتّاب سير القضاة الذي يتسمّون باسماء قبائلهم أو بلدانهم (نظير الصيمري المتوفى ٤٣٦هـ / ١٠٤٢ قد تنتهي في قسم أو جزء مختصر للحديث عن الطبقات، بينما مؤلفات الطبقات المتأخرة نسبياً لا تخصص أجزاءا افتتاحية أو استهلالية لمعالجات تراجمية واسعة إلى حدٍّ ما لهذه الشخصيات الذين يتسّمون بأسماء بلدانهم أو قبائلهم (مثال ابن أبي يعلى المتوفى ٥٢٦/ ١١٣١)، وهنا نجد الطبقات والترجمة قد صغّرت كالضفيرة intertwine. وباختصار، فإن أغلبية المؤلفات تتخذ بالفعل موضعاً أو مجلساً وجها لوجه في صنف محدد ومعين أو مفترض، ولكن هذا هو أقل أهمية من الحقيقة التي تفيد بأنه بوسعنا أن نجد عملاً أو تأليفاً ذا توجه حيوي محدد في إطارنا المجازي أو الاستعاري[1].وهذا بسبب من أن الرواية تنتهي لكونها محافظة ومقاومة للتغير

---

[1] مادة السيرة في طبقات ابن سعد تشغل الجزءين الأولين من طبعة سخاو Sachau في ليدن ١٩٠٤-١٩٤٠؛ كتاب عبد الملك بن حبيب قد نشر في مدريد ١٩٩٠، وكتاب الفسوي قد طبع في بيروت ١٩٨١ وفي المدينة ١٤١٠هجرية؛ وعن الأول ينظر جرّار Jarrar في الكتاب باللغة الألمانية المذكور آنفاً (سيرة النبي) ص ١١٠ وما بعدها Prophetenbiographie وينظر فؤاد

نسبياً. إن هذه الطرق الثلاثة في ترتيب الرواية وتنظيمها، ما إن تبلورت في أواسط القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، حتىٰ تحولت كي تكون تجارب في التاريخ الحولي الكرونولوجي بشكل ناجح جداً إلىٰ درجة أنها ستبقي علىٰ الصيغ المعتبرة للرواية طيلة الحقبة الوسيطة وقبل الحقبة الحديثة، وظلت في بعض الحالات إلىٰ هذا اليوم أيضاً.وإن أي شخص حسن الاطلاع بالتاريخ الحولي الكرونولوجي في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ذلك الذي يصف الإمبراطورية العباسية بوسعه أن يتلمس ويعتقد أنه في بلاده في التاريخ الحولي الكرونوغرافي الذي يصف الغزو النابليوني لمصر، مثل أي فرد له اطلاع جيد بتعديل أو تكييف ابن هشام لسيرة ابن اسحاق سوف يعرف وهو علىٰ مقربة من القرن العشرين اختصارات ابن هشام. وبهذه الفكرة فإنني لا أقصد مقترحاً أو إيحاءاً بأن المؤرخين المسلمين قد توقف تفكيرهم التاريخي في أواسط القرن التاسع.وسنرىٰ أنهم قد واصلوا الكتابة في عدد وافر من الروايات، وهم يبدعون في اللغة وفي موضوع البحث هذا، وكذلك يخصّبون التخصيب الهجيني لإنتاج الهجناء والمولدين، ويناقشون قضيتهم عن التاريخ الكوونوغرافي بشيء من النجاح الفعلي، بحدود القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين/ السابع والثامن الهجريين. فالرواية لها معيار ومقياس من الدينامية والنشاطية وذلك لسبب بسيط وهو أن الكتابة التاريخية قد جذبت العقول والرغبات الطموحة والمفعمة بالقلق، فالمؤلفون الذين يعترفون بأن الرواية التاريخية بوسعها أن تتفعل في طرق ومسالك عدة (فهي لم تكن كذلك في التدوين فحسب، بل إنها تفيد في التسلية وفي إسباغ الشرعية وفي الانتقاد والنقد وكذلك أنها تنفخ في الفرد روح الحياة). وكذلك

سزكين Gas ص٣٦٢، وعن الأخير ينظر فؤاد سزكين Gas ص ٣١٩؛ وكتاب الصيمري هو أخبار أبي حنيفة وأصحابه (طبع في حدير آباد ١٩٧٤؛ وأعيد طبعه في بيروت ١٩٧٦)؛ ابن أبي يعلىٰ كتاب طبقات الحنابلة (القاهرة ١٩٢٥).

أولئك الذين يتحدون أنفسهم من أجل الاستجابة، أو الذين يهدفون إلى جعل أسلوبهم أكثر معاصرة، أو الذي يبزّون الذين سبقوهم أو بخلاف ذلك ليدخلوا تحسينات على مؤلفات وأعمال من سبقهم، وأن عناصر مثل الضبط الإجتماعي، والإيمان والورع، والتأمل المنطقي، وحبّ الاستطلاع، والعرض الفني، والفضول الفكري، فجميع هذه العناصر لها دور وتأثير في إعادة أو تكييف رواية التدوين التاريخي وبالقدر الذي بالوسع تجديده وابتداعه بالقدر الذي ابتدع فيه المؤرخون المسلمون وتحددوا ضمن هيكلية أو بنية قد أقيمت أو بنيت في هذه الحقبة التأسيسية فالصيغ المعتبرة للرواية التاريخية قد نجت من جميع التغيرات وتحملتها[١]".

ما ينبغي توقعه من المؤرخين الذين يكرّسون أعمالهم حول الإسلام من العصور قبل الوسيطة وفي العصر الكلاسيكي القديم هو النزوع الى الإبقاء على ما هو قائم نسبياً. وأبعد من أن يكون ثورياً أو ألمعياً (وقد فسح المجال أمام الشعراء وكتّاب الأدب، الذين جازفوا بأنفسهم لكنهم حصدوا الجوائز) فالكثير ممن حاول بجرأة وشجاعة أن يجد نفسه في طلب المثيل، وهو هدف متواضع نسبياً ذلك الذي قد انتهجه المؤرخون القدامى – ألا وهو الزيادة والإكثار من التجديد، إما أن يكتب نوعاً متميزاً ضمن هذا التنوع الادبي، أو بتأليف أو تصنيف كتاب يقع ضمن رؤية الاعتقادات والتقاليد العامة أو المألوفة. وهذا واقعاً قد يبدو مجرد إطراء باهت وضعيف، ولكن الحال في مجتمعات كانت محافظة ومتمسكة بالتقليد كتلك المجتمعات التي كان فيها المؤرخون فإن له معنى بقدر كبير. ففي الفصل اللاحق سوف نلحظ كيف كان وضع التقليدية والمحافظة على التقليد، وكذلك سنرى ماذا كان

---

[١] استعرت مصطلح social control- intellectual curiosity (السيطرة الإجتماعية... حب الإطلاع الفكري) من كالدر Calder في كتابه (دراسات) المذكور آنفاً.

يقصد بكتابة تاريخ في مجتمع حيث كانت التقليدية هي الأنموذج والنمط السائد على التفكير، وما بقي علينا في هذا الفصل هو أن نعمل مسحاً لترجمة الحياة أو لسير الحياة. والطبقات البروسوغرافي وللتاريخ الكرونوغرافي، وترجمة الحياة (البايوغرافي) لها منزلة بهية عند ظهور الرواية، لذلك سوف نبدأ بالحديث عنها[1].

ترجمة الحياة/ سيرة الحياة:

وهي الرواية المتعلقة بحياة شخص ومتابعته منذ ولادته حتى وفاته، وهذا ما يطلق عليه بالسيرة أو ترجمة حياة الشخص، هذا ما كتبه (موميغليانو A.Momigliano) أحد المؤرخين الرومان العظام من القرن السادس الميلادي، وإنه بالكاد نجد أي خطأ في هذا الرأي الفصل، ولاسيما أنه تابع ذلك ليجعله تعريفاً مؤهلاً بشكل صارم. فالصيغة المهيبة والموقرة لسيرة الحياة الإسلامية في وصف وتعريف كهذا إنما وجدت في السيرة النبوية، وبهذه الحال ربما يفهم المرء عادة أن سيرة ابن اسحاق في رواية ابن هشام، طالما أن الرواية نفسها قد أصرّت أن تكون على هذه الحال، إلا أن الكتابة النبوية لم تنته بموت ابن هشام في سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م.*.وفضلا عن ذلك،

---

[1] استعرت مصطلح أو تعبير incremently innovative من مرينكولا J.Marincola في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الصدقية والرواية في التدوين التاريخي القديم) المطبوع في كمبردج ١٩٩٧ ص ١٤.

* ((وهناك رواية سائدة عند المؤلفين بأنه توفي سنة٢١٨/ ٨٣٣م. فضلا عن ذلك فإن رأي المستشرق القاطع بأن السيرة لابن هشام ليست دقيقة تماما ؛ فهي سيرة ابن اسحاق أولا وآخرا . وإن ابن هشام قد هذّبها أو بالأحرى أضرّ بها لأنه قد أتّبع توجهات وتحزّبات راويتها البكائي. فهو يقول في مقدمته ما نصّه: " وأنا تارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب....وأشياء بعضها يشنع الحديث له، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرّ لنا البكائي بروايته..." هنا نجد ابن هشام وراوية السيرة قد أفرغا ما في جعبتيهما من دسّ وتحريف وتنقيح للرواية الأصلية أوتعديلها

هناك تعبيرات أخرىٰ تطلق علىٰ الكتابة في سير الحياة، وأن علماء أو مؤلفي تراجم قد كتبوا عن مجموعة متنوعة من الرجال، يقع بعضهم ضمن المؤسسة الدينية فيما يقع الآخرون منهم خارجها، فهناك في الأقل - وبحسب تحديد (موميغليانو) - قدراً كبيراً من تراجم الحياة (وكما سنرىٰ هناك قدر مناسباً من تراجم الحياة والسير الذاتية) في الإسلام الكلاسيكي القديم، وهناك بعض التصنيفات الأخرىٰ قد رتبت علىٰ وفق هذه المعلومات المباشرة[1].

وفي الحديث عن ترجمة الحياة والطبقات البروسوغرافيا فقد قدّمت بالفعل تمييزاً نقدياً حاسماً، وواحد من ذلك الذي تظهر صورته في الرواية نفسها: فترجمة واحدة تصمد لمفردها هي تلك التي نصطلح عليها (سيرة). في حين أن هذا الذي يجعل الواحد جزءاً لا يتجزأ في توليفة من نوع مؤلفات السير الملخصة والمركّزة فهذا الصنف هو (ترجمة). ولمّا كان المرء ليس بوسعه دوماً أن يستبق الحكم أو يتعجل في الحكم علىٰ محتويات كتاب من مجرد عنوانه: فالطبقات البروسوغرافيا، بوصفها مثالا مألوفا، تدعىٰ أو تسمّىٰ في بعض الأحيان تواريخ، المصطلح الذي يتطابق تطابقاً ذهنياً وتقليدياً بالتاريخ الكرونوغرافي. والأكثر من هذا، فهناك تشابك أو مشاركة بين التصنيفين السيرة والترجمة. ولذا نقول إن هناك مسوحات أخرىٰ تعدّ كليهما تراجم حياة أو سيرحياة. وكذا هو الحال بالنسبة إلىٰ التعبيرات الشكلية والاصطلاحية،

وفقا لأهوائهم وميولهم وغير ذلك ؛ الأمر الذي لا يوثّق مصداقية ما أورده ابن هشام. ينظر ابن هشام ؛السيرة النبوية، تحقيق محمد محيي الدين(طبعة سنة ١٣٨٣جزء ١ صفحة١٩ . المترجم)

(١) المؤرخ الروماني الكبير هو مو ميغليانو A-Momigliano في كتابه بالإنجليزية (تطور سيّر الحياة الإغريقية: أربع محاضرات) المطبوع في Cambridge, Mass / ١٩٧١ ص ١١؛ ينظر حاليا باورسوك G.W.Bowersock في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ(بحث موميغليانو وتنقيبه للشخص) المنشور في تاريخ ونظرية History and Theory مجلد ٣٠/ ١٩٩١ ص ٢٧-٢٦؛ وحول الاندفاع في كتابه سيّر الحياة في التدوين التاريخي المبكر بصورة عامة ينظر كوبيرسون M.Cpperson في كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(ترجمة الحياة العربية الكلاسيكية: ورثة الأنبياء في عصر المأمون) المطبوع في كمبردج ٢٠٠٠.

فما كان في البداية يعدّ تراجم مختصرة ستتنامى في آخر المطاف إلى حجم كبير وجدير بالاعتبار. وواقعياً فإن ذلك قد يصل إلى الحدِّ الذي لم يعدّ من الملائم تكييفه ضمن طبقات التراجم المتعددة الطبقات.فكانت النتيجة أن ظهرت مؤلفات تراجمية مستقلة – أي في موضوع بحث واحد، أو ترجمة حياة أو سيرة حياة لوحدها. وهذه هي الحال ايضا في طريقة فهم الموضوع، فإن ترجمة الحياة والطبقات البروسوغرافيا يتشاطران المواقف والتوجهات إزاء موضوعاتها واصطلاحاتها في التوصيف. وهي على الرغم من أنها غريبة للقرّاء المحدثين فإنها معروفة في الأدب القديم المتأخر، وليكن في الإغريقية واللاتينية والعربية، وهو أمر ملفت بصورة خاصة بالنسبة إلى المحدثين الذين ألفوا وتعودوا على التراجم القضائية أو الشرعية أو البلاغية وعلى سير حياة ذاتية، فهذه تتطلب منّا توضيحاً وشرحاً.

فنحن الآن نتوقع، بالنسبة إلى القسم الأعظم من ذلك، أن كاتب ترجمة حياة أوسيرة حياة يخضع لموضوعه، وبمعنى آخر أن يسيطر عليه موضوع بحثه [وهو مصطلح to get under the skin] وذلك بغية أن يفسّر كيف ولماذا أن ذلك المترجم له ـ بطريقة أو بأخرى ـ فريد في نوعه أواستثنائي – وذلك لإظهار، ما قد يكون أكثر أهمية من الجميع، الكيفية التي هو فيها كالذي كان عليه في الماضي. ولما كنا نعتقد وبصورة عامة بشخصية يكون نتاجاً لتجربة ويتمتع بتأثير ونفوذ كبيرين، فإن علماء تراجم الحياة المحترفين عادة ما يتوقون إلى تحديد وتقويم هوية الكثير من هذه التجارب قدر المستطاع، ولاسيما خلال الحقبة الأولى المبكرة وهي الحقبة التكوينية لتراجم وسير حياة موضوعاتهم: فالحلقات الأكثر حداثة في سيرة حياة غوستاف مهلر Gustav Mahler الكثيرة المجلدات التي تغطي قدرا ضئيلا من السنوات، وتقع في حوالي ألف ١٠٠٠ صفحة.وعلى خلاف هذا

فإن سير حياة المسلمين وطبقاتهم كانت مهتمة ومعنية بصورة عامة لأعتبار موضوعاتهم التي عرضوها هي موضوعات فريدة في نوعها إنما بقدر ما يجعلها مثالاً وأنموذجاً، فهي تفضّل في نماذجها وصف الخصال الشخصية الخارجية (في المظهر والخطاب والأحداث المتعاقبة وفي الأفعال والإنجازات)، ويفضلونها على المظاهر الداخلية أو الذاتية. فحينما نتعرّض إلى خصوصية خاصة في أفكار حكم – وال- مدحور في حرب أو اختيار مجموعة مهمة وخطيرة، سيؤدي بنا هذا إلى ركوب مأساوي وهزلي على ظهر حمار، ورجلاه تسحلان على طول الأرض، فهنا نحن نحصل على شيء مثير وخاص بالنسبة إلى ذلك الحاكم أو الوالي. وبعيداً عن مشاهدة شخص غير متوقع ويتمتع بالدينامية والنشاط، فكتّاب تراجم الحياة عادة ما يرون أو يدركون شخصية مصممة وثابتة ونافذة العزيمة، وهذه قاعدة عامة مجرّبة، هم يرون هكذا شخصية أكثر من أن يرون شخصية محطمة ومهزومة، وسنكتفي بمثالين على هذا[1].

الشخصية الأولى هي في سيرة صلاح الدين (ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٣) تلك الترجمة التي كتبها بهاء الدين ابن شداد (المتوفى ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥) وبما أنه كان قاضي قضاة جيش صلاح الدين، عندئذ فقد تمتع ابن شداد بحرية

---

[1] مقدمة مفيدة لترجمة الحياة / البايوغرافي في مغزى أو سياق متشابه هو كوكس P.Cox دراسة باللغة الإنجليزية بعنوان (ترجمة الحياة/ البايوغرافي في العصر القديم المتأخر: بحث عن الرجل المقدس) المطبوع في بيركلي + لوس انجلز ١٩٨٣؛ إذ رسم التمييز بين ترجمة الحياة الكرونولوجية / الحولية والموضوعية Topical (ص ٥٧ وما بعدها وقد أثرت الموضوعية المفترضة، هنا؛ وعن الجزء الثالث حول مهلر Mahler ينظر كرنج H.L.de La Grange في دراسته باللغة الإنجليزية (غوستاف مهلر: فينا انتصار وتحرر من الوهم ١٩٠٤-١٩١١) المطبوع في (اكسفورد ٢٠٠٠)؛ ينظر عن الملاحظات المتغايرة أو المتباينة في كتاب من تحقيق رينولدز D.F.Reynolds باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(تفسير السيرة الذاتية في الرواية الأدبية العربية) المطبوع في بيركلي + لوس انجلس (٢٠٠١) ص ٣٦ وما بعدها من الصفحات؛ وحول الحاكم المهجور أو البائس forlorn ينظر البلاذري: أنساب الأشراف جزء ٤ (b) (القدس/ أورشليم ١٩٣٨) ص ١٠٩.

الوصول المباشر إلى موضوع البحث، وكلماته التي يكرّرها ويذكرها كثيراً، إذ كان يعدّ مصدراً مباشراً استقى الكثير من معلومات كشاهد عيان للكثير من الأحداث التي أوردها في كتابه. ودون أدنى شك فإنه كانت لديه فرصة كبيرة لكي يطرح تساؤلاته على صلاح الدين. إلا أن ابن شداد لم يشاطر الرؤية أو وجهة النظر الحديثة التي تقول بأن حقبة الطفولة والمراهقة تعدانّ مؤثرين حاسمين في المرحلة التكوينية، وبالنسبة إلى والديّ - والدا - صلاح الدين وعائلته وأصدقائه ومعلميه أو مربيه فنحن لا نسمع شيئاً عنها، وهي اتصالاته الإنسانية الجمعية التي نعتقد بإنها المسؤولة فيما يتعلق بتحكمها في الرجل صلاح الدين. (وحقيقة أن ابن شداد قد صرّح في كتابه أنه كتاب مختصر ولكن علينا أن لا نفهم أو نأخذ هذه الكلمة بشكل حرفي هنا، لكنها في الواقع تظهر تواضعاً غير حقيقي لمؤرخ طموح). فالمسألة المهمة إن هذه السيرة لأبن شداد لم تكن محاولة لفهم كيف صار صلاح الدين الذي يليق به كرجل مشهور؛ فالسيرة هي لتصويره بهيأة محارب في الجهاد أو مجاهد من الطراز الأنموذجي لمحارب في حرب مقدسة، في الجهاد. وهذا هو السبب الذي تحرّك فيه المؤلف، بعد حوالي عشرة أسطر، انتقل من موضوع ولادته في العراق وفي مدينة تكريت إلى أول تغيير كبير في مسيرة حياته حينما أسند إليه نور الدين زنكي (الذي حكم من سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦ إلى ٥٧٠هـ / ١١٧٤م) ولاية العراق وشمالي سوريا؛ ومن هذه الحقبة فصاعداً، ننتقل من معركة رائعة إلى أخرى متألقة، ونحن نراقب صلاح الدين وهو يردّ الصليبيين. ولأن هذا الأنموذج الأدبي- الذي يصوّر فيه صلاح بما يمثل صيغة -- المجاهد الذي فاق الآخرين بشكل فوق العادة - ينطوي على تأثير وصدى في الفن والعمارة في ذلك الزمن، ونحن متأكدون بأن ذلك لم يكن مجرد أدب، ولكنه أدّى دوراً مهماً في برنامج سياسي شامل جداً للدولة، وكما

عبّر عنه مؤرخ حولي للحقبة التي يقال لها الأيوبية (وحكمت من سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩- ٥٩٧هـ / ١٢٠٠) وهي الدولة التي تأسست أولاً في سوريا ثم مصر، إذ يقول أبن واصل،(ففي هذا الكتاب قد جمعت روايات عن ملوك بني أيوب (الأيوبيون) وجميع محاسنهم ومناقبهم، وذلك لأنهم ملوك عظام مقارنة بأولئك الذين سبقوا وحكموا والذين لهم أهمية ومكانة أكبر، الله قد سلّم أورشليم—القدس- المقدسة من أيدي الكفار، وهو الذي صرع بسيوفهم رقاب الهرطقيين. وهم الذين طهرّوا الأراضي المصرية من بدع الباطنية [الشيعة الإسماعيلية] وأعادوا تأسيس أسس الدين الإسلامي [أركان الملة الحنفية])[1].

والاهتمام نفسه الذي يعدّ مثلاً بما يساعد على تعقّب أثره في الصورة التي رسمت لرجال التعليم والمعرفة. وفي المثال الثاني بوسعنا رؤية كيف أن سيرة الحياة كانت إنتقائية، وهو أنموذج صيغ على غرار آخر لا يقصد به الإثارة فقط أوأن ينفخ عن طريقه الحياة في الشخصية المترجم لها، ولكنه إنتاج له نتائج اجتماعية ومؤسساتية. وهكذا الحال فإن تراجم الحياة التي ألّفها أحمد

---

[1] سيرة صلاح الدين (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لبهاء الدين ابن شداد، طبعت في القاهرة ١٩٦٢؛ وترجمت إلى الإنجليزية من ريتشارد D.S.Richards بعنوان The Rare and Excellert history of saladin وطبع في Aldershot -٢٠٠١؛ وعن الكتاب ينظر ريتشاردر D.S.Richardsفي بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(رأي لمصدرين عن حياة صلاح الدين) المنشور في مجلة JSS مجلد ٢٥/ ١٩٨٠ ص٤٦-٦٥؛ وعن صلاح الدين والجهاد ينظر ليونز M.C.Lyons وجاكسون D.Jackson في دراستهما باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(صلاح الدين: الأساليب السياسية للحرب المقدسة) المطبوع في كمبردج ١٩٨٢، وكذلك ينظر هيلينبرانر C.Hillenbrand في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(إعلان الجهاد في سوريا من حقبة الحرب الصليبية الأولى وحتى موت زنكي: دليل منقوشات نصب) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من أثمينا K.Athamina وهيكوك R.Heacock باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(الحروب الفرنجية وآثارها على فلسطين) المطبوع في بير زيت Bir zeit ص ٦٠-٦٩؛ والمؤرخ الكرونوغرافي هو ابن واصل في كتابه (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) القاهرة ١٩٥٣ ج١ ص ١.

بن حنبل (المتوفى ٢٤١هـ / ٨٥٥م) تقدم حالة هي أقل ما تكون مناقشة كاملة لحياة الأشخاص ولعل المرء يبتدأ بالولادة ثم ينتهي بالوفاة ولكن فضلا عن كونها تطوراً لمخططات ومشاريع تراجم وسير حياة للاتقياء والزهّاد والمتقشفين – وهي المخططات والمشاريع التي تدل على الأهمية المتنامية لجمهور قرّاء أواخر القرن التاسع الميلادي والقرن العاشر/ أواخر القرن الثالث الهجري والقرن الرابع الهجري- فهذه الأحداث كانت تقوم بمهمة ليست أكثر من كونها هيكل أو نبذةً، تحتضن في داخلها معالجة دقيقة ومفصلة للحدث الذي نقلت فيه أحمد بن حنبل إلى شخصية رئيسة في مؤسسة المحدّثين، فمقاومته الجريئة ضد الاستجواب القاسي• الذي فرضه الخليفة العباسي المأمون (حكم بين ١٩٨هـ / ٨١٣ إلى ٢١٨هـ / ٨٣٣) فرواية هذا الحدث قد ملأت حوالي ٩/ ١٠ من مجموع الكتاب.إن تصوير أحمد بن حنبل كشخصية محاطة بالإعجاب لإنجازه في التمسك بالتقاليد والمحافظة على المقاومة ضدّبرنامج الخليفة العقلاني – وواقعياً، فإنه لكونه شخصية بارزة تمثل رمزاً معارضا إزاء إساءة استعمال الدولة لسلطتها ولاغتصابها سلطة العلماء في المسائل الدينية –لم تخدم فقط قضية المحدّث إنما خدمت كثيراً مدرسة أو مذهب الحنابلة في الفقه الذي كان حديث الولادة. وقد أصبح أسمه (أي المذهب) يفوق أحمد، الذي كان واحداً من بين الأسماء الرموز للمذاهب الفقهية الأربعة التي ظلت باقية، وإنه لقدر ممتاز وثروة كبيرة في أن يتحمل أحمد قسوة الخليفة وتعذيبه، والعجيب أن الحادثة تلك قد أعطت اسمها إلى مؤلف آخر قد ألّف في ترجمات مبكرة لسيرة أحمد، "ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل" التي كتبها حنبل بن إسحاق (المتوفى ٢٧٣هـ/ ٨٨٦).وكما قال أحد المؤرخين في سيرة حياة في الحقبة القديمة المتأخرة "أن

• [يقصد المؤلف هنا ما يعرف بمحنة أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن الكريم . المترجم]

عملية كتابة تراجم الحياة توحي إلى أنه من أجل خلق شخصية رمز وإأنموذج من المعلومات التاريخية إلى كونها مثلاً فلسفياً وتاريخياً لكاتب الترجمة، أكثر من الموضوع نفسه، وذلك الأسلوب بالفعل قد هيمن على التصنيف في علم التراجم".فهذه الطريقة في كتابة التراجم هو الذي كان بالفعل في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ويكمن في حسن انتقاء أعداد من الأسماء بهيأة المناقب• ، والمحاسن "exellences" والفضائل "virtues" للشخصيات البارزة أو الرموز المؤسسة، ويبدو أن هذه قد توّفرت نماذجها في الترجمات خلال حقبة الأيوبيين والمماليك. والشخصيات البارزة بشكل عام يمكن تصنيفها إلى صنفين: (الخلفاء، معاوية، عثمان ،علي) والفقهاء (أبو حنيفة، والشافعي وأحمد بن حنبل)[1].

فالسيرة ـ وما سنلحظه في الوقت الحاضر ـ والترجمة تشاطرا منهجاً أو اتجاهاً انتقائياً لترجمة أو لسيرة الحياة، وهما في العادة يظهران كمصطلحين متتّامين بصيغتين متتامتين أيضاً. وعلى أية حال فإنهما ليسا بحاجة إلى أن يظهرا كذلك. واقعياً فالسيرة قد يقصد منها مجموعة متنوعة من المسائل، ولا سيما

• [ترجمها المؤلف إلى اللغة الإنجليزية بما هو المآثر المجيد glorious exploits" المترجم)

[1] وعن تراجم حياة أحمد بن حنبل ينظر في آنفا؛ وحنبل بن إسحاق في كتابه (ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل (القاهرة ١٩٧٧)؛ وكذلك كوبرسون Cooperson دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (ترجمة حياة عربية) ص ١٠٧ وما بعدها من الصفحات؛ ينظر أيضاً هوروفتز N.Hurvitz في البحث باللغة الإنجليزية (تراجم حياة وزهد معتدل: دراسة في المعتقد الأخلاقي الإسلامي) المنشور في مجلة (SI) مجلد ٨٥/ ١٩٩٧ ص ٤١-٦٥؛ (وعن التحول في ترجمة الحياة لرجل صليبي إلى رجل ناسك مقدس في كتاب شبيغل G.Spiegel باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(الماضي كأنه نصّ: نظرية وممارسة التدوين التاريخي الوسيط) المطبوع في بالتيمور Baltimore ١٩٧٧، وحول أهمية الاستجواب Iniquisition ينظر بحث (محنة) في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة ثانية) بقلم هندز Hinds؛ وعن وصف الخصائص عبر التعاقب اشتني بري Ashtiany Bray في بحثه (الأسانيد ونماذج الأبطال) ص ١٣ وما يليها؛ الاقتباس من كوكس Cox في دراسته السابقة الذكر (ترجمة حياة أو سيرة حياة)، ص ٣٧؛ ومؤلفات المناقب والفضائل بشأن هؤلاء الخلفاء والفقهاء ينظر فؤاد سزكين Gas ينظر الفهرست.

خلال القرون الثلاثة الأولى في الإسلام، وقبل أن تصبح السيرة النبوية لابن هشام مؤثرة جداً. وبالتأكيد فإن سيرة حياة الفرد كانت من ضمنها، واعتماداً على قول ابن النديم (وغيره) ممن بيّن الكثير من النماذج القديمة جداً كانت بشأن الخلفاء (أبو بكر – وحكم بين ١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م)، ومعاوية (وحكم بين ٤١هـ -٦٠/ ٦٦١-٦٨٠)، والمنصور (حكم بين ١٣٧هـ - ١٥٩م/ ٧٥٤-٧٧٥)، والمأمون (١٩٨هـ - ٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣) والمعتضد (وحكم ٢٧٩هـ - ٢٩٠هـ / ٨٩٢-٩٠٢) والمكتفي (حكم من ٢٩٠هـ - ٢٩٦هـ / ٩٠٢-٩٠٨م) والخلفاء التوّاقين أيضاً (هكذا بشأن سبط الرسول الحسين).كذلك وعلى وجه متكافىء في الوضوح ما يتعلق بأن كلا الصنفين كما هو مفهوم من العناوين ومن الإستخدام الكثير لمعلوماتها عموماً، فإن مصطلح السيرة (وجمعها سير) بالإمكان وصفه سيرة حياة الفرد وعصره، نظير: سيرة الفرس، وهو كما يظن الجواب عن استفسار في مسألة (أهل وأصحاب)، في السيرّ دائماً يظهرون بصورة مترادفة مع الأخباريين – المؤرخين.ويبدو أن ما وراء هذه الاستعمالات التي وردت في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين تكمن واحدة قديمة، تلك المتعلقة بالبيان الرسمي manifesto بما يظهر أن له علاقة بالتوثيق – وثيقة – (كتاب) ذلك الذي ألّفه جهم بن صفوان حول ثورة الحارث بن سريج في سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م وهو الذي ذكر في المصادر المتأخرة. فهذا المعنى الأخير للسيرة الذي يبدو أنه لم يعدّ مجاراته وضاع بالنسبة إلى السنة خلال القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، حينما طمست في الكتابة عن سيرة الحياة البايوغرافي، ويبدو أنها ظلت حية عند غير السنة، نظير الخوارج الإباضية في عمان في الوقت الراهن، وهم الذين واصلوا تسمية رسائلهم الدينية بالسير في

الحقب الكلاسيكية القديمة[1]. وهناك قضايا أخرىٰ، تتعلق بإشكاليات المصطلح، ليس أقل من كونها ممارسة لبعض المحققين والمؤلفين المحدثين بأن فرضوا عنوانات علىٰ شخصياتهم فسيرة أحمد بن حنبل التي انتقيت جيداً لتعالج حياته، وكانت حسب الظاهر قد جمعت من قبل أحد أبنائه وهو أبو الفضل صالح (المتوفىٰ سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م) ؛ وعلىٰ الرغم من أنها قد طبعت أو نشرت حديثاً بوصفها عمل في السيرة، إلا أنه ليس هنالك ما يبدو أنها كذلك، إذ ليس هنالك من بيّنة تقليدية بالنسبة إلىٰ العنوان. فضلاً عن ذلك فإن سير النبي تكون في أكثر الأحايين مجتزئة من تواريخ الحوليات الكرونوغرافي ثم تعلن أو تنشر بشكل مستقل علىٰ أساس مؤلفات بالسير: وهناك مثالان علىٰ ذلك كما جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير (المتوفىٰ سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) وكتاب تاريخ الإسلام للذهبي (المتوفىٰ ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م). وحقيقة يمكننا القول بإنه في ثقافة المخطوطة للعالم الإسلامي قبل الحديث، فإن النسّاخ كانوا ربما يختارون لنسخ جزء واحد فقط من عمل أو كتاب بأجزاء مضاعفة، أفضل من نسخ الكتاب برمته فإنه عمل ثقيل وضخم و(غالي الثمن) والحقيقة أيضاً أن شيخاً أو معلّماً قد يعلّم أو يدرّس جزءاً مفرداً من مؤلفات أو كتاب بأجزائه الكثيرة، سواءاً كان هذا الكتاب هو كتابه أم كتاب لمؤلف آخر. فالعادة متبعة لمثل هذه العملية، إذ قد يجد المرء سابقة لهذه الممارسة الحديثة بأن يسلخ الباحث أو يجتزء من كتاب ثم يعيده

---

[1] وعن عدة أستعمالات للسيرة والسيّر ينظر هندز Hinds في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(المغازي والسيرة) كذلك ينظر جرّار دراسته المذكورة آنفا باللغة الألمانية الموسومة بـ(السيرة النبوية Propheten biographie) ص ٤ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك ينظر شولر Scholler في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـExegetisches denken المشار إليها آينفاص ١٣ وما بعد من الصفحات؛ ابن الفراء كتاب رسل الملوك (بيروت ١٩٧٢) ص ٣٦ (أصحاب السيّر)؛ وعن أهل السيّر= الإخباريين ينظر الطبري مجلد ٢ ص ١٩١٨؛ وكذلك بالنسبة إلى رسائل الخوارج الإباضية ينظر كرون P.Crone و زمرمان F.Zimmermann في دراستهما باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(رسالة سالم بن ذكوان) المطبوع في اكسفورد ٢٠٠١).

بوضع عنوان يختاره هو بنفسه. فجميع ذلك قد تمّ ذكره، وعلينا أن نحاول في التمييز بين تلك الأعمال والمؤلفات التي يطلق عليها مؤلفات السير في أيامها أو في زمانها (وربما حتى قبل زمانا) وبين تلك التي قد انتقيناها بما يعرف بالسير[1]. وعلى هذا الأساس فقد تمتعت السيرة النبوية بمكانة يعتز بها في الرواية الإسلامية، وإن رواية ابن هشام لسيرة ابن اسحاق قد تمتعت هي الأخرى بمنزلة من الأبهة والزهو ضمن مؤلفات سيرة النبي، وكما سنرى في الفصل العاشر إن هذه السيرة قد انتجت رواية منقّحة وملخصة وقد علق عليها. ولا نعلم كم كان ابن هشام وفياً وثقة عند ابن اسحق، وهو سؤال قد فكّر به العلماء والدليل ضئيل في هذا الموضوع وليس هنالك من جواب شافٍ وواضح (وقد كنا قد رأينا ذلك فعلاً بأن وجود نسخة موّثقة وأصيلة لسيرة ابن اسحاق نفسه يعدّ موضوعاً يشكل بحدٍّ ذاته إشكالية حقيقية). وكم كانت المصادر المتأخرة أمينة وموثوقة لابن هشام* ولأسلوب السيرة النبوية التي

---

[1] سيرة صالح لأحمد بن حنبل قد طبعت في الإسكندرية ١٩٨١ وبعد ذلك في الرياض ١٩٩٥؛ سيرة ابن كثير قد طبعت في القاهرة في ١٩٦٦، ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية من قبل جاسك T.Le Gassick بعنوان The life of the prophet Muhammad وطبع في لندن ١٩٩٨-٢٠٠٠؛ وتاريخ الذهبي قد طبع في بيروت ١٩٨١ (وهنا فقد تم الاعتراف بالإستخلاص أو الخلاصة)؛ وكتاب ابن كثير (الفصول في سيرة الرسول) بيروت ١٩٩٣ وقد ظهر بعد طبعه بأنه كتاب مستقل.

* دون شك فإن تأليف محمد بن اسحاق بن بشار المدني تعدّ أول سيرة لرسول الله صلى الله عليه وآله غير أن عبد الملك بن هشام المتوفى ٢١٣هـ أو ٢١٨هـ أو ٨٣٣ قد اعتمد على راوية واحد فقط من رواة السيرة وهو زياد بن عبد الله البكائي المتوفى ١٨٣هـ/ ٧٩٩ من دون الرواة الآخرين وهم كثر ومن بينهم: يونس بن بكير الشيباني، وحمّاد بن مسلمة وسلمة بن الفضل الرازي، ومحمد بن مسلمة الحراني وكاتبه هارون بن أبي عيسى، وبالفعل فإن بعض المؤرخين لم يعتمد رواية البكائي إنما فضّل رواية يونس بن بكير الشيباني ورواية محمد بن حميد الرازي عن سلمة بن الفضل الرازي. وقد طبعت نسخة غير كاملة لسيرة ابن اسحاق برواية يونس بن بكير تم العثور عليها في مراكش وطبعت بطبعتين. ناهيك عن الاقتباسات التي اقتبسها الطبري والبيهقي في كتابه إعلام الورى وابن الأثير في كتابه أُسد الغابة. والواقع أن عدداً من علماء الجرح والتعديل قد ضعّفوا زياد البكائي فقال عنه العقيلي في كتابه ضعفاء العقيلي (ص ٨٠) إنه ضعيف، ووصفه يحيى بن معين أنه (ليس بشيء) (تاريخ ابن معين ج١ ص ٢٠٥؛ العقيلي : الضعفاء، ص ٨٠، وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل خلال موازنته بعبيدة بن حميد إن (عبيدة أحبّ إليّ وأصلح حديثاً منه – يعني من زياد)

تمثلها وهنا يمكن القول بأنه أسهل من السؤال السابق لأن يحكم فيه، فدقتها وأمانتها تعتمد كثيراً على هدفها وغرضها، وهنا سنصل إلى بعض الفوارق والاختلافات التي علينا رسمها ضمن رواية ترجمة الحياة أو السيرة الذاتية.

فسيرة ابن هشام، بحكم مصطلحات علم النماذج الشخصية (التايبولوجي) كانت كرونوغرافية في التاريخ الحولي بصورة عميقة، فهو يستهل الكتاب شجرة نسب محمد وولادته، وينتهي بوفاته، وللسيرة أداء كرونوغرافي حولي بوصفها المصدر الموجه طوال الكتاب برمته: ويتوقف - في الغالب - قصيراً ليعلّق على مسائل التوقيت وتتابع سياق الأحداث، إن هذا الاهتمام والعناية بالنسبة إلى التاريخ الحولي الكرونولوجي ينبغي أن لا يثير ارتباكاً بخصوص مدى الموضوعية، وإن الكثير مما ورد في الكتاب هو أسطوري وإعجازي أو معجزي (وأمثلة على هذا، كان لمحمد علامات النبوة

(العلل لأحمد بن حنبل ص ٢٤٨، والواقع أن ما أسماه ابن هشام أنه هذّب سيرة ابن اسحاق فهي عملية جراحية وليست تهذيب وإنما تشويه للكتاب ولنصغي إلى ما كتبه ابن هشام نفسه واصفاً عمليته الجراحية يقول: (وأنا - إن شاء الله - مبتدئ هذا الكتاب يذكر اسماعيل.. الخ والاختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب ممّا ليس لرسول الله فيه ذكر [ماهذا الشي؟ لا نعرف] ولا نزل فيه من القرآن شيء [كذلك ما هو؟ لا نعرف] وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب [ماهذا الشيء والسبب؟ لا نعرف؟) ولا تفسيراً له وشاهداً عليه [تعبيرات عمومية فما هي؟ لا نعرف]، لما ذكرت من الاختصار وأشعاراً ذكرها [يعني ذكرها ابن إسحاق] لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها [ما هذه الأشعار؟ لا نعرف].. وأشياء [وهذه عمومية بالغة الخطورة لا نعرفها] بعضها يشنع الحديث له [ماهي؟ لا نعرفها] وبعض لم يقرّ لنا البكائي بروايته [قول خطير جدا أيضاً لأنه ما الذي جعل البكائي يرفض تلك المعلومات من سيرة ابن اسحاق وهو ضعيف وليس بشيء؟ لا نعرفها] ومستقص إن شاء الله - ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق محمد محيي الدين، ج١ ص ١٩، فهل يفهم من تلك الأقوال وهوبالفعل واضح وجليّ بأن زياداً وابن هشام قد تلاعبا بالسيرة تلاعباً خطيراً ومضرّاً بالسيرة النبوية فمن الراجح جداً أنهما حذفا روايات ومعلومات لها انتماءات مذهبية ضد عدد من الصحابة أو معلومات تخصّ المبعث والهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة، ومعلومات تخصّ من أسلم أولاً، والراجح جداً أيضاً أنهما غيّبا من أرادا تغييبه من رواية السيرة، واقصيا من أرادا اقصاءه من هذه الرواية وقد وقفت بالتفصيل على هذا الموضوع في كتاب، ناجي، د. عبد الجبار: نقد الرواية التاريخية عصر الرسالة أنموذجاً (طبعة أولى ٢٠١١ بيروت) ص ٣٤-٤١، ١١٠-١١١ [المترجم].

منذ طفولته) وفعلاً فإن العقيدة بكمال محمد قد اتّخذت قبولا، ولكنه بموازنة هذا مع ما ورد في كتب السيرة النبوية المتأخرة فإن الأساطير والمعجزات قد قيّدت إلى حدٍّ بعيد، ويبدو أن ابن هشام كانت لديه شهية أو ميل إلى كتابة قوائم الأسماء أكثر من ميله نحو الأساطير. والأكثر أهمية أن الأساطير أصبحت جميعاً جزءا لا يتجزء من حياته وعصره وهي في كثير من الأحيان دقيقة ومنظمة ومضبوطة.وباختصار فإن هذه تعدّ كتابة تاريخية معقدة والواقع إن هذه الملاحظات نفسها لا يمكن قولها بالنسبة إلى مؤلفات الآخرين (وبشكل عام فإن الكثير من المؤلفات المتأخرة) الذين كتبوا في السيرة النبوية، والتي بوسعنا أن نطلق عليها بـ (السيرة التعبدية). ومثال على ذلك كتاب الشفاء للقاضي الأندلسي عياض (المتوفى سنة ٥٤٤/١١٤٩) وهو تصنيف أو كتاب شعبي بشكل واضح – وواقعياً إنه واحد من أكثر كتب السيرة شعبية في روايته برمتها – غير أن شعبيته تنتهي على عتبة المؤرخ؛ وذلك لأننا نجد هنا أن المعجزات والأساطير كثيرةومطلقة العنان وتتجاوز كل الحدود، فمحمد التاريخي قد فاقته الأساطير والميثولوجيا، في حين أن محمد في سيرة ابن هشام شخصية واقعية وعمليةولافتة وجذابة وكان يترجل الاستجابات للأحداث التي يواجهها المسلمون سواء الطيبة منها أو السيئة.فالتاريخ الحولي ـ بما أن محمداً خالد ـ بقدر ما تختفي فيه سمة الرواية وتحلّ محلها كاتلوك أو قائمة بالمديح والإطراء، ففي مؤلفات كهذه – كتاب عيّاض – نكون على هوامش علم التاريخ أو مؤلفات التدوين التاريخي. ويتمثل مثال ابن هشام والثاني كتاب القاضي عيّاض بأننا بين هذين القطبين في مسألة خاصة بالكرونوغرافيا الحولية وبين ما أطلقنا عليه السيرة التعبدية، فبينهما تكمن مؤلفات وأعمال ممزوجة ومتنوعة بهاتين الصفتين إذ يستسلم التاريخ الكرونولوجي إلى ترتيبات موضعية (من الموضوع). وكمثال على

هذا كتاب (بهجة المحافل وبغية الأوائل) وهو من تأليف العمري (المتوفى ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م)*.فالقسم الأول من قسمي الكتاب الذي يعتمد فيه كثيراً على السيرة الكبيرة لابن إسحاق، يتضمن معالجة تاريخية لشجرة نسب النبي وولادته وسيرته ومجرى حياته ووفاته. أما القسم الثاني فإن المؤلف يترك التاريخ الكرونولوجي جانباً، وبعد أن يقدم قائمة وكتلوكاً بألقاب محمد الفخمة وفضائله وشخصيته المثالية والأنموذجية ومعجزاته. وهكذا نجد الشدِّ والتوتر نفسه – بين التاريخية الكرونوغرافية الاصطفائية من جهة وبين الخلاصية السرمدية Timelesr universalism من جهة أخرى –حاضرا أيضا في مؤلفات السيرة غير النبوية[1].

---

* الواقع أن البروفسور روبنسون مؤلف الكتاب قد أغفل الإشارة إلى سيرة نبوية مهمة تأتي مباشرة بعد سيرة ابن اسحاق ألا وهي السيرة النبوية لأبان بن عثمان البجلي الأحمر الشيعي المتوفى في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة / الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي، وهذه السيرة النبوية أوسع بكثير من سيرة ابن اسحاق الأصلية قبل أن يهذبها وينقحها ويكيفها ابن هشام، إذ تحتوي سيرة أبان على خمسة أجزاء: في المتبدأ والمبعث والمغازي والسقيفة والردّة. ولكن هذه السيرة لا يعرف عنها شيئاً فقد اختفت عن الأنظار بينما كانت معروفة وربما متداولة أيام العلامة الشيخ الطبرسي المتوفى ٥٦٠هـ/ ١١٦٤، فقد أخذ منها معلومات كثيرة في كتابه إعلام الورى بأعلام الهدى. وأسبقية أبان بن عثمان في الرواية الشيعية التي تخالف في كثير من المجالات والأخبار رواية ابن سحاق برواية البكائي وابن هشام. فكانت رواية مشهور للأخبار ولأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام ولا سيما أحاديث الإمام الصادق إذ كان أبان من أصحابه ونقل الكثير من الروايات عنه مباشرة أو من خلال شيوخه وأشهر شيوخه زرارة بن أعين وأبان بن تغلب وبشير النبال. ينظر رسول جعفريان: سيرة سيد الأنبياء والمرسلين (نقله من الفارسية إلى العربية علي هاشم الأسدي، مشهد، ص ٩٢-٩٣؛ ولنفس المؤلف: المبدأ والمبعث والمغازي والسقيفة والردة لأبان بن عثمان الأحمر (طبعة أولى قم ١٤١٧ هجرية ص ٤٢-٤٣؛ ناجي، د. عبد الجبار، نقد الرواية التاريخية ص ٢٩٦-٢٩٨). [المترجم].

[1] إن التحليل المنظم الأول لابن إسحاق موجود عند شلهايم Sellheim في كتابه باللغة الألمانية الموسوم بـ (خليفة وتاريخ) المشار إليه آنفا؛ وعن ترجمة سيرة القاضي عيّاض (بضمنها حدود تقريبية عن مدى شعبيته) ينظر فصل السادس، كتاب العامري قد طبع في المدينة سنة ١٩٦٩؛ ينظر أيضاً كتاب (بداية السؤول في تفضيل الرسول) المطبوع في بيروت ودمشق ١٩٨٣ وعن ابن عبد السلام السلمي (المتوفى ٦٦١هـ/ ١٢٦٢ وكتاب (خلاصه السير في أحوال سيد البشر) المطبوع في دلهي ١٣٣٤ هجرية، عن محب الدين الطبري (المتوفى ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م).

البروسوغرافيا/ الطبقات:

لقد اقترحت تواً أنه بينما كانت السيرة الذاتية عن أفراد متميزين ليكونوا نماذج وأمثلة، فإن تصنيف الطبقات وتنظيمها وتنظيم فقراتها استنادا إلى معلومات السيرة الذاتية المؤشرة إلى مجموعة فمؤلفات السيرة الذاتية تبرز الفرد بينما كتب الطبقات تجعل الأفراد أعضاءا في مجموعة. ولسبب ما سيفصل في الفصل السابع، فإن هذه المجاميع تقريباً من دون استثناء هي تختص بمجموعات لأفراد هم النخبة أو الصفوة، نظير أولئك الذين لهم استحقاق أو فضيلة دينية (صحابة النبي)، أو أولئك الذين يتمتعون بنمط معرفي خاص (كالفلاسفة والمحدّثين) أو أولئك الذين يتمتعون بمهارة (كقرّاء القرآن أوالقرّاء). وبعض هذه المجاميع ممن شهر في حقول المذاهب الفقهية التي انتجت روابط الولاء للمذهب، وفي مثل هذه الحالات، فإن أعضاءها أشخاص يتميزون ب نفوذ وقوة في الانتماء لهذا المذهب أو ذاك.وفي حالات أخرىٰ فإن الأعيان البارزين صاروا مثلاً موضوع بحث في طبقات ابن خلكان، فليس هنالك من إحساس أو شعور اجتماعي لأشخاص هذه المجموعات الأعيان، طالما أن المعيار الوحيد للتضمين في هذه الطبقات هو الشهرة نفسها، فشاعر مشهور ربما يحاول الاكتساب من خليفة، أو فقيه أو قاضي أو فيلسوف. فهاهنا نجد التصنيف أو الكتاب إن هو إلّاكتاب أدبي وكما لا حظنا بالفعل، فإن طبقاتنا المبكرة جداً للرواية المبكرة قد كتبت في العراق.وكما هو الحال في بعض مؤلفات السيرة الذاتية التي تشير بصورة واضحة الى الاتجاه نحو التاريخ الكرونوغرافي أفضل من الأخرىٰ، وهكذا فإن مؤلفات البروسوغرافيا / الطبقات هي فاعلة أيضاً. وهذا موجود في حالة مؤلفات الطبقات أيضا، إذ نجد مجموعة من الأشخاص قد انتظموا في اجيال تعاقبية ومتماسكة، وطول كل ترجمة يختلف ويتباين بين بضعة من عدة

سنوات إلى بضعة عقود، وواحدة من مؤلفات الطبقات هذه الباقية المبكرة قد ألفها مسلمة بن الحجاج (المتوفى ١٥٢هـ / ٨٧٥م) إذ لدينا ثلاثة كتب في الطبقات، إلى الوقت الذي نصل فيه إلى كتاب طبقات الشافعية الذي ألفه ابن قاضي شهبة (المتوفى ٨٥٢هـ / ١٤٤٨)، ولدينا إذن حوالي ٢٩ تسع وعشرون من هذه المؤلفات الطبقية.كذلك لدينا بعض من مؤلفات السيرة الذاتية خارج نطاق التاريخ الكرونوغرافي، كذلك هناك بعض المؤلفات في البروسوغرافيا / الطبقات. وفعلاً مع التاريخ الكبير للبخاري (المتوفى ٢٥٧هـ / ٧٨٠م)، تكون لدينا ما يعادل قائمة طويلة من الاسماء فقط (ولها مداخل وقيود لأكثر من اثني عشر ألف (١٢٠٠٠) محدّث) وقد رتبت تقريباً بترتيب الفبائي (فهذه المؤلفات ومؤلفات أخرى مشابهة تبدأ دوماً باسم محمد، احتراماً وتبجيلاً للنبي). ولدينا في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري المعاجم، يظهر المعجم وهو المصطلح الذي يستعمل بصورة عامة على المؤلفات والتصنيفات المرتبة على وفق ذلك.فتعبير قواميس ومعاجم السير الذاتية تستخدم دوماً في وصف كل من الأنواع الأدبية، وسوف أضمن هنا جميع مؤلفات البروسوغرافيا / الطبقات منظمة تنظيماً ألفبائياً من دون اعتبار لعنواناتها. والسؤال عن مدى الموثوقية أو الإمانة في ترتيباتها للألفباء العربية الحقيقية[1].

[1] كتاب الطبقات لمسلم بن الحجاج قد طبع في الرياض ١٩٩١؛ والطبعة الحديثة جداً لكتاب طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة قد طبع في القاهرة ١٩٩٨، ولكنني في الكتاب هذا أذكر طبعة حيدرآباد ١٩٧٨؛ التاريخ الكبير للبخاري قد طبع في حيدر آباد الطبعة الثانية ١٩٥٨؛ وعن عمل المعجم المبكر بعد تأليف أبي يعلى (المتوفى تقريباً ٣٠٨هـ / ٩٢٠م) ينظر شوتزنجر H.Schutzinger في بحثه باللغة الألمانية الموسومة بـ(أبو يعلى الموصلي وحياته
Abu ya, La al-Mausili, Leben und Lehrervers zeischnis
كتاب المعجم، المنشور في مجلة ZDMG مجلد ١٣١ (١٩٨١) ص ٢٨١-٢٩٦ (وعن أمثلة أخرى عن مثل هذا النوع الثانوي إذ أن عالماً يدون قوائم أسماء شيوخه، ينظر أسفل وكذلك ينظر فؤاد سزكين GAS ص ١٧٠ وما بعدها.

فكل من الطبقات والمؤلفات المتعلقة بالمعاجم أو الشبيهة بالمعاجم ترجع جذورها وأصولها إلى القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري. وفضلا عن هذا فإن كليهما يمكن عدّه واحد من العلامات الفارقة والواضحة (سوية مع المؤلفات والمصنفات غير التاريخية لمعلومات متنوعة الموضوعات) والولع الشديد في تدوين القوائم التي ميّزت الأدب العربي الوسيط بصورة عامة، ومؤلفات السيرة المبكرة بشكل خاص. وقد سبق أن افترضنا بأن مقومات تدوين القوائم قد تأصل في علم الأنساب، وهذا أيضاً قد يساعد على تفسير أصولها وجذورها (إن لم يكن هذا ضمن مسألة الولع بالموضوع نفسه)، لكن هذا لا يأخذنا بعيداً جداً، طالما أن علم الأنساب أو الأنساب كممارسة مكتوبة قد ظهرت جنباً الى جنب مع التدوين التاريخي، مع أن هذا قد يكون جائزاً. فإلى جانب تاريخ البخاري ربما يضع المرء مؤلفات الطبقات لخليفة بن خياط (المتوفى ٢٤٠هـ/ ٨٥٤) ومسلم بن الحجاج، وهما أكثر شح في مادتهما أيضاً، ففي الأعم الأغلب لا نجد سوى أسماء لا غير (أو حتى أسما مفردا لحاله فقط) تدخل ضمن الجيل المخصص له.حتى بالنسبة إلى التاريخ الكرونوغرافي فإن كتّاب التراجم يبدو أنهم قد أقدموا على ايجاز. فتاريخ اليعقوبي هو مثال جيد وفي صميم الموضوع، فهل قاموا بذلك؟ وهنا يتحول الجواب إلى ما الذي بوسعنا أن نفهم من القوائم المعينة بنفسها، كذلك في ظاهرة تدوين القوائم كتقنية للرواية بصورة عامة. وحول المسألة الأولى، فهناك تقدم طيب قد تحقق. فمعيار تضمين قوائم أسماء البخاري مثلاً هو معيار جيد لكونه مرتبط بظهور المعيار الذي طبّق في علوم الحديث (ولدينا دليل آخر من القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري بأن هذا العلم أيضاً قد تطوّر بكل معنى الكلمة). ولهذه الأسباب وأسباب أخرى، بوسعنا أن نخمن أنه على الرغم من نقد الحديث فليس بالإمكان تفسير ظهور البروسوغرافي/

الطبقات. وذلك بالتأكيد أعطى قوة دافعة إلى تطويره وتوسيعه. أما بالنسبة إلى السؤال الثاني، فإن تقدماً قليلاً نسبياً قد تحقق وفي الأقل ليس أكثر من إلفات النظر الى مسألة تنظيم القوائم بالأسماء إن هي إلا براعة في تخطيط الرواية. وعلى المرء أن يفترض أن قسماً من جاذبية هذا يتمثل في السعي، السعي للعرض وإلفات النظر: إذ إن قوائم الأسماء مهما كثرت في نقلها، وإن طول قوائم الاسماء يمثل عملية المرء ووفرة انتاجه. ففي التقليد الأكاديمي فإن تلك توفر معرفة متراكمة (فالمحدّثون يستحثّون ويندفعون حول كم حديث قد استطاعوا جمعه وتذكّره) من هنا إذ فإن تسجيل قوائم الأسماء له معنى مقبول ومعقول)[1].

معاجم معنية بالسيّر الذاتية:

فإن كان تدوين قوائم الأسماء مألوفاً في الكثير من أنواع التدوين التاريخي يكون بالتأكيد وجود مثل أعلى من أمثلة التمجيد في المعاجم المعنية بالسير الذاتية Dictionaries، التي كما رأينا آنفاً أنها ربما تعرّف تعريفاً مقبولاً كقوائم بالأسماء. وهي مرتبة ترتيباً على وفق تصميم المؤلف أو غرضه. وبكرور الوقت فإن المؤلفات والأعمال قد أخذت تنمو نمواً كبيراً في حجومها وضخامة مادتها، إذ أنتج الكثير من المسلمين المشهورين وعدد متزايد من المؤرخين الطموحين مثل هذا الكمّ الغزير. فالنسخة الأصلية

[1] طبع كتاب خليفة بن خياط الطبقات في دمشق سنة ١٩٦٦؛ وحول معيار البخاري ينظر ميلجرت Melchert في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (البخاري ونقد الحديث المبكر)؛ وعن دليل مبكر أكثر ينظر موراني M.Muranyi بحثه باللغة الألمانية الموسوم بـ Zur Entwicklung der Ilm al-rigal Literatur im 3 Jahrhundert d.h. المنشور في مجلة ZDMG مجلد ١٤٢ (١٩٩٢) ص ٥٧-٧١؛ وعن تدوين القوائم كرواية إستراتيجية، ينظر روبنسون ولدمان M.Robinson Waldman في بحثه الموسوم بـ (سنة ٧١١ السنة غير الجديرة بالأهتمام من نواحي أخرى) وهو جواب لهيدن وايت Hayden White المنشور في Critical Inquiry مجلد ٧ (١٩٨١) ص ٧٨٤-٧٩٢.

لكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر (المتوفىٰ ٥٧٢هـ / ١١٧٦) • التي قد نشرت حديثاً بما لا يقل عن سبعين مجلد، والذي يبدو أنه كان في الأصل أكبر بكثير مما هو لدينا الآن، ويحتمل أن مجموع أوراقه قد قدّرت بـ (١٦٠٠٠) ست عشرة ألف ورقة، وجميعها يغطي أسماءاً لشخصيات بارزة تلك التي تتصل بحالة أو بأخرىٰ بمدينة دمشق. وهناك معجم محلي آخر يشابه معجم ابن عساكر قد خطّط ليكون في أربعة عشر مجلداً علىٰ غرار كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (المتوفىٰ سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧١م) ألا وهو تاريخ حلب لأبن العديم (المتوفىٰ ٦٦١/ ١٢٦٢) ويحتمل أنه كان يتألف من (٨٠٠٠) ورقة ويتضمن (٨٠٠٠) ثماني آلاف مادة أو ترجمة.وكتاب الوافي بالوفيات للصفدي (المتوفىٰ ٦٧٥هـ / ١٣٦٣م) وهو واحد من بين عدة مؤلفات كان القصد من تأليفها أن يواصل به أول معجم للشخصيات المميزة والأعيان من الناس في جميع المجالات، تلك التي كان ابن خلكان (المتوفىٰ ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) قد جمعها أصلا والذي طبع الآن بأكثر من ثلاثين مجلداً ويتضمن علىٰ ٥.٥٠٠ خمسة آلاف وخمسمائة مادة، مع ملاحظات وروايات موجزة في سير الحياة. وهناك أيضاً الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (المتوفىٰ ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م) وهو يعدّ المعجم الأول في جمع ترجمات لشخصيات بارزة ممن توفّوا في قرن واحد (وهناك عدد من هذه المعاجم المماثلة ستتبع هذا).وهناك عمل قد كرّس فيه علىٰ الشخصيات البارزة للقرن الذي يعقب ذلك، أي القرن التاسع، وهو كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، وهو نسبياً معتدل في حجمه ولكن رائع ولافت للنظر في حقله ومجاله، وفضلا عن الشخصيات البارزة في عالم التعليم

• (وهناك قراءة أيضا سائدة عند الباحثين تضع سنة وفاة ابن عساكر، علي بن الحسين الشافعي في٥٧١/ ١١٧٥. كذلك فإن الذي تحقّق منه حاليا بحدود سبع وسبعين مجلدا.المترجم)

والمعرفة (في كل من المجالات الدينية والأدبية) والسياسية والإدارة، "سواءاً كانوا من المصريين أم السوريين أم الحجازيين أم اليمنيين أم البيزنطيين أم الهنود، من المشرق والمغرب"، فقد غطّىٰ السخاوي غير المسلمين أيضاً ممن كان يعيش في العالم الإسلامي"[1].

إن قالب بناء أو بنية هذه الصروح الضخمة إن هو إلّا كتب سير ذاتية موجزة ومركزة كثيراً تم تأليفها بحسب صيغة الشخص الثالث والتي كان مدىٰ تغطيتها للموضوعات ومدىٰ حجومها تعتمد علىٰ الهدف من جمع الشخصيات الرئيسة المترجم لها في البروسوغرافية/ الطبقات؛ إن كان تأليفا في الطبقات أو معجما. وبكلمة أخرىٰ فإن جميع أنواع الطبقات البروسوغرافيا إنمّ تقدّم ترجمات أو ملاحظات تراجمية لسير ذاتية منتقاة انتقاءاً جيداً أو مختارة اختياراً مهماً، وكذلك ما هو مختار من معلومات كتب السير الذاتية المتوافرة والمتطابقة. ففي طبقات أو بروسوغرافية المحدّثين نظير كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر، فالعادة المتبعة قد خطّط لها أن تكون بشكل رئيس لتقديم معلومة ضرورية تفيد في نقد الحديث، وتجعل جانبي من علوم الحديث ذلك الذي أنتج أنواعاً أدبية أخرىٰ متفرعة، ومن بين هذه المعاجم معاجم للرواة الثقة (أمثال: الثقات، ومعاجم الضعفاء من الرواة، بعضهم الجيد والآخر السيء والبعض الثالث من الذين غير مختلف عليهم. وجميع

---

[1] عن البروسوغرافيا / الطبقات بصورة عامة ينظر اشترلوني P.Auchterlonie في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (معاجم ببلوغرافية عربية: دليل مختصر والفهرسة)، المطبوع في درهم Durham ١٩٨٧) وعن ابن عساكر وابن العديم لاسيما ينظر مورّي D.Morray في الدراسة بالإنجليزية الموسومة بـ (وصية أيوبي وعالمه: ابن العديم وحلب كما صوّر في كتابه أو معجمه لسيّر الحياة الناس المرتبطين بالمدينة) المطبوع في ليدن ١٩٩٤ ص ١٠ وما بعدها وص ١٤٤ وما بعدها؛ كتاب (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر قد طبع في بيروت ١٩٩٨؛ (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي قد طبع في القاهرة ١٩٣١؛ (بغية الطلب في تاريخ حلب) طبع في دمشق ١٩٨٨؛ (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) طبع في القاهرة ١٣٤٩ هجرية، عن قول السخاوي العملي الذرائعي في كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) طبع في القاهرة ١٣٥٥ هجرية ج١ ص ٥.

هذا النقل كان من الواحد إلى الآخر أو من شخص أخير في العالم الإسلامي إلى آخر. والذي يهمّ في مثل هذا النظام هو تحديد الهوية الدقيقة للشخص المتكلم عليه أو الذي نحن بصدده، ومكانته كناقل أو راويةٍ، أين عاش ومتى توفي؟ (والمعروف بكذا كنية أو الاسم المستعار، وكان هذا يستعمل في بعض الأحيان بالنسبة إلى النقلة الضعفاء ولاسيما الرواة الضعفاء). والعادات المتعبة في هذه الصيغة تسمى في العادة بالاسم الكامل (وبضمنها الاختلافات في التسمية) وفي المصدر (وفي كثير من الأحيان يشير هذا إلى النعت بصيغة (النسبة) التي تعدّ جزءاً من الاسم، ثم الشهرة (وكان يعبّر عنها تعبيراً فنياً مثلاً- ثقة أو ضعيف أو رأي ثقة أو حكاية نادرة)، ورواية عن ثقافته وسيرته (والعادة في الرواية غير المشهوة أنها تختصر إلى أسماء المحدّثين) أمّا إن كانت المعلومات غير متوافرة، فيذكر عندئذ تاريخ الوفاة[1].

والمثال الأنموذجي تماماً (علماً بأنه مختصر على نحو واضح) في الراوية غير المشهور أو غير المتميز الممكن أخذها من كتاب تهذيب التهذيب بمجلداته الاثني عشر، وهو عمل يبدو أن عنوانه غريب عندما يدرك المرء أنه قد استند في جزء كبير منه الى كتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي (المتوفى ٧٤٢هـ / ١٣٤١م) وهو في خمسة وثلاثين مجلداً (ملاحظة فقد ادخلت الأرقام من أجل أن أكون واضحاً).

١-عبد الجليل بن حميد اليحصبي، أبو مالك المصري.
٢-قد نقل حديثاً على مسؤولية (أو عهدة) الزهري، يحيى بن سعيد الأنصاري، أيوب السختياني، عبد الكريم أبو أمية وخالد بن أبي عمران.

---
[1] وعن كتاب ابن حجر ينظر آنفا.

٣-ومن نقل أو رواية أبن عجلان الذي كان معاصراً له، موسىٰ بن سلمة، ابن وهب، أبو نافع بن يزيد ويحيىٰ بن أيوب وجميعهم مصريون.
٤-النسائي قال "ليس هناك خطأ أو عيب فيه".
٥-ابن حبّان ذكر في كتابه المعنون (الثقات).
٦-قال ابن يونس "مات في سنة "٤٨).
٧-قلت: أحمد بن رشدين• قال علىٰ مسؤولية أحمد بن صالح أنه ثقة*.

فالجملة الأولىٰ تقدم لنا أسمه، الذي هو في النسبتين اليحصبي والمصري؛ ثم يخبرنا عن انتمائه وارتباطه القبلي (اليحصب) والأصل (مصر)، وهو مزوّد بهذه المعلومة، فمن غير المحتمل أننا نخلط بينه وبين آخر أسمه عبد الجليل أيضاً. وثانياً أنه يقدم بعض الشيوخ ومن بينهم نجد الزهري (المتوفىٰ ١٢٤هـ/ ٧٤٢م) الذي قدّمناه فعلاً في الفصل الثاني بوصفه مختصاً في السيرة؛ والجملة الثالثة توفر لنا أسماء بعض التلاميذ. وبوسعنا؛ علىٰ وفق هذه المعلومات أن نضع عبد الجليل الذي يعنينا من الرواة المتتابعين، وأن ندمج ما عرفناه من النقاط (١، ٣) ونبدأ نشعر أنه يشكل جزءاً من الرواية المصرية.

• (في الأصل رشد بن شيخ الطبراني المترجم)

* ترجمة المؤلف لنصّ ابن حجر العسقلاني في التهذيب هي إلىٰ قدر كبير صحيحة، ولكنني سأقدم الرواية بشأن (عبد الجليل بن حميد اليحصبي ابي مالك المصري، روىٰ عن الزهري ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري وأيوب السختياني وعبد الكريم أبي أمية وخالد بن أبي عمران، وعنه ابن عجل وهو من أقرانه وموسىٰ بن سلمة وابن وهب وأبو نافع بن يزيد ويحيىٰ بن أيوب المصريون. قال النسائي ليس به بأس. وذكره ابن حبّان في الثقات، وقال ابن يونس، مات سنة ثمان وأربعين ومائة . قلت وقال أحمد بن رشد بن (أحمد بن رشد بن شيخ الطبراني هو أحمد بن محمد بن حجاج بن سعد عن احمد بن صالح ثقة) [ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب دار صادر بيروت عن نسخة حيدر آباد الدكن ١٣٢٦هـ] جزء [ص ١٠٦ المترجم].

أما الجملة الرابعة والخامسة والسابعة فتذكر شهرته بأنه راوية (وليس فيه عيب أو خطأ)، ونقطة (٤) هي مصطلح فني قد استخدم لنقد الرواة، وذكر لكتاب أو عمل ابن حبّان، ونقطة (٥) أنموذج عن حقل فرعي في نقد الحديث. أما الجملة السادسة فتقدّم لنا تاريخ الوفاة وهو ١٤٨هـ السنة التي تبدأ في شباط من سنة ٧٦٥ ميلادية وتنتهي في شباط سنة ٧٦٦م؛ فالتتابع متواصل وقد توفرت في النقاط (١، ٢) فثبتت ووثقت، والآن يستسلم على أنه التاريخ الثابت . وهذا يعني أن أي شخص يدّعي أنه قد سمع حديثاً من عبد الجليل بعد سنة ١٤٨هـ فهو إما أن يكون كاذباً أو أن يكون قد اختلط عليه الأمر، وهنا يعني أنه يعطي إشارة لأن يكون كاذباً أو اختلط عليه الأمر. أو أنه يعطي إشارة إلى أن ذلك عيباً، فكتّاب الطبقات البروسوغرافيا كانوا يدافعون (أو يطعنون أو يكذّبون) في شهرة وسمعة مراجع الحديث بالقدر الذي يدافعون فيه عن وحدة نقل أو رواية الحديث نفسها[1].

هكذا إذن هي صنوف وضروب الأجوبة تلك التي قد صمّمت فيها الكثير من مؤلفات البروسوغرافيا/ الطبقات الحديثية لتوفير المعلومات. أما الأصناف الأخرى فأجوبتها تختلف ولكنها متشابهة بالطرق والأساليب الاستنباطية. ومن الطبيعي أن المؤرخين هم أحرار في تساؤلاتهم أو في طرحهم أسئلة خاصة بهم، وذلك لأن مؤلفات البروسوغرافيا/ الطبقات هي

---

[1] ترجمت البايوغرافي من كتاب ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب (حيدر آباد ١٣٢٧ هجرية) جزء ٦ ص ١٠٦؛ المزي: تهذيب الكمال (بيروت ١٩٩٢) جزء ١٦ ص٣٩٨ (وقد قدّمت فيه عدة مصادر أخرى)، وبضمنها ابن حبّان البستي في كتابه الثقات والبخاري في كتابه التاريخ الكبير؛ وحول كتّاب تراجم السيّر البايوغرافي وكتّاب الطبقات البروسوغرافي، وعن المشاكسين والمثيري الخصام ينظر دكنسون E.Dickinson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (احمد بن الصلت وترجمة سيرته لأبي حنيفة) المنشور في مجلة JAOS مجلد ١١٦/١٩٩٦ ص ٤٠٦-٤١٧.

حسب العادة المتبعة تمثّل كلاً من السير الذاتية الصيغية (فالسير الذاتية المختصرة جداً توفر معلومات تفيد في الموازنة) والتراكمية الضخمة. فمن أين جاء العلماء في العصر المملوكي في القاهرة؟ وما هي الأدوار التي أدّتها النساء في المجتمعات الإسلامية؟ وما هي النشاطات الحرفية والمهنية التي تعاطاها العلماء في العمل؟ وما مدى النسبة التي اعتنق فيها السكان المحليون في إيران الإسلام؟. فبينما يظل التاريخ الكرونوغرافي صامتاً عن هذه المسائل وعن هذه التساؤلات، فإن المعاجم التي تعنى بالسير الذاتية تقدّم لنا الأجوبة. ومن الطبيعي فإن معالجة البروسوغرافيا / الطبقات كمصارف للمعطيات عمل محفوف بالمخاطر، ولاسيما في حالة أن تكون الأجوبة قد اتّخذت ممثلاً للمجتمع ككل، وطالما أن المعطيات قد جاءت من شريحة منتقاة انتقاءاً ذاتياً للنخب الإجتماعية والسياسية، وذلك أكثر الأسئلة أهمية الموجهة إلى النخب[1].

---

[1] وعن الطبقات البروسوغرافيا كمصرف للمعطيات ينظر بيتري c.Petry في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (النخبة المدنية للقاهرة في العصور الوسطى المتأخرة) المطبوع في برنستون ١٩٨١؛ روديد R.Redel في الدراسة الإنجليزية الموسومة بـ (النساء في مجموعات ترجمات السيّر الإسلامية): من ابن سعد إلى دائرة معارف (هو من ه)و Who's who المطبوع في Boulder؛ أسيلا M.L.Acila في الدراسة بالفرنسية الموسومة بـ
La sociedad hispanomusulmana al final del califato: approximacion a un studio demografico.
المطبوع في مدريد ١٩٨٥. وكوهين H.Cohen في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الخلفية الإقتصادية والحرف والمهن العلمانية للفقهاء والمحدّثين المسلمين في الحقبة الكلاسيكية للإسلام) المنشور في JESHO مجلد ١٣/ ١٩٧٠، ص ١٦-٦١؛ بولييت R.Bulliet في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (طريقة فهم كمية أو المقدارية للمعاجم المعنية بسير الحياة الإسلامية) المنشور في JESHO مجلد ١٣ (١٩٧٠) ص ١٩٥-٢١١؛ وبصورة عامة ينظر همفريز Humphreys، التاريخ الإسلامي المشار إليه آنفاً ص ١٨٩ وما بعدها من الصفحات؛ وعن الطبقات البروسوغرافي كنصوص ينظر دوغلاس Malti-Douglas في بحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الأحلام، الأعمى والعلاماتي Semiotic للإعلام ترجمة سيّر الحياة)، وللمؤلف نفسه بحث بالإنجليزية الموسوم بـ (النصوص وتحريفاتها) المذكور آنفاً؛ وكذلك ينظر فهندريك H.E.Fahndrich في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (وفيات الأعيان لابن خلكان؛ طريقة فهم جديدة) المنشور في مجلة Jaos مجلد ٩٣ (١٩٧٣) ص ٤٣٢-٤٤٥.

وهاهنا ينبغي الإشارة إلىٰ أنه علىٰ الرغم من أن الشخص الثالث هو التعبير السائد في الطبقات البروسوغرافيا – وفي الواقع، في السير الذاتية والتاريخ الكرونغرافي أيضاً – فالمقاطع التي هي بصيغة الشخص الأول حتماً تظهر كثيراً (ولكي نميّز بين هذه عن السير الذاتية بقلم الكاتب نفسه autobiography وسوف أشير إلىٰ تلك كمقاطع من السير الذاتية).فالتحول هذا بوسعه أن ينتج روايات أكثر بكثير من تلك التي في المثال السابق، وتنتج مقاطع وفقرات مهمة وملهمة من السير الذاتية. وبالإمكان الإشارة إلىٰ مثال نستقيه من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. فهناك أحد عشر سطراً قدّمها الخطيب في ترجمته لابن شاهين (المتوفىٰ ٣٨٥هـ / ٩٩٥). فالخطيب البغدادي يذكر ابن شاهين نفسه، الذي يصفه الشخص الأول كيف جاء ليتعلم شجرة نسبه وتاريخ الولادة (وقد قرأها في بعض الكتب العائدة إلىٰ أبيه). ويتحدث شيئاً عن ثقافته في زمن مبكر "فبقدر ما أتذكر، قد كتبت حديثاً لأول مرة بيدي وكان ذلك في سنة ٣٠٨، عندما كان عمري أإحدىٰ عشرة سنة". هذا التفصيل الأخير في السيرة الذاتية قد يظهر للعيان بأن الخطيب البغدادي يوجهه لسيرة ذاتية لنفسه، فهو أولاً أخبر قارئه عن الأشخاص الثلاثة، وكانوا جميعاً شيوخه السابقين وهذا أيضاً قد ابتدأ كتابة الحديث في عمر الإحدىٰ عشرة، وهو الأول الذي عاش إلىٰ عمر ناهز ١٠٣ سنة، والثاني إلىٰ عمر ناهز ٩٠ سنة، والأخير إلىٰ عمر ناهز ٨٠ سنة (إن مثل هذا العمر المديد يعدّ عمراً غير استثنائي بالنسبة إلىٰ راوية الحديث) ويقدّم الخطيب البغدادي متطوعاً الحقيقة بأنه أمّ المصلين في جميع الصلوات علىٰ أرواح هؤلاء الثلاثة عند وفاتهم. ثم انتقل بعد ذلك إلىٰ الحديث عن مولده واصفاً كيف أنه سمع الحديث في عمر هؤلاء نفسه أي في سن الأحد عشر، وعند تحدثه عن مولده نبدأ فهم جواب السؤال لماذا كان الخطيب

البغدادي مستطرداً كثيراً؟.والآن فقط عاد إلى ابن شاهين بغية أن يعمل مسحاً لنتاجه الأدبي الضخم وغير العادي، فقد روي أن مؤلفاته فاقت الثلاثمائة (٣٠٠) مجلد وأن عدداً منها قد بقي حياً *ولذا فإن الشخص الثالث

---

* سأنقل نصّ الخطيب البغدادي عن ابن شاهين،إذ تحدّث الخطيب البغدادي عن عمر بن أحمد أبو حفص ابن شاهين قائلاً (عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ بن سراج بن عبد الرحمن أبو حفص الواعظ المعروف بابن شاهين سمع شعيب بن محمد الذارع).كان ثقة أميناً يسكن الجانب الشرقي من ناحية المعترض أخبرنا أبو الفتح عبد الكريم بن محمد بن أحمد المحاملي قال ذكر لنا أبو حفص بن شاهين إنه عمر بن أحمد بن أحمد بن عثمان .. وقال ومولدي وجدته في كتب أبي علي ظهر كتاب حدثه بها فيه محمد بن علي بن عبد الله الوراق عن أبي نعيم عن مسعر فقرأت مولدي على كتابه. ولد ابني عمر في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين وأول ما كتبت الحديث مما عقلته – وكتبت بيدي – في سنة ثمان وثلاثمائة وكان لي إحدى عشرة سنة، وكذا كتب ثلاثة من شيوخنا في هذا السن، فتبركت بهم.

قال شيخنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز، فأملى علينا إملاء قال وجدت في كتاب جدي أحمد بن منيع: ولد ابني أبو القاسم عبد الله بن محمد يوم الاثنين في شهر رمضان سنة أربع عشر ومائتين ومات يوم الفطر سنة سبع عشر وثلاثمائة، وصليت عليه ودفن بباب التبن. وأول ما كتب سنة خمس وعشرين عن إسحاق الطالقاني وغيره فكان ابتداء كتبه للحديث – يعني وله إحدى عشرة سنة – وأما أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد فإنه بلغني أنه ولد في سنة ثمان وعشرين ومائتين ومات في آخر سنة ثمان عشرة وثلاثمائة فكان عمره تسعين سنة وأول ما كتب فيها بلغني عن الحسن بن عيسى بن ما سرجس الخراساني سنة تسع وثلاثين. وصليت عليه ودفن بباب الكوفة، وأما عبد الله بن سليمان ابن الاشعث فإنه ذكر أنه قال ولدت سنة ثلاثين ومائتين وسمعته يقول رأيت جنازة إسحاق بن راهويه وكنت مع ابنه في الكتّاب وأول ما كتب عن محمد بن سلمة بمصر سنة إحدى وأربعين ومائتين. قال، فقال لي أبي: يا بني أول ما كتبت كتبت عن رجل صالح ومات في آخر سنة عشرة وثلثمائة في أيام التشريق وصليب عليه ودفن بباب البستان.

قلت [أي الخطيب البغدادي] في قوله [ويقصد في قول ابن شاهين] ما كتب عبد الله بن سليمان عن محمد بن سلمة وهم وإنما هو عن محمد بن أسلم الطوسي. وقد ذكره أبو حفص في موضع آخر على الصواب، وأوردناه في أخبار أبي بكر بن ابي داود، حدثنا التنوخي قال، قال لنا ابن شاهين، ولدت في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين وأول سماعي في سنة ثمان وثلاثمائة فتفاءلت في ذلك بشيوخي النبلاء ورجوت أن أكون مثلهم.

قلت [أي الخطيب البغدادي] وكذلك أنا أول ما سمعت الحديث وقد بلغت إحدى عشرة سنة لأني ولدت في يوم الخميس لست بقين من جمادي الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وأما ما سمعت في المحرم سنة ثلاث وأربعمائة. أخبرنا القاضي أبو الحسين محمد بن علي بن محمد الهاشمي. قال، قال لنا أبو حفص ابن شاهين ولدت في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين، وأول ما كتبت الحديث سنة ثمان وثلاثمائة وصنفت ثلاثمائة مصنف وثلاثين مصنفا، أحدهما التفسير الكبير ألف جزء، والمسند ألف جزء وخمسمائة جزء والتاريخ مائة وخمسين جزءاً أو الزهد مائة جزء، وأول ما حدثت بالبصرة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. سمعت ابن شاهين كثيراً، وكان يقول كتبت بأربعمائة رطل حبر. حدثنا القاضي أبو بكر محمد بن عمر بن إسماعيل الداودي قال سمعت أبا

عند المؤلف سلّم إلى موضوع الشخص الأول، وهذا بدوره سلّم إلى المؤلف الشخص الأول، وهي حالة من التمازج والتشابك في الرواية التي تصوّر للمرء أو يعتقد المرء أنها غير مترابطة إلى النقطة أو المسألة في الاستطراد نفسه، ألا وهي أسماء المحدّثين قد تتغير ولكن أنموذج التعلم والمعرفة بين مجموعة الأفراد غير متغير[1].

مؤلفات الطبقات:

بعض من الذي سبق ذكره ينطبق على أعمال ومؤلفات الطبقات. فالسير الذاتية الموجزة، التي تمّ كتابتها عادة بصيغة الشخص الثالث تؤدي مهمة كوحدة أساس بالنسبة إلى الرواية، وقد رتبت في هذه الحال على شكل جماعة متعاقبة. (وهناك مؤلفات للطبقات تكون فيها الطبقات classes تمثل صيغاً أو أصنافاً من الفضلاء من الطراز الأول، أكثر من أن تكون جماعات تاريخية كرونوغرافية، وإنني سوف أترك الحديث عن هؤلاء جانباً الآن).فإذا كانت أكثر مؤلفات الطبقات تفهرس رجال العلم، فإن هناك استثناءات دائماً، وواحد من هذه الإستثناءات يتوافر في تاريخ الدولة الأيوبية من قبل أحمد بن إبراهيم العسقلاني (المتوفى ٨٧٥هـ / ١٤٧١) الذي رتّب فيه

حفص بن شاهين يقول يوماً، حسبت ما اشتريت به الحبر إلى هذا الوقت فكان سبعمائة درهم. قال الداودي وكنا نشتري الحبر أربعة أرطال بدرهم، قال وقد مكثت ابن شاهين بعد ذلك يكتب زماناً. قال: كان ابن شاهين ثقة مأموناً قد جمع وصنف ما لم يصنف أحد. [الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد مدينة السلام ج١١ ص ٢٦٥-٢٦٧ [المترجم].

[1] كتاب أحمد بن إبراهيم العسقلاني هو (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب) بغداد ١٩٧٨) ؛الخطيب البغدادي ؛ تاريخ بغداد، جزء ١١ ص٣٦٥ وما بعدها من الصفحات؛ وعن ابن شاهين ينظر فؤاد سزكين GAS ص ٢٠٩ وما بعدها من الصفحات (لإذ أن هناك عناوين عدة قد حققت منذ سنة ١٩٦٧)؛ وعن مقاطع أو فقرات من السيّر الذاتية ينظر كلباتريك Kilpatrick H.(السيرة الذاتية والأدب العربي الكلاسيكي) المنشور في مجلة JAL مجلد ٢٢ (١٩٩١) ص ١-٢٠؛ وينظر رينولدز Reynolds المحقق لكتا(تفسير أو ترجمة الذات)المشار إليه آنفاً.

أفراد البيت الحاكم على صيغة طبقات. وعلى الرغم من أن مؤلفات الطبقات لم تصل إلى الحجم الكبير الذي وصلت إليه الكثير من المعاجم المعنية بسير التراجم، وأن الكثير منها كان كبيرا، فهي مؤلفات بمجلدات كثيرة كانت تجمع الآلاف من سير الحياة الموجزة ، فمثلاً طبقات ابن سعد تحتوي على ٤٠٠٠ أربعة آلاف مادة وموضوع من بينها حوالي ستمائة ٦٠٠ امرأة. وإن معجماً معنياً واحدا في سير الحياةً فقط ربما قد يسبب في كتابة تتمات وتكملات، وهكذا الحال بالنسبة إلى بعض أعمال ومؤلفات الطبقات، فتاريخ ابن أبي يعلى عن الحنابلة(طبقات الحنابلة) قد تواصل واستمر في كتاب تتمة لابن رجب (المتوفى سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) وقد لخّص العليمي كتاب أو عمل ابن رجب (وتوفى العليمي ٩٢٨/ ١٥٢١م).ومهما يكن فهناك في الأقل متغايران علينا أن نرسمهما أو نشير اليهما، الأول في الوقت الذي كان به ابن خلكان قد افتتح الطريق بسلسلة من المعاجم المعنية لسير الحياة على هيأة دوائر معارف معنية بسير الحياة، إذكانت الشهرة هي المعيار في التضمين، فإن رواية الطبقات قدبقيت مقصورة، ولدينا مؤلفات في الطبقات مرتبة ترتيباً عملياً مهماً جداً في أدب الرسائل الإسلامية (ولاسيما الشعراء والفلاسفة والفقهاء والمحدّثين)؛ ولكن ليس هناك مثال يشتمل عليها جميعاً.ولعل المرء يظن أن القوة الدافعة إلى ترتيب وتنظيم المعلومات بهذه الخطوط قد يكفي ويفي بالحاجة من نواحي أخرى: وفي المثال الأول، هو ذلك الاتحاد الوثيق في تزويج التاريخ الحولي الكرونوغرافي بالطبقات البروسوغرافي قد أنجزه ابن الجوزي (إذ هناك ملاحظات ومعلومات غنية ووافرة في نهاية كل مادة للمدخل السنوي)؛ أما في الثانية فتتمثل بظهور المعاجم المعنية بالسير المئوية، وأول من أدخل هذا النمط في الكتابة ابن حجر.والنقطة الثانية تظهر في المغايرة والتباين وهي مسألة مهمة وطريفة تماماً. فبينما كان النظام الألفبائي

لمؤلفات المعاجم خاضع وتابع للحوليات الكرونولوجية وذلك بهدف الملائمة والإفادة، فهي توضع على هوامش أو حافات التدوين التاريخي نتيجة لذلك، فالحوليات التاريخية الكرونوغرافية تنظّم أو تدّبر مؤلفات الطبقات لتوضع بشكل متوازن في مركزها من التدوين التاريخي. وهذا يعني أنه بالإضافة إلى الدور الذي قد أدّته المؤلفات كمراجع، فإنها تقدم استحقاقاً ومطالبة بشأن التاريخ. وفي الواقع فإن الأحتكام إلى الطبقات قد أدّى إلى نتائج طيبة أبعد من الفائدة والمنفعة الأكاديمية. فهي تصل إلى أن تكون لها مهمة ووظيفة اجتماعية، ولا سيما في تشكيل وتكوين المدارس والمذاهب الفقهية، وجميع هذه المذاهب قد زوّدت نفسها بالطبقات والطبقات المرتبطة بالتواريخ خلال القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري وأوائل القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، ويبدو أنه ليس هنالك أكثر من كتابين في مؤلفات الطبقات قد تمّ كتابتهما خلال أواخر القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة وأوائل القرن التاسع الميلادي/ أوائل القرن الثالث الهجري. وبحلول أوائل القرن الحادي عشر / أوائل القرن الخامس الهجري، أي في الوقت الذي أصبحت فيه تلك المدارس والمذاهب الفقهية متبلورة وصار التعليم والمعرفة أكثر احترافية أو أضفت عليها السمة الاحترافية، وأحد التقادير قد قدر عددها بثمان وعشرين[1].

وبوسعنا فهم بعض الشيء عن المهمة والوظيفة الإجتماعية التي أدّتها مؤلفات الطبقات إذا ما نظرنا باختصار إلى مؤلفات وأعمال قد تزامنت وترافقت مع حالة تعدّ من أكثر الحالات شهرة في جميع مدارس العصر

---

[1](ذيل على طبقات الحنابلة) لابن رجب قد طبع في القاهرة ١٩٥٣؛ كتاب العليمي (مختصر طبقات الحنابلة) طبع في دمشق ١٩٢١ وبعد طبع في بيروت ١٩٨٣؛ وبالنسبة إلى العدد أو الإحصاء ينظرMakkdisi (طبقات – ترجمة الحياة،) ص ٣٧٤.

الوسيط (وهو مؤسسة للتعليم والمعرفة العالية) ألا وهي مدرسة النظامية في بغداد، التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك (المتوفى ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م). والذي يستحق الملاحظة هنا إن من بين هذه الأعمال والمؤلفات لأول من ظهر فيها وهو ابن إسحاق الشيرازي (المتوفى ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) في كتابه طبقات الفقهاء، وهو حسبما يبدو قد انتهى منه بعد مدة وجيزة من سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م، وكذلك فقد كتب الذين جاءوا من بعده ومن بينهم أبو عبد الوهاب الفارسي (المتوفى ٤٩٠هـ / ١١٠٦م) الذي كتب كتاباً في الطبقات/ البروسوغرافيا بعنوان مماثل (تاريخ الفقهاء) وإن كلا التاريخين هما بخصوص الفقهاء، فالشيرازي الذي أعلن عن كتابه بأنه كتاب مختصر (أو مرويات مختصرة) قد بيّن في مقدمته للكتاب أنه يهدف إلى تحديد هوية وتواريخ حياة العلماء. وبكلمة أخرى فإنه بالإمكان أن ينتفع منه كمؤلف أوكمرجع عن الفقهاء. ولكن من وجهة النظر هذه فإن الكتاب يبدو أنه كان قاصراً عن بلوغ هذا الهدف أو في الأقل لم يبلغه لوجهين أو حالتين،إذ أخفق الشيرازي في تزويد الكتاب بتواريخ وفيات الكثير من أولئك العلماء الذين أعلنهم في كتابه. كذلك على الرغم من الخطة الشاملة للكتاب فقد كانت تاريخية كرونوغرافية، غير أن الترتيب ضمن الأقسام المفردة لم يكن ترتيباً تاريخياً كرونولوجيا ملائماً. وفضلاً عن هذا فالكتاب هو وسيلة وأداة غير ماضية جداً للقيام بمهمة دقيقة في مقياس ضبط الأسانيد[1].

ومهما تكن نواقص هذا الكتاب كمرجع، فإنه قد قام بوظيفة فعّالة بوصفه كتاباً مبرمجاً في التاريخ البرنامجي وهذه الحال تتضح بطريقين: الأول منهما، إن كتاب الشيرازي يعدّ مسحاً للفقهاء البارزين لجميع المذاهب

---

[1] أو كما عبّر عنه مقدسي Makdisi (طبقات – ترجمة الحياة) ص ٣٨٧ (كان المقصود من طبقاته أن تدرس وأن لا تستخدم بشكل أساس ككتاب مرجع يذكر في الهامش).

الرئيسة، في الوقت الذي كان فيه الآخرون قد شرعوا وابتدأوا في كتابة الطبقات الخاصة بالمذاهب والمدارس المفردة،وفي هذا السياق علينا القول إن ذلك يرجع إلى تزايد التنافسات القائمة بين المذاهب ؛ فكان هذا الكتاب يعدّ كتاباً إسترضائيا. وثانيهما، وهو أن الكتاب عرض سمة أو مزية مألوفة وهي الإشارة إلى العدد الكبير من مؤلفات الطبقات – لذا فقد أرسى كتابه بل ثبت التعليم والمعرفة في ذلك الزمن في علم الشخصيات البارزة والموثوقة عن الماضي؛ وذلك لأن أي شخص من أحد المذاهب الأربعة (وفي هذه الحال خمسة مذاهب) فقهية، هذه الحال من الطبيعي أن يقصد بها صحابة النبي، في جانب، وبالنسبة إلى الشخصيات البارزة المؤسسة لهذه المدارس من جانب آخر.فتاريخ الشيرازي في حقيقته معنيّ بما له علاقة بفرع من البحث العلمي أكثر من عنايتهبنقل ورواية الحديث. في حين يزعم النسّابة الحقيقي أنه يرسم خارطة لأنواع الرواية والنقل، وهذه المزاعم والمطالب النسبية [من الأنساب] لرسم خارطة نقل أو رواية المذهب والعقيدة. وتماماً كالحال في الأنساب القبلية التي كان مخطط لها لأن تذكر أفراد القبيلة المهمين، ولاسيما أولئك المطلعين على أهمية النسل والذرية الفرعية – وكذلك تقوم هذه الأنساب بشكل لاحتواء أولئك العلماء الذين قدّموا إسهامات هامة بطريقة أو أخرى فقط. لم تكن هنالك من غاية أو مسألة أساس لكاتب في البروسوغرافيا/ الطبقات نظير الشيرازي يضمّن كل عالم من العلماء، أكثر مما كان النسّابة أو عالم النسب في تضمين جميع أفراد القبيلة. إنه من غير المهم إثارة مسألة كم كان إسهامه متواضعاً في حياة القبيلة، إذ كان ذلك عن طريق الدراسة والتلمذة تحت إشراف عالم شافعي هو الأكثر أهمية، والاكثر منه أن يمارس ذلك التلميذ الفقه على وفق نقل المذهب الشافعي. عندئذ بوسع المرء أن يصير شافعياً. ولهذا فالذي يهم هو ليس بالضرورة ذكر كل فقيه، ولكن المهم

أن كل فقيه مهم عليه أن يكون مرتبطا أو مؤسسا. وهكذا نقرأ بأن الشيرازي نفسه قد تعلم تحت اشراف أبي الطيب الطبري (المتوفى ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨).(هنا علينا أن لا نخلط بينه وبين المؤرخ أبي جعفر الطبري) الذي كان قد تعلم بإشراف أبي الحسن الماسرجي (المتوفى ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) الذي كان قد تعلّم بإشراف أبي إسحاق المروزي (المتوفى ٣٤٠هـ / ٩٥١م). وهذا أيضاً قد تعلّم تحت إشراف ابن سريج (المتوفى ٣٠٦هـ / ٩١٨م) ذلك الذي وصفه الشيرازي بأنه ليس هناك من هو أعظم من تابعلشيخه نفسه أي الشافعي (المتوفى ٢٠٥هـ / ٨٢٠م) وهناك أنموذج مماثل آخر قد جاء بعد السلمي (المتوفى ٤١٢هـ / ١٠٢١م) في طبقاته للمتصوفة، والجيل الأخير لسير الحياة التي دوّنها (١٠٣) سيرة حياة تتضمن جدّه وهو شيخه[1].

التاريخ الكرونغرافي:

التاريخ الكرونغرافي من بين جميع الأصناف أو الصيغ التاريخية - تقريباً - الذي يستحق الاحترام الكبير من قبل المؤرخين المحدثين–أي المعاصرين--، فالمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (المتوفى ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) والذي ترجم إلى اللغة اللاتينية في مدة أبكر من سنة ١٧٥٤م، وإن

---

[1] أبو إسحاق الشيرازي. طبقات الفقهاء (بيروت ١٩٧٠)؛ وبالنسبة إلى الشيرازي وتعصّب زمانه فقد اعتمدت على شاومنت E.Chaumout في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم بـ (كتاب اللمع في أصول الفقه لابن إسحاق الشيرازي (المتوفى ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) مقدمة ونقد وفهرسة المنشور في مجلة في جامعة سانت جوزيف
Melanges de L'Universite Saint- Joseph
مجلد ٥٣/ ١٩٩٣-١٤٩٩٤) ص ٢٢ وما بعدها؛ وفيها يتعلق بالمدرسة والكثير من هؤلاء العلماء ينظر ملجرت C.Melchert في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (تكوين أو تشكيل المدارس الشرعية السنيّة: في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين) المطبوع في ليدن ١٩٩٧، الفصل الرابع، وبالنسبة إلى السلامي ينظر مجددي J.Mojaddedi في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (شرعنة التصوف في رسالة القشيري) المنشور في مجلة (SI) مجلد ٩٠ لسنة ٢٠٠٠ ص ٣٩ وما يليها من الصفحات.

ظهور التاريخية في القرن التاسع عشر للميلاد وفقه اللغة الشرقي Oriental Philology قد اندمجا سوية ليس لإنتاج الإعادة الأولى لبناء التاريخ الإسلامي السياسي، نظير الأجزاء الخمسة من تاريخ الخلفاء Geschichte der califen الذي ألفه غوستاف فايل (أو فيل) G.Weil (المطبوع ١٨٤١-١٨٦٢)فقط ولكن كتاب أبي الفداء يعدّ أول التحقيقات (وفي بعض الحالات لم يزل الكتاب إلى حدٍّ الآن يعدّ مرجعاً) لعدة مؤلفات قيّمة في تاريخ الكرونغرافية الإسلامية.وهناك قائمة تتضمن تاريخ حمزة الأصفهاني وهو تاريخ سني ملوك الأرض (المطبوع ١٨٤٤) وكتاب السلوك إلى معرفة دول الملوك للمقريزي (المطبوع في باريس ١٨٤٥) وكتاب المغازي للواقدي (المطبوع ١٨٥٥) والكامل في التاريخ لابن الأثير (المطبوع ١٨٧٦) ومروج الذهب للمسعودي (المطبوع ١٨٧٧) وتاريخ اليعقوبي (المطبوع ١٨٣٣) والأخبار الطوال للدينوري (المطبوع ١٨٨٨) وأخيراً الإنجاز الذروة تاريخ الطبري (المطبوع ١٩٠١). وحقيقة إن المستشرقين لم يكونوا على وجه الحصر تماماً في التزامهم أو تسليمهم بالتاريخ الكرونغرافي نظراً لأن السيرة النبوية لابن هشام (وقد طبعت في ١٨٦٢) وكتاب طبقات ابن سعد (المطبوع ١٩٠٤-١٩٤٠) قد وجد من يحققها. وعلى أية حال كانت هذه التحقيقات مبكرة جداً، ما عدا الاستثناءات.فالمهنية تركّز طاقاتها وإمكاناتها بشكل أقل آنذاك على المؤلفات التي تتمتع بأهمية ثقافية ضمن الرواية الإسلامية، كما هو الحال في السير النبوية المتأخرة وكذلك في الرواية البروسوغرافية/ الطبقات الضخمة أكثر مّما هو الحال بالنسبة للمصادر التي بوسعها الإجابة عن التساؤلات تلك التي يرغب المؤرخون المحترفون بالإجابة عنها.ففي القرن التاسع عشر الميلادي ذلك الذي يعني تأسّس تاريخ حولي كرونولوجي سياسي والتشديد على بداياته وأصوله.إن الكثير من مؤلفات وأعمال

المحترفين العظيمة التي تعدّ مراجع (نظير النسخة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية التي طبعت بين سنتي ١٩١٣-١٩٣٦، وفون زامباور E.V.Zambaur في كتابه (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي) الذي ظهر في سنة ١٩٢٧، باللغة الفرنسية* ، جميع هذه المؤلفات قد استندت باتقان الى مؤلفات التاريخ الكرونوغرافي التي تمّ تحقيقها خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

والآن علينا أن نلحظ أن ذلك الذي له صلة بالصيغ والأشكال الأخرى للتدوين التاريخي أو علم التاريخ. فالتاريخ الكرونوغرافي قد أصيب باخفاق على نحو سيء، ولذا فمن المحتمل أن الأمثلة والمجموعة المحقّقة من التدوين التاريخي الإسلامي قد بالغت بالأهمية التي تحتلها الكرونوغرافية داخل الرواية. وها هنا يكفينا ملاحظة بأن هناك صنفين أساسيا من التاريخ الكرونوغرافي، التاريخ على نسق السنوات، إذ رتبت فيه الرواية ترتيباً على صيغة (عناوين) عناوين رئيسة مرتبة على وفق السنين الهجرية، وعلى نسق تاريخ الخلفاء الذي نظم هو الآخر ورتّب على تعاقب سني حكم الخلفاء، وهذه بصورة عامة تبدأ باعتلاء الخليفة دست الخلافة وتنتهي بموته، وكما رأينا بالفعل أن تاريخ الخلافة يبدو أنه ظهر أولاً، ولعله قد ظهر في قوائم أسماء الخلفاء التي ثبتت صحتها بالفعل في أوائل القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة.تاريخ الخلافة كان دوماً يعمل في ظل الرواية الحولية الضخمة جداً، غير أنه كان منتجاً بصورة مقبولة، ولعله تمتع حتى وصل أوجه في القرون التاسعة والعاشرة والحادية عشر للميلاد/ الثالثة والرابعة والخامسة للهجرة. فضلاً عن تواريخ الخلفاء الحقيقية، فقد انتجت تواريخ جامعة

---

* [وقد ترجم إلى اللغةالعربية وطبع في القاهرة سنة ١٩٥١ المترجم]

وشاملة، نظير تاريخ اليعقوبي ومروج الذهب للمسعودي وتواريخ الوزراء والكتّاب أمثال كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري (المتوفىٰ ٣٣١هـ / ٩٤٢م).وهناك أيضاً عدد آخر من الأمثلة والنماذج المتأخرة نظير كتاب الإنباء في تاريخ الخلفاء تأليف ابن العمراني (المتوفىٰ ٥٥٣هـ/ ١١٤٨م)* وتاريخ الخلفاء للسيوطي (المتوفىٰ ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)؛ وهنا ربما يضمّن المرء أيضاً كتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقىٰ (كان حياً في آخر القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري)* الذي تنظّم علىٰ صيغة الدويلات. وعلينا أيضاً أن ندخل في الحسبان مجالاً للهجناء العرضيين، وأحدهم كتاب العيون والحدائق لمؤلف مجهول من أواخر القرن الحادي عشر / الماضي الهجري• إذ نجده يداخل الحوليات/ التواريخ مع الفصول الخاصة بالخلفاء، والمثال الآخر هو الجزء التاريخي من كتاب الأوراق لمحمد بن يحيىٰ الصولي، إذ نجد فيه التواريخ قد عيّنت وحدّدت ضمن الفصول الخاصة بالخلافة[1].فما الإغراء أو الجاذبية في الكتابة في هذا الصنف أو في هذا

---

* الواقع أن علي بن محمد المعروف بابن العمراني قد توفي بحدود سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤ حسب تقدير محقق الكتاب د. قاسم السامرائي، وقد طبع الكتاب في برلين ١٩٧٣ [المترجم].

* حقيقة إن محمد بن علي بن طباطبا المكنىٰ بابن الطقطقىٰ قد توفي سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م وطبع كتابه الفخري أول مرة في القاهرة سنة ١٩٢٧ [المترجم].

• [وفي رواية أخرىٰ إنه من القرن السابع الميلادي/ الثالث عشر للميلاد. المترجم]

[1] الأقسام الباقية من كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري قد طبعت في القاهرة ١٩٣٨ وبعدها طبعت في بيروت ١٩٦٤ والأخيرة (بيروت) بعنوان (نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب)؛ وأقسام من القسم الثاني لكتاب العيون لمؤلف مجهول قد طبعت في القرن التاسع عشر للميلاد وتتضمن هذا التحقيقات أو النسخ تلك التي طبعت في ليدن ١٨٦٩، والتي تم طبعها بعنوان (نصوص تاريخية عربية

Fragmenta Historicorum Arabicorum

وأن قسمين من الجزء الرابع قد طبعا في الكتاب (العيون والحدائق في أخبار الحقائق) جزء ٤ (١) (دمشق ١٩٧٢) إذ هناك عرض وتقويم للتاريخ المطبوع نجده علىٰ ص ٩-١٣، والرابع (٢) طبع في دمشق ١٩٧٣؛ وتاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول (موسكو ١٩٦٧). ويبدو أيضاً أنه يرجع إلىٰ القرن الحادي عشر؛ ينظر أيضاً كتاب (نبذة من كتاب التاريخ) المطبوع في موسكو ١٩٦٠، وأيضاً كتاب الصولي قد حقق جزئياً بعنوان (أخبار الراضي لله والمتقي لله) طبع في بيروت ١٩٣٥، وترجمة كنارد

الأنموذج من التدوين التاريخي، فضلاً عن الكتابة في الحوليات؟. والمثير أن الكثير من الأمثلة قد وردت إلينا من خارج حدود الكتابة التاريخية تلك التي تتاخم وتقترب من الأدب، في الوقت الذي كان فيه علماء التاريخ الكرونوغرافي المحدّثين، على خلاف هذا، ويظهر أنهم كانوا يميلون باتجاه الكتابة بصيغة الحوليات.إذن لدينا مسألة مهمة في التوكيد الضمني والكامن. والواقع إن المرء يتساءل ويندهش إن كان هذا لا يرتبط بثقافة واقتصاد البلاط بوصفه الراعي والداعم لها. ولعله يقال أن تاريخ الخلافة يمثل العاهل وكأنه القوة الضاغطة للتاريخ نفسه. كما أنه بالتأكيد هناك أسباب أخرى غير مثيرة، وأحد هذه الأسباب تخليص أو اسعاف المؤرخ بإن إنجاز تواريخ حولية كرونولوجية هي مضبوطة، وهي مهمة صعبة ولاسيما عندما تكون المعطيات والمعلومات قد وصلت إليه دون توقيت تاريخي. مثلاً تعبير (جعفر قد عمل كاتباً خلال حقبة حكم المعّز) قبل موت أخيه. فهذا المثال الافتراضي هو مناسب لتاريخ الخلافة على نحو ممتاز ولكنه يفرض جدلاً وإثارة أسئلة كثيرة جداً بالنسبة لمؤرخ الحوليات. فللمؤرخ الذي يكتب تاريخ الخلافة مهمة سهلة نسبياً في أحداث هذه المعلومات المتباينة كالتي لديه فإنه بحاجة فقط إلى معرفة في أي عهد أو حكم وقعت هذه الحادثة. ولذلك إذا ما أخذنا بنظر الأعتبار مثل هذه السمات، عندئذ توحي إلى أن التاريخ الكرونوغرافي الملكي أو الخلافي يتناسب مع أولئك الذين تعدّ اهتماماتهم في التاريخ الكرونولوجي أقل من اهتماماتهم بالثقافة ولكرونولوجي أكثر من تعلقها بالأشخاص.

M.Canard بعنوان باللغة الفرنسية Histoire de la dynastie abbaside de 322 a333/933 a 944 أخبار الراضي بالله والمتقي بالله (الجزائر ١٩٥٠)؛ وبعض من مواد المؤلفات غير المطبوعة هي الآن متوافرة جزئياً وحققت (وطبعت في بترسبورغ ١٩٩٨).

فمن الطبيعي أن تنظيم الرواية على وفق حقب حكم الخلافة له مساوئه ومضّاره، فمجرد امتداد الحدث عبر سنتين متتاليتين هذا بحدّ سيسبب مشاكل بالنسبة إلى المؤرخين الذين يكتبون بنهج وبصيغة الحولية. والمعروف أن التاريخ لا يتوقف إذا ما أعقب خليفة خليفة آخر، فالحدث الذي يبدأ في عهد خليفة ربما ينتهي خلال عهد خليفته الذي يعقبه. وقد حلّ المقريزي واحدة من هذه المشاكل والمصاعب في (سلوكه) عندما كان يناقش معركة ما امتدت لسنتين في مدخل سنة واحدة (فمثلاً ٧٥٥ هجرية تعادل بالتقويم الميلادي ١٣٥٤-١٣٥٥) وذلك لأن "روايتها في تعاقب متصل أكثر إفادة بالنسبة إلى القارئ". والمهم أيضاً كيف لنا معالجة فترات من الاضطرابات والهيجان السياسي إذ لا يكون هناك أي فرد حاكم أو أنه يحكم خلال هذه الحقبة المضطربة؟. وقد عالج اليعقوبي التوتر الذي حدث في الحرب الأهلية الثانية (حوالي ٦٦-٧٢هجرية/ ٦٨٥-٦٩٢م) ذلك بأنه كان يستجمع معاً المعلومات بعنوان واحد كما ذكر مثلاً (أيام مروان بن الحكم، عبد الله بن الزبير وبعض من عهد عبد الملك). إنه قد حلّ مشكلة المقريزي وذلك بابتداء روايته بعد عبد الملك (٦٦-٨٦ هجرية/ ٦٨٥-٧٠٥م) وأدلى بتذكرة لقرائه بفقرات قبل ذلك، وبهذه الطريقة كشف عن تحديد عملي مثير للخلافة نفسها فيقول:"قد قدمنا بالفعل رواية كيف أن عبد الملك أدّى يمين الولاء خلال حكم ابن الزبير، حول كيف كانت الأقاليم في جيشان أو في ثورة، وكيف كانت كل ثورة من هذه الثورات قد سحقت... فضلاً عن مسائل أخرى كانت جزءا من الرواية الكاملة بعد ابن الزبير، والبعض يناقش أن الخلافة ترجع بصدق إلى أي واحد يسيطر على الموضعين المقدمين في مكة

والمدينة – وقيادة أو إمرة الحجاج، ولهذا السبب فإننا وضعنا رواية مروان والبعض من عهد عبد الملك في رواية ابن الزبير)[1].

فابن الزبير قد ملأ الفراغ السياسي الذي حدث بانحلال السلطة السفيانية الاموية في سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م، ونجح في السيطرة على الكثير من الجزيرة العربية والعراق، وقد ضرب النقود وعيّن الولاة وانتهى حكمه من قبل عبد الملك في سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م.

ولهذا فإن التاريخ الحولي الكرونولوجي للخلافة له جاذبيته، وواحدة من هذه الأمور الجاذبة هي أنه كان يتسم بالتسامح بقدر ما يتعلق بالتاريخ الكرونولوجي وفي هذه المسألة فإنه يتغاير بشدة مع التاريخ الكرونوغرافي الحولي، إذ أن الدقة والضبط التاريخيين هما مقدران تقديراً عالياً. ولهذا فقد تسببّا في ظهور تطبيق وهو تقسيم الأجزاء الكرونوغرافية تجزئة أكثر؛ وهذه هي عين الحال مثلا في القليل الذي تبقى من التاريخ الكرونوغرافي للمسبّحي* إذ كان كل مدخل لكل سنة يقسم على أجزاء وعلى مداخل شهرية. فطبيعة الرواية الحولية عندئذ تصبح أكثر وضوحاً إذا ما ألقينا نظرة قصيرة على مدخل سنة ٩٦هـ / أيلول ٧١٤- أيلول ٧١٥م) في كتاب التاريخ لخليفة بن خياط. وهذه السنة تمثّل السنة الأخيرة من حكم الخليفة الوليد بن عبد الملك (حكم بين سنتي (٨٦-٩٦م- ٧٠٥-٧١٥م).فهذا

---

[1] المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة ١٩٥٨) ج٢ ص ٩١٤؛ اليعقوبي، تاريخ ج٢ ص ٣٢١.

* (وهو الأمير المختار عزّ الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرّاني صاحب التصانيف . قال الذهبي في العبر إنه كان رافضيا . وقد صنّف كتاب تاريخ مصر وكتابا آخر في النجوم وكتابا التلويح والتصريح من الشعر وتوفي سنة ٤٢٠هجرية/ ١٠٢٩م. الحافظ السيوطي ؛ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة أولى ١٩٦٧ ص ٥٥٤ المترجم)

التاريخ الحولي مهم فقط لأنه التاريخ الأقدم الذي لدينا*، وهو المؤلف الذي لم ينل هو ولا كتابه سوى سطرين من فهرست ابن النديم، كذلك فكتابه المختصر لم يستحق أكثر من ذلك على الرغم من أهميته، فلا يخبرنا ابن النديم سوى القليل. فضلاً عن أنه لم يذكر في رواية التدوين التاريخي المتأخرة. ومع أنه مختصر فهو جدير بالملاحظة من نواح أخرى. وكما هو الحال في كثير من الحالات المتكررة جداً فإن الكتاب بقي حياً في نسخة واحدة (وفي هذه الحال نسخة مغربية)، إذ بقيت هذه النسخة التي نقلت ونقحت من قبل العالم القرطبي بقي بن مخلد (المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م). إذ إنه ألتقطه خلال رحلاته إلى العراق**. وخليفة نفسه كما يظهر كان عاجزاً عن السفر والترحال حسب مقاييس عصره، وليس هنالك من سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأنه قد

---

* عُرف أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري الشيباني بمعرفته التاريخية، فضلاً عن علمه الغزير بالأنساب وطبقات الرجال، وصفه ابن خلكان وشمس الدين الذهبي بالإمام الحافظ للحديث النبوي الشريف. وتعبّر فلسفة خليفة في تفسير التاريخ بأنه يعادل الوقت، إذ يقول ما نصه "هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عدد نسائهم ومحل ديونهم" تاريخ خليفة، تحقيق العمري ج١ ص ٥، وينظر ابن خلكان: وفيات الأعيان(تحقيق أحسان عباس ج٢ ص ٢٤٣؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ (ط٣/ ١٩٧٥) ج٢ ص ٣٤٦؛ ناجي؛ د. عبد الجبار: إسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (بغداد ١٩٩٠) ص ١٧٨-٢١٢ [المترجم].

** بقي بن مخلد أبو عبد الرحمن، وكان من حفّاظ الحديث الشريف وكان زاهداً وصالحاً ومن علماء الأندلس قام برحلة إلى الشرق فروى على الكثير من أعلام المشرق ومحدثيها، وذكر الحميدي أن بقيا كتب المصنفات الكبار والمنثور الكثير، ويعلق قائلاً (وبالغ في الجمع والرواية) ينظر الحميدي الأزدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (القاهرة ١٩٦٦) ج١ ص ١٧٧، وتوفي بقي بن مخلد في الأندلس سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢. والمهم أن بقيا قد اختصر تاريخ خليفة اختصارا شديداً جداً واختزل معلوماته فصارت مشوّهة. يقول ابن خير الأشبيلي في كتابه (فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين في ضروب العلم وأنواع المعارف)، إن التاريخ تاريخ خليفة كان يتألف من عشرة أجزاء في حين أن النسخة المحققة قد بقيت في جزءين يضمّان حوالي ١٦٨ ورقة (ينظر الأشبيلي، الفهرست، طبعة سرقسطة ١٨٩٣، ص ٢٣٠)؛ لذلك بات من الصحيح القول ربما أن هناك نسخة أو نسخ أخرى من تاريخ خليفة بن خياط تحتوي على معلومات مفصلة جداً. وعلى هذا الأساس فالحكم على أن التاريخ مقتضب ومعلوماته محدودة وضيقة الأفق أمر صعب وبحاجة إلى إعادة لما قدّمه البروفسور روبنسون. ينظر ناجي، عبد الجبار: إسهامات مؤرخي البصرة ص ١٩٤-٢١٢ [المترجم].

سافر إلى الغرب. فمدخل سنة ٩٦هـ قد صنف إلى أربعة أقسام غير متوازنة في حجم معلوماتها، فالفصل الأول والرابع الذي سوف أترجمه إلى اللغة الإنجليزية. (والمؤلف يقول إن الأرقام المذكورة في ترجمته للنصّ، وتقسيمه إلى فقرات واستخدام الحروف المائلة هي لي- أي يعني للمؤلف] •[1].

١-وفيها مات الوليد بن عبد الملك (الخليفة) الوليد بن هشام* على عهدة والده وجده وعبد الله بن المغيرة، وعلى عهدة والده، وأبو اليقظان وآخرين، قد أخبرني أن الوليد مات في يوم الخميس من منتصف شهر ربيع الأول، وقال آخر إنه (وقال بعضهم الخبر) سنة ٩٦، عن عمر ناهز الأربع والأربعين سنة . سليمان بن عبد الملك (أخوه وخليفته) أمّ المصلين (في جنازته) يحيى بن محمد روى لي، على عهدة عبد العزيز بن عمران، على مسؤولية محمد بن عبد

• [سوف أنقل النصّ العربي من تاريخ خليفة بن خياط بعد كل فقرة من فقرات الترجمة من اجل تحديد مدى ضبط المؤلف البروفسور روبنسون للنصّ العربي. المترجم]

[1] الجزء الوحيد المتبقي من تاريخ المسبّحي قد طبع في القاهرة ١٩٧٨، بعنوان (الجزء الأربعون من أخبار مصر)، تاريخ خليفة قد حقق في دمشق ١٩٦٧، وفي بغداد ١٩٦٧ (مع تحقيق ثان في بيروت ١٩٧٧ وهو الذي أذكره في الكتاب ص ٣٠٩ وما بعدها من الصفحات، وكذلك في بيروت ١٩٩٥)، (وليس من الواضح فيها إذا كان التحقيقان الأول والثاني هما مستقلان؟)؛ مدخل أو مادة خليفة؛ ابن النديم الفهرست ص ٢٨٨.
كذلك ينظر ص ٥٥٩ Dodge, Fihrist وقد ذكر هذا المصدر آنفاً وكذلك فؤاد سزكين GAS ص ١١٠.

* الوليد بن هشام القحذمي مؤرخ بصري سبق علي بن محمد المدائني ولعله صنّف تاريخاً عاماً عن مدينة البصرة، وقد عرف بصاحب الأخبار وقد اعتمد رواياته كل من الجاحظ في البيان والتبين والبلاذري في فتوح البلدان والطبري في تاريخ الرسل والملوك وابن الأثير في الكامل في التاريخ والذهبي في ميزان الاعتدال واعتمده ياقوت الحموي في معجم البلدان عن البصرة. وهو أبو عبد الرحمن القحذمي الوليد بن هشام بن قحذم بن سليمان بن ذكوان مولى أبي بكر الثقفي ويقال أنه مولى لعمرو بن العاص وكان جدّه من سبي أصبهان، وتولى منصب كاتب الخراج أيام ولاية يوسف بن عمر الثقفي على العراق، ويبدو أنه ولد في البصرة وتوفي فيها سنة ٢٢٢هـ / ٨٣٦م. ويبدو أن والده أيضاً قد تسنم منصباً في إدارة الدولة الأموية، لذلك صار أفراد العائلة وبضمنهم الوليد على مقربة من الوثائق الإدارية. فكان الوليد مصدراً لقوائم أسماء الولاة والعمال والقضاة وكتّاب الخراج وغيرهم. وكانت له معرفة دقيقة بالمعاهدات واتفاقيات الصلح التي تم التوصل إليها بين رؤوساء المدن الفارسية وبين قادة المسلمين. وكان مصدراً أساساً في فتوح جبهة البصرة. [ينظر ناجي، د.عبد الجبار: إسهامات ص ١٤٩-١٦٩] [المترجم].

الله بن المؤمل المخزومي، الذي قال: كان الوليد قد ولد في المدينة في سنة ٤٥. وقال أيضاً: مات في عمر ٥١ حاتم بن مسلم قال عن عمر قال ٤٩؛ سليمان بن عبد الملك أمّ المصلين. وكان حكمه تسع سنوات، وخمسة شهور و (بضعة) أيام. وأعطى قسم الولاء إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان. وكانت أمه ولّادة بنت العباس التي كانت أم الوليد بن عبد الملك)•

٢-في أعلى العنوان (تحديد أسماء العمال) الوليد بن عبد الملك والحجاج (وكان هذا والياً للأقاليم الشرقية وكان الوليد ضابطاً Lieutnant). والقسم يتكون من قائمتين للأسماء، قائمة بولاة الأقاليم، وزعماء الحجاج، وزعماء الحملات على طول الحدود البيزنطية، ووظائف متنوعة في البلاطة وفي الدواوينية البيروقراطية وقائمة قصيرة جداً لقضاء الأقاليم [وبما أن الوليد خليفة فقد مارس السلطتين المدنية والفقهية في العاصمة] ومدة هذا القسم أكبر بحوالي خمس مرات من طول النصّ في القسم الأول). •

١-• [انتهى النصّ الذي ترجمه البروفسور روبنسون والآن النصّ نفسه من تاريخ خليفة بن خياط].

[نصّ تاريخ خليفة بن خياط في حوادث سنة ٩٦هـ من التاريخ الذي حققه د. سهيل زكار، دار الفكر – بيروت ١٩٩٣-١٤١٤هـ].

(فيها مات الوليد بن عبد الملك بن مروان، حدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جدّه، وعبد الله بن المغيرة عن أبيه وأبو اليقظان• وغيرهم، إن الوليد توفي يوم السبت في النصف الأول من شهر ربيع الأول، وقال بعضهم الآخر سنة ست وتسعين وهو ابن أربع وأربعين. صلى عليه سليمان بن عبد الملك.

فحدثني يحيى بن محمد عن عبد العزيز بن عمران عن محمد بن عب الله من المؤمل المخزومي قال ولد الوليد بالمدينة سنة خمس وأربعين، قال: ومات وهو ابن إحدى وخمسين، قال حاتم بن مسلم ابن تسع وأربعين، صلّى عليه سليمان بن عبد الملك. وكانت ولايته تسع سنين وخمسة أشهر وأياماً. ثم بويع سليمان بن عبد الملك بن مروان، وأمه ولّادة بنت العباس هي أم الوليد بن عبد الملك) انتهى النصّ ص ٢٤٠ [المترجم].

• والنص في تاريخ خليفة العنوان (تسمية عمال الوليد بن عبد الملك والحجاج) ص ٢٤٠ [المترجم].

٣-بعنوان (وفي سنة ٩٦) ويوّفر هذا الجزء ثلاث روايات قصيرة جداً، وتذكر كل رواية بصيغة (وفي هذه السنة). وتتضمن الروايتان الأوليتان موضوعات إدارية، أما الثالثة فهي عن مقتل القائد المشهور والوالي قتيبة بن مسلم.

٤-في سنة ٦٩ مات إبراهيم النخعي عن عمر ناهز ٥٣؛ وكذلك إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ومحمد بن الربيع الخزرجي سليمان بن عبد الملك بعث مسلمة بن عبد الملك بقيادة حملة الصيف. أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قاد الحجاج. وفيها قاد العباس بن الوليد ثلاث غارات، ودحر [هناك تحوير ظاهر وفراغ...] بشر بن الوليد (أيضاً) قاد غارات، ولكنه عاد [إلى سوريا]، مات الوليد. وفيها جرح جدار، بينما كان معه [بشر] في بلاد البيزنطيين! [**انتهت ترجمة ما ترجمه المؤلف**] والآن ننقل النص الموجود في تاريخ خليفة بن خياط على ص ٢٤٤.•

فالمدخل يمثل عددا من السمات لكتاب تاريخ خليفة بن خياط والرواية الحولية بصورة عامة وسنبدأ بذكر السمات المنهجية الأساس.

أولها: فإن مخطط أو الخطة الحولية تتوسع بما يرغب به المؤرخ —مثل آلة الأوركديون قابلة للطي والتوسع، سواءا كانت كثيرة المعلومات أو قليلة.

• "وفي سنة ست وتسعين: مات إبراهيم النخعي وهو ابن ثلاث وخمسين، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، ومحمود بن الربيع الخزرجي. وأغزىٰ سليمان بن عبد الملك الصائفة مسلمة بن عبد الملك. وأقام الحج أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. وفيها عزا العباس بن الوليد وافتتح طبرس والمرزباس. وغزا بشر بن الوليد فقفل، وقد توفي الوليد. فيها أصيب جدار [وهو جدار بن قيس الشيباني. المترجم] وهو معه بأرض الروح) تاريخ خليفة ص ٢٤٤، ويجد القارئ بعض الاختلافات في الكلمات، ولكن المؤلف لم يترجم ما فتحه العباس بن الوليد. وخليفة بن خياط لم يشر إلى بشر بن الوليد أنه عاد إلى سوريا إنما اكتفىٰ بقوله (وقفل) المترجم].

ففي الطبقات الثلاث لتاريخ خليفة بن خياط فالمدخل لسنة ٩٦ يتباين في صفحاته وطوله من أربع صفحات إلى تسع، وفي الأخيرة عندما تطبع بحسب قطع الكتاب الاستثنائي. وعلى خلاف مدخل تاريخ الطبري للسنة نفسها بما يصل إلى حوالي ست وثلاثين (٣٦ صفحة) بطبعة عربية دقيقةومكتظة للطبعة القياسية التي تصل إلى عشرين مرة في الأقل في طولها عما هو في تاريخ خليفة. وبينما يتوقف خليفة بموت قتيبة في خمسة سطور، فإن الطبري يخصّص أو يكرّس أكثر من عشرين صفحة عن الموضوع نفسه. وإنه – أي الطبري – يعتمد فيها على مجموعة متنوعة وواسعة من المصادر، كذلك فالطبري يدمج في مروياته بشهود عيان وخطب واشعار. وفي المدخل ككل فإن خليفة بن خياط لا يذكر شعراً، بينما يذكر الطبري مائة سطر تقريباً من الأشعار. ونصل بعد كل هذا التنوع إلى المزية أو السمة الثانية في أدب الحوليات: وهي سمة تظهر في هذا النوع من التدوين التاريخي أكثر مما هو موجود في مؤلفات سير الحياة / البايوغرافي والطبقات / البروسوغرافي، وهنا نجد وعلى نحو أنموذجي معلومات متغايرة ومتنافرة.وفي هذا الصدد، فإن خليفة بن خياط يمثل الحماسة التي كانت تتمتع بها الرواية المبكرة في تدوين قوائم الأسماء. فبين القسم الثاني المعنون (تحديد هوية عمّال الوليد والحجاج* وبين القسم الرابع) والكثير من هذا القسم حسبما نستنتج قد اعتمد فيه على قوائم أسماء متشابهة جداً مع التي وردت في القسم الثاني، ولدينا ما يصل إلى أكثر من ٧٥٪ من إجمالي المدخل. وتبقى قوائم الأسماء قابلة للتمييز والإدراك في رواية الطبري. غير أن تدوين قوائم الأسماء كحالة فنية للرواية قد تراجعت في البروز حالاً في هذا القسم بشكل كبير، ما خلا

* [ولقد ذكرنا باب العنوان عند خليفة بن خياط هو تسمية عمّال الوليد بن عبد الملك والحجاج. المترجم].

ظهورها في نهاية كل سنة، إن كانت في الشكل أو في الأسلوب، وهناك اختلاف قليل في القسم الرابع عند خليفة بن خياط بينه وبين الطبري (ينظر تاريخ الطبري مجلد ٢ ص ١٣٠٥) التي تدّون قوائم بأسماء مختلف التعيينات أو الوظائف الإدارية وكذلك في مسألة عزلهم أو موتهم. فنحن نرىٰ أن الجزء المتبقي في تاريخه سيتوسع بعدئذٍ.وعندما وحّد ابن الجوزي بين التاريخ الكرونوغرافي والبروسوغرافي في الطبقات عند اختتام كل مدخل سنوي بمعلومات تتعلق بالوفيات بشكل مطوّل. فهنا نجد أن الشكل العام سوف يتخذ ويصير واسعاً ومحكماً عند مؤرخين متأخرين نظير اليونيني[1].

وبموازنة لمدخل خليفة بن خياط لسنة ٩٦ مع مدخل الطبري لنفس السنة نسلّط الضوء علىٰ سمات أخرىٰ ربما هي مألوفة في التاريخ الكرونوغرافي، وأحد هذه السمات الأسناد العائلي الوليد بن هشام يروي علىٰ مسؤولية أو عهدة أبيه وجده، وعبد الملك علىٰ عهدة أبيه المغيرة، كذلك ورود صيغة السند الجمعي (كذلك ما وضحناه في نقطة رقم ١). وسمة أخرىٰ قد تثبتت من خلال الترتيب، ترتيب الرواية، وهي تقنية أو فنية قد فضّل المؤرخون المحدّثين استخدامها -أولئك الذين يعبّرون عن تذمّرهم وشكوكهم بكل وضوح. إن كلّاً من المؤرخين - يعني خليفة والطبري - يبدأون مداخل رواياتهم هكذا مع الحدث المهم جداً في السنة ألا وهو موت

---

[1] مدخل الطبري يبدأ من مجلد ٢ ص١٢٦٩ وينتهي في صفحة ١٣٠٥ من المجلد نفسه ، وقد ترجمه هندز Hinds بعنوان (أوج البيت المرواني) وتم طبعه في Albany سنة ١٩٩٠، ترجمة الطبري جزء ١٣ ص٢١٨-٢٣٠، وينظر أيضاً باورز D.S.Powers في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الإمبراطورية في تحول Transition) وطبعت في Allbany سنة ١٩٨٩؛ ترجمة الطبري جزء ١٤ ص٣-٢٩؛ وحول الاقتراح بأن ابن الجوزي قد ألتقط الفكرة من شيخ أو معلم ينظر مقدسي G.Makdisi في كتابه باللغة الفرنسية الموسوم بـ (ابن عقيل وانبعاث التقليدية الإسلامية في القرن الحادي عشر) المطبوع في دمشق ١٩٦٣؛ ص٢٤؛ وعن اليونيني ينظر كووGuo في الكتاب باللغة الإنجليزية (التدوين التاريخي المملوكي السوري المبكر) ص ٨٣ وما بعدها.

الخليفة. وهذا التقليد المتشابه قد يثير تحفظاً ويوضح مدى التسامح العالي بشأن البيّنة أو الدليل المخالف. فيكتفي خليفة بن خياط بالرواية من دون أن يحلّ الخلاف بين الروايات، فمثلاً وجهات النظر بشأن عمر الوليد عند وفاته (٤٤، أم ٤٩، أم ٥١ سنة).فنلاحظ أن المؤرخين قبل مؤرخي العصر الحديث نادراً ما يتبعون عادة تدوين ملاحظات وتعقيبات بشأن تواريخ الوفيات. فيعلّمنا الطبري أن هذه الأمور ليست سهلة جداً. وهنا، وكما يظهر في تاريخه باستمرار فإنه يثير الانتباه إلى عدم الاتفاق في الأراء في بداية روايته، وليس فقط بما تقدمه مصادره إن اختلفت أو لا تتفق على سنوات عمر الوليد، ولكن الطبري وغيره يهتمون بالإشارة إلى عدم توافق الروايات حول طول مدة حكمه. في حين قدّم خليفة بن خياط رأياً واحداً فقط (مدة حكمه تسع سنوات وخمسة أشهر وأياماً)، لكن الطبري يقدم لنا ما لا قل عن أربعة آراء حول ذلك، عشر سنوات إلا شهراً، أو تسع سنوات وسبعة أشهر أو ثمان سنوات وستة أشهر، أو تسع سنوات وثمان أشهر ويومان.وهو في هذا السرد يجهل أمراً واحداً وهو تواريخ الولادة، كما أنه يهمل ذكر أمر آخر ألا وهو تواريخ التولية وتسنم السلطة، ولاسيما إن تلك المصادر نفسها التي تدّون هذه التضاربات قد اعتنت بذكر التواريخ المضبوطة لتسنم الخلافة. وقد يستنتج المرء في أن المحافظة على التضارب وعدم التوافق – والواقع حتى توكيدها أو إبرازها – هو سمة مهمة في التدوين التاريخي الحديثي (من الحديث) أو التقليدي، وهو في هذه الحال كما في حالات أخرى يبدو قد حدث من المواقف والعادات المتبعة نفسها تلك التي انتجت المحاججات الفقهية لتضارب الفقهاء. فالطبري نفسه قد ألّف واحداً من هذه المؤلفات أو الأعمال في كتابه اختلاف الفقهاء (أو اختلاف العلماء). فالمؤرخون في أحيان كثيرة جداً يحتفظون ويحافظون على المباني المتضاربة، وإنهم في عملية الإبقاء

عليها قد لفتت النظر لكونها توحي بأنها قاعدة عامة، بينما الحال عندنا المحدثون تختلف إذ نعدّها صحيحة ونستخف بها حتمية الحدوث. وأن مهمة المؤرخ هي إعادة التنظيم الجديد، الذي يصور الحدث الماضي بشكل أكثر وضوحاً، فالمؤرخون المسلمون في العصر الوسيط يعتقدون برأي شامل وواسع عن الماضي الذي يوفق بين التضاربات المضاعفة. والآن فإنه من السابق لأوانه أن نعدّ هذه كـ قاعدة عامة، لكنها في حقيقة الأمر مثيرة ولافتة إذ بينما الطبري المؤرخ يقدم أو يبقى على التضارب بعد التضارب في تاريخه، فإنه كمفسر وفقيه يخبرنا دائماً بدقة ما الذي يعدّه أمراً أساساً في تفسير القرآن والفقه والشريعة. فما الذي يقال عن التاريخ هو المسألة التي سوف تشغلنا في الفصول اللاحقة[1].

---

[1] جزء من كتاب الاختلاف للطبري قد حققه شاخت J.Schacht بعنوان باللغة الألمانية: Das Konstantinopler Fragment des Kitab Intilaf al-fuqaha, des Abu Ga'far Muhammad b.Garir at- Tabari. المطبوع في ليدن ١٩٣٣

وقد اعتمد بالنسبة إلى التضارب بين الطبري كمؤرخ والطبري كمفسر وفقيه من روبنسون C.FRobinson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الطبري) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من كوبرسون M.Cooperson وتوراوا S.M.Tooraw باللغة الإنجليزية الموسوم بـ ثقافة الأديب العربي من ٥٠٠-٩٢٥ (معجم أدب ترجمة الحياة) الذي سيصدر قريباً)؛ وعن حقائق إضافية مضاعفة ينظر دوغلاس Malti-Douglas (نصوص وتحريفات) المذكور آنفا.

الجزء الثاني

القرائـــــــــن

الفصل الخامس

التدوين التاريخي والتقليدية

يسلّم أكثر الناس حالياً جدلاً ويفترضون أن كتابة التاريخ تتميز من بقية الضروب الأخرى من الكتابة وهي كذلك تتميّزمن الكتابة غير القصصية وغير الخيالية، وإن التاريخ هو فرع قائم لوحده من فروع التعليم والمعرفة والدراسة، وإن أهداف المؤرخ هي الكشف عن الماضي وتدوينه وتفسيره وشرحه. وإنه على خلاف الأدب الذي هو صناعة لذهنية الخلاقة والمخيالية لكاتب القصة، والكتابة التاريخية يعقتد بأنها موضوع يتألف من القواعد المشتركة والاستعمالات والبيانات المتعارف عليها التي يعتمد عليها في النقاش والمحاججة.وهذا هو السبب الذي جعل المؤرخ، على خلاف مع القاصّ أو كتّاب القصة والشعر، إذ عليه واجب بأن يتعلم ويتدرب. فخلال مرحلة الدكتوراه يحتاج المؤرخ الى مدة للتمهن – والإعداد للمهنة، عليه أن يكتسب مهارات وتقنيات المهنة هذه لأن يكون مؤرخاً يظهر القدرة على قراءة لغة أجنبية وعلى أساليب الكتابة الوثائقية. فضلاً عن التعرف على طرق فهم البيّنة والدليل والمناقشة- وباختصار عليه أن يبين طريقة فهمه ومزاجه. وعندئذ يبدأ بإنتاج كتاب أو عمل. وعلى الرغم من أن أفكاره التي ربما

تتوافق مع الحكمة التي يعتقد بها ويعترف بصحتها أو ربما تتعارض معها. فهذه المواقف والاتجاهات قد يعبّر عنها تقريباً بشكل ثابت وموضوعي ضمن مصطلح أو أسلوب مقبول، فحص رسالة الدكتوراه بعد أدائها الامتحان، أو أي مقالة أو رسالة علمية في حقل ضيق إن كانت تقويمية ونقدية أو إعادة نظر، التي تظهر استعمالاتها المبادئ الأساس للمهنة،التي تميز المؤرخ من الضروب الأخرىٰ في كتابة القصة والرواية.

وهذا الكتاب يعدّ في صميم الموضوع، إنه عمل أو كتاب في التاريخ المهني ليست فقط بسبب كونه يناقش الماضي (كما نفعل في الصحيفة اليوم). ولكن لسبب آخر وهو أنه كتاب يتبع ويتفق مع أساليب القواعد المقررة. وقد طبع في مطبعة أكاديمية التي اعتادت أن تطبع الكثير من كتب التاريخ المهني ولا تطبع بالمرة قصة خيالية أو رواية خيالية (علىٰ الأصل حسب علمي وإطلاعي) في حين أن هوامش – هوامش الكتاب – وثبت المصادر تؤكد علىٰ مدىٰ تدريبي أو عملي وصناعتي. وتشير بدرجة ما، إلىٰ الدين الذي أدين به إلىٰ الزملاء من أهل المهنة، أولئك الذين كان عملي أو كتابي هذا قد تأسس علىٰ ذلك جزئياً. أما بشأن الكتب التي تمّت كتابتها عن الماضي تلك التي كتبت ضمن ما قد يعرف بالأدب المتفرع من الرواية أو القصة النثرية، فالقصة التاريخية، هي في الأقل قد حددت بهكذا؛ لأنها تبدي بتباهٍ عن فهارس مصادرها ولكن بصورة عامة تستغني عن الهوامش. وإنّ حذف الهوامش طريقة من الطرق في أن الكتاب الأكاديمي يتخذ ويعمل بشكل تراجعي لجمهور أكبر غير أكاديمي. ولكن المؤرخين المحترفين لهم رأيهم فيقولون شيئاً مثلاً (علىٰ أساس أنه مؤرخ متدرب، فإنني اتسلىٰ وألعب بقواعد مهنتي وصناعتي! .صدقني، وإذا كنت غير متأكد من قولي، كن حراً

وتحقق بنفسك من ذلك). القاصّ أو كاتب القصة التاريخية له رأي آخر إذ يقول شيئاً ما مثلاً: (صدقني فإنني لم اخترع أو أرتب كل هذا)[1]

وهكذا فإن استعمالات الكتاب تظهر ما أريده منك، أيها القارئ، أن تستجيب لما أفكر به كمؤلف مؤرخ. وحالياً سوف نرى أن المؤرخين المسلمين قد اتّبعوا أيضاً استعمالات ومصطلحات من أجل أن يومئوا أو يشيروا إلى أمور تخص قرّاءهم، نظير التصديرات المتواضعة والبسيطة، وفهارس المصادر والاختصارات، أياً كانت دقتها ووضوحها. والإسناد بالتأكيد يمنح الخبر الملازم والمرتبط به سلطة وموثوقية مهنية، فالتعلم الشفوي لأي جامع أو مصنف – مرويات أو للمصنف والمؤلف، سيكون بذلك منقولاً على وفق المعايير المهنية. فالإسناد يبلّغ القارئ الى أن الراوية أو المحدّث الكفوء هو ذلك الشخص الذي لا يخبرنا ويقول لنا قصصاً فحسب. والمسألة التي تحدد وتحسب هنا في هذا المجال هي أن الاستعمالات والمعايير التي اتبعها كمؤرخ محترف هي استعمالات ومعايير جديدة نسبياً. فأكثر العهود من أواخر القرن الثامن والقرن التاسع الميلاديين / القرن الثاني والثالث الهجريين، حينما أضحى الأدب مقيداً ومقصوراً بشكل كثير، وحينما صار علم التاريخ أو التدوين التاريخي قد أخذ حيزاً منتزعاً من الفروع الأدبية الأخرى – فالعملية الجراحية وثيقة الصلة من جهة فظهور العلم كمركز نشاط وبؤرة أساس للسلطة الإجتماعية في المجتمعات الغربية، وكذلك للذي يصبح مهنياً ومحترفاً للتعليم والتدريس ولكتابة التاريخ من جهة أخرى.

---

[1] وحول الهوامش ينظر كرافتون A.Grafton في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الهوامش: تاريخ دقيق) المطبوع في كمبردج + ماسوشتز ١٩٩٧ طبعة منقحة)؛ وعن أحد الروائيين التاريخيين الذي يعدّ غير دقيق وماض في منهجه ينظر هامش المؤلف على راثوبون J.Rathbon في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (آخر ملك إنجليزي) المطبوع في لندن ١٩٩٧.

عندئذ فقط يبدأ فعلاً المؤرخون يرون أنفسهم متخصصين في فرع حقيقي من المعرفة ، وأيضاً من أجل جعل التدوين التاريخي يميز بوضوح بشكل أكبر من بقية الصيغ والأشكال المتنوعة لرواية الماضي. فالتدوين التاريخي بخاصة، هو الآن يتكييف على وفق أنموذج مرتبته هي بعد العلوم الطبيعية، وهذا التحديد للتاريخ كعلم اجتماعي، على الرغم من القدر الكبير إلى حدّ ما من النقد والمناقشة.إذ استمر الاعتقاد بين كثير من الاتجاهات وعند كثير من الجماعات حتى اليوم، بأنه واعتماداً هذا الاأنموذج أن هذا عمل المؤرخ إنما يستند إلى سمات واضحة للتمييز بين الدليل والبيّنة (ونقصد المعلومة) وبين الجدل (بمعنى الطريق والمنهج) وبين الاستنتاج (بمعنى النتائج). وكما هي الحال بالنسبة لمعرفة العالم الفيزياوي الشاملة تتنامى أيضاً معرفتنا عن الماضي، فحركة الحقل أو المجال ككل ينبغي أن تتحرك الى الإمام وفيما إذا كانت نتائج المؤرخ قد ثبت صحتها أو دقتها من قبل الآخر أم كلا قد تبين كذبها من هذا الطرف أو ذاك. فالتدوين التاريخي أو علم التاريخ على وفق هذا الأنموذج سيكون جدلياً وفناً من فنون التناظر الجدلي وصيغته واقعية وهي تشريح الجثة لمعرفة سبب الموت، والفحص الدقيق والجدي لأي شخص أو لأي أمر من الماضي[1].فهذه الأمور جميعها جديدة نسبياً. وقبل العصر الحديث وقبل حدوث مثل هذه الصيغ فإن الكتابة عن الماضي تعدّ في العادة كونها من الكتابة فقط. وكثيراً ما كانت تفهم على أنها فرع من فروع الأدب أكثر من كونه فرعا مستقلاً بنفسه كالفقه والشريعة. فبخصوص التاريخ كان الاعتقاد إنه لا يأتي ولا يدليبالحقائق على الإطلاق، وقد كان هذا الاعتقاد سببا في اضعاف منزلته وإدناء مستواه (وأحياناً يبلغ هذا الاعتقاد إلى حد ازدرائه وقلة

---

[1] هناك نقد كثير على هذا الأنموذج، ينظر فيني P.Veyne في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(كتابة التاريخ) المطبوعة في مدلتاون Middletown ١٩٨٤، ص ٨٧ وما بعدها.

احترامه) من قبل الفلاسفة ومن قبل الموّحدين الذين يعملون علىٰ وفق الكتاب المقدس. فالوصول إلىٰ الحقيقة عند هؤلاء موجودة في مكان آخر فهي تكمن في الديالكتيك بالنسبة علىٰ الفلاسفة وفي الوحي إذ أنه فرع من فروع الأدب بالنسبة إلىٰ المتدينين، أو حالة من حالات الجمع بين الاثنين وبأنه فرع من الأدب من دون أدوات واقعية للبحث أو لسير الأحداث وتحقيقها؛ فإن التدوين التاريخي كان عادة يحكم عليه أو تقدر قيمته علىٰ أسّس جمالية وأخلاقية.هل كان جميلاً وذكياً وممتعاً أو عامل تأثير مهم؟ وهل هو يعلّم الدروس الصحيحة والواقعية؟ وبهذه القرينة والمغزىٰ تم كتابة الحجم الكبير من تاريخ ما قبل الحقبة الحديثة. كالتاريخ الذي نميّز شخصيته بشكل بارز ومألوف جداً ألا وهو تاريخ جيبون Gibbon (المتوفىٰ ١٧٩٤). فقد كتب تاريخا (وهو الكتاب الأكثر رواجاً) الموسوم بـ (انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية)، كان جيبون يكتب كما لو كان قبل التاريخ قد أسّس ليكون لهذاالتاريخ بوصفه فرعا من فروع المعرفة وله استقلاليته.وكما قيل إن جيبون أعطىٰ حيّزاً من التفكير للمنهج أو للطريق في كتابته التاريخ أكثر من أن يعطي للموضوع بعدا مفيداً وقيما ليس بسبب الموضوع الذي تناوله ولكن بسبب نفاذ بصيرته وأسلوبه المتميز. وتاريخ جيبون لا يختلف كثيراً عن سواه من أعمال ومؤلفات الأدب العربي التي يفردها المؤرخون المحدثون بوصفها مؤلفات في التدوين التاريخي الإسلامي (نظير كتب المعارف وعيون الأخبار لابن قتيبة) فقد كان هذان الكتابان من القطع ومن النوادر الأدبية الرائعة.[1]

---

[1] وعن انفصال التاريخ عن الأدب ينظر (المقدمة) للكتاب الذي حققه كلّ من كناري R.H.Canary وكوزكي H.Kozicki الموسوم بـ (الكتابة التاريخية: الأدب من الفهم أو المفهومية التاريخية) المطبوع في (ميدسون Madison ١٩٧٩) وقد جاءت الاقتباسات من هذا الكتاب؛ كذلك ينظر المقالات في الكتاب الذي حققه ليدر S.Leder الموسوم بـ (رواية القصة في هيكلية الأدب العربي غير الروائي أو غير القصصي) المطبوع في فيسبادن ١٩٩٨؛ وعن الآراء حول جيبون

كان المسلمون ورثة للروايات والتقاليد التوحيدية القديمة للشرق الأدنىٰ، وإن هذه الروايات والتقاليد قد جلبت معها مواقف واتجاهات إزاء التدوين التاريخي. وقد عملت حركة الترجمة في القرون الثامنة والتاسعة والعاشرة / الثانية والثالثة والرابعة للهجرة علىٰ توفير وعرض ازدراء ارسطوطاليس للتاريخ علىٰ الساحة العلمية وعلىٰ المفكرين المسلمين، وعلىٰ الوصفات العربية التي تابعت الأنموذج الارسطوطاليس. فالتدوين التاريخي لهذا نادراً ما كان بارزاً ونادرا ما كان له شأن علىٰ الإطلاق. طالما أنه كان بصورة عامة لا يتنح حقائق، ولذلك فقد كان يعدّ أنه غير ضروري ولا نفع من ورائه.وعلىٰ أية حال فليس بالوسع تفسير وشرح السبب في ازدراء الفلاسفة للتاريخ؛ذلك لأن أفكارهم قد ظلّت هامشية بالنسبة إلىٰ الاتجاه السائد للرواية الإسلامية، والتقليد الإسلامي. والأكثر أهمية هو ما يتعلق بالتقليدية الإسلامية. إذن فضمن هذه الثقافة الحديثية والتقليدية الإسلامية. إذن فضمن هذه الثقافة الحديثية والتقليدية فإن تمييزاً حصيفاً ومستقلاً للتاريخ قد أخذ وقتاً طويلاً لا يتطور. حتىٰ وإن كان المؤرخ يحصل علىٰ تدريب كثير في القانون والشريعة وفي علم البيان والبلاغة تلك التي حددت وتحكمت في المؤرخين القضاة الذين كتبوا بالإغريقية والسريانية، فإن التدريب والتثقيف علىٰ التقليدية والحديثية قد اتجهت لوضع شروط وتحديدات علىٰ الطريقة والأسلوب والمنهج الذي ينبغي عل أكثر المؤرخين المسلمين يتّخذوه أو يرون جدوىٰ في مهمتهم، ولا سيما في الحقبة المبكرة حينما كانت المنظورة والمشهودة قد صيغت وتشكّلت. ولكي نفهم صيغة وشكل

ينظر تعقيبات براون P.Brown في بحث (لكي نتناظر: زيارة ثانية لعالم قديم متأخر) المنشور فيsymbolae osloenses مجلد ٧٢/ ١٩٩٧) ص ٥؛ وكذلك ينظر براودي L.Braudy في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (القصة أو الرواية في التاريخ والرواية: هيوم، فيلدنغ وجيبون) المطبوع في برنستون ١٩٧٠.

رواية التدوين التاريخي الإسلامي، نحتاج إلى فهم شيء ما عن التقليدية والحديثية الإسلامية[1].

الحديثية والتقليدية:

لكي نضع الموضوع بصورة منتظمة وصحيحة. تؤمن الثقافة الحديثية كالتي هي موجودة في الإسلام في العصر الوسيط واليهودية العبرية Rabbinic. بأن من الأفضل المحافظة على المعرفة والتعلم بدلاً من صناعها وأحداثها. ويؤمنون بشكل خاص أن أفضل أنواع العلم والمعرفة هي حكمة الأجداد الأتقياء والملهمين، التي بوسعها أن تشرعن وتوجّه التجربة الحاضرة، سواء كان ذلك العلم أو تلك المعرفة مدونة إبّان زمانهم أم تلك التي أنتجتها الأجيال المتعاقبة على شكل استرداد ذلك الماضي. وبقدر ما أن الإبتداع والصناعة غير موثوقة أو قليلة الثقة بقدر اعتقادهم بعصمة أولئك الذين جاءوا قبلهم، فالمحدثون بشكل عام نزّاعون إلى إبداء النقد وانتقاد

---

[1] وحول سخرية ارسطوطاليس بشأن التاريخ وروايته أو نقله إلى رواية الحديث ينظر رادتك B.Redtke في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ
Wetgeschichte und wet beschreibung im mittealterlichen Islam
المطبوع في بيروت + شتوتغارت ١٩٩٢ ص ١٤ وما بعدها.
وينظر أيضاً مهدي M.Mahdi في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، المطبوع في لندن ١٩٥٧ ص ١٣٨ وما بعدها من الصفحات، روزنثال: تاريخ المذكور آنفاً ص ٣٠ وما بعدها من الصفحات؛ وهناك وجهة نظر ملائمة لمسوحات عن التعلم يمكن وجودها في الدراسة باللغة الإنجليزية أوينع W.Ouyanyالموسومة بـ (النقد الأدبي في الثقافة العربية الإسلامية الوسيطة: صناعة رواية) المطبوع في أدنبره ١٩٩٧، ص ٢٥ وما بعدها من الصفحات؛ وعن تأثير التدريب أو التوجيه في اللغة المنمقة على المؤرخين الكلاسيكيين ينظر وايزمان T.P.Wiseman في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (النظرية والتطبيق في التدوين التاريخي الروماني) المنشور في مجلة Historia مجلد ٦٦ لسنة ١٩٨١، ص ٣٧٥-٣٩٣؛ وكذلك هاريز J.Harries في بحثه بالإنجليزية الموسوم بـ (سوزومن Sozome n وبروسبيوس Eursebius): المحامي كمؤرخ كنسي في القرن الخامس، المنشور في الكتاب الذي حققه كل من هولدزوورث C.Holdsworth ووايزمان T.P.Wiseman الموسوم بـ (وراثة التدوين التاريخي ص ٣٥٠/ ٩٠٠) المطبوع في أكستر Exeter 1986K ص٤٥-٥٢.

بشأن الحاضر وتواقون إلى العصر الذهبي عندما كان الناس يعملون طبقاً للحقائق الحية أو المفعمة بالنشاط، تلك التي أنجزت الإنجازات العظيمة، فإنهم لا يوّقرون الماضي أو لا يبجلونه، لكنهم يبجلون ماضياً، على الرغم من مدى طول وخلق وشخصية هذا الـ (ماضي) واختلاف ذلك من ثقافة إلى ثقافة أخرى، مع ذلك فهناك دائماً وأبداً فراغ وثلمة واسعة بين زمن الإلهام (أو الوحي) من جهة، وبين الوقت الراهن وهو زمن الإنحلال والفساد من الجانب الآخر. وهكذا فإن المهمة التي وضعوها أمام إنفسهم هي أن يبقى المرء راسياً في منطقة مأمونة من ماض ملهم فحسب، وهذا يقع بالنسبة لأولئك الذين يقال أنهم يتبعون خطوات الأجداد الأتقياء، وبمعنى آخر، فإن الناس الرجال (وبالأقل من ذلك النساء) هم الذين يمثلون هذه المواقف والاتجاهات وهم الذين يمتلكون المواهب والمهارات المطلوبة في عملية النقل، أكثر من عملية الابتداع والصناعة. وهذا يعني بصورة عامة أن رجالاً بعقلية تحافظ على ذكريات ممتازة جداً، وبما أن الماضي بوسعه أن يؤدي خدمة كبرنامج عمل للثوريين، عندئذ يكون هذا الشخص رجلاً محافظاً. وهذه المغايرة الأخيرة هي التي تمثّل بشكل متقن مفهوم الكلمة الإنجليزية (محدّث) (أو متمسك بالتقاليد) وهو في الحقيقة يمثل أولئك الذين ينقلون أو يروون الأحاديث . وواقعياً هم (المحدّثون) وبين أولئك الذين يحتضنون القيم التقليدية ويتمسكون بالتقليدية بشكل أكبر. وبصورة تقريبية فإن أي أمرئ في الإسلام القديم، ماعدا الفلاسفة والقفهاء التفكر بين أو التأمليين يكون له منظور أو مظهر حديثي ومتمسك بالتقاليد، وهذا هو السبب الذي مارس فيه الفلاسفة والفقهاء التفكيرين والتأمليين خليطاً من الكره والازدراء[1].

---

[1] لقد استعرت هذا التمييز بين المحافظة والحفظ أو الصيانة من جودي Goody في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (منطق الكتابة) المشار إليه آنفاً ص ٢٠.

ففي حالة الإسلام، فإن الله هو الذي جعل إرادته تظهر للإنسان عن طريق وحيه (القرآن)، كذلك بصيغة أو بطريق (السبيل) وهو السنّة، سنّة نبيه محمد، وبناءاً على ذلك فإن تحديد العصر الذهبي ببداية ذكر محمد وتلاوته للقرآن (حوالى ٦١٠م) وبوفاة أولئك الذين شهدوا وعاصروا ورأوا (أو سمعوا عنه مباشرة) بكونه المثال والأنموذج في أخلاقه وتصرفاته (ومما يعتقد أن هذه الأمور في بعض الأحيان متأخرة ترجع إلى أواسط القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة) وأولئك الذين كانت وجهات نظرهم ورؤاهم بناءاً على ذلك صارت أنموذجاً يحتذى بها.لقد بنى وأسّس عصرا ذهبيا مماثلا في التعابير والمصطلحات السياسية أيضاً. فمثلاً الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨) وهو عقلاني في المثال الآتي يعرض لنا كيف أصبحت المواقف الحديثية والتقليدية هي التي تحدّد الطبقة الأولى من المسلمين*: "حقبة الرسول، عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر وعمر، رضي الله عنهم، والست سنوات من خلافة عثمان، رضي الله عنه، وعندما كان المسلمون الأوائل يعملون على وفق التوحيد الحقيقي والأمانة والصدق الصافي، باتفاق كامل وانسجام وتوافق بشأن الكتاب (القرآن) والسنة في ذلك الوقت. ليس هناك من شيء في طرق إجراء أو ابتداع بدعاً افترائية، ولا إجراء خارج عن الطاعة، ولا حسد ولا حقد ولا ضغينة ولا نزاع ولا تفسير متوتر".*

---

* [سوف أترجم كلام المؤلف ثم أدلي بنصّ الجاحظ من رسالته المعروفة بالنابتة. المترجم]

* [وعند الرجوع إلى رسالة النابتة الموجهة إلى أبي الوليد محمد بن أبي داود، المنشورة ضمن كتاب رسائل الجاحظ من تحقيق عبد السلام هارون، طبعة القاهرة، دار الجيل للطباعة جزء ٢ ص ٧-٨ وجدنا نصّ الرواية لا يختلف كثيراً عن ذلك الذي ترجمه البروفسور روبنسون وهو كالآتي – ننقله لمجرد المقارنة مع ترجمة المؤلف. أحال الله بقاءك، وأتمّ نعمته عليك وكرامته ذلك:

"أعلم، أرشد الله أمرك، أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها والخروج من جاهليتها إلى طبقات متفاوتة ومنازل مختلفة: فالطبقة الأولى، عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر ، وست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه؛ كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المخلص، مع

وهذا هو الرأي العام الذي تظهره فتنة اغتيال عثمان والحرب الأهلية التي أعقبت ذلك. ومع أن البعض (لا سيما الشيعة) ربما اتخذوا موقفين متعارضين بالتفاصيل، فالجميع كانوا متفقين على أن الأحوال قبل ذلك وفي الأيام الأولى كانت أفضل. ففي قول للنبي توسع انتشاره ويعبّر عن الظروف والأحوال الدقيقة والمحكمة قائلاً: أفضل جيل هو جيلي ثم يأتي الذين يتلوهم ثم جاء بعدهم ثم أولئك الذين جاءوا بعدهم)[1].

وحسبما يظهر فإن القرآن قد وضع بنظر الاعتبار الكتابة خلال جيل من وفاة النبي، إلا أن السنة قد اتّخذت في البداية بصيغة أحاديث شفوية، ثم دونت في حقبة متأخرة، ويحتمل أن ذلك قد بدأ منذ الثلث الثاني من القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة. وأصبح القرآن والسنّة بحدود بداية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري مكملين الواحد للآخر في بناء أسس الشريعة الإسلامية وكان موضوع نقل الشريعة هو الذي يهمّ أكثر كثيراً طالما أن الإخلاص وصحة الشريعة هي التي تحدد قدر المؤمن ومصيره، وهذا يعتمد أقل ما يقال إنها التفسير التوجيهي والتفصيلي للعناية الإلهية بلغ أعمال الإنسان المفروضة أو الواجبة وتلك المحرمة.وواقعياً فإن الفقه (الثيولوجي) قد تنعم ببعض الرعاية والحظوة من البداية فصاعداً. وأن بعض القضاة قد

الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة. وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة فاحشة، ولا نزع يدمن طاعة، ولا حسد ولا غلّ ولا تأوّل. حتى كان الذي كان من قتل عثمان وما انتهك منه، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبعج بطنه بالحراب، وفري أوداجه بالمشاقص، وشدخ هامته بالعمد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة وصلى القبلة وأكل الذبيحة ومع ضرب نسائه بحضرته وإقحام الرجال على حرمته" . المترجم].

[1] وعن كلمات الجاحظ ينظر رسالته في الثابتة في كتاب رسائل الجاحظ (المطبوع في القاهرة ١٩٦٥، جزء ٢ ص ٧؛ وكذلك شارل بلا C.Pellat في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم بـ (رسالة الجاحظ الثابتة (وثيقة مهمة بشأن التاريخ الديني – السياسي في الإسلام) المنشور في Annales de L'instituta des Etudes Orientales مجلد ١٠ (باريس) ص ٣١٠.

ترشحوا وعينوا في الوظيفة بالشريعة المعتمدة ليس الأحاديث فقط بقدر ما اعتمدت على الفكر والعقل وعلى الرشد والتعقل. وفي الواقع أيضاً فإن هناك مقاومة منذ البداية فصاعداً لعملية تقديم أو الإدلاء بأحاديث بغية تفعيل أو إنتاج الشريعة.ولكن وبحدود نهاية القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري صار الفقه، الذي كان يؤدي دوراً مهماً، هامشياً وإلى الحدِّ الأدنى بما له علاقة بالمقبولية، في الوقت الذي كانت فيه التقليدية والحديثية تنتفع باحتكار فعليّ على القضاء وتحكمت تقريباً بجميع فروع التعلم والمعرفة (الفلسفة لم تحصل إطلاقاً على أكثر من كونها تثير إعجاب اتباعها). فعلم الأحاديث الذي كان يقصد به تصنيف وجمع وتحقيق وتعليق على أقوال النبي وكلماته ومروياته وأعماله، وبضمنها الرواة والنقلة، قد صار النشاط المرموق وبمكانة محترمة في البحث العلمي الإسلامي. في هذا الوقت أيضاً صار الإسناد هو الفرع المنظّم والمرتّب بشكل عام للثقافة والتربية. والعلم قصد به علم الحديث دونما أي مؤهلات تتعلق بإجراءات الشريعة. وكان أولئك الذين يمتلكون مثل هذا العلم هم العلماء، المصطلح الذي أصبح يرمز إلى النخبة الدينية بصورة عامة[1].

---

[1] أي كتاب منهجي في الإسلام فيه شيء عن التقليدية، ولكن عن مناقشة عامة حولها ينظر فوك J.Fuck في بحثه باللغة الألمانية الموسوم بـ (دور التقليدية في الإسلام) المنشور في مجلة ZDMG مجلد ٩٣/ ١٩٣٩ ص١-٣٢؛ البحث الذي ترجمه سوارتر m.Swartz في كتابه المترجم دراسات عن الإسلام المطبوع في نيويورك - اكسفورد (١٩٨١) ص ٩٩-١٢٢؛ كذلك جراهام W.Graham في البحث بالإنجليزية الموسوم بـ (التقليدية في الإسلام): مقالة في التفسير أو التأويل، المنشور في مجلة J.Interdisciplinary History مجلد ٢٣/ ١٩٩٣ ص ٤٩٥-٥٢٢؛ وعن الدراسات النظرية ينظر العظمه A.Al azmeh في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الأنساب الإسلامية للمعرفة) المنشور في مجلة تاريخ الدين History of Religion مجلد ٣١/ ١٩٩٢ ص٤٠٣-٤١١؛ وحول مقاومة الكبر للحديث ينظر كوك M.COOK في بحثه باللغة الإنجليزية (أنان والإسلام: أصول المقدسية الكرايت karait المنشور في مجلة JSAI مجلد ٩/ ١٩٨٧ ص١٦١-١٨٢؛ وحول أمثلة عن أناس وهبوا بمذكرات طويلة ينظر ليبرند

كان هذا التعليم والمعرفة أساساً وهاماً: فعلم الحديث كان مزوداً بنظام من النقد والجرح ذلك الذي يصنف فيه كل راوٍ أو ناقل للحديث كفرد (ثقة) أو (مقبول) أو (ضعيف) أو (كذوب) .. الخ، وكذلك نقد محتوىٰ نصّ الحديث نفسه. وهاهنا دبّر الفقهاء بل نظّموا مفهوم التواتر المؤثر الضخم والفعلي، وهو يعني أن نقل النصوص المتطابقة والمتماثلة من الشهود والرواة، والأعداد الكثيرة من الروايات، تدل دلالة علىٰ موثوقية النصّ. وفي هذا الاعتبار، فإن القرآن يحسب له حساباً عالياً جداً؛ فهو عالي جداً كونه في الحقيقة لا يرقىٰ إليه أي شك بشأن النصّ القرآني نفسه، بمعزل عن اختلاف القراءات، إنه كلام الله. والكثير من الأحاديث المروية أو المنقولة تلك التي تشكّل أو تكّون السنّة فإنها تحتل مرتبة أقل أيضاً، ولكن ليس بآية حال علىٰ نحو ضعيف جداً بوصفها من الأسس الرئيسة في العقيدة. صحيح أنها لم تنتج أو تحدث علماً محدّداً (كما هو الحال في القرآن) ولكنها تدقق وتدعم الحديث. وقد لحظنا الكثير من المؤرخين باتوا يعملون علىٰ وفق قواعد المحّدثين، إذ يجمعون الروايات بعد جهد وعناء ثم يقيّمون الروايات ويبدون ملاحظاتهم التمهيدية علىٰ تلك المرويات التي جمعوها بالأسانيد المقبولة والمفضّلة من أهل الحديث، وهنا أيضاً فإن المزاعم بكون تلك المرويات تمثّل الحقيقة لا بدّلها أن تستند إلىٰ الثقة والتقوىٰ بالرواة والنقلة. ومع ذلك، فالاخباريون كانوا دائماً يعدّون ضعفاء في نقل أو رواية الأحاديث وذلك بما يقدمون من رواية الأسانيد الجمعية أو الأسانيد غير الكاملة أو الأسانيد المنقطعة والضعيفة وهذه جميعاً غير مقبولة بحسب معايير المحدّثين[1].لذا فإن

I.t.Librande في بحثه بالإنجليزية (علماء الحديث وقوة الذاكرة) المنشور في مجلة Cahiers d'onomastiqus arabe 1989-92 صدر في ١٩٩٣ ص٣٩-٤٨.

[1] وعن دعم أو تأييد القرآن للسنة ينظر الملاحظات الأنموذجية لابن الأثير في أسد الغابة (بولاق ١٨٧١) جزء ١ ص ٢؛ وبصورة عامة ينظر فايس B.Weiss في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم

محمداً كان هو المعيار، وكما كتب الأندلسي ابن حزم المتعدد الجوانب الثقافية (ت ٤٢٦هـ / ١٠٦٣) ما يلي، (من يرغب أو يريد أن يكون صالحاً في العالم الآخر، أن يفهم هذا العالم، ويصحّح سلوكه، ويمتلك جميع المؤهلات الجيدة، وأن يكون مدركاً لجميع الفضائل فدعه يقتدي بأسوة محمد). • ولكن كيف صارت على وجه الضبط والدقة رؤية محمد، ومتى كان ذلك لأن تكون مرجعاً جديراً بالاعتماد والقبول؟ إنه موضوع في الحقيقة قد اختلف فيه بين العلماء في العصر الحديث(المحدثين)*. فهناك مساحة واسعة للاعتقاد بهذه الرؤية، وفي الطرف الآخر يقف أولئك الذين يعتقدون بل يؤمنون بأن آراءه هي مرجع ثقة في عصره. وقد نقلت ورويت هذه الرؤى بأمانة وإخلاص في نقل ورواية الأحاديث. وفي الأغلب الأعم هي المؤلفات سواء كانت موثوقة وأصيلة إلى غير صدقية وغير أصيلة كالذي كان يفكر به المؤلفون في العصر الوسيط، شريطة أن يتحكم المرء في الأساطير الجلية والواضحة والأحاديث التي تتصف بمفارقات تاريخية. فأقوال محمد وأفعاله وكذلك الكثير من صحابته – وباختصار، هي حقائق عن الإسلام الحقيقي – هي هكذا قد استعيدت واستردت. وفي الطرف الآخر من المشهد يقف أولئك الذين يعتقدون بأن الإسلام المبكر يعمل على وفق لأنموذج متميز ومطابق للمرويات الدينية الأخرى. وبناء على ذلك فإن افكاراً محددة وأنظمة من التفكير (كالسنّة النبوية) قد ظهرت تدريجياً وببطء،وهؤلاء بالنتيجة يناقشون

بـ(العلم للماضي: نظرية التواتر اعتماداً على الغزالي، المنشور في مجلة SI مجلد ٦١/ ١٩٨٥ ص ٨١-١٠٥.

• (هكذا ترجم البروفسور روبنسون كلام ابن حزم في كتابه"الأخلاق والسّير في مداواة النفوس".وقد راجعت الكتاب لأبي محمد علي ابن أحمد بن سعيد بن حزم ؛ بطبعته — بغداد/ ١٩٨٩ صفحة ٢٤. يقول ابن حزم: " من أراد الآخرة ، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة والإحتواء على محاسن الأخلاق كلّها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول اللهّ صلّى الله عليه وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا اللهّ على الإتساء به، بمنّه آمين". المترجم).

* بمعنى العلماء الغربيين والمستشرقين على وجه التحديد والتخصيص (المترجم).

ويجادلون أن الأحاديث بصورة عامة غير موثوقة (والكلمة المستخدمة عند هذا الطرف عادة هي Spurious أي زائفة ومنحولة). ولكن أكثر دقة، فهذه الأنتقادات تعتقد بأن نظام الإسناد قد جمع بالكامل بعد أن اتّخذ الفقهاء مواضعهم في القضايا الشرعية، وإنهم على أية حال، لم يكن بوسعهم ضمان النقل، نقل الحديث وروايته، الدقيق للنصوص من جيل إلى آخر. فالأسانيد التي يرجع تاريخها إلى الحقبة المبكرة جداً قد أنتجت خلال حقبة من الزمن فحسب، وذلك بغية شرعنة الآراء التي حدثت في الحقب الأموية والعباسية. ولهذا فمن المسلّم به أن بعض الأحاديث تلك التي كانت قريبة الصلة للأقوال التي نطق بها النبي قد وضعت، وأن الكثير من العلماء قد أحدثوا تغيرات طبقاً لما كان لديهم من مقاصد النبي، وأن بعض هذه الأسانيد قد ترجع إلى القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة. لكن ليس هنالك من هذا القبيل الذي ربما كان سبباً للأفتراض بمصداقية عامة لمجموعة من الأحاديث التي قد ترسخّت وثبتت في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري فقط، في الوقت الذي كان فيه النقل أو الرواية شفوياً قد برز وتفوق عليه النقل المكتوب والرواية المكتوبة، فعاصمة الخلافة قد انتقلت من المدينة إلى دمشق ثم بعد ذلك إلى بغداد، ووقعت أربع فتن وحروب أهلية وثورة واحدة. فقد عبّر عن تلك الحقائق بالأحاديث، كما يعتقد به المنتقدين للحديث، هي ليست حقائق تاريخية فيما يتعلق بالإسلام المبكر، ولكنها حقائق سسيولوجية / اجتماعية لما كان المجتمع يؤمن بها أنها صحيحة وحقيقية عن الإسلام المبكر[1].

---

[1] حول ابن حزم ينظر كتاب الأخلاق والسير، الذي حققه وترجمه توميشي N.Tomiche بعنوان بالفرنسية Epitre moral وطبع في بيروت ١٩٦١ ص ٢٣ (عربي وفرنسي)؛ وحول وجهة نظر الأدب الحديث من زاوية حداثة التقليد neo- traditional ينظر صديقي M.Z.Siddique في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (أدب الحديث)، والمطبوع في كمبردج ١٩٩٣؛ وينظر أيضاً هلاق W.Hallaq في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (تاريخ النظريات الشرعية الإسلامية)

إن القارئ الحذر سيشك في آرائي بأنها ربما هي آراء متقاطعة مع رأي المنتقدين، غير أن من المهم جداً معرفة إن كان " علم الأحاديث" وخلال القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري فحسب أخذ يتبلور ويتطور، أي عندما أعاد الفقهاء تنظيم الأمر بالنسبة إلى الأحاديث الكاذبة أو المنحولة التي صارت تروج ويتمّ التداول بها بأعداد كبيرة.فتأثير النبي وحثّه للمعاصرين قد دفعهم إلى أن يرووا سنّته قد نقلت أو رويت بشكل مضبوط ودقيق، غيرأن العلماء الذين كانوا يسعون إلى تحقيق أهداف فرقية وسياسية كانوا هم الذين يزيفون ويزوّرون الأحاديث بنطاق ضخم. فكان الحلّ لهذه المشكلة إذن هو فحص وتدقيق الأسانيد، وتحديد هوية الرواة الضعفاء (أو المهملين أو الكثيري النسيان أو غير الثقة أو غير الاتقياء أو الفاسدين أو المنحرفين) أو غير الموثوقين والذين لا يصدّقون أو الذين تتعذر اتصالاتهم (كأن ينقل أو يروي عراقي من مصري، وأن كليهما لم يغادر بلاده ومحل إقامته)، فضلاً عن النصوص غير المقبولة على أسس شرعية وفقهية فكانت مثل هذه الأحاديث ترفض وتطرح جانباً.وكانت هذه الطريقة هي التي أدّت بالبخاري الى أن يعزل ٢٧٦٢ حديثاً من مجموع الأحاديث التي جمعها وتقدر بـ (٦٠٠.٠٠٠) ستمائة ألف حديث. وأن نتاج جميع هذه الفعالية التحقيقية

المطبوع في كمبردج ١٩٩٧، الفصل الأول؛ وحول ملخص مركّز عن الموقف النقدي ينظر شاخت J.Schacht في بحثه (تقويم الأحاديث أو الروايات الإسلامية) المنشور في مجلة JRAS (١٩٤٩) ص ١٤٣-١٥٤، وقد أعيد طبع البحث في الورّاق (محقق) الكتاب باللغة الإنجليزية (البحث عن محمد التاريخي) المشار إليه آنفا ص ٣٥٨-٣٦٧؛ وحول اختلافات في كتاب أو عمل شاخت ينظر جوينبول Juynbooll في دراسته بالإنجليزية الموسومة بـ (الرواية أو الحديث الإسلامي) والذي كان فيه قريب الصلة مع شاخت؛ وكذلك موتزكي H.Motzki في دراسته باللغة الألمانية الموسومةبـ Die Angange der islamischen Jurispudenz: ihre Entwich lung in mekka bis zur mitte des 2/8 Jahrhundertc 1991 stutigart المطبوع في شتوتغارت وكانت النتائج الذي لخصها في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (مصنف عبد الرزاق الصنعاني في كتابه أصول الشريعة الإسلامية الفقه المكي قبل المدارس أو المذاهب الكلاسيكية) المطبوع في ليدن ٢٠٠١.

من المجاميع الموثوقة (اعتيادياً توضع بدون ترتيب ولهذا فإن اهتماماً كبيراً قد وجه نحو الرواة والناقلين وأقل اهتمام توجه إلى متن ونصّ الأحاديث وهو أمر لافت للنظر بالنسبة إلى غير المحدثين وغير المتمسكين بالتقاليد، إلا أن هذه الطريقة قد أفضت إلى قدر كبير من الفهم والإدراك الثقافيين. فوفق أي معيار يمكن للمرء أن يميز بين الروايات والبيانات الموثوقة من غير الموثوقة من أقوال محمد وحكمته ويعرف المستقبل؟ وأن طالباً من الطلبة المتحمسين والمتقديّ الذكاء لأحاديث النبي قد يتساءل ويستفهم ويشكك من نبوءات مذهلة نظير مثلاً الثورة العباسية في سنة (١٣٢هـ / ٧٥٠م) أو عن مفارقة تارخية أو عن موضوع يوضع في غير زمانه ظاهرياً، فكيف يكون الرسول قد جاء على ذكر السلاطين في الوقت الذي لم يكن هناك أي سلاطين في أيامه؟ ولكن هذا الطالب قد يكون مخطئاً، لأنه قد أخطا في الفهم، كما عرضها أحد المؤلفين، أي أن رسول الله قد تنبأ ببصيرة الأنبياء في كل شيء سيحدث حتى ساعة البعث أو حتى يوم القيامة والأكثر من ذلك، فإن القوة والقدرة المثالية لأحكام محمد الإلهية تصنع قدراً كبيراً من الفهم الثقافي – وليس فقط كونه ناجحاً وبطلاً كارزمياً، فالقرآن يوفر في الواقع القليل من الشريعة الفعلية والجوهرية، وأن أكثر من ٥٠٠ آية من آيات الملائكة والموافقة تخاطب قضايا ومسائل بنطاق ضيق نسبياً. في حين أن محمداً، الذي يعدّ آخر الأنبياء، وكانت سيرته كنبي قد أمتدت لحوالي عشرين سنة، وكان لديه الوقت الكثير لأن يشرح ويوضح آراءه ووجهات نظره بشأن مسائل واسعة النطاق. أما بالنسبة إلى أهل السنة فإنهم يعتقدون بأن أنموذج النبي هو مبلغ لرسالات الله المفصلة إلى رجل قبل يوم القيامة. فما الشيء الآخر الذي ينبغي أن ينفع كبرنامج عمل لمجتمع كالمجتمع الإسلامي، كان خاضعاً لتغيير كبير كان

اجتماعياً أو سياسياً[1].وفي الاعتقاد بأن العلم ينبغي المحافظة عليه وحفظه أكثر من خلقه وصناعته، وأن الممثلين لعملية الحفظ والمحافظة عليه لابدّ من أن يكونوا من الشخصيات البارزة والموثوقة من ماض بعيد جداً، فالمحّثون خاصة لا يرون أن هناك أملا لتغيير كامن ومحتمل. والشريعة قد أولت وفسّرت وأعيد صنعها ثانية ونقحت وأدخل عليها تحسينات طوال مدة العصر الوسيط.ولما كان العالم قد تغير (ولابد من القول إنه تغير ببطء) فعلى الشريعة عندها أن تتغير أيضاً. حتى وإن كان كذلك فليس هنالك من سبيل حول الحقيقة بأن التقليدية بالفعل قد حددت الأرضية التي يتم فيها اكتشاف ما يفضي إلى حفنة من النصوص التأسيسية وإلى تقنيات تأويلية، وهذا كان في خلاف أو في نوع من الخصام مع العقلانية وحرية الفكر، التي تعدّ اصطلاحياً في الأقل مسؤولة وإن كان ذلك جزئياً للسيطرة السياسية والتقنية الفنية للغرب الحديث (ومرة أخرى، فإن هذا ليس ما يؤدي إلى القول أن الفقهاء المسلمين لم يطبقوا ولم يمارسوا العقلانية في عملهم ومؤلفاتهم، إنما يقصد به فقط أنهم قد اعتقدوا بأن العقل بمفرده ليس بوسعه أبداً أن ينتج الشريعة). بقليل من الدهشة يمكن القول بأن بعض المسلمين الحداثويين قد حاولوا أن يرخوا ويضعفوا من سيطرة التقليدية وسلطتها على وفق المرجعية والسلطة الدينية، وذلك باقتراح مثلاً أن تعتمد الشريعة حصراً على مبادىء القرآن، والتخلي من مجموعة القوانين الثابتة تقريباً، تلك التي عينتها الأحاديث وحددتها. ولأسباب متنوعة، فإنهم لم يتمكنوا من الحصول عليه بالقدر الذي أرادوا تحقيقه والحصول عليه فعلاً[2].وليس من العسير فهم سبب ذلك

---

[1] وحول الطالب المتحمس والمتوقد الذكاء ينظر جولد تسيهر I.Goldziher في كتابه والمترجم إلى الإنجليزية (دراسات إسلامية) ج٢ ص ١٤٣.

[2] وعن استمرارية فعالية الشريعة الإسلامية طيلة الحقبة الوسيطة ينظر جوهنسن B.Johanse في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (المصادفة أو الاحتمالية في الشريعة الإسلامية: صيغ

ولماذا؟ فالمرء بحاجة إلى أن يكون محدثاً يعتقد بأن الأنموذج للحاضر الناجح أن يكون على مسافة بعيدة من ماضي بعيد ومجيد، ولا سيما في السياق لما بعد الاستعمار الكولونيليه Post-Colonial: ومع هذا فإنه يحدث حتى في الثقافات المتقدمة والمزدهرة والثرية أن تصاب بمرض وهستريا عصيبة.

ولعل على المرء أن لا يضخم ولا يعظم كثيراً جداً من التهكم والسخرية لما بعد الاستعمار، فهؤلاء الذين يشجبون الآن التأثير الغربي بضراوة شديدة ميالون إلى إنتاج ثقافة بأنظمة علمانية تلك التي انتهجتها قوى استعمارية؛ ذلك لأن هذه الأنظمة التي تضعف بل تقوض من ثقافة الذاكرة والتفسير النصي (المتعلق بالنصوص) تلك النصوص التي تعدّ قيمة جداً عند المحدّثين والمتمسكين بالتقاليد الدينية، وهكذا يحررون الإسلامويين من بين المحافظين الجدد لأن يدعوا من أجل العودة إلى الإسلام التقليدي الذي لم يعترف به أكثر المحدّثين قبل الحقبة الحديثة. والأكثر أهمية علينا أن نبدي ملاحظة بأن أوروبا كان لها الحظ الأوفر لكونها خبرت كسوف القرواوسطية وظهور العلم والحداثة في تعبيراتها الخاصة بها، وأن أحد هذه النتاجات كان التحول الناجح في نقد الكتاب المقدس. الذي وفر من بين ما وفر من أمور أخرى، الأسس العلمية للعقيدة.وبعيداً جداً عن مسألة تقويض العقيدة، فإن النقد التاريخي كالذي تحمل أعباءه اليهود والمسيحيين يمكن أن يقال إنه قد ثبت العقيدة وأكدها، وذلك بوساطة تمييز وإدراك للعملية التاريخية لعلاقة الله بالإنسان، وقد تمت التضحية بمعجزاته ولكن العناية الإلهية بقيت، ثم

ونماذج شرعية أو فقهية وأخلاقية في الفقه الإسلامي) المطبوع في ليدن ١٩٩١، كذلك ينظر هلاق W.Hallaq في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (المرجعية والاستمرارية والتغيير في الشريعة أو الفقه الإسلامي) المطبوع في كمبردج ٢٠٠١؛ وعن التقليدية في الحقبة الحديثة ينظر براون BrownD. في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (رواية أو حديث إعادة التفكير في الفكر الإسلامي الحديث) المطبوع في كمبردج ١٩٩٦.

أولت ثانية بوصفها قوة تقدمية في تاريخ الإنسانية. فالعالم الإسلامي لم يحظ بمثل هذا الحظ الطيب، وإن أولئك الذين قد تحدوا الإجماع الحديثي والمحافظة على التقاليد (في المحاججة مثلاً بالنسبة إلى السبيل والطريقة الواقعية في النقد التاريخي للقرآن)• قد عانوا كثيراً في مثل هذا التحدي. وأحد هذه النتائج الحال التعيسة التي يدرس فيها التاريخ الإسلامي المبكر الذي يجد نفسه في الوقت الحاضر، في الوقت الذي يحدث في الغرب من تقدم في النقد التاريخي عملياً[1]. وأياً يكن مصير التقليدية والحديثية الإسلامية في المستقبل، فنحن هنا بحاجة إلى فهم لماذا صارت مثل هكذا فكرة جذّابة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين، ولماذا وكف أسست الشريعة إمبراطورية في الهلال الخصيب على وفق أقوال محمد، الذي لم يغادر الجزيرة العربية إطلاقاً منذ أن صار نبي الله؟ ولعلنا نجد الجواب جزئياً في خبرات العرب وتجاربهم. وتوكيداً لما سبق ذكره أن ذلك يرجع إلى الهيمنة القوية للغة العربية ونحوها، لذا أكدت التقليدية على تمييز الشخصية العربية

---

[1] وعن ظهور النقد التوراتي Biblical ينظر روجرسون J.Rogerson في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (نقد العهد القديم في القرن التاسع عشر للميلاد: إنجلترا وألمانيا) المطبوع في ليدن ١٩٨٤ وكذلك ماسا M.S.Massa في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (شارل اوغستوس برجز Charles Augustus Briggs وأزمة النقد التاريخي) المطبوع في فيبلوليس Minneapolis ١٩٩٠؛ وتصريح ثاني جديد عن الموقف النقدي يوجد في الكتاب الذي حقق من قبل الورّاق باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (البحث عن محمد التاريخي) المطبوع في امهيرست Amherst ونيويورك، ٢٠٠٠ الفصل الثاني وأيضاً ينظر اركون M.Arkon في كتابه باللغة الفرنسية والمترجم إلى الإنجليزية الموسوم بـ (الإسلام إعادة تفكير) الذي حققه وترجمه لي R.D.Lee والمطبوع في Boulder ١٩٩٤، ص ٣٥ وما بعدها (حول البحث القرآني)؛ وحول بعض انتقادات الاستشراق لدراسات الشريعة الإسلامية ينظر لاروي A.Laroui في الدراسة باللغة الفرنسية الموسومة بـ (الإسلام والتاريخ: مقالة في المعرفة الابستمولوجية) المطبوع في باريس ١٩٩٩ ص٦٩ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك ينظر همفريز R.S.Humphreys في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (المؤرخون العرب المحدثون وتحدي الماضي الإسلامي) المنشور في محاضرات شرق أوسطية Middle Easlern Leclure s الجزء الأول (١٩٩٥) ص ١١٩-١٣١.

في توحيد الله المطلق الأهمية الراسخة للتعليم والمعرفة العربيين كسبيل لفهمها – وهذه المزية في وقت من الأوقات عندما انحلّت الحدود الإجتماعية الفاصلة بين العرب وغير العرب، وعندما أتجهت السلطة السياسية المؤثرة إلى أيدي غير عربية (جيوش مؤلفة من جنود رقيق أو عبيد غير عرب حققوا أول ظهور لهم في أواسط القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري) فالتقليدية قد أبقت على المسلمين وهم مرتبطون بأصولهم في الجزيرة العربية كما هو الحال بالنسبة إلى الحج السنوي وإلى الإجماع بأن القرآن غير قابل للترجمة من العربية وأنه كان مفهوماً لكونه عربياً. فالله قد كلم أو خاطب محمد بلسان عربي مبين (القرآن سورة ١٦ آية ١٠٣، وسورة ٢٦ آية ١٩٥)*، من هنا فهناك سبب جيد لأن نعتقد بأن محمداً كان مفهوماً أولاً لكونه من الجزيرة العربية أكثر من كونه نبياً عالميا، وأن هذه الوسطية أو المركزية العربية قد هزمت في نهاية المطاف لكنها لم تطمس بالمرة.وأكثر من هذا، فقد أدّت التقليدية عملاً بتوجيه قوى الاصطفائية والتخصيصية وجهة جديدة، وهي تلك القوى التي ظهرت في الوقت الذي نشطت فيه الخلافة سياسياً إبّان أواخر القرن التاسع والقرن العاشر الميلاديين / أواخر القرن الثالث والرابع الهجريين. فإذا ما كان انهيار الخلافة كوحدة سياسية لدرجة ما أمراً لا مفرّ منه، فليس هناك من أمرئ كان تنبأ ما الذي سجل محلها، ولم يدر بخلد أي أمرئ أن يتدبر في إحداث حلول طويلة الأمد لجميع التحديات الموجودة هناك في حكم إمبراطورية متعددة الإثنيات التي كانت تمتد من جبال الأطلس إلى وادي الاندوس، فالإمبراطورية قد أعلنت استسلامها لثقافة إسلامية لكومنولث في ما وراء المنطقة العربية، والتي بقدر ما كانت خلال الأيام المتألقة لوحدة الإمبراطورية

* الإشارة الأولى إلى سورة النحل آية ١٠٣ (نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين) [المترجم].

مسؤولة عن أحداث الكثير جداً من المؤسسات والتطبيقات التي تميزت بها الحضارة الإسلامية أمثال مؤسسات التعليم العالي (المدارس) والإخوان الصوفيين*].أيضاً ما الذي جعل لهذا الكومنولث [رابطة الدول الإسلامية] معنى معقول وعالم حسّاس، إنه كان إلى حدّ بعيد نظام بأسس تقليدية حديثية للشريعة، فمتطلبات التدريب كانت اللغة العربية سواء للعرب أم لغير العرب على حدٍّ سواء، وللسفر والترحال عبر قلب أراضي الخلافة في الحقبة المبكرة (الهلال الخصيب والجزيرة العربية) بهدف نقل الحديث شفوياً، والدخول إلى واحدة من المدارس الأربعة للفكر الشرعي والفقهي (الحنبلي والحنفي والشافعي والمالكي) وقد اتّخذت كل مدرسة مذهبية أسماء المؤسسين الذين أسسوها في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث الهجريين، وكل مدرسة ومذهب كان / كانت ينسخ ويفسر ويشرح ويلخص النصوص المنسوبة والمشتملة على بذور التطور المستقبلي التي كتبها هؤلاء المراجع أو الثقاة، ولكن الجميع تقريباً يقرأون مجموعات مألوفة من المراجع الجديرة بالقبول والإعتماد. فالنخب إنّما يرسلون أبناءهم إلى مثل هذا النظام، وبذلك ينجمون في تكوين علاقات مع زملائهم الأكاديميين من الفرس والترك والعرب، إن كانوا من مراكش في المغرب الإسلامي أو في العراق وأفغانستان. وإن هذا النظام أيضاً قد اشترط أو حدد حسن تصرف الحكومات أو السياسات المحلية. وعندما تختلف النخب من المدن الفارسية أمثال نيسابور حول سياسة البلدة، فإنهم كانوا ينزعون إلى التعبير عن عدم

* [لعل المؤلف يشمل أيضاً في هذا الاستعمال إخوان الصفا وخلان الوفا. المترجم

موافقاتهم كأحناف وشافعيين، وحينما اختلف الأحناف والشافعيين حول كيفية تفسير الشريعة استمروا يتشاطرون المجموعات الحديثية نفسها[1].

لذا كانت التقليدية والحديثية أكثر من كونها تقليد فكري: إنها طريقة لإدارة المجتمع. وكما عبّر عن ذلك أحد علماء الأنثروبولجية / الإجتماع، لم يعدّ المرء يتخيل ويفهم الإسلام من دون العلماء أكثر من يفهم المرء ويتخيل المسيحية اللاتينية من دون جرجوري Gregory، أو يفهم الهندوسية من دون الكاست الهندوسية[2]•

أهمية التقليدية أو الحديثية:

ما الذي يعنيه أن تكتب التاريخ بثقافة حديثية آوتقليدية دينية؟ فلابدّ من توضيح أمر واحد،فكتابة التاريخ بثقافة تعلّق قيمة وأهمية كبيرتين على الماضي هو أمر مهم – وواقعياً، فإن الشيء الأكثر فاعلية وقوة، بما أن الماضي يعدّ أنموذجاً بالنسبة إلى الحاضر، وكالذي قيل، ليس هنالك من رابطة ضرورية تربط بين القيم التي يقيمها ويصنعها المجتمع على التاريخ وبين

---

(١) حول ملخص نظرة هذه المدارس ينظر شاخت J.Schacht في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (مذاهب أو مدارس الفقه والتطورات الأخيرة للشريعة) المنشور في الكتاب الذي حققه مجيد خدوري M.Khadduri وليبسني H.J.Liebesny الموسوم بـ (الفقه في الشرق الأوسط القسم الأول: أصل الفقه الإسلامي وتطوره) المطبوع في واشنطون D.C. ١٩٥٥) ص ٥٧-٨٤؛ وأيضاً ميلجرت Melchert في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (بنية أو تكوين المدارس السنية) المذكور آنفا؛ ويتضمن الاستهلال تعقيبات عن التلخيص، كما فعل بروكوب J.E.Brockopp في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الشرعية الإسلامية المبكرة في مصر: عالمان ومختصراتها) المنشور في مجلة IJMES مجلد ٣٠ (١٩٩٨) ص ١٦٧-١٨٢؛ وعن نيشابور ينظر بوليت R.Bulliet في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (نبلاء أو أشراف نيشابور) المطبوع في كمبردج+ ماسوشتس ١٩٧٢.

(٢) عالم الإجتماع الانثروبولوجي هو كيرتز C.Geertz في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (إبداء ملاحظة عن الإسلام: التطور الديني من مراكش أو المغرب وأندنوسيا) المطبوع في شيكاغو ١٩٦٨، ص ٣.

• [والكاست إحدى الطوائف الإجتماعية ذات النظام الوراثي في الديانة الهندوسية . المترجم].

شخصية ومقدار حجم التدوين التاريخي الذي ينتجه ذلك المجتمع. فالتاريخ يؤدي دوراً أقل بكثير في قضية فهم المرء لمعتقداته وآرائه عن الإغريق القدامیٰ في الصيغ المثالية للتدوين التاريخي، في الوقت الذي تخلیٰ فيه اليهود إلیٰ درجة كبيرة عن الموضوع الذي يصنف اصطلاحاً بالتدوين التاريخي أو علم في القرن الثاني الميلادي، ولم يعودوا إليه إلا في القرن السادس عشر الميلادي فقط. وبكلمة أخریٰ، بما أن المحدّثين والمؤرخين المحدّثين يبجّلون ماضياً أكثر من تبجيلهم الماضي، فإنه من الصعوبة القول بأن التقليدية قد أنتجت التدوين التاريخي. وأن المسلمين كانوا غزيري الإنتاج، ذلك لأن الكثير منهم كانوا مخلصين ومتمسكين وثابتين علیٰ dye in the wool مبدأ المحدّثين. فالمؤرخون المسلمون قد رعوا أنواعاً محدّدة من التاريخ الإسلامي وأساليب خاصة. وما كان قد تلا ذلك، فإنني أصفه بالكيفية التي أثرت فليه التقليدية علیٰ التدوين التاريخي خلال القرون الأولیٰ للإسلام، وها هنا نبتدأ أولا بالصيغة والأسلوب، ومن ثم نتحول إلیٰ مجموعة الأنواع الأدبية، وأنهي المهمة في الفصل القادم عندما نتحول إلیٰ ما انتجه البلاط من التدوين التاريخي[1].

لا يوجد هناك شك في أن السمة المميزة للتدوين التاريخي بشكل كبير هي الوحدة بين الخبر + الإسناد، تلك التي إما نقلت أو حوّلت أو قمعت أو رتّبت ونظّمت علیٰ وفق مجموعة متنوعة من الصيغ والأشكال، وكانت الأداءات كالتي نلحظها في المؤلفات التاريخية ذات مباني كبيرة الحجم. وعلیٰ الرغم مما سنشهده من أن الكثير من ذلك قد تغير خلال القرن الحادي عشر

[1] وحول المغايرة أو التباين بين الإغريق واليهود ينظر موميغليانو A.Momigliano في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الأسس الكلاسيكية للتدوين التاريخي الحديث) (المطبوع في بيركلي ولوس انجلس ١٩٩٠) ص ١٨ وما يليها من الصفحات.

والثاني عشر الميلاديين / الخامس والسادس الهجريين، فقد ظل هذا حقيقة طيلة الحقبة الكلاسيكية / القديمة خبر التدوين التاريخي يكون مكملاً ومتمماً له أكثر من كونه متفوقا عليه ومبزا له، وذلك عن رطيق تعينات الرواية الأخرى. وهذا يقال كذلك إلى حدّ ما بشأن أو بالنسبة الى النزوع إلى المحافظة والإبقاء على الرواية، أو حول الإجماع بأنه مهما اتخذت هذه الاتجاهات الجديدة من صيغ فإن المشروع ينبغي أن يبقى قصيراً بمبادىء ومعايير المحدثين تلك التي أقاموها خلال القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري عندما اتخذ مبدأ الخبر + الإسناد وحدة أساس للرواية.فكان على الماضي أن يؤسر ويتم الإستيلاء عليه، أي عن طريق تأليف يشابه اللقطات الفوتوغرافية snapshot وأن كل لقطة من هذه اللقطات إما تؤخذ من شاهد عيان إلى الحادثة نفسها أو أن تنقل أو تروى من قبل شخص كان قد تسلمها منه، وبقدر ما لهذه اللقطة أو الرواية من مغزى معين، فإن صفات الصدق والإخلاص والأمانة لهذه اللقطات قد تدار في مناسبات كثيرة بناءً على تقدير ذلك الشاهد أو على الراوية والناقل أكثر من أن تدار وتقدر الحادثة نفسها، ومهمة المؤرخ إنما تظهر وتكمن بشكل أساس في انتقاء هذه اللقطات / الروايات اعتماداً على معيار أو مجموعة من المعايير واحدة أو أخرى من هذه اللقطات ثم تجمع على وفق ترتيب وتنظيم واحد أو غيره من الترتيبات.ونتائج هذا كله كان الولع والهواية في الجمع والترتيب. وإذا ما أردنا وصف رواية النثر العربي كسلسلة متصلة يقف في طرف منها النقلة أو الرواة المحدّثون للشريعة الصامتون أو الخرسان mute. ويقف في الطرف الآخر الأدب المعلن أو الذي يقال بصراحة* وعلى التدوين التاريخي لهذا

* [وهذا التصوير الذي صوّره المؤلف سلسلة الأسانيد الطويلة جداً أو القصيرة يعدّ تصويراً واقعياً فعلاً ولهذا فإن عدداً من المؤرخين كأبي حنيفة الدينوري وإلى حدّ ما البلاذري واليعقوبي لم يلتزموا بتلك الأسانيد فعلاً. المترجم]

السبب أن يتموضع ويقف بين هذين الطرفين، وموضعه هذا يترجح على وفق الوقت والنمط والشكل. وقد تحرك علم التاريخ أو التدوين التاريخي خلال الحقبة التكوينية باتجاه القطب التقليدي وهو قطب الحديث وظل قريباً منه، وأما خلال الحقبة الكلاسيكية / القديمة فإنه تحرك باتجاه، مركزية وأحياناً أبعد من ذلك، الأدب[1]. وبإمكاننا إعادة ما سبق ذكره فيما يتعلق الأمر بالأسلوب واللهجة والاتجاه العام، فالمؤرخون في الحقبة التكوينية بصورة عامة اخذوا على عاتقهم المهمة بشكل جدي، وهم يجولون ويطوفون باتزان وواقعية، وهم يتوقعون من قرّائهم أن يتّخذوا ويقوموا بالمهمة نفسها، فبوسع الأدب العربي أن يكو هزلياً ومضحكاً، غير أن الأمر في التدوين التاريخ غير ذلك فليس هناك مجال للضحك والهزل إلا الشيء القليل. والمؤرخون أيضاً قد كتبوا بشكل واضح وجليّ، علماً بأنه لم يكن واضحاً وجليّا جداً بالشكل الذي يبدو وكلاهما، الأدب والتدوين التاريخي، وفيما يخص ترتيب الكلمات وبناء الجملة وفي علم الصرف، فاللغة العربية نسبياً هي لغة مطاطة، وإن كانت في أيدي مؤلف طموح وموهوب يكون بإمكانه إنتاج شعر ونثر لهما تأثير كبير. وبالفعل لدينا دليل وبينة من القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة بشأن أساليب نثرية معقدة، تلك التي حسبما يبدو ارتبطت بشخصيات بارزة متمثلة بالدواوينية والمرتبطين بالإدارة في أواسط القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، إذ كان العراق يفتخر ويتباهى بعدد من كتّاب النثر الذين نعموا بمواهب استثنائية. وقد انتفع من كل ما قدمته لهم اللغة العربية، في فن الطباق والسجع والتقنية والإيقاع، فقد كانت هي الفنون أو التقنيات المفضلة لديهم. وحالاً ليس هناك من تساؤل عن كون الكثير من المؤرخين ممن تضلع

---

[1] عن (بنية format الحديث) و (والنوعية المتنافرة الأجزاء atomistic) للحديث المبكر بصورة خاصة ينظر دونر Donner في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (روايات عن الأصول الإسلامية) ص ٢٥٥ وما بعدها من الصفحات.

بمهارات في فقه اللغة التاريخي المقارن بما يحتاجونه وبما تتطلبه الكتابة بمثل هذه اللغة العالية في اتساقها، كذلك لا حاجة إلى أن نحتكم إلى كم كان غالباً ودائماً وكم كان الشعر جذاباً في الوقت الذي كان فيه التوثيق معقداً، كم من هاتين الصفتين قد اندمجت واتحدت في تواريخهم، فهل هناك من تساؤل عن أنهم قد انجذبوا نحوها وأثارت اهتمامهم؟.ففي خطاب وجهه الخليفة عثمان يتميز بالتطابقات المعقدة على مستوى بناء الجملة ومعناها ومغزاها وكذلك بما فيها من تكرار ومن تداعي المعاني والخواطر ومن الطباق والتضاد وفي تنوع الفن والتقنيات البيانية الأخرى – ونحن نعلم ذلك فقط لماذا؟ لأن الطبري هو الذي احتفظ لنا بهذه الخطبة بالدقة والضبط لكونها أنموذجاً بليغاً. وبعد أن ذكر الحجاج والي العراق، خطبة ذكر فيها أموراً مثيرة وصعبة في سنة ٧٥هـ / ٦٩٤-٦٩٥، يكتب الطبري بما شابه تماماً أي لغوي أو فقيه في اللغة التي بالوسع تمييزه في تفسيره الكبير للقرآن تفسير عدد من الكلمات والاستعارات الغامضة جداً، ثم بعدها يذكر شعراً مناسباً بهدف توضيح الأمور المثارة.ولكن وعلى الرغم من جميع هذه الاهتمامات والقابليات والكفاءات في لغة طموحة ودالة في هذا النوع من الكتابة، فإن الحقيقة عن كون المؤرخين الأوائل ظلوا يختارون وينتقون ليس بالدرجة الأولى ولا يؤلفون ويصنفون في هذه المدونات الراقية في أسلوبها (ما لم يناقش المرء بأن المسألة تتعلق بهم أنفسهم أكثر من أن تتعلق بالخليفة أو الوالي، إنهم أنفسهم الذين ألفوا الخطابات ومن ثم وضعوها في أفواه عثمان أو الحجاج).وبدلاً من ذلك، فالمؤرخون اختاروا وآثروا الشيء المماثل، بينما الذي هيمن وساد بين المحدثين هو نسبياً أسلوب اقتصادي وأكاديمي واضح وصريح: وهناك الكثير من الجمع (أكثر من التأليف والتصنيف) قد ميّز احترام المؤرخين لروح ومزاج المحدثين، وهكذا أيضاً تفعل الشفافية والتجانس النسبي

لأساليبهم التي تظهر بكونها تكافؤ الضدين بما له علاقة بالأصالة الشخصية أو الفردية. وقد تبدل أو تغير هذا، وسنرى أن ذلك التغير قد تأثر جزئياً بالغرباء والدخلاء على المؤسسة الحديثية والمحافظة[1].

وهكذا فالتدوين التاريخي يبدو في الطريقة والأسلوب والنبرة، كان متأثراً تأثيراً عميقاً بروح المحدّث وطبعه أو مزاجه. وعندما ننتقل إلى مجالات أو حقول المؤرخين في التحقيق والاستعلام تصبح الأمور أكثر وضوحاً،إذ نجد تبجيل التقليدية لماضيها الخاص، حينما تجمع تلك الاتجاهات مع اللاتحيزات المتناظرة إزاء الحاضر، ويبدو أن هذه قد حددت وتحكمت في مشروع التدوين التاريخي. والتاريخ الكرونوغرافي هو الحال التي تقع في صميم هذا الموضوع.فالاستثناء المناسبي جداً جنباً إلى جنب مع المراحل التأسيسية للتاريخ الإسلامي طيلة الحقبة المبكرة ضحّى الأخباريون عادة بالتاريخ المعاصر وذلك عن طريق تكريسهم وتخصصهم بالقديم أو الحقب التي قبل حياتهم. ومع ذلك فالطبري كانت في حوزته كمية كبيرة جداً من المعلومات، إلا أنه يروى وهو على مضض وتردد الكثير منها بخصوص زمانه وأيامه، لكنه لا يقدم إلا حوالي ١٠٪ من تاريخه الضخم عن التاريخ المعاصر

---

[1] وحول الدعابة والفكاهة في الأدب العربي، المكان الأفضل لأن تبدأ الإشارة إليه روزنثال F.Rosenthal في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الدعابة أو الفكاهية في الإسلام المبكر) المطبوع في ليدن ١٩٥٦؛ خطابة عثمان قد تم مناقشتها في بيستون A.F.L.B.EESTON في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (نماذج أو عيّنات من النثر العربي في تطوره التاريخي) المطبوع في أكسفورد ١٩٧٧؛ وعن تفسير الطبري ينظر تاريخه مجلد ٢ ص ٨٦٦ وما بعدها من الصفحات التي ترجمها راوسون E.Rowson بعنوان (Marwanid Restoration– إعادة المروانين) المطبوع في Albany ١٩٨٩؛ ترجمة الطبري جزء ١٢ ص ١٦ وما بعدها من الصفحات: بالضبط لأن هناك قليلاً من الفردية نسبياً فيها، ونسبياً هناك القليل من التأليف قد تمّ عن أسلوب المؤرخين المبكرين؛ ومثال واحد عن هذا ينظر فيشر W.Fischer من بحثه باللغة الألمانية عن النثر عند أبي مخنف الموسوم بـ (Die prosa des Abu Mihnaf) المنشور في الكتاب الذي حققه غرمليش R.Gramlich باللغة الألمانية الموسوم بـ (Islamwissencha fttiche Abandlungen) المطبوع في فيسبادن في ذكرى F.Meler ١٩٧٤ ص ٩٦-١٠٥.

له. في حين أن الكثير من المؤرخين لا يروون شيئاً عن الإطلاق عن التاريخ المعاصر لهم. إنما يكررون ذكر الأحداث المتألفة والمجيدة (مثال تاريخ النبوة وتاريخ الفتوحات الكبرىٰ في القرن السابع الميلادي/ الأول للهجرة) ويروون كذلك عن الأحداث التراجيدية المفحمة (لاسيما الحرب الأهلية في سنة ٦٥٠م) أو علىٰ الأحداث اللافتة للنظر والغريبة (وعالم الأنساب ابن الكلبي) هو خير أنموذج عن هذا، وبما أنه كان متخصصاً في جميع الجوانب المتعلقة بالتاريخ القديم الملغز antique arcana، وبضمنها كتاب الخيل المشهورة).وهناك دليل أو فهرست قد ألف حديثاً عن أكثر المؤرخين شهرة وعناويناً لكتبهم حتىٰ نهاية القرن الإسلامي الثاني (حوالي ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م) ليس هناك أي كتاب يضمّه هذا الدليل للكتب الذي يظهر حماسة واهتماماً للكتابة عن التاريخ المعاصر.وتعد هذه وسيلة جديرة بالملاحظة بالنسبة إلىٰ سير الأمور، ليس لكونها تجري بخلاف النماذج الكلاسيكية (التي كانت بأية حال من الأحوال استثنائية) ولكن لأنها تضادد البديهي والمدرك. وحينما نصف فنحن متمكنين من وصف ما نعرف بإنه الأفضل، وحينما نعرف بأنه الأفضل فإن ذلك يعني إننا إنّما نعرفه عن طريق التجربة ومن خلال خبرة مباشرة أكثر من أن نحصل عليها عن طريق الحكمة، وواقعاً هذا هو بالضبط ما كان يعمل به المؤرخون غير المسلمين.ففي الوقت الذي كان فيه المؤرخون السريان في الشرق الأدنىٰ دأوبين علىٰ جمع المادة التاريخية المبكرة وبسرعة متناهية بغية أن يكون بوسعهم تكريس وتخصيص الحجم الأكبر من رواياتهم للمناقشات المفصلة عن التاريخ المعاصر. كان المؤرخون المسلمون يعملون علىٰ الضدِّ من ذلك تماماً، إذ قد تحركوا بشكل أسرع نحو المعلومات الأقرب بالنسبة لهم والتي حصلوا عليها حتىٰ زمانهم. وبالوسع ان نجد تحمساً من أجل تاريخ معاصر في هذه الحقبة، ولكننا نعثر عليه عند الشعراء أكثر مما

نجده عند المؤرخين.وبالإمكان القول بإن المؤرخين كانوا يديرونه بشكل موثوق وأمين؟ فالحقيقة أن البحث والمناقشة بشأن (المظهر الواضح لتدهور) الحاضر بما ثبت أنها عملية مخاطرة، فالشعراء وفي مناسبات كانوا يتقاضون مبالغ مقابل أمانتهم؛ كذلك حقيق بأن الإنتقاد الموجه إلى النظام السياسي قد يكون تعبيراً مؤثراً جداً عندما يعاد صياغة وإعادة سبك المرويات عن المراحل التأسيسية، غير أن اللا توازن أو الاختلال بين ماضٍ وتاريخ معاصر يصعب شرحه شرحاً كاملاً بحالة علاقة بأي اضطهاد محتمل. ويرجع هذا إلى سبب واحد وهو أن المؤسسة الدينية لم تكن عرضة للانتقاد أو غير حصينة كما يتوقعه الآخرون؛ وفي الواقع فإننا سوف نرى في الفصل الثامن أن أكثر الدول كانت ضعيفة نسبياً، في الوقت الذي كانت فيه النخب الإجتماعية التي أنتجت أكثر مؤرخينا كانت مرنة وسهلة التكييف بكل معنى الكلمة.ومن الجانب الآخر إن المؤرخين قد فشلوا بل أخفقوا في إنتاج جميع الأنواع والأنماط في التاريخ المعاصر في مرحلة مبكرة، إن كان انتقادها قاسياً أو من جهة أخرى مادحة بشكل مقيت ينطوي على كثير من الرياء، فالتقليدية أفضل من الاضطهاد، يظهر أنها تفسر مقت المؤرخين للحاضر[1].وهذا هو السبب في أن الحساسيات نفسها قد ظلّت عاملة وفاعلة وبصيغ أخرى من التدوين التاريخي، ففي الفصل الرابع رأينا في طبقات أو بروسوغرافية المحدّث كيف كانت مثمرة ومنتجة بصورة ضخمة، وبأن هذه الإنتاجية والوفرة بالوسع

---

[1] وحول الكاتلوك ينظر دونر Donner في دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا (روايات عن الاصول الإسلامية) ص ١٤١ وما بعدها من الصفحات؛ ينظر أيضاً الخطط التي تمّ مناقشتها في دراسة Noth/Conrad باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الرواية العربية الإسلامي المبكر) وهو يتعلق بشكل أساس برواية الفتوحات، والمؤرخ السرياني المعاصر هو المؤلف المجهول مؤلف الحولية التي يطلق عليها حولية Zuqnin، وحولها ينظر أسفل؛ وحول تاريخ معاصر منظوم شعراً ينظر سيتكوفيتش S.P.Stetkevych في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (أبو تمام والسياسة في العصر العباسي) المطبوع في ليدن ١٩٩١، القسم الثاني.

تفسيرها لا بمجرد الإشارة إلى منافعها في توجيه النقد إلى الحديث، ولكن كإسهام لتبلور مدارس الفقه والشريعة. وقد رأينا أيضاً كيف أن أحد الأمثلة وهو تاريخ الفقهاء للشيرازي هو كتاب انتقائي ومبرمج، إذ يظهر أنه يعرض ويقدم رؤية شاملة واستثنائية وتضمينية وواسعة الأفق عن الفعالية الفقهية في وقت حينما كانت المناظرات والضغائن بين المدارس المذهبية على أشدها إذ ازدادت إلى مستوى عالٍ. ولذا كانت الطبقات البروسوغرافية هي العجلة التي تحمل الجدل والمحاجة الحديثية والمحافظة وأنها تتمثل خاصة بحجمها وبقيم التقليدية وطموحاتها.وهنا علينا إبداء ملاحظة جدية في ملاحظة شكلها المتميز: فالشيرازي يوقف فجأة مسحه الاستردادي للفقهاء بعد جيله بوقت قصير. وفي الواقع فإن هذا الحظر في طبقات البروسوغرافيا الموجّه على الحاضر كان قديم العهد. وبالفعل فإن كتّاب الطبقات البروسوغرافية إبّان زمان ابن سعد قد نفروا من تضمين أي شيء من العلماء المعاصرين لهم في مؤلفاتهم، محددين تغطيتهم لشخصيات بارزة قد كانوا يتمتعون بالموثوقية وتوفوا.حقيقة ان منطق التقليدية يقصد منه أنه كان مرجعاً وثقة والمقصود أنه متوفى. والمذاهب أو مدارس الفكر قد شكلت على نحو أنموذجي بعد وفاة الشخصيات التي أخذت أسماءها، وهناك مثل جيد أكثر من غيره وهو مذهب أو مدرسة الفقه الجريرية، تلك التي كانت تتابع وتشايع تعاليم ابن جرير الطبري الشخص الذي نعرفه مؤرخا بشكل أساس، الذي صنفه ابن النديم فقيهاً بشكل أساس أيضاً. وكانت الأصالة والإبداع غير مريحة كما أن المحاكاة والمنافسة كانت طبيعية، وهذا يفسّر لنا لماذا كان المحدّثون الحقيقون الذين زعموا أنهم كانوا ينقلون أو يروون أكثر من كونهم يصنفون أو يؤلفون. فما الذي يتمكنون من تقديمه وعرضه؟[1]

[1] وحول المذهب أو المدرسة الجديرية القصيرة الأجل ينظر ملجرت Melchert في الدراسة التي

كذلك بالإمكان قول الأمور نفسها بشأن مؤلفات السير الذاتية، سير الحياة، التي وصفت بأنها سيرة حياة بصيغة المتكلم بصورة عامة. وهذا حقيق بما فيه الكفاية فالسير الذاتية Autobiography هي بالضبط تاريخ معاصر. وأن مقومات وعناصر الأثنين – سيرة الحياة Biography والسيرة الذاتية – قد اتخذا لمحاولة الدمج والتوليفة، وكلاهما أمر بغيض بالنسبة المحدث؛ وذلك لأن كاتب السيرة الذاتية أشد بغضاً وإثارة لحساسياته – فالراوية في تدوينه التاريخ المعاصر لحياته الخاصة (وإن كان هذا فقط على شكل تخطيطي أو مولبي أي مكرر من غير تغيير Stereotypical) فإنه يفترض أنها تستحق المحاكاة، أكثر من الحديث المكدّس والمتراكم إذ كان المحدث وريثاً له؟. فلا غرابة إذن، في أن السير الذاتية قد تركت لغير المحدثين للعقلانين وللمهاجمين للمعتقدات والمؤسسات الدينية (الفلاسفة مثلاً والباطنية والشيعة الإسماعيلية) ومثال على هذا المحاسبي (ت ٢٤٣/ ٨٥٧م) وحنين بن إسحاق (ربما ٢٦٤هـ/ ٨٧٧م) والحاكم الترمذي (حوالي ٢٩٨/ ٩١٠) وابن سينا Avicenna (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧) والمؤيد في الدين الشيرازي (حوالي ٤٧١هـ / ١٠٧٨م). فهؤلاء جميعاً قد احتكروا المجال في الكتابة عن السيرة الذاتية باللغة العربية. وهناك دليل/ فهرست آخر يدوّن في قائمة من اثني عشر أنموذجاً أو عينة لكتّاب السير الذاتية التي ترجع تواريخها الى القرون التاسعة والعاشرة والحادية عشر الميلادية/ الثالث والرابعة والخامسة الهجرية، وحالياً فإن عدداً من هذه السير مشكوك بنسبتها إلى مؤلفات ضائعة في الوقت الحاضر. إلا أن من بينها سير باقية وموجودة. وليس هناك بينها أية سيرة ذاتية مستقلة يمكننا باطمئنان نسبتها إلى مؤرخ،

ذكرت آنفا إليها باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (تكوين أو بنية المذاهب السنّية) ص ١٩١ وما بعدها من الصفحات.

وليس أقل من ذلك بكثير وجود شخص قد ألف في السير الذاتية كان في لبِّ أو قريب من المؤسسة الحديثية التقليدية. وكما سنرى لاحقاً فإن مؤرخين محدّثين قد قبلوا الكتابة عن السير الذاتية فقط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد/ السابع والثامن الهجريين. وعندما فعلوا ذلك، فإنهم في الأعم الأغلب كتبوا عن سيرة ذاتية بصيغة الشخص الثالث. والكتابة عن سير الحياة كان لها تقليد أو رواية قديمة وطويلة وهي مشهورة — غير أنها قد فسحت المجال أمام كاتب السيرة الذاتية لأن يضع نفسه بعيداً عن موضوع بحثه المتواضع[1].

---

[1]كتابة السيَر الذاتية للمحاسبي قد ألفت أولاً كجزء من السيرة الذاتية من قبل روزنثال F.Rosenthal في بحثه باللغة الألمانية الموسوم بـ (سيرة ذاتية عربية Die Arabische Autobiographie والمنشور في Studia Arabica المجلد الأول سنة ١٩٣٧ ص ١-٤٠ (وحول المحاسبي ينظر ص ١١ وما بعدها) وهو مناقشة كلاسيكية؛ السيرة الذاتية للحاكم الترمذي والتي يبدو انها الحقيقية الوحيدة وهي ليست أكثر من قطعة نشرت في كتابه ختم الأولياء (بيروت ١٩٦٥) ص ١٤ وما بعدها من الصفحات؛ وقد ترجمه رادتك B.Radtke و أوكين J.O'kane في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (مفهوم القداسة Sainthood في التصوف الإسلامي المبكر) المطبوع في رجموند Richmond ١٩٩٦) ص ١٥-٣٦ وناقشه رادتك B.Radtk في دراسته باللغة الألمانية الموسوم بـ (الحاكم الترمذي: الثيوصوفي المسلم من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي al- Hakim al- Tirmidi: ein islamischer Theosopg des 3/9 Jahrhunderts المطبوع في فرايبورخ Freiburg ١٩٨٠ ص١-١١ (فهناك إشارة إلى أجزاء أو مقاطع من السيرة الذاتية للمحاسبي بقلم فان اس Van Ess)؛ وكتاب عن سيرة ذاتية يفهم منها لحنين (التي ظلت حيّة عند ابن أبي أصيبعة) تبدأ بروزنثال وبحثه المذكور آنفا (السيرة الذاتية ص ١٥ وما بعدها) وتستمر مع كوبرسون M.Cooperson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (السيرة الذاتية المزعومة أو التي يفهم منها لحنين ابن إسحاق) المنشور في مجلة أدبيات Edebiyat سلسة رقم ٧/ ١٩٩٧ ص ٢٣٥-٢٤٩؛ وهناك عدة ترجمات لابن سينا واحدة منها هي جوهلمان W.Gohlman في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (حياة ابن سينا) المطبوع في نيويورك ١٩٧٤؛ طبع كتاب المؤيد في القاهرة ١٩٤٩؛ وحول سيرة أو مذكرات إسماعيلية أخرى ينظر مادولنك W.Madelung وولكر P.Walker في دراستهما باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (ظهور الفاطميين: شاهد عيان شيعي معاصر) المطبوع في لندن ٢٠٠٠م؛ والكاتلوك هو الكتاب الذي حققه رينولدز Reynolds باللغة الإنجليزية (تأويل أو تفسير الذات) المذكور آنفاً ص ٢٥٦ وما بعدها من الصفحات، التي تحتوي تراجم عدد من المشار إليهم آنفا.

ما الذي أعقب ذلك الذي تكلمنا عليه سالفاً هو إن مسار رواية التدوين التاريخي قد وصفت اصطلاحاً بكونها اتجاه سائد (mainstream) وهو الذي يقود بدءاً من ابن اسحاق عبر الواقدي إلى الطبري، وهو مدين في الكثير من نجاحاته إلى معانقته واحتضانه روح وأدوات المؤسسة التقليدية الإسلامية، التي هيأت النبرة ووضعت الأساليب الثقافية إبّان القرنين الثامن والتاسع الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين. وإن استعمال وممارسة العقلانية والاتجاه الفردي الشخصي كان بمثابة التابع لمرويات نقلت نقلاً موثوقاً من قبل الأسبقين، ماضي معروف يحفظ وغير قابل للاستدلال على وجوده. وبطريقة أخرى الاستنتاجات العقلانية والشروح والتوضيحات العقلية أو الفكرية (بحسب كلمات الطبري) لم يكن لها دور تؤديه في إنتاجها علم بالماضي. والأكثر من ذلك، هناك ماضٍ، وهناك بعد ذلك الماضي، وهذا يعني متابعة تبجيل المحدّثين وتوقيرهم للأنموذج الأصل والبداية وتماثل وتطابق غير تحيزي وغير مبالٍ للتاريخ المعاصر. والأخباريون، وبعضهم كانوا أنفسهم قد مارسوا دور الفقهاء ورواة الأحاديث، قد تبنّوا واتّخذوا الإسناد على نحو وافٍ- والإسناد هو الأداة الرمز لتجارة الحديث- وكذلك تبنّوا صيغ الطبقات، التي صارت متحدة بأحكام مع المؤسسات الحديثية، وإن كانت صلاتها وروابطها الأصلية مرتبطة بنقد الحديث. غير أن التدوين التاريخي سيظهر في نهاية المطاف من ظل shadow المحدّثين، وأن التدوين التاريخي اللا حديثي سيكون متمماً ومكملاً للصيغ الحديثية وبالوسع الآن أن نبدأ برؤية كيف حدث هذا وذلك بالعودة إلى الإسناد[1].

---

[1] ترجمة كلمات أو أقوال الطبري قد استعيرت من مهدي؛ فلسفة التاريخ ص ١٣٦.

كان الإسناد، أيما كانت منفعته في الأمد القصير الأجل، يشابه الأدوات الحديثية الأخرىٰ، يلائم علىٰ نحو هزيل وضعيف، للعمل في تاريخ بارع في مهنته بجميع صيغه. وهذا هو أحد الأمور من أجل تحديد وتحقيق شهود لتعيين حدود، وإن كان بشكل نسبي، ميدان النشاط والفعالية النبوية (عشرون سنة أو نحو من ذلك في الحجاز) ولكنها أطول من ذلك في ميدان آخر تماماً في معارك الفتوحات في أسبانيا، ولا نذكر هنا سيرة الأسكندر الكبير. فهل باستطاعة المرء أن يحدد مدىٰ فهم التاريخ لتلك الأحداث ولأي منها يستطيع المرء أن يحدّد وأن يقتبس منها ليعتمدها كشاهد عيان؟ فضلاً عن ذلك، هناك اعتبارات بشأن الأسلوب والمدىٰ أو النسبة. ففي الأعمال المطولة جداً، فإن استعمال الإسناد الكامل أو غير الكامل سيشغل مجالاً ضخماً للمساحة أو للحيّز القيم (ولم يكن الورق حينذاك مجاناً)، واستهلاك وتبديد وقت الناسخ الثمين (ومع أن الاختصارات قد دخل استعمالها، ولكن هذه لم تحل المشكلة) وفضلا عن هذا وذاك فإن مؤلفات في أي طول كانت، فإن الأسانيد ربما ستعدّ كأنها إفحامات بل وتطفلات علىٰ الرواية، والأسانيد الطويلة ترهق وتحدد قيمة صانعي الورق، والناسخ وكذلك ترهق من انتباه القارئ واهتمامه وصبره.وكان هناك حلٌّ واحد من أجل التخلص من الأسانيد تماماً، وهي بلغة العصر الحديث، الاستغناء عنها بالهوامش. وهذا الحل ممكن عمله، إلا أنه يتطلب وجود قارئ مؤتمن وثقة (أو قارئ متكامل) ووجود مؤرخ تتوفر عنده ثقة كافية لأن يخاطر بالانتقادات التي يوجهها إليه زملاؤه.والحل الآخر هو دمج الأسانيد، إلىٰ روايات جمعية أو رواية موحدة. ويحتمل أن عملاً كهذا سيغيظ المحدّثين، بما أن هذا الحل سيخاطر في سلسلة غامضة وغير واضحة لنقل ورواية الأحاديث، ولعله من

المهم القول وإن الحل سوف يمنح المؤلفون الموهوبون مصداقية أكثر من هذه السلسلة الطويلة من الرواة المحدّثين وبشكل لائق. فنحن نقرأ عن محدّث من القرن الثاني وهو يوبخ الواقدي (ت ٢٠٨/ ٨٢٣) لأن يعمل على وفق هذه الأسس، وملحاً عليه بأن ينقل الروايات في مؤلفه المغازي بشكل منفصل، أي أن لا يدمجها، وعدم إرباك الخبر المؤسسة من وحدة كاملة، وكل خبر بإسناده الخاص، ومع أن هذا المحدّث قد حذّر في حينها من النتائج، إلا أن هذه الحادثة ظلت تسد ثلمة pack a punch، فيقول هذا المحدّث بصيغة المتكلم بالجمع، أن الواقدي اختص في حينها مدة أسبوع ثم عاد وهو جالب غزوة أحد في عشرين مجلداً. ولهذا (قلنا دعنا نرجع إلى النهج الأول)[1].

والواقع أن المؤرخين يعلمون بالضبط ماذا كانوا يقومون به. ولأن الماضي ينمو بشكل أطول في وقت غير ظاهر للعيان، عندئذ يصبح من الجلّي أن التدوين التاريخي ليس بوسعه أن يدعم المعايير الحديثية، كذلك ليس بوسعه أن يتبع القواعد الحديثية. فتاريخ الطبري الكبير الحجم، وهو مزود بجميع الأسانيد، وهي كل ما يستطيع الفقيه تحشيده بصورة جيدة، سرعان ما أثبتت هذه الأسانيد نفسها في تاريخ جامع قياسي، بمعنى أنه يشار إليه ويذكر بتواصل من قبل المؤرخين في الأجيال المتعاقبة. ومع هذا فإن هذا التاريخ يظهر أن منهجه وحدوده إنما تطور على وفق معيار حديثي، وهذا هو السبب الذي جعل الكثير من المؤرخين المتأخرين يختصرون في تواريخهم أفضل من محاكاة الأنموذج نفسه ، كما يقول لنا ابن النديم إنه كتب بعد جيلين من موت

[1] وحول الواقدي، نقده وعن كيف عالج أو تعامل بعض المؤرخين الأوائل مع الأسانيد ينظر لكر M.Lecker في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (رواية الواقدي عن وضع اليهود في المدينة: دراسة لرواية جمعية Combined) المنشور في مجلة JNES مجلد ٥٤ (١٩٩٥) ص ١٥-٣٢؛ كذلك دونر Donner في دراسته (رواية عن اصول الإسلام) المذكور آنفاً ص ٢٦٤ وما بعدها من الصفحات.

الشيخ. •واختار البعض الحل الأول الذي شرحناه في آنفا، والمثال المشهور لهذا الحلّ هو ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣) وإن كان قد اعتمد اعتماداً كثيراً على الطبري في الحقبة التاريخية المبكرة (لأن الحل الثاني لم يبرهن على أنه كان شائعاً). ومن هذه الزاوية، فيشير عمل الطبري إلى الذرة التي وصلت إليها الرواية الكرونوغرافية / الحولية/ المبكرة، ولا يرجع هذا إلى أن المؤرخين الذين أعقبوا الطبري اخفقوا في أن يسلكوا معياره ولكن لأنه كان لديهم إحساس طيب لرؤية عدم فعالية ونجاح طريقته ومنهجه. ولنضع هذا بشكل مختلف إلى حدٍّ ما، لأن المحدّثين أدركوا إبّان القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري أن الوقت قد سنح الآن لانقضاء واختيار وتشذيب وتهذيب الروايات، وقد تعلم المؤرخون هذا الدرس نفسه في القرن اللاحق القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، لذلك فقط طبقوا هذا الحلّ ليس في مجال معلوماتهم التاريخية فحسب بل طبقوه على منهجهم أيضاً.لكن هذا لا يعني أن جميع المؤرخين قد استغنوا عن الأسانيد من القرن التاسع الميلادي فصاعداً. فالكثير منهم فهم العلم التاريخي ـ كما كان قبلاً ـ أنه علم منتج عبر عملية نقل أو رواية الروايات المنفصلة وغير المترابطة، ولم تتخذ أي محاولة في إعادة مباني الرواية حسب اختيار وعرض العقلانيين كما فعل المسعودي. وهذه المسألة سواء تعجب القارئ أم لا، فقد كانت محاولته نهاية حاسمة في أن يبقى التدوين التاريخي حديثياً أكثر مما قد يريد منه المؤرخون

• [والرواية كما أوردها ابن النديم في فهرسته – طبعة رضا تجدد في طهران -- هي على الوفق الآتي عندما تطرق ابن النديم إلى ذكر تاريخ الطبري قال "كتاب التاريخ وينضاف إليه القطعان، وآخر ما أملّ منه إلى سنة اثنتين وثلثمائة. (وهاهنا قطع) وقد اختصر هذا الكتاب وحذف أسانيده جماعة منهم رجل يعرف بمحمد بن سليمان الهاشمي وآخر؛كاتب يعرف...ومن أهل الموصل أبو الحسن الشمشطي المعلم، ورجل يعرف بالسليل بن أحمد، وقد ألحق به جماعة من حيث قطع إلى زماننا، لا يعول على إلحاقهم، لأنهم ليس ممن يختصّ بالدوله ولا بالعلم) ص ٢٩١ [المترجم]).

المحدثون.ومع ذلك فإن من المناسب الاستنتاج أن الرياح الآن قد تغيرت. وذلك لأن الشخصيات البارزة التي ظلت علىٰ هامش المؤرخين المحدثين (نظير اليعقوبي والدينوري [أبو حنيفة]) قد تحاشوا مسألة الأسانيد، وإن شخصيات بارزة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين قد ألفوا علىٰ وفق ذات المنهج أو الاتجاه السائد. وصار التدوين التاريخي نشاطاً وفعالية ميالاً إلىٰ الإثبات والجزم بكل ما في الكلمة من معنىٰ، وأن أهل المهنة قد امتلكوا حالياً الثقة لإحداث صيغ جديدة وأن تكون لهم الريادة في خلق موضوعات جديدة. وأن الكثير من المؤرخين قد بدأوا في تحرير أنفسهم من الحساسيات التي فرضها المحدثون وكذلك تحرروا من محرماتهم ومخطوراتهم[1].وهناك عدد من العلامات بشأن هذا التطور في ثقة المؤرخين الجديدة. وإحدىٰ هذه العلامات اللغة، فاللغة المنمقة – المتجانسة التكوين نسبياً في الوصف التاريخي قد تراجعت عن موقعها إلىٰ حدٍّ المغايرة نسبياً، وفي هذا فإن الاتساقات اللغوية العالية المستوىٰ أو المنخفضة المستوىٰ قد استخدمت في هذه الحقبة التاريخية. وبقدر ما تبنت هذه الاستعمالات اللغوية أساليب الرواية الأكثر شيوعاً (بضمنها السجع) فإن كل هذا يومىء إلىٰ حدوث تحدٍ لروح المؤسسة الحديثية، وقد عمل المؤرخون علىٰ التحدي في القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس الهجري فقط. ولعل أقدم دليل لأدلتنا وأوضحها يأتي من تاريخ يرجع إلىٰ عهديّ سبكتكين ومحمود الغزنوي، وهما أفراد الدولة الغزنوية، التي كانت تحكم ما يعرف اليوم بشرقي إيران وأفغانستان إلىٰ الهند ما بين سنة ٣٨٦هـ / ٩٧٧م إلىٰ ٥٨٢هـ / ١١٨٦م. وهذا الدليل قد ألفه أبو نصر العتبي (ت ٤٢٧هـ /

[1] حول ابن النديم بشأن الطبري ينظر الفهرست ص ٢٩١ وما بعدها من الصفحات (كذلك ينظر Dodge في دراسته عن الفهرست المشار إليها آنفا ص ٥٦٣ وما بعدها من الصفحات).

١٠٣٦).الذي يلي ذكره من معلومة الآن ترتبط بردّ فعل محمود على موت والده وما أعقبه من تسنم أخيه السلطنة، وتأتي هذه المعلومة قريبة جداً وأقرب ما بوسعنا تأمله عقلياً بالنسبة إلى الأسلوب المحكم والمتقن للغة العربية الأصلية:"كان * الأمير سيف الدولة (ولقبه محمود) في حيرة وارتباك لكيفية معالجة ما قد يحدث له، لأنه وجد أناللطف ودماثة الخلق هي أكثر جاذبية من الغلظة الجفاف، لذا فضل الإصلاح على النزوع إلى القوة

---

* حسب قول البروفسور روبنسون أنه استقى كلام العتبي، أبو نصر عبد الجبار محمد (المتوفى ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦) كدليل على اللغة المنمقة والمهتمة بالبيان والأداء اللغوي الرفيع، على الترجمة التي قدمها البروفسور راوسون E.K.Rowson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التاريخ كنثر إطرائي: العتبي وبدايات التدوين التاريخي المتأنق لفظاً وبياناً"، والبحث لم يكن آنذاك (في نهاية التسعينيات من القرن العشرين مطبوعاًإنما اعتمده مطبوعاً على الطابعة. (وقد أفلحت في العثور على كتاب اليميني وهو على هامش كتاب الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي (المطبوع في القاهرة ١٢٨٦هـ) وهو في جزءين).فوجدت أن ترجمة البروفسور (روبنسون) ممتازة وقد بذل جهداً في ترجمة النصّ، وهو من النصوص الصعبة، ومع ذلك فقد أتيت حرفياً على كلمات النصّ لكي نوازن بين ما ترجمته من كلام البروفسور (روبنسون الذي اعتمد فيه على المستشرق روبنسون) وبين كلام العتبي الذي قد احتاج آنذاك إلى شرح، فشرحه الشيخ أحمد المنيني. يقول العتبي في النصّ المشار إليه آنفا:العنوان: (ذكر ما جرى بين الأمير سيف الدولة وبين الأمير إسماعيل أخيه بعد انتصابه في الإمارة منصب أبيه) ولما اخترم الأمير ناصر الدين سبكتكين واستقر الأمر على ولده إسماعيل طمح أهل العسكر إلى مال البيعة فأمر فاطلق لهم استحقاقاتهم من العين.. وأن ناصر الدين إنما أفرده بالوصية لإعجال المنية إياه عن وضعها موضع الاستحقاق للضرورة العارضة من بعد المسافة وتقاذف الشقة وأن الرأي فيما يهتز له نوفيته حكم الرياضة ومشاطرته الإرث من ذخائر الإمارة، وأفارده بغزنة التي هي مركز عشيرته وحامته ومعشش خاصته وعامته على أن يحفظ عليه مكانه من بلخ وما يليها أو ينقله إلى نيسابور على ما كان يدبره من أعمالها ونواحيها فاستشعر إسماعيل ما كتب الله عليه من النكبة في أيامه: فلم يزده على الآباء والالتواء وتعريض تلك الأموال للأنواء وتوسط والي الجوزجان أبو الحارث الفريغوني بينهما على أن يسكن نابض الخلاف ويقف بهما إلى نقطة العدل والإنصاب وأراد كلاً منهما على التلاقي قبله لشافه كل منهما أخاه بما يقترحه من مراد ويقتدحه من زناد إذ كانت لوجوه المشافهة حرمة يعز مثلها على ظهر البعاد في حالة التحيز والانفراد فأما الأمير سيف الدولة فإنه رأى ذلك صواباً فأوجب من نفسه إسعافاً وإطلاباً وأما إسماعيل فإنه ندّ عن الإجابة ولحظ الأمر بعين الاسترابة ورأى التمسح بما يقترح عليه من مال الإرث وإن كان فادحاً كله أهون عليه من ذلك مراماً وأيسر احتمالاً وإلتزاماً ذعراً تمكن من نفسه ورعباً سرى من صميم قلبه وخيفة سالت به في أودية الظنون ونفرته عن ضم القوادم للسكون وأنشدته ذات يوم أبيات لسيف الدولة في أخيه ناصر الدولة الحمدانيين معرضاً بالألفة التي هي أوطأ مهاداً وأخصب مرتعاً ومراد).
العتبي، تاريخ اليميني ج١ ص ٢٧٢-٢٧٦ [المترجم]

والتمزق. ومال إلى التحلق والمداهنة أكثر من الجدال والنزاع، وإلى لين الجانب أكثر من المواجهة والتحدي. فاختار اللطف وفضله على الجفاف والخشونة. وأوصى بالكيّ على أنه الحلّ الأخير بالنسبة إلى المريض – وهو مثل – ولكن عند تلائم الطالع، وعندما أخذت عباءة الذوق واللياقة تصبح رثّة، تهيأ محمود أن يقترب إلى المسألة من الباب الأمامي – وهذه إشارة مأخوذة من القرآن – وأن يستعيد ما أخذ منه إلى مكانه المناسب... وبعد ذلك سيتوجه مع علية جنوده العبيد، بمشاته وقواده المطيعون له ولأوامره، ويصل إلى هراة (هي الآن في أفغانستان) ومن هناك يواصل إرسال البعوث إلى إسماعيل (أخوه) ماجزاً بين الوعد والوعيد، والإغراء والممانعة طالباً منه الخيار بين الياس والقنوط وبين الأمل، محذراً إياه أن يجعل نفسه في موقف من الندم والخجل. ولكن جميع هذه لم تنه الاختلاف، وفشلت في أن تحلّ خيطاً واحداً من ضفيرة عباءة وقفة إسماعيل"[1].

يوّفر العتبي مثالاً مشهدياً يثير الإعجاب، وهذا الذي يستبق تنفيذ أحد الاتجاهات أو التوجهات التي تتحرك فيه الرواية التاريخية الفارسية في آخر الأمر. وعلينا ـ للمرّة الأخرى ـ أن لا نبالغ في الأشياء، فاللغة التاريخية الطنانة لم تتغير أبعد مما قدّر، ولكل مؤرخ ذلك الذي يستثمر أو يستخدم اللغة العربية بصورة تامة وذلك عن طريق الكتابة بأعلى اتساقها، هناك دزينة

---

[1] اعتمدت في ترجمة ما قاله العتبي من راوسون E.K.Rowson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التاريخ كإطراء نثري: العتبي وبدايات التأنق اللفظي والبياني في التدوين التاريخي) وهو بحث لم ينشر وإنما مطبوع على الآلة الطابعة [طبعاً الإشارة هنا من البروفسور روبنسون تتعلق بطبعة الكتاب الأولى سنة ٢٠٠٣ ولعل البحث المشار إليه قد تم نشره خلال الحقبة من ٢٠٠٣ فصاعداً. المترجم] وحول العتبي ينظر ميسامي في الدراسة باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (التدوين التاريخي الفارسي) ص ٥٣ وما بعدها من الصفحات؛ وينظر أيضاً رختر – بيرنبورغ L.Richter- Bernburg في الدراسة باللغة الألمانية الموسومة بـ (حول صلاح الدين، Der syrische Blitz: saladins , sekretar zwischen selbstdarstellung geschichtsscheiburg (Beirat 1998) ص ١٣٧ وما بعدها من الصفحات.

أخرىٰ منهم ممّن لا يفعل ذلك. غير أنه حالياً ظهرت مجموعة من الأساليب هي مكملة للأنموذج الجمعي الذي ظهر في الحقبة السابقة. علىٰ الرغم من الحقيقة التي تفيد بأنه إنّما وجد بين أولئك الذين كانوا وثيقي الصلة بالإدارة والدواوينية والبلاط . وقد اتّخذه حتىٰ أولئك ممن كانوا يعتمدون الحديث. وأبن الأثير حالة من هذه الحالات وهي في صميم موضوعنا.إذ كان ابن الأثير مرّة محدّث كاتب طبقات بروسوغرافيا، وألف كتاباً هو (أسد الغابة في معرفة الصحابة). وكما رأينا آنفا أنه بالفعل مؤرخ كرونوغرافي / حولي. وفي الواقع فإنه في الكامل يبدو - تقريبا - مصمما علىٰ الحصول علىٰ جمهور واسع؛لذا تخلىٰ عن الأسانيد، وحذف أو صقل المقاطع والفقرات الصعبة والأشعار الغامضة فقد حذفها تماماً من أصل تاريخ الطبري تقريباً. وكان العمل ناجحاً بدرجة كبيرة وبحسب أي معيار معقول، كذلك يبدو أن ابن حجر كان يفكر في القيام بعمل/ كتاب مكمل به. فمن أجل تكملة كتاب ابن الأثير ألف هذا تاريخاً كرونوغرافياً وهو إطراء بالغ للدولة التي ترعاها أتابكية الموصل، وفي عدة فقرات منه نلحظ أن الأسلوب الذي استخدمه يخالف بشكل ملفت عن الأسلوب الذي استعمله في كتابه الكامل. ففي هذا الكتاب وهو كتاب المدح للبلاط، نجد في بعض الأحيان الأسلوب الدواويني للرواية التاريخية بصورة منمقة جداً وهي منفرة في نفس الوقت، فبقدر ما يبدو تاريخ الكامل إنه مخطّط ومصمم وهادف يهدف إلىٰ جمهور واسع، فإن هذا التاريخ - تاريخ الدول - يبدو أنه كان معدّاً لأغراض البلاط[١].

---

[١]حول اهتمام ابن حجر بالكامل ينظر كتابه (المعجم المفهرس) المطبوع في بيروت ١٩٩٨، ص ٤١٩؛ تاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، المطبوع في القاهرة ١٩٦٣ وفي بغداد ١٩٦٣.

ولذلك فإن الإمكانات اللغوية للنثر التاريخي قد فتحت مجالها وأبوابها أمام مؤرخي هذه الحقبة، وأنهم سيواصلون العمل بهذه الصيغ في الحقب اللاحقة، تماماً كما هو الحال في الاتساقات اللغوية العالية المستوى التي كانت مستعملة ؛ وفي مقابل استخدام الاتساقات المتدنية أيضاً. فظهور اللغة العربية اللا معيارية أي التي دون المستوى في النثر التاريخي ولا سيما اللغة العامية، وهو اصطلاح كان مألوفاً في التدوين التاريخي خلال الحقبة المملوكية إبّان القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين/ الثامن والتاسع الهجريين. وهناك أمثلة جيدة وهي أيضاً تفيد في هذا الأسلوب من كتابة المصنفات المبكرة جداً والتي ربما أقل من أن تكون مصنفات تاريخية نظير مذكرات أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨). وهنا أيضاً بوسعنا الاستنتاج بأن المؤرخين لم يعودوا يشعرون بأنهم مضطرون إلى أن يتمسكوا بالمعايير اللغوية الحديثية، وذلك باستخدامهم ألفاظا وأساليب باتت مهجورة في خطابهم لمثليهم وفي إقصاء الرواية بصيغة الاسم الثالث، وحتى إن كانت العربية غير الكلاسيكية غير معروفة تماماً في النثر التاريخي للحقبة المبكرة جداً، وفي بعض التواريخ المملوكية قد أصبحت تقريباً معيارية، مصوغة بشيء من اللغة المنمقة الجديرة التي كانت في مرّة من المرّات. في الواقع إن الذي كان غير لائق أصبح حالياً شيئاً مألوفاً واعتيادياً[1].

---

[1] التعبير أو الرواية الكلاسيكية على اللغة المنمقة والطنانة للتدوين التاريخي المملوكي ينظر بالألمانية الدراسة الموسومة بـ (die Literarisherung der Geschichtsschreibung) وهذه تعود إلى هارمان U.Haarmann في بحثه باللغة الألمانية الموسوم بـ (Auflosung und Bewahrung der Klassischen formen arabischer geschichtsschreibung in der zeit der Mamluken) المنشور في مجلة ZDMG مجلد ١٢١ سنة ١٩٧١ ص ٥٣ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك كتابه باللغة الألمانية الموسوم بـ Quellenstudien zur fruhen Mamlukenzeit المطبوع في Freiburg im Breisgau سنة ١٩٦٩ ص ١٥٩ وما بعدها من الصفحات.

وجنباً إلىٰ جنب مع هذه المتغيرات في النبرة والأسلوب واللغة، فقد ظهرت رواية نشيطة نسبياً بشأن التاريخ المعاصر. والعلامات المبكرة جداً لذلك، ما تتميز به بشكل متميز التاريخ الكرونوغرافي / الحولي. ومن دون استغراب فإن ممثلي هذا التغيير وأدواته يبدو أنها وفدت من خارج مؤسسة الحديث. وفعلاً فنحن مع مثلاً محمد بن يحيىٰ الصولي (المتوفىٰ حوالي ٣٥٠هـ/ ٩٥٠م)، إذ بوسعنا رؤية كيف أن الكتّاب، الذين لم ينفروا ولم يخجلوا من رواية ما يخصّ الحاضر، قد انشغلوا علىٰ سبيل الهواية وعلىٰ نطاق ضيق بالتاريخ المعاصر، وفي نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر/ نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة. فقد ترك الأمر لشخصيات بارزة أخرىٰ كانت تعد علىٰ هامش المؤسسة الحديثية مثل ابن مسكويه، الذي كان مهاجماً للمؤسسة التقليدية. وابن مسكويه** (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠) وغيره من المؤرخين المتعاقبين الآخرين من أفراد العائلة الصابئية (في الأكثر وثنيون) كرسوا أنفسهم لتشجيع ورعاية التاريخ المعاصر في نطاق معين.والواقع، فإن ابن مسكويه قد جلب بوضوح تاريخه المعاصر (تجارب الأمم). وهو مشروع أو بيان فلسفي وأخلاقي وهو المشروع الذي لا يدين للمؤسسة التقليدية الدينية إلا بالقليل، بينما يدين بالكثير جداً إلىٰ العقلانية، تلك التي وقف المحدّثون ضدها ونبذوها؛ مدعياً لنفسه السلطة والحق في أن يقدّر ويحكم علىٰ تنوع مصادره ومعلوماته، وفي أحيان كثيرة كان يكتب بصيغة المتكلم[1].

* أبو بكر محمد بن يحيىٰ الصولي المتوفىٰ سنة ٣٣٥/ ٩٤٦ [المترجم].
** أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه [المترجم].
[1] ستتكلم أكثر علىٰ عائلة الصابيء في آنفا أمّا الآن ينظر (قطع من) كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء طلال الصابيء (لندن ١٩٠٤)؛ وبالنسبة إلىٰ الاستثناء ابن مسكويه في تجارب الأمم (هناك قطع فيه حققت في لندن ١٩٢١؛ والآن تحققت في طهران ١٩٨٧ - وما زالت [الواقع أن الطبعة قد

ما الذي يفسّر لنا مثل هذا التغيير؟ لقد كان الكثير من المؤرخين إبّان القرنين الحادي عشر والثاني عشر/ الخامس والسادس الهجريين قد تدربوا واشتغلوا في التاريخ لا كمحدّثين إنّما ككتّاب ودواوينين / بيروقراطيين. وبالنتيجة فقد جلبوا إلى أعمالهم ومؤلفاتهم التاريخية الكثير من البراعة اللغوية الفنية الفائقة وقد أنتج تدريبهم هذا وانشغالهم رعاية مشجعيهم ورعاتهم، وهم يعيشون في حالة تنافسية عالية في ما بعد الإمبراطورية وهكذا في عالم متعدد البؤر ومراكز تسليط الضوء polyfocal. ولهذا فالبلاطات التي تشتهي بنهم الهيبة والنفوذ والشرعية، وهذه الأمور هي التي بوسع المؤرخين توفيرها وهذه البلاطات يبدو أنها مارست تأثيراً حاسماً على مجريات رواية التدوين التاريخي. وقد رأينا بالفعل أن البلاط كان كامناً وراء تواريخ العتبي وابن الأثير في مؤلفاتها المدحية. وإن ابن الأثير قد ألّف كتابه الباهر من أجل تثقيف القاهر – وهو أبن نور الدين أرسلان المتوفى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠. في الوقت نفسه فإن معاصرين مثل عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١)، وبهاء الدين ابن شداد (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥) كانا يكتبان سير تزلف وتودد لصلاح الدين. وواقعاً، فإن الحقبة التاريخية هذه تتميز بصلات حميمة تماماً بين المؤرخين وبلاطات الدويلات الطموحة – فلدينا ما لا يقل عن ثلاث سير معاصرة للظاهربيبرس (الذي حكم بين ٦٥٩هـ / ١٢٦٠ إلى

تم تحقيقها في الوقت الحاضر تشمل جميع أجزاء تجارب مسكويه. المترجم] عن عصره ينظر كرامر J.Kramer في الدراسة باللغة الإنجليزية المترجمة عن الألمانية الموسومة بـ (الفلسفة الإنسانية في نهضة الإسلام: الانتعاش الثقافي خلال العصر البويهي) المطبوع طبعة ثانية منقحة في ليدن ١٩٩٣، ص ٢٢٢ وما بعدها من الصفحات وكذلك ينظر أركون M.Arkon في دراسته باللغة الفرنسية الموسومة بـ (الفلسفة الإنسانية العربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مسكويه، الفيلسوف والمؤرخ) المطبوع طبعة ثانية ومنقحة في باريس ١٩٨٢)؛ وعن الأخلاق في التدوين التاريخي ينظر ميسمي J.Meisami في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ملكية الأسر وملكية المثالية أو الخيالية في تاريخ المسعودي للبيهقي) المنشور في مجلة أدبيات Edebiyat رقم السلسلة ٣/ ١٩٨٩ ص ٥٧-٧٧.

٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) – محاولة جديدة ولم تكن لها سابقة تماماً، من أجل صياغة Fashion وإعادة صياغة صورة البيت الحاكم[1].

إذن، ما الذي لدينا سوى انفجار أو ثورة في التاريخ المعاصر خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين، لكن من الضروري القول إنه ليس جميع ما كتب يمكن تفسيره برعاية ودعم البلاط. فالمجال حالياً مفتوح على مختلف أنواع الطبقات البروسوغرافية، أي الطبقات المعاصرة ولكي نتأكد من هذا أن التابو taboo(أي الحظر والتحريم) لم يكن دائماً محترماً، فابن العديم (ت ٦٦١هـ / ١٢٦٢م) الذي جاء بعد ابن عساكر مباشرة وتابع خطواته (ت ٥٧٢هـ/ ١١٧٦) والخطيب البغدادي (٤٦٢هـ / ١٠٧١م) وهؤلاء جميعاً قد حازوا على التسامحات التي قدّمت إلى مثل هذه الاستثناءات المعاصرة المشهورة. إذن في حالة حدوث ذلك فقد أخفق في دعم المبدأ، الذي يوحي بأن قواعد الكتابة أخذت تنحلّ، غير أن الصفدي (ت ٦٧٥هـ/ ١٣٦٣)* الذي لدينا كتابه في الطبقات / البروسوغرافيا كرّسه بشكل كامل عن المعاصرين في كتابه (أعيان العصر وأعوان النصر) والتوجّهات نفسها أو الاتجاهات حاضرة أيضاً في السير الذاتية autobiography– وهي توليفة ودمج بين التاريخ المعاصر وبين

---

[1] وعن رعاية ابن الأثير ينظر ريتشاردز D.S.Richards في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ابن الأثير والأقسام الأخيرة من الكامل: دراسة للأهداف والمناهج) المنشور في الكتاب الذي حققه مورغان D.O.Morgan الموسوم بـ باللغة الإنجليزية (الكتابة التاريخية في العصر الوسيط في العالمين المسيحي والإسلامي) المطبوع في لندن ١٩٨٢ ص ٧٦-١٠٨؛ وعن الظاهر بيبرس ينظر هولت P.M.Holt في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ثلاث سيّر حياة للظاهر بيبرس) المنشور في الكتاب الذي حققه مورغان Morgan في اللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الكتابة التاريخية في العصر الوسيط) ص ١٩-٢٩؛ وكذلك ينظر سوبليت J.Sublet في كتابه باللغة الفرنسية الموسوم بـ (ثلاث سيّر حياة للسلطان بيبرس) المطبوع في باريس ١٩٩٢.

* توفي صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الدمشقي سنة ٧٦٤هـ/ توافق ١٣٦٢م وليس كما ذكر المؤلف [المترجم].

تعظيم الذات، ذلك الذي كان يثير بغضاً مضاعفاً من جانب المحدّثين. في حين أن السير الذاتية autobiography قد شجعت من قبل الدخلاء اللامنتمين قبل حقبة مبكرة (أو لنقل أولئك الحسني الإطلاع جداً بالنماذج العقلانية الذي همشتهم الرواية الشرعية)، وفي هذا الوقت شجّعها ورعاها المؤرخون باعتمادية ومقبولية من المحدث. وهكذا فإن أبا شامة (ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧) قد أدخل في تاريخه الحولي (ذيل على الروضتين) ملاحظة في السير الذاتية بصيغة الشخص الثالث، وهي ممارسة سيعقبها فيما بعد ابن حجر في كتابه (رفع الأصر عن قضاة مصر)، ثم بعدئذ السيوطي إذ يكتب سيرة ذاتية توصف بأنها أقل ذعراً وخوفاً[1]؛ ولذلك فإن المؤرخين – المحدّثين صاروا حالياً يكتبون الطبقات/ البروسوغرافيا المعاصرة (التي كانوا كثيراً ما يقحمون فيها ملحوظات من السيرة الذاتية autobiography) في حين أن زملاءهم المؤرخين كانوا في وضع يتصيد الواحد للآخر وفي أحيان يمدح الواحد الآخر أيضاً. وذهب الصفدي أكثر من هذا في دفاعه ومناصرته لمؤرخ آخر مماثل له وهو الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨) على حساب رواة أو نقلة الحديث: "إذ كان لا يملك صلابة المحدّثين". وهم بالنسبة إلى عصرنا هذا يظهر أن بأنهم أليفون وتعوزهم الشجاعة على نحو كامل. غير أن هؤلاء كانوا

---

[1] عن ابن العديم ينظر مورّي Morray في الدراسة باللغة الإنجليزية (وجيه أيوبي، أو أيوبي بارز) المذكور آنفاً، ولاسيما ص ١١ وما بعدها، هامش ٣٧؛ وبصورة عامة ينظر رينولدز Reynolds (المحقق) للكتاب باللغة الإنجليزية (تفسير أو تأويل الذات)؛ عن أبي شامة ينظر لوري J.E.Lowry في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(الوقت، الصيغة، أو الشكل والذات: السير الذاتية autobiography لأبي شامة) المنشور في مجلة أدبيات Edebiyat سلسلة رقم ٧ (١٩٩٧) ص ٣١٣-٣٢٥، وهو بحث من بين عدّة بحوث حول السيّر الذاتية العربية في إصدار كرس حصراً على الموضوع نفسه؛ وينظر أيضاً بوزيه L.Pouzet في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ(ملاحظات عن السيرة الذاتية في العالم العربي الإسلامي في العصر الوسيط) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من فيرمولين U.Vermeulen وسمت D.de Smet باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(الفلسفة والفنون في العالم الإسلامي) المطبوع في Louvain ١٩٩٨، ص ٩٧-١٠٦ (إذ يجد المرء نظرات عامة حول مقاطع السيّر الذاتية.

في القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري فإن هذه تعدّ بمثابة مقاتلة أو محاربة fightingمع أنها لطيفة وغير شديدة اللهجة تعدّ من الكلمات الحادة والمقاتلة (وسنلحظ في الفصل التاسع أن هذه كانت في هذه الحقبة أن مناقشة حميمة أخذت تتطور بين العلماء).ولم يكن الصفدي وحده يتمتع بالشجاعة والجرأة لأن يتحمل النقد والمحاججة عن مشروعه وبصورة نظامية، فهكذا كان السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧) جريئاً بشكل كافي لكي يؤلف كتاباً جدلياً وهجومياً على الآخر وهو كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ). فالتاريخ حالياً قد أخذ يدافع عن نفسه كعلم، حتى وإن كان ما تبقى من توضيح السخاوي من استخدامه تعبير لا لبس فيه وهو (تعبير التأريخ) ، فيكتب السخاوي " أن يشير إلى كونه فرع من المعرفة الذي يتعلق ببحث ماله علاقة بالأحداث التي وقعت في الوقت المحدّد، بهدف بناء شخصيتها ومكان حدوثها والوقت المحدد لحدوثها".• وبحدود هذه الحقبة التاريخية بوسعنا أيضاً الشروع في رؤية علامات لمدارس التدوين التاريخي، كما هو مثلاً عند الموحدين والمرينيين في شمال أفريقيا من القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين/ السابع والثامن الهجريين، وكذلك في سوريا المملوكية[1].

• [هكذا ترجم روبنسون نصّ السخاوي، وعند رجوعنا إلى كتاب الإعلان بالتوبيخ فعلاً وجدناه أيضاً موافق لترجمة ما قاله السخاوي في تعريف التاريخ فالنصّ يذهب الى "فالتاريخ في اللغة الإعلام بالوقت فقال أرخت الكتاب وورخته أي بينت وقت كتابته. وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحسابهم واستيفائهم ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة•) المترجم].

[1] حول النصّ ينظر دراج A.Darray في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (حياة أبو المحاسن ابن تغري بردي ومقدمته) المنشور في Annales Islamologiques مجلد ١١/ ١٩٧٢ ص ١٦٣-١٨١؛ كذلك ينظر بوبر W.Popper في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (نقد السخاوي لابن تغري بردي) المنشور في كتاب باللغة الإيطالية في ذكرى المستشرق ديللا فيدا المطبوع في روما

لم يكن مصادفة بأن ما تحدثنا عنه أخيراً، بأن هذه الحقبة الدالّة على ثقة المؤرخ بشكل كبير أن تنتج مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م). وهو مشروع معقد كثيراً ونظري في حقل الفكر التاريخي لم ينتجه أي مؤرخ آخر قبل الحقبة الحديثة، إن كان مسيحياً أو مسلماً أو غير ذلك. فالمقدمة، هي مقدمة مبرمجة وتتضمن برنامجاً لتاريخه الشامل والجامع - إذ لم تكن هذه المقدمة مجرد عمل متبصر بشكل عميق وكبير، وعلى أية حال، فإنها قطعة من البحث الشخصي الضخم، واستندت على ملاحظته المنبثقة من تفكير طويل وقراءة طويلة. وليس لها شيء يدل على ثقافة رسمية أو متمسكة بالشكليات، التي يصفها في سيرة ذاتية autobiography بشكل ملائم جداً-- وهذه المسيرة هي التي هيأته إلى أن يأخذ على عاتقه هذا العمل. وسوف نرى سبب ذلك بأن المعيار الثقافي قد صار من قبل المحدّثين تابعاً وضعيفاً من أجل إنتاج الكثير من المحدّثين، أكثر من مؤرخين في التواريخ الحولية الجامعة[1].

١٩٥٦ ص ٣٧١-٣٨٩ Vida؛ وحول مدح الذهبي، ابن حجر في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج٣ ص ٣٣٧ (جمود المحّدثين)؛ ترجمة السخاوي مأخوذة من مقدسي Makdisi في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (اليوميات في التدوين التاريخي الإسلامي: بعض الملاحظات) المذكور آنفاً ص ١٧٩؛ أقسام من الإعلان والمختصر في علم التاريخ للكافيجي قد ترجما في كتاب روزنثال، تاريخ المشار إليه آنفاً؛ وحول مدارس أو مذاهب شمال أفريقيا ينظر شاتزميلر M.Shatzmiller في دراسته باللغة الفرنسية الموسومة بـ (التدوين التاريخي في الدولة المرينية: ابن خلدون ومعاصروه) المطبوع في ليدن ١٩٨٢؛ وحول المدرسة السريانية - السورية (وملاحظات مفيدة على المصريين)؛ ينظر كو L.Guo في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (دراسات في التدوين التاريخي المملوكي: حالة الفن) المنشور في مجلة MSR مجلد ١ (١٩٩٧) ولاسيما ص ٣٧ وما بعدها من الصفحات؛ وكذلك دراسته التدوين التاريخي السورة في العصر المملوكي المبكر الذي سبقت الإشارة إليه ص ٨١ وما بعدها.

(١) مقدمة ابن خلدون قد ترجمت من قبل روزنثال F.Rosenthal بعنوان المقدمة: مقدمة للتاريخ، والمطبوع في نيويورك ١٩٥٨ الطبعة الثانية والطبعة المصححة والمحققة، برنستون ١٩٦٧؛ ومختصر لها حققت وطبعت في برنستون ١٩٦٩؛ وثبت للمصادر عن ابن خلدون من الطبيعي كبير جداً، ولكن علينا إبداء ملاحظة ابداها بريت M.Brett في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (ابن خلدون والمغرب في العصر الوسيط) المطبوع في الدرشوت Aldershot ١٩٩٩)((وهو مجموعة من الأبحاث)؛ ينظر أيضاً جدادي A.Cheddadi في

الفصل السادس

التدوين التاريخي والمجتمع

لقد رأينا أن التدوين التاريخي أو علم التاريخ قد احتّل موضعاً ومكانة متكافئة بين الضدّين في أدب العالم الإسلامي الكلاسيكي/ القديم. فكانت المؤسسة الحديثية متحمّسة في مجال السيرة النبوية والطبقات/ البروسوغرافية الحديثية التي دعمت وعززت القيم الحديثية والمؤسسات الحديثية والتقليدية، وكانت تقدم خدمة بكونها أدوات مساعدة لفهم الحديث وتثبته وتأكيد مدىٰ صدقيته، في الوقت الذي كان فيه التاريخ الحولي الكرونوغرافي المتأخرة وتراجم الحياة من غير السيرة النبوية (وبضمنها السير الذاتية/ autobiography) علىٰ هامش أو جانب من مشروعهم. ونتذكر أن التدوين التاريخي هو خير انعكاس للقيم الثقافية. وأن مؤلفات تراجم الحياة Biography والسيرة الذاتية Autobiography تطورت لتصبح ضرورياً أو أنواعا جذابة إبّان النهضة (الرنايسنس) لأنها كانت تضع الفرد في قلب أو مركز العلمية التاريخية. وأن التدوين التاريخي بصورة عامة صار شعبياً في أوروبا القرن التاسع عشر للميلاد ذلك لأنه كان يعبر عن فكرة

دراسته باللغة الفرنسية ومعاصريهم، والعرب في المغرب والبربر) المطبوع في باريس ١٩٨٦ (ترجمات وشرح)؛ كذلك ينظر العظمة A.AL-Azmeh في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (ابن خلدون في البحث العلمي الحديث: دراسة في الاستشراق) المطبوع في لندن ١٩٨١.

التقدم تجاه مستقبل مليء بالوعد والأمل. بخلاف ذلك كان التاريخ الحولي/ الكرونوغرافي وتراجم الحياة المعاصرة أقل جاذبية بالنسبة إلى الكثير من المحدثين المسلمين؛ وذلك لأنها لا تقدم إلا الشيء القليل الذي يحفظ الجزء من الماضي أي الجزء الذي يهمّ أهل الحديث أكثر من غيره. وينبغي علينا أن لا نغالي في هذه المسألة. فموازنة بين الثيولوجي (الفقه) و الفلسفة، فإن كلّ منهما بإمكانه أن يؤسس عداءا أو خصومة بكل ما في الكلمة من معنى بالنسبة إلى المؤسسة. فموازنة الاثنين يكون التدوين التاريخي قد حقق نجاحاً. ولعل ممارسة كتابة التاريخ لم تكن تتمتع بالمكانة المرموقة نفسها وبالهيبة نفسها والمقام كما وافق الحال في الفلسفة والفقه أو الشريعة، لكن المؤرخين لم يكونوا على الإطلاق منبوذين ostracized من قبل المجتمع. صحيح إن بعض مؤلفاتهم ربما أهملت ولكنها لم تحرق. وحالياً فحقيقة أن هناك بعض المرويات قد وقع عليها حيف وقد ألصق بها الإزدراء والخزي في دراسة كالمغازي. فأحمد بن حنبل يعتقد أنه قال بان التفسير، تفسير القرآن أو الملاحم والمغازي لا أساس لها وغير صحيحة. ولعل ما أزعج أحمد بن حنبل لم تكن، على أية حال، المغازي نفسها ولكن الأحرى القول بأنه يقصد أولئك المختصين بدراسة المغازي الذين لم يتطابقوا ومعاييره في ضبط النقل والرواية. وواقعياً فإن بعض المختصرات المبكرة جداً للشريعة الإسلامية تتضمن أقساماً أو أجزاءً من المغازي. فالمؤلفون في الواقع قد أسسوا في النصوص ما أسّسه الأساتذة في التعليم العالي فعلياً في مناهج المدرسة[1].

---

[1] وحول مواقف أحمد بن حنبل إزاء المغازي ينظر جولد تسيهر I.Goldziher في دراسته المشار إليها آنفا (دراسات السلامية) ج٢ ص ١٩١ وما بعدها: عينة من الخلاصة الوافية هو ابن أبي شيبة في كتابه (المصنف) بيروت ١٩٨٩ ج٨ ص ٣ وما بعدها من الصفحات (تصنيف يثير الاهتمام والفضول لأخبار جمعت تحت عنوان مطبوع بحروف خاصة تاريخ) وصفحة ٤٣٤ وما بعدها من الصفحات (معلومات مغازي للخليفة علي)؛ عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، بيروت ١٩٧٢،

ولهذا فإن المسلمين كانوا ملزمين ومسلّمين بالتاريخ الإسلامي المبكر، وبما حدث في القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري فإن لهذا التاريخ تأثيرات ثابتة وقوية على هوية المسلم الذاتية. فبينما تنازع المسيحيون القدامى وتشاحنوا حول التعليل اللاهوتي (الكرايستولوجي Christology) لشخصية المسيح وأفعاله، فإن المسلمين تنازعوا وتشاحنوا بشان سلوك وتصرّف المسلمين في القرن السابع الميلادي/ الأول للهجرة على من يتولى القيادة كالتي يتذكرونها ويدونونها في التاريخ. فأولئك الذين يمثلون المحافظة (الآرثودوكس) خلال زمانهم – وكانوا شخصيات بارزة كالطبري وابن الجوزي والسيوطي – وجدوا أن الزمن خلال أيامهم هو في كتابة تواريخهم الحولية، حتى أنهم تركوا للمؤسسة الحديثية والتقليدية حداً ضيقاً ومحدوداً، فالتدوين التاريخي لم يبق حقلاً متخلفاً بين العلماء كما بقي بين الحاخامات أو الربانيين اليهود، فقد تشاطر العلماء معه وتقاسموا قدراً كبيراً من القواسم المشتركة.والبرهان المقنع والدليل الواضح على ذلك بإمكاننا العثور عليه في رواية الطبقات / البروسوغرافيا الضخمة للعلماء، تلك التي لم ينتج الحاخامات الربّانيون مثلها أبداً "إذ قد رأينا أن الربّانيين بالفعل قد استعاروا فكرة ومنهج الطبقات من المعاصرين المسلمين". فالنصوص الربّانية هي نصوص مختلفة في أنموذجها في التاريخ، فكانت النتيجة أن أضحى إنتاج تاريخ حولي على نحو أنموذجي إدارته صلات الربانيين مع الشيوخ أو الأسياد، سواءاً كانوا بين المعاصرين أو من التلاميذ. وقد أضافت القليل جداً فالأحداث التاريخية للطبقة الأولى أما أنها لم تدوّن على الإطلاق، أو أنها من الناحية الأخرى دونت ولكن ذكرت بأسلوب أسطوري خيالي

جزء ٥ ص ٣١٣ وما بعدها من الصفحات (معلومات مغازي إلى الخليفة عمر): البخاري، الصحيح (ليدن ١٨٦٢-١٩٠٨) ج٣ ص ٥٢ وما بعدها.

جداً أو كانت قطعاً متشظية. فالطبقات البروسوغرافيا الإسلامية ـ على خلاف ذلك ـ لا يقتصر توفيرها معلومات قريبة ومترابطة فحسب، بل إنها وبشكل لافت تعجّ بالتواريخ، تواريخ الولادة (أحياناً) وتواريخ الوفيات (دائماً تقريباً) وكانت الاختلافات دوماً تدوّن وبشكل ثابت[1].

فجميع هذا قد سبق أن قلناه، ولكن بقينا مع إشكالية، فإنّ إعطينا المحدّثين أحد الحدّين في تكافؤ الضدّين، فكيف لنا تفسير الرواية الضخمة في التاريخ الحولي/ الكرونوغرافي؟. ولماذا تمّ رعاية وتشجيع التاريخ الجامع وتاريخ بعد النبوة بحيث حقق نجاحاً كبيراً؟. الأجوبة في ذلك تأخذ بنّا بعيداً عن المحيط الديني والبيئة الدينية، إن جاز التعبير تماماً، ولكن ضمن العالم الإجتماعي والسياسي لإسلام العصر الوسيط. إن المؤرخين المسلمين قد أنتجوا رواية حولية كرونوغرافية كانت رائعة بما فيه الكفاية، على خلاف من اليهودية التقليدية أو الحديثية اليهودية، إذ كان إنتاجهم ناجحاً ويثير

---

[1] الاقتباس من يروشلمي Y.H.Yerushalmi في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (التاريخ اليهودي والذاكرة اليهودية) المطبوع في سيتل Seatle ولندن ١٩٨٢، ص ١٨؛ وحول معلومات أكثر عن اللامبالاة أو اللا تحيز td hالتاريخ، بريتلر Bretller في الدراسة بالإنجليزية الموسومة بـ (صناعة أو خلق التاريخ في إسرائيل القديمة) ص ٣ (ليس هناك سؤال لا معنىٰ له كثيراً أو مثير للضجر من غرض أو هدف وعدم منفعة الوصف الدقيق لما أصبح معروفاً حقّاً أو لما حدث حقاً)؛ ينظر غرين W.S.Green في بحثه الموسوم بـ (ما هو في اسم؟ إشكالية سيرة حياة رابنيه Rabbinic) المنشور في الكتاب الذي حققه غرين W.S.Green بالإنجليزية (طريق فهم اليهودية القديمة: نظرية وتطبيق مجلد I) المطبوع في ميسولا Missoula ١٩٧٨، ص ٧٧-٩٦؛ ينظر ايضاً نوسنر J.Neusner في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (استعمالات أو منافع اليهودية في التاريخ في العصور التلمودية) المنشور في الكتاب الذي حققه رابوبرت – البرت A.Rapoport – Albert بالإنجليزية الموسوم بـ(بحوث أو مقالات في التدوين التاريخ اليهودي) المطبوع في مدلتاون Middletown ١٩٨٨، (تاريخ ونظرية) المطبوع في بيهفت Beihfet ولاسيما ص ٣٢؛ وعن أوجه التشابه ينظر هيزر C.Hezser في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (البنية الإجتماعية لحركة السريانية Rabbanic في فلسطين الرومانية) المطبوع في توبنجن Tubingen ١٩٩٧ حيث بوسع المرء عادة أن يبدل ربانيته Rabbinate بالعلماء.

الإعجاب في العمل التبشيري السياسي، ولاسيما في خلق ثقافة واسعة للسياسة والتعلم. فالمسلمون بما أنهم استعماريون عظام، أصبحوا مؤرخين عظام. فالمحدّثون يضعون عمائم على أعينهم blinkere وبذلك يهيمنون على المؤسسة الدينية، إلا أنه بوسعهم منع العلماء أو صدّهم عن الماضي والفقهاء من أن يكونوا حالمين كمؤرخين moon lighting والأكثر حسماً وجدية من كل ما قد تمّ ذكره فإنهم بالكاد يملوا أذواقاً أدبية أو يبعدون التدوين التاريخي من حدود سوق التعلم والثقافة. فهناك بين الأمراء والإداريون والدواوينيون البيروقراطيون والكتّاب والنسّاخ وداعمون من مختلف المجالات، إذ كانت الرواية التاريخية مطلوبة من جميع هذه الطبقات الإجتماعية والإدارية والفكرية. وباختصار فقد وجدت التقليدية الضيقة الأفق والإمبريالية الكوزمولوليتية العالمية معاً في صياغة وتلفيق ورواية التدوين التاريخي الكلاسيكية.

أكون في هذا الفصل قد انتهيت من مهمة رسم مخطط تمهيدي حول الوضع الثقافية لكتابة التاريخ في العالم الإسلامي الكلاسيكي / القديم وفي الوقت الذي كانت فيه الطبقات/ البروسوغرافية الحديثية قد انتجت ما تتطلبه المدارس الفقهية من احتياجات، تلك المدارس التي كانت تتمتع باستقلالية ذاتية عن الدولة، وأن هناك أمثلة عن السيرة النبوية ذات الحدود المرنة مطلوبة بتزايد من قبل المسلمين المثقفين بصورة عامة. تلك السيرة التي سبق وأن أطلقت عليها أسم (السيرة التعبدية) حينها سنرى أن التاريخ الحولي الكرونوغرافي وكذلك السيرة الحولية الكرونوغرافية بوسعها كثيراً أن تتحد مع البلاطات والدويلات، وهكذا الأنموذج نفسه يمكن أن يظهر أيضاً في التعبيرات والمصطلحات التاريخية الكرونولوجية المرتبة ترتيباً زمنياً. وفي الوقت الذي نجد فيه التقليدية الدينية تشكل دوماً العمود الفقري للتعليم

الإسلامي نرى الرواية الدواوينية/ الإدارية قد أخذت تؤثر على الكتابة التاريخية ستكمل فيها رواية التدوين التاريخي المستندة إلى الحديث وقد حدث هذا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد/ الخامس والسادس الهجريين. والمقصود بهذا أننا يجب علينا فحص وتحليل المشكلة الشائكة المتعلقة بالرعاية والتشجيع بصورة مفصلة ألا وهي المنظور والجمهور.

المعيار القياسي لجمهور القراء:

ومثل أي صيغ أخرى من مؤلفات التعليم والمعرفة فإن التدوين التاريخي إنما انتج لجمهور من القرّاء والمستمعين الذين كانوا يعيشون في المدن والبلدات، الذين كانوا ميسورين وأثرياء – وباختصار، فإنه موجه إلى تلك النخب الإجتماعية والسياسية التي باستطاعتها أن تتصرف وتبدد أموالها ووقتها في عملية استهلاك للكتب. وإنه من المستحيل علينا تقدير أعداد دقيقة لمثلي هؤلاء القراء في حقبة العصر الوسيط، ولكن ليس هناك من سبب يدعونا إلى التفكير والاعتقاد بأنهم يختلفون اختلافاً جذرياً ودراماتيكياً مثيراً عن حالة المغرب مثلاً في بداية القرن العشرين، إذ أن هناك حوالي ١٠-٢٠٪ من الذكور من مجموع السكان الحضر كان متعلماً وغير أميّ- وربما يشكل هؤلاء من الذكور الناضجين ٤٪ من مجموع السكان."وهنا علينا أن نتذكر وجود معايير مختلفة وأصنافاً مختلفة أيضاً من معرفة القراءة والكتابة واختلاف في أعدادها، لكن جميع هؤلاء هم من طبقة ذات حالة اجتماعية معينة". ففي الإسلام الكلاسيكي، كما هو الحال في أي مكان آخر، فإن القدرة على القراءة لا تكفل القدرة على الكتابة، وهذا بالطبع يساعد على تفسير الدور الحاسم الذي أدّاه النسّاخ أو الكتّاب الذين تضلعوا بهاتين المهارتين. وأياً كان دقة أعداد هؤلاء، فإن القراء في حقبتنا التاريخية في الشرق

الأدنى هم أكثر بكثير جداً مما كان عليه الحال في أوروبا المتعاصرة مع الحقبة الإسلامية مع هذا فمن يقرأ كتاباً كبير الحجم في التدوين التاريخي بمثل كان حينذاك يكتب؟»[1].

والتساؤل الذي يصعب الإجابة عنه، هو أننا الآن بوسعنا معرفة قدراً كبيراً من المعلومات بشأن كيفية استجابة القرّاء للكتب، وكذلك بوسعنا معرفة من هم هؤلاء القرّاء وماذا كانت أعمالهم، ولماذا يقدمون على شراء الكتب، وكم هو عدد الذين يشترون الكتب وكم من هؤلاء الذين يرغبون في أن يدفعوا الأموال للشراء، وأين يذهبون لكي يشتروا الكتب؟ وجميع هذه المعلومات هي من عمل الناشرين كشيء متوقع أو بوصفه نتيجة طبيعية. ولكن علينا معرفة أن أياً ممن باستطاعته قراءة صحيفة قد يدخل ضمناً للوصول إلى معيار مفصل ومثير لمعرفة أذواق القّراء. فالمؤسسة الوحيدة لقوائم أسماء الكتب الأكثر رواجاً في حقبة معينة (إن كانت الرواية أو غير الرواية أو الاعتماد على النفس) ذلك توحي إلى ميول واتجاهات واسعة، وإلى معطيات خاصة تتضمن (أعداد وأرقام المبيعات) وهي معلومات دقيقة ومضبوطة وهي أيضاً تؤرخ تدوين العناوين الشعبية والعامة نسبياً (فبعضها يتصاعد وبعضها الآخر يهبط عن تلك النسبة)، فضلاً عن الأداء الإجمالي (مجموع المبيعات من النشر). وبناءاً على قاعدة الكتب الأكثر رواجاً فهذا يعدّ

---

[1] استعرت الإحصائية من ايكلمان D.F.Eickelman في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (فن الذاكرة: التعليم أو التربية الإسلامية وإعادة التكاثر الإجتماعي) المنشور في مجلة Comparative Studies in Society and History (دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ) مجلد ٢٠ (١٩٧٨) ص ٤٩٢؛ وفي أنواع من معرفة القراءة والكتابة ينظر باومان A.K.Bowman روولف G.Woolf محققان كتاب بالإنجليزية الموسوم بـ (معرفة القراءة والكتابة والسلطة في العالم القديم) المطبوع في كمبردج (١٩٩٤)؛ ومثال واحد عن قارئ لكنه لا يكتب، البلاذري: فتوح البلدان (طبعة ليدن ١٨٦٦) ص ٤٧٢؛ وحول مناقشة متممة بعضها للبعض عن وضع التدوين التاريخي ينظر روزنثال: تاريخ (المشار إليه آنفا) ص ٣٠ وما بعدها.

دليلا لوحده. والمؤرخون في المستقبل سيكون بوسعهم إعادة بناء صورة مفصلة عن أي من الكتب كان مقروءاً وكيف تؤثر السياسة والثقافة على فتح شهية القرّاء (والضد صحيح) وبما أن ما لديهم بالتأكيد هو أكثر من ذلك بكثير – فكل شيء يأتي من دفاتر تدوين يوميات القرّاء ومن دوريات المكتبات للكتب التي أما يعقب عليها أو تنتقد أو تعقيبات المعقبين على الكتب أو سجلات برامج العرض من الراديو والتلفزيون – فهذا كله سيجعل بإمكانهم أن يقولوا كم نقرأ نحن من الكتب، والكيفية التي نستجيب إلى الكتب التي تقرأ، وكذلك السبب الذي يدعونا إلى قراءة كتاب معين. والبينة والدليل عن الإسلام في العصر الوسيط هو أضأل من ذلك بكثير تماماً- أنه ضئيل جداً في الواقع، إذ أن المؤرخين من الطبيعي لا يفكرون قبلياً أو مسبقا عن كيفية فهم التاريخ أكثر من اهتمامهم حول كيفية كتابة التاريخ، ولم يذكر أي شيء إطلاقاً عن جمهور القرّاء سوى القليل جداً. وسوف أرسم مخططاً عن هذه البينة أو الدليل بحسب نظام التدرج لقيمتها للإجابة عن السؤال الذي نحن بصدده.فقد تعوزنا قوائم بأسماء الكتب الرائجة في حينها او نفتقر إلى بحث في أسواق الكتب، ولكننا نمتلك حقاً مجالاً واسعاً من المعطيات والمعلومات التاريخية. وأحد هذه الأصناف هو المحيط والبيئة التي تم تدوين الرواية عنه: فالمخطوطات بوسعها أن تقدم معلومات قيمة جداً بشأن أسئلة أمثال متى وكيف وبوساطة من قد نسخت هذه الكتب وتقرأ وتسمع وتنقل وتروى وتشترى وتمتلك، فمعلومات مثل هذه قد تأتي ويرد ذكرها بصيغ متنوعة. فالكلمات التي يتردد ذكرها في نهاية المخطوطة حول اسم الناسخ وزمان ومكان النسخ، وهذه المعلومات كلها هي الـ Colophons الإنجليزية والتي هي أقوال ومعلومات تتعلق بإنتاج أي كتاب (أو جزء من كتاب) ذلك الذي يكتبها النسّاخ في نهاية الكتاب،

والإشارة إلى الكتاب الذي قد نسخوه فعلاً، وفي الأغلب الأعم فإن النسّاخ يخبروننا عن اسم الناسخ وعن تاريخ النسخ وتاريخ الوقت الذي انتهى فيه من العمل (وأقل من هذا بكثير) ربما يذكرون اسم الداعم أو الراعي الذي كلف بالنسخ، وفي بعض المخطوطات هناك ذكر للإجازات، وهي الشهادات بسماع الكتاب أو استماعه (دليل شهادة استماع والإجازة) وعن هذه النقطة يراجع الفصل التاسع – وهذه المعلومات ربما تزودنا بتاريخ استماع وإجازة الكتاب ومكان الاستماع، كذلك يحتمل أن توفر المخطوطة لنا أسماء وأعداد أولئك المرتبطين بهذه العملية؛ وأحياناً تتضمن مخطوطة واحدة عدداً من هذه الإجازات، والتي تسمح لنا بقياس عدد قارئي الكتاب أو حتى مجموع القرّاء عبر عدة أجيال.وأخيراً، فإن أكثر المخطوطات تحمل علامات أو إشارات، أما أن تكون على شكل إمضاءات أو ملاحظات يقوم بها القرّاء أو مالكي المخطوطة (وهي ربما تشابه لما لدينا من رقعة أو هوية الكتاب ex Livris) مثلاً القول (هذا من بين كتب فلان وفلان) وحتى إشارات إلى تحويل ملكية الكتاب. مثال على هذا القول (جاء هذا الكتاب من فلان وفلان من فلان وفلان)[1].فما هو الضوء الذي بوسع هذه الممارسات إلقاؤه على مؤلفات وأعمال في التدوين التاريخي؟. في الواقع أن هذا يأتي من العلامات الموجودة في المخطوطات ومن الملاحظات التي بالإمكان استنتاجها من مؤلف القسم

---

[1] وعن علامات المخطوطات ينظر اينرس Eneress في بحثه المشار إليه آنفا باللغة الألمانية (الكتابة باليد) Hand schriften Kunde ص ٢٨٨ وما بعدها من الصفحات؛ وحول مسألة طريفة جداً عن تصنيف الإجازات ينظر ليدر S.Leder والسوّاس Y.M.al-Sawwas والصاغرجي M.al.Sagharji في كتاب (معجم السماعات الدمشقية) المطبوع في دمشق ١٩٩٦؛ وعن الكلمات في نهاية المخطوطة Colophns بصورة عامة ينظر سيسن R.Sesen في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (بحث عن تاريخ تطور الكولفون في المخطوطات الإسلامية) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من دبروج F.Deroche وريتشارد F.Richard الموسوم بـ باللغة الفرنسية (النسّاخ والمخطوطات في الشرق الوسيط) المطبوع في باريس ١٩٩٧ ص ١٨٩–٢٢١.

التاريخي من كتاب الأوراق لمحمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٢/ ٩٥٠)*، وهي نسخة منخورة بفعل التسوس تم تداولها بين عدد كبير من العلماء من القرن السابع إلى القرن التاسع/ القرن الأول إلى القرن الثالث الهجري من القرون الإسلامية. فالملاحظات المكتوبة على الهامش قد كتبت على نسخة من النسخ لكتاب مجهول المؤلف من القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس الهجري حول تاريخ الخلافة قد يوحي إلى أن ندعي أن قارئاً واحداً خارجياً أو قارئاً شيعياً قد قرأ هذه النسخة من المخطوطة. والمثير للاهتمام هي معرفتنا من إجازة ابن سيد الناس (ت ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م) كاتب سيرة النبي إنه قد قرأ النصّ (وهو نص موافق لحياة النبي تماماً) في مخطوطة من مخطوطات طبقات ابن سعد وان مستشرقين قد استعملوها فنحن نعرف أيضاً من أين حصل على النسخة وإلى أين ذهبت. كذلك فإنه مما يستحق الملاحظة أن المقريزي قد راجع مخطوطة احتفظت بجزء صغير من تاريخ المسبحي التي هي في مكتبة اسكوريال. فثلاث من هذه الأمثلة تتراصف معاً مع أمثلة كثر أخرى، التي توحي بأن بركة pool مخطوطات التدوين التاريخي ربما كانت ضحلة دائماً. والكلمات الموجودة على أحد نسخ كتاب الطبقات / البروسوغرافيا عن دمشق وهو (تاريخ دمشق) لابن عساكر (ت ٥٧٢/ ١١٧٦)*يخبرنا أن ناسخها هو الجد الأعلى للمؤرخ البرزالي (ت ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩) الذي كان يشتغل في مدرسة بدمشق؛ وتخبرنا أيضاً أنه اشتغل بها من نسخة قد كتبها أحد أبناء المؤلف، وهكذا تذكر الإشارة بعض الشيء عن مسألة النسخ: وأن أحد أبناء ابن عساكر قد نسخ كتاب والده وهي إشارة أنموذجية عن ثقافة إنتاج كتاب، أي كتاب، وتذكر هذه الإشارة أيضاً بعض الشيء عن اتجاهات

* كما سبق ذكره أن وفاة الصولي سنة ٣٣٥/ ٩٤٦م [المترجم].
* وفي رواية أخرى كانت وفاته ٥٧١/ ١١٧٥م.

ومواقف أحدى مدارس دمشق إزاء الطبقات / البروسوغرافيا.ومن هذا المثال بوسعنا أن فهم لماذا كان الكتاب ينسخ ومكان نسخه: والكتاب يجل دمشق كونها مركزاً للتعلم والمعرفة، وكانت تقوم بهذا العمل بطريقة حديثية بشكل عميق. والواقع فإن تاريخ ابن عساكر كان مشهوراً على وجه الضبط في هذا المجال. بينما كان مؤرخون آخرون في فترته قد استغنوا عن الأسانيد، ولنه قد ظل محافظاً عليها (وكان أهالي المدينة يحبّون السماع عن بلداتهم؛ ونحن نعلم أن الخطيب البغدادي قد ألقى سلسلة من المحاضرات من تاريخه، تاريخ بغداد، في بغداد)[1].تماماً كالإشارات والملاحظات التي تمّ كتابتها على مخطوطة تكشف بعض الشيء عن نسخها ونقلها أو روايتها، كذلك الحال بالنسبة إلى شكل رواية مخطوطة كتاب إذ يساعدنا في فهم مدى شعبية الكتاب نسبياً. وحالياً فإن هذا النقطة تظهر على أن المقياس يعدّ مقياساً شاقاً، طالما أن الموهبة في اكتشاف الأمور النفيسة (أطلق عليها المؤلف تعبير السرندبية Serendipity) تؤدي إلى حد ما دوراً بشأن المخطوطات التي بقيت على حالها إلى حد الآن. ونادراً ما كان الكتب الكبيرة الحجم تنسخ

---

[1] وحول مناقشة عن مخطوطة أنموذجية وهوامشها ينظر تحقيق جيست R.Guest لكتاب الكندي (الولاة وكتاب القضاة) المطبوع في لندن ١٩١٢، ص ٤٧ وما بعدها؛ وحول الصولي وأخباره الراضي بالله صفحة (و ؛ راء) حيث العلامات قد دونت؛ والتاريخ المجهول المؤلف (العيون والحدائق) ج٤ (١) ص ١٤؛ وحول الإجازة في إحدى نسخ طبقات ابن سعد، ينظر (Einleitung) ص XLI (٤١) في الجزء ٣ في طبعة ليدن ١٩٠٤-١٩٤٠؛ وحول المقريزي والمسبحي ص (ذيل المقدمة الجزء الأربعون من أخبار مصر؛ وحول مثال البرزالي Birzali في الكتاب بالإنجليزية الموسوم بـ(كاتلوك المخطوطات العربية والفارسية في المكتبة الشرقية العامة في مدينة بتنه الهندية (بانكيبور) المطبوع من بتنه Patna ١٩٠٨-١٩٤٠ مجلد ١٢ ص١٤٥؛ وحول مؤرخ آخر الذي نسخ كتاب ابن عساكر في مدرسة في دمشق ينظر عباس I.Abbas في كتابه باللغة العربية (شذرات من كتب مفقودة في التاريخ) المطبوع في بيروت ١٩٨٨، ص ١٩٠ وما بعدها، وحول الخطيب البغدادي ينظر ياقوت: إرشاد الأديب ج١ ص ٢٤٦؛ وحول كيفية وجود الكثير من الـ Corophone من رواية رواية أخرى في الشرق الأدنى تعرض للمؤرخ ينظر سنجيان A.Sanjian في دراسة باللغة الإنجليزية بعنوان (الكوبفون في مخطوطات أرمنية ١٣٠١-١٤٨٠: مصدر لتاريخ الشرق الأوسط) المطبوع في كمبردج + ماسوشتس ١٩٦٩).

بكثرة موازنة بالكتب الصغيرة، ولذلك علينا، من أجل هذا السبب وأسباب أخرى متنوعة، أن نعمل بافتراضٍ أن مجاميع من المخطوطات قد تظهر مدى انتشار والكتب وأعداد انتشارها تلك التي كانت في إحدى المرّات في التداول بوضوح كالحال في تداول النقد – وهذا في الواقع يعدّ هزيلاً جداً. وفي الوقت الذي يكون فيه بإمكان علماء النقود (النميّات) الرجوع إلى خزين وحشد من النقود التي تقدم له رواية دقيقة عن النماذج المتداولة، فإن المؤرخين لا يملكون مثل هذا الضابط أو التحكم. مع كل ذلك بوسعنا الوصول إلى استنتاجات نسبية. فواحد من هذه الاستنتاجات أن كثير من الأشخاص يقرأون السيرة النبوية. وأن حوالي مائة نسخة (١٠٠ نسخة) من السيرة ظلت باقية في القرن الثاني عشر للميلاد/ السادس الهجري ضمن مجموعات القاهرة لوحدها. وهذايدعونا إلى الاقتراح بأن هذا الكتاب بشكل كتاب الشفاء للقاضي عياض كان كتاباً شعبياً وعلى نطاق واسع. يبدو أن هذا الكتاب بالنظر إلى سمعته وشهرته بين المؤلفين في العصر الوسيط، وهناك نسخ مضاعفة أخرى من (الشفاء) وخلاصاته وشروحه يمكن العثور عليها ووجودها بين مجموعات المخطوطات داخل و خارج العالم الإسلامي- مثل هذا الكتاب أو العمل يمكن أن نزعم أن جمهوراً كبيراً جداً وأكبر مما يستطيع كتاب في التاريخ الكرونوغرافي أو في السيرة النبوية أن ينالها. وذلك فإن كتاباً شعبياً آخر عن الطوبوغرافية / الخطط التاريخية وهو كتاب خطط المقريزي قد عمّ إنتاج حوالي مائة وسبعون نسخة (١٧٠ نسخة) وقد ظلت باقية. في الوقت الذي تم حفظ وبقاء تواريخ أخرى ولكن بشكل هزيل جداً. وواحد من هذه الكتب سيرة حياة صلاح الدين، إذ ظل موجوداً في مخطوطتين فقط في مكتبة اكسفورد – وهاتان المخطوطتان هما غير كاملتين. إذن فكما رأينا فعلاً في عدد من المرات السابقة، فليس من الغريب القول بأن مؤلفات

الحوليات قد يمكن وجوده أو بقاءها بشكل منفرد ، أو بنسخ غير كاملة وناقصة[1].ومن الطبيعي القول أن هذه المؤلفات قد ظهرت في الرواية بصورة متأخرة نسبياً، وعندما يرجع المرء بعيداً إلى الوراء فسيجد أن أعداد نسخ التواريخ الحولية / الكرونوغرافية هي أكثر ندرة أيضاً – فعلى الرغم من أن تاريخ الطبري في مرة قد وجد في مئات النسخ (والمسبّحي المتوفى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩) يقال إنه كان في متناول يده سيرة ذاتية ؛ مع ذلك ليس هناك نسخة واحدة موجودة كاملة. وهاهنا نحن نصل إلى حالة مفارقة مثيرة. فالأصل العربي لتاريخ الطبري قد كان كاملاً في مرحلة ما من الحقبة الثانية من القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري وربما في سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٥م. بينما النسخة الفارسية قد تم إجازتها خلال جيلين بعد الأصل العربي. غير أننا لا نعرف فيما إذا كنا نفتقر إلى تلك النسخة الأصلية الكاملة للمخطوطة في العربية، أما نسخ الروايات الفارسية (وهناك عدد منها) هي تقريباً لا تعدّ ولا تحصى، وتحتوي على أمثلة بل مزودة بتوضيحات. وأن شيئاً من شعبية الكتاب هذا ربما يمكن تفسيرها بأذواق جمهور القرّاء الفرس التي يرجع الفضل في

---

[1] الشفاء للقاضي عياض قد طبع عدة مرات، بضمنها في القاهرة ١٩٧٧، وترجمه بيولي A.A.Bewley تحت عنوان:-Muhammad Messnger of Allah: Ash- Shifa of al-Qadi Iyad المطبوع في كندا ١٩٩١: ورد عدد القاهرة من مقدمة التحقيق؛ ينظر ايضاً العدد في مخطوطة في برلين (ينظر آهلوردت W.Ahlwardt في دراسة باللغة الألمانية الموسومة بـ Verzeichnis der Arabischen Handschriften المطبوع في برلين (١٨٧٧-١٨٩٩) ج٢ ص ٦٠ وما بعدها من الصفحات (٤)؛ باريس (دي سلان M.de Slane في الكاتلوك باللغة الفرنسية بعنوان (كاتلوك المخطوطات العربية) المطبوع في باريس ١٨٨٣ مجلد ١ ص ٣٤٩ وما بعدها) (4)؛ ولندن (ينظر ايللس A.G.Ellis في الكاتلوك باللغة الإنجليزية بعنوان (كاتلوك الكتب العربية في المتحف البريطاني) المطبوع في لندن ١٨٩٤) مجلد ١ ص ٧٧٠ (٦)؛ دبلن، (ينظر اربري A.J.Arberry في دراسته باللغة الإنجليزية بعنوان (قوائم خطية للمخطوطات العربية) الموجودة في جستر بيتي Chester Beatty المطبوع في دبلن ١٩٥٥-١٩٦٤ مجلد ٨ (الفهرست الشفاء) (٥ نسخ)؛ ينظر أيضاً حاجي خليفة: كشف الظنون المطبوع في لايبزج ١٨٣٥-١٨٥٨ مجلد ٥ ص٥٦ وما بعدها من الصفحات: والكرونوغرافي الشعبي بشكل استثنائي هو مسودة من كتاب الخطط للمقريزي المطبوع في الكتاب الذي حققه دتّون Y.Dutton باللغة الإنجليزية الموسوم بـ Codicolog للمخطوطات العربية، المطبوع في لندن ١٩٩٥ ص ٩٥.

تقديمها إلى البلعمي، مع أنه حسبما يبدو أن حجم هذه النسخة المعدلة بهم كثيراً، كونها جزءاً من النسخة العربية المطولة، فالنسخة الفارسية كانت أسرع في النسخ فضلاً عن أنها لا تكلف مادياً فهي أرخص في النسخ. وهناك مثال آخر استثنائي مثير وهو الكتاب اليميني للعتبي الذي بقي حياً في عدد من النسخ، يحتمل أكثر من ١٠٠ (مائة) نسخة، وهنا، ونقولها للمرة الأخرىٰ، إن هناك شرحاً وتوضيحاً جاهزاً، فمن المحتمل أن عدد النسخ قد ترجع إلى براعة المؤلف اللغوية أكثر من التودد إلى سبكتكين، أو محمود الغزنوي أو الى الغزنويين، وذلك لأنه على الرغم من الترجمات الفارسية والتركية، لكن هناك عدة شروح في فقه اللغة. وهناك استثناء آخر وهو مجموعة قطع من تأليف منسوب إلى الواقدي في الفتوحات والذي يبدو أنه مثل تمثيلاً جيداً في المخطوطة[1] .فدليل المخطوطات يعدّ الدليل الأقرب الذي بوسعنا الاعتماد عليه بالنسبة إلى قائمة الكتب الرائجة، وهي التي تخبرنا عما كان الناس يقرأونه في الحقيقة، أو في الأقل، ما الذي كان ينويه المرء لأن يقرأ أو ما الذي يفكر فيه الناس المعنيين في قراءته (فكل شخص يعلم أن رفوف المكتبات قد تملأ بالكتب حتىٰ أن مالكيها ليس لهم نيّة في فتح أوراقها) وهناك أيضاً مجموعة مترابطة أخرىٰ من الأدلة إلى جانب المخطوطة، تلك التي تصف (أكثر من أن توّثق) ما تمتلكه المكتبات والأفراد من الكتب. وكذلك توصيف مكتبات عامة وشبه عامة، ولاسيما تلك التي أسستها الدويلات أو من قبل

---

[1]حول المسبحي ينظر المقريزي: كتاب الخطط جزء ١ ص ٤٠٨؛ وحول الترجمة الفارسية للمخطوطة الطبري ينظر دانيل E.Daniel في بحثه بالإنجليزية (مخطوطات وتحقيقات لترجمة تاريخي بطري) المنشور في مجلة JRAS (السلسلة الثالثة) عدد ٢ (١٩٩٠) ص ٢٨٢-٣٢١؛ وينظر موث F.C.Muth في دراسة باللغة الألمانية الموسومة بـ Die Annalen von at- Tabari im Spiegel der erupaischen Bearbeit ungenالمطبوع في فرانكفورت + مين ١٩٨٣، الفصل الأول وعن البلعمي الفصل الثاني؛ وعن العتبي ينظر فؤاد سزكين GAS الجزء الأول ص ٣١٤ وكذلك (SI) ص ٥٤٧ وما بعدها؛ وحول الكتاب المنسوب للواقدي، ينظر سزكين GAS ص ٢٩٤ وما بعدها من الصفحات.

الرعاة والداعمين، وهذه في أبعاده كانت تفتح للعلماء والقراء المهتمين بحسب رغبة أمين المكتبة أو من دون قيد أو شرط من قبل أمين المكتبة، ففي أكثر الحالات يرد ذكر تواريخ، ولاسيما المؤلفات الكبيرة، وأحياناً يتم ذكر من اقتنى نسخاً مضاعفة ولاسيما النسخ المخول بها أو الكلف بها.فمكتبة الفاطميين حسبما روي أنها كانت تحتوي على ١.٢٢٠ ألف ومائتان وعشرون مخطوطة لتاريخ الطبري. وقد يكون هذا الرقم ضخماً لدرجة لا تصدق، وهو تقريباً يشير بالتأكيد إلى اجزاء مفردة أكثر مما يشير إلى نسخ كاملة من الكتاب، حتى وإن كانت كذلك فهي تشير إلى مدى اهتمام الدولة في كتب التاريخ الجامعة والشاملة- وكم منها، كما يظهر قد فقد. وكذلك يظهر من هذه المعلومة بأن المجموعات الخاصة عموماً ليس فيها إلا مجالاً قليلاً لمثل هذه التواريخ الكثيرة المجلدات أكثر من أن تقوم به تضطلع به شبه المكتبات هذه التي كانت موقوفة بشكل جيد. فعلى المرء أن يتصور حجم النفقات والتكاليف، فهي بالضرورة تفسر هذا الأنموذج. وأحد التقديرات لمجموعات كتب في حلب في القرن الثالث عشر للميلاد/ السابع الهجري قد قدرت أعداد كتب التاريخ فوجدتها قليلة بالنسبة إلى عدد الكتب الموجودة فيها التي أحصيت بـ ٩١٥ كتاباً، بالمقابل فإن الكتب عن سير الدويلات كان حالها أفضل من كتب التاريخ نسبياً. وأن أحد العلماء من بيت المقدس يبدو أنه لم يبدِ إلّا اهتماما قليلا بما كان يدور حوله من أنفجار في الكتابة التاريخية السورية والمصرية. ومكتبة مسجد في شمال إفريقيا هي إأنموذج بما فيه الكفاية إذ إنها اقتصرت كتبها على القرآن والدراسات القرآنية وعلى مؤلفات في الشريعة ؛ وهي لا تضمّ سوى حفنة صغيرة من كتب التاريخ[1].

---

[1] حول المكتبات بصورة عامة ينظر ايجه y.Eche في دراسة باللغة الفرنسية الموسومة (الببليوغرافيا العربية) المطبوع في دمشق ١٩٦٧، وأيضاً ينظر سيبي M.M.Sibai في الدراسة باللغة الإنجليزية

ماالذي نصّ بخلاف ذلك من العالم الإسلامي قبل الحقبة الحديثة فإنه من نظام مختلف، إنه أكثر من توثيق الكتب التي واقعيا يقرأها الناس، سواءا كانت منسوخة أم مملوكة ، إنها بصورة غير مباشرة تعدّ نماذج ينصح بها بما يعتقد بأنها مهمة للقراءة. وهكذا استهل ابن حجر العسقلاني (المتوفى سنة ٨٥٣هجرية/ ١٤٤٩م) مسيرته في التأليف بالقراءة والتدريب على مجموعة من أحاديث البخاري ، وبعد أن اطّلع على ذلك انتقل الى قراءة مؤلفات أخرى مختلفة في الحديث والشريعة، وأخيرا فقط وصل الى قراءة عدد من مؤلفات السيرة والمغازي(الى هنا لم تظهر كتب التاريخ الكرونوغرافي إطلاقا). وفي قائمة السيوطي (المتوفى سنة ٩١١هجرية/ ١٥٠٥م) الطويلة بما يقدّر بثلاثمائة كتاب فإنه قد وضع الأدب والتاريخ في نهاية هذه القائمة. وفضلا عن وصفات هؤلاء وغيرهم لدينا قائمتان للقراءة من القرن الثاني عشر للميلاد ، الأولى صنّفها القاضي عياض ، وهو الذي نالت سيرته النبوية على شعبية كبيرة. وثانيهما تصنيف من قبل شخص مغمور من أهالي

الموسومة (مكتبات الجوامع: دراسة تاريخية) المطبوع في لندن + نيويورك ١٩٨٧، والكتاب ليس دائماً موثوق؛ والكثير المفيد في بحث بنتو O.Pinto باللغة الإنجليزية الموسوم (مكتبات العرب. خلال العصر العباسي) المنشور في مجلة (IC) مجلد من / نياسن ١٩٢٩، ص ٢١٠-٢٤٨؛ وينظر أيضاً ايتان كوهلبرغ في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة (عالم مسلم من العصر الوسيط) المشار إليها سابقاً ص ٧١ وما بعدها من الصفحات؛ وعن وصف لدار العلم للخليفة House of Knowledge الفاطمي الإمام الخليفة الحاكم (الذي حكم بين سنة ٣٨٦/ ٩٩٦م إلى ٤١٢هـ/ ١٠٢١)؛ أيضاً هالم Halm في دراسته المترجمة إلى اللغة الإنجليزية الموسومة (الفاطميون وتقاليدهم في التعليم) ص ٧١ وما بعدها من الصفحات؛ وحول مصادر حلب ينظر سباث P.Sbath في دراسته باللغة الفرنسية الموسومة
Choix d'Livres qui se trouuaient dans Les Bibliotheques d'Alep
المطبوع في القاهرة ١٩٤٦ في Memoires de L'Institut de Egypt 49 ؛وحول عالم من القدس ينظر هارمان U.Haarmann في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم (المكتبة لأورشليم القرن الرابع عشر) المنشور في مجلة (DI) مجلد ٦١ (١٩٨٤) ص ٣٢٧-٣٣٣؛ وعن المكتبة في شمال أفريقيا ينظر ديفردون G.Deverdun في البحث باللغة الفرنسية الموسوم:
Un register d'inventaire et de prêt de la bjbliotheque de la mosque ali ben yousset a Merrakech date de IIII H./ 17000 J.C.
المنشور في Hesperis مجلد ٣١/ ١٩٤٤ ص ٥٥-٦٠.

أيضا[1].

وضع الكتابة التاريخية ،إستنتاجات ونتائج

ما المعنىٰ الذين حصل عليه من هذا الدليل؟. أولا، بامكاننا الاستنتاج أن علم التاريخ أو التدوين التاريخي (بصورة عامة) والتاريخ الحولي الكرونوغرافي (بشكل خاص) قد أنتج واستهلك في أدنىٰ المستويات موازنة بالصيغ الأخرىٰ في الرواية العلمية والتعليمية ولاسيما في الشريعة التي استندت إلىٰ الحديث. وهذه المسألة بالوسع أن يعبّر عنها بكلمات التي تعّجل وتدفع الىٰ استنتاج مسبق بأننا ينبغي أن نصل الىٰ حقيقة مفادها الأستفسار عن من يدعم أو يرعىٰ ومن يقرأ التاريخ الحولي الكرونوغرافي بمقادير كبيرة وواقعية المؤلفات التي يتمّ انتاجها لصالح البلاط إن كان ذلك مباشرة أو عن طريق البلاط وبواسطته وهذه لا توازن ولا يمكن مقارنتها بما ينتج من نصوص كالتي ينبغي أن تكون لقطاع واسع من الجمهور، ولاسيما النصوص المدرسية، طالما كانت آنذاك ، كما هو عليه الآن،تباع هذه االكتب المدرسية بشكل جيد. وهاهنا فإن المناهج الدراسية للمدارس، وللكليات التي تعلم فيها الحقول الدينية التي ظهرت خلال القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد/ الرابع والخامس الهجريين، المنتشرة من إيران وشرق مصر، وسوريا

---

[1] كتاب ابن حجر المعجم المفهرس حيث يظهر علىٰ ص ٧٧ كتاب سيف بن عمر الردة والفتوح بشكل شاذ anomalus ويثير الاهتمام؛ بينة السيوطي وردت في كتابه (حسن المحاضرة- في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٨٦٣) ص ١٥٣ وما بعدها من الصفحات؛ وحول قائمة القاضي عياض ينظر كتابه الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض (بيروت ١٩٨٢)؛ وحول قائمة القزويني ينظر اربري A.J.Arberry في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة (قائمة قراءة من القرن الثاني عشر للميلاد) المطبوعة في لندن ١٩٥١ [والاسم الكامل لكتاب الشفاء هو الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ. المترجم].

وما أبعد من ذلك،فهذه المناهج كانت مناسبة وعلى صلة مباشرة بالموضوع. فهذه تؤدي دورا وتنفق أو تستهلك من دون القول بأن هذاالمنهاج المدرسي قد يختلف من مكان الى آخر ومن وقت الى آخر، ومع هذا فإن إنموذجا عاما لم يزل قابلا للتمييز. فالموضوع مرتبط بمسألة رعاية وتشجيع الكتاب التاريخي الحولي الكرونوغرافي ومن هو قارؤه بالقدر الواقعي فالمؤلفات والأعمال التي ينتجها البلاط أو تلك التي تنتج لأجل البلاطات كانت وضعيتها بصورة عامة ضعيفة وهزيلة بالموازنة مع النصوص التي تنتج لجمهور واسع من القرّاء، ولاسيما النصوص المذهبية أو المدرسية، وكما هو الحال في الوقت الحاضر فإن الكتب المدرسية تباع بشكل جيد.

وهنا يمكن القول أن مناهج كمدارس، وهي كليات للتعلم الديني تلك التي ظهرت خلال القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد/ الرابع والخامس للهجرية، وانتشرت من إيران إلى المشرق وإلى مصر وسوريا وأبعد من ذلك، فإن هذه المناهج تعدّ ملائمة ووثيقة الصلة بالموضوع، ويمكن القول بأن المناهج قد تختلف من مكان إلى آخر ومن وقت لآخر، إلا أن الأنموذج العام والمشترك هو قابل للإدراك والتمييز. فمناهج المدارس، بوصف أن المدرسة هي المكان الذي يديره الفقهاء وهي في الوقت نفسه قد أسست لأجلهم، هذه المناهج قد هيأت حيزاً فسيحاً لتلك الفروع المعرفية التي تشكل جزءاً أساساً من الشريعة والفقه أمثال العلوم القرآنية (وتشمل بصورة أساس التفسير والقراءات المختلفة للنص القرآني) وعلوم الحديث والمنطق (ما يقابل المحاجحة) وهناك حيز متواضع للسيرة النبوية، وحيّز ضئيل جداً (أو ربما في حالات لا يوجد) للسير غير النبوية وللحوليات التاريخية/ الكرونوغرافيا. أن تضمين تاريخ النبوة من جهة واستثناء التاريخ غير النبوي من جهة اخرى هي مناهج بالإمكان إدراك هدفها أنها كذلك من

أجل جعل محتوياتها تخدم المؤسسة لمعيار خلاصة وافية للشريعة والفقه، وهي تستند بها يتفق فعلاً مع أنموذج أفعال النبي وأقواله: وكما رأينا فعلاً، فإن هذه المناهج تتضمن أجزاءاً من المغازي. ولما كانت تفتقر إلى موطئ قدم ثابت وراسخ في المدارس، فالتدوين التاريخي لا يتحكم إلا بسوق صغيرة من القرّاء. ولسدِّ هذا النقص فإن المؤرخين قد استبعدوا من التدريس فيها فلجأوا لسدِّ هذا النقص إلى كتابة التاريخ في الوقت الإضافي الذي كان لديهم. فكان المؤرخ كالذي يقوم بمهمتين بدلاً من أن يكون مدرساً، وأن الطبري ألف تاريخه الجامع والشامل، عاملاً بجدٍّ وكدّ واجتهاد كل ليلة. ولعل المرء يفترض أنه كان يستعمل ضوءاً صناعياً من نوع معين، غير أن البخاري كما قيل كان يقوم بمهمتين بشكل حرفي إذ كتب تاريخه الكبير في الليل، كما أخبرنا، إلى جوار قبر النبي – وهذه الإضافة في الواقع صيغة من صيغ الكليشة[1].فما السبب في أن هناك حيّزاً صغيراً في مؤسسات التعليم والمعرفة للتواريخ الجامعة والشاملة. إنه سؤال ليس من العسير شرحه بالنسبة إلى المسلمين القدامى أكثر من المؤرخين المتأخرين. فبالنسبة إلى المحدّثين ولاسيما المحدثين الصارمين، الذين صمموا المناهج الدراسية في المدرسة. فالتاريخ الحولي الكرونوغرافي المتأخر في حقبته لا يعدّ ملائماً، فكتابة تاريخ

---

[1] عن بدايات المدرسة ينظر هالم H.Halm في بحثه باللغة الألمانية الموسومة (بداية المدرسة) المنشور في مجلة ZDMG الملحق رقم ٣ (١٩٧٧) ص ٤٣٨-٤٤٨؛ أيضاً البحوث التي تم جمعها في الكتاب الذي حققه كل من جراندن n.Grandin وجابوريو M.Gaborieau الموسوم باللغة الفرنسية (انتقال المنقذ في العالم الإسلامي) المطبوع في باريس ١٩٩٧؛ أيضاً ينظر ارجموند S.A.Arjomand في بحثه بالغلة الإنجليزية الموسوم (الشريعة أو الفقه، والوكالة والسياسة في المجتمع الإسلامي الوسيط: تطور مؤسسات التعليم من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الميلاديين) المنشور في دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ Comparative studies in society and historyمجلد ٤١ (١٩٩١) ص ٢٦٣-٢٩٣؛ وحول وضعية السيرة ينظر شولر Scholler في دراسة باللغة الألمانية بعنوان (كتب التفسير) المذكور آنفاً ص ٧١ وما بعدها Eegetischen Deken؛ وحول الطبري ينظر ياقوت، إرشاد ج٦ ص ٤٥٦؛ بقلم روبسون Robson.

معاصر عمل غير محتوم وغير لائق. سواء كان هذا الخليفة يحكم من الشام أم ذاك الذي يحكم من بغداد، وسواء كان هذا الوزير قد أقيل وأبعد عن النعمة لتورطه في مؤامرة ضدّ هذا أو ذاك، وسواء كان الجيش متوجهاً في حملة في أعالي الوادي في الربيع أم في الصيف – هذه جميعها لا تهمّ المحدث على المدى الطويل. وحقيقة أن على المؤمن أن يتعلم شيئاً عن المرتدين والهرطقات وعن الحروب الأهلية وعن اندحارات الجيش التي سادت أخبارها في التواريخ. لكن من العسير على المرء أن يقرأ آلاف الصفحات من التاريخ عن هذا الموضوع أو ذاك. بعد هذا فإن نتائج الكفر كانت واضحة جداً عند الله والقرآن والسنة.وفي ضوء هذا الإستنتاج الأول، يعلن الثاني بأن المؤرخين لم يعلموا أو يعلنوا عن اهتماماتهم وعنايتهم بالتاريخ، كذلك لم يحاول الآخرون أن يقدموا مثل هذه المهمة لصالحهم. فالاستنتاج الثاني هو مثير للدهشة. فعند قراءة قوائم أسماء الكتب المؤلفةوالمألوفة في مختلف أنواع المعرفة التاريخية تخبرنا عن أن مؤلفات السيرة كانت دائماً تشير إلى الاتجاه نفسه. فيعزى إلى محمد بن سحنون (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)، وكان ابن عالم وكان يرجع إليه ،بشكل متفق عليه، إدخال مذهب ومدرسة مالك للشريعة إلى شمال أفريقيا، إنه كان وافر الإنتاج، ومن بين المائة كتاب التي نسبت إليه هناك ست مجلدات من التاريخ وسبع مجلدات من الطبقات غير أن كالطبري فقد عرف هذا بالبحث الإسلامي لأنه كان في الأساس فقيهاً ومفسراً أكثر منه مؤرخاً. فنحن نادراً ما نعلم أن ابن سحنون كان أيضاً مؤرخاً لولا أن واحداً من كتّاب سيرته عبر عنه قائلاً "ليس هنالك رجل عالم في العلوم كابن سحنون: إذ إنه ألف مؤلفات وأعمال في كل العلوم وعن معارك النبي وعن تاريخ المغازي وفي المغازي والتاريخ".وفي الكتابة عن الطبقات، وهي إجراء مسح لمجموعة من الشخصيات مهنتهم أو حرفهم أو أي هوية اجتماعية تستحق

الذكر في تاريخ الإسلام الكلاسيكي، من القضاة إلى النحاة إلى مؤلفي المعاجم إلى المحدّثين إلى قرّاء القرآن إلى الشعراء إلى المتصوفة إلى الشيعة والمعتزلة والفلاسفة والأدباء والمحترفين، والمغنين والحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية، كل واحد ما عدا كتابة التاريخ[1]،فما السبب في افتقارنا لطبقات الأخباريين أو طبقات المؤرخين؟ نظراً لأن – الكثير جداً من مؤلفات وأعمال الطبقات هي لإحياء ذكرى الاهتمامات والمهارات (أكثر منها من الحرف)، فالافتقار إلى منهج يميزها من التقليدية الحديثية (وكثير منها قد استهدف مصلحة المحدثين بخصوص عدد من مناهجهم أو طرقهم) فالحقيقة المرة هي أن المؤرخين المحدثين كانوا ميالين إلى المبالغة في الجوانب الإجتماعية والفكرية بشأن نظرائهم من المؤرخين قبل حقبتهم الحديثة. وإنهم – أي المؤرخين المحدثين في التاريخ الحديث – لم يقدموا تواريخهم أو يوفروها لمصلحة بلاطات الملوك والأمراء وكذلك لمصلحة الداعمين ورعاة العلم، لذا فإن أوضاعهم وأحوالهم هي أوطئ من زملائهم المؤرخين القدامى. وفي الآتي سوف أحاول عرض هذا الجانب[2].

---

[1] وعن محمد بن سحنون ينظر مقدمة المحقق لكتاب (كتاب آداب المعلمين) المطبوع الجزائر ١٩٧٣ ص ٣٩ وما بعدها من الصفحات؛ وكتاب العيون والحدائق المجهول المؤلف جزء ٤ (١) ص ١٢ وما بعدها؛ (وهناك عشرون كتاباً عن السير وأربعة عن التاريخ والطبقات)؛ ينظر ليكموث G.Lecomle في البحث باللغة الفرنسية الموسوم (كتاب في آداب وسلوك معلمي المدارس لابن سحنون) المنشور في مجلة REI مجلد ٢١ (١٩٥٣) ص ٧٧-١٠٥؛ وحول إعادة بناء شديدة التدقيق لكتاب والده ومدى تقبله في شمال أفريقيا ينظر موراني Muranyi في دراسة باللغة الألمانية سبقت الإشارة إليها بعنوان Die Rechts bucher des Qairawaners sahnun b.sa'id.

[2] وحول النقد ينظر لاندوا – تاسيرون E.Landau- Tasseron في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم (سيف بن عمر في البحث العلمي الوسيط والحديث) المنشور في مجلة (DI) مجلد ٦٧ (١٩٩٠) ص ١-٢٧؛ كذلك ينظر ليكر Lecker في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم (رواية الواقدي عن حالة أو وضعية اليهود في المدينة) المشار إليه آنفاً ص ٢٠ وما بعدها من الصفحات؛ ينظر أيضاً المدائني الذي كان يعدّ أميناً في نقل الحديث فقط عندما ينقل على عهدة الثقاة من الرواة – وبكلمة أخرى فإنه كان يفتقر إلى التقدير أو الحكم الجيد ينظر الصفدي، الوافي بالوفيات جزء ٢، ص ٤١.

البلاطات والثقافة:

يعدّ معيار ومقياس أهمية البلاطات وتأثيراتها على القارئ أو على مجموع القرّاء موضوعا من الموضوعات الأكثر عمومية، ولعله حاليا نبدأ مع كتاب مفاتيح العلوم، وهو رواية توجيهية في التعليم والمعرفة قد تمّ تأليفه في حوالي ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م من قبل محمد بن أحمد الخوارزمي قدّمه للوزير نوح بن منصور (الذي حكم من ٣٧٦هـ/ ٩٧٦م- ٣٩٧هـ/ ٩٩٧م) حاكم الدولة السامانية التي سيطرت على خراسان وبلاد ما وراء النهر (ترانسكونيا) وهي (في الوقت الحاضر تشكل كلاً من إيران وأوزبكستان) من مدينة بخارى. ويظهر أن الخوارزمي كان يتصوّر أو في رأيه جمهور من القرّاء من الكتّاب وكتّاب الإنشاء أو إلى من كان مهيئاً لأن يكون من طبقة الكتّاب ولاسيما كتّاب الإنشاء في الدولة السامانية وكان الكتّاب يقسمون على قسمين أو على صنفين، الأول منهما في العلوم الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي، القسم الذي يقصد به تلك الحقول والمجالات في التعلم والمعرفة، عربية وإسلامية، إن كانت في المماسة والتطبيق أو في الإلهام أو في التأثير.أما الثاني فهو عن علوم الأجانب، ويقصد به تلك العلوم التي دخلت العالم الإسلامي من الخارج مثل الفلسفة والمنطق والطب والحساب والهندسة وعلوم النجوم وعلم الفلك والموسيقى والميكانيكا والكيمياء فالتاريخ هنا (يسمى أخبار) ويقع ضمن القسم الأول من هذين القسمين. ويشغل آخر موضوع من موضوعات في قائمة من الطبيعي عنوانها الشريعة. وهناك مخططات شاملة أو مسوحات أخرى نظير أعمال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩)،والنويري (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) والقلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) وهذه المؤلفات أيضاً تزكي استحقاق التاريخ إلى الكاتب أو الدواويني الطموح. وواقعياً فإن مثل هذه المسألة تظهر مبكر جداً وبالفعل فإن رسالة ذكرها الجهشياري في

تاريخه عن الوزراء والكتاب في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، وهي رسالة منسوبة إلى عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٣/ ٧٥٠م) وهو كاتب آخر خليفة أموي، مروان الثاني ويقرأ فيها أن على الكتّاب أن يهيمنوا على اللغة العربية والكتابة العربية والخط، فضلا عن معرفة في أخبار أيام العرب وغير العرب وقصصهم وأحاديثها وسيرها[١].

والواقع أن الأمثلة على هذا الأمر قد تزداد. فمؤلف آخر من القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري وهو ابن فريغون، قد زكّى ونصح لتعلم التاريخ الفارسي والإسلامي في المناهج التي تدرس، وهذا يعدّ من بين القلة التي وجدت حيزاً للتاريخ بحسب نظريته الواسعة للعلم. فالشخص يتعلم من تاريخ يقصد به بصورة عامة لقارئية ولقراء كتاب الفخري، وكان بعض الوزراء تماماً مؤيدي لوجهة النظر بأن على الملوك أن لا يتركوا دون قراءة التدوين التاريخي (سير وتواريخ) وهذا يوحي إلى أن على هؤلاء أن يتعلموا

---

[١] حول مختصر مخطط وصف الخوارزمي ينظر روزنثال؛ في دراسته بالإنجليزية المشار إليها سابقاً الموسومة (التراث الكلاسكي/ القديم) ص ٥٤؛ ينظر روزورث C.E.Bosworth في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم (المصطلحات الفنية لتاريخ العرب في الجاهلية اعتماداً كتاب الخوارزمي (مفاتيح العلوم) المنشور في الكتاب الذي حققه موراج S.Moprag باللغة الإنجليزية الموسوم (دراسات في اليهودية وإيران التي قدمت إلى شيلو مود وف كويتاين Shelomo dov goitein بمناسبة ولادته الثامنة عشر، (مجلد إنجليزي) المطبوع في أورشليم- القدس ١٩٨١، ص ٢٧-٤٣؛ (وأعيد طبعه في كتاب روزورث C.E.Bos worth باللغة الإنجليزية الموسوم (الثقافة والإدارة العربية في العصر الوسيط) المطبوع في لندن ١٩٨٢؛ وحول الأدب والتاريخ ينظر خالدي Khalidi في دراسته بالغلة الإنجليزية المشار إليها سابقاً والموسومة (الفكر التاريخي العربي) ص ٨٣ وما بعدها من الصفحات؛ وعن مسوحات مصدرية أكثر بصورة عامة ينظر بلا C.Pellat في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم (دوائر المعارف في العالم العربي) المنشور في Cahiers d'histoire mondiale مجلد ٩/ ١٩٦٦ ص ٦٣١-٦٥٨؛ حول القلقشندي وكتابه صبح الأعشى (القاهرة ١٩٦٤) ج١ ص ٤٧٩ (حيث تجد السيرة مكاناً في "الاقتصاد المنزلي" – تدبير المنازل- والتي تقع بشكل طبيعي في نهاية مسحه المصدري؛ أيضاً ينظر فيت G.Wiet في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم Les classigues du scribe eggptien au xv siècle
المنشور في مجلة (SI) مجلد ١٨ (١٩٦٣) ص ٤١-٨٠؛ واعتمدت كتاب الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، ص ٧٣ وما بعدها من الصفحات.

شيئاً من التاريخ. ويبدو أن التاريخ الفارسي قد تمتع بأبهة واهتمام من التاريخ المتوافر في دروس التعلم وتوجيه الحكام؛ ولاسيما في تلك البلاطات في الإسلام المشرقي، وإن هناك الكثير الذي قد تم فعلاً في الدول الفارسية والدول الفارسية القديمة. وباستطاعتنا، من هذا المنظور، أن نفهم وندرك بأنه ليس من قبيل الصدقة والاتفاق أن ينتقل التاريخ الجامع والكبير للطبري من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية، فهو قد ترجم وهو أمر جدير بالملاحظة، من وزير عبد الملك بن نوح حاكم الدولة السامانية نفسها، وهو نفسه الذي خوّل وفوّض لكتابة كتاب الخوارزمي. إذ يقول البلعمي (الذي كان حياً في سنة ٢٥٢هـ/ ٩٦٣) مترجم كتاب الطبرى إلى قراءئه: (لقد ترجمت الكتاب إلى اللغة الدارية الفارسية من أجل أن يتقاسم الرعية والسلاطين القراءة والتعلم والمعرفة من علمه والانتفاع من دراسته) وكان أحد الأمراء البويهيين قد عوقب من قبل الداهية السياسي محمود الغزنوي لأنه أخفق وأهمل قراءة تاريخ الطبري[١].فلِم كانت هذه الكتيبات الموجزة للدواوينية تصف التاريخ بأنه علم؟ إنه يرجع إلى أن الدولة التي يأملون بخدمتها لديها أمور وأشياء عليهم أن يتعلموها. فبين هؤلاء الذين يحكمون كان التاريخ الحولي/ الكرونوغرافي يقرأ، إن كانوا ملوكاً أو أمراء أو ولاة أو إداريون وجميع الذين وضع لهم الاتجاه الثقافي أو النشاط الثقافي خلال القرنين العاشر والحادي

[١]حول ابن فريغون ينظر روزنثال، تاريخ ص ٣٤ وما بعدها وينظر ميسامي في الدراسة الإنجليزية المشار إليها سابقاً الموسومة (التدوين التاريخي الفارسي) ص ٨؛ وعن الملوك والتاريخ ينظر ابن الطقطقي، الفخري (القاهرة ١٩٢٣) ص ٩ وما بعدها من الصفحات؛ وعن ترجمات الطبري ينظر دانيال e.Daniel في بحثه بالإنجليزية الموسوم (الترجمات السامانية للطبري) المنشور في الكتاب الذي حققه كندي H.Kennedy الموسوم بالغلة الإنجليزية (الطبري: مؤرخ مسلم وكتابه) تحت النشر [أنذاك أي بحدود سنة ٢٠٠١ المترجم] برنستون (حيث تطرق بتركيز على الظروف السياسية)، وكذلك ميسامي Meisami في الدراسة السابقة الذكر في أعلاه الموسومة (التدوين التاريخي الفارسي) ص ٢٣ وما بعدها من الصفحات؛ حول محمود الغزنوي، ابن الاثير، الكامل ج٩ ص ٣٧١ وما بعدها.

عشر الميلاديين/ الرابع والخامس الهجريين. فإنهم يقرأون التاريخ الحولي لما له من دروس ينبغي تعلمها عن شتى المناحي بدءاً من الحكم العادل إلى الجغرافية – الإدارية، حتى أولئك الأتقياء المتدينين ربما يسلمون بأن سنة محمد لا توفر إلا القليل من الخاص جداً بشأن تعليم الرجال الذين هم في السلطة حول صنع أو دعم النظام الإجتماعي، نظام الحكم، السنة التي تعدّ أنموذجاً في القيام بالقضايا كما ادخرت في الحديث. ومغايرة لهذا الواقع فإن ارث التاريخ الإمبراطوري للشرق الأدنى الذي يوفره المؤرخون إن كان عن طريق نقله أو عن طريق صنعه مهما كانت متفاوتة، بوسع ذلك الإرث التاريخي أن يزود بأمثلة على أثر أمثلة بدءاً من الأسكندر والكبير وعبر أكثر الخلفاء حداثة في حقب حكمهم. وهذا – لما هو معروف من الوظيفة التعليمية للتدوين التاريخي في عالم السياسة – يفسر السؤال لماذا وصفت مجالات التاريخ أولاً من قبل الخوارزمي أنها التي تعلم الدروس السياسية، تلك الدروس عن الإغريق والفرس والبيزنطيين واليمانيين والخلفاء الأول. وأنه أيضاً شمل في هذه المعلومة على تحديد تعريف أو اثنين خاطئين نظير تسمية اليا ILiya وهي مدينة أورشليم (في الوقت الذي صارت فيه أورشليم تعرف بتسميتها العربية القدس)، وكذلك أنه كان يوحي إلى قراءة من الكتاب بما يتوقع له معنى لعلم المصطلح الغريب من أجل داعميهم ورعاتهم. فإن كانت البلاطات قد أدت أدواراً في دعم ورعاية التدوين التاريخي، فإن قارئيه قد تجاوزوا ذلك إلى أبعد من الحكّام الذين كانوا يقومون بخدمتهم. ففي المدن العالمية (الكوزموبوليتنية) في العصور الإسلامية الوسيطة، إن كان الشخص يرغب في أن يكون مثقفاً أو رجل تعلم ومعرفة عليه أن يهيمن ويتحكم ليس بكونه قادراً على أن يعبر عن نفسه في لغة عربية صافية وسليمة لغوياً، إنما ليمتلك معلومات تاريخية كافية لإنجاز هكذا عمل

بجدارة واهتمام، وعلى الرغم من كون الشعر دائماً يتمتع بمكانة وأبهة كثيرة، فإن علم التاريخ ومعرفته قد حزمت في الحقيبة الثقافية التي من المفروض حملها، ومصدر من القصص ومن الشخصيات البارزة التي تجتذب الجدل، والمحادثة، وهي أمور من الأدب المباشر تجعل الجواب ذات هدف ومعنى.

وبكلمة أخرى، شكّلت هذه جزءاً لما كان يطلق عليه تعبير الأدب – وهو في الواقع توليفة من المهارات والمواقف والعلم والمعرفة التي يعتمد عليها في تمييز الشخص المتعلم من الهاوي وغير المحترف ومن الشخص الجاهل والريفي وغير المثقف. فالأحداث التاريخية والقصص التي تشتمل على حكايات ونوادر كانت في كثير من الحالات موضوعات للمحادثة والإملاء في الدوائر المتعلمة والمثقفة وكتاب لطائف الثعالبي (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) مليء بروايات تاريخية تضم قسماً أو فصلاً خاصا عن مختلف الأمور والمعلومات الضريبة والحكايات والنوادر ومعلومات مثيرة عن النبي وقريش وحكام العرب – وتشتمل على حكايات ونوادر وقوائم أسماء (مثال قوائم بأسماء الكذّابين المشهورين والرديئي السمعة من قريش، والقوّاد العظام من العوران(من الأعور)..الخ).واعتماداً على أحد المؤلفين الثقات. وهو مؤلف متأخر من القرن التاسع عشر- المؤرخ ابن الأثير كان من بين ثلاثة مؤلفين كانوا في مناسبات كثيرة يدلون بآراء سديدة في مناقشة علمية في مكة. وحالياً اصبح التاريخ الحولي الكرونوغرافي مصدراً للحكم والأقوال المأثورة والأقوال البارعة bons mots، ولكنه صار أيضاً مصدراً للمتعة والتسلية. وهنا بوسعنا أن نعود إلى العتبي، المؤرخ الغزنوي، الذي سبق أن ألتقينا به، إذ يقول:

"طوال الأجيال فإن المؤلفين• والأدباء قد صنّفوا وألفوا المؤلفات عن زمانهم وتبدلات الأحوال التي شاهدوها. على وفق أساليبهم وإمكاناتهم أو وقدراتهم وكذلك بسبب الفصاحة والبلاغة التي منحت أصابعهم ومواهبهم، ثم أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م ينظر الفصل التاسع) ألف كتابه الموسوم بـ التاج عن تاريخ الديالمة الذي زينه علي مبهرجة بكلماته الخلابة وألبس لباساً جميلا من ثياب من بلاغته وبيانه المبدع الأنيق. وعقده الأنيقة بتعبيرات ربطها الواحدة بالأخرى، وصقل وجه الأسلوب الأنيق بالحبر الأسود الذي كتب به على الورق... ولهذا فإني ممتن.. أن توفر إلى الناس في العراق بكتاب عن هذا الموضوع [ويقصد تاريخ محمود]، عربي في لغته وكتابي في أسلوبه ذلك الذي ربما يتبنونه كرفيق لهم في الليالي المؤرخة، وصديق في البيت ورفيق سفر عند السفر".

وإن واحدا من كتّاب سيرة حياة صلاح الدين من القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين قد جعل الأمر واضحاً بأنه، بحالة جيبون Gibbon فهم مشروعه بتعبيرات أدبية،

---

* أنقل نصّ العتبي بخصوص كتاب التاجي للصابئ ؛ فقد ذكر أبو نصر عبد الجبار محمد العتبي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م): تاريخ اليميني والكتاب على هامش الفتح الوهبي للشيخ أحمد المنيني شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي (القاهرة ١٢٨٦هـ) جزء ١ ص ٤٧، والنصّ الذي ترجمه البروفسور روبنسون هو الآتي:
"وقد صنفت طبقات الأدباء والكتّاب تصانيف في ذكر أيامهم وتصاريف أحوال الزمان لهم. بحسب قوتهم في البيان وسهمتهم من بلاغة الخاطر في البيان وسهمتهم من بلاغة الخاصر والبنان – حتى أن أبا إسحاق إبراهيم الصابي عمل كتابه المعروف بالتاجي في أخبار الديلم. بحبر ألفاظه الساحرة ومغشي بحلل معانيه الزاهرة فحل عقد البيان بها قيده وحلب الدهر أشطره وذاق حلوه ومرّه ولابس شرّه وخدم وخدم ومدحته شعراء العراق ورثاه الشريف الرضي وبيض وجه البلاغة بما سوّده. فإن تكن دولة تقتضي إ ثبات محاسنها بالتخليد وتقييد مآثرها بالتأييد فهذه هي التي تقتضي الأدباء أن يخلدوا بتقرير معاليها كلامهم ويحلّوا بتحرير مساعيهم أقلامهم لو أدركها الماضون من أرباب التصانيف لودّوا لو كانت ألفاظهم عن غيرها معزولة إلى ذكر محاسنها منقولة" العتبي، تاريخ اليميني، جزء ١، ص ٤٧-٤٨ [المترجم].

وتخيل جمهوراً من القراء من أصحاب الرتب العالية الثقافية: إذ يقول (في هذا الكتاب قدمت حصصاً لكل من الطبقة المثقفة أولئك الذين كانوا يرتقبون مقاطع منمقة حافلة بالمحسنات البيانية والبديعية المتألقة وإلى أولئك الذين لهم اهتمامات تاريخية الذين يطلون كتب سير الحياة المزخرفة)[1].

وهكذا كان التدوين التاريخي قد توسع مجاله فدخل في التسلية والمتعة والسحر والافتنان، إذ يقول عبد اللطيف البغدادي لقارئ كتابه "ينبغي على المرء أن يقرأ التواريخ، ويدرس سير الحياة ويطلع على تجارب الأمم، وذلك لأنه بهذه الوسيلة يسمو المرء عن حياته القصيرة الأمد ليحيا جنباً إلى جنب مع الأمم الماضي، ولكي يكون من معاصريهم ورفاقهم الحميمين وليعرف الأحسن والأسوء منهم. فسيرتك يجب أن تكون سيرة الجيل الأول، ولهذا اقرأ السيرة النبوية وحاكي أعماله وأفعاله وأقواله واتبع خطواته، واقتدي به بأفضل ما يمكن أن تكون وبأقصى وأفضل أمكانياتك"*

---

[1] حول الأخبار في دوائر التعليم وتحديدات أو تعريفات الأدب ينظر مقدسي G.Makdisi في الدراسة الموسومة باللغة الإنجليزية (ظهور الحركة الإنسانية في الإسلام الكلاسيكي والغرب المسيحي) المطبوع في أدنبره ١٩٩٠ ص ١٦٣ وما بعدها من الصفحات؛ كتاب الثعالبي قد ترجمه بوزورث C.E.Bosworth بالعنوان The book of curious and Entertaining Information المطبوع في ادنبره ١٩٦٨؛ اعتمدت ترجمة العتبي من راوسون Rowson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم (التاريخ كنثر مدحي)؛ وعن شعبية ابن الأثير، ينظر ريتشاردز Richards في بحثه الموسوم (ابن الأثير) المشار إليه سابقاً ص ٩٤ (وقد ذكر هور مرونجيه Hurgronje؛ وقد اعتمدت في الاقتباس في سيرة حياة صلاح الدين على ريتشاردر D.S.Richards في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم (عماد الدين الأصفهاني: إداري، أديب ومؤرخ) في كتاب حققه شتزميلر M.shatzmiller باللغة الإنجليزية الموسوم (الصليبيون والمسلمون في سوريا القرن الثاني عشر) المطبوع في ليدن ١٩٩٣ ص ١٤٣.

* وردت نصيحة موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الذي اقتبسه البروفسور روبنسون على الوفق الآتي نصّاً:

"قال: وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ، وأن يطلّع على السيّر وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم، وعرف خيرهم وشرهم.قال: وينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول، فاقرأ سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتتبع أفعاله وأحواله، واقتف آثاره، وتشبه به ما أمكنك وبقدر طاقتك، وإذا وقفت على سيرته في مطعمه

واهتمامات واسعة واستثنائية، وأن الكتاب الذي دوّن نصائحه قد لا يقرأ بشكل واسع. غير أن النصيحة هذه دون شك ليست الفريدة والاستثنائية بالنسبة إليه. كما لم يكن هو نفسه، من ناحية أخرى، وحيداً وفريداً في الكتابة عن نفسه بهدف جعله مثالاً يقتدي به الآخرون. فالكلاعي (ت ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) كتب أن أحد أهداف تأليفه أو عمله المختصر بشأن السيرة النبوية هو ما يحرك ويثير شهية قارئه لقصص عن محمد أكثر إثارة وإلهاماً. وأسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار الذي يترجم اصطلاحاً بعنوان مذكرات memoirs، غير أنه يقصد به باللغة العربية (تعلم بالعبرة) وهذا هو بالضبط ما يدور عليه النصّ. فالكتاب على هذا الأساس يخبرنا قدراً كبيراً بخصوص الصليبيين "إذ كان أطباؤهم أو الجراحون منهم جزارين، وأنهم كانوا غير محتشمين في حمامات بيوتهم.. الخ"، والأكثر أهمية أنه يقصد بذلك إثارة قرائه والثبات أمام الله الذي كان يضرب به أسامة مثلاً[1].

فكان هذا إذن موجه لجمهور من القرّاء غير المتخصصين – أي أناس من اهتمامات واسعة ومن عقليات واسعة الأفق، ولكنهم أقل خبرة أو ليس لديهم وقت ليوفرونه – بمعنى مثابرة كبيرة لجعل التاريخ شعبياً. فمنتجات

وملبسه، ومنامه، ويقظته، وعرضه، وتطبيه، وتمتعه وتطبيه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه، وفعلت السير من ذلك كنت السعيد كل السعيد) ينظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة ص ٦٩١-٦٩٢ [المترجم].

[1] حول نصيحة عبد اللطيف ينظر كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء (بيروت ١٩٦٥) ص ٦٩٢؛ ينظر أيضاً مقدسي G.Makdisi في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة (ظهور الكليات: مؤسسات التعلم في الإسلام والغرب) المطبوع في أدنبره ١٩٨١) ص ٨٨ وما بعده؛ وينظر كاهين C.Kahen في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم (عبد اللطيف البغدادي مؤرخ ومصور في عصره: مقتطفات غير محققة من مذكراته) المنشور في مجلة BEO مجلد ٢٣ (١٩٧٠) ص ١٠١-١٢٨؛ حول الكلاعي وكتابه الاكتفاء (بيروت ١٩٩٧) ص٨، وعنه ينظر جرّار Jarrar في دراسته (السيرة النبوية) باللغة الفرنسية Prophetenbiographie ص ٢٢٤ وما بعدها من الصفحات؛ وعن كتاب الاعتبار لأسامة بينظر مورّي D.W.Morray في دراسة باللغة الإنجليزية الموسوم (عبقرية أسامة بن منقذ) المطبوع في دارهم Durham (١٩٨٧).

هذه المثابرة والصناعة وجدت في كل مكان من العالم الإسلامي ويبدو أنها ظهرت بالفعل في نهاية القرن التاسع الميلادي/ القرن الثالث للهجرة حينما ظهرت الخلاصات التاريخية الوافية مثل كتاب المعارف لابن قتيبة والمسعودي في كتابه مروج الذهب (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٥م) ترك القارئ الطموح مع كتاب في عمل مضاعف في أجزائه، والذي يعدّ صورة مصغرة لعمل أكبر من هذا بكثير. كذلك ترك جزءاً واحداً متواضعاً آخر لأي شخص آخر في كتابه التنبيه والإشراف. وهكذا أيضاً فعل ابن الساعي (ت ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) الذي ألف كتاباً في التاريخ عديد المجلدات حول الخلافة ويعدّ أيضاً صورة مصغرة لعمل كبير. فاعتماداً على كلماته أو قوله أنه "دفتر مختصر، وسفر مقتصر". فالأدب العربي قد تنامى في مجلدات ضخمة ووافرة بحيث إن الهواة وغير المحترمين بالكاد يتوقعون أن يهيمنوا على التفاصيل التاريخية إلا بكدٍّ وعناء. وقراءة جميع أجزاء ابن الأثير أو جميع عمل ابن هشام للسيرة غير الواضحة في عدد أجزائها، هو عمل صعب. وبالفعل فإنه في نهاية القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري أو في بداية القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس الهجري، إذ كان الشخص الذي يهيمن على النثر العربي كان ممن يرى أن (الكتب الطويلة جداً هي مثيرة للضجر). وكثير من المؤرخين كانوا يقظين وحذرين بالنسبة إلى نفاذ صبر قرائهم: فمؤلف مجهول الاسم من القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري عن تاريخ العباسيين يعلن عن نيته في مقدمته السجعية أنه يتخلى عن الأطناب ويتجنب التوسع كي لا يتضخم الكتاب[1].

---

[1] إن ترجمة عنوان المسعودي ترجع إلى وكنز G.M.Wicenc في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة (الأهمية النظرية في عناوين الكتاب العربية التقليدية: بعض الاحتمالات غير المأخوذة بنظر الاعتبار) المنشور في الكتاب الذي حققه بوزورث وآخرون الموسوم باللغة الإنجليزية (العالم الإسلامي من العصور القديمة لا الكلاسيكية والحديثة: بحوث ومقالات على شرف برنارد

ولذلك فكان الهدف من التاريخ، ولا سيما إذا ما صيغ بصيغة دوائر معارف حتى وإن وضعت على شكل قصائد شعرية، وصوله إلى جمهور واسع من المثقفين المسلمين. أما التاريخ الذي يركز على الأمور المهمة ثم يرزمها إلى أوسع قاعدة من قرائه أو إلى مجموعة عريضة من القراء، يبدو أن هذه الصيغة قد دعمت وتم رعايتها وتشجيعها في أسبانيا المسلمة بصورة خاصة. فكان هناك ابن عبد ربه القرطبي (ت ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)* الذي ألف كتابه العقد الفريد، وهو مختصر وافي موجه إلى كل من يرغب من المثقفين معرفته، حيث يبرز فيه قسمان تاريخيان (١٥، ١٦) جنباً إلى جنب، فضلاً عن فصول أخرى كالكرماء (فصل ٢، والأمثال (فصل ٧) وخطب البدو (فصل ١١) والطعام والشراب (فصل ٢٤). وعلى الرغم من أن هذا العمل مليئ بالمعلومات بخصوص المشرق الإسلامي، فابن عبد ربه بصورة طبيعية يقدم معلومات عن شخصيات أموية بارزة الذين كانت أخبارهم تثير الإعجاب في أسبانيا. وهناك أيضاً ابن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) المسلم الإسباني قد عكفنفسه على كتابة خلاصة عن حياة النبي، وقد ألف مختصراً، يقع بحوالي ١/٦ من حجم سيرة هشام الذي اختصر سيرة ابن اسحاق. وألف أيضاً سلسلة لعل بإمكاننا تسميتها (دليل المخادعين في التاريخ) بضمنها تسع صفحات عن تاريخ الفتوحات المبكرة وعشرون صفحة عن تاريخ الخلفاء حتى عهد القائم (حكم من ٤٢٢هـ ١٠٣١ إلى ٤٦٨هـ / ١٠٧٥) إذن فإن أعمالاً كهذه ربما

لويس Bernard Lewis، المطبوع في برنستون ١٩٨٩ ص ٣٦٩-٣٨٨؛ حول ابن الساعي ومختصره أخبار الخلفاء (القاهرة ١٣٠٩هـ)؛ وعن الكتب التي تثير الضجر ينظر روزنثال F.Rosenthal في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة (حول صناعة الكثير من ليس هناك من نهاية): النظرة الإسلامية الكلاسيكية، المنشور في الكتاب الذي حققه عطيه G.N.Atiyeh باللغة الإنجليزية الموسوم (الكتاب في العالم الإسلامي) المطبوع في ألباني Albany ١٩٩٥ ص ٤٣؛ واعتمدت بالنسبة إلى الملاحظات في المقدمة من المؤلف المجهول الهوية لكتاب نبذة من كتاب التاريخ، المطبوع في موسكو ورقة ٢٣٦ (أ).

* وذكرت وفاة أبي سعيد احمد بن محمد الأندلسي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م [المترجم].

توظف ككتب مراجع للعلماء ممن هم بحاجة إلى سهولة الوصول لمعلومات بسيطة. وأخيراً فإن هناك الكلاعي الذي كتب ملخصاً أدبياً عن سيرة ابن اسحاق في السيرة النبوية مقلماً العناصر التي يعدّها غير مهمة، وإحلال خيارات وانتقاءات نثرية وأنساب وأشعار محل تلك التي قلمها، إذ إن جمهور قرّاء العصر الوسيط كانوا لا يحتاجون الأعمال المكثفة الموجزة القياسية فحسب، إنما كانوا بحاجة إلى إنعاش وتجديد قواهم بشكل دوري[1]

حالة التاريخ الكرونوغرافي بين الدعم والرعاية السياسية:

رأينا آنفاً أن المخطط والبرنامج الحديثي (إن كان في مثل هذا التعميم مصدر خطر)، فقد كان وضع وأحوال التدوين التاريخي ضعيف وهزيل موازنة بتلك الفروع الثقافية التي تكمن في جوهر ولبّ العلوم الإسلامية – ولاسيما اللغة والنحو، لأن كليهما كان يهدف من ورائه تقديم الخدمة لمفهومية مناسبة للكتاب المقدس والحديث، وكذلك الشريعة والفقه – والتاريخ حسب السنوات الكرونولوجي المتأخر قد أحرز بعض التشجيع والدعم من الحكام والمحكومين على حد سواء. وبكلمات أخرى، فإن التدوين التاريخي ككل قد حدد ليس فقط من قبل المتكبرين والمقتنعين بتفوق حقل معرفتهم، إنما أيضاً من المنتفعين الإداريين ومما يتطلع إليه الكثير من النخب الحضرية في الجانب الثقافي. وهذه المسألة الأخيرة بحاجة إلى بعض التوسع والتوضيح.

---

[1] عن ابن عبد ربه ومصادره ينظر وركيايستر W.Werkmeister في دراسته باللغة الألمانية الموسوم (حول كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي) (٢٤٦هـ - ٣٢٨هـ / ٨٦٠م-٩٤٠م) المطبوع في برلين ١٩٨٣ وعنوانه باللغة الألمانية
Quellenunter suchungen zum Kitab al-Iqd al- Farid des Andalusiers Ibn Abdrabbih (246/860- 328/940)
وعن تواريخ ابن حزم ينظر رسائل ابن حزم الأندلسي (بيروت ١٩٨٧) الجزء الثاني/ أماكن متفرقة.

لعله يبدو أن السياسية والتعلم والمعرفة أمور واضحة المعالم ومميزة وجليّة، غير أن التعليم مكلف، ولم يقع ولم يكتمل لمفرده فحسب، كما أن رجال التعليم والمعرفة لم يبقوا على قيد الحياة كي ينتعشوا ويزدهروا على حسابهم الشخصي فحسب. فإذا ما اعتمد رجال التعليم والمعرفة على الدول مباشرة أو بشكل غير مباشر، فإنهم يقومون بذلك لأن هذه الدول إنما قامت لكي تستفيد وتنتفع. وذلك لأنه بالإضافة إلى امتلاكها عساكر مقتدرة وإدارة كفوءة، لكي تحكم حكماً فاعلاً لأطول مدة من الزمان فإنها بحاجة ماسّة إلى ترجمة سلطتها وقوتها في الإكراه لتجبر الناس وترغمهم على الحصول على شرعنة لحكمها. وفي ممارسة هذا وتطبيقه يعني فرض أو إقحام ايدلوجية أو برنامج ثقافي مصمم لأفراد وحاشية البلاط والدولة، فضلاً عن تلك النخب الإجتماعية (اعتيادياً من ملاكي الأراضي الإقطاعيين ومن التجار) وهؤلاء ـ لأي سبب من الأسباب ـ يقفون خارج المؤسسة الحاكمة. وهذا البرنامج الثقافي، من الطبيعي، يختلف ويتباين من ظرف إلى ظرف، ولكن فعلياً فإن جميع الحكّام يدّعون أنهم يملكون تفويضاً إلهياً. إن كان مباشرة أو عبر التفويض proxy، وهم يدّعون أن شريعة الله تدعمهم فهم يمثلونها، وهم يؤمنون ويقدمون أنفسهم على أنهم المتمسكين والمدعومين بشريعة الله، وهم كابحوا وقامعوا الغلو والضلالة والثورة، وهم بناة المدن وداعموا العلم والمعرفة والثقافة العالية – وباختصار هم الأوصياء على توفير الحياة السعيدة في هذا العالم (وفي أحيان هم أيضاً الأوصياء على توفير الحياة الطيبة في العالم الأخروي). ويقف خلفهم النخب غير الحاكمة والذين عليهم أن يؤيدونهم ويقدمون لهم العون[1] .هذه إذن المبادئ العامة التي تشكل الأساس لأسئلة

[1] الكلمات هي Isaiah Berlin في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة (الدراسة اللائقة أو الحقيقية للجنس البشري: مقتطفات أدبية من بحوث أو مقالات) المطبوع في لندن ١٩٩٧) ص ١٩٢.

كـ (كيف ولماذا) تدعم الدول قبل الحقبة الحديثة العلم والمعرفة والتدوين التاريخي. وعلينا الآن أن نستفسر ونثير سلسلة من الأسئلة موجهة إلى رواياتنا. فهل دعم أو رعي الحكام المسلمون التدوين التاريخي؟ فإن كان الأمر كذلك فما مقدار ذلك الدعم وبأي صيغة كانت ولماذا؟ وهل كانوا يفوضون أو يوكلون الكتابة عن تواريخهم الخاصة بهم؟ وإن كان الأمر كذلك فهل بالوسع عدّ هذه كحالة موازنة مع تلك الروايات الإمبراطورية (نظير عند الصينيين) التي كان فيها التواريخ الرسمية تنتج بانتظام وتعلن أو تنشر من قبل موظفي وإداريّ الدولة من البيروقراطيين؟. وبإمكاننا الشروع في الإجابة عن السؤالين الأخيرين. فتفويض أو توكيل كتاب تواريخ الدول بالتأكيد يمكننا إثباته في الإسلام الوسيط، حتى أنه أصبح سمة وميزة مثيرة في التدوين التاريخي الإسلامي من القرن الثاني عشر للميلاد السادس الهجري فصاعداً. فعندما نهيأ للأيوبيين والمماليين من يكتب لهم عن حاشيتهم سير حياة وتواريخ حولية كرونوغرافية، بالشكل المعتاد من المدح والإطراء، فإن البويهيين منحوا تفويضاً وبراءة لكتابة تاريخ كرونوغرافي عنهم من قبل الصابيء؛ والظاهر بيبرس (حكم ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠ إلى ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧) الذي كان موضوعاً ليس أقل من ثلاث سير حياة. فإلى أي مدى توسعت وامتدت هذه الممارسة وتعزّزت؟، إنه سؤال يصعب البت فيه. فالأمثلة المتوافرة تأخذ بنا إلى الوراء إلى القرن العاشر الميلادي/ الرابع للهجرة: فابن الدايه (المتوفى حوالي ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) مثلاً قد ألف عن سير حياة أحمد بن طولون، وكان هذا الحاكم في مصر وهو منفتح وذو عقلية مستقلة، واقتبس الجهشياري (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م) مباشرة من نسخة لسيرة حياة الخلفاء العباسيين ألفه محمد بن أحمد بن عبد الحميد (ت ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م) وهو حفيد رجل الأدب ورجل الحاشية الخليفة الأموي الأخير الذي ألتقينا به

آنفاً. وفي حادثة أو حكاية حول المغنية المشهورة شاريه (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠) نقرأ عن عبيد كانوا يخدمون بالبيوت وينقلون سير الخلفاء في دفتر ضخم. فالانطباع عن هذا هو أن هؤلاء كانوا مهيئين من قبل البلاط لهذه المهمة. وعلى أية حال، فما هو بيّن وواضح في هذا المجال هو اليوميات الرسمية المحفوظة في حقبة متأخرة جداً، مثال المتجددات التي وضعها القاضي الفاضل (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) فقد كان كاتباً لصلاح الدين ويحتّل مرتبة عالية في إدارته. في غضون ذلك، حال أو وضع الصينيين، إذ كان التدوين التاريخي قد انتجته الدواوينية والبيروقراطية الذين دربوا ووظفوا بشكل أساس أو بالأحرى بشكل مقصور لأداء هذه المهمة، فالحال الصينية حالة استثنائية، وعلى الرغم من أن الدويلات الإسلامية قد احتضنت التعليم والمعرفة في عدة وسائل (كاستخدام العلماء أو تأسيس المكتبات والمؤسسات التعليمية المتنوعة) إلا أنهم لم يتشربوا به تشرباً كاملاً أبداً، حتى في حقبة بلوغ الأوج عند مؤرخ الدواوينية نظير ابن مسكويه، فشبكة التعلم والمعرفة قد تشابكت وتداخلت مع الشبكة الإدارية والعسكرية تلك التي كانت تتسلط وتسيطر على الدويلات الإسلامية في العصر الوسيط- فالفقهاء ممكن كانوا قضاة، ونسابة، ومتزلفون بكتابتهم سير الحياة – غير أنها ظلت متميزة عنهم وواضحة المعالم. وسنذكر الكثير عن مسألة كيف يكفل هؤلاء حياتهم ويكسبون أرزاق معيشتهم في الفصل التاسع[1].

---

[1] عن التواريخ الإدارية أو تواريخ الإداريين في الصين ينظر توجيت Twitehett في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة (كتابة التاريخ الإداري في عهد التانغ T'ang؛ حول ابن الداية ينظر البلوي ينظر البلوي في كتابه سيرة أحمد بن طولون (القاهرة ١٩٣٩) ص ١٠٠؛ وحول رواية الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١؛ أيضاً عباس في دراسته السابقة الذكر بعنوان (شذرات) ص ٢٠٧ وما بعدها من الصفحات، كذلك فؤاد سزكين GAS ص٣٢١ (وحول محمد نفسه)؛ وبشأن المجلدات ينظر الأصفهاني، الأغاني جزء ١٦ ص١٥؛ ينظر جيليوت C.Gilloit في البحث باللغة الفرنسية الموسوم (تكوين البنية الفكرية للطبري (٢٢٤-٢٢٥هـ - ٣١٠هـ/

فإن كان التاريخ الحولي الكرونوغرافي تابع للدولة والإمارة والسير الحياة من غير السيرة النبوية شكلان من أشكال التدوين التاريخي الذي تولت الدويلات تفويضها البراءة والكتابة – وفي هذه الحال نعود إلى السؤالين الأولين – وهو المجال الرئيس من بين الآخرين الذين كان تاريخا جامعا وشاملا وكذا السيرة النبوية. وكما تخبرنا مقدمة البلعمي في ترجمته تاريخ الطبري قائلاً (لقد قمت بترجمة الكتاب إلى اللغة الفارسية الدارية من أجل الرعية والسلطات لكي يكون بوسعهم أن يتشاطروا قراءته) ولكن لماذا وماذا كان عليهم أن يتعلموا؟فتاريخ الخلافة الذي ألّفه ابن العمراني (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) يطرح جواباً جلياً. فابن العمراني يبتدأ الكتاب بعرض الصيغة المعتادة في الصلاة على محمد وعلى الخلفاء الراشدين الأربعة "وهو يقصد الذين أعقبوا الرسول وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي" والدولة العباسية وأخيراً وليس آخراً مشجعه وداعمه الخليفة المستنجد (حكم ٥٥٠-١١٦٠م إلى ٥٥٦هـ- ١١٧٠م) قائلاً "الله يقوي ويعزز الإسلام والمسلمين ببقاء حكمه". ومن الأمويين الذين حكموا بين الخلفاء الراشدين وبين العباسيين فلم نقرأ عن ذلك إلا القليل، وهذا يرجع إلى كون ابن العمراني يرى الأمويين مغتصبون لحق أولئك الذين أعاقوا التسلسل الشرعي. يقول ابن العمراني ما نصّه "وسوف ابدأ من سيد الكائنات البشرية أو سيد الأنام والشفيع يوم القيامة (أعني محمد) ثم القادة أو الزعماء الأربعة بعده، ثم أولئك الأمويين الذين ادّعوا السلطة من غير حق شرعي، وأيضاً الحكم العادل يرجع إلى

٨٣٩-٩٢٣) المنشور في مجلة JA مجلد ٢٧٦ (١٩٨٨) ص ٢٠١-٢٤٤؛ وحول تجدد (أي to happen) ومتجددات happenings) الذي بقي من كتاب أبي شامة، كتاب الروضتين، ينظر أيضاً عبد اللطيف البغدادي كتاب الإفادة والاعتبار (دمشق ١٩٨٣) ص ٨١؛ وكذلك ينظر المؤرخ السمري Samarilan في كتاب التاريخ Annales Samaitani المطبوع في gothe ص١٨٦٥ ص ٤ (حوادث Happeinigs).

عائلة النبي، إذ يرجع الملك إلى أولئك المخولين أو المؤهلين له، وهؤلاء هم عائلة النبي". فالجزء الأول من الإعلان في مثل هكذا مثل هو إعلان مدو وعالٍ جداً – البيت العباسي، على خلاف البيت الأموي، هو الذي مارس الحق الشرعي للحكم – هنا قد أعاد إلى الذاكرة التواريخ العباسية المبكرة جداً مثل القطعة المتبقية من تاريخ القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري. واعتماداً على قوله "التبدل المبارك [للدويلات – ويعني بها الثورة العباسية] عاد ثانية بالأمور إلى مكانها الصحيح". ومع أن إشارة ابن العمراني والمؤلف المجهول الهوية قد أعلنا صراحة عن مواقفهما المادحة، لكن هناك صوت مدوي آخر وفي مكان آخر: ففي أيدي كتّاب سير حياة الأيوبيين والمماليك، فالأيوبيون والمماليك الذي اغتصبوا السلطة صاروا الورثة الشرعيين. غير أن هذا الأمر لا يحتاج إلى صوت مدوي ولا يحتاج إلى شرعنة للدولة، فهي مهمة قد تركت للتاريخ الكرونوغرافي ليقول عنها. أما في حقبة العباسيين فإن كتّاب سير النبي قد جعلوا الأب الأعلى للحاكم العباسي. فالبيت العباسي في الإجتماع الحاسم مع النبي (في العقبة وتاريخها ٦٢١م) قد شرعن الحكم العباس نفسه، مستنداً إلى الألفة والعلاقة الحميمة لنسبه في القرابة مع محمد[1].

١٤٥.حول ابن العمراني ينظر كتابه :الأبناء في تاريخ الخلفاء (ليدن ١٩٧٣) ص ٤٣؛ كذلك كوبرسون Cooperson في الدراسة باللغة الإنجليزية المشار إليه سالفاً باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (سيرة حياة عربية ص ٦٢ وما بعدها من الصفحات؛ حول (المنعطف المبارك blessing turning ينظر المؤلف المجهول لكتاب (نبذة من كتاب التاريخ) ورقة ٢٣٦ (أ)؛ عن المغتصبين المماليك والدفاع الكلامي أو الكتابي apologia ينظر هولت H.M.Holt في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (تقديم أو عرض قلاوون من قبل شافع بن علي) المنشور في الكتاب الذي حققه بوزورث وآخرون باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (بحوث أو مقالات على شرف برنارد لويس المشار إليه آنفا ص ١٤١-١٥٠).

فكتابة التاريخ مصدر فعال ومقنع للشرعية والتقديس، لأنه بواسطته يمكن نقل مرويات بعينها أو مبانٍ بعينها عن الماضي. والكتابة بوسعها أن تظهر (بل وتفرض) طرقاً وأساليب في التكفير بشأن الوقت وبشأن التغيير وبشأن كيف يرتبط المرء بالدولة، وكيف ترتبط هذه الدولة بالعالم. وهكذا فإن كتابة السير النبوية التي تنتهي بموت محمد، وأخرى في الكتابة عن السيرة النبوية التي تستمر وتدري كمجرى الينبوع إلى النهر، حيث تاريخ الخلافة وشبيه بهذا فإن كتابة التاريخ على وفق للمنهج الحولي ينفتح ويبدأ بهجرة النبي الذي فيه رتّب التوقيت الهجري. وهناك من يكتب التاريخ على وفق عهوده حكم خلفاء معينين ودويلات متعاقبة، إذ يذكر الخلفاء فيها – سنوات تسنمهم الخلافة وسنوات وفياتهم. فهذا النوع الأدبي، لم يزل تاريخاً كرونوغرافياً، غير أنه كرونوغرافي يكمن فيه كذا إيقاع في الموت والتعاقب على الخلافة وعلى سير حياة الخلفاء. وقد اقترحت فعلاً أن ظهور التاريخ الكرونوغرافي الخاص بتاريخ دولة هومدين بعض الشيء إلى نظرية الحكم المطلق للخلافة في بداية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري. وعلينا هنا أن نبدي ملاحظة بأن ابن العمراني قد أختار هذه الصيغة في تاريخه، ولديه أو في متناول يديه وظائف الدولة من أجل تعزيز البرنامج الدفاعي، وهذا ما يوافق بشكل تام ولائق في تأكيد الكثير من السياسات العباسية للسنوات الخمسينيات ١١٥٠م. والستينيات ١١٦ من القرن الثاني عشر، عندما نجح الخلفاء بعض الشيء في دفع سلطة السلاجقة، مساواتهم المطلقين، من العراق. فكما وصف ابن العمراني العباسيين على أنهم ابناء عمومة محمد، وورّاثه في علمه، والمخلصين لدعوته ووحيه، والموجهين المهديين من السماء، وهم شعب الرحمة والرأفة. فابن العمراني يربطهم برباط وثيق مع النبي نفسه. وقد رأينا في السابق أن البحث العلمي في السيرة قد

ترافق مع رعاية الخلافة والدعم الذي وفره العباسيون الأول: فالاستثمار السياسي للتعلم والمعرفة هو أمر كان العباسيون قد أدركوه منذ البداية، في حين يظهر أن الأمويين قد تعلموا أو دربوا بهذا الدرس ولكن بحقبة متأخرة جداً. وإن الأنموذج الذي بقى حياً للحقبة المبكرة من الإسلام، فإنهم خبراء في التاريخ الكرونوغرافي للسيرة بدءاً من الزهري (ت ١٢٤هـ/ ٧٤٢م) إلى السهيلي (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) وابن سيد الناس، فجميع هؤلاء كانوا قريبي الصلة بالمؤسسة الحاكمة. فالسهيلي مثلاً قد عمل بجدٍّ في الظلمة وعدم الشهرة إلى أن عرض عليه الحاكم الموحدي أبو يعقوب بن يوسف (الذي حكم من ٥٥٩هـ/ ١١٦٣- ٥٨٠هـ/ ١١٨٤) برعايته وإحسانه، وإلى هذا الحاكم كتب السهيلي شرح وتعقيب على السيرة النبوية بعنوان (الروض الآنف) خلال السنوات الأخيرة من حياته، وكما قال ابن كثير "كان السهيلي فقيرا ومتقشفاً وزاهداً ولكن ثروة عظيمة جاءته في آخر حياته من سيده في مراكش"*. وحقيقة فإنه من المستحيل ـ تقريباً ـ أن يتفادى القول بأن الموحدين في شمال أفريقيا وأسبانيا (حكموا من ٦٢٨هـ/ ١١٣٠م إلى ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩) قد أدركوا المنفعة والفائدة من أيدولوجية السيرة النبوية في حربهم ضد مسيحيي أسبانيا، وأنهم بسبب هذه الحرب قد فوضوا ومنحوا البراءة لكتاب آخر في التاريخ الإسلامي المبكر ذلك هو كتاب (الغزوات

* (الحقيقة إن المحدّث عبد الرحمن السهيلي نصّ في مقدمة كتابه " وبعد فإني قد انتحيت في هذا الإملاء بعد استخارة ذي الطّول والإستعانة بمن له القدرة والحول. الى إيضاح ما وقع في سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله الذي سبق الى تأليفها أبو بكر محمد بن اسحاق المطلبي ولخصها عبد الملك بن هشام المعافري المصري النسّابة النحوي" وقال " حمد الله المقدّم على كل أمر ذي بال وذكره سبحانه حري ألا يفارق الخلد والبال ، كما بدأنا -جلّ وعلا- حمدا لا يزال دائم الاقتبال...ووفقنا للإعتصام بعروة هذاالأمر المتين وخلقنا في إبّان الإمامة الموعود ببركتها على لسان الصادق الأمين ، إمامة سيدنا الخليفة أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الساطعة أنوارها في جميع الأفاق...." الروض الآنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام -تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة جزء ١ ص٣١-٣٣. المترجم)

والفتوح) الذي ألفه ابن حبيش* (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) الأندلسي كما عبّر عنه أحد المؤرخين في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري أصبحت مكاناً للجهاد. وبالطريقة نفسها كثيراً كان لصلاح الدين مؤلفات وأعمال خاصة بالجهاد قد كتبت من أجل قضيته ضد الصليبيين، وقد زعم عماد الدين الأصفهاني أن صلاحا لم يتوقف عن قراءة الجزء الذي كتبه الأصفهاني في سيرة حياته. وإن أحد المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري كانت تقرأ عليه أحاديث عن الجهاد بينما كان يحارب في حملة عسكرية، ومن المثير أن نعتقد بأن هناك وقتاً فاصلاً ومعقولاً للمسلمين

---

* عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأندلسي وعنوان كتابه الكامل (كتاب الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة المعروف اختصاراً بـ (غزوات ابن حبيش) وقد طبع في دار الفكر، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢. والواقع بالنسبة المؤرخين المتأخرين الذين ألفوا عن السيرة النبوية، فليس هنالك ما يضاهي تاريخ ابن حبيش سواء في الموضوع أم في المحتوىٰ. وهو المؤرخ الوحيد الذي أطلع علىٰ كتاب سيف بن عمر الموسوم بـ (الفتوح الكبير والردّة) فكان بحوزته، وقرأه بتمعن ثم أتىٰ علىٰ الكثير من مضمون رواياته. وموازنة بهذه الفكرة فإن مؤرخاً كبيراً كالطبري الذي سبقه بثلاثة قرون تقريباً لم يطلع علىٰ كتاب سيف بن عمر مباشرة ولم يقرأه، إنما اعتمد علىٰ روايتين أو راويتين هما: السري بن يحيىٰ الذي كانت لديه نسخة من كتاب سيف من شيخه شعيب بن إبراهيم التميمي الكوفي، وهو الذي زوّد الطبري بمعلومات منه اقتصرت علىٰ الأسئلة التي وجهها إليه الطبري، وأما الرواية الأخرىٰ فكان راويته عبيد الله بن سعد الزهري وهو أيضاً كان في حوزته نسخة من كتاب سيف وصلته عن طريق عمه يعقوب بن إبراهيم الزهري وعبيد الله هذا قد زود الطبري ببعض مضامين كتاب سيف بن عمر بما يمثل جوابات عن تساؤلاته. فهذا كله يؤكد علىٰ أن الطبري لم يطلّع مباشرة علىٰ كتاب سيف في عصره في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.وقد شدّد ابن حبيش علىٰ استخدام تعبيرات مهمة تدل دلالة واضحة علىٰ منهجه في الاقتباس فمثلاً استخدم (وفي كتاب سيف) أو (وذكر سيف) أو (وقال سيف) أو (عن سيف عن أشياخه).من هذا كله لعل من الصواب القول بانه لولا وجود رواية حبيش وكتابه لخفي علينا كتاب سيف بن عمر بالمرة؛ ينظر عن ترجمة حياة حبيش ابن الأبار القضاعي: التكملة لكتاب الصلة تحقيق د. عبد السلام هرّاس، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥، ج٣ ص ٢٤-٣٦؛ الذهبي، شمس الدين: سير أعلام النبلاء (طبعة ثانية، بيروت ١٩٩٣، ج٢١ ص ١١٨-١٢١؛ المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨ ج٤ ص ٣١١.وينظر بحث البروفسور دنلوب D.Dunlop في دائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان (Ibn Hubaysh) المنشور في E.I. مجلد ٣ ص ٨٠٣؛ البهادلي، د. حسين: موارد الرواية التأسيسية لفتوح جنوب العراق ١١-١٣ هجرية، رسالة دكتوراه غير مطبوعة ٢٠٠٣ [المترجم].

والمسيحيين وهم يخوضون حروباً صليبية وحروباً معاكسة ضدّ الصليبيين وهذه كلها يمكن استنتاجها من صيغ رواية التدوين التاريخي لوحدها، توحي فكرة نهوض وبعث الكتابة في السيرة النبوية من تنوع التاريخ الكرونوغرافي أن النضال والصراع ضد الكفار غير متوقف[1]. ولذلك بوسع التاريخ أن يوفر أنموذجاً للحاضر. وإن المؤرخين المحدثين (في الحقبة الحديثة) قد قرأوا بصورة عامة السيرة النبوية كحالة وصفية لحياة محمد وشخصيته؛ والقارئ المسلم في العصر الوسيط قد قرأ بصورة عامة هذه السيرة كتوصيفة لحياته الخاصة. وبالنسبة لعبد اللطيف البغدادي فإنه ينصح بقراءة السيرة بوصفها وصفة لحياة زاهد متقشف يخاف الله. وبالنسبة للآخرين لعلها تعني إشهار السلاح لفكرة الله ومناصرة وحدانيته ضد أعدائه. فمن هم هؤلاء الأعداء بالضبط؟ إنه سؤال يعتمد بصورة طبيعية على وجهة نظر المرء والزاوية التي ينظر نحوها: فالسيرة النبوية تبقى مبرمجة أو

---

[1] عن فشل الأمويين في إنتاج كثير من التدوين التاريخي ينظر جابي Chabbi في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم المشار إليه سابقاً (عرض أو تقديم في الماضي ص ٣٤ وما بعدها؛ وعن الزهري ومسألة الدعم والرعاية ينظر ليكر M.Lecker في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم (ملاحظات ببلوغرافية عن ابن شهاب الزهري) المنشور في مجلة JSS مجلد ٤١ (١٩٩٦) ص ٢١-٦٣؛ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية للسهيلي قد طبع في القاهرة ١٩٦٧ (وكان أبو يعقوب يوسف الداعم والراعي قد مدحه السهيلي وعبّر عن شكره الكثير في مقدمة كتابه ص ٣٠)؛ وحول تعقيب ابن كثير في البداية والنهاية (بيروت إعادة طبع لطبعة القاهرة ١٩٣٢-١٩٧٧) ج١٢ ص ٣١٨؛ كذلك ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان (بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢) جزء ٣ ص ١٤٤؛ وعن السهيلي، كتابه الروض والجهاد في أسبانيا ينظر جرّار Jarrar، دراسته عن السيرة النبوية المشار إليه سالفاً ص ١٧٦ وما بعدها من الصفحات وص ٢٤٤ وما بعدها من الصفحات؛ وعن ابن حبيش ينظر لاندوا – تاسيرون Landau- Tasseron في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم (حول إعادة مباني المصادر المفقودة)؛ ومؤرخ القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس الهجري هو المصنف المجهول الهوية لأخبار مجموعة ص ٢٧أ؛ وحول مملوك من القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري هو سنجر الدواداري المتوفي ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠، ينظر هارمان V.Haarmann في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم (لغة العربية في الخطبة أو في الحديث ولغة تركية في النسب: المماليك وأبناؤهم في الحياة الفكرية في مصر وسوريا في القرن الرابع عشر) المنشور في مجلة JSS مجلد ٣٣ (١٩٨٨) ص ٩٨.

ذات برنامج بكل ما في الكلمة من معنى وذلك لأنها كانت مطاطية ومطواعة يتكرر حدوثها وحيويتها باستمرار: اما الأعداء فليس هناك عناء في تحديدهم، أنهم المشركون، أي هم من بين أولئك الذين أشركوا بالله أو عبدة الأصنام ممن جعل الأصنام شركاء مع الله. وفي هذه الحال أي حالة القوة والفحولة هناك قدر كافٍ من التشابه بين السيرة النبوية وتلك الكتب في التوراة، ولاسيما الاكسودوس في سفر الخروج Exodus التي خدمت كأنموذج للحركات الإصلاحية والثورية من توحيد آخر. فالأنموذجان والمثالان الأخيران قد يفسرا ويوضحا هذه المسألة ومسائل أخرى سابقة. وكان محمد بن عبد الوهاب (ت ١٧٩٢م) مؤسس الحركة الإصلاحية الوهابية وهي الصيغة المتزمتة من الإسلام الحنبلي ذلك الذي له اليد الطولى في إنتاج السعودية العربية الحديثة، وكان له ابن أيضاً يدعى عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٨٢٦م) وكان كلاهما من رجال العلم وقد كتبا السيرة النبوية، التي كانت تستند بدرجات متفاوتة إلى سيرة ابن هشام، وكلا السيرتان تظهران مغزى وفحوى سياسي ايديولوجي في تكوينهما العقلي. وموازنة مع سيرة الابن فإنها دراسة أكاديمية تقف على رواية عمرها حوالي ألف سنة من السير المختصرة، أما السيرة التي كتبها الوالد فهي سيرة خاصة. فالوالد لا يذكر إلا القليل جداً من المصادر الأساس وأقل من مصادر ابنه، ولكن فوق هذا وذاك فبينما ينهي الابن سيرته بموت الخليفة الراشدي الأخير من الخلفاء الراشدين (وكذلك موت ابن الخليفة الأخير الحسن بن علي) واصل الأب عمله إلى ما بعد ذلك وإلى سنة ٦٠ هجرية (موت يزيد بن معاوية) فضلاً عن ذلك فإنه ألف كتابه حسب النظام الحولي السنوي. لذلك فقد نظم معلوماته العلمية على وفق نظام عهد حكم الخلافة حتى عهد المأمون (حكم ١٩٨هـ/ ٨١٣م إلى ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) وحسب قوله أن

المأمون "قد فرض عدداً كبيراً جداً من المحاكم العقائدية على المؤمنين. وترجم الكتب الإغريقية في الفلسفة، وأعلن رسمياً برأيه في خلق القرآن، وفرضه على الناس وحاكم أحمد بن حنبل وأئمة آخرين". فلماذا انتهى الأب بكتابه إلى هذه المسألة؟ إن إدارة محمد بن عبد الوهاب الغائبة للسيرة النبوية هي إدارة تفرض تسلسلاً تاريخياً – يبدأ التاريخ من آدم ثم يفضي إلى محمد وإلى أحمد بن حنبل – وهي رؤية حنبلية بشكل واضح، لأن الحنابلة يمجدون مقاومة أحمد البطولية ضد المأمون وضد برنامجه العقلاني. غير أن أهمية الموضوع أكثر من ذلك، فإنه يشكل جزءاً من القراءة الوهابية المتطرفة للتاريخ (والتاريخ الذي يفضي إلى أبعد من السيرة أيضاً). فالسيرة النبوية التي تثير وتهمّ في القرن التاسع عشر هي ليست ببساطة لكون محمد بن عبد الوهاب قد زعم أن المسلمين في زمانه قد وقعوا في الشرك – وهو الشرك بالتوحيد موازنة بزمان محمد، غير أنه بسبب عامل المدافعة عن الوهابية قد جعلوا أنموذجهم المعبر عن حركة محمد بن عبد الوهاب مباشرة تلك التي تخصّ النبي محمد نفسه، مثلاً حركته من نجد إلى مدينة(درعا) هي دون شك كهجرة محمد. وقد استجاب أعداؤه داخل المنطقة نفسها لها معنى ومغزى أيضاً: فقد صنع محمد بن عبد الوهاب مسيلمة النبي الكذاب وهو أحد أعداء محمد البذيئي السمعة. فالكتابة التاريخية في هذا النوع من الكتابة يدمج بين الوصفة والتوصيفية[1].

---

[1] عن الاكسيدوس الخروج أو سفر الخروج كأنموذج بنظر ولزار m.Walzar في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة (الخروج أو سفر الخروج والثورة) المطبوع في نيويورك ١٩٨٥؛ مختصر محمد بن عبد الوهاب قد طبع في بيروت ١٩٩٥، وكتاب عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب قد طبع في بيروت ١٩٩٥، وكتاب عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب طبع في القاهرة ١٣٧٩هجرية؛ وعن تاريخ الوهابية والتدوين التاريخي ينظر بيكس E.Peskes في الدراسة باللغة الألمانية الموسومة: محمد بن عبد الوهاب والوهابية والعنوان باللغة الألمانية هو:
Muhammad b. Abd al-Wahhab in widerstreit: untersuchangen zur Rekonstruktion der Fruhgeschichte der Wahhabiyya).

الفصل السابع

الله والأمثلةأو والنماذج التاريخية التي يحتذى بها

يشكو مؤرخون محدثون(في التاريخ الحديث) متخصصون في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط كثيراً بشأن تغطيتهم الأساس المتفاوتة الجودة أو غير المنتظمة لمصادرهم. ويشتكون بله ويتذمرون من أن المؤرخين المسلمين قرروا واختاروا أن يخبروننا القليل جداً عن غير النخب وغير الصفوة بصورة عامة كذلك من غير النخب من الريفيين بشكل خاص. فلم حدث مثل هذا؟ ويأخذ بنا الجواب عن هذا السؤال طريقاً إلى حد ما إزاء كيفية فهم المؤرخين المسلمين قبل الحقبة الحديثة وكيف وصفوا أو صدّروا عالمهم؟ وفي الجزء الأكبر من الجواب إنما يعني مدى مفهومية الأدوار في التاريخ، تلك الأدوار التي خصّها وأعطاها المؤرخون قبل الحديث إلى الله.

وجزء من التفسير يمكن وجوده والعثور عليه في تحديد هوية جمهورهم من القرّاء، وبما أنهم من أهالي المدن الأثرياء أو ممن أحوالهم المعيشية حسنة، إذن فهم كما هو الحال عند أهالي المدن المترفين حالياً، يفضلون ويحبون القراءة عن أنفسهم، أو لنقل في الأقل يقرأون عما كان مألوفاً بالنسبة إليهم: حتى وإن كان الأمر متعلقاً بالقصص الغريبة جداً لألف ليلة وليلة، علماً أن هذه في واقعها هندية أو إيرانية إن كانت في المؤثر أو في الأسماء، فهي قد

المطبوع في بيروت.

جعلت منسجمة ومتأقلمة مع طبيعة المجتمع. وإن الشخصيات الرئيسية قد صارت شخصيات تذكارية وحاملة أسماء فخرية وشرقية Honorary بغدادية في أثناء ترجمتها وترجمة تكييفها من الفارسية إلى اللغة العربية. ومهما تكن المصادر فهي تملي وتكيف أي قصة ما، وإن المؤرخين ذوي المكانة الرفيعة هم أيضاً كفاة لأن يتعاملوا مع مرويات قد انتجتها على سبيل المثال الدوائر النخبوية تلك التي ينتمون إليها أيضاً،إذ يتمتعون بإعجاب البلاط وتشجيعه. فمن بين الكثير من الرواة من أهل المكانة الرفيعة ممن اقتبس عنهم وذكرهم البلوي في كتابه سيرة حياة ابن طولون في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، كان صاحب جهاز الرسائل.وكان هذا الرجل بالتأكيد في حوزته قدراً طيباً من المعلومات. ويخبرنا ابن مسكويه في أحد المجالات أنه كان حاضراً حينما ضرب أمامه أحد البؤساء من قبل الوزير "ولم يخبرنا ابن مسكويه في الواقع لم ضرب هذا البائس". وفي واحدة من الملاحظات في سيرة حياة بخصوص هلال بن المحسن الصابئ (ت ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م نقرأ في تاريخه أنه كان وعمه من الشخصيات المهمة لأنهما قد خدما في الإدارة البويهية، وعلى وفق ذلك فقد كان في متناول أيديهما القسم الأعظم والسهم من أسرار الدولة. وهناك مثال آخر فالمسعودي في بداية القسم المتعلق بالخليفة الراضي* (حكم بين ٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م) اعتمد على عدد

Interrogalor*[واعتقد بأن المؤلف ربما يقصد ديوان التراسل أو الرسائل أو ديوان الإنشاء ويسمى في مصر ديوان الإنشاء والمكاتبات – ينظر ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، تحقيق على بهجت، القاهرة ١٩٠٥. المترجم] التابع للوالي أو الحاكم * إشارة البروفسور روبنسون إلى ما أورده المسعودي في مروج الذهب (طبعة دار الكتب العلمية الأولى ١٩٨٦) على صفحة ٣٦٥-٣٦٦ تحت عنوان (من محاسن الصولي أبي بكر، ذكر أن الراضي رأى في بعض متنزهاته بالثريا بستاناً مونقاً، وزهرا لائقاً فقال لمن حضر من ندمائه، هل رأيتم أحسن من هذا؟ فكل قال أشياء ذهب فيها إلى مدحه ووصف محاسنه وأنها لا يفي بها شيء من زهرات الدنيا. فقال: لعب الصولي بالشطرنج والله أحسن من هذا الزهر ومن كل ما تصفون. وذكر أن الصولي في بدء دخوله إلى المكتفي وقد كان ذكر له بجودة لعبة الشطرنج... إلى آخر الحكاية). فهي مداخلة من المسعودي حول الاهتمامات المهمة عند خلفاء بني العباس وما يدور في بلاطاتهم من جدل وأخبار أدبية

من الرواة الذين يعملون في البلاط، وقد وقف على مناقشة ويتناول آراء مفصلة عن لعبة الشطرنج والنرد، تلك اللعبة التي كانت من ألعاب التسلية المفضلة في البلاط. فهل ما نعرفه بهذا القدر من رفعة الألعاب في الشطرنج بالقدر الذي نعرفه عن الضرائب الزراعية في عراق القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري؟[1]

ليس هناك مثال انتقائي مثير لرواية التدوين التاريخي يمكن العثور عليه أفضل من سوريا في الحقبة العباسية المبكرة، وهو موضوع لم تذكر الرواية الإسلامية العراقية المتوافر الكثير منها لدينا إلا القليل نسبياً. وفي الواقع، فلولا وجود دليل سرياني من أواخر القرن الثامن الميلادي/ أواخر القرن الثاني للهجرة في تاريخ سرياني قد كتبه راهب مجهول الهوية كان يعيش في دير بسيط في الريف، لم يكن باستطاعتنا أبداً من أن تعرف الكيفية التي كان فيه سكان الريف متأثرين بشكل كبير من الضرائب التي فرضها عليهم العباسيون: فالقرى الزراعية مهجورة قد هجرها أهاليها، فحفرت القبور وسرقت، وبيع الأطفال في أسواق النخاسة كعبيد ورقيق.فلماذا كان هذا المصدر السرياني هو الوحيد بالفعل الذي يقدم هذه المادة فيخبرنا بها؟ وواقعاً

وشعرية وفنون الأدب الأخرى فضلاً عن خوض الجدليين والندماء في موضوعات متنوعة في مجالسهم. وهذا هو مثال على مجالس، فالراضي كان يتجول في بساتين قصره المعروف بالثريا ومعه مجموعة من الندماء. المترجم].

[1] حول التراسل وديوان الأخشاء ينظر البلوي: سيرة أحمد بن طولون ص ١٣٠؛ ابن مسكويه تجارب الأمم ج٢ ص ١٨٤؛ وحول الصابئ المؤرخ ينظر القفطي: أخبار الحكماء (القاهرة ١٣٢٦هـ) ص ٧٧ وما بعدها من الصفحات؛ حول مناقشة المسعودي، مروج الذهب ج٥ ص ٢١٨ وما بعدها من الصفحات (يعتمد هنا على الصولي)؛ عن صمت المؤرخين المسلمين بشأن التاريخ القروي أو الريفي ينظر همفريز Humphreys في دراسته المشار إليها سابقاً باللغة الإنجليزية الموسومة (التاريخ الإسلامي) ص ٢٨٤ وما بعدها من الصفحات؛ وحول دليل فهرست عن الشطرنج ينظر ويبر R.Wieber في دراسته باللغة الألمانية الموسومة (الشطرنج في الأدب العربي) وعنوانه الكامل:
Das schachspiel in der arabischen Literatur von den zur zweiten des 16. Jahrhunderts (Walldrof- Hessen 1972.

فليس هنالك من سؤال في أن يكون هذا الراهب أفضل مؤرخ من زملائه المؤرخين المسلمين، لكن فعلياً وبحسب المعايير والمقاييس، يعدَّ الأسوء بينهم، فالتفصيلات المحزنة والكئيبة هي معلومات مهمة بالنسبة إلى الراهب ليس لأن وجهة نظره وزاوية معرفته الكاثوليكية إلى التاريخ، ولكن لأن أولئك المؤرخين كانوا جزءاً من ذلك العالم الذي كان الراهب يعرفه معرفة عميقة ومفصلة، وعلى خلاف ما هو موجود من أحداث في المدن الإسلامية فإن قرينته ومدنيته هي التي أحرزت أهمية ومغزى حقيقي بالنسبة له.فالراهب كان يؤرخ كرونولوجيا وعلى وفق الزمن ما حدث في القرية أنه غضب إلهي، وكيف أن" الظلم والنير الإسرائيلي" (الحكم الإسلامي) الشديد الذي حلّ بزملائه المسيحيين. هذه عقوبة الله التي أنزلها بهم بسبب خطايا المسيحيين (الهرطقة والجشع والخلاف والشقاق). فالأحداث الواردة في هذا التاريخ ليس لها أهمية بالنسبة إلى المؤرخين المسلمين الذين كانوا يعيشون في المدن، لذلك فقد تجاهلوا ذكرها... وهكذا في الواقع حينما تقرر القوى الإجتماعية في الريف وبين سكانه مثلاً فهذا يعني في كثير من الأحيان بصيغة تمرد للمتمردين والبدو، وقد ظلت فعلاً فإن التاريخ الحقيقي بالفعل إنما صنع، إنه صنع في المدن التي فتحوها، بمعنى ماضي ذي مغزى وماض مهم. ولدينا أوصاف تثير الإعجاب عن ثورة للعبيد في أواخر القرن التاسع الميلادي/ الثالث للهجرة تلك الثورة التي تعرض عن مغزى معين للأعمال المروعة والبغيضة جداً للمهمات التي كانوا يقومون بها في الجزء الأسفل من العراق (كانوا يكسحون وينظفون التربة الملحية من الأملاح من أجل إعادتها صالحة للزراعة).غير أنه حسبما يبدو أن أحداث الثورة قد دوّنت بشكل تفصيلي ذلك لأن زعيم الثورة كان (شريراً كما تظهره اعتيادياً المصادر) وأنه قد قام بخطأ جسيم حين جيّش هؤلاء العبيد وحشّدهم للمسير نحو مدينة

البصرة، المدينة التي سوف لن تستعيد عافيتها من أثر الخراب والتدمير، ومما يثير بعض الدهشة والاستغراب أن بعض المؤرخين المتأخرين يشيرون إلى زعيم الثورة (صاحب الزنج الخارج بالبصرة)*. فلو أنه ظل باقياً في أراضٍ ريفية بور، فإننا تقريباً سوف لن نعرف عنه ولا عن حركته إلا القليل النادر. وأن هذه الحركة بالتأكيد لم تنتج مؤرخاً واحداً يخبرنا عن جانب الثورة في مداها الحقيقي**.

---

* الواقع أن هذا العنوان قد أعلنه المؤرخ الطبري بوصفه من مؤرخي السلطة العباسية وإنه هو الذي اصطلح عليه بتسمية (الخبيث والفاسق) مع أنه اعتمد على رواية محمد بن الحسن (شيلمة) الذي كان من أنصار الثورة ومن مؤرخيها، لكنه استأمن للموفق في آخر أيام الثورة. وإن الطبري اعتمد على كتاب شيلمة محمد بن الحسن غير أنه حرّفه، سواء أكان شيلمة نفسه بعد أن استأمن للعباسيين قام بتحريفه وأعاد مبانيه بما يوائم السلطة العباسية أم الطبري هو الذي عمد إلى تحريفه وتعديله وإعادة بنائه. ينظر بحث ناجي، د. عبد الجبار (الطبري، مصدراً عن ثورة الزنج في البصرة) المنشور في مجلة المورد. (المترجم)

** هناك رأي للمسعودي يقول فيه (وقد صنّف الناس في أخباره – يعني أخبار صاحب الزنج- وحروبه وما كان من أمره كتباً كثيرة) [مروج الذهب/ دار الكتب العلمية/ طبعة أولى، بيروت ١٩٨٦، ص ٣٢٢] لكننا في واقع الأمر لا نملك سوء كلماته المغرية تلك، ولعل مصير هذه الكتب الكثيرة لا يختلف عن مصير مثيلاتها الأخرى التي فقدت ولعل للعباسيين الدور الحاسم في إخفائها أو حرقها. ذلك أيضاً يترجم بأنه من نتائج السياسة العباسية الفكرية الظالمة في حرق الكتب والعمل على تغييبها؛ لأنها تقف معارضة لسلطة العباسيين ولكونها ثورة علوية أو شيعية كما تحدثنا عنها أخبار نسب علي بن محمد زعيم الثورة. وأستمر المسعودي بتعقيبه على قوله السابق بإن ذكر أن أول من صنّف في أخبار الثورة هو محمد بن الحسن بن سهل (وهو ابن أخ الفضل بن سهل صاحب المأمون) وهو الذي يسمى شيلمة. وقد أورد كتّاب الفهارس والتراجم إشارات وتلميحات مهمة عن هذا الموضوع. فقد ذكر شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي} أن العمي وهو جدّ أحمد بن إبراهيم بن معلى العمّي من أهل البصرة قد كتب كتاباً عن الثورة بعنوان (أخبار صاحب الزنج). وأهمية هذا المؤلف أنه كان من أصحاب علي بن محمد صاحب الزنج ومن المختصين به. كذلك كتب الوشاء محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى الأعرابي البغدادي المتوفى ٣٢٥هـ/ ٩٣٦ كتاباً عنوانه (أخبار صاحب الزنج ووقائعه. ويعدّ من الكتب المهمة، أما عن شيلمة فكان صاحب قائد الزنج وظل ملازماً له حتى أواخر أيام صاحب الزنج، وطلب الإمان سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢ من الموفق العباسي وبقي حياً حتى سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م، فيحدثنا الطبري أنه قتل من قبل العباسيين وصلب وأحرقت جثته، ولمحمد بن الحسن هذا كتاب آخر سمّاه (الرسائل) أي رسائل شيلمة لا نعرف ما إذا كانت مهمة بخصوص الثورة. وممن كتب أيضاً عن ثورة الزنج القضاعي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون بعنوان (تاريخ القضائي) (ينظر ناجي، د. عبد الجبار، الطبري [المترجم]).

لهذا يجب علينا تفسير لماذا كانت تغطية التدوين التاريخي بما له علاقة بالمصادر، والجمهور جمهور القراء والمنظور، ومن بين هذه الثلاثة محاور فإنني سوف أقف على الأخير منها وأورد استثماره في هذا الفصل بصورة خاصة. وأود أن أظهر أن المؤرخين المسلمين كان لديهم الكثير من المعلومات والمعطيات يستطيعون أخبارنا عنها وعن النخب في المدينة، لكن في واقع الأمر ليس لدينا إلا القليل مما عندهم وحول الموضوعات الحيوية من اهتمامات المؤرخين حالياً مثل الاهتمامات الإجتماعية والإقتصادية، لماذا؟ لأنهم اعتقدوا بأنموذج من التاريخ يختلف عن الأنموذج الذي يهمّنا الآن.ولما كانت نماذج التاريخ ترتبط بشكل أو بآخر بنماذج من العالم، لذلك بوسعنا الآن البدء بتعقيبات بخصوص عالمهم.

التغيير والتعديل للإسلام الوسيط:

دعونا نبدأ مع الخبر المفرد، بمعنى المبنى الضخم المستقل بنفسه في الرواية التاريخية. فهذا الجزء المغريّ، الذي يوضح كثيرا دور الصدفة والرعاية بصورة عامة في صعود السلم الإجتماعي في عالم من الصعب التنبوء به، وفي الحال التي نبدأ بها خلال حكم هشام بن عبد الملك (الذي حكم بين ١٠٥/ ٧٢٥م إلى ١٢٥/ ٧٤٥م) ولما كان هذا المثال هو في الأعمّ الأغلب هكذا في التدوين التاريخي الحديثي أو التقليدي، فالرواية تظهر بصيغ متباينة ومختلفة قليلاً في الكثير من المصادر التي ذكرتها. كذلك فإنها وبشكل أنموذجي كاملة في أسلوبها المتفاوت في جودته. ونشرع تدريجياً وبتأن، فالمشهد هو في سوريا، ونحن نعمل بشكل خاص نستمع إلى المحادثة، وأبطال الرواية، هم يقدمون تفصيلاتها الدقيقة (فقد صدرت الأوامر إلى المرؤسين وهناك هدايا وجوائز) بين الجانبين الأساسين، ثم نسارع بعنوان،

أولاً إلى العراق ثم ننتقل إلى إيران، بغية أن نصل من أجل تهذيب وتوحيد ثم نعود ثانية إلى سوريا، وهذا الوقت الذي لا يرى التلسكوبي في صفته المميزة عند الكثير من المؤرخين الحوليين للتاريخ الكرونوغرافي:"بكر بن الهيثم أخبرني على عهدة عبد الرزاق، وعلى عهدة حمّاد ابن سعيد الصنعاني، وعلى عهدة زياد بن عبيد الله الذي قال ذهبت إلى سوريا، وبينما أنا أنتظر على باب الخليفة هشام خرج شخص وسألني: من أنت، أيها الشاب؟ وقلت له: رجل من أهل اليمن: أنا زياد بن عبيد الله بن عبد الله الحارثي. في هذا الوقت تبسم الرجل قائلاً "تفضل معي" مشيراً إلى الرجل، ثم بعد ذلك قال: أخبر رجالي بأن أمير المؤمنين قد عينني والياً، وأمرني أن أرحل إلى مهمتي الجديدة، وأن يكلف أحداً إلى مرافقتي خارج المعسكر. (بحق الله من أنت) سألته، فأجاب: خالد بن عبد الله القسري، وبعدها قال: "دعه يأخذ عباءة ويزورنا، فأعطيت ذلك ثم قال: إذا سمعت أني قد وليت العراق فالتحق بي. فلم يكن مكاناً في معسكر هشام أجود وأفضل ثوباً ولا أنبل مركباً من مركبي)[١]•

• [وقد ترجمت النصّ الذي أتى به روبنسون معتمداً على كتاب أنساب الأشراف للبلاذري تعبيراً على نمطية الرواية التاريخية القبلية التي تعتمد النسب والقرابة في العصر الأموي. ولمجرد المقارنة أنقل النصّ حرفياً من كتاب جمل من أنساب الأشراف تصنيف أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى ٢٧٩هت/ ٧٩٢ من الجزء التاسع من الطبعة الأولى المطبوعة في بيروت/ دار الفكر، ١٩٩٤) قال البلاذري[١]."حدثنا بكر بن الهيثم عن عبد الرزاق عن حماد بن سعيد الصنعاني عن بن عبيد الله قال: أتيت الشام فبينما أنا على باب هشام إذ خرج رجل من عند هشام فقال: من أنت يا فتى؟ قلت: رجل من أهل اليمن، أنا زياد بن عبيد الله بن عبد الله الحارثي: فتبسم وقال: قم معي، ثم قال لي: قل لأصحابي – وأشار إليهم -: إن أمير المؤمنين ولاني بالمسير ووكل بي من يزعجني، قلت: من أنت رحمك الله؟ قال: خالد بن عبد الله القسري، ثم قال: يعطى منديل ثيابي وبروذوني الأصفر، فأعطيت لك، وقال: إذا سمعت أني قد وليت العراق يوماً فالحق بيّ، فما أمسي بعسكر هشام أجود ثوباً ولا أكرم مركباً مني، ولم ألبث إلا يسيراً حتى قيل: قد ولى هشام خالد بن عبد الله العراق، فخرجت ووكلت العريف بقبض أرزاقي على أنها له إلى قدومي، وشخصت إلى العراق، فلما قدمت على خالد. الكوفة وسلمت عليه أمر لي بدنانير وكسوة بقيمة ستمائة دينار، وقال لي يوماً هل تكتب يا زياد؟ قلت: لا أنا اقرأ ولا أكتب، فضرب على جبينه، وقال: إنا لله، سقط تسعة أعشار ما كنت أريده بك وبقي لك واحد، واشترى غلاماً كاتباً حاسباً وبعث به إليّ

فهذا هو عالم النزاعات القبلية والسياسية، فزياد بدأ عندما سأله من هو، إنما ابتدأ بتحديد هويته وتحديد زمرته، إنه (من أهل اليمن) وبعد ذلك قدّم انتماءه القبلي من خلال الوصف الذاتي النسبي "إنه زياد بن عبيد الله بن عبد الله الحارثي". وهذه أيضاً عالم حيث بوسع الرجل أن يحقق شيئاً لنفسه، شريطة أن يفهم بأن النجاح إنما يتحقق عبر الحظ السعيد والوافر، وعبر رعاية مؤثرة وولاء شموس وعنيد: فاضل تابع لشخص ما هو التابع الذي ينجز ويحقق أموراً عظيمة، مع أنه يبقى محتفظاً بولائه لراعيه وداعمه – "وأن إيماءه خالد عندما صفع جبينه لإحباطه – بمعنى أن هو إلا تجيب المذكر بأنه على الرغم من كل ذلك الذي عزلنا عن سوريا القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة، لكن أشياء تتحدى التغيير[1]"وأن واحدا من مزايا وسمات الحداثة هو التأكيد والإقرار الذاتي بأننا نميل إلى المبالغة في الكيفية التي نحن فيها مختلفون عن زملائنا لما قبل الحداثة، فالإبداع في العصور الوسطى له علاقة كبيرة مع قومية القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أن الفرسان في دروعهم البراقة يظلّون محتفظين بسحرهم وفتنتهم؛ ذلك لأنهم رموز عالم الركود والفساد الذي غادرناه وراءنا من أجل التقدم والمساواة. وقد قيل، إننا نرى بالفعل العالم والتاريخ بطرق ربما قد تذهل أو تربك ابن النديم. فالتزود بمجموعة مفردات لغوية أو بوصف اجتماعي نستقيه من التصنيع الإقتصادي

فعلّمني الكتاب حتى قرأت قراءة جيدة وكتبت، فدفع إليّ كتاباً من عامله، عامل الري (قرب طهران الحديثة) فقرأته فسرّ بذلك وقال: قد وليتك عمله، فخرجت حتى قدمت الري فأخذت عامل الخراج فأرسل إلي: أن أمير المؤمنين لم يولّ قط عربياً الخراج فتغطرست عليه، فقال: خذ مني، ٣٠٠.٠٠٠ درهم وأمسك عني [هنا المؤلف ترجمها واتركني)، وأقمت على عملي، ثم كتبت إلى خالد، إني قد اشتقت إلى الأمير [أي خالد] فليرفعني إليه [والمؤلف ترجمها ليستدعيني إليه] فلما قدمت عليه، ولاني شرطه•[ونلحظ أن المؤلف قد ترجم الشرطة قوة الأمن] (المترجم).

[1] استقيت الرواية من البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ (ب) (أورشليم/ القدس ١٩٩٣) ص ١٥٨ وما بعدها؛ وحول مصادر أخرى ينظر كرون Crone في دراسته المشار إليها سابقاً باللغة الإنجليزية الموسومة (عبيد وخيول Horses) ص ٥٥ (حيث قدم مختصراً).

ومن الحرية السياسية ومن عالم الغرب العلماني من القرنين التاسع عشر والعشرين، ونحن نرىٰ ونلحظ الآن الإقتصاد والمجتمع والحكومة أو السلطة (أياً كانت هذه الصيغ دقيقة) كمناخات مفاهيمية منفصلة، وكل واحدة منها قد أعطي لها الدور لتعمل علىٰ وفق مبادئ لمبادئء ونماذج بأن التاريخ (أو أي فرع أو حقل من الفروع الأخرىٰ للتحليل الإجتماعي) حاولت إدراك أو التمييز، والتي تكون معاً في التحديد والتحكم في تجارب الناس – أي بخصوص الأناس المستقلين والمتحريين في أفكارهم.فالموضوع الذي يختاره وينتقيه المؤرخون ليكتبوا عن منظومات ثابتة وغير متغيرة توافق الأنموذج الذي اختاروه أما ضمناً أو صراحة من أجل انتهاجه. فهؤلاء المؤرخون ممن يعتقدون بالمفهومية القومية أو المفهومية المادة للتغيير والتبدل التاريخي مثلاً، هؤلاء قد منحوا امتيازاً بالتعاملات مع العامل الإقتصادي أولاً دون العامل السياسي، قد رأوا في أيدلوجية النخب وسياستهم كمهمة أو وظيفة منافسة أكثر من الموارد المادية: فخلال مثل هذا الأنموذج فقط يمكن فهم المغزىٰ من كتابة تواريخ البروليتاريا والطبقات الشغيلة. مع أن هناك مؤرخين آخرين يشددون علىٰ مجالات مختلفة بغية تفسير التغيير التاريخي، فالمسألة هي أنهم يحاولون بقوة حقاً التفسير، وهذا التفسير يكون عن طريق بناء (أو حتىٰ المتابعة) لنماذج عن كيفية ترابط هذه المجالات والمناخات وكيفية تفاعلها، وكذلك عن طريق الإدلاء بعوامل تقريبية أو وشكية الحدوث للأحداث التي نحن بصددها، وفي الأقل بالنسبة إلىٰ المؤرخ المحترف، فإنه لم يعدّ كافياً التحدث عن القدر والقضاء والقدر والعناية الإلهية والتقدم، وواقعياً أي جامع آخر مؤثر.

ففي هذه الحال إن المؤرخين المسلمين في العصر الوسيط يشابهون إلىٰ قدر كبير مؤرخي ما قبل الحقبة الحديثة الآخرين يفتقرون بصورة طبيعية إلىٰ

مصطلحاتنا الحديثة في التوصيف الإجتماعي. إنهم بصورة عامة يتصورون العالم في حالة أو في اتفاق أكثر تناغم أو ربما كما يستحسن المرء أكثر تكاملاً. فليس الإقتصاد ولا المجتمع كانا يتميزان بخطوط واضحة عن النظام السياسي بله عن القوانين السياسية، التي هي في العادة تختصر لأن تعمل بعدالة أو بجور أو بغير عدالة، قد أدركت في تحديد وتقرير الحياة الإقتصادية والإجتماعية.فإن هذا النظام السياسي لا يقرره ولا يحدده إلا الله. وقد بني هذا النظام لا لشيء سوىٰ إتمام إرادته، أولاً في سلسلة من الحركات النظامية المتكررة أو سلسلة من الأعمال المفاجئة تحت إدارة أو شكل من الحكومة الصغيرة في المدينة، بعد ذلك صارت أوسع وأكبر في عهد خلفائه (الخلفاء الراشدين الأربعة).ثم وصلت أوجّهاً حينما اعتلىٰ أحد أسلافه (سواء من أسلافه الحقيقيين أم المجازيين) الخلفاء العباسيون (أو السلاطين). الذين تمتعوا، بتمسكهم المشهود والشديد بالسلطة، بما كان معروفاً بجدارة التسليم برضا الله، (وهذه الوجهة علىٰ الأقل من رأي أهل السنة) والذين أيضاً باختيارهم وتعيينهم الولاة والقادة والقضاة يشرعنون فعاليات الدولة.(ففي الرواية التي ذكرت آنفا كان خالد القسري معيناً من قبل الخليفة هشام، فتمتع لذلك بشرعيته، في الوقت الذي تمتع زياد بن عبيد الله بتعيينه من قبل خالد). فمواصلة الحرب وتنظيم وضبط أماكن الأسواق، وزيادة أو رفع الضرائب، وإقامة الشريعة – كل هذه قد حدثت (في الأقل من الناحية النظرية) تحت مظلة شرعية سلطة الخليفة (في الإسلام التكويني) أو فيما بعد تحت مظلة الشريعة التي يحميها أو يصونها الخليفة.

ومن أجل ذلك كله إذ يمثل ما سبق أن الدولة نفسها كانت عادة صغيرة جداً موازنة بالدولة الحديثة – وكانت في أكثر الحالات تمثل ما نعيشه كأفراد في دول قاهرة ومتنفذة، وكان المسلمون قبل الحقبة الحديثة يعيشون

بصورة عامة كأفراد ضمن مجموعات (قبائل، أو مجموعة تربطهم رابطة القرابة والنسب، وعوائل) في دول ضعيفة نسبياً. وكانت الجيوش تعدّ بشكل أنموذجي بعشرات الألوف في أكبر حجم لها، وإن مدىٰ وصول نفوذ السلطة وهيمنتها كان قصيراً ليس بسبب افتقار تلك الدول للقوة البشرية أو إلىٰ تنوع المباني التكنولوجية (شبيه المواصلات والاتصالات التي كانت في تلك الحقب صعبة بشكل خاص)، ولكن لافتقارها إلىٰ الطموح. وكان فن النثر والخطابة هو القاعدة المطلقة، ولكن سياسة الدولة عادة ذرائعية وعملية، وكانت سلطة الإجبار والإكراه وكذلك سلطة الإقناع تتسع أو تمتد فقط علىٰ تلك الأقاليم التي تنتج موارد أكثر من تلك التي تكلف الدولة في سياسة الإكراه أو الإقناع (فالجيوش المعدة للقتال وعملية ضبط النظام وفرض الضرائب تعدّ من النشاطات الباهضة الثمن) تلك التي كان من الناحية العملية يقصد بها الأراضي الحديّة التي يكون إنتاجها مساوياً لما ينفق عليها والأراضي غير المنتجة البور وأمثال الصحارىٰ والوديان والجبال التي بمجموعها تعدّ الغالبة في الشرق الأدنىٰ، فهذه المناطق قد خبرت القليل من سلطة الدولة. فالسلطة أو النفوذ دائماً تميل لأن تكون مركزة علىٰ المدن والمناطق النائية عن المدن والتي تغذي غيرها بالمؤن، وكذلك التي تكون في أزمنة القوة والنفوذ الاستثنائي تمارس مراكز وظيفة علىٰ طول الطرق الرئيسة.وبقدر ما هو متناسب مع ضخامة السكان أو الأهالي من رعايا الدولة لم يكن لهم دور ولم يذكر لهم دور في هذا النظام، إذ كانوا فقط ينتجون فائض زراعي ضخم بما فيه الكفاية وأعلىٰ من الحدِّ الضروري مما يسوِّغ المضايقة في فرض الضرائب. والمدن تعيش علىٰ حساب الأرض، إن هي إلا مراكز لاستهلاك الكثير جداً وأكثر بكثير من الإنتاج، مع هذا كانت المغايرة والتباين بين المدن والريف شديدة. وكذلك نلحظ هذه المغايرة والتباين ضمن المدينة الواحدة. فكان هذا

عالماً حيث نجد التباينات مرسومة بشكل واضح وجليّ حيث يسود التسلسل الهرمي، وحيث مؤشرات الطبقة والمنزلة الإجتماعية كلية الوجود بحسب القياسات والمعايير الحديثة: كل شيء بدءاً من اللباس إلى السكن والمأوى حتى طريقة تحدث المرء، فالخيول التي يمتطيها الفرد والطعام الذي يأكله (فأول إجراءات خالد القسري في رعايته لزياد هي إعطاءه ملابس رائعة وفرس جميل). هناك كان عالم حيث كان يعرف كل امرئ مكانه هو، وحيث الانتقال إلى مكان آخر في السلم الإجتماعي كان نادراً إلى أبعد الحدود، طالما، كما رأينا، أن هذا لا يحتاج إلى أي قدر من القابلية والكفاية الحقيقية، ولكن عادة يحتاج إلى توليفة، أو دمج بين الحظ الوافر والرعاية والدعم. إنه عالم حيث تعادى الأَصالة والإبداع، وحيث لم يكن أي شيء حيوي كان يفترض أو يعتقد بالتغيير. وهذا في الواقع يتضمن قدراً غير محدود من المغزى والمعنى.

الله والتاريخ:

المؤرخون هم جزء من هذا العالم، عالم الأدوار التقليدية وعالم التسلسلات الهرمية الواضحة: فهم قد فكروا ملياً، في التاريخ ودوّنوه وأعادوا صنعه أو خلقه من جديد. في دولة ونظام حكم فيه الخليفة أو السلطان وهم يدَّعون حقاً إلهياً في حكمهم، والسلطة والنفوذ كانا يفعلان من الأعلى إلى الأدنى، واعتيادياً فإن المحرك الصامت هو الذي يسير التاريخ البشري ويدفعه، لذلك لم يكوّن تقدماً إلى الأمام ولا تصارعا تناقضاً طبقياً ولا حتى فردياً بحسب المصالح الشخصية. لكنه بالأحرى إرادة الله هي التي تسيّر وتحثّ مباشرة (وأنموذجياً يتم ذلك عبر تغييرات مفاجئة وملحوظة في النظام الطبيعي – تلك هي المعجزات) أو، كما هو واقع في كثير من الأحيان، عبر ممثلين من الأفراد الصفوة نظير، الأنبياء، والملوك، والقادة، والولاة،

والمدّعين أو المنشقين والمحدثي الشقاق، والثوار، والمتمردين.ويمكن القول أن الله لا يظهر في قصتنا المرفوعة والمهذبة على خلفية ومسيرة زياد ابن عبيد الله، ولكن هو (الله) لم يزل هناك، والداعم أو الراعي المطلق والحتمي الذي اختار هشام لأن يعمل كنصير وراعٍ لخالد القسري، وكان خالد نفسه الراعي والنصير لراويتنا المخلص والجريء Pluckish.وأن نقول إن إرادة الله كانت المحرك والعامل الأساس في التاريخ هو ليس للإيحاء والاقتراح بأن الناس قد عدّوا أنهم مجرد دمى متحركة تتحرك على هيأة خط بمساعدة أبديه (الله) واعتماداً على الفقه والثيولوجي الذي عمل وتفعل بنجاح إبّان القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد/ الرابع والخامس للهجرة، فالناس يقومون بالأعمال لمثلين على وفق حرية إرادتهم وذلك بإحراز أو نيل مسؤولية أو حق العمل الذي خلقه الله. وأنهم يثابون ويكافئون ويعاقبون بناء على ذلك، ويكون ذلك دوماً في العالم الأخروي، وفي أحوال كثيرة في العالم الدنيوي أيضاً.والله هو الكل ذو القدرة والنفوذ غير المحدود، وهو الذي لا يحرر الإنسان من واجباته والتزاماته بأن يعمل طبقاً لأوامر الله وأن يتجنب ما يبغض الله ويغيضه- والتي تعدّ تفسيراً للوجود الكلي لمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الأمر يفسر لنا لماذا قدّم الكثير من المؤرخين تواريخهم وأعمالهم كسجل (كتاب) للخيارات البشرية، ومن هذه التواريخ كان على قرائهم أن يلتفتوا ويرسموا دروساً لائقة.فالتاريخ هو الذي يعلم هذه الدروس (أو العبرة وجمعها عبر) وهي كلمة قد ظهرت في الكثير من عنوانات الكتب، نظير كتاب أسامة بن منقذ وابن خلدون والذهبي، إنها فكرة ومفهوم يظهر أكثر بكثير من ذلك في مقدمات المؤلفات التاريخية.ومشابه لهذا، أي أن إرادة الله هي محرك التاريخ، لا يقصد منه أن المؤرخين المسلمين قد اخفقوا الاعتراف بتفاعل ما ندعوه بالقوى الطبيعية والعوامل الإجتماعية

والإقتصادية والسياسية. والمؤرخون في أكثر الأحيان يلاحظون وينتبهون بالفعل إلى العوامل الإقتصادية كارتفاع الأسعار وكانت هذه النتيجة مفضلة بالنسبة إلى المؤرخين الذين يوفرون أحياناً مادة عللية وسببية من أمثال المجاعة، والآثار والنتائج الناجمة عنها، نظير عدم شعبية هذا الحاكم أو الوالي أو ذاك، أو كسر وتوقف الحصار فجأة. ففي مدخل كتاب ابن الأثير لسنة ٤٧٧هـ/ ١٠٤٨ يصف لنا النتيجة المألوفة جداً عن المجاعة قائلا"حتى اضطر الناس إلى أكل الجيَف) والوباء (بسبب أن الناس الضعفاء والفقراء والمرضى كانوا يأكلون الجيف"، وأنه أيضاً يقف واصفاً بشكل خاص الأسعاد بالدقة وبالضبط لمواد غذائية معينة أمثال الليمون والرمان والخيار والقثاء[١].غير أن هذه ماهي إلا الأعراض أكثر من كونها الأسباب والعوامل، وأن المناخ والإقتصاد كانا يعملان بصورة مستقلة لإرادة الله، فالمؤرخون كانوا واقعياً لا يقفون على هذه العوامل ولا مجال للتفكير بها، كان المؤرخون يفهمون العالم أنه عالم شامل ومطلق ومنظم من الله، وأن جميع شاغليه هم رعايا لسلطة الله العليا. فالحكام العادلون يتمتعون بفضل من الله ويشهدون سلاماً ورخاءاً، إلا أنه عندما تتفسح السمكة أو تفسد، فإنها تفسد وتتفسخ بدءاً من الرأس إلى الأسفل، فالحاكم الظالم وغير العادل يولّي جباة ضرائب

---

[١] وعن حجم بعض الجيوش الإسلامية المبكرة ينظر كندي H.Kennedy في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة (جيوش الخلفاء: العسكر والمجتمع في الدولة الإسلامية المبكرة) المطبوع في لندن ٢٠٠١، صفحة: في كل مكان من الكتاب؛ ولقد استعرت التعبير (الرضا المحتمل لله Presumptive satisfaction of God) من متحدة R.P.Mottahedeh في البحث بالغلة الإنجليزية الموسومة (بعض المواقف تجاه الملكية والحكم المطلق في العالم الإسلامي المبكر للقرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد) المنشور في مجلة الدراسات الشرقية في إسرائيل Israel oriental studies مجلد ١٠ (١٩٨٠) ص ٩٠؛ وعن الأهمية الحاسمة للرعاية والدعم، ينظر نفس المؤلف (يعني متحدة) في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة (ولاء أو وفاء وزعامة في المجتمع الإسلامي المبكر) المطبوع في برنستون ١٩٨٠، وحول بعض السمات البارزة أو الملحوظة لمجتمعات ما قبل الفترة الحديثة بصورة عامة ينظر كرون P.Crone في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة (مجتمعات فترة ما قبل الصناعة) المطبوع في اكسفورد + كمبردج + ماسوستي ١٩٨٩).

جشعين ونهابين، فهؤلاء يرهقون الناس بالضرائب ويسرقون الفلاحين وينهبون حتىٰ بذور الحنطة التي يحتاجها الفلاحون في الموسم اللاحق، وهذا العامل يعني حدوث مجاعة، فالنظام عندئذ برمته يخفق ويفشل في إحداث توازن.وكما عرضه أحد المؤلفين من القرن الرابع عشر الميلادي/ السابع الهجري عن تاريخ دمشق: "عندما يكون السلطان ظالماً يعم الظلم واللا عدل في البلاد ويصبح الناس ضعفاء، وحقوق الناس تبطل وتكبت، ويصير الحكام مدمنين علىٰ ارتكاب الشر والعمل الخاطىء، وهم يسيئون استخدام الموازين والمكاييل ويغشونها. عندئذ تتعطل وتحبس بركة السماء وينقطع هطول الأمطار، فتجف الحبوب وتموت الماشية، ذلك لأن الحكام أحجموا عن فعل الخيرات والصدقات وكذلك بسبب إيمانهم الكاذب الذي استشرىٰ بينهم وأزداد وعمّ المكر والحيل بين أوساطهم"[•][1] ،فجميع هذا ربما يبدو في غاية الغرابة وهو بالتأكيد غريب علينا، غير أنه في هذه الحال التي نحن بصددها فهو مهم بشكل خاص في إبداء ملاحظة وهي أن المؤرخين المسلمين قبل الحقبة الحديثة لم يكونوا بأية حال من الأحوال وحيدين في الاعتقاد بأن الله هو الأنموذج المركزي في التاريخ، إذ أنه في العوالم المسيحية المتعاصرة مع الحقب التاريخية الإسلامية (سواءاً أكانت في الشرق أم الغرب) كانت الكتابة التاريخية الدنيوية وغير الدينية علىٰ وفق الأنموذج الكلاسيكي بصورة دائمية علىٰ الهامش، وقد ابتعدت كثيراً جانباً إبّان التاريخ القديم المتأخر وبمفهوم

[•] (ويقصد روبنسون بذلك قول ابن صصرىٰ محمد بن محمد بن صصرىٰ في كتابه الموسوم بـ كتاب الدرّة المضيئة في الدولة الظاهرية ؛ تحقيق وليم م. برينر.المترجم

[1] حول مدخل ابن الأثير، ينظر كتابه الكامل ج٩ ص ٥٤١؛ وحول مؤرخ دمشقي، ابن صحرىٰ في كتابه، تاريخ دمشق ١٣٨٩-١٣٩٧ المعروف (الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية) تحقيق وترجمة برينر W.M.Brinner المطبوع في بركلي Berleley ١٩٦٣ ص ١٩١ وما بعدها؛ وحول أوامر الله ينظر كوك M.Kook في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة (المسيطر الحق Commanding right والمحرم المخطىء في الفكر الإسلامي Commanding Right and Forbidding wrong) المطبوع في كمبردج ٢٠٠٠.

الله نفس بوصفه المحور المركزي في التاريخ. فالمؤرخون المسيحيون ربما وجدوا في التاريخ الإسلامي كونه تاريخاً بغيضاً بله كريهاً إلى النفس. غير أن الأنموذج الذي نهجوه كان له مغزىً ومعنىً بشكل تام بالنسبة إليهم.وما هو متميز في التدوين التاريخي الإسلامي لم يكن حسب المفهوم أن إرادة الله هي التي تحدد وتقرر التاريخ، كذلك ليس الله الذي يجعل إرادته معلنة وجلية عبر الأحداث الطبيعية والبشرية – فقد كتب المؤرخون المسيحيون في ذلك الوقت بالطريقة والمنهج نفسهما تماماً، وذلك بتسليمهم ومنحهم الله الحال التفسيرية نفسها في رواياتهم كالدور الذي تمتع به (الله) في التاريخ الإسلامي. وما هو متميز بشأن الرواية هو مدى ارتباطها بهذه الأحداث وربما إلى مدى أقل في مفهوم الطريقة أو الأداء وعمل الله على الأرض.والحال تحت البحث هي محمد دون غيره. فالمؤرخون المسيحيون والمسلمون يتفقون معاً على أن التاريخ قد اتخذ دوره في منعطف جديد بظهور النبي، وأن الأحداث المهمة جداً والخطيرة بحاجة إلى نوع ما من الشرح والتفسير. كيف أن عرب القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، الغرباء عن المؤرخين الحضرين والمتفرغين من العمل في عراق القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين وتقريباً بقدر ما كانوا بالنسبة إلى المؤرخين الرهبان الأبرشية الضيقة الأفق ممن كتب باللغة السريانية، كيف لهؤلاء الأعراب أن ينتجوا هذا الرجل، الزعيم والشرعي عبر رؤيتهم. فالجيوش الإسلامية قد دحرت جيوش المسيحيين في كل جولة حربية تقريباً؟ وكان محمد في أعينهم ممثلاً لإرادة الله. ربما اختلفوا فقط بشأن ما الذي كان في ذهنية الله. فقد رأى المسيحيون محمداً نبيا مزيفا ومحتالا ومخادعا وساحرا ومجنونا، وأنموذجياً فقد فسروا النجاحات التي أحرزتها الجيوش الإسلامية المذهلة ليس أكثر من طاعون وطاعون(دبلّي Pestilence): رأوا في الإسلام أنه عقاب من الله قد

حلّ بهم بسبب خطاياهم الخاصة (والكثير من هذه الكتب قد كتبها الرهبان والأساقفة ورجال آخرون في الكنيسة، هي بشكل اعتيادي تعني ثورة وتمردا ضد سلطة الكنيسة). أما بالنسبة إلى المسلمين فإنهم رأوا في تلك الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الفاتحة بأنها من الطبيعي كانت بمساعدة الله، وكانت حادثة حدثت بفضل العناية الإلهية، وهي من نعمه المطلقة وغير المحدودة قد أعاد الله الديانة التوحيدية إلى الجزيرة العربية؛ وأن أتباع محمد قد اندفعوا كما لو كانوا بمعرفتهم المباشرة بنبي الله الخاتم، قد استجابوا بأمر من الله للقتال في سبيل الله أما بالنسبة للمسيحيين (وبعض من اليهود) فقد كانت الفتوحات إيذاناً وبرهاناً على أن مزاعم محمد في النبوة كانت كذباً وافتراء وكما عبّر عنه أحد المسيحيين المبكرين جداً (هل جاء الأنبياء بسيف؟ وكان الجواب: كلا. وبالنسبة إلى المسلمين إن الفتوحات كانت البرهان الساطع على أن دعوة محمد كانت حقيقية، لأن الله قد بعث محمدا ليجعل دينه هو الدين الشامل والجامع (قرآن سورة ٩: آية ٣٣، وسورة ٦١ آية ٩)»[1].

إذن، فإن مشيئة الله بصورة عامة كانت العلّة والسبب النهائي والأخير في جميع الأحداث، وإن أدوات الله التي يؤشرها إنما هي أعمال الأفراد الصفوة، وإن أدوات الله التي يؤثرها إنما هي أعمال الأفراد الصفوة،

---

[1] حول بضعة أمثلة عن كيفية استجابة المسيحيين للإسلام ينظر هويلاند Hoyland في دراسة باللغة الإنجليزية (نظرة فاحصة للإسلام) المشار إليه آنفا ولاسيما صفحة ٥٢٣ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك ينظر وولف Wolf في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (فاتحون) ص ٣٠؛ وحول بعض التعقيبات عن المعجزات والفتوحات ينظر روبنسون C.F.Robinson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (النبوة والرجال المقدسون في الإسلام المبكر) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من هوارد – جونستون J.Howard- Johnston؛ وهيوورد P.A.Hayward في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (تقديس القديسيين في العصور القديمة المتأخرة وأوائل العصور الوسطى) المطبوع في اكسفورد ١٩٩٩، ص ٢٤٣ وما بعدها من الصفحات.

وأن المعيار أو المقياس الذي يتولى (الله) فيه خلقه قد جعلها واضحة في شريعته. ولكون الله قائماً في قلب التاريخ ومركزه، فالمهمة الملقاة على عاتق المؤرخين المسلمين، كانت لهذا السبب ليست بالقدر الذي تشرح وتفسر أعمال الناس بقدر ما تكون مثالاً وإأنموذجاً للحقائق المعروفة وكذلك لتعليم الدروس عن طريق وصفها.وهذا هو السبب الذي تردد فيه بعض العلماء المحدثين في الوقت الحاضر لتسمية التاريخ بمعناه الضيق (الذي يقصد به التاريخ التجريبي أو الإثباتي Probative للرواية الكلاسيكية القديمة) مقترحين بدلاً من ذلك أن يكون (نوعاً من التاريخ ذات خصوصية لمعلومات معنية بموضوعات واهتمامات مختلفة بخصوص البشرية والعالم، منظمة بعاطفة لأجل الكرونولوجي التاريخ السنوي، الذي يقدمه كمظهر خارجي حسب الإحساس والمعنى الغربي). وهناك قدر من الحقيقة في هذا التحديد للتاريخ ولكن علينا أن نحاذر من إصدار حكم أو من أن نحكم على الكتابة التاريخية الإسلامية بمعايير أو بمقاييس كلاسيكية تلك التي تتبع الأسلوب الكلاسيكي، طالما أن الأساليب المسيحية للتدوين التاريخي إبّان العصور القديمة المتأخرة Late Antiquity قد بزتها وتفوقت عليها. فمن الممكن أن تكون الرواية التي تتبع الأسلوب الكلاسيكي ظلت باقية حتى أوائل القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري عند ثيوسيديدس Thusydides في تاريخه الموسوم بـ History of Simocatta، إلا أن هذا لا يعني أن ثيوسيديدس (المتوفى في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد) هو حامل لواء التاريخ العلماني الدنيوي والتاريخ الإثباتي التجريبي، ظل هو خيار المسلمين في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث للهجرة، فنحن نقف بشكل قريب وفي الوقت المناسب (وفي بعض الحالات على بعد ثقافي) إلى الطبري، أكثر من أن يقف الطبري أقرب إلى ثيوسيديدس. وبحدود القرنين الثامن والتاسع

الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين، فإن التوحيد صار هو الذي يقرر ويحدد ليس فقط طريق أكثر المشرعين المسيحيين والمؤرخين من رجال الدين نظرة ورؤية للمستقبل، ولكن أيضاً الطريق الذي فسّر به الماضي[1].وليس هناك قصور أو نقص في الأمثلة عن ذلك المتغير. فالمؤرخ البيزنطي ملالاس Malalas، وهو يكتب باللغة الإغريقية في أواسط القرن السادس الميلادي- أي في عالم العصر القديم المتأخر أن المسلمين الأوائل كانوا يعرفونه وبذلك طوروا ثقافة التعلم والمعرفة – بدءاً من خلق الله العالم، وهذا في الواقع يعني إبلاغ قارئه أن آدم كان طوله ستة أقدام وأنه عاش بالضبط ٩٣٠ سنة. فروايته مملوءة أو مشحونة بدلالات وعلامات غضب الله وعقابه (من زلازل وكوارث وطاعون وعواصف مصحوبة ببرد وحرائق وجراد) ونعمه ورضوانه أيضاً، وبالنسبة إلى الأخيرة، أي رضاء الله ونعمه، تأتي في كثير من الأحيان بصيغة معجزات عجيبة ومشهدية، ففي شمالي سوريا وفي مدينة انطاكية حدث زلزال مدمر قتل فيه ٢٥٠.٠٠٠ مائتان وخمسون ألف إنسان، وبعض الناس بقي حياً تحت الانقاض والحجارة مدة عشرين إلى ثلاثين يوماً، ونساء دفنّ وقد ولدن وأطفالهن أو أن الأطفال يرضعون من ثدي أمهاتهم الميتات. والقصص هي قصص غريبة لا تصدق من قبلنا، إلا أن ملالاس كان قد صدّق بها: وواقعاً إنها حقائق نورانية أو معجزات سماوية إلهية، فكان الماضي مهما ذلك لأنه يعلم الناس بدروس بشأن العقيدة الحقة. فضلاً عن

---

[1] الاقتباس عن التاريخ استقيته من بريت M.Brett في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الطريق إلى البداوة) المنشور في مجلة BSOAS مجلد ٥٨ (١٩٩٥) ص ٢٥٢؛ وعن تصنيف المؤرخين إلى طبقات ينظر بلوكلي R.C.Blockley في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (المصنف المؤلف في كسر للمؤرخين في الإمبراطورية الرومانية الأخيرة) المطبوع في ليفربول ١٩٨١؛ وينظر أيضاً عن ثيوفيلست Theophylac tوويتبي M.Whitby في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الإمبراطور موريس Maurice ومؤرخه: ثيوفلست سيموكاتا Theophylact Simocatta عن الفرس والحرب البلقانية، المطبوع في اكسفورد ١٩٨٨.

هذا، فمن هو الذي كان يحكم أو يقدر قرار الله ومشيئته بالنسبة إلى مجريات الشؤون البشرية؟ إنه وبالنسبة إلى هذا الضرب من الكتابة التاريخية ومن التفكير التاريخي ذلك الذي كان المتخصصون في موضوع البيزنطينيات يدعونهم اصطلاحاً (وفي أكثر الأحيان بشكل يبعث على السخرية) مؤرخوا الحوليات، وكان المسلمون الأوائل أو المبكرين ورثتهم. وحتى بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يكتبون تاريخاً معاصراً – ذلك الصنف من التاريخ الذي كان يفضله ويستحسنه ثيوسيديوس،الذي يعدّه المتخصصون بالبيزنطينيات بشكل سخي جداً أنه التاريخ الحقيقي بكل ما في الكلمة من معنى – كانوا سريعي التصديق بخصوص الأمور العجيبة. فالعجائب wondrous events أصبحت موضوعاً ونظاماً بارزاً ومشهوراً في التدوين التاريخي للحقبة المملوكية، غير أنه بالفعل في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري هناك كاتب يوميات بغدادي قد روى روايات بطريقة جافة، ويحتمل أن ملالاس نفسه قد دوّنها حيوان وحشي يهاجم عائلة، وقتل الأم، وعندها هرع أهالي البلدة إلى جانب جثتها المفترسة جزئياً وجدوا أن الطفلة ما زالت حية ترضع من صدر أمها بقدرة الله جل وعلا – وكان الحليب مستدراً بصورة سهلة وميسورة من صدر الأم، وعندما تجمع الناس ليرووا القصة فكانت قصة تثير التعجب[1].كان التدوين التاريخي المسيحي في القرنين السابع

[1] حول التدوين التاريخي البيزنطي بصورة عامة ينظر وينكلمان F.Winkelmann وبرانديس W.Brandes في دراستهما باللغة الألمانية الموسومة بـ (دراسة عن تاريخ البيزنطيين) وعنوان الكتاب بالألمانية:
Quellen zur Geschichte des fruhen Byzanz: 4-9 Jahrhundert
المطبوع في امستردام ١٩٩٠(حول ملالاس في الكتاب نفسه ص ١٩٠ وما بعدها من الصفحات)؛ وحول ملالاس بصورة خاصة ينظر الكتاب باللغة الإنجليزية الذي حققه جفريز E.Jeffreys وآخرون الموسوم بـ(دراسات عن جون ملالاس) المطبوع في سدني ١٩٩٠؛ وحول المعجزات عند مؤرخ بيزنطي آخر (وهو بروكوبيوس Pdropcopius) ينظر كاميون A.Cameron في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التاريخ كنصّ: محاكاة بروكوبيوس) المنشور في كتاب كل من هولدز وورث Holdsworth وايزمان Wiseman في دراستهما باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (إرث

والثامن الميلاديين / الاول والثاني الهجريين قد ابتعد عن مفهوم التاريخ الدنيوي أو العلماني وربما سلك نهجاً بعيداً، في حالة من الحالات، باتجاه تفسير مركزية الله التي يؤمن بها المؤرخون المسلمون المبكرون، أولئك الذين تشاطروا معهم الرؤية التوحيدية. ومع ذلك، فإنه لا يذهب بعيداً جداً من التدوين التاريخ الكلاسيكي: حتىٰ وإن سلك المسيحيون نهجاً خاصاً وتحركوا تجاه النهج التقليدي الكلاسيكي، فالمرء بالكاد يتصور أن المؤرخين المسلمين خلال القرنين الثالث والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث الهجريين سيتابعون عن كثب نماذج من التاريخ تهيأت وتكيفت بناءاً علىٰ اهتمامات مسيحية خاصة. وكما رأينا في السابق أن المسلمين قد كيفوا ولاءموا أو انتحلوا كمية ضخمة جداً من التعلم والمعرفة غير الإسلامية، غير أنه لا معنىٰ له أن يستوردوا نماذج من أجل التاريخ. وذلك لأن تجربتهم التاريخية الخاصة قد زودتهم بالأنموذج. فالتقسيم التاريخي بين الكنيسة والدولة في المسيحية، ذلك الذي جاء ليكون مرآة للتدوين في التدوين التاريخي المسيحي قد فصل بين التدوين التاريخي الدنيوي والكنسي، فلم يحصل مثله في الإسلام. فالمسيحيون الأوائل قد بنوا أسس رواية ديانتهم ضمن أو داخل دولة أو نظام حكم كان أما غير مكترث أو غير متحيز للعقيدة وأما عدائي أو معاد لها، وأنهم قد كيفوا أنفسهم بناءاً علىٰ ذلك. فالمرء قد يؤمن بالمسيح وبعثته لكنه

التدوين التاريخي) المشار إليه آنفا ص ٥٦ وما بعدها من الصفحات؛ وعن كاتب اليوميات ينظر مقدسي G.Makdisi في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(يومية مخطوطة من مؤرخ بغدادي في القرن الحادي عشر – المنشور في مجلة BSOAS مجلد ١٨ (١٩٥٦) ص ٢٤٦ (باللغة العربية) وصفحة ٢٥٨ (مترجمة التي قمت بإعادة إنتاجها)؛ وحول تاريخ عن الحياة الشعبية في عهد المماليك، التي استندت جزئياً علىٰ قصص العجائب في الرواية الكرونوغرافية المملوكية ينظر لانجنر B.Langner في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ (عن الفولكور الشعبي المصري في عهد المماليك) والعنوان الألماني للدراسة هو:
Untersuchungen zur historischen Volkslunde Ägypten nach mamlukischen Quellen
المطبوع في برلين ١٩٨٣.

يبقى أحد رعايا الحاكم الروماني الذي لم يكن حتى ذلك الوقت قد اتخذ تفكير خلّاق لتوحيد التاريخ لتلك الدولة المعادية وغير المكترثة أو غير المتحيزة للعقيدة لتاريخ مفترض أن يصونه ويحميه الله: ومن المحتمل أن يحول أو يعيق التعددية السياسية منذ عهد بعيد بما فيه الكفاية للدولة إلى أن تتحول إلى المسيحية في القرن الرابع الميلادي. ولكن فيما إذا كان اليسوع قد صلب بأيدي السلطات الرومانية، فإن محمداً قد مات موتة هادئة وهو على رأس الدولة الإسلامية، التي أخضعت قبل سنتين الوثنيين في مكة. وبعد موته مباشرة ابتدأ الخلفاء حكماً وفتحوا الكثير من العالم المتمدن المتحضر باسمه. فالمسلمون بما أنهم قد حلّوا محل الحكم البيزنطي والساساني في الشرق الأدنى بخلافة، فقد كانوا أحراراً في أن يعتنقوا أو يقبلوا أنموذجاً وحدوياً متكاملاً في الدين والسياسة – وهكذا هو التاريخ.فالسلطة والسيادة على جميع المخلوقات والأشياء في هذه الحال إنّما ترجع إلى الله، وأولئك الذين قد اختارهم الله يمثلونه على الأرض (إن كانوا أنبياء أو خلفاء أو أئمة) فهم يمارسون سلطة الله بالتفويض by proxy وأنهم بدورهم قد يختارون وينتدبون أبعد من ذلك فتكون النتيجة دوائر ومهمات ومؤسسات تمتد من ذلك إلى الذي أطلقنا عليه المقدس (إمامة الناس في الصلاة) إلى جانب المؤسسة الدنيوية (جباة الضرائب). فليس هناك أي اختلاف على الإطلاق: وقد عدّ ممارسة وتطبيق جميع السلطة الشرعية فقط بلغة الناحية الدينية والدولة بالتحديد والتعريف، وهذه كانت ثيوقراطية أي دولة دينية. والمشرعون أو الفقهاء المسلمون قد عزموا الأمر على ضمانة وكفالة خاصة للأفراد والعوائل، وكانت هناك بالتأكيد حدوداً ثيوقراطية دينية نافذة المفعول وفعالة إلى السلطة التي تسوسها الدولة الثيوقراطية. ومع هذا فإن هناك القليل لما نطلق عليه اليوم المجتمع المدني – وما نفهمه من أن يكون حكماً

دنيوياً للمجتمع المدني – وما نفهمه من أن يكون حكماً دنيوياً للمجتمع هو ببساطة لم يكن موجوداً كما هو. فالمسلمون ربما يتقاتلون في فتن أو حروب أهلية أو في ثورات بشأن من يجب أن يقود الدولة الثيوقراطية، لكنهم لا يشكّون مطلقاً أن الدولة لابد من أن تبقى ثيوقراطية[1].وكانت نتائج هذا الأنموذج الوحدوي بالنسبة إلى رواية التدوين التاريخي بعيدة الأثر والمدى. فالمسلمون القريبو أو الوثيقوا الصلة قدموا إلى التاريخ الديني بما هو معروف بطبقات البروسوغرافية للفقهاء، وواقعاً أنه حتى في هذا التوجه فإنهم لم يكونوا قريبين جداً (فأعمال ومؤلفات طبقات الفقهاء كانت بالأحرى أقرب من كتاب الباباوات Book of the popes في القرن السادس الميلادي أو القرن السابع الميلادي (وكتاب طبقات البابوية أو الباباوات قد دوّن موضوع تعاقب الباباوات عودة إلى الخلف إلى سنة بطرس St. Peter) أكثر من كونه تدويناً يسجل كيفية بقاء وصمود الكنيسة داخل أو ضمن دولة معادية، والتاريخ الكرونوغرافي الإسلامي قد عدّ نفسه مع الدولة أو الخلافة.وإن الله قد أسس وبرهن لأن ينفذ إرادته في عصر ما بعد الحقبة النبوية، وعلى الرغم من كون نتيجة هذا في أكثر الأحايين حسبما تبدو أنها تاريخ سياسي لنوع هو من أكثر أنواع التدوين التاريخي فتوراً ومحلاً (حرب على إثر حرب، مؤامرة أو تمرد سياسي على إثر تمرد ومؤامرة سياسية) لكنه كان بشكل تام ديني في المفهوم وفي الإلهام أو الخلق. إذ إن إثارة الحرب أو فرض الضرائب قد كانت تعدّ إجراءات لا علاقة بالجانب الديني إلا القليل مما كان عليه الحال في قيادة قوافل الحجاج إلى مكة أو إمامة المجتمع إلى الصلاة (فكان مؤلفوها بعد كل هذا هم أناس ذوي تعلم ومعرفة دينية).فالصراعات والنزاعات حول مسألة

---

[1] حول التاريخ والكنيسة فقد اعتمدت موميغليانو A.Momigliano في البحث باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(أضرار أو أذى الإيمان بآله واحد بالنسبة إلى دولة جامعة وشاملة) المنشور في Classical Philology مجلد ٨١ (١٩٨٦(ص ٢٩١ وما بعدها.

الخلافة والوراثة والمسائل التي تنطوي على تضاربات عنيفة بين قوى مختلفة في بلاطات الخلفاء، والحرب الأهلية – وهذه كذلك كانت موضوعات تنطوي على أهمية دينية بصورة أساس. فمن كان يقود الدولة الثيوقراطية؟ وكيف وصل به الحال إلى قيادتها أو إلى الحكم؟ وماذا كانت مؤهلاته؟ ففي المؤلفات التاريخية الحولية/ الكرونوغرافية التي رتبت حسب نظام عهود الخلافة (تاريخ الخلفاء) فإن هذا يتعلق بالقهرمان أو المسؤول عن تدبير البلاط الذي كان هو المنظم الرئيس جداً لهذه الرواية، غير أنه حتى في قضية التاريخ الحولي فقد غطى الكثير من هذا الموضوع، نفسه وإن كان في الحقيقة ليس له مثل هذا الدور. وباختصار فإن كان هناك أي هدف ينشط بله يشجع الكثير من التاريخ الكرونوغرافي الإسلامي، فإنه التعلم والتخطيط في اختبار وامتحان الله النهائي والخاتم ذلك الاختبار في تنظيم البشرية جنباً إلى جنب مع المخططات أو الخطوط الثيوقراطية، والبعض من هذه التواريخ قد تحدثت بشكل مقبول وصريح عن التاريخ الإسلامي المبكر على أنه (تاريخ المنجي والمنقذ)[1].

الله والمجتمع وصيغ التدوين التاريخي:

التاريخ الشامل أو الجامع والتاريخ المحلي:

كانت تغطية المؤرخين لتاريخ السيرة النبوية وما بعدها لهذا السبب تغطية ذات صفة وشخصية دينية، ذلك لأن هؤلاء المؤرخين جعلوا الدولة

[1] ينظر هودجسون Hodgson في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ "مؤرخان مسلمان قبل الحقبة الحديثة"، المشار إليه آنفا؛ ومن أكثر الأقوال قوة وفعالية عن (تاريخ الخلاص الإسلامي) هو ونزبرو J.Wansbrough في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (البيئة أو المحيط الطائفي أو المتعصب) المطبوع في لندن ١٩٧٨.

ونظام الحكم السياسي (أكثر من جعلهم المجتمع) هو الهدف الرئيس لدراساتهم. وكما تم ذكره أن هذا النظام السياسي إنما تحركه العناية الإلهية لله الذي حدد وقرر أيضاً مجريات أحداثه، بدءاً بالخليقة وانتهاء بالبعث والحساب Eschaton)، وهو حدث قد وصف اصطلاحاً بلغة عسكرية، لمعارك وقعت بين المسلمين وغير المسلمين ويكون النصر النهائي فيها لله على أعداء المسيح. وعلى أساس أن المؤرخين هم مؤرخون بشكل عام يحاذرون ويتجنبون أي مناقشة أو درس مفصل للمستقبل، إذ أنهم تركوا ذلك للأنبياء أن يتنبأوا به أو يتوقعوا حدوثه، وقد تم إثبات هذه القاعدة والبرهنة عليها من خلال مثال استثنائي مناسبي وهو الكتاب الضخم الذي ألفه ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) البداية والنهاية. الذي ابتدأ بالخليقة واختتم التاريخ بتنبوءات عن الطوفان والتغير النهائي، وبوصفه تاريخاً استثنائياً فسوف نشرع في التحدث عن بداية العالم (الخليقة) ولما كان المؤرخون المسلمون وخلال مجريات أحداث القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري قد فصلوا هذا التاريخ من تاريخ السيرة، وجعله إما نوعاً منفصلاً أو مستقلاً بنفسه (بما يسمى بقصص الأنبياء) وأما كونه فصلاً أو جزءاً ثانوياً في التاريخ الشامل أو الجامع، وهو يقصد به أنه يعمل أو يدخل ضمن التواريخ الجامعة.

أولاً: التواريخ الجامعة أو الشاملة.

وهنا نجد بالضبط ما كنا نتوقعه من المؤرخين الموحدين، ولاسيما أولئك الذين رووا لنا واخبرونا كذا قصة مشهدية ناجمة ومثيرة عن مباني الدولة في الجزيرة العربية ومسلطين الضوء على الفتوحات السريعة وخارجها، وأعقب بناء هذا الدولة حكماً إمبراطورياً أمتدّ من المحيط الأطلسي إلى وادي الأندوس – وجميع ما تعاقب من سلسلة الفتوح كله كان

بتوجيه من الله. ما الذي عمله المؤرخون هو جعل عالم ما قبل الإسلام موافقاً بله ومماثلاً للأنموذج الإسلامي في السياسة والتاريخ، ومعالجة التاريخ الإسلامي كأنه تاريخ للخلافة[1].

وعلى الرغم من أن الأعمال أو المؤلفات المبكرة تلك التي عالجت ما نميّزه ونعرّفه حالياً بتاريخ جامع أو شامل – أي تاريخ العالم منذ الخليقة فصاعداً – لم يبق حيّاً، وأن الفكرة لعلها كانت قديمة كقدم الرواية نفسها. وليس هناك مثال لتاريخ ايوسوبيوس Eusebius (المتوفى سنة ٣٤٠م) مؤسس كتابة التاريخ الجامع والشامل في الرواية المسيحية، مع أن، ونتحدث بشكل عريض جداً، المرء بوسعه القول أن المؤرخين المسلمين قد شاكلوا ومثلوا بعض الشيء من أنموذج ايوسوبيوس. فكما هو الحال عند ابوسوبيوس الذي كان مخططه قد حدد وقرر أن يكون دفاعياً وتسويغياً (فقد كان المشروع والمخطط في جزء منه إعطاء ومنح المسيحية بأصالة نسبية في العصور القديمة) كذلك كان الأمر بالنسبة إلى التاريخ الجامع الإسلامي، إذ جعل محمداً ودولته في تعاقب متسلسل للأحداث التوحيدية. فالشخصيات البارزة كوهب بن منبه (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨) قد رووا بأنهم كان بحوزتهم أو يمتلكون حشداً من المعلومات حول التاريخ التوراتي، ولاسيما تاريخ الأنبياء، وظل هذا الاتجاه سائد في التواريخ الجامعة والشاملة. ويبدو أنه ليس سوى ابن اسحق نفسه قد تبنى اهتمام وعناية مشابهة. وبقدر ما يمكننا قوله، فإن إعادة مباني تاريخ السيرة النبوية (بأقسامها المبعث والمغازي) التي أقحمت

[1] عن التواريخ الجامعة أو الشاملة ينظر روزنثال في دراسته المشار إليها آنفا (تاريخ) ص ١٣٣ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك رادتك Radtke في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ (تاريخ العالم Weltgeschichte) المشار إليها آنفا ص ٩ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك ينظر سبرنجبرغ – هنسن Hinsen في الدراسة باللغة الألمانية الموسوم بـ (التواريخ الجامعة أو الشاملة؛ أيضاً شابي Chabbi في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (عرض أو تقديم الماضي) ص ٢٨ المشار إليها آنفا.

بين شيئين في جانب واحد يضم فصلاً عن تاريخ ما قبل الإسلام الذي يبدأ بالخليقة، ومن الجانب الآخر، بتاريخ الخلفاء: واعتماداً على المصطلح الفني الترمولوجي للرواية الكلاسيكية القديمة، فإن الكتاب المذكور آنفا هو كتاب المبتدأ وأما الأخير فهو كتاب تاريخ الخلفاء. بناءاً في الواقع على منظور الرواية المتأخرة، إذن أن الرؤية وهذا المنظور هذا هو طموح متسرع مع أنه ينسجم تماماً مع عالم غير مخالف للتعليم والمعرفة الاسلاميتين، ولو أنه لم يزل بسيطاً وساذجاً بالنسبة إلى التخصصية التي تبلورت في أواخر القرن الثامن / الثاني للهجرة وأوائل القرن التاسع/ أوائل القرن الثاني للهجرة. وفي الواقع، إن كانت مباني هذه الأجزاء الأربعة لكتاب ابن اسحاق واضحة، عندئذ تمثل معالجة ابن هشام إعادة مظهر أو شكل رواية التدوين التاريخي بحدٍّ نفسها. وعن طريق المتخصصين الذين جاءوا بعده، فقد قصت أو جزئت السيرة والمغازي لوحدها وعزلت عن المبتدأ وعن معلومات التاريخ، لتكّون وتعني تاريخ النبوة الحقيقي في الوقت نفسه، كان تاريخ ما بعد النبوة قد عالج بالأساس أما تاريخاً حولياً أو تاريخاً للخلافة، وصار تاريخ ما قبل النبوة أما تاريخاً تخصصياً في حالته في مؤلفات قصص الأنبياء الذي بقي منه عدد من الأعمال، وأما قد اندمج وانضم في الأقسام المتعلقة لما قبل النبوة في التاريخ الجامع. ومما يجب قوله أن هذا هو المسار الرئيس للرواية، ذلك لأن بعض مؤلفات وأعمال السيرة من أمثال تلك التي كتبها الكلاعي (ت ٦٣٥هـ /١٢٣٧م) والمغلطائي (ت ٦٧٣هـ/ ١٣٦١م)*. والديار بكري (المتوفى حوالي ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م) يجعل هذا الاتجاه أو المسلك غير واضح بعض

* (وهو المغلطاي بن قليج الحنفي ، الإمام الحافظ. كان حافظا عارفا بفنون الحديث ، علّامة في الأنساب وله أكثر من مائة تصنيف نظير شرح البخاري وشرح ابن ماجة . مات في شهر شعبان سنة ٧٦٢هجرية وليس سنة ٦٧٣كما أشار المؤلف . ينظر السيوطي ؛حسن المحاضرة جزء ١ ص٣٥٩ (المترجم).

الشيء، فما بين السيرة والتاريخ الجامع الشامل الكرونوغرافي بنقلها سيّر حياتها قدماً إلى التاريخ الخلافي. وما جاء بعد ذلك، فسوف أتركه جانباً في مؤلفات قصص الأنبياء المستقلة، كما سبق لي أن غادرت أو تركت التاريخ الحولي حسب السنوات والتاريخ الخلافي كالذي دوّن في مؤلفات السيرة المتأخرة نسبياً[1].

وبقدر ما يتعلق الأمر بالرواية الكلاسيكية القديمة علينا معالجة التاريخ الجامع والشامل كما هو مدوّن في تاريخ الخلافة أو التاريخ الحولي... فالمثال المبكر جداً لهذه المؤلفات، التي ما زالت باقية، قد ألفت من أحمد بن أبي يعقوب (المتوفى حوالي ٢٨٨هـ/ ٩٠٠)* الذي كان عالماً بارزاً لكنه مبهماً أو ملغزاً enigmatic حتى بالنسبة إلى معايير المؤرخين، ويظهر أنه قد ولد وتربى في مكان ما من أرمينيا، وقام برحلات كثيرة ثم عمل إدارياً في دواوينية بلاط الطاهريين، والطاهريون إمارة أو دويلة شبه مستقلة حكمت إيران خلال أكثر القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري وقد بقيت من أعماله ثلاثة كتب: جغرافية وهي مهمة، ومقالة أو بحث قصير غير مهم، والمجلدان

---

[1] عن هيأة وشكل كتاب ابن إسحاق ينظر المؤلفات التي سبق ذكرها في الفصل الثاني (هامش ٢٥)؛ وعن كتاب المبتدأ لابن إسحاي ينظر نيوبي G.D.Newby في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (صنع أو أحداث آخر نبي: إعادة مباني سيرة محمد المبكرة جداً) المطبوع في كولومبيا Columbia S.C. ١٩٨٩) وعليه ينظر أيضاً كونرد Conrad في بحثه باللغة الإنجليزية (اكتشاف نصوص ضائعة؛ وعن مؤلفات قصص الأنبياء ينظر توتولي R.Tottoli في الدراسة باللغة الإيطالية حول (فائدة ببلوغرافيا الرواية الإسلامية) وعنوانه: Progeti bibici nella tradizione Islamica المطبوع في Brescia ١٩٩٩؛ ينظر سيرة المغلطائي الأكثر اهمية (الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم) وهو كتاب لريزل غير محقق، ولكن صورة مصغرة له بعنوان (الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعدها من الخلفاء) هي متوافرة (دمشق وبيروت ١٩٩٦)؛ الديار بكري (تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس) الذي طبع في القاهرة ١٢٨٣ هـ: وفي الأقل إن اثنين من أعمال هذه القصص قد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية الذي ترجمه الأعظمي R.A.Zami المطبوع (الرياض ١٩٩٩) وكتاب (قصص الأنبياء للكسائي) بعنوان بالإنجليزية Tales of the prophets الذي ترجمه ثكستون W.Thackston (المطبوع في بوستن، ١٩٧٨).

* المتفق عليه في الوقت أنه توفي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م [المترجم].

المعروفان في التاريخ الجامع، الذي حسبما يبدو، أنه ابتدأه من الخليقة وانتهى منه سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م وبوسعنا الاستنتاج أنه قد بدأه بالخليقة وذلك لأن المجلدين المتبقيين منه والمخطوطات المتصلة به قد التقطت القصة أو نقطة ظهر فيها آدم وحواء على المشهد.

كان يعوز اليعقوبي شيئاً من التكليف لمجتمعه، فهو واحد من الشيعة القلائل ممن كتب في التاريخ الشامل أو الجامع الذي بقي حياً، وقد قاوم بعناد bucked اتجاهات التدوين التاريخي السائد آنئذ وذلك بحذفه الأسانيد، وقد قدم في مقدمة كتابه فهرسة ملخصة لمراجعة الأساس عوضاً عن الأسانيد. وهو أيضاً قد تميز بما يبدو أن يكون اعتماده المباشر على الرواة المسيحيين واليهود بهدف الحصول على معلومات غنية في التوراة والإنجيل أو للعهدين القديم والجديد تلك التي اشتمل عليها كتابه.وأكثر المؤرخين قد عملوا في هذا الشأن من خلال وسيط في الترجمات إلى اللغة العربية، وذلك يأتي بما يمكن الحكم عليه من القرينة اللغوية الواردة في التاريخ نفسه، بما يؤيد أن الكثير من معلومات اليعقوبي قد جاءته مباشرة من اللغة السريانية. فنراه في عدة مناسبات يزامن أو يؤرخ الأحداث بأشهر غير إسلامية، وهذا أيضاً يعد نادراً واستثنائياً. أما فيما إذا كان اليعقوبي مهيمناً على اللغة السريانية أم لا؟ إنه سؤال لم يفصل في شرحه بعد، فمن المحتمل أنه كان يعمل مع راوية أو مبلغ يقرأ السريانية، ولعله أيضاً أن العملية كانت تتم عن طريق التملية. وعلى أية حال فإن الاهتمامات الواسعة النطاق تتبين بجلاء في تاريخه وجغرافيته، فقد ذكر أن ذلك يمثل نتيجة للأذواق الثقافية الواسعة التي تميز بها الأدباء أكثر من كونها اهتمامات ضيقة محدودة الأفق لعقلية دينية لها صلة بالكتب المقدسة، وأن هناك الكثير من الاستنتاجات أو الدلائل التي ترشح مثل هذه القراءة بالنسبة إلى المعنيين من جمهور قراء التاريخ. وأن مثل هذه

الاهتمامات بارزة بصورة خاصة في القسم الذي يسبق الإسلام من كتاب اليعقوبي، القسم الذي شغل ثلث المجموع الكلي لصفحات الكتاب؛ وفي هذا القسم فإنه يمتد في معلوماته إلى أبعد من شرقي الهند والصين. والأكثر من هذا وبقدر ما هو متعلق بالمجادلات والمناظرات التي دارت في البلاطات بين العقليات المحافظة التقليدية وذلك عن طريق تقديمه في أكثر مداخل سيّر الخلفاء خريطة للبروج horoscope لكل خليفة من الخلفاء المعنيين، إذ كان كلّ من علم النجوم وعلم الفلك هما من العلوم الشائعة في بلاطات القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين بقدر ما كانا – أي علمي النجوم والفلك – محتقرين بالنسبة إلى الكثير من المؤرخين الموحدين ، إن كانوا علماء أو حاخامات ربانيين يهود . والواقع إن الكتاب أو العمل المعياري في استخدامه كمرجع لا يتضمن اليعقوبي بين المؤرخين المراجع، ولذلك في الظاهر يبدو أنهم يجعلونه في المقام الثاني من حيث الأهمية[1].

---

[1]عن ياقوت بصورة عامة ينظر الدوري في دراسته بالإنجليزية باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا (نشأة الكتابة التاريخية ص ٦٤ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك بيترسن Petersen في دراسته المشار إليها آنفا (علي ومعاوية) ص ١٦٩ وما بعدها من الصفحات؛ أيضاً دونر Donner في دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا (قصص عن اصول الإسلام) ص ١٣٤؛ وكذلك خالدي Khalidi في دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا (الفكر التاريخي العربي)، ص ١٢٠ وما بعدها و ص ١٣١ وما بعدها؛ أيضاً ينظر سبرنبرغ – هنسن Springberg- Hinsen في الدراسة باللغة الألمانية المشار إليها آنفا (التواريخ الجامعة) ص ٢٩ وما بعدها من الصفحات؛ وعن معالجته للتوحيد في حقبة قبل الإسلام، ينظر ابيد (ربما عبيد) R.Y.Ebied و وكم L.R.Wickam في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (رواية اليعقوبي عن أنبياء وملوك الإسرائيليين) المنشور في مجلة JNES مجلد ٢٩ (١٩٧٠) ص ٨٠-٩٨؛ وعن ميوله – اليعقوبي – الشيعية ينظر مركويت Y.Marquet في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (التشيع في القرن التاسع الميلادي في تاريخ اليعقوبي) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ١٩ (١٩٧٢) ص ١-٤٥ وكذلك ص ١٠١-١٣٨، وحول الهجوم المتأخر نسبياً وضد أو إزاء المنجمين ينظر ميشوت Y.J.Mishot في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ابن تيمية وعلم التنجيم: ترجمة وتعليق

هكذا كان اليعقوبي ذا اهتمامات واسعة نسبياً، ولكونه شيعياً من هذا الصنف أو غيره (إذ إن كتابه قد انتهى قبل أن تقع الأحداث التي ستجعل رؤيته الشيعية أكثر وضوحاً). ومن المحتمل أن اليعقوبي شعر بأنه أقل تقيداً بالعادات والتقاليد المتبعة والتي قد بدأت تسود بين المؤرخين السنة. و هذه الأمور والمسائل نفسها يمكن طرحها بشأن المسعودي، وكتابه مروج الذهب هو الكتاب الذي يتضمن أيضاً رؤية واسعة ومتحررة بشكل ملحوظ. فقد اعتمد على مصادر شاملة ومتنوعة انتظمت معلومات جغرافية وتاريخية واثنولوجية شملت شعوباً من الغرب (الملوك الفرنجيين) إلى الشمال (السلاف) وإلى الشرق (ملوك الهند) و (أباطرة الصين). وجميع هذا يقول بأنه ليس هنالك خلط أو إرباك بين تأليف اليعقوبي والمسعودي بما نطلق عليه الآن كتاب مدرسي لثقافات متنوعة لتاريخ العالم. والكتاب الأخير، أي كتاب المسعودي، لعله كتاب إنساني في طبيعته وأسلوبه وهذا النمط في الحقيقة يعدّ متميزاً قبل أن تتمتع الإنسانية الإسلامية بازدهارها القصير الأمد. مع أنه كان مؤرخاً موحدياً تماماً. وهنا، وكما هو الحال في أي مكان آخر، فإن التاريخ يبدأ بصنع آلية في الخليقة، وبالرؤية التاريخية المفهومة ضمنياً بمحوريها، مركزية الله وغائبة التاريخ: إن للتاريخ هدفاً وغرضاً، وأن الهدف من وراء تاريخ العرب قبل الإسلام هو تزويد التاريخ بنوع من معلومات ما قبل الإنجيل Praeparatio evangelica للأحداث التي وقعت في القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري. والقرن الذي أعقبه: نبوءة أو نبوة محمد وجميع الخلفاء الذين حكموا بعده؛ولذلك أنه ليس فقط لمجرد أن الاهتمامات الثقافية لليعقوبي (أو للمسعودي) (وأعني ابتداع لعبة

وشرح لثلاثة فتاوى) المنشور في مجلة الدراسات الإسلامية Journl of Islamic Studies (مجلد ١١/ ٢٠٠٠) ص ١٤٧-٢٠٨؛ والعمل القياسي هو فؤاد سزكين GAS.

الشطرنج) هو نتيجة لأولئك الذين هم في البلاط العباسي. أنه كذلك لكون النظام الكامل لتاريخ ما قبل الإسلام – قد نظم ورتب عبر تسلسل أنظمة الحكم والدول يقوده الأنبياء أو الملوك وجميع الأشخاص الغابرين – قد صنع ليكون نذيراً أو ليستشعر به مسبقاً بظهور الدولة الإسلامية بزعامة محمد ومن بعده الخلافة العباسية نفسها. فالتاريخ الجامع والشامل ببراعة وأسلوب الطبري يعدّ أيضاً غائباً وموجهاً نحو غاية وغرض معين: ١٤.٠٠٠ سنة قد تم تغطيتها في حوالي ٨٠٠٠ صفحة من تاريخه، تاريخ الأنبياء والملوك، والتاريخ يسير بطابور مفرد، ونظام الحكم السياسي الإسلامي يتابع الفرس والفرس يتابعون الإسرائيليين – وأن التعاقب العظيم translation imperil للإمبراطوريات) قد أثار اهتمام أو نال من اهتمام مؤرخي الغرب المسيحي.وتشكيل مماثل قد حدد وتحكم في الشخصية والحدث، فالأنبياء معروفون ومألوفون عندنا من الرواية التوراتية، نظير موسىٰ وإبراهيم، وقد أعيد صياغتها بتعبيرات أصبحت مألوفة عند المسلمين بخبرة محمد وتجربته، في حين كان الأنبياء في حقبة قبل الإسلام في الجزيرة العربية، والذين كانوا غير مألوفين وغرباء بالمرة لأي إمرئ لم يقرأ القرآن، وهم أيضاً قد صنعوا ليتابعوا الأنموذج التوحيدي. ولا ينبغي علينا أن نتخذ أي من هذه للإيحاء بأن ما قدمه اليعقوبي أو الطبري بشأن أقسامهما عن تاريخ العرب قبل الإسلام متجانسين أو يمثلان بعداً واحداً: فكلاهما قد احتفظا بمعلومات واسعة ومتنوعة، ولاسيما بالنسبة إلى الطبري، الذي يرجع إليه الفضل كثيراً عن فهمنا للتاريخين السياسي والإداري للإمبراطورية الساسانية المتأخرة. فهذا هو تاريخ جامع أو شامل، وفي الأقل أفضل بكثير مما قد مرّ في حالة علىٰ التاريخ الجامع أو الشامل في التدوين التاريخي البيزنطي المتعاصر مع التدوين التاريخي الإسلامي، والذي بالكاد يمكن موازنته سواءاً بالمطمح والدلالة أو

بالتنفيذ والأداء، إلا أنه تاريخ شامل أو جامع من نوع انتقائي وهادف أو ذو معنى محدد جداً[1]. فتاريخ النبوة وتاريخ ما بعد الثورة لم يكن إلا تاريخاً انتقائياً وهادفاً وذا معنى وإسلامياً بدرجة واضحة. وأن التكيف إلا أنموذج الأدبي ذلك تميزت تغطية الأحداث قبل الإسلام، والذي تميز به تاريخ النبوة أيضاً. فكانت النتيجة صنع تاريخ كرونولوجي قسري وهو في الوقت نفسه خيالي أو أسطوري بصورة عميقة. فمباني محمد عند الطبري (وهنا فقد استند الطبري إلى ابن إسحاق) هي مركبة ومعقدة، وقد تحاجج العلماء بشأن كل من الموضوعين: مقومات هذه المباني وعناصرها وكذلك حول سؤالين كيف ومتى تم جمع وتوضيح هذه العناصر وكيف وحدت. ويكفينا القول ها هنا، بأنه وبسبب صفة التغاير في المعلومات التاريخية والتغاير في المرتقبات أو وجهات النظر في السيرة، فبوسعنا على نحو واضح أن نكون متأكدين بأن كتّاب سير الحياة لم يطمسوا الشخصية التاريخية البارزة: محمد التاريخي فربما يكون مراوغاً elusive* غير أنه كان عاقلا وغير مجنون. وأن مؤرخينا

---

[1] حول القراءة الموسوية Mosaic لعرض محمد في السيرة ينظر روبين Rubin في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (عين ملاحظ أو مشاهد) المشار إليها آنفا ولاسيما ص ١٩٠ وما بعدها من الصفحات؛ من اهتمامات المسعودي ينظر شبول Sheboul في دراسته باللغة الإنجليزية الموسوية (المسعودي وعالمه) المشار إليه آنفا؛ والبحوث في الكتاب الذي حققه كل من أحمد S.M.Ahmad ورحمن A.Rahman باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(مجلد إحياء الذكرى الألفية للمسعودي) المطبوع في كلكتا ١٩٦٠؛ والصفحة من تاريخ الطبري لطبعة ليدن الأوروبية؛ وحول ترجمة لبعض المعلومات عن تاريخ العرب قبل الإسلام في تاريخ الطبري التي تحتوي على تعقيبات كثيرة وقيمة ينظر نولدكه T.Noldeke في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ (تاريخ الفرس والعرب خلال أيام الساسانيين) المطبوع في ليدن ١٨٧٩.

* إذا ما أخذنا بترجمة هذه الكلمة elusive من فعل eludeالتي نصّ عليها قاموسي Webster فإنها تتضمن معاني evade التي يقصد بها يتجنب وكذلك معنى آخر وهو to avoid adroitty التي تعني يتجنب أو يتفادى الدهاء والبراعة. وجميع هذه المعاني لا تتضمن المراوغة حسب ترجمة القواميس الإنجليزية العربية. مع ذلك فاعتقد أن استخدام المؤلف للكلمة لا تعني سوى الذي ترجم آنفا. ومع أنه صرح بقوله maybe أي ربما ولكن وصفه لرسول الله صلى الله عليه وآله بهذه الصفة فيه تجني كبير لا يختلف كثيراً عن لغة الكفار من قريش كذلك لا يختلف عن لغة الكتاب المسيحيين في العصور البيزنطية والعصر الكنسي، في الوقت الذي دحض كل من

بالتأكيد صاغوا شخصية محمد لكي توافق مع الروايات التوحيدية التي ادّعاها المسلمون أنفسهم – إلى حدٍّ أنه في واقع الأمر بأن تمثيله وعرضه في السيرة يسلم بمفهومية لتاريخ النبوة المبكر، ولاسيما القصص بشأن موسى. و الأمور نفسها بالإمكان قولها بالنسبة إلى الأحداث المتضمنة على بذور التطور في المستقبل للمجتمع المبكر (مثال الحرب الأهلية "الفتنة") سنة ٦٥٦م-٦٦١، ورواياتها كذلك أن هي إلا صدى الوعد promise أو الدلالة التي تبشر بظهور المنجي (المرتقب بالمستقبل) يعقبها الخيانة• . ثم يعقب ذلك أزمات سياسية نظير حرب أهلية أخرى وهي تدل على الفتنة بين الأخوين المتنازعين على الخلافة لخلافة هارون الرشيد (ت ١٩٤هـ/ ٨٠٩م) فالأمين والمأمون هما من بعض الأوجه تقتدي أو تحاكي قصة الأخوين هابيل وقابيل Cain and Abel في الوقت نفسه فنحن لا نسمع شيئاً فعلياً عن أحداث قد حدثت خارج حدود الخلافة، والزمن نفسه يقاس على ساعة الرواية، فلا تعاقب الخلفاء (اليعقوبي) ولا سنوات الهجرة (الطبري) ففي كلتا الحالتين، فإن تناغم الحياة واتزانها قد وضع ليس على وفق الفصول أو لمواسم الحصاد، ولكن بمجموعة طقوس وشعائر سياسية في الإسلام مثل الحج إلى مكة والمدينة ومثل تعاقب الخلفاء[1].

البروفسور مونتغمري وات والبروفسور فرانشيسكو غبرييلي هذه الدعوى دحضاً صريحاً، فليس هناك من جدوى في تكرارها [المترجم].

• (وهذه المصطلحات الـ Promise و Belrayal ربما مأخوذة من التوراة وأن المؤلف استخدمها في هذا المجال. المترجم

[1] حول قراءة لقصص أو روايات الحرب الأهلية الأولى ينظر همفريز R.S.Humphreys في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الأسطورة القرآنية وبنية الرواية أو القصة في التدوين التاريخي الإسلامي المبكر) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من كلوفر F.M.Clover وهمفريز R.S.Humphreys باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(الرواية والابتداع في العصر القديم المتأخر) المطبوع في مديسون Madison ١٩٨٩ (ص ٢٧١-٢٩٠؛ حول الأمين والمأمون ينظر الهبري EL-Hibri في دراسته باللغة الإنجليزية إعادة تفسير التدوين التاريخي الإسلامي) المشار إليه آنفا

التاريخ المحلي:

لكي نعيد ما سبق قوله باختصار، إن طريق السلطة والنفوذ قد تمّ إحداثه في مجتمع يفضي باتجاه تفسير مركزية اهتمام مؤرخينا بشأن الصفوة الإجتماعية، ولاسيما الدولة وبلاطها، وهو الأنموذج التاريخي الذي اتبعوه وقلدوه. عندئذ فمجال ومدى التاريخ الكرونولوجي الحولي الجامع في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري يعدّ مرآة لا استحقاقات الحكم المطلق والتاريخ السياسي للخلافة نفسها؛ وفيما يخصّ مستوى ورصانة الرواية فإن تاريخ قبل الإسلام قد أعيد صياغته بتعبيرات إسلامية، وأن التاريخ الإسلامي قد صنع وانتج على غرار التاريخ التوحيدي أو الموحدي. وربما أن الذي حدث خارج الخلافة قد كان له منفعة للمرء الذي يود الإطلاع، مع أن المعلومات عنه كانت نادرة وشحيحة، وفضلا عن ذلك هناك تساؤل لماذا ينبغي على هذه المعلومات أن تكون رؤيتها ثابتة وراسخة في التدوين التاريخي طالما أن الله لم يعدّها حتى الآن جزءاً من إرادته وأوامره في تجهيز الجيوش وإرسالها وهي مضفرة للفتوح؟فالصلة بين السياسة والثقافة من جهة، وبين صيغ التدوين التاريخ والرواية من جهة أخرى بالوسع تمييزها وإدراكها في مجال آخر. فإذا ما كان التاريخ الجامع أو الشامل يمثل رمزاً للحكم المطلق العباسي إبّان القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين، فإن التواريخ الكرونوغرافية المحلية وتواريخ السيرة غير النبوية إنما ترمز إلى العالم العباسي المتأخر وما بعده خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر

ص ١٧٢ وما بعدها من الصفحات؛ وعن هابيل وقابيل بصورة عامة ينظر بورك – قبسية W.Bork- Qaysien في الدراسة باللغة الألمانية الموسومة بـ (تاريخ هابيل وقابيل عند السنة) والعنوان هو:

Die Geschichte von kain und Abel (قابيل وهابيل) in der sunnitische-islamischen uberlieferung

المطبوع في برلين ١٩٩٣.

للميلاد / السادس والسابع للهجرة، تلك الحقبة التي حلّ محل الدولة الموحدة دولاً وأنظمة حكم سياسية هي محلية بمعنىٰ أنها كومنولثية (مأخوذة من commonweoth) مجموعة نظم سياسية تربطها بعض المصالح المشتركة. وكانت هذه الدويلات متنوعة في عدد من الأساليب والطرق، فبعضها يستند إلىٰ جنود عبيد لأغراض دعم عسكرية، والبعض الآخر اعتمد علىٰ البدو، والبعض الثالث منها كان عربياً، والبعض الرابع كان تركياً، وآخر فارسياً. وكانت صلاتها بمركز الخلافة بغداد أما وثيقة ومحكمة أو ضعيفة وغير محكمة. وكل هذا يعتمد بشكل كبير علىٰ البعد الجغرافي والمسافة بين العاصمة وبين الأقليم الخاص بهذه الدولة أو تلك وكذلك يعقد علىٰ مدىٰ طموح زعمائها ومدىٰ تطلعاتهم. ومع جميع اختلافاتهم فقد ظلوا يتشاطرون ثقافة مشتركة من التعلم والمعرفة الإسلامية التي قد ظهرت خلال الثلاثة قرون الإسلامية الأولىٰ. وتقاسموا أيضاً مشكلة صعبة. ففي عصر فقد فيه الخليفة جميع نفوذه الديني وتأثيره السياسي تقريباً. كيف لهذه الدويلات المحلية أن تقيم علاقة معقولة مع مؤسسات الخلافة؟ فسلطة الخلفاء الدينية قد تدهورت منذ أواسط القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وعند مطلع القرن العاشر الميلادي/ مطلع القرن الرابع الهجري.وكان الاحتلال البويهي لبغداد (في سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥) هو اللحظة أو المرحلة الحاسمة في انحطاط سلطة العباسيين ونفوذهم، إذ هيأ أزمة تتعلق ببنية الدولة وحركتها. فالخلفاء العباسيون قد فوضوا بشكل دائمي تقريباً سلطتهم إلىٰ التابعين والمرؤسين في الإقاليم المختلفة، غير أنه في ظل هذه الظروف الجديدة استولىٰ الزعماء المحليون علىٰ سيادة الخلافة نفسها. فما الدور أو الأداء الذي بقي في يد الخليفة وأولئك الذين سبق أن عينهم ولاة محليين؟ وما الحال بالنسبة إلىٰ أولئك الذين قد اغتصبوا سلطته ونفوذه عندما تم لهم النصر في دحر أحد هؤلاء

الولاة والحكام، ومن هو الذي يدين بالولاء له بعد أن دحر الوالي أو الحاكم الذي سبق أن عيّنه الخليفة؟ .وكيف كان المسلمون يتصرفون ويتدبرون أنفسهم في هذا العالم الجديد؟ وقد تفرقت إجابات المؤرخين عن مثل هذه الأسئلة. والتاريخ الجامع أو الشامل مع ذلك ظل مستمراً في الكتابة غير أن آفاقها حالياً في ظل عالم مجزء سياسياً ومتناقصاً باتت ضيقة. فمؤرخو التواريخ الجامعة أو الشاملة الذين كانوا يكتبون في الأفق إلا بدرجة أقل بكثير من غيرهم موازنة بالفصول أو الأقسام التي كتبوها عن الحقبة الإسلامية السابقة وأقل بكثير مما قدمه اليعقوبي والطبري، وصارت تواريخهم عن الإسلام إنما تسلط وتركز الضوء على أحداث العراق فحسب، تماماً كأفضل مؤرخو التواريخ الجامعة في بلدان أخرى، إذ أدوا ـ نظير ابن كثير ـ عملاً مشابهاً في دمشق، فركز ابن كثير الضوء على أحداث دمشق. هذا في الوقت الذي خدمت التواريخ الكرونوغرافية المحلية ومؤلفات سير الحياة ومؤلفات الطبقات البروسوغرافية لتثبيت وتعزيز الدويلات والمؤسسات ضمن الكومنولث الثقافي والشرعي للحكم العباسي المتأخر[1].فالتواريخ المحلية تركز ـ في العادة ـ الضوء على المدن. والمدن الإسلامية في الحقبة الخاضعة للبحث ربما لم تنتج الأحدية والإنصرافية، والحكم الذاتي الذي تمتعت به المدن الأوروبية في الحقبة المزدهرة من العصور الوسطى*، من دون

[1] عن اهتمامات ابن الجوزي بتاريخ العرب قبل الإسلام ينظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (طبعة بيروت ١٩٩٢) الجزء الأول ص ٣٩ (من المقدمة)؛ وينظر أيضاً سبرنكبرغ – هنسن Spningberg- Hinsen في الدراسة باللغة الألمانية المشار إليها آنفا هو (التواريخ الجامعة أو الشاملة) ص ٥٧ وما بعدها من الصفحات.

* ناقشت في كتابي (دراسات في المدن العربية الإسلامية) وفي بحوث أخرى موضوع الخصائص التي فرضها كل من آشلي Ashley وماكس ويبر Webber على هذا الموضع لكي يكون مدينة، وبينت أن المدن الإسلامية في العصور الوسيطة تتمتع بكثير من هذه الخصائص أكثر مما تمتعت به مدن أوروبا في العصر الوسيط. ينظر ناجي، د. عبد الجبار: دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية، بيروت ٢٠٠١.

أن نذكر صيغ هذه المدن ذات النظم السياسية المحلية أو ذات الدويلات المحلية، غير أنها انتجت بالفعل اعتداداً بالنفس وأبهة على نحو عميق كما انتجت ولاءات قوية. وتغطية الرواية تتغير وتتباين من جانب إلى آخر في العالم الإسلامي، فالمدن الكبيرة من الطبيعي كانت تلفت الاهتمام أكثر مما هو الحال بالنسبة للبلدان الأصغر. وهذا الأمر لا يرجع ببساطة ولكونها مدناً كبيرة قد انتجت المزيد من الثروة والسلطة والنفوذ السياسي. على الرغم من كون هذا الجانب بالتأكيد هو المعني والذي يهم. ولكن الأمر أيضاً إلى إنتاجها التعلم والمعرفة ولاسيما التعلم والمعرفة الحديثية وذلك بوصفها مدن ثروة ورخاء وسلطة. وهكذا الحال بالنسبة إلى بغداد والقاهرة ودمشق التي كانت جميعها وعبر فترات تاريخية مختلفة تمتلك كلاً من الأهمية السياسية والأهمية الحديثية والتقليدية، فقد تنعمت هذه المدن بقسط وافٍ من التغطية في كتابة الطبقات البروسوغرافية وكذلك في كتابة التاريخ الحولي الكرونوغرافية، وبعضها قد بقيت وطال بقاؤها لعدد من القرون.والكثير منها ولاسيما القاهرة ودمشق قد ظلت باقية. في الوقت الذي حققت المدن الأصغر التي هي أيضاً قد تمتعت إما الأهمية السياسية أو بالأهمية الحديثية، لكنها حققت نجاحاً أقل؛ وفي حالات كهذه فإن تغطية التدوين التاريخي لهذه المدن الأصغر كان ضعيفاً وقليلاً. إن تلك المدن والأقاليم التي تمتلك أهمية دينية خاصة بها بفضل أو بمقتضى التاريخ والطقوس أو مجموعة الشعائر فقد كانت استثناءاً في تلك القاعدة، إنها تمتلك أهمية سياسية قليلة أو إنها لا تمتلك رعاية ودعماً سياسياً، غير أنها وفقت لامتلاكها رواية محلية غنية، ولاسيما في كتابة الطبقات البروسوغرافي، والأمثلة الكبيرة الثلاثة لمثل هذا الأنموذج الأخير هي: القدس (أورشليم) والمدينتان الحجازيتان مكة والمدينة[1].فكل من التاريخ

---

[1] حول مناقشة مختصرة عن دمشق في المصادر المحلية ينظر همفريز Humphreys في الدراسة

المحلي الكرونوغرافي والطبقات البروسوغرافيا قد اتّخذ شكلاً محدداً في وقت أبكر من أي صنف آخر الذي اتخذ شكلاً محدداً في التدوين التاريخي تقريباً. وإن الاهتمام بالإسهام المحلي في التعليم الحديثي قد أثر فعلاً في طبقات ابن سعد وطبقات مسلم بن حجاج إذ نجد المحدثين قد صنفوا إلى طبقات بحسب الأجيال والمدن والمواقع. غير أن أول الأعمال والمؤلفات المستقلة التي بقيت حية ترجع إلى حقبة متأخرة، وأول وأقدم مثال على ذلك هو تاريخ واسط لبحشل الواسطي (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢) وتاريخ رقة للقشيري (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م). وكلا الكتابان قد جمع سير حياة شديدة التركيز لعلماء من مدنهم. أما بالنسبة إلى الأصناف غير طبقات البروسوغرافية فهناك عدد من الجماعين والمصنّفين من أواخر القرن الثامن الميلادي ومن القرن التاسع الميلادي/ أواخر القرن الثاني للهجرة والقرن الثالث للهجرة قد نسب إليهم عنوانات توحي أن لها اهتمامات محلية اتخذت صيغاً مكتوبة. والبعض منها يظهر أنه ليس أكثر من قوائم بالأسماء أو جداول تعليقات: ومثال على هذا ربما هو الحال في عدد من الأعمال والمؤلفات التي نسبها ابن النديم إلى الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) المتعلق بالولاة والقضاة والقادة في البصرة والكوفة وخراسان*. ويفترض في هذا النوع من المعلومات التي تسببت في

باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا (تاريخ إسلامي) ص ٢٣٨ وما بعدها من الصفحات؛ وعن تغطية عن المدينة ينظر حمد الجاسر في بحثه باللغة العربية (مؤلفات في تاريخ المدينة) المنشور في مجلة العرب مجلد ٤ (١٩٦٩) ص ٩٧-١٠٠، ٢٦٢-٢٦٧ والمجلد ٤-٥ (١٩٧٠) ص ٣٢٧-٣٨٩؛ وعن القدس (أورشليم) ينظر إيلاد A.Elad في البحث في اللغة الإنجليزية الموسوم بـ (تاريخ وخطط اورشليم خلال الحقبة الإسلامية المبكرة: القيمة التاريخية لأدب فضائل القدس: إعادة بناء) المنشور في مجلة JSAI مجلد ١٤ (١٩٩١) ص ٤١-٨٣؛ كذلك ينظر لتل D.P.Little في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (رؤية مجير الدين العليمي للقدس (أورشليم) في القرون التاسعة - الخامسة عشر للميلاد) المنشور في مجلة JAOS مجلد ١١٥ (١٩٩٥) ص ٢٣٧-٢٤٧.

* وهناك أبو عبد الرحمن الوليد بن هشام بن قحذم الثقفي المعروف بالقحذمي. المتوفى سنة ٢٢٢هـ/ ٨٣٦ وكان الوليد مهتماً بذكر قوائم أسماء الولاة والقضاة وأصحاب الشرطة وكتاب الخراج والحجاب. إذ كان جدّه يشغل منصباً في الإدارة الأموية وربما والده أيضاً. فكان مصدراً

ظهورأمثلة حول التواريخ الكرونوغرافية المحلية، نظير كتاب بخصوص القضاة والولاة في مصر للكندي (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م) ومن الجهة الأخرىٰ فلدينا في الأقل كتاب عن التاريخ الكرونوغرافي المحلي يرجع إلىٰ القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري وهو تاريخ الموصل للأزدي (ت ٣٣٣/ ٩٤٤م)** قد كتب عن شخص ما كان علىٰ إطلاع ومعرفة بالرواية الحولية الكرونوغرافية تلك التي انتجت تاريخاً جامعاً بضمنها تاريخ الطبري نفسه. وواقعاً فإن الأزدي يظهر بوضوح مقصورية exciusivity الأنواع الأدبية للتدوين التاريخي في هذه الحقبة: إذ كتب تاريخاً كرونوغرافيا عن مدينته، ثلثه قد بقي حياً، أما طبقات البروسوغرافية لعلماء مدينته،فقد كان تاريخ الأزدي تاريخاً حولياً كرونوغرافيا بينما كانت الكتب الأخرىٰ عن الخلافة مثال تاريخ ابن الأزرق تاريخ ميافرقين[1].والسؤال المثار هو في أي اتجاه كانت تتوجه إليه هذه التواريخ المحلية؟ ومثالنا الأنموذجي هو تاريخ جرجان، أو ربما أكثر أصالة هو معرفة علماء جرجان فهو كتاب عن العلماء من بين أهالي مدينة جرجان الذي ألفه السلمي (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٥م)

عن قوائم أسماء معتمداً علىٰ وثائق إدارية اعتمده خليفة بن خياط فقط . ينظر ناجي، د. عبد الجبار: إسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية حتىٰ القرن الرابع الهجري (طبعة أولىٰ: بغداد ١٩٩٠) ص ١٤٩-١٦٩ [المترجم].

** توفي أبو زكرياء يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم الأزدي في سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ [المترجم].

[1] حول مناقشة لقوائم Namenlisten الهيثم ينظر ليدر في دراسته المشار إليها آنفا والموسومة بـ (Korpus) ص ١٩٧ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك سزكين GAS ص ٢٧٢ : تاريخ واسط لبحشل الذي طبع في بغداد ١٩٦٧، وتاريخ الرقة للقشيري الذي طبع في حماه ١٩٥٩ وطبع أيضاً في دمشق ١٩٩٨، وتاريخ ميافارقين لابن الأزرق طبع جزئياً في القاهرة ١٩٥٩؛ وعن الاقسام الأولىٰ من كتاب ابن الأزرق ينظر روبنسون C.F.Robinson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ابن الأزرق وتاريخه تاريخ ميافارقين، والإسلام المبكر) المنشور في مجلة JARS (السلسلة الثانية) مجلد ٦ (١٩٩٦) ص ٧-٢٧؛ وعن الأقسام الأخيرة ينظر هيلينبراند C.Hillenbrand في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسمة (إمارة إسلامية في الأزمنة الصليبية: الدولة الارتقية المبكرة) المطبوع في ليدن ١٩٩٠، حول الكتاب الذي أعاد بناء القوائم المبكرة للقضاة في دمشق ينظر كونراد G.Cconrad في دراسته باللغة الألمانية حول (قضاة دمشق والمذهب الأوزاعي) المطبوع في بيروت ١٩٩٤.

فيذكر السلمي في المقدمة إن كتابة التاريخ المحلي مستمد من أبهة أو زهو محلي، ولاسيما وأن صحابة النبي قد وفدوا إلى جرجان واستقروا بها (وجرجان مدينة وإقليم يقع في الشمال الشرقي في إيران) كذلك فإن السلمي يوفر تعليلاً لأصل كلمة جرجان وتاريخها وهو تعليل زائف Pseudo etymology فيقول معنى جرجان نفسها: كما قيل مشتق من اسم شخصية معينة هي جروان وهو منحدر من سلالة نوح. إن إثبات المرء لمدينة، أي مدينة، في ماضٍ أسطوري وخيالي يعدّ أنموذجاً كافياً لتاريخ محلي. ولما أسس السلمي نسب المدينة وأصلها، نراه ينتقل بسرعة إلى كيف صارت المدينة إسلامية، فيعزو فتحها إلى الخليفة الفاتح دون منازع par excellence عمر بن الخطاب، الموقع على معاهدة الفتح التي ظلت باقية إلى زمن السلمي. وهذا الأمر أيضاً يعدّ أنموذجاً فالترتيبات الإدارية التي بقيت بعد الفتوح كما تم التعاقد عليه في هذه المعاهدات والاتفاقيات (إن كانت هذه المعاهدات موثوقة أو غير موثوقة) كانت كما يعتقد حاسمة في المجادلات المتأخرة التي أثيرت بين السكان المحليين (سواءً كانوا مسلمين أو غير مسلمين) من جهة، وبين النخب والصفوات المحلية والموظفين الدواوينيين التابعين للدولة من جهة أخرى. ويعقب هذا الخبر مباشرة فصولاً مختصرة بشأن أولئك الصحابة الذين وفدوا على جرجان واستقروا بالمدينة، والذين تبعوهم أي التابعون الذين جاءوا بعد الصحابة، ثم يتبعها الإدارة الأموية، ثم لمحة عن خطط المدينة المبكرة. وبينما تصل هذه القضايا الاستهلالية إلى نهايتها، فالكتاب يكون حالياً فهرسة لجيل على أثر جيل من محدثي جرجان[١]. فما الأهمية من وراء ذكر هذا الفهرست أو الدليل؟ فجزئياً أن القصد منها توكيد أن تعلم الفقه في الأقاليم هو سني ومحافظ، ولإثبات أن تعلم الفقه في الأقاليم قد

---

[١] تاريخ جرجان للسهمي قد طبع في حيدر آباد ١٩٥٠.

تولاها وتحمل مسؤوليتها الموالي من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام في مهد وقلب الجزيرة العربية. وكما عرضها وعبر عنها أبو إسحاق الشيرازي في تاريخه للفقهاء في القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس الهجري قائلاً (عندما يموت عبّاد الله – أي مجموعة الفقهاء البارزين الذين كانت أسماؤهم تبدأ بعبد الله – فيعني أن الفقه في الأقاليم قد انتقل إلى الموالي (الذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب).وكذلك بتثبيت النقل المتواصل والمستمر للتعليم الموثوق والجدير بالقبول من الشيخ إلى التلميذ عبر عدة أجيال، فللطبقات البروسوغرافية مهمات ووظائف متنوعة لربط أحد الفروع المتعددة والوفيرة (وفي العادة عبر رواية محلية لفقهاء المدينة) وصولاً إلى الجذع الرئيس (وهو السنّة النبوية) كما شرحت وفسرت مطولاً في المدينة والبصرة والكوفة وبغداد – وهذه هي مراكز تعلم الفقه في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين / الثاني والثالث الهجريين، تلك التي أنتجت عدداً من المذاهب الشرعية، وأنتجت شخصيات بارزة تلك تسمّت المذاهب بأسمائهم وأسماء البلد الذي ينتمون إليه). وواقعاً فربما تدهورت وتكسرت أجزاء الإمبراطورية غير أن العلماء كانوا ممثلين ونواباً للحفاظ والوقاية (إنهم ورثة النبي)، (كما عبّر عنه أحد الأحاديث)، وأن التواصل والاستمرارية وعدم الانقطاع لطبقاتهم إنما هو صدىً لتقليد الأسانيد، أسانيد الحديث التي نقلوها أو رووها، المتواصلة وغير المقطوعة، والهيمنة على مجموعة من المهارات، وقراءة مستودع وذخيرة من النصوص المشتركة والمألوفة، بكون العلماء قد صنعوا لأنفسهم تاريخاً مشتركاً ومألوفاً[1].فكتاب طبقات محلي يعزّز الكثير من الإدعاءات والمزاعم، وجميعها ـ بشكل أو بآخرـ تدافع أو تناصر العلماء المحليين والتابعين للأقاليم إزاء منافسيهم، وإن الرواية المحلية لتعلم الفقه كانت مهمة جداً وأساس

[1] أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٥٨.

لإحداث وإنتاج فقه خاص ورواية فقهية خاصة، أي إنتاج تاريخ مكرس لهم (فبعض المدن قد انتجت طبقات والبعض الآخر لم تستطع على إنتاج مثلها)؛ أي أن تجربتها التاريخية، قد تم التعبير عنها وتصويرها بصيغة مؤلفات سير للحياة شديدة الإيجاز ليس فيها إلا إشارات ضمنية وغير مباشرة إلى عالم السياسة وكانت هذه بارزة ومميزة – وفي بعض النواحي كانت واضحة المعالم – وأن التوترات والتبدلات السياسية للحكم الإمبراطورية أو للحكم المحلي، فإن مثل هذه الرواية المحلية قد عزلت المسؤوليات الدينية الوثيقة الصلة بالموضوع على حساب المجتمع الإسلامي ولحسابه أيضاً. وباختصار، فإن الطبقات/ البروسوغرافية المحلية تؤكد وتثبت الهوية الجمعية وتؤكد وضع العلماء، ولما كان هؤلاء العلماء هم أناس من عوائل تجارية ومالكة للأراضي تقريباً، لذلك فإن هذا التوكيد والتثبيت هو مكافئ سياسياً، فإن كانت البروسوغرافيا/ الطبقات المحلية تناصر وترعى من قبل الدولة المحلية لتحكم (أما من خلال التفويض والولاء، وأما من خلال الفتوح) عندئذ تكون الطبقات المحلية أداة لشرعنة إدعاءات الدولة المحلية لتحكم، والطبقات / البروسوغرافية المحلية يمكن القول أنها من أجل أن ترسم خارطة للكيفية التي تجهز وتزود هذه الصفوات المحلية رأسمالها الإقتصادي برأسمال رمزي لمعرفة وعلم مهاب ومعتبر[1].

---

[1] حول النظرة بأن المدارس كانت لأغراض الأبهة والفخفخة الإجتماعية أكثر من كونها لنقل العلم ينظر جمبرلين M.Chambrlain في دراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (العلم والتطبيق والممارسة الإجتماعية في دمشق في العصر الوسيط ١١٩-١٣٥٠) المطبوع في كمبردج ١٩٩٤.

الفصل الثامن

المؤرخون والحقيقة

شهدنا في الفصل السابق إن المؤرخين المسلمين قد أعطوا إلى الله دوراً مهماً ومركزيا في مدى مفهوميتهم للعالم وتاريخه. ورأينا أيضاً أن هذا لم يقصد منه أنهم كانوا لا يقدمون ولا يؤرخون رأياً بالنسبة إلى الإشكالات المتأصلة والملازمة لوصفهم الماضي. مع ذلك فإن هذه الرؤية ـ بالتأكيد ـ لا تجعل منهم مؤرخين سيئين أو رديئين. فإذا ما رتبنا الرواية إلى نوع ما من المخطط التاريخي الكرونوغرافي / الحولي إذن ما الذي يجعل المؤلف مؤرخاً، آخذين بنظر الاعتبار الفهم العملي الحقيقي أو الثقل المناسب الذي ينسجم مع مختلف الأنواع من الأدلة التي تجعل منه مؤرخاً جيداً (في الأقل بالنسبة إلينا). وعلى وفق مثل هذا المعيار فليس هنالك من عجز للقول بأن الكثير جداً من منهم كانوا جيدين. ولما كان المؤرخون المسلمون في بعض الأحايين هم الموضوع المعرض للنقد أو اللوم المفرط، أو اخلاف ذلك بالتهليل والتصفيق فهذا وذاك قد يكون غير متفق مع قواعد النقد النخرية. وأنني سأكرس هذا الفصل الرسم خارطة طرق في مكان ما بين هذين الطرفين أو القطبين المتطرفين.

وثائق ومواقف:

بوسعنا أن نبدأ بإبداء ملاحظة مفادها أن مؤرخينا قد فرضوا مطاليب ومزاعم لأن يكتب المرء بروح نقدية. واليعقوبي واحد من بين المؤرخين الحوليين الأوائل ممن اختلفوا في موقفهم بشأن (الحديث والخبر) الذي يفعله المؤرخون. وبعد اليعقوبي بكثير فقد اتخذ ابن حجر العسقلاني من واحد من أسلافه بأنه قام بعمل دمج، ووحد خيوط جميع صفحات كتابه معتمداً على عمل أو كتاب مؤرخ آخر دون فهم حقيقي للنص، وأحياناً أنه وقع في خطأ فادح مع أنه سلخ ما كتبه غيره. أما ابن القلانسي الذي بإمكاننا القول بأنه وقف بين اليعقوبي وابن حجر شارحاً موقفه بقوله "لقد أكملت رواية الأحداث الموجودة في هذا التاريخ، ورتبتها متسلسلة متخذاً الحيطة والاحتراز من أي خطأ أو طيش في الحكم ومن زلّات أو إهمال وعدم اتقان في المعلومات التي دونتها ونقلتها من أفواه الناس الثقة، بعد بذل قصارىٰ جهدي في جعلها استقصاءات كاملة أو تحقيقات تامة بغية تثبت صحتها". حالياً جميع هذه الكلمات الجميلة هي كلمات مبرمجة، ومع كونها أكيدة وحقيقية، وذلك من أجل إعادة صياغة بهدف التوضيح نشير إلى قول أحد المؤرخين في فرنسا، والذي يفيد أنه بقدر ما يكون المؤرخون هم مرشدين وجديرين بالثقة في عملهم بقدر ما يكون السياسيون بما يخص سياستهم، وليس هناك من تساؤل بأن روح من النقد الكثير في التدوين التاريخي الإسلامي ، في علم التاريخ الإسلامي، ولاسيما خلال الحقبة المتأخرة[1].

---

[1] اليعقوبي، تاريخ جزء ٢، ص ٣؛ حول ابن حجر في كتابه أنباء الغمر جزء ١ ص ٣؛ وحول ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٨٣، ولكنني قد اعتمدت على ترجمة معدّلة قليلاً قام بها جب H.A.R.Gibb في كتابه أو ترجمته الكتاب باللغة الإنجليزية بعنوان
The Damascus chronicle of the Crusades

بالنسبة إلى كثير من المؤرخين فقد كانوا حذرين من البينات والأدلة المتناقضة، وكذلك من التلفيق والاختلاق، ومن المبالغة والتحزب، ومن استحالة ضروب من المعرفة التاريخية (واعتماداً على ما ذكر لي أو قيل لي) أو (بقدر ما بوسعي قوله) أو (وهذه الرواية أصحّ من تلك) أو (وهذا يزعم، ولكن ... الخ) أو (مثل هذا ما روي، لكنّ الله فقط هو العالم) — فهذه التعبيرات والكثير منها المماثلة الأخرى، وهي تعبيرات موجزة ومتوافرة تقريباً في الرواية، ولا سيما في التاريخ الكرونوغرافي الحولي. فقد رفض الصفدي (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م)* رواية تخصّ معاهدة فتح منطقة بقوله إنها مزورة وذلك لأنها تحمل تاريخا قد وقع قبل أن يكون نفسه تاريخ الفتوح "لقد أرخت المعاهدة قبل أن تسقط المدينة المذكورة بأيدي المسلمين". ووضع ابن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) حدوداً مقبولة تماماً على علم أو المعرفة التاريخية في مسألة فتوح الاسكندر الكبير (طالما أن التأييد أو التوثيق أنذاك كان مستحيلاً). وجعل هذه المعرفة التاريخية متوقفة على النقل، نقل الرواية، المكتوبة. وابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣) مؤرخ سوري قد كتب تاريخه في أوج التدوين التاريخي المملوكي، وكان حذراً من أن الإسرائيليات مشكوك في قيمتها، والإسرائيليات هي قصص قرآنية إضافية بشأن الأنبياء اليهود، وقد أكد لقارئه وأعاد طمأنته بأنه سوف يروي ما يتفق مع حقائق القرآن والسنة فقط (طالما أن حقائق القرآن والسنّة لا يقبلان جدلاً أو شكاً). ومثل

المطبوع في لندن ١٩٣٢، وأعيد طبعه ١٩٦٧ ص ١٠ المؤرخ الفرنسي هو ثيودور زيلدين Theodore Zeldin في الكتاب الذي ألفه أيفانز Evans, R.J. باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(في الدفاع عن التاريخ) المطبوع في نيويورك – لندن ١٩٩٧؛ وحول مناقشة عن مقدمة مضللة بشكل واضح ينظر هماد B.H.amad في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (تاريخ وسيرة حياة) المنشور في مجلة أرابيكا Arabic مجلد ٤٣ (١٩٩٨) ص ٢١٥-٢٣٢.

* هناك من يرى أن صلاح الدين بن خليل بن ايبك الصفدي قد توفي سنة ٧٦٤/ ١٣٦٢ [المترجم]

كاتب اليوميات الذي أتينا على ذكره آنفاً إذ يروي أخباراً عن حيوانات وحشية وعن أمهات ميتات وأطفالهن يرضعون الحليب من صدورهن، فالكاتب يعلم أن هذه الروايات قد تكون مبالغ بها ولذلك نراه يقدم ويدلي ببينة من زائرين قدموا حديثاً من أجل أن يتثبت من الإشاعات عن زلزال. وهنا ـ كما هو الحال في أي مكان آخر ـ فإن دليل أو شهادة شهود العيان قد يفوق الأخبار المنقولة شفوياً. وأبو شامة (ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م) فإنه يصحح رواية ابن الأثير، معتمداً على خبرته وتجربته، بخصوص فهمه لطوبوغرافية خطط، مدينة مكة،المؤرخ نفسه يفضح الزيف والفبركة حول شجرة نسب أول خليفة فاطمي، عبيد الله (ت ٣٢٢/ ٩٣٤) وذلك بالإشارة إلى كتب عن شجرة الأنساب العلوية[1].

وواقعاً فإن أي مؤرخ يقمع حقيقة أو وجهة نظر ويحظرها فبوسع المرء بصورة اعتيادية أن يجد مؤرخاً يزوده بمثل تلك الحقيقة، كذلك الحال بالنسبة إلى أي مؤرخ له ميل بذكر المعجزات والأحداث الخيالية فبوسع المرء أن يجد مؤرخاً آخر له المقدرة على تسقيط الأخبار والمعلومات الوثائقية (أو أي مؤرخ آخر الذي يحتضن ويتقبل الحالتين). كذلك فإنه لا ريب في أن المزاج المتعلق بالأرشيف يدعم بقدر كبير الكتابة التاريخية، عن طريق الرغبة في تدوين نسخ من الوثائق المهمة وحفظها. ويتراءى للمرء أن هذه السمة في الرواية قديمة كقدم الرواية نفسها. فقد لحظنا بالفعل أن (دستور المدينة) قد وجد مكاناً له في سيرة ابن إسحاق، مع عدد متنوع آخر من المعاهدات والاتفاقيات، والرسائل والخطب هي الأخرى قد وجدت طريقها في رواية

---

[1] وحول الصفدي ينظر الوافي بالوفيات جزء ١ ص ٤٤ وما بعدها من الصفحات، وحول ابن حزم رسائل ابن حزم جزء ص ٧٩؛ وحول ابن كثير البداية والنهاية جزء ١ ص ٦؛ وحول كاتب اليوميات ينظر جورج مقدسي (السير الذاتية ا) ص ٢٤٤-٢٥٦؛ حول ابن شامة ينظر كتاب الروضتين الجزء الأول (القسم ٢، ص ٣٤٩، وما بعدها وصفحة ٥١٠).

الفتوحات في أواخر القرنين الثامن والتاسع الميلاديين/ الثاني والثالث الهجريين. وحالياً فإن الكثير من هذه المواد الوثائقية هي غير حقيقية وغير أصيلة بشكل واضح، لما تحتويه من عدد من المفارقات، فرؤية التدوين التاريخي لأناس عاشوا في حقبة أصبحت نسبياً إمبراطورية إدارية وبيروقراطية حسنة النظام والتنظيم (في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري) قد فرضت دبلوماسيات محكمة ودقيقة وصيغ على عالم القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري ذلك القرن الذي يعد بسيطاً في أي شيء ما عدا أن يكون ذا ثقافة دبلوماسية متواضعة جداً، وليس كما تصوره تلك المعاهدات والاتفاقيات. والشكر مرفوع إلى الكتّاب والدواوينين الإداريين إذ أسهموا بشكل كبير جداً في لرواية، ولا سيما في القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس الهجري، إذ نجد سيلاً من المواد والمعلومات الوثائقية الموثوقة والموثقة دخلت إلى المصادر التاريخية وأخذت تنمو وتتنامى بشكل أقوى بالشكل الذي يظهر للعيان في التاريخ: حتى بالنسبة إلى أولئك المؤرخين الذين كانوا بعيدين عن البلاط الحاكم والإدارة كثيراً ما كانوا يذكرون الوثائق الرسمية بالتفصيل in extensor. والمثال الأكثر إثارة للإعجاب من هذه الحقبة كون الوثائق التي صيغت لهارون الرشيد بما يتعلق بتخليفه المنحوس والسيء الطالع. فاعتماداً على الروايات التأسيسية أن هذه الوثائق حينما نصبت وأشهرت لأول مرة من أجل تعليقها في الكعبة سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢ (فإنها وضعت داخل أسطوانة من الفضة بحسب إحدى الروايات) لكنها سقطت على الأرض؛ وأن هذا الحادث ـ كما قيل ـ يعد نذيراً بانهيار ترتيبات الخلافة واندلاع الحرب الأهلية بين أبني هارون مباشرة بعد موته سنة (١٩٤هـ/ ٨٠٩م).(١٧٠).

ولذلك فإن المراسلات الرسمية (إن كانت أصلية أو نسخ من الأرشيف) أو السجل، والرسائل الرسمية التي كان يحملها الموفدون، ووثائق أخرىٰ من مختلف الأصناف (مثل وثائق تقليد لمنصب، أو مذكرات للتعهدات أو عقود أو مآثر أو إنجازات أو عرائض التماس، أو إطراءات ومدائح) كانت كثيراً ما يستشهد بها عند مؤرخي الدواوينيين، أو الإداريين من المؤرخين القضاة الذين كانت دوائر عملهم تمنحهم حرية الوصول إلىٰ معلومات من هذا النوع. وإن تعيين أهمية وقيمة مدىٰ مصداقية هذه المعلومات هو في الواقع موضوع غير يسير، ولكنه ليس بالمستحيل.فمن جهة، فإن حضور أو وجود المعلومات الوثائقية في الرواية التاريخية بالإمكان تفسيره وشرحه في حالات كثيرة عن طريق استعمال تعبيرات أدبية، طالما أنها قد تسبغ المصداقية علىٰ الكاتب في الموضع أو المنصب الملائم، وقد يعمل علىٰ تغيير البنية الجوهرية لما يمكن أن يكون. فيقال، بأننا نستخف بمؤرخينا إذ ما قمنا بتفسير المعلومة الوثائقية حصراً بلغة منمقة. فحينما يقتبس أحد المؤرخين القضاة في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري كثيراً من صكوك نقل الملكية العقارية التي كتبت في أوائل القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة، فإن هذا القاضي المؤرخ بالتأكيد يسعىٰ إلىٰ لفت الأنظار عن حريته في الوصول إلىٰ أرشيف من وثائق الدولة الذي يتمتع به كقاض بسبب قربه منها، غير أنه من جهة أخرىٰ يسلط الضوء علىٰ الجذور الإجتماعية لممتلكات واحد من أكثر العوائل البارزة في مدينته – بمعنىٰ أنه يقدم دليلاً وبينة لشرح الدور البارز في سياسة المدينة، وعماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) يعتمد في سيرة حياة صلاح الدين علىٰ يوميات، فضلاً عن عدد متنوع من المذكرات والوثائق والمراسلات شخصية وشبه شخصية (ففي

أعقاب إحدى المعارك التي وقعت سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م حيث أمضى ليلة يدوّن فيها أسماء الأسرى الذين وقعوا في الأسر)[1].

فبالنسبة إلى إداري خبير مثل عماد الدين فإن التدوين والتوثيق يعدّ جوهرياً وحرياً بالكتابة نفسها. وابن العديم (ت ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م) يقتبس مرسوماً بشيء من التفصيل يعلن ذلك المرسوم إلغاء الضرائب في سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦، والوثيقة كانت بحوزته (معنونة) ونحن نعيد توكيدها (بعلامة – توقيع) للحاكم بأمر الله.فهذه كانت عينة من الإعلام والدعاية التي أصدرها الحاكم الشيعي الإسماعيلي خليفة الدولة الفاطمية (التي حكمت من سنة ٣٥٩/ ٩٦٩ إلى ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م – دولة النبوة – بلغة المرسوم – فهذه العبارة لم تمنع هذا المؤرخ السني من أن يشاطر قراءه فيها. ففي عالم حيث الإعلانات الرسمية لم يقتصر قراءتها في الجوامع، إنما كانت تلصق على جدار المسجد الجامع وأسوار السوق وعلى طول امتداد شوارع المدينة، وهذا هو ما قد نتوقعه. وأحياناً بوسعنا أيضاً موازنة نسخة من وثيقة أصلية مع نسخة أخرى طبق الاصل في أي تاريخ نظير الحال المتمثلة عند أحد

---

[1] حول الوثائق المتعاقبة اعتمدت على الطبري، تاريخ مجلد ٣ ص ٦٥١ وما بعدها من الصفحات التي ترجمها فشباين M.Fishbein بعنوان باللغة الإنجليزية (الدولة العباسية في الميزان) المطبوع في الباني Albany ١٩٨٩، ترجمة الطبري مجلد ٣٠، ص ١٧٩ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك ينظر الأزدي الموصلي، تاريخ الموصل ص ٣٠٢؛ وحول مناقشة لجميع الروايات الأساس ينظر كمبير R.Kimber في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (تسوية هارون الرشيد في مكة في سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م) المنشور في مجلة أوراق مناسبية عن المدرسة الدراسات العباسية Occasional Papers of the School of Abbasi Studies وحول الوثائق والأرشيفات بصورة عامة ينظر كاهين Cahen في دراسته باللغة الإنجليزية المذكورة آنفاً بعنوان (مقدمة) ص ٥١ وما بعدها من الصفحات، كذلك ينظر همفريز Humphreys في دراسته باللغة الإنجليزية المذكورة آنفاً بعنوان (التاريخ الإسلامي) ص ٤٠ وما بعدها من الصفحات؛ وحول خلفية ينظر خوري R.G.Khouri محقق كتاب باللغة الألمانية الموسوم بـ
Urkunden und Urkunden formulare im Klassischen Altertum und in den orientalischen lutluren
المطبوع في هايدلبرغ Heidelberg ١٩٩٩.

المؤرخين الفاطميين. فضلا عن ذلك فأن المعاهدات بين المسلمين والبيزنطيين أو بين المسلمين والصليبيين قد اختيرت من رواية ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين/ الرابع والخامس الهجريين، إذ ليس أقل من إحدى عشرة معاهدة قد كتبت لمصلحة السلطانيين المملوكين الظاهر بيبرس (الذي حكم من ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠ إلى ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) وقلاوون (الذي حكم من سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م إلى ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م)، فإن هذه النصوص للمعاهدات قد أفردت وأشير إليها في رواية متأخرة، فست من هذه الوثائق جاءت من سيرة الحياة الملوكية لابن عبد الظاهر وهي سيرة حياة قلاوون. وجميع هذه الوثائق تلقي ضوءاً ساطعاً ومباشراً على سياسة المماليك تجاه أرمينية وبيزنطة والمسيحيين الغربيين وعلى العلاقات الدبلوماسية معها[1].

---

[1] وعن الوثائق واللغة المنمقة ينظر ميسمي Meisami في الدراسة باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا الموسومة بـ (التدوين التاريخي الفارسي) ص ٢٩٠ وما بعدها: والمؤرخ المحلي والقاضي هو الأزدي الموصلي: تاريخ الموصل ص ٢١٤، ينظر ريتشاردز Richards في البحث باللغة الإنجليزية المشار إليه آنفا(عماد الدين الأصفهاني) وخاصة ص ١٣٨ وما بعدها من الصفحات؛ أيضاً ينظر خان M.S.Khan في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (استخدام الرسائل والوثائق في التاريخ المعاصر لمسكويه) المنشور في مجلة (IQ) مجلد ١٤ (١٩٧٠) ص ٤١-٤٩؛ وحول ابن العديم ينظر كتابه زبدة الحلب في تاريخ حلب (دمشق ١٩٦٨) جزء ١ ص ٢١٤؛ أيضاً حول المؤرخ الفاطمي ينظر بريت m.Brett في البحث باللغة الإنجليزية (التدوين التاريخي الفاطمي: دراسة – النزاع مع الزياريين من سنة ١٠٤٨-١٠٥٨): المنشور في الكتاب الذي حققه مورغن Morgan باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(الكتابة التاريخية في العصر) ص ٤٧ وما بعدها من الصفحات: وحول الملصقات الرسمية ينظر أبو شامة: كتاب الروضتين جزء ١ (القسم الثاني) ص ٥١٣ (الواقع أن الكتاب مملوء بوثائق مقتبسة)، وحول كيف أن أحد المؤرخين وصل إلى وثائق رسمية، ينظر البلوي، سيرة أحمد بن طولون ص ١٠٠ وما بعدها؛ ينظر أيضاً روزنثال في دراسته المشار إليها آنفا الموسومة بـ (تاريخ) ص ١١٨ وما بعدها من الصفحات؛ وحول المعاهدات البيزنطية الإسلامية ينظر كابلوني A.Kaplony في دراسته باللغة الألمانية الموسومة بـ (القسطنطينية ودمشق: حول العلاقات بين القياصرة والخلفاء من سنة ٦٣٩-٧٥٠) وعنوانه باللغة الألمانية:
Konstantinople und Damaskus: Gesandtscha- ften und Vertrage zwischen Kaisern und Lalifen 63-9-750.

وهناك الكثير من المعلومات الوثائقية قد نسخت في رواية التدوين التاريخي هي مهمة كثيراً، بما أنها صارت متوافرة إلى المؤرخين المحدثين في الوقت الحاضر وتقدم توثيقاً رسمياً ودقيقاً ومفصلاً، ومنفعة، التي تدربوا عليها بانتظام لحاجتهم الماسة إليها، ولكنها بصيغها الأصلية تعد قليلة في أشباع رغباتهم. وأن الأصول منها قد أنتج بأعداد وافرة ويعدّ هذا أمراً لا جدال فيه: فمجال أعمال الدواوينية الحكومية والعسكرية منها والمدنية كان واسعاً، فضلاً عن عمل المؤسسات الخاصة وشبه الخاصة نظير الجوامع والمدارس والمكتبات. فجميع هذه المؤسسات قد انتجت عدداً وافراً من الوثائق.

والسؤال المهم هو متى انشأت هذه المؤسسات على وجه الدقة لكي تضم وثائق أرشيفية؟ إنه سؤال من الصعوبة الإجابة عنه. ففيما يتعلق بالدولة، فإن الرواية نفسها تنسب الأمر بصورة عامة إلى الخليفة عمر (حكم بين سنتي ٦٣٤-٦٤٤م)؛إذ وضع التطبيقات الأرشيفية في موضعها، مع أن عمرا قد نسب إليه عدد كثير من المبادرات الإدارية، والمرء قد يفكر بأن هذه الأعمال ترجع إلى حقبة متأخرة: فاعتماداً على بعض المصادر أن نسخاً من المراسلات الرسمية قد استهلها زياد بن أبيه والي المشرق (العراق والجزء الأكبر من إيران) خلال عهد معاوية بن أبي سفيان (حكم من سنة ٦٦١-٦٨٠م) فقد كانت حتماً في الموضع الملائم خلال الحقبة العباسية الأولى

المطبوع في برلين ١٩٩٦؛ وحول المعاهدات الصليبية ينظر كوهلر M.A.Kohler في الدراسة باللغة الألمانية الموسومة بـ (التحالفات والمعاهدات بين الفرنج والمسلمين في الشرق) والدراسة باللغة الألمانية هي
Allianzen und Vertrage zwischen frankischen und islamischen herrschern im Vorderen orieut
المطبوع في برلين ١٩٩١؛ وحول معاهدات المماليك ينظر هولت P.M.Holt في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الدبلومارسية المملوكية المبكرة ١٢٦٠-١٢٩٠م) معاهدات بيبرس وقلاوون مع الحكام المسيحيين، المطبوع في ليدن ١٩٩٥.

وسؤال آخر هو متىٰ نمت الدواوينية الإمبراطورية بسرعة إن كانت في حجمها ومقدارها وتعقيدها؟ وعلىٰ أية حال، بالإضافة إلىٰ وجود قليل من الاستثناءات (فالمشهور مثلاً وثائق ديرسنت كاترين st.catherin في سيناء، ووثائق المماليك في القدس والقاهرة)، فإن الثمين القليل قد ظل باقياً لما قبل الحقبة العثمانية، وأن ما تم اكتشافه بصورة عامة كان تدريجياً وشيئاً فشيئاً وهي وثائق إلىٰ حد ما سليمة لم تمس[1].

فلم صار مثل هذا؟ الجواب هذا ظرفي من جهة، واقتصادي بجزئه الآخر، وثقافي في جزئه الثالث. إذ قد شهدنا بالفعل أن الوسيلة التي جاءت عن طريقها هذه الوثائق قد صنعت – من أنسجة خشبية، كانت في العادة تضغط فتكون أوراقاً للكتابة – وكانت رقيقة وهشة، ومع أن الورق كان رخيصاً وهينا في الاستعمال موازنة بالرق وأوراق البردي وهذا هو السبب الذي حل الورق محل الاثنين في حقبة أبكر تقريباً، وواقعاً فإن الورق في المناخات الحارة والرطبة موازنة بالإثنين غير متين إلىٰ حدٍّ ما، ولا يتحمل كثيراً من تلك الخصائص. (علماً بأنه ليس دائماً وباستمرار رخيص السعر في

---

[1] حول زياد ينظر اليعقوبي، تاريخ جزء ٢ ص ٢٧٩ (وضع النسخ للكتب؛ وحول دليل ضعيف عن الأرشفة المبكرة ينظر برفمان M.M.Bravmann في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ارشيفات الدولة في الحقبة الإسلامية المبكرة) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ١٥ (١٩٦٨) ص ٨٧-٨٩ وقد أعيد طبعه في في كتابه (أي برفمان) باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الخلفية الروحية للإسلام المبكر) المطبوع في ليدن ١٩٧٢؛ وحول وجهة نظر بشأن معلومات سنت كاترين ينظر رويمر H.R.Roemer في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (وثائق سيناء وتاريخ العالم الإسلامي: - حالة الفنون – واجبات أو مهمات المستقبل) المنشور الكتاب الذي حققته وداد القاضي باللغة الفرنسية الموسوم بـ(دراسة عربية وإسلامية: مقدمة إلىٰ إحسان عباسي في عيد ميلاده الستين) المطبوع في بيروت ١٩٨١، ص ٣٨١-٣٩١ (وجود عينات من حقبة واحدة في دراسة شتيرن S.M.Stern الموسومة بـ باللغة الإنجليزية (مراسيم فاطمية: وثائق أصلية من الأرشيف الفاطمي) المطبوع في لندن ١٩٦٤؛ أيضاً ينظر لتل D.P.Little في البحث باللغة الإنجليزية الموسومك بـ(وثائق مصدراً عن المماليك) المنشور في مجلة MSR مجلد ١ (١٩٩٧) ص ١-١٣.

مسألة إعادة استعماله كما أنه غير جذاب، وأن العلماء والإداريين على حد سواء كانوا كثيراً ما يعيدون استعمال صفحات من الأوراق عن طريق مسح الأجزاء المستخدمة). والورق ايضاً سهل الاحتراق، وفي مواضع من سوريا ومصر، حيث الوقود غير كاف،عندئذ يمكننا فهم السبب الذي أدى إلى أن كثيرا من الأحمال من الأعمال والكتابات المكتوبة على الورق تغدو مادة لتغذية التنانير للطبخ والحاجة إلى النار للتدفئة. وقد كانت الوثائق الرسمية كثيراً ما صارت ضحية للتمزيق والعنف الذي رافق التبدلات التي تواجهها الدولة، ففي الدويلات الجديدة يحتمل أنهم كانوا يتخلون عن العواصم القديمة ويتحولون إلى مدن جديدة، فمثلاً يذكر أن الأمين بن هارون الرشيد قد أحرق (أو أمر بحرق أو تمزيق) الوثائق الخاصة بالتعاقب على الخلافة تلك التي أظهرت كيف أنه يحكم جنباً إلى جنب مع أخيه المأمون. وأخيراً فإن المواقف الثقافية كانت فعالة ومؤثرة أيضاً، بما أن المؤسسات الأرشيفية (كما كانت آنذاك) الخاصة وشبه الخاصة المتوافرة عند الجماعات المسيحية في الشرق الأدنى (مثال على ذلك ديرسنت كاترين) ويبدو أن ذلك صار كحالة للموازنة بتلك المؤسسات الإسلامية المتعاصرة معها.ولعلنا نستطيع القول، من هذه الزاوية، إن واحدة من المهمات والوظائف في التدوين التاريخي هو أرشفت التدوينات والسجلات بصيغة أدبية تعدّ من جانب آخر قابلة للاستهلاك.

لقد تحدثنا في السابق عن روح النقد عند مؤرخينا بصورة عامة المطلقة، وبالطبع فإن هناك تغيير بمرور الوقت. فكاتب سيرة الحياة الذي كان حذراً ومحتاطاً من أي زلل أو تسرع في إبداء الحكم، أصبحت هذه الصفات في القرن الثاني عشر للميلاد/ السادس الهجري، وأن العديد من المؤرخين المتعاصرين لهذه الحقب والحقب اللاحقة يبدو أنهم اعتمدوا على

خبراتهم وتجاربهم في الحقل للكتابة باتزان واضح ورباطة جأش عن أي من كتب المؤرخين الذين تنقصهم في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين، أولئك الذين في العادة كانوا يكتبون عن الأحداث في القرنين السابع والثامن الميلاديين / الأول والثاني للهجرة.ولعل خلفية المحدّثين قد قدمت أسانيد مقبولة ومرضية، مع أن الاستثناءات المشهدية والمثيرة للتعجب يمكن وضعها جانباً، وهذه السمة قد منحت هؤلاء المؤرخين قليلاً من التبصر والرؤية لمعرفة كيف لمعارك أن تكسب وتنتصر أو تخسر، أو كيف للسياسة أن تعمل فعلياً وواقعياً؟ ففيما يتعلق الأمر بالبنية النصية والتفاصيل فليس هناك من شيء مكتوب خلال القرون الثلاثة الأولى من الإسلام يمكنه أن يضاهي روايات ابن شداد المثيرة والمفهومة جداً عن حصار عكا Acre في سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩١م أو فتح صلاح الدين. فقد كان هناك، شاهد عيان، وهو يراقب كيف اقتحم الجيش الإسلامي سور القصر أو الفناء المطوق بسور لقلعة الصليبيين، القلعة التي سرعان ما سلمت وقبل مدة وجيزة فقط، فيقول "كنت أشاهد رجالنا يستولون على قدور الطبخ التي كان الطعام معداً فيها تواً، فأكلوا بينما كانوا يحاربون فيه ضدّ القلعة".فينظر الى هذا النوع من المعلومات وكأنها تكتب حالياً (وليس من الغرابة والمصادفة أن كتيباً عسكرياً صار كتيباً مألوفاً واعتيادياً في هذه الحقبة). والواقع بوسعنا فعلاً أن نكتب تاريخاً عسكرياً حقيقياً وليس فقط تتضح هذه الرؤية بما تتحدث به المعارك، بل وايضا بما يقوم به السياسيون أيضاً. فابن الفرات (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) مثلاً كتب بشكل واضح المعالم وبشكل قاطع قائلا:- إن الملك المعظم، الحاكم الأيوبي في مصر (الذي حكم بين سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م إلى ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م) فيقول إن أمورا كثيرة كانت متوقعة مما يعمله ويقوم به هو نفسه. إلّا أنه كان متقلباً Fickle ولا يتسم بالدبلوماسية وهو

فضلا عن هذا غير معني بالسياسة: إذ قدّم المؤرخون رواية على أثر رواية، يظهرفي جميعها علاقته بخدامه المماليك الذين كانوا عاملا في اغتياله؟ إنها حادثة يزود ابن الفرات ما لا يقل من ثلاث روايات بشأنها. ولكل ما ورد من معلومات فإن نهايتها كانت مثيرة ومؤثرة، إنها نهاية يستحقها تماماً، ذلك لأنه أخفق في توفير المكافآة والدعم المالي، وهو العمود الفقري الذي يتطلبه النظام السياسي، لذلك فقد تخلى عنه أولئك الذين كان هو البادئ في التخلي عنهم. وعلى هذا الأساس فقد ذبح وترك جسده عارياً ودون دفن مدة ثلاثة أيام، فبدت جثته وهي "منتفخة على ضفة نهر النيل دون أن يجرأ أحد من المارة على مساعدته". ومؤرخون مبكرون كانوا كثيراً ما يفكرون بالشيء نفسه في موضوعاتهم غير أنهم لم يتمكنوا إلا في النادر من أن يجعلوا آراءهم واضحة جداً[1].ولنأخذ مثالاً آخر هو أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١) فقد كان من عائلة الأمراء في مدينة حماة السورية، وبعد سنوات من مناورته السياسية، نال ولاية مدينته في سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، وفي خلال سنتين بعد ذلك ابتدأ في ممارسة الحكم الذاتي، حتى أنه لقب بلقب السلطان من قبل الخليفة. وكان شاهد عيان للكثير من الأحداث التي رواها؛ وبما أنه كان مؤرخاً ورجل سياسة في الوقت نفسه، فقد كان مراقباً متحمساً للرجال في المسؤولية

---

[1] أخذت ترجمة النوادر السلطانية لبهاء الدين بن شداد من ريتشاردز Richards في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (تاريخ نادر ومن الطراز الأول لصلاح الدين) ص ٨٥ (وحول أصل الكتاب ينظر سيرة صلاح الدين ص ٩١) يقول: (لقد كنت فوتوغرافية وخرائط لصهيون ينظر سميل R.C.Smail في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الحرب الصليبية ١٠٩٧م–١١٩٣م) المطبوع في كمبردج ١٩٥٦؛ حول الكتابة عن التاريخ العسكري في هذه الحقبة ينظر شتنز مللر M.Shatz Miller في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الحرب الصليبية الإسلامية – إعادة تقويم) المنشور في مجلة (DI) مجلد ٦٩ (١٩٩٢) ص ٢٤٧–٢٨٨؛ وحول المعظم ينظر ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك (تحقيق وترجمة لايونز U.and M.C.Lyons بعنوان باللغة الإنجليزية هوAyyubids, Mamluks and crusaders
المطبوع في كمبردج ١٩٧١ جزءا ١ ص ٣٩ وما بعدها من الصفحات وجزء ٢ ص٣٢ وما بعدها من الصفحات.

وباطماعهم وشهرتم ومجدهم وجشعهم وعدم كفايتهم. وهكذا نقرأ عنده أن المغول قد دحروا جيشاً مملوكياً في ٦٩٢هـ/ ٢٣ كانون الأول ١٢٩٩، ويرجع السبب في هذا الاندحار إلى (أن القوة الإسلامية كانت ضعيفة جداً بسبب التدبيرات الإدارية السيئة وبسبب الفساد الكبير)؛ وقد بين سبب الاندحار في معركة أخرى سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥، بمثل ذلك الشرح في الأسلوب والطريقة فقال (إن قشتمر "وهو قائد مملوكي أرسله والي حلب" كان ضعيفاً ذو عقلية ضيقة وعاجز عن التدبير والنظام، وكان مسرفاً في شرب النبيذ، ولهذا فشل في السيطرة على عسكره، فلم يكن لديه معلومات استخبارية عن جيش العدو، فاستخف بهم). وترك أبو الفداء حيزاً كبيراً للعوامل الدنيوية، بمعنى أن مؤرخاً عسكرياً ربما في أيامنا هذه يدلي أو يروي شارحاً أسباب هذا الاندحار. ومرة أخرى ليس هناك من شك بأن هذه العوامل نفسها كانت كثيراً ما تؤدي دوراً في المعارك التي حدثت مبكراً في تاريخنا، ولكنها محددة كما هو الحال عندنا بروايات دمجها أو كتبها المشرعون والمحدّثون، فإننا بالكاد نعلم هكذا من النصوص نفسها[1].

التقاليد المتبعة الكلاسيكية والتوقعات الحديثة:

وعلى الرغم من نفاذ بصيرة كل من أبي الفداء وابن الفرات فإنهما كانا يختلفان عن المؤرخين العسكريين والسياسيين الذين سنعالج موضوعهم الآن. ويرجع ذلك إلى أنهما بقيا على ولائهما ورؤيتهما بالنسبة إلى مركزية الله في

---

[1] حول أبو الفداء ومشهده في المعركة ينظر هولت P.M.Holt في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(مذكرات أمير سوري: أبو الفداء سلطان حماه ٦٧٢-٧٣٢/ ١٢٧٣-١٣٣١) المطبوع في فيسبادن ١٩٨٣، ص ٣٥ وصفحة ٤٤ وما بعدها (والترجمة له) وأيضاً (للتل D.P.Little) في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(مقدمة للتدوين التاريخي المملوكي) المطبوع في فيسبادن ١٩٧٠ ص١٤٢ وما بعدها من الصفحات.

العالم الذي سبق لي أن وصفته آنفاً، فاذعنا كثيراً إلى التحديدات الصارمة لبياناتهم وأدلتهم، وألزما ، فسيهما بل سلما بالأداء الأخلاقي والمواعظي didactic للكتابة التاريخية، وبكلمة أخرى، فإنه على الرغم من أن المؤرخين المسلمين قبل الحقب الحديثة قد مارسوا كثيراً تقديراً وحكماً قوياً وصائباً، وعلى الرغم من مجاهدتهما بصعوبة وعسر في سبيل الحصول على أفضل المصادر، وعلى الرغم أيضاً من تطلعاتهما إلى تقرير وتصوير دقيق للماضي، ولكنهما ظلا مؤمنين بآله واحد لحقبة ما قبل الحديث.ولقد لحظنا أن العناصر المكونة للتاريخ قبل الإسلام والتاريخ الإسلامي المبكر، مثل تعاقب الأنبياء في الجزيرة العربية وكذلك مجرى حياة محمد نفسه، مدينة بعض الشيء إلى النماذج الأسطورية الواضحة في التوراة العبرية،وكما هو الحال في السيرة التي يمكن صياغتها على وفق أنموذج من القصة أو الرواية التوحيدية المبكرة فإن التاريخ الكرونوغرافي / الحولي المتأخر قد صيغ أو شكّل على وفق هذه القصة أو الرواية أو حتى على وفق السيرة نفسها: فالأمين والمأمون يتصرفان كأخوين متصارعين ومتنافسين على خلافة والدهما هارون الرشيد، وهما قد جعلا نفسيهما بحال مشابهة للحال الموجودة في تواريخ الكرونوغرافية الحولية للقرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري لقصة هابيل وقابيل في التوراة العبرية. كذلك بشكل مماثل فإن معركة المماليك ضد المغول ممكن أنها صيغت وصنعت ـ لتكون بشكل مباشر ـ على المنوال الذي وقع بعد إحدى معارك النبي التي وصفت في السيرة، حينما أرسل الله جنوداً ملائكة للقتال جنباً إلى جنب معه ضد المكيين الكفار، فقد كان الجناح الأيمن للجيش المملوكي تحت قيادة سيف الدين قبجاق (وهو قائد مملوكي) قد انهار وتراجع قبل من مواجهة المغول، غير أن الله هاهنا، وتقريباً بشكل حرفي نقول dens ex machine(ما معناه حرّك محركه) فجاء لإنقاذ الجيش المملوكي بارسال

(نجدته وإمداداته) نحو مركز الجيش وجناحه الشمالي. وهكذا اندحر المغول كما يمكن التنبوء به وفي هذه الحال فإنه من الواضح أنها حادثة لها جاذبية في خطتها (فالله إنما يساعد الذين يفضلهم ويختارهم بهدف دحر أعدائه)- وهي حاله لم تقتصر على المؤرخين المسلمين فحسب، فالإسرائيليون قد نصروا للخروج من مصر من قبل ملك، وكان المؤرخون المسيحيون أيضاً متعودين على إدراج الملائكة والقديسين في جيش المسيحيين (في تاريخ الفونسو الثالث chronicle of alfonso III يذهب إلى الحدِّ الذي يوجه به سهام المسلمين توجيهاً وتصويباً مباشراً باتجاه ضريح العذراء).فالخطة أو المخطط هكذا يقدم عرضاً لبشائر النجاح والوعد بجميع الوسائل للتلميح والتضمين والتبلور، ولاسيما عندما نأخذ بعين الاعتبار الدور المهيمن في الحرب على ما هو في السياسة وفي القصة التاريخية. وفي حال كالتي مرّ ذكرها، فحيثما كان الجيش الإسلامي يقاتل جيشاً غير إسلامي، فيكون المشهد أن الرواية يرويها المؤرخ باسم الشخص الثالث أو الغائب، فالدين الذي يدين به المؤرخ أبو الفداء لابن إسحاق كاتب السيرة جليّ إلى حد كبير إذ كان يأخذ منه بشكل أعمى، إن لم يكن بالضرورة بشكل مباشر، ذلك لأنه وفي زمن أبي الفداء صارت مسألة مساعدة ونجدة الملائكة حالة متكررة ومتواصلة في رواية الحرب، وفي بعض الجوانب أصبحت أسطورية وخيالية. وفي حالات أخرى، التي تعد أقل وضوحاً من تلك، ولكنها بالتأكيد لم تكن أقل تأثيراً. فاسامة بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) يعدد في مذكراته ويومياته كيف أنه وجد نفسه جالساً قلقاً على حافة جبل، وهو يقاوم لئلا أو خشية أن يتدحرج منحدراً نحو أسفل هذه القمة. وفجأة يظهر له رجل، جاء بمعجزة لانقاذه من الانحدار فيقول (فقدّم إليّ من الجبل وامسكني بيده، وكانت يدي الأخرى ما زالت ماسكة بظهر الحصان، إلى أن أوصلني إلى القمة. والله أنني

لم أكن أعرف هذا الرجل ولم أره في حياتي قط... ولم أره مرة أخرىٰ.. فهو ملك ليس إلا قدر أرسله الله لإنقاذي، ومساعدتي) وحسبما نرىٰ أن أسامة ها هنا يدمج رواية من خبرته وتجربته بأجزاء تلك التي تشكل جزءاً من الحالات المتكررة – إذ الجيوش الإسلامية تحارب جيوشاً (فالراشدون والصالحون) كانوا يحاربون وهم خائفون، ثم يأتي دور الله للنجدة والمساعدة لمن يشاء. مثل هذه التي تتضمن أسطورة وخيالاً قد دمغت وبصمت صيغ وأشكال التدوين التاريخي[1].ولحدّ الآن فليس من الغرابة والدهشة إن الله (أو أحد المفوضين منه) قد يظهر ويتجلىٰ كأداة أو دليل في العملية التاريخية، فبقدرة واستطاعة الله، إن شاء، يقطع صمته من أجل توجيه الأمور البشرية بعدد من الطرق، ومن بين هذه الطرق، المعجزات التي كانت في عدة مواطن بقدر ما هي مفيدة نافعة بالنسبة إلىٰ المؤرخين قبل الحقبة الحديثة بقدر ما تكون مزعجة ومضايقة لقرائهم المحدثين. فالمسائل الإعجازية قد تحدث (فإنها كثيرة ووافرة في القرآن) حيث تسمىٰ بالدلائل أو العلامات وبعد ذلك صارت تعرف بالكرامات، بما له علاقة بالأولياء والقديسين والذين نذروا أنفسهم لله، وقد وقعت فعلاً لكي تخدم هدف الله، ذلك الغرض والهدف الذي كان وهو علىٰ الصفحة المكتوبة يؤثر ويهذب وله تأثير فعال، وإن مثالاً واحداً سنذكره يكفي لبيان ذلك[2].فتاريخ الشيعة في القرن الثاني عشر للميلاد/

---

[1] أمد الملائكة الإسرائيليين في الخروج Exodus في سفر الخروج ١٤/ ١٩ و ٢٣/ ٢٠، وكذلك ساعد الملائكة المسيحيين ينظر بينز N.Bayner في بحثه باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (المدافعون الفوطبيعيين علىٰ القسطنطينية) المنشور في كتاب بعنوان باللغة الإنجليزية (دراسات بيزنطية وبحوث أخرىٰ) المطبوع في لندن ١٩٥٥، ص ٢٤٨-٢٦٠؛ وحول أن الله كان يوجه السهام ينظر وولف Wolf في دراسته باللغة الإنجليزية المذكورة آنفا بعنوان (غزاة أو فاتحون) ص ١٦٨؛ كذلك كتاب الاعتبار لأسامة منقذ الذي ترجم عدة مرات، وقد اعتمدت علىٰ فيليب حتي P.K.Hitti في كتابه (محارب ونبيل سوري عربي في الحقبة الصليبية) المطبوع في نيويورك ١٩٢٩ وأعيد طبعه في برنستون ١٩٨٧، ص ١٢٣.

[2] خلاصة مفيدة عن المعجزات في القرآن الكريم يمكن وجودها في كتاب انتيز P.Antec باللغة الألمانية حول (معجزات الرسول عند الأشعرية والغزالي) والعنوان هو:

السادس الهجري يروي الرحلات التي سار بها الرأس المقطوع للحسين بن علي حفيد محمد الذي استشهد في كربلاء (جنوب العراق)، وقد وجد طريقة في أثناء هذه الرحلة إلى دير يقع بالقرب من انطاكية (شمال سوريا). واعتماداً على رواية هذه القصة (وهناك روايات أخرى) فإن الرأس، بالرغم من أنه كان مخفياً في كيس، لم يزل يسلط عموداً من النور في سماء الليل المظلم، وكان راهب الدير قد اكتشف ذلك وكان حاضراً وصاغياً إلى نداء الطبيعة، وفي لحظة حدث أن اعتنق الراهب الإسلام ومعه سبعمائة راهب. وتحول الدير بناء على ذلك بعد تجديده وترميمه إلى مسجد. وأن هذه القصة الغريبة والجميلة والملفتة قد أثرت في نفس عدد من العواطف، ذلك لأنها معجزة موافقة، وأن نتيجتها مرتبطة بالعناية الإلهية ومقررة من لدن الله وكانت لشخصياتها قيم ومعان متعددة؛ وذلك لأن الرؤوس المقطوعة كان من المفترض أن تحنط لئلا تتفسخ (ولذا فإنها في أحيان كثيرة كانت تعطّر) وبذلك فليس من المفترض أن تبعث شعاعاً من النور باتجاه السماء.ورأس الحسين لم يبعث شعاعاً فقط، لكنه اقنع أعداداً غفيرة إلى اعتناق الإسلام (فالنتيجة المقررة من العناية الإلهية)،وبهذا لتنوير المسيحيين الأتقياء بحقيقة الإسلام بصورة عامة، وبحقيقة قداسة الحسين بشكل خاص. ففي سياق هذا التاريخ الشيعي، فإنه كان يشكل جزءاً من الجدل الكثير والمحاججة لصالح قضية الشيعة، التي تظهر أن فشل ثورة الحسين واستشهاده إنما يمثلان اللحظة الحاسمة، ولكون العاطفة أو العواطف إزاء ذبح الحسين قد اتسعت دائرة تأثيرها لتشمل الكثير من غير الشيعة، وعلى هذا فسيكون إغراءها ومناشدتها

Prophetwunder in der Asariya bis al- Gazali (Algazel)
المطبوع في Freiburg in Breisgau / ١٩٧٠ ص ٢١ وما بعدها من الصفحات كذلك ينظر بحث (معجزة) في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة جديدة) بقلم (فنسنك) وبحث (كرامه) بقلم جارديت Gradet.

لنفوس الناس تتوسع أيضاً ولاسيما أنها تجعل نتيجة موت الحسين (ورأسه المقطوع) الأداة لتحول الراهب والرهبان إلى اعتناق الإسلام، وهي لا تضمن أية فعالية أو نشاط سياسي من قبل اتباعه. وهنا علينا أن نبرز الأهمية في القول إن تحول أولئك ليس لأنهم مجرد مسيحيين، إنما لكونهم من المسيحيين الرهبان الاتقياء بل من المرجعيات الدينية. وهذا بحدٍّ ذاته مهم بوصفها قد أرجعوا صدىٰ وتأثر الرهبان والاتقياء ودوره في الرواية الإسلامية المبكرة، إذ كانوا كثيرا ما يعرضهم المؤرخون للكشف عن الحقائق الإسلامية: فرواية السيرة المألوفة لدىٰ بحيرا الراهب قد اعترف وأقرّ بعلامات النبوة التي كانت بادية الوضوح علىٰ الطفل محمد، وأقل من هذا شيوعاً هي الحادثة التي تفيد بنبوءة راهب بشأن عمر، بأنه في يوم من الأيام سوف يرتقي سدّة الخلافة. وأخيراً فإن الأسطورة وفرت وجهزت شرحاً (وإن كان مشكوك في صحتها) وتفسيراً مغرياً عن أصول أحد الجوامع، وهي مشكلة عامة ومألوفة، طالما أن الكثير من الجوامع قد شغلت كنائس إما هجرها الرهبان أو تخلوا عنها وإما صودرت من قبل المسلمين. وفي السمة الأخيرة، فإن تجديد وترميم الدير المشار إليه آنفاً لتحويله إلىٰ جامع يقوم بوظيفة في من الناحية المجازية لمطالب دينية: فالمسيحية قد تمثلت مجازاً بالكنائس،وقد أهملت وصارت مهجورة بالإسلام (وتمثل بالجوامع)[1].

فهذه الأسطورة المتعددة الطبقات إن هي إلا حالة مثيرة للإعجاب ومشهدية غير أن الله ليس بحاجة إلىٰ أن يعمل بمثل هذا النمط المثير. فقد

---

[1] حول رأس الحسين ينظر ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص ٥٣ وما بعدها من الصفحات، كذلك ينظر رواية أخرىٰ (الفارسية) في كتاب: تاريخ سيستان (طهران ١٩٩٤) ص ٥٢ وما بعدها؛ وكذلك ميسامي Meisami في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (التدوين التاريخي الفارسي) المشار إليها آنفا ص ١١٢؛ وحول بحيرا ينظر هويلند Hoyland في الدراسة (عن الإسلام) ص ٤٧٦ وما بعدها من الصفحات.

يكشف عن إرادته بشكل هادئ عبر أحلام وهذه أيضاً مفيدة جداً للمؤرخين المسلمين. وهناك أنموذج نثري ملائم جداً، وهو الحلم الذي روي عن طغرلبك (المتوفى سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣) وهو السلطان العظيم في الإمارة السلجوقية التي حكمت أكثر إيران والعراق منذ أواسط القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري إلى حقبة مجيء المغول في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري. وقد تضمنت رواية موت طغرلبك وصف هذا الحلم الذي يذهب إلى أنه قال:"عندما كنت في خراسان حلمت حلماً وكأنني أرفع إلى السماء، وكنت مغشياً وغير قادر على رؤية أي شيء، غير أنني استطعت أن أشم رائحة طيبة. بعد نوديت: أنت قريب من الخالق. أطلب حاجة، فيمنحك الله حاجتك، قلت مع نفسي سوف أتمنى وأطلب طول الحياة. فقال الصوت أنت الآن عمرك سبعون سنة. قلت يا الله أنها غير كافية لي. وكان الجواب ثانية:عمرك الآن سبعون سنة قلت يا الله إنها غير كافية وأعدتها ثانية وكان الكلمات مرة أخرى أنت سبعون سنة".

عندئذ القارئ أبلغ بأن طغرلبك قد مات بصورة دقيقة ومضبوطة وهو في عمر السبعين سنة. ففي حالة التنبوء بالمستقبل تصبح لهذه الأحلام أنموذجية وهكذا مثلاً تصاغ (لا سيما في مسألة طغربلك الذي كرّر طلبه والتماسه ثلاث مرات) إن رؤية أو حلماً يرى والمرء في حالة يقظة تجعل منه بصورة عامة تقياً وقديساً – صانع معجزة – أو نبي، وهو في عالم كما يصر العلماء أن كان ما بعد النبوة فيعني أنها هرطقة أو منشق عن عقيدة ما. وبخلاف هذا فإن سماع الله في الوقت الذي يكون فيه المرء نائماً تجعل ببساطة المرء الذي استمع إلى الله إنساناً اعتيادياً؛ وإن كان هناك شائبة في رواية الحلم الخاص بطغرلبك فإن العدد سبعون يعدّ كثيراً مثل العدد السابق سبعمائة، ذلك الذي ظهر في أسطورة أو قصة تحول الرهبان إلى الإسلام. واعتيادياً فإنه

يؤدي وظائف أداءاً يعرف بـ Topol كالذي سنراه لاحقاً. فالقارئ المعني سوف يفهم من أن سبعمائة راهب يعني حرفياً رقماً كبيراً، وكذلك نفهمه نحن. وهنا فإن طغرلبك، أو الأحرى، راويته – قد أعلنها وأخذها لكي يرمز إلى الرقم الدقيق (٧٠) سنة من الحياة ليست كافية بالنسبة إلى طغرلبك. ومن الطبيعي نقول أنه فيما إذا كان طغرابك قد حلم بهذا الحلم على الإطلاق، فهذه مسألة لا سبيل إلى معرفة حقيقتها. فالمرء يفترض أن ابن الاثير، ولكن بما أن طغرلبك قد روى حلمه بصورة شخصية للكندري/ عندها ليس هناك من شك أو من تساؤل في إثبات وتأييد ذلك الحلم، حتى وإن كنا فعلاً نمتلك إيحاءات يفهم منها ظاهرياً ذلك، فالمرء ليس بوسعه أن يحول دون الاستعارة الأدبية[1].فالأحلام تعدّ إحدى الوسائل الكثيرة للقصة أو الرواية التي تخدم مؤرخينا. لأنها تؤدي مهمة ووظيفة للتاريخ لكونها بشكل أساس تمثل حقائق وعلم دروسها، وفضلاً عن المزايا والسمات التي أوجزتها في آنفا، فإن هناك قائمة طويلة بالتصميمات والممارسات والتقاليد التي تعدّ جميعها مفيدة ومثمرة بالنسبة إلى مؤرخي العصر الوسيط كذلك بينما هي مشكلة يصعب حلها بالنسبة إلى المؤرخين المحدثين الذين عقدوا عزمهم على أن يستعيدوا ما كانوا

---

[1] عن حلم طغرلبك ينظر ابن الأثير، الكامل جزء ١٠ ص٢٦؛ وعن حلم جنكيز خان ينظر هارمان Haarmann في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (عربية في التحدث تركية في الانتساب) المشار إليه آنفا ص ١١١؛ وعن عمر ينظر ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب (القاهرة دون تاريخ) ص ١٦١ وما بعدها من الصفحات؛ وعن الأحلام وتفسير الحلم ينظر غرونباوم G.E.Von Grunebau mوكيلوس R.Gailois وقد حقق كتاباً باللغة الفرنسية الموسوم بـ (الحلم والمجتمعات البشرية Le reve et les societies humaines المطبوع في باريس ١٩٦٧؛ كذلك ينظر ملتي – دوغلاس Malti- Douglasفي البحث باللغة الإنجليزية (الأحلام) المشار إليه آنفاً ص ١٤٢ ووما بعدها من الصفحات؛ وكذلك بحث كنبرغ L.Kinberg باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (شريعة المذهب عبر الأحلام) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ٣٢ (١٩٨٥) ص ٤٧-٧٩؛ وحول (أحلام السيادة) ينظر متحده Mottahedeh في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (ولاء وزعامة) المشار إليه آنفا ص ٦٩ وما بعدها من الصفحات.

قد تثقفوا عليه من أصيل وجوهري للوصول إلى الحقيقة. فهي ربما تحتوي على صور تربوية Topoi أو على مقاطع تتكرر دائماً ويمكن وصفها كتشبيهات بلاغية أو مجموعة أفكار رئيسة يمكن الركون اليها والأستناد اليها كمواضيع روائية بالنسبة الى المؤرخين للمبدعين بغية سدِّ فراغ أو ربما لتطييب روايات مملّة او غير ممتعة أو من الجهة الأخرى موجزة. فجيش فاتح يعقبه جيش فاتح آخر الذي لابد من أن يكون له بطل أومحارب يتنقل بين صفوف جيشه قبل حدوث المعركة وقبل ملاقاة عدوّه وهو يصيح (الله أكبر) ثم يمتطون الفيلة إلى ميدان المعركة. ما الذي يمكننا أن نستنتج من رواية بشأن خمسة من الخوارج يغتالون والياً كان محمياً من (١٥٠٠) ألف وخمسمائة حارس مدجج فبالقدر الذي يبحث فيه المؤرخون المحدثون في مصادرنا بقدر ما يكتشفون الكثير من التحريفات عن الحقيقة، فعلى الرغم من أن ما ذكرناه بشكل خاص حقيق عن الرواية التاريخية المبكرة، حينما كانت الأحداث بعيدة في زمان حدوثها ومملوءة أو كاملة في أهميتها، فإن التاريخ المعاصر كثيراً ما يتابع التقاليد والعادات المتبعة نفسها من المؤرخين القدامى. كالذي عبر عنه أحد المؤرخين المحدثين بقوله:(الوضوح بالنسبة إلى الحقيقة كانت أقل أهمية بكثير من الشرعية والصحة بالنسبة إلى الرؤية أو إلى تجلي الحياة)[1]".

إن قدراً كبيراً بشأن هذه المشاكل أو المشاكل المرتبطة بها قد كتب،وها هنا فيكفي القول إنه ليس هناك من شيء من هذه (المغادرات أو الانطلاقات)

---

[1] حول شيء من توبي topoi الفتح وتزويراته أو تزيفاته ينظر توث / كونرد Noth/Conrad في الدراسة المشار إليها آنفا باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الرواية التاريخية العربية المبكرة) ص ١٠٩ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك ينظر منزانو – مورينو Manzano- Moreno في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التوبي الشرقي في المصادر التاريخية الاندلسية) المنشور في مجلة ارابيكا Arabica مجلد ٣٩ (١٩٩٢) ص ٤٢–٥٨؛ وعن الرواية الخارجية اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص ٣٨٢؛ والمؤرخ الحديث هودجسون Hodgson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (مؤرخان مسلمان قبل الحقبة الحديثة) المشار إليه آنفا.

departures عن الحقيقة التاريخية علينا ممارسته، ولأي موقع أو موضع قد فسح لدور الله في التاريخ البشري، فإنه من طبيعة التدوين التاريخي قبل الحقبة الحديثة بأن يكون نقل الحدث يشهد أو يستذكر في قصة مدونة ومروية إذ كان هذا محفوفاً بالمخاطر: فإن غياب الله (أو أي من إنجازاته وأعماله، نظير معجزاته) لا يمكن ضمان الاعتماد أو الوثوق برواية تاريخية مروية ومحددة. فليس هنالك من مؤرخ مفكر وعاقل يشك في أن معركة هاستنغزHastings (التي وقعت في ١٤ تشرين الأول ١٠٦٦م/ ٤٥٩هـ) أو معركة صفين (في أواسط سنة ٦٥٧م/ ٣٦هـ) قد وقفتا فعلاً، ولكن وصف هاتين بشيء من التفصيل، أو حتى شرحهما وتفسيرهما سينقلب أو ستتحول إلى أن أي مؤرخ عاقل يستطيع أن يدعي أنه قد امتلك الحقيقة الكاملة لما تم حدوثه فعلاً. وإن هذه القيود والمحددات تصح من باب أولى a fortiori على تلك الأحداث الأقل شهرة وتمييزاً،فمن الصعب التفكير بأننا سنعلم على الإطلاق بأن الينور الاكوينتني Eleanor of Aqnitaine (المتوفى ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) أو عائشه بنت أبي بكر (المتوفاة ٦٨هـ/ ٦٧٨م) الزوج الثانية للنبي، قد ارتكبا أمراً خطأً ذلك الذي اتهمهما المنتقدون. فالحقيقة التاريخية في العصور الوسطى تماثل حسبما قال المؤرخ نفسه عن الينور Eleanor أنه كان (سلطة قابلة للفساد) أو كما عبر عنها كاتب سيرة حياة في قصة الحصان الشديد الاهتياج Crazy Horse (الحقيقة تذوي في حرارة الأسطورة)[1].ويذهب بعض المنتقدين بعيداً إلى حدِّ القول إن مشروع

---

[1] الاقتباس الوارد والمعلومات عن الينور Eleanor مأخوذ من أوين D.F.R.Owen في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الينور الاكوتيني Eleanor of Aquitaine: ملكة وأسطورة) المطبوع في اكسفورد + كمبردج + ماسشوست ١٩٩٣) ص ١٠٣ وص ١٦٠؛ البحث الحديث جداً عن حديث الإفك الذي يعدّ من جديد مزاعم بشأن عائشة هو موجود في دراسة شولر Schoeler باللغة الألمانية الموسوم بـ (شخصية وموثوقية) والعنوان بالألمانية Charakter und Authentie المشار إليها آنفا؛ وأما عن كاتب مسيرة الحياة فهو مكارثي L.Mcmurthy

المؤرخ ينبغي أن يكون بالضرورة مشروعاً في الخلق والإبداع بالقدر الذي يكون فيه في الحفظ، أي في كل أجراء من إجراءات التدوين والعرض أو التقديم للماضي بصيغ وأشكال مدركة ومفهومة ومفيدة وذات مغزىٰ. فالمؤرخون الإسرائيليون والمؤرخون الكلاسيكيون والمؤرخون المسيحيون وكذلك المؤرخون المسلمون كانوا مضطرين ومكرهين علىٰ الاعتماد علىٰ مصادر وموارد خيالية أو بارعة في التصوير المجازي. وبأن هؤلاء الذين فعلوا ذلك بتعمد أو بتروٍ قد تقيدوا أو ألزموا أو قبلوا بفقدان السمعة الجيدة من قبل أولئك الذين لم يفعلوا ذلك؛ ثم – وكما هو الحال حالياً، فإن الكتابة الرديئة والكاذبة، قد تم الاعتقاد من قبل المؤرخين المحدّثين بأنها خارج النطاق. وما يهم أكثر أن الرواية التي تفرض صيغة القصة علىٰ المعلومات المتباينة المقتبسة أو المنتزعة من الذاكرة أو الروايات الشفوية أو المكتوبة والوثائق، هي بحدٍّ ذاتها عمل خلاق ومبدع، وأن التقنيات التي يستخدمها المؤرخ ليروي قصته أمثال تصوير الخصائص ومعالجة الزمن وتوصيفه، وإجراء تقديم للعمل واستنتاج، هي أمور متشابهة – فقد يقول البعض أنها متطابقة أو متماثلة – بينما يقول أولئك الذين يستعملون كتّاب القصة أو الرواية ليتولوا تلك المهمة نيابة عنهم. كيف وأين يستطيع المرء أن يرسم خطابين للرواية التاريخية وغير التاريخية أو غير الروائية التي ترتبط مع أدب الخيال، والقصة التاريخية، حيث تكون الشخصيات والقصص علىٰ أرضية الأحداث الماضية، ولاسيما إذا كان المشروعان يتقاسمان غرضاً عاماً ومشتركاً ألا وهو تنوير أو توضيح أو ترفيه أو توضيح ما الذي يعتقد به المؤلفون أنه حقائق؟وبوصفي مؤرخا ممارسا وتطبيقيا، فإنني أميل إلىٰ الاعتقاد بأن خطا

في الدراسة باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (الحصان الشديد الاهتياج Crazy) المطبوع في نيويورك ١٩٩٩ ص ٥.

ينبغي أن يرسم في حين أن النقّاد الأدبيين وأعني أي شخص لا يمتلك وتداً (إن كان مهنياً أو خلاف ذلك) في رسم ذلك الخط الفاصل – فربما يرسمه خطأ أو لا يرسمه البتة – فالخلاصة يظهر لي بشكل لا يقبل الجدل أن الماضي غير قابل للتبديل والتغيير أنه قد مضىٰ ؛ وأن النجاح الذي تم استحضاره به بقدر ما يعتمد علىٰ بعض الأنواع من التواطئ بين الكاتب والقارئ، كما هي أيضاً تستند إلىٰ نوعية المصادر التي أدىٰ فيه الكاتب عمله في المقام الأول[1].

فبعض المؤرخين يترددون في الاعتراف بأن مثل هذه الكلمات التي قد رسمها فعلاً القراء أو حتىٰ الكتّاب أيضاً، وهم يصرون علىٰ أن التاريخ يختلف في مواطن ونواحٍ حيوية عن الأدب الميال الىٰ التخيل، بل هم يتمسكون أو يؤمنون بموقف هو أن التاريخ علم. فهؤلاء المؤرخون اعتيادياً يماثلون ويتماهون مع أولئك الذين يبدون رأياً حول ما الذي يجب علىٰ التاريخ

---

[1] حول معالجة تصويرية أو برنامجية Programmatic ينظر وايت H.White في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (النص التاريخي كنتاج أدبي من نتاج براعة الإنسان artifact) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من كناري R.H.Canary وكوزيكي H.Kozicki باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(كتابة التاريخ: صيغة أدبية وإعادة بناء تاريخي، المطبوع في مديسون Madison ١٩٧٨، ٤١-٦٢؛ وينظر أيضاً هرلن D.Harlen في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (تاريخ الفكر والعودة إلىٰ الأدب) المنشور في جلة AHR مجلد ٩٤ (١٩٨٩) ص ٥٨١-٦٠٩ وأيضاً بحث ديموس J.Demos باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (المبحث عن عوامل وأسباب بالنسبة إلىٰ المؤرخين ليقرأوا الروايات Novels) المنشور في مجلة AHR مجلد ١٠٣ (١٩٩٨) ص ١٥٢٦-١٥٢٩؛ وعن الكذب ينظر بيهان مككولغ C.Behan McculaghCفي بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الإنحياز أو المحاباة في الوصف، والشرح والتفسير التاريخي) المنشور في (تاريخ ونظرية History and Theory مجلد ٣٩، ٢٠٠٠) ص ٣٩-٦٦؛ أيضاً ينظر لدر Lader في حقيقة كتاب باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(القصة في نطاق الأدب العربي غير الروائي)؛ كذلك هناك وجهة نظر مفيدة واستثنائية واضحة بشأن هذه القضايا موجودة في بحث جارتير R.Chartier باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (نصوص، طباعة، وقراءات) المنشور في الكتاب الذي حققه هنت L.Hunt باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التاريخ الثقافي الجديد) المطبوع في بيركلي + لوس انجلس ١٩٨٩) ص ١٥٤-١٧٥.

وما الذي لا يجب عليه، "التاريخ سياسة عابرة وماضية والسياسية تاريخ حاضر"، كذلك "دراسة الإشكاليات والمشاكل وليس دراسة الحقب" وأيضاً "دراسة التواريخ أو لا وليس دراسة التاريخ". فوصفات كهذه ربما تكون مفيدة بشكل كافٍ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يقولون ويتحدثون عن تلك التي يصفونها وينصحون باستخدامها مفضلين ذلك مما كانوا يؤدون أية حقائق تاريخية. إنهم ربما يتحفظون بل يشكون with agrain of salt* وعلى أية حال، فإن أولئك الذين يصفون والذين يحرمون ويمانعون هم الآن في قلة قليلة وضعيفة التأثير والأكثر اعتدالاً ومعقولية، عندما يؤكدون على ويعتزمون القول بأن التاريخ هو علم فحسب وبالمعنى الأضعف لكلمة علم،إنه مهمنة فنية تختلف عن كتابة الرواية والقصة في بعض من تطلعاتها ومطامحها وتقاليدها المتبعة، لكنه علم؛ إذ يتشاطر ويتقاسم بقدر كبير مع الأشكال والصيغ الأخرى للرواية. والمؤرخون المسلمون في العصور الوسطى، أولئك الذين كانوا في الكثير من الأحايين أقل دوغماتيكية أو جزماً أو أولئك الذين لا يؤكدون على ضرورة توفر البينة من الأوربيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين الذين ابتدعوا التدوين التاريخي العلمي الحديث قد قبلوا بذلك[1].

* [استخدم المؤلف هذا القول الذي ربما هو من الأمثال وترجمته الحرفية "مع حبة من الملح" للتعبير عن التحفظ . المترجم]

[1] حول التاريخ حرفة ضعيفة ينظر أيفانز Evans في دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (في الدفاع عن التاريخ) ص ٦٢.

الجزء الثالث

كيف يعمل أو كيف يؤلف المؤرخون

الفصل التاسع

مهن وحرف

لقد رأينا كيف أن التقليدية الدينية والحديثية قد تحكمت وحددت الطريقة التي كان المؤرخون يفهمون بها الماضي وكيف يصفونه، وكيف أضحى عملهم – تأليفهم – بحالة متصلة بفرع آخر من فروع المعرفة والدراسة، وكيف أن المحدّث قد كسر المسكة الخانقة Strangle hold للتدوين التاريخي بدءاً من الأيوبيين والمماليك في مصر وسوريا، ففي هذه المرحلة قد بدأ المؤرخون العمل وشقوا طريقاً جديداً وشرعوا يبدون إيماءات وعلامات لصفتهم الاحترافية والمهنية المتأخرة عن وقتها المفروض والمعتاد، ليس فقط الثقة بالنفس والاتجاه نحو الجزم والميل إلى التوكيد والجزم إزاء المؤسسة الحديثية، بل وأيضاً بسبب التنافسات والاحساس بالغيرة والحسد الضيق الأفق. وهنا سوف ننتقل من النصوص إلى المؤرخين الذين كتبوا هذه النصوص، وذلك لأنه وبالإضافة إلى الأفكار، والزمن أو الوقت، والطاقة وأدوات الكتابة والقرب من المصادر التاريخية فإن الكتابة التاريخية تتطلب إلى الموارد المالية من أي نوع أو آخر، وفضلاً عن الاحتياجات السالفة كذلك بأن الناس والكتب والأرشيفات والدليل المادي والبينة المادية هي أيضاً وسائل كانت تشكل الأسس القوية للبحث. فالسؤال الوارد هو ما الذي كانت عليه خلفية مؤرخينا الإجتماعية، وكيف قاموا بالإنفاق على أنفسهم وكيف عالوا

أنفسهم في ممارسة ثقافة دون وجود أقسام تاريخ جامعية؟. والأجوبة عن هذه التساؤلات قد نلقي ضوء على رواية التدوين التاريخي، كما تلقي الضوء على المحافظة ومقاومة التجديد وعلى الديناميكية والنشاطية. وبالإمكان هنا أن نشرع باستذكار كيف أن المؤرخين المقابين للموازنة من خارج الرواية الإسلامية قد عملوا وقاموا بتأليفاتهم ودراساتهم.فقد كان المؤرخون في الشرق المسيحي وغربه في حقبتنا يأتون أو يرجعون إلى العوائل النخب والصفوة بصورة عامة، وكذلك يأتون من رجال الدين وهي المهنية الشرعية، ومن البلاط أو أي صنف من أصناف خدمة الدولة، كما كانت، بصورة خاصة. وقد كانت تلك الوظائف على نحو أنموذجي ككتّاب أو مشرعين أو إداريين أكثر من كونهم مؤرخين، وكانوا يعملون مقابل مبلغ من المال – رواتب – أو بخلافه كانوا مدعومين مالياً. فالمصدر السرياني يخبرنا كثيراً جداً عن التاريخ الريفي في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي/ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وأقصد التاريخ الذي ألفه ذلك الراهب الذي كان يعيش في دير متواضع نسبياً في شمال سوريا. ويبدو أنه لم يغادر الدير ولم يقم برحلات إلا قليلاً، لأن تاريخه كان ضيقاً ومحدوداً في أمثلته بشكل استثنائي. وكان ديره ـ كما هو متوقع ـ مزوداً بكل ما يحتاجه من وسائل العيش. كذلك فإن أمثلة أخرى تختلف عن هذا لدينا من قبل مؤرخين آخرين من المسيحية السريانية، وهما ديونسيوس التلمحري Dionysius of Tell Mahr – (المتوفى ٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، وقد قدم ديونسيوس من عائلة ثرية تسكن شمال العراق (بين النهرين)، وأما الثاني فهو ما يكل – ميخائيل – السوري Maichael (المتوفى ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) وهو الذي جاء من خلفية موسرة أيضاً. وكلاهما كان من رجال الكنيسة، والواقع والأكثر من كونهما من رجال الدين، فإنهما خدما في أيامهما آباء بطريراكيين في الكنيسة، بمعنى

رؤوساء أعلىٰ في الكنيسة. وليس هنالك من شك بأنهما كانا يعيشان حياة فاتنة ومرفهة إلىٰ درجة كبيرة أكثر مما كان يعيش راهبنا المجهول الهوية، ولكنهما أيضاً كانا يعالان مادياً من ثروة الكنيسة، تلك الثروة التي تعتمد كما يبدو علىٰ الإيجارات، والثروات المدخرة والعشور، وذلك لأن جميع الذي كتباه كان من التواريخ القيمة والمحترمة اعتماداً علىٰ طول مدة تقاليد – خبرة – السريانية في التدوين التاريخي، ولكن ليس منهما من كان مؤرخاً محترفاً أو مهنياً. أما المؤرخون البيزنطيون في هذه الحقبة فقد كانوا أيضاً وفي أكثر الحالات يأتون من الكنيسة، فضلاً كونهم أعضاء في الإدارة البيروقراطية، ولدينا أيضاً الإمبراطور المناسبي كانتاكوزينوس Kantakouzenos (الذي حكم بين سنة ٧٤٧-٧٥٥هـ/ ١٣٤٦-١٣٥٤)؛ إذ أنه ألف في أيام إقامته الجبرية. ولكن الذي ليس لدينا من هذه الحقبة مرة أخرىٰ هو عدم وجود طبقة حرفية من المؤرخين. وربما يمكن القول الشيء نفسه بالنسبة الىٰ الروايات المسيحية الأخرىٰ في الشرق الأوسط قبل الحقبة الحديثة نظير الأرمن مثلاً"[1].

فالأنموذج، استناداً إلىٰ خلفية هؤلاء المؤرخين الإجتماعية وبكونهم قد انحدروا بشكل أساس من عوائل الثروة، ثم أيضاً دُعموا مادياً من ثروات

---

[1] أفضل مسح للتدوين التاريخي السرياني (الذي يناقش المؤرخين السريان الثلاثة مذكور هنا) هو بروك S.P.Brock في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (الكتابة التاريخية السريانية مسح للمصادر الرئيسة) المنشور في مجلة المجمع العراقي J.g.Iraqi Aecdemay مجلد ٥ (١٩٧٦-١٩٨٠) ص ١-٣٠ (قسم البحوث الإنجليزية) وقد أعيد طبعه في كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(دراسات في المسيحية السريانية: تاريخ الأدب والثيولوجي) المطبوع في همبشاير Hampshire ١٩٩٢؛ حول الراهب المجهول الهوية ينظر ويتاكوسكي Witakowski في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (التاريخ السرياني المنسوب لديونيسيوس التلمحري)، وحالياً تحقيق حراق Harrak لتاريخ زقنين، المقدمة؛ وحول ديونيسيوس الحقيقي ينظر ابرام فسكي R.Abramowski في دراسته باللغة الألمانية حول (ديونيسيوس التلمحري البطريارك اليعاقبة من سنة ٨١٨-٨٤٥م) وباللغة الألمانية:
Dionysius von Tellmahre: Jakobitischer Patriareh von 818-845
المطبوع في ليبزج ١٩٤٠.

الكنيسة، تتسع بقدر كبير للتدوين التاريخي قبل الحقبة الحديثة، حتىٰ وإن كانت كتابة التاريخ في اللغة السريانية قد تتضاءل تدريجياً بعد القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري. فقد كان هناك وقت ليس ببيعد جداً عندما كان العلماء رجال ثروة ويعملون أو يؤلفون في أوقات فراغهم، معتمدين علىٰ مصادرهم الخاصة (فأول أستاذ للتاريخ في جامعة ييل Yale قد وجد في زمن حديث أي في سنة ١٨٦٥) إلا أن العلماء المستقلين هم حالياً جديرون بالذكر وبارزون وهم واقعاً استثناءات، أما أولئك المؤرخين الذين يعيشون علىٰ موارد وأرباح تواريخهم والتي بالضرورة تكون تواريخ شعبية وفي متناول أيدي القرّاء فهم بشكل غير عادل يهزأ بهم لكونهم مجرد (هواة) وهي الصفة التي يطلقها المؤرخون المحترفون عليهم. ولما كانت الكنيسة قد انحسرت عن موقعها وفقدت مكانتها المتميزة والميسورة بانسحابها لصالح المؤسسات العلمانية التي أضحت هي مراكز الرعاية ودعم النخبة، فالمؤرخون المحدثون حالياً يعالوا وبصورة عامة من قبل الجامعات والمراكز البحثية والمكتبات، تلك التي كانت علىٰ نحوا أنموذجي إما تعتمد مادياً علىٰ الدولة أو تعتمد علىٰ نوع من التوليفة بين دعم الدولة وبين كرم وسخاء المتبرعين المتنفذين، من أجل توفير رواتبهم، وأدواتهم أو علىٰ وسائل وصولهم إلىٰ المصادر. وكنتيجة لهذه الاحترافية أو المهنية للتاريخ في المؤسسات العلمانية، ولاسيما في المؤسسات التي يتولىٰ مسؤوليتها رجال يسعون إلىٰ رفع المستويات في النوعية والتنوع، فإن التدوين التاريخي حالياً هو أقل بكثير من أن يكون حافظاً للثورة والامتياز، لا سيما وبوجود مجموعة من الأعضاء المتغايرين في الطبقة الإجتماعية وفي الإثنية العرقية وفي الجنس وفي الجنس من حيث كونه ذكراً أو

أنثى أكثر مما كان معتاداً عليه، فإن ذلك إجمالاً هو الأكثر تحديداً في المناظرة بشأن المهمات والوظائف والمبادىء[1].

فالمؤرخون المسلمون قبل الحقبة الحديثة يماثلون ويتماهون مع نظرائهم المؤرخين السريان والبيزنطيين والأرمن في القرنين التاسع والثاني عشر للميلاد/ الثالث والسادس الهجريين أكثر ما يكونوا هم ونظرائهم المسيحيين من أن يعترفوا به. إنهم كمجموعة كانوا أكثر تجانساً أو ذي أصول مشتركة إلى حدٍّ بعيد كذلك فإنهم كانوا أكثر يسراً وامتيازاً من نظرائهم المؤرخين في الوقت الحاضر، وهذه حقيقة لها تأثيرات على النزوع للبقاء والحفاظ على روايتهم. وعندما تستحدث ثغرات أو انقطاعات في مثل سلسلة النزوع في المحافظة النسبية غير المطلقة، فإنهم كثيراً ما كانوا يتعايشون ويتزامنون مع النماذج المتغيرة والمتبدلة في خلفياتهم الإجتماعية وفي وظائفهم وفي تدربيهم.

العوائل والثروة والمحافظة:

لنبدأ بالعوائل، فالمؤرخون المسلمون على أكثر الاحتمال كانوا ينحدرون من عوائل إما من التي ترجع أو تتعلق بالصفوة الحاكمة أو غير الحاكمة، ميسورة وذات مكانة مرموقة. والأكثر احتمالاً أنهم على نحو أنموذجي انحدروا من عوائل قد أظهرت بالفعل دلائل بكونها قريبة من

[1] وحول أحد المناقشات عن المناظرات ينظر سكرت J.Scott في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التاريخ في أزمة؟ الجانب الآخر من القصة) المنشور ف يمجلة AHR مجلد ٩٤ (١٩٨٩) ص ٦٨١-٦٩٢.

التعلم والمعرفة. وقد أعطتهم، في هذه الحال، الأفضلية على غير النخب في خطواتهم للمبادرة في التدريب والثقافة[1].

فالمعدلات التقديرية للأمية مستحيلة بالنسبة إلى حقبة ما قبل الحديث، مع وجود تخمينات بالنسبة إلى مراكش في القرن التاسع عشر تترواح بين ١٪ إلى ٣٠٪ نسبة إلى السكان الحضر، ومن المحتمل أن نكون مطمئنين في الاستنتاج إلى أن نسبة تحت ١٪ من السكان قد وصلوا إلى مراحل متقدمة في التعليم. وأمثلة من هذا النوع كثيرة جداً، فقد لحظنا أن ابن الأثير قد كان مؤلفاً للتاريخ الحولي المعياري بالنسبة إلى زمانه (القرن الثالث عشر للميلاد/ السابع الهجري). وكذلك في التاريخ المحلي للإمارة الحاكمة في مدينته الموصل (أتابكية الموصل). وأنه كذلك انحدر من عائلة مالكة للأراضي، وكانت تمتلك موارد مالية كافية لأن توقفها على ربط (دير) للصوفية، والتي كانت بالفعل تشتغل بنوع من أنواع التعليم والمعرفة إذ كان هو وأخواه متميزين فيها (فقد كان واحداً من بين هؤلاء المؤرخين الذين ذكروا آباءهم كمصادر لمعلوماتهم).والدرجيني هو أيضاً مثل الكثير من المؤرخين الإباضيين في شمال أفريقيا، (وتوفي الدرجيني في أواخر القرن الثالث عشر / أواخر القرن السابع الهجري) قد انحدر من عائلة ميسورة وذات علم وثقافة، فقد كان جدّه الأعلى تاجراً، وكان جده قاضياً) وكان أبوه محدّثاً. وأن عمَّ ابن حجر العسقلاني ووالده كانوا جميعاً رجالا متعلمين، في الوقت الذي انحدرت أمه من عائلة ثرية من التجار[2].

---

[1] حول مغزى من حياة الكتاب ينظر لو كومت Le Comte في البحث باللغة الفرنسية (كتاب السلوك لطلاب المدارس لابن سحنون).

[2] هذه الأرقام من الإحصاء الذي تم في مراكش سنة ١٩٣١ (يتبعه أكلمن Eickelman في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(فن الذاكرة) المشار إليه آنفا ص ٤٩٧. إنه يقترح أن نسبة

فالصلات العائلية هذه قد ساعدته على أن يحيا حياة اجتماعية مستقرة على الرغم من وفاة والديه مبكراً. وقد تزوج وهو في عمر الخمس والعشرين سنة من زوج ثرية أيضاً وأكثر ثراءاً منه. وقد ترك زوجه من اجل التفرغ للعلم مدة رحلته العلمية هذه وفي سنة ١٤٠٠/ ٨٠٣هـ استقر في بلدته ليكون إدارياً ومكتبياً وخازن مكتبة وقاضياً ومعلماً. والطبري قد غادر بلاده وهو في سن الثانية عشر ثم أخيراً استقر في مدينة بغداد وهو في سن الثلاثين. وكان يمول دراساته من مورد إيجارات كانت تبعث إليه من ممتلكاته التي كان يملكها في مدينة آمل (وهي مدينة تقع في شمالي إيران في جنوبي بحر قزوين)، ومحمد بن أحمد بن علي الفاسي، ولد في فاس سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م وهو واحد من بين سلسلة من مؤرخي مدينة مكة. وبعد أربع سنوات من ولادته غادر مع أمه في رحلة إلى المدينة، حيث قضى فيها ما لا يقل عن تسع سنوات وكان يدرس العلم بإشراف عالمة محلية. بعدها قضى العشرين سنة الأخيرة أو ما يقارب ذلك في الدراسة والرحلة في طلب العلم وبضمنها رحلات قصيرة قام بها إلى مصر وسوريا وفلسطين واليمن. وفي عمر ناهز الواحد والثلاثين أو الاثنين والثلاثين، كان بالفعل قد حاز على تقدير عائلته بوظيفة قاض ثم قاضي القضاة في مكة[1].

أولئك الذين هم في التعليم العالي كان حوالي ٠.٢ ٪ ؛ حول ابن دجّال ينظر بوليت Bulliet في الدراسة باللغة، (نبيل أو وجيه من نيشابور) ص ٥٠٠ (هامش ٧).

[1] حول ابن الأثير ينظر ريتشاردر Richards في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ابن الأثير)؛ وعن أخوة ابن الأثير ينظر أحمد I.Ahmad في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(ابن الأثير المحدث – حياته ومؤلفاته) المنشور في مجلة (IS) مجلد ٢٣ (١٩٨٤) ص ٣٣-٤٣؛ يذكر ابن الأثير والده في كتاب الروضتين لابي يشامة جزء ١ (قسم٢) على صفحة ٣٥٢ و ٥٢٥؛ وعن الدرجيني والمؤرخين الأباضيين الآخرين ينظر لويكي T.Lewicki في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ(المؤرخون وكتّاب تراجم السير والمحدثون الإباضيون – الوهبيين في شمال أفريقيا في القرن الثامن إلى القرن السادس عشر) المنشور في مجلة Folia orientalia مجلد ٣ (١٩٦١) ص ١-١٣٤؛ وعن ابن حجر ينظر رحماني A.A.Rahmani في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(حياة

فإن كان أساس ثروات هذه العوائل علىٰ حدٍّ أنموذجي يتمثل بالأرض، فإن جوهر تعلمهم ومعرفتهم كان منحدراً من التقليدية الدينية، وهو شكل من العلم ليس بوسعه أن تحيا هذه العوائل علىٰ مورده فقط لجيل أو جيلين من هذه الإمكانات الفعلية المعتدلة الجودة أو المتوسطة الجودة ولكن بالأحرىٰ من تشديد روابطها أو جعل روابطها أقل قوة مع الدولة. فاعتماداً علىٰ الظروف، الابن العالِم والمنحدر من أسرة مرموقة بوسعه دائماً الموافقة والقبول بوظيفة في قضاء الدولة. فعائلة جماعة كانوا بقدر ما محتكرين القضاء الشافعي لمدة قرن من الزمان تقريباً.

إن وظائف مثل هذه بوسعها أن تجلب لأصحابها رواتب ثابتة ومكانة مرموقة، وفي حالة القاضي فإن ذلك يعني الوصول أو الاقتراب من السلطة الحقيقية، طالما أن القضاة كثيراً ما كانوا يشرفون علىٰ أمور مالية معينة فضلاً عن مهمتهم في القضاء. وأحد هذه النماذج المتكرر حدوثها في التاريخ السياسي العباسي هو ذلك التحول السريع في وظيفة ولاية الأقاليم، واعتيادياً بالنسبة إلىٰ السياسيين الذين يحرزون نجاحاً في أعمالهم فإنهم ينتقلون من وظيفة إلىٰ أخرىٰ، وهو أنموذج قد يكون موازنة بالقضاة فإن تنقلات هؤلاء أبطأ جداً، لاسيما القضاة المحليين، الذين كان انحدارهم علىٰ نحو أنموذجي من العوائل المحلية العوائل التي تمثل وتبدي اهتماماتها ومصالحها.

ومؤلفات ابن حجر العسقلاني) المنشور في مجلة (IC) مجلد ٤٥ (١٩٧١) ص ٧٥-٨١ وصفحة ٢٠٣-٢١٢ وصفحة ٢٧٥-٢٩٣؛ مجلد ٤٦ (١٩٧٢) ص ٧٥-٨١ وصفحة ١٧١-١٧٨ وصفحة ٢٦٥-٢٧٢، و ص ٣٥٢-٣٦٢؛ ومجلد ٤٧ (١٩٧٣) ص ٥٧-٧٤؛ وعن وجهة النظر المركزة الجميلة لروزنثال في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (ابن حجر) المنشور في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة ثانية) ويستحق هذا البحث ذكر خاص؛ وعن تعليم الطبري ينظر جيليوت Gilliot في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (التكوين الفكري للطبري) وكذلك بحث روبنسون Robinson باللغة الإنجليزية (الطبري)؛ وعن محمد بن أحمد دليل بتنه / بانكيبور للمخطوطات العربية والفارسية مجلد ١٥ ص١٦٨ وما بعدها؛ وينظر أيضاً بروكلمان في GAL الجزء ٢ ص ١٧٢.

ولعل هذه الحال كانت متمثلة في مؤرخنا عن مكة إذ شغل منصب قضاء المدينة ؛ كذلك كانت تقريباً نفس حالة المؤرخ وكاتب الطبقات الموصلي يزيد بن محمد (المتوفى ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) القاضي الأزدي في مدينة طالما كانت قبيلة الأزد مهيمنة عليها. وفي الموصل فلدينا الأنموذج المألوف في الإدارة (حيث الولاة يتولون مناصبهم يأتون ثمّ يتركونها إلا أن القضاة كانوا يحتفظون بمراكزهم في الإدارة مدة أطول).لكننا لا نعلم إلّا القليل عن عائلة الأزدي بشكل خاص ، ولكن لنحكم أو لنقدّر بما بقي لدينا من تاريخه – أي الأزدي -- الحولي الكرونوغرافي، في الوقت ذاته فإن قبيلته (الأزد) قد زودت البلدة بالقضاة طيلة الحقبة التي استمرت فيها المدينة تحتوي على مؤسسة القضاء تقريباً. ومن الطبيعي فإن قبول مثل هذه الوظيفة كقاضي تنطوي على خطر أيضاً. فالإداري الذي يعين في وظيفة ـ في الغالب الأعم ـ كان نفسه يخضع لعملية الطرد والإقالة لعمل ما (فأحد القضاة الأحناف قد طرد من وظيفته وذلك لأنه فشل في أن يلفظ الحكم الصحيح بالنسبة إلى إباحته شرب النبيذ). ويعدّ هذا العامل في أن يتمكن الابن المتعلم والمتدرب والابن مالك الأرض دوماً من رفض مثل هذه الإغراءات، فيعتمد بدلاً من هذه الوظيفة على الإيجارات، والوقوف، وأجور التدريس التي يتسلمها من التعليم[1].

[1] عن عائلة المعافي بن عمران ينظر روبنسون Robinson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (المعافى بن عمران وبدايات أدب الطبقات) المذكور آنفاً ص ١١٤-١٢٠؛ وعن عائلة آل حصري ينظر برينر W.H.Brinner البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(بنو حصري: دراسة في الرواية أو النقل للرواية العلمية) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ٧ (١٩٦٠) ص ١٦٧-١٩٥؛ حول جماعة ينظر صليبي K.Salibi في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (بنو جماعة: إمارة القضاة الشافعية في الحقبة المملوكية) المنشور في مجلة (SI) مجلد ٩ (١٩٥٨) ص ٩٧-١٠٩.

من الصعب معرفة المدى الذي تخصصت به العوائل داخل مؤسسة الحديث، علماً بأننا ربما نتوقع أن قدرات الأب في النادر تنتقل إلى أسفل أي إلى الابن – وبصورة مؤكدة فإن الأبناء كثيراً ما كانوا يظهرون كنقلة أو رواة لمعلومات آبائهم، ولعله بشكل خاص في الحقبة المبكرة: فصالح بن أحمد بن حنبل لم يكن ناقلاً لقدر عظيم من أحاديث وأخبار والده فقط، لكنه أيضاً قد جمع معلومات عن سيرة حياة تتعلق بوالده أحمد. وفي زمن متأخر عن هذا بكثير، ومع تأسيس المدارس فإن الكثير من الأبناء يعينون في هذه المدارس ليعقبوا آبائهم. فالسيوطي الذي قد نضج عقلياً بحقبة مبكرة (المتوفى ٩١١هـ/ ١٥٠٥) قد تولى كرسي مدرسة والده في القاهرة في عمر قد ناهز الثمانية عشر سنة[1].

وحالياً، وهو في حالة السيوطي الشخصية لعل قابلياته وكفاءاته العلمية هي التي زكته للعمل في منصب. كذلك نعرف عن حالات أقل محاباة للأقارب، ونعرف أيضاً أن أعمال وقفية أو مآثر وقفية قد أفضت إلى الحدّ الذي اشترط أو تعهد بالإبقاء على منصب الأستاذية في عائلة المؤسسة إن أمكن. فكان عماد الدين الأصفهاني أحد كتّاب سيرة حياة صلاح الدين يبدو

---

(١) حول الازدي الموصلي ينظر روبنسون c.f.Robinson في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (مدينية – من دين- مؤرخ محلي للطبري: حالة تاريخ الموصل للأزدي) المنشور في الكتاب الذي حققه كندي Kennedy باللغة الإنجليزية الموسم الطبري؛ وحول مثال الموصل، ينظر لنفس المؤلف الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (إمبراطورية والنخب بعد الفتوحات الإسلامية) المطبوع في كمبردج ٢٠٠٠، ص ١٦١ وما بعدها؛ وحول المثال الحنفي ينظر المقريزي. كتاب المقفى الكبير جزء ٢ ص ٧١؛ وعن تدهور الخدمة في الدولة، المناقشة الكلاسيكية هو فنسنك A.J.Wnsinck في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(اللقب الرفيع العديم النفع) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من ارنولد T.W.Arnold ونيكلسون R.A.Nichlson باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(مجلد عن الدراسات الشرقية مقدم إلى أدوارد براون) المطبوع في كمبردج ١٩٢٢، ص ٤٩١-٤٩٩؛ ينظر أيضاً مادلونك W.Madelung في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (رسالة الشريف المرتضى بشأن شرعية العمل في الحكومة مسألة في العمل مع السلطان) المنشور في مجلة BSOAS مجلد ٤٣ (١٩٨٠) ص ١٨-٣١.

أنه دخل المدرسة في عمر يناهز الخمسة عشر سنة، وأنه قد ضمن أو صان أول عمل أو ظيفة حقيقية له في سن الثانية والثلاثين فقط، وأنه قد انتفع من روابطه العائلية تلك التي كان لها دور في وصوله إلى وظيفته ومركزه كموضع ثقة صلاح الدين حينما كان في حوالي الخمسين سنة من عمره[1].

ولكون سيرة الحياة غير النبوية وكذلك التاريخ الحولي الكرونوغرافي في ثانوية، فإن هذه الأعمال قد روعيت وشجعت بوصفها سمة عائلية. فابن عبد الظاهر (المتوفى ٦٩٤هـ/ ١٢٩٢م) قد ألف سيرة حياة بيبرس، كذلك فعل ابن أخيه أو ابن أخته شافع بن علي (المتوفى ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) الذي عقب على عمل خاله. وهنالك حالة جديرة بالذكر أيضاً (الواقع هناك حفنة من الأمثلة المتشابهة الأخرى) هي المؤرخ سبط بن الجوزي (المتوفى ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨) وكان حفيد المؤرخ ابن الجوزي (المتوفى ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) فقد قضى سبط بن الجوزي قسطاً من طفولته ليعيش في منزل جدِّه، ومن الطبيعي أنه اعتمد على تاريخ جده لصالح تاريخه.وسوف لن نستنتج أو نقول الكثير عن مثل هذه الأمثلة على أية حال، لكن ربما هناك مثال عرضي هو في الحقيقة أكثر وضوحاً بالنسبة إلى سن المؤرخين الكرونوغرافيين المثيري الإعجاب ألا

---

[1] وعن سيرة حياة السيوطي ينظر سارتين E.M.Sartain في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (جلال الدين السيوطي: سيرة حياة وخلفية) المطبوع في كمبردج ١٩٧٥، وينظر صالح M.J.Saleh في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (السيوطي ومؤلفاته: وموقعها في البحث العلمي الإسلامي من العصور المملوكية إلى الحاضر) المنشور في مجلة MSR مجلد ٥ (٢٠٠٠) ص ٧٣-٨٩؛ وحول وثائق تأسيس مدرسة تلك التي كانت تتعد بالعائلة كمستأجرين الوظيفة ينظر بيركي J.Berkey في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(رواية أو نقل العلم والمعرفة في القاهرة في العصر الوسيط) المطبوع في برنستون ١٩٩٢، ص ١٠٤ وينظر أيضاً جيلبرت J,Gilbert في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(مؤسساتية البحث العلمي الإسلامي واحترافية العلماء في دمشق في العصر الوسيط) المنشور في مجلة (SI) مجلد ٥٢ (١٩٨٠) ص ١٠٢؛ وعن عماد الدين ينظر ريتشاردز Richards في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(عماد الدين الأصفهاني) المشار إليها آنفا.

وهم عائلة الصابئ، أنهم كانوا وثنيين من أبناء مدينة حرّان* الواقعة في شمال سوريا وقد بلغ أفراد هذه العائلة مرتبة مرموقة من الشهرة والمكانة في بغداد في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، وخدموا كرجال حاشية الخلفاء وكأطباء حتى القرن الثاني عشر للميلاد/ السادس الهجري. وقد أصبح عدد من أفراد هذه العائلة لهم اهتمامات في التاريخ، فكان لأربعة منهم بصورة خاصة مكانة جديرة بالاستحقاق[1]. أولهم كان ثابت بن سنان (ت ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) الذي خدم طبيباً عند الخليفة الراضي (حكم بين ٣٢٤هـ/ ٩٣٤-٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) وكتب تاريخاً ضائعاً قد ابتدأ به من عهد الخليفة المقتدر (الذي حكم من ٢٩٥هـ/ ٩٠٨ إلى ٣٢٠هـ/ ٩٣٢)، من حيث انتهى المؤرخ الكبير الطبري تاريخه واختتمه ثابت في حوالي سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م). وقد استخدم هذا التاريخ عدد من المؤرخين نظير ابن مسكويه وأبو الفداء* (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١). وثانيهم ابن أخت ثابت إبراهيم بن هلال (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) الذي خدم في بلاط البويهيين – والدولة البويهية قد احتلت بغداد

* وكانت حرّان تسمى عند الرومان جرها Carrhae تقع شمال العراق على ضفة نهر صغير يدعى خلاب، وعلى مفترق طرق القوافل إلى سوريا والأناضول وبلاد ما بين النهرين. وهي تبعد مسافة رحلة يومين من الرقة. ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان مجلد ٢ ص ٣٣١؛ وبحث (Harran) في دائرة المعارف الإسلامية G.Fehervari [المترجم].

[1] سيرة حياة عبد الظاهر هي تاريخ الملك الظاهر (المطبوع في فيسبادن ١٩٨٣) ، و(كتاب حسن المناقب السرية) (المطبوع في الرياض ١٩٧٦) وعنه ينظر هولت P.M.Holt في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (بعض الملاحظات عن سيرة حياة بيبرس لشافع بن علي) المنشور في مجلة JSS مجلد ٢٩ (١٩٨٤) ص ١٢٣-١٣٠.

* قمت بدراسة تركيبية لهذا التاريخ المهم في بحث عنوانه (تاريخ مهم للمؤرخ العراقي المنسي ثابت بن سنان) في مجلة المورد العراقية مجلد ٢ عدد ٢/ ١٩٧٣ ص ٢٣٣-٢٤٥. وقد ظهر لي أن المؤرخين أمثال ابن الجوزي في المنتظم وابن الأثير في الكامل كانوا يأخذون معلوماتهم عن تاريخ العراق مباشرة من تاريخ ثابت لكنهم لا يشيرون إليه. وإن مؤرخين كثر قد اعتمدوا على التاريخ وليس فقط مسكويه وأبي الفداء [المترجم].

واستولت على السلطة كأمر واقع de facto على الخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥ فكان هكذا معاصراً لابن النديم، وقد ذكره هذا في فهرسته[1].

وقيل أن أحد الأمراء البويهيين قد وضع إبراهيم تحت الإقامة الإجبارية في منزله ما لم يباشر بتأليف تاريخ عن الدولة البويهية**، ووجّهه الى أن يبعث إليه حلقات الكتاب تباعاً لكي يصححها ثم تعاد إليه. وثالثهم حفيد إبراهيم، هلال بن المحسن الصابي (المتوفى ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) قد ألف كتاباً بعنوان تاريخ الوزراء فضلاً عن تاريخه الجامع الذي أكمل فيه تاريخ ثابت بن سنان و التاريخان كلاهما قد بقيا على شكل أجزاء ومقتطفات. وبعد أربعة أجيال من الخدمة عند الخلفاء فإن هلال يعدّ الأول من بين أفراد العائلة ممن اعتنق الإسلام، وهذه حقيقة تخبر شيئاً ما عن الشخصية العالمية الكوزموبولتانية للخلافة (وكما هو الحال بشأن ابن مسكويه وهو مؤرخ

---

[1] عن المؤرخين من آل الصابئ فقد اعتمدت بشكل خاص على المدخل اللطيف في بحث (الصابئ) في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة ثانية) بقلم دي بلوا De Blois؛ وعن إبراهيم ينظر مادولنك W.Madelung في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (أبو إسحاق الصابئ بخصوص العلويين في طبرستان وجيلان) المنشور في مجلة JNES مجلد ٢٦ (١٩٦٧) ص ١٧-٥٧؛ وغرس النعمة ينظر بوزورث C.E.Bosworth في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (كتاب الهفوات النادرة لغرس النعمة بن هلال الصابئ وتاريخ البويهيين) المنشور في الكتاب الذي حققه جونز A.Jones باللغة الإنجليزية الموسوم بـ Arabicus Felix... بحوث على شرف البروفسور بيستون A.F.L.Beston في عيد ميلاده الثمانين) المطبوع في ريدنغ Reading ١٩٩١، ص ١٢٩-١٤١؛ كذلك خان M.S.Khan في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (مخطوطة خلاصة لكتاب التاجي للصابئ) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ١٢ (١٩٦٥) ص ٢٧-٤٤؛ ياقوت: إرشاد جزء ٢ ص ٣٩٧ وما بعدها.. كذلك الصفدي: الوافي بالوفيات مجلد ١٠ ص٤٦٣ وما بعدها (بشأن ثابت بن قرة).
ومعرفتي أو وعلمي بهذه الحكاية يرجع إلى جورج مقدسي G.Makdisi في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (ابن عقيل: دين وثقافة في الإسلام الكلاسيكي) المطبوع في ادنبره (١٩٩٧) ص ١٩٥، إلا أن الملاحظة المرفقة هي غير صحيحة؛ وقد استقيت الترجمة من ابن الجوزي، المنتظم جزء ١٦ ص ٢٧٥ وما بعدها.

** عضد الدولة البويهي هو الذي أجبره على كتابة تاريخ باسم التاجي في الدولة البويهية [المترجم].

كرونوغرافي آخر من هذه الحقبة).وأخيراً رابعهم ابن هلال الذي سمي بغرس النعمة (المتوفى ٤٨١هـ/ ١٠٨٨) قد ألف تكملة لتاريخ والده، الذي بقي منه فقط من اقتباسات في المؤلفات المتأخرة، ولاسيما في مرآة الزمان لسبط بن الجوزي. وكان غرس النعمة قد بدأ تاريخه من سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦، ويبدو أنه تاريخ يمثل رواية دقيقة وواضحة في عصره.

الفصل العاشر

كتابة التاريخ

الروايات الدينية الناجحة هي ناجحة، وفي الأقل جزئياً؛لأنها قد تبنت العناصر والمركبات الثقافية المتوافرة لديها. فالمسيحية المبكرة قد ولدت في العالم الإغريقي – الروماني، وهذا يعني أن المسيحيين الأوائل قد اعتمدوا على ثقافة التعلم والمعرفة تلك التي تقاسموها مع الوثنيين واليهود وبضمن ذلك تقاسموا اللغة (الإغريقية واللاتينية والعبرية) فضلاً عن مشاطرتهم إياهم في تقنية التعلم والمعرفة (فالخبر كان يكتب على لفائف مصنوعة من ورق البردي والرق). وما أن تنامى المسيحيون في أعدادهم وفي مدى ثقتهم بانفسهم، حتى بدأوا يحدثون ثقافة للتعلم والمعرفة متميزة بكونها مسيحية، وكان شعار هذا التغيير هو المخطوطة – فكانت ذات وجهين، وحزم من ورق تطوى، وهذا ما كان أجدادنا المباشرين يكتبون لكتابنا الحديث.

إذن أصبحت المخطوطة شعار المسيحيين، وكان التعلم والمعرفة يتم عبر الاستماع والشفوية – بمعنى القراءة بصوت عالٍ- في تذكير مجاميع كبيرة، وتسميع أو تسمع النصوص وقراءتها بالنسبة إلى مؤلفيها، فالنشر أو الإعلان كان عبر المحاضرة – وقد أصبح شعار المسلمين المحدّثين والتقليديين. فالعلم لم يكن يكمن بشكل جامد وغير فعال في النصوص المكتوبة، لكي يكون منالاً ومحرزاً من قبل طلبة يعملون لوحدهم في دراسات هادئة ومطمئنة البال؛ لكن هذه إنما تعيش وهي على ألسنة المدرسين والطلبة،

يروونها ويقرأونها بصوت عالٍ وبوجه بعضهم للبعض الآخر التساؤلات. فلم يكن هناك حيزا في الإسلام الكلاسيكي إلى الجامعات المفتوحة وإلى الكورسات عبر المراسلات. فالمسلمون قبل الحقبة الحديثة ولكي ينالوا أو يحصلوا هذا العلم الحقيقي عليهم أن يعرفوا أولئك الشيوخ المعلمين شخصياً. وبغية أن نفهم التدوين التاريخي الإسلامي، إذن علينا أن نعرف بعض الشيء عن ثقافة التعلم والمعرفة الإسلامية ولاسيما أنهم كانوا يتعاملون مع الأصغاء والقراءة والكتابة. وسوف أوجز في الآتي هذه الثقافة ومن ثم نتحول إلى الكيفية التي كان المسلمون يؤلفون ويعلمون بها[1].

القراءة والكتابة:

من الصعب علينا أن نرى ما وراء تلك الكتل والأعداد الضخمة من المؤلفات والكتب تلك التي كتبها وألّفها العلماء المسلمون إبّان الحقبة الكلاسيكية القديمة، غير أن هناك سبب لأن نفكر بأن ما وراء هذه الأعداد الغفيرة من الكتب يكمن ليس فقط اللا اختلافات واللا تباينات في إمكانات الكتابة، ولكن احتراس وحذر بخصوص ممارسة وتطبيق الكتابة نفسها. ولهذا فنحن نقرأ كثيراً عن عالم كبير في السن قد أحرق كتبه خشية ما تتضمنه

---

[1] عن المخطوطة ينظر روبرتس C.H.Roberts وسكين T.C.Skeat في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (ولادة المخطوطة) المطبوع في لندن (١٩٨٣)؛ وينظ أيضاً بلانجرد A.J.Blanchard في الدراسة باللغة الفرنسية الموسومة بـ (الظهور الأول للمخطوطة) المطبوع في ترنهاوت Thrunout ١٩٨٩) وأيضاً لين فوكس R.Lane .Fox في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (معرفة القراءة والكتابة والسلطة في المسيحية المبكرة) المنشور في الكتاب الذي حققه كل من باومان Bowman وولف Woolf باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(معرفة القراءة والكتابة والسلطة) المشار إليه آنفا ص ١٤١ وما بعدها؛ وحول مجموعات من الكتابات المختلفة ينظر بيتروشي A.Petrucci في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ(كتّاب وقرّاء في إيطاليا في العصر الوسيط: دراسات عن تاريخ الثقافة المكتوبة) تحقيق رادنغ C.M.Radding المطبوع في نيوهافن New Haven ١٩٩٥، الفصل الأول.

من أخطاء مكتوبة ومعلومات تحتويها ربما تقود أو تفضي بالآخرين إلى الضلالة. على وفق إحدى القصص فقد كان ابو عمرو بن العلاء* (المتوفى ١٥٣هـ/ ٧٧٠م) دفاتر مكدّسة قد جمعت بحيث وصلت إلى سقف منزله، غير أنه من جانب آخر قد تبنى طريق الزهد والتصوف ولهذا السبب اشعل في جميع كتبه النار. فكان هناك أسباب ثقافية عن لماذا ارتاب بعض من العلماء أو بالاحرى لم يثقوا بالكتابة. فالبعض يعدّ العمل الورقي أو الكتابة منزلة حقيرة ووضيعة، وأن هذه المهمة أو الوظيفة أو حتى العمل الإداري إنما يلائم فقط أولئك الذين كانوا بمنزلة وضيعة من الموالي من غير العرب، مؤمنين بعادات وتقاليد ما قبل الإسلام (أو في الأقل بما يخص نظرتهم إلى الموالي). وهذا كله يدعم الشفوية والكلمة الملفوظة. فالخليفة سليمان بن عبد الملك (حكم من سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م – ٩٨هـ/ ٧١٧م) كان ميالاً إلى التعليق فقال مرة"أنني أعجب من هؤلاء العجم لأنهم حكمونا لآلاف السنين لكنهم لم يحتاجوا إلينا في حكمهم ولا للحظة واحدة، ونحن قد حكمنا قرناً، ولم يمرّ يوماً واحداً استطعنا أن نستغني عنهم"**.في حين أن البعض الآخر ربما كانوا

---

* من أسرة علمية فقد كان هو وأخواه ممن يتحدث عنهم العلماء ويهتم بما ينقل عنهم الرواة، وعن شغفه بالعلم فقد روي عنه قوله (أخذت في طلب العلم قبل أن أختن). وكان حافظاً وواسع الإدراك وأعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر فهو لغوي وصاحب قراءة خاصة ونحوي بارع وناقد فطن. وكان من الأعلام في القرآن. وقد شهر بأنه مقرئ أهل البصرة وأحد نحاتها. توفي في سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠م وهو ابن ست وثمانين سنة. [ينظر ابن قتيبة الدينوري: المعارف تحقيق ثروت عكاشه "طبعة ثانية، القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٤٠؛ ابن النديم ،الفهرست "طبعة رضا تجدد – طهران ، ص ٣٠؛ ابو الطيب اللغوي: مراتب النحويين "تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثانية، القاهرة د.ت ص ٣٣ [المترجم]].

** هو أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوّام العرشي الأسدي وقد نقل هذه الرواية في كتابه الأخبار الموفقيات، قال عن سليمان بن عبد الملك قوله (عجبت لهذه الأعاجم ملكوا ألف سنة لم يحتاجوا إلينا ساعة واحدة في سياستهم ، وملكنا مائة سنة لم نستغن عنهم ساعة).
الأخبار الموفقيات (تحقيق د. سامي مكي العاني "الطبعة الأولى، مطبعة أمي – قم ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤ منشورات الشريف الرضي ص ١٨٦ [المترجم]).

قد انزعجوا من حملة أو موظفي القلم في الدولة (ومن بين الأمثلة المبكرة البرامكة والطاهريون الذين تسمّوا كإداريين وولاة) وشمولية العلم بين المثقفين والمتعلمين، وهذا العامل الأخير هو عامل مألوف – أي التهديد بأن الكتابة يمكنها أن تتموضع بالنسبة إلى أولئك الذين تنتقل منزلتهم أو تتضاءل بشيوع الشفوية والمهارات المعتمدة على الاستماع، فقد كان هذا مألوفاً عند المؤرخين المسيحيين واليهود الأوائل، وكان هذا من المفروض حاسماً؛ ذلك لأن معارضة الكتابة كانت بشكل خاص مرتبطة بالمحدّثين الأوائل، كما هو الحال بالنسبة إلى الحاخامات الربانية إذ أنهم سلموا إلى الشريعة الشفهوية، وهناك لا شك تواصل واستمرارية بين الحالتين[1].

وعلى المدى البعيد فإن معارضة المحدثين لتدوين الحديث وكتابته أصبحت من القضايا المحسومة والتي أمكن التغلب عليها. غير أن هذا لا يعني أن الشفوية والسمعية قد أخفقت بشكل كامل واختفت من عالم التعلم والمعرفة. فالثقافة النشيطة والفعالة في التذكر جعلت الأمر واضحاً بما فيه الكفاية. فالأطفال بأعمار السبع والثمان سنوات هم على نحو أنموذجي تعلموا (وما زالوا يتعلمون) القرآن وحفظوه ويحفظونه عن ظهر قلب، وإن لم يفعلوا ذلك، فإن أولياء أمورهم الطموحين سوف يشكونهم إلى معلميهم أو كما نعرف فعلاً أنهم قاموا بذلك في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري في شمال أفريقيا. كان والد عبد اللطيف البغدادي (المتوفى ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)

---

[1] المقاومة والمعارضة لكتابة الأحاديث قد أبدى غليوم Guillaum بالفعل ملاحظة حولها في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (أحاديث وتقاليد الإسلام) ص ١٦ وما بعدها من الصفحات، ولكن المشكلة قد تم مناقشتها من قبل كوك Cook في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (خصوم أو مناوؤا كتابة الحديث في الإسلام المبكر) المشار إليه آنفا ص ٤٣٧-٥٣٠ (حيث تم مناقشة الحكاية اليهودية)؛ وعن أبي عمرو بن العلاء ينظر ياقوت؛ إرشاد ج٦ (قسم ٤، ص ١٧ وما بعدها؛ وحول كلمات سليمان ينظر الزبير بن بكار، أخبار الموفقيات ص ١٩٠).

قد استثمر علاقاته بحشو أو بتخم ابنه غير المستقر بالتعلم بوساطة التذكر من أيامه الأولى فصاعداً. وكان عمر ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)* تسع سنوات حينما أظهر وأثبت أولاً بأنه كان يعرف النص القرآني برمته، وأيدوا أنه قد عدّ متأخراً قليلاً (فالطبري عرف النص القرآني كاملاً وهو في عمر السبع سنوات). ففي هذا العمر الصغير جداً، فإن المسألة بالتأكيد لا يفهم منها معرفته بما كان الله يعني في آيات القرآن، طالما أن التلميذ كان لم يزل صغيراً جداً وإنه تحت مستوى التعلم في مسألة فهم القرآن. وكذلك لم يكن القصد مجرد الإفادة من تلاوته هذه، على الرغم من أنه إجراء وعمل آهل للمكافأة والتقدير في الزهد والتقوى وفي مجالها القويم والصحيح. فالمهمة أو الوظيفة الأساس في تذكر النصّ القرآني بمثل هذا العمر غير الناضج يعدّ دراسة تمهيدية: وذلك بسبب تكرار الإيقاع سيتذكر القرآن انطلاقه نحو بداية طيبة تجاه السيطرة والهيمنة على الضروب الأخرى من النص، ولاسيما الحديث (وهو ممارسة وتطبيق قد بدأ بحد ذاته في حقبة أقدم من تلك، ولعل الراجح تبتدأ من حوالي عمر الثامنة). فعبد اللطيف البغدادي كما يروى أنه كان بإمكانه تذكر ملزمة في اليوم الواحد، وهو حسبما يفترض أنه كان الحجم القياسي، وبما يعادل عشر صفحات من العمل (أو ربما أكثر من ذلك لأن الملزمة ربما تتألف من أكثر من تلك الصفحات العشر). ونحن نقرأ عن محدّث على أثر محدّث ممن كان يتذكر عشرات الآلاف من الأحاديث بدقة وضبط تثير الدهشة والقصة المألوفة بشكل خاص بشأن محدّث جوال أفلح في نقل آلاف الأحاديث عبر ذاكرته، فلما عاد إلى بيته أو وطنه أقدم على التأكد من ملاحظاته وحفظه، فلم يجد إلا حفنة قليلة من

* هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان ويرجع نسبه إلى مضر بن سعد بن عدنان، ولد في مكة سنة ٦٥هـ أو ٦٨هـ/ ٦٨٤م أو ٦٨٧م .(المترجم)

التصويبات الجزئية جداً. وهذا من الصعب تصديقه الآن، غير أن بعض الرواة ونقلة الحديث الأوائل قيل إنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة. وبما أن روايات كهذه بالنسبة إلى أولئك للحقبة ما قبل الحديث قد منحوا ثقافات متنوعة ومهارات مماثلة، فمثل هذه الروايات قد تخبرنا على أن نقدر الأمر ـ واعتماداً المتسم بالمحاكاة والتقليد ـ معتمدين العلامات المرئية البصرية والمدونات المكتوبة بقدر ما كان المسلمون في العصر الوسيط من قابلية للتذكر[1].ولذلك فإن بعض الكتب تستحق تثمّن بأسعار عالية جداً: فأحد كتّاب السير في العصر المملوكي قيل أنه خلّف وراء ما لا يقل عن ثمانية عشر صندوقاً مملوءة بالكتب الثمينة الخاصة به، وإن أرملته كانت على علم بقيمة كل كتاب من هذه الكتب، فأقدمت على تصفيتها ببيعها كمعاش تقاعدي. ونتخيل أن أحد العلماء الأذكياء ممن يعرف بالكتب قد جمع مكتبة نادرة، وأن عالماً آخر متنسك ومنعزل ـ لنتخيل أيضاً كان يوازن العطر بحبر، ناسباً فكرته هذه إلى النبي (وكان كما يظهر أمياً) وأن ترجمة لسجلات الضرائب العائدة إلى أواخر القرن السابع الميلادي/ أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثامن الميلادي/ أوائل القرن الثاني للهجرة، وكانت هذه الترجمة من الإغريقية – اليونانية إلى اللغة الفارسية ثم بعد ذلك إلى اللغة العربية قيل إن هذه العملية قد نفذت بحسب أوامر أحد الخلفاء الأمويين

---

[1] حول أولياء الأمر العازمين أو المصممين على بلوغ الغاية في تعليم أبنائهم pushy ينظر محمد بن سحنون،(كتاب آداب المعلمين)، ص٩٢؛ وحول عبد اللطيف ينظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص ٦٣٨، وما بعدها؛ وبصورة عامة ينظر مقدسي Makdisi في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (ظهور الكليات) المشار إليه آنفا ص ٨٤ وما بعدها من الصفحات، وحول عمر الطبري ينظر جيليوت Gilliot في بحثه باللغة الفرنسية الموسوم بـ (التكوين الفكري للطبري) المشار إليه آنفا ص ٢٠٥؛ وحول بعض المعلومات عن العمر ينظر بوليت R.Bulliet في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (عمر بنية الثقافة الإسلامية في العصر الوسيط) المنشور في مجلة (SI) مجلد ٥٧ (١٩٨٣) ص ١٠٥-١١٧؛ وحول حرق الكتب ينظر كوك Cook في البحث باللغة الإنجليزية المشار إليه آنفا (خصوم أو مناوؤا كتاب الحديث في الإسلام المبكر) ص ٧٩ وما بعدها (ومز~ود بالكثير من فهرست المصادر).

حينما عرف بأن أحد كتابه من الموالي عن غير العرب قد بال بمحبرة. فالفكرة من وراء هذه أن التبدل أو التغير الإداري بمثل هذا الشأن الأساس قد يحدث بهذه الطريقة المنافية للعقل. فظهور اللغة العربية الكلاسيكية – بمعنىٰ جمع قوانين نحوها وتوحيد ألف بائها وحروفها لجعلها بلغة القرآن – كان حالة مرتبطة بظهور الرواية الدينية الإسلامية[١].

ما الذي جعل التعليم الإسلامي متميزاً؟.وهو ليس ببساطة تقدير وتقويم الشفوية أو الكتابة بصورة عالية، ولكن الأمر يرجع إلىٰ التقويم والتثمين في كليهما، فالمسلمون أنتجوا وتدبروا تفاعلاً بين الشفاهية ومعرفة القراءة والكتابة وبين الكلمة التي يتحدثون بها وبين الكلمة المكتوبة، إذ يكمن في هذا التفاعل لبّ وجوهر علم الحديث. لأنه العلم الذي يعدّ ملكة العلوم الإسلامية، وأنه أيضاً يعز~ز الفروع العلمية والمعرفية الأخرىٰ. وهذه الحال هي حالة بشكل خاص بالنسبة إلىٰ التاريخ، بما أن الكثير من المؤرخين كانوا أولاً وقبل كل شيء من الفقهاء، وأنهم كانوا يستمدون مهاراتهم الأكاديمية العلمية ومنزلتهم الإجتماعية من رواية ونقل الحديث أكثر من كونهم يكتبون تاريخاً. إنني أكتب هذا الكتاب، كتاب التاريخ، باستخدامي حاسوبي أو أكتبه علىٰ ورق مخطط، بعزلة عن دائرتي أو مكتبتي، وفي مكان هادیٔ من المكتبة: والكلمات التي اكتبها تمرّ مباشرة من رأسي إلىٰ الورقة أو

---

[١] حول إساءة استعمال abuse الكتاب ينظر روزنثال F.Rosenthal في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (التقنية والمنهج في البحث العلمي الإسلامي) المطبوع في روما ١٩٤٧، ص ١١؛ كاتب سيرة الحياة المملوكي هو شافع بن علي، ويمكن وجود القصة في كتاب نكت الهميان في نكت العميان للصفدي ص ١٦٤؛ وعن الأيقونة ينظر أغابيوس المنبجي Agapius Manbij كتاب العنوان تحقيق وترجمة فازيليف A.A.Vasiliev فيPatrologia Orientalis المجلد الثامن (١٩١٢) ص ٤٣٩ وما بعدها؛ وعن الاتكال المتبادل أو توقف شيء علىٰ شيء آخر للذاكرة ومعرفة القراءة والكتابة في الغرب ينظر جاروثرز M.Garruthers في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (كتاب الذاكرة) المطبوع في كمبردج ١٩٩٠.

إلى الشاشة. وبخلاف هذا، فإن الكثير ما يعزى إلى المؤلفين المسلمين المبكرين واقعياً لم يصدر أو يعلن إطلاقاً من أقلامهم كما لاحظنا ذلك بالفعل، فالذي يكتبونه ملاحظات ومحاضرات وإملاء تؤخذ من قبل الطلبة ثم تجمع (وتثبت بإجازة) خلال حياة المؤلف أو تجمع (من دون إجازة) بعد الانتهاء من جمعها. ومثل هذا تقريباً حالة المعلومات المنسوبة إلى علماء من القرنين السابع / الأول للهجرة والكثير من الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة نظير عاصم بن عمر بن قتادة (ت ١١٩هـ/ ٧٣٧م) الذي كان موجهاً من قبل الخليفة ليلقي محاضرات بشأن سيرة النبي في مسجد دمشق. وعلى الرغم من كل هذا التغيير، فقد كانت الثقة بالنص المكتوب لم تبرز ولم يتفوق عليها شيء أبداً على ذلك الشخص الذي أولها أو فسّرها. فالقراءة (وكثيراً ما كانت بصوت مرتفع) والتلاوة أو الرواية والتملية والكتابة قد ظلت جميعها متمازجة[1].

---

[1] حول ابن الأثير، مقدمة كتاب أسد الغابة؛ وحول الأيجي ينظر روزنثال، تاريخ المشار إليه آنفا ص ٢٠٥؛ وحول المعلومات عن الإجازات في هذا المقطع والمقطع الآتي اعتمدت على صلاح الدين المنجد في بحثه باللغة العربية (إجازات السماع في المخطوطات القديمة) المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة) جزء ١ (١٩٥٥) ص ٢٣٢-٢٥١؛ كذلك ثاجدا G.Vajda في الدراسة باللغة الفرنسية الموسوم بـ (نقل في الإسلام) المطبوع في لندن ١٩٨٣ (التي تتضمن عدد من البحوث المفصلة عن الإجازة)؛ كذلك رتر H.Riller في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (السير الذاتية في المكتبات التركية) المنشور في مجلة Oriens مجلد ٦ (١٩٥٣) ص ٦٣-٩٠؛ كذلك ينظر بيدرسن Pedersen في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (الكتاب العربي) الفصل الثالث؛ وينظر لدر Lader في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (السواس والصاغرجين معجم السماعات الدمشقية؛ وحول ابن مسكويه وكتاب تجارب الأمم جزء ٢ ص ١٨٤؛ وعن المدرسة التي تذكر دائماً هي المدرسة النظامية: وهكذا ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية جزء ١ ص ٢٩٢. ينظر عن المزي ومن أعقبه اجترلوني Auchterlonie في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (معاجم سير الحياة العربية) المشار إليه آنفا ص ١٣ وما بعدها؛ وكذلك بحث (المزي) في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة ثانية) بقلم جوينبويل Juynboil؛ وحول وصف لكتاب ابن حجر ينظر فهرست أو دليل المخطوطات العربية والفارسية في تبنه / بانكيبور مجلد ١٢ ص١٤٩ وما بعدها والمشار إليه آنفا.

الإبتكار أو الإبتداع والتقليد:

إن كتاباً في التاريخ يبدأ على نحو متميز بفكرة ألا وهي الفكرة التي تدوّن باختصار في الدفتر، ثم تنمو على وفق درجات أو معدلات مختلفة إلى أن تنضج في بحث أو كتاب؛ لأن المعلومات المضافة والمطروحة فضلاً عن المحاججات الحادة والمسودات الأولية تكتب ثم تنحت هذه المسودات وتصقل وصولاً إلى النهاية إلى الكلمة المطبوعة ثم للتحول من قبل الناشرين إلى ما نطلق عليه بصفحة التصحيح التي إن صحّحت ودققت من المؤلف أو ربما المحقق تبعث إلى الطباعة بالماكنة لتطبع ثم تجلد. وهذا ما يتميز به التعلم والتعليم الإسلاميين، فيستبدل المرء المكننة والماكنة الكهربائية للطابعة بالنسخ اليدوي البشري وبوسعنا القول إن المؤرخين المسلمين كانوا يتبعون العادات والتقاليد المتبعة تلك التي يعملون بها منذ القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري وإلى ما بعد ذلك – أي الحقبة الكلاسيكية لرواية التدوين التاريخي، عندما كان الورق يجهز ويوفر مجاناً، فإن الأفكار العامة ومفاهيم التأليف قد تطورت. وحالياً ينبغي علينا أن نشدد على أن الذي ذكر آنفا إنما ينطبق على أولئك المؤرخين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة كتابة كتاب من الأوراق المعدّة للتسويد.والكثير من الثقافة التقليدية للعصر الإسلامي الوسيط لم تعمل بذلك، فإن المؤلفين ينتقون بدلاً عن ذلك الاختصار، ثم التواصل والاستمرارية، ليجعله عصرياً في الأسلوب، وبطريقة أخرى تحسين وتعديل الكتب والأعمال التي وجدت مسبقاً. لذلك تكون أهدافهم وممارساتهم متباينة بناء على ذلك. وباختصار، فعلى الرغم من أن التدوين التاريخي كان بالتأكيد تابعاً إلى قوى من المحافظة والمقاومة للتجديد والإبتكار، ولكن بوسعها أيضاً أن تكون تابعة وملحقة بقوى أكبر بكثير من أجل الإبداع والابتكار. ولما كان التدوين التاريخي فرعاً من الدرجة الثانية ذلك الذي

جذب إليه الكثير من عقليات الطبقة أو المرتبة الأولى، صار خلاقاً وفعالاً بصورة أكبر من التقليدية الدينية الصعبة والجامدة.

يتقرر منهج المؤرخ وطريقته جزئياً في مادة الموضوع، وجزئياً في طموحه، وجزئياً في هدفه وغرضه. فالمؤرخ المتأخر لديه نماذج ومعلومات للإنتقاء والإختيار أكثر من سابقيه. وربما يختار القديم الكلاسيك ثم يؤسس عليه مختصراً أو ذيلاً أو صلة أو تهذيباً أو تكملة فتكون النتيجة مشروعاً متطوراً ومتقدماً واستمرار لعدة أجيال، وجميع هذه الأعمال اللاحقة بدرجات متفاوتة كبيرة أو صغيرة مشتقة ومستمدة من العمل الأول، إلا أن جميعها إنما يقدم شيئاً جديداً؛ إما في الصيغة أو الشكل أو في المادة الجديدة أو في الترتيب والتنظيم أو في اختيار حكيم للمادة. والمثال الأكثر إعجاباً وإثارة هو الذي نبدؤه بذكر (كتاب الإكمال في معرفة الرجال) لمؤلفه تقي الدين المقدسي(المتوفى ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م). والكتاب طبقات لجميع الرواة والنقلة الذين بدوا في المجموعة الحديثية السادسة المقبولة والمعترف بها في الحديث للقرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين. ثم هناك المزّي (المتوفى ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) قد صنّف (التهذيب) على كتاب المقدسي. ومن الطبيعي أن يطلق عليه تسمية تهذيب الكمال. وحالياً فإن هذا العمل الضخم والكبير (الذي حقّق منه حتى الآن خمس وثلاثين (٣٥) مجلداً)* كذلك فكر ابن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) بأنه من الملائم أن يأخذ على عاتقه تهذيباً خاصاً به، الذي تم عرضه بالفعل في الفصل الثالث من هذا الكتاب إنه (تهذيب التهذيب). وهذا لكتاب بدوره كان موضوعاً بحدٍّ ذاته للاختصار في (التقريب) فصار تقريباً للتهذيب. ونسبة القرابة لهذا الكتاب

* وحالياً قد حُقق جميعه [المترجم].

الأخير (التقريب) قد عُبّر عنه بأسلوب نسبي (من الأنساب)، أنه هكذا هو تقريب التهذيب التهذيب للكمال من تأليف المقدسي. وبالقدر الذي كان فيه ابن حجر يُشرب بروح ومزاج المحدّث بشكل عميق بقدر ما التزم في كتابه التهذيب باحترام وتقدير الماضي الذي عبّر عنه في كل من الشكل وموضوع البحث (فالنقلة أو الرواة كانوا من المحترمين بشكل واسع ولهم علاقات وثيقة بالحديث).والكتاب الآخر لابن حجر وهو (رفع الإصر عن قضاة مصر) يقف بصورة أقرب إلى بداية سلسلة أعمال أخرى ذات أجيال متعددة. إذ بدأ بأبيات من الشعر لمحمد بن دانيال (المتوفى ٧١٠هـ/ ١٣١٠م) الذي ذكر في شعره جميع قضاة مصر حتى عصره. وتبنّى ابن حجر رواية أو نسخة معاصرة لهذا الشعر فحولها إلى طبقات/ بروسوغرافيا التي أضاف إليها السخاوي ذيلاً؛ وهو عمل كان بحدٍّ ذاته موضوعاً إلى مختصر[1].

لم تكن الطبقات البروسوغرافي ولا التواريخ الحولية الكرونوغرافية قد أنتّجت مختصرات وتهذيبات فمن بين جميع مؤلفات السيرة النبوية كانت السيرة النبوية لأبن هشام الكلاسيكية بحدٍّ ذاتها نسخة أو رواية مهذبة (حذف منها ما يعتقد به أنه ماسّ) لسيرة ابن إسحاق، التي (نفترض في هذه الحقبة أن هناك السيرة الأصلية) غطت قدراً كبيراً من المعلومات حول قبل الإسلام وبعد المبعث النبوي تلك التي قد حذفها ابن هشام* .فقد أوحى هذا التهذيب أو المختصر بدوره إلى كتابة عدد من المختصرات اللاحقة، وأحد

---

* لقد أوضحت آنفا بأن التهذيب والحذف كان بتوجيه من الراوية الذي اعتمده ابن هشام وهو زياد بن عبيد أو عبد الله البكائي أحد رواة سيرة ابن إسحاق، فضلاً عن تدخلات ابن هشام نفسه أيضاً، لذلك فإن كتاب السيرة النبوية لابن هشام بحاجة إلى تمعّن وتبصّر ودراسة ومقارنة لضبط معلوماته ونخلها نخلا جيدا (المترجم).

هذه المختصرات ذلك الذي كتبه ابن عبد البرّ (المتوفى ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م) فهاهنا بوسعنا ملاحظة كيف إن الإبداع والتجديد يعبّران عن نفسيهما عبر تقييدات لمشروع مقلد أو مشابه. من جانب آخر فقد عرض ابن عبد البر مشروعه بصراحة وبساطة بأنه قد اختصر السيرة النبوية من مؤلفين أو كتابين موثوقين كبيرين عن السيرة وهما، سيرة موسى بن عقبة وسيرة ابن إسحاق (في تهذيب ابن هشام) وأنه تطوع للقول بأنه قام بالعمل متّبعاً النسق كله الذي قام به ابن إسحاق إذ يقول: "ففي مرات أذكر شيئاً لم يأت ذكره في الكتابين". وأكثر من ذلك فإنه يقطع بعض المعلومات من سابقيه – أي من الكتابين – كحذفه ولادة محمد، وطفولته وخبراته وممارساته قبل بعثته، وذلك لأنه قد عالج هذه الجوانب في كتاب سابق، وهو طبقات صحابة النبي. ويقدم كتاب ابن عبد البرّ بدوره خدمة بوصفه أصبح أساساً في تصنيف السيرة من قبل معاصر وهو ابن حزم (المتوفى ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م) والشيرازي (المتوفى ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) الذي استند في (طبقات الفقهاء) إلى عمل أو كتاب شيخه أبو طيب الطبري الذي حاول فيه أن يبزّه ويبرز عليه[1].

كتابة التاريخ: تطبيقات وعادات متّبعة:

إذن، فهذه بعض المهارسات والتطبيقات، والإمكانات والقيود أو المنغصات، التي كانت تتحكم في كتابة التاريخ. فكيف عمل أو ألف مؤرخونا ـ في واقع الحال ـ مؤلفاتهم وأعمالهم؟

ولعل من المفيد أن نبدأ أولاً بالاستفسار عن الزمن الذي نهد به هؤلاء لإجراء أو لإنجاز بحوثهم، أي متى بحثوا وكتبوا؟ وقد رأينا بالفعل

---

[1] ينظر ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير (القاهرة ١٩٦٦) ص ٢٩؛ كذلك جرار Jarra في دراسته باللغة المشار إليها آنفا بعنوان (السير النبوية) ص ١٣٨ وما بعدها.

أن الكتابة التاريخية عادة إنما يتحمل مسؤوليتها أولئك الذين وظفوا للقيام بعمل آخر: فالعلماء اتجهوا إلى التعليم (واعتيادياً تعليم الشريعة) كذلك عملوا كتّاباً قد وظفوا لوضع مسودات الوثائق، والرسائل والخطب. فبالنسبة إلى هؤلاء الذين وظفوا لتلك الأعمال فإن كتابة التاريخ عندهم قد تركت لأوقات فراغهم ولأوقاتهم الإضافية ولاسيما في الليل. أما بالنسبة إلى الذين كانوا يكتبون لأغراض حرّة ومستقلة ممن بناءاً على ذلك، كرسوا لأنفسهم وقتاً كثيراً بالقدر الذي يرغبون به والمتعلق ببحوثهم. فقد كانت الأمور ـ وهو أمر طبيعي ـ تختلف وتتباين بينهم. فنحن نقرأ مثلاً عن ابن الأثير الذي حسبما يبدو أنه عاش أكثر حياته كعالم خاص، فقد كتب أكثر تاريخه الكرونغرافي الحولي في وطنه أو مدينته، ومن المحتمل أنه كان يطلّ من نافذة على خرائب البلاط العباسي. فإن كان كذلك فمن الضروري أنه كان متذكرا جيداعن السرعة في زوال النعم وتقلب الحظ والحياة.إذن، فالبحث والكتاب ـ كما هو حالياً ـ قد اتجهت لأن تكون شأناً مفرداً وخاصاً وقائماً لوحده، مع وجود استثناءات مناسبية أحياناً. وهناك سبب للاعتقاد أن بيبرس المنصوري قد وظف مسيحياً ليتحمل بعضاً من بحثه.وهناك استثناء آخر مختلف واضح في مسألة أسامة بن منقذ (المتوفى ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) الذي كما يبدو أنه أملى مذكراته على ناسخ، لأنه كان ينتقل من قصة إلى أخرى لما كان يتذكره أو تحثه الذاكرة على ذلك. فلو أنه كان قد ابتدأ الكتابة أبكر خلال مدّة حياته، عندئذ من المفترض انه بوسعه كتابة وتصنيف عمله بطرق معتادة ومتفقة مع القواعد المنهجية بشكل أكبر، وذلك بما أنه كان قد انغمس في الأدب والرسائل الأدبية إذ كان شاعراً من الطراز الأول. وكما هو متوقع، فإنه كان في التسعين من عمره عندما استقر ليقول أو ليروي قصصه، ولم يكتب جميع

ذلك بنفسه[1]. فالبحث بحدِّ ذاته - وفي أغلب الحالات - يبدأ بملاحظات، وتدوّن هذه على نحوا أنموذجي على جذاذات أو في دفاتر الكتابة فعلى المرء أن يتخيل كيف أن ابن الدواداري الذي كان يعمل بمسودة لكتاب السميساطي، لتذييل وإضافة معلومات على نصّ السميساطي من معلوماته الخاصة في دفاتره، فالجذاذات والرقيات يبدو أنها كانت مفيدة بشكل خاص لكتّاب الطبقات البروسوغرافية، والكثير من أعمال أولئك يتكون من التمييز وإعادة التنظيم والترتيب والتصنيف أي تصنيف المعلومات والمدوّنات ثم التأليف أو التحقيق أو ملحقات بالمعلومات التراجمية لسير الحياة، جميع هذا قد ورثوه من البحث العلمي الموجود، سواءاً كان ذلك لهم أو ورثوه من أسلافهم. فنحن نعرف مثلاً أن ابن حجر العسقلاني قد استخدمها، وكذلك استخدمها السخاوي ايضا. وأحد مؤلفات السخاوي وأعماله تدوين قوائم بالأمثلة والنماذج من المرويات أو الأحاديث المروية على وفق ظروف النقلة أو الرواة مثل (رواية قد تلقاها في الكعبة) أو (رواية أو حديث نقلت ورويت بسلسلة أسناد بمن كان يسمى محمد) أو (رواية أو حديث أرويت من قبل مبلغ أو راوي بينما كان يقلم أو يشذب أظافره في يوم الخميس) أو (حديث يشجع تشذيب أو تقليم الأظافر،غير أن البعض قد عارض ذلك ورأوا أنه مكروه في يوم صلاة الجمعة) فالوثائق كانت لا تقل من مائة مجموعة وواحد (١٠١) بمثل تلك الأصناف. فقد كانت الجذاذات والكارتات لذلك السبب مفيدة إلى درجة كبيرة، إلا أنها ميتة النهاية. وبخلاف ذلك فإن الدفتر (وكان اعتيادياً كتاب أو في الأقل دفتر) كان يعد كتاباً محتملاً بحدِّ ذاته، وقد لاحظنا

---

[1] حول ابن الأثير ينظر ريتشاردز Richards في بحثه (ابن الأثير) المشار إليه آنفا ص ٧٨؛ عن بيبرس ومساعده في البحث المسيحي الديانة، مقدمة المحقق للنسخة غير الكاملة لكتاب: زبدة الفكرة ص ٢١ وما بعدها XXI؛ وحول أسامة وتدهور صحته ينظر دراسة (نبيل أو وجيه عربي سوري) المشار إليه آنفا ولاسيما ص ١٩٠ وما بعدها.

فعلاً بأن كتاب السيرة النبوية الأولى يحتمل أنها قد انشقت أو نشأت من دفاتر أو كتب شخصية أو شبه شخصية، وكان المقصود من ورائها التعليم أو الدرس وقد دوّنها الشيوخ أو تلامذتهم، ومن ثم انسلت أو صارت متداولة ومنتشرة في عدد من النسخ المنمقة. فالتمييز بين الدفاتر أو الكتب الشخصية والكتب المنشورة أو المعلنة، يبقى الدفتر أو الكتاب في أغلب الحالات هو البناء الضخم للقصة أو الرواية التاريخية..فالطبري حسبما يبدو أنه كان في عمر الستين سنة حينما أنهى نهائياً في الأقل مسودة من عمله الضخم جداً التاريخ، الذي جعله علنيا للناس على شكل محاضرات ألقاها خلال سنوات ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م أو ٢٩٥هـ/ ٩٠٧؛ وأن بعض أسانيده توحي بأنه كان قد جمع معلوماته العلمية بالفعل خلال مرحلة الطفولة، فقد كان يحضر المحاضرات التي أفلحت في أن تجعله قريب الصلة من عمل السيرة والتاريخ الحولي الكرونوغرافي المكتوبة في أواخر القرن الثامن الميلادي/ أواخر القرن الثاني للهجرة. ويحتمل أن هذه الأعمال كانت مدونة في كتب أو دفاتر[1].

---

[1] عن ابن حجر وقصّاصاته ينظر رحماني Rahmani في بحثه باللغة الإنجليزية المشار إليه آنفا (أبن الأثير حياته ومؤلفاته) مجلد ٤٦ (١٩٧٢) ص ٣٦١؛ كذلك كوهلبرغ Kohlberg في دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (عالم مسلم في العصر الوسيط) ص ٨٦؛ وكذلك روزنثال في دراسته باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (تقنية ومنهج) ص ٧؛ حول السخاوي ينظر آربري A.J.Arberry في دراسته باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (سخاوينا دراسة استندت على مخطوطة في جيستر بيتي رقم MS.Arab . 777) المطبوع في لندن (١٩٥١) ص ٣٢ وما بعدها من الصفحات؛ وحول مناقشة عن الحديث المناسب حول تشذيب الظفر ينظر كستر M.J.Kister في البحث باللغة الإنجليزية الموسوم بـ(شذّب أو قلّم أظافرك) دراسة في حديث مبكر، المنشور في كتابه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (مجتمع ودين من الجاهلية إلى الإسلام) الطبوع في الدرشوت Aldershot (١٩٩٠)؛ وعن اليونيني ينظر جوو Guo في الدراسة باللغة الإنجليزية المشار إليها آنفا بعنوان (التدوين التاريخي المملوكي السوري المبكر) ص ١٠؛ حول (دفتري أو كتابي) ينظر روبنسون Robinson في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (إمبراطورية ونخب) المشار إليه آنفا ص ١٣٢ هامش ٣٩.

فيوميات ابن البناء التي كما هو واضح قد كتبت في القرن الحادي عشر تعدّ لقية أو شيئاً نفيساً. فهو يستحق الذكر هنا أيضاً كمثال يصغي إلى الأنباء والمرويات الشفوية المتنوعة التي كانت مصادرها تعتمد عليه شخصياً. فالكتب التي تستند إلى ماضٍ بعيد لا تعتمد على الجذاذات والكتب فحسب، إنما على مؤلفات من التاريخ مبكرة. وحالياً وفي بعض الحالات مثل ما هو شأن تاريخ اليعقوبي (وهو أنموذج من الأمثلة المتقدمة جداً) ومؤلفات السيرة النبوية كابن سيد الناس والمغلطائي، فإن المؤرخين قد وفروا لنا خدمة في تضمين فهرسة للمصادر تلك التي كانت تستعمل كثيراً جداً. والكلاعي (المتوفى سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) وهو يشابه بعضاً من مؤلفي وكتّاب السير النبوية المتأخرين، يناقش المصادر بالتفصيل، وإلى درجة أنه يقدم لنا معنى أو مغزى منهجه وطريقة بحثه. إنه يعرف مغازي الواقدي لكن حسب قوله فإن هذا الكتاب لم يعدّ متوافراً بالنسبة إليه شخصياً، وهو أمر لا يهم كثيراً، بما أن تلك المغازي منسجمة وموافقة مع مغازي ابن إسحاق، فصار بوسعه أن يستغني عن مغازي الواقدي بفضل وجود العرض الذي قدّمه ابن إسحاق. وكان عرضه لذلك بلغة أنيقة جميلة التعبير. ففي مقدمة هذه الطبقات/ البروسوغرافي، قد قدم ابن حجر بصبر وطول إناة قوائم أسماء للمصادر التي رجع إليها، مشيراً إلى أنه كثيراً ما كان يستخدم نسخ مخطوطة بخطوط مؤلفيها. وفي بعض الحالات ولاسيما في مؤلفات الطبقات / البروسوغرافية الكبيرة والضخمة، حيث يكون فيها حيّزاً أو فراغاً وبياضاً فيه ألفاظ متنوعة قد تستخدم للإشارة إلى المصادر المهمة. فيكتب السخاوي مثلاً قائلاً "حينما استخدم تعبير – شيخنا – أقصد به ابن حجر، معلمنا وشيخنا". كذلك فإن مختصرات أخرى قد استخدمت أيضاً[1].

---

[1] عن التقاليد في البحث العلمي بصورة عامة ينظر روزنثال في دراسته باللغة الإنجليزية المشار

فأينما يبرز الإسناد في جميع هذه الحالات؟ فلعل المرء يفكر بأن هذه عطية نعمة Boon للمؤرخين المحدّثين. فلأن المؤرخين الإغريق والسريان على نحو أنموذجي عليهم أن يعملوا ويؤلفوا مع أعمال ومؤلفات عن التايخ تلك التي تمانع وترفض بعناد أن تسمي مصادر معلوماتها، فإن مؤرخينا كانوا متعلقين بالإعلان عن الذي ينقلونه من التاريخ بالضبط إلى حد الرواية الواحدة والمفردة.ومهما يكن، ففي الممارسة والتطبيق فإن مؤرخي الإغريق والسريان للتدوين التاريخ في الأغلب الاعم كان لديهم الوقت الهيّن وربما أن التاريخ السرياني النادر الذي سمى بوضوح مصادره (مثال على هذا ايليمه النصيبي Elijah of Nisbis الذي كتب في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري) غير أن المرء كثيراً ما يجد بأن أعمالهم كانت في فن العمارة بشكل واضح المعالم نسبياً – فهي أقسام متعاقبة، وكل منها يتألف أساساً من مصدر واحد، وقد صنفت كرونولوجيا أي حسب السنوات على شكل طبقات، مع القليل النادر من النزّ أو التسيّل seepage بين هذه الطبقات أو بين الإشارات المصدرية بالنسبة إلى المؤلف – الجامع لهذه المعلومات. ومثال على هذا (تاريخ زقنين Zuqnin) من القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة،الذي جمعه راهب مجهول الهوية من أهالي شمال

إليها آنفا الموسومة بـ (تقنية ومنهج)؛ حول الصفدي ينظر بوبر Popper في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (نقد السخاوي لابن تغري بردي) المشار إليه آنفا ص ٣٧٢؛ عن فهرست مصادر اليعقوبي ينظر روزنثال في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (عن قوائم أو فهارس المصادر في العصر الوسيط الموثوقة): وفي الكتاب الذي حققهM.Mir باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التراث الأدبي للإسلام الكلاسيكي): دراسات عربية إسلامية على شرف جيمس بيليمي James A.Bellamy المطبوع في برنستون (١٩٩٣) ص ٢٥٥-٢٧٤؛ وحول المغلطائي ينظر كتابه (الإشارة إلى سيرة المصطفى) المشار إليه آنفا ص ٤٦٥ وما بعدها من الصفحات (وعن المصادر للتاريخ تلك التي اتبعت قسم السيرة)؛ حول الكلاعي ينظر (الاكتفاء) ص ٧؛ وحول ابن حجر ينظر كتابه (أنباء الفخر) جزء ١ ص ٢ وما بعدها؛ وعن شيخنا) ينظر السخاوي في كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) جزء ١ ص ٥؛ حول ملاحظات أخرى ينظر اندرس Endress في دراسته باللغة .

سوريا؛ وبالإمكان قوله إنه كان يتكون أساساً من ست طبقات (أو ما يقارب ذلك). وبسبب ترصيف هذه المصادر فقد كان مشروعاً واضح المعالم نسبياً، وبوسعنا أيضاً أن نقوم بعزل أو على خلافة باستعادة المصادر المفقودة والضائعة، التاريخ الذي كتبه ديونيسيوس Dionysius التلمحري الذي يعدّ تاريخاً مفقوداً وغير موجود، إلا أنه وعبر العمل من مصدرين متأخرين يصبح لدينا فحوى ومضمون جيد جداً لما كان عليه ذلك الكتاب، الآن فإن تحليلاً دقيقاً (للإسناد)؛ يمكن أن يخبرنا عن الكيفية التي كان يفكر بها الأفراد، مع أن تداول انتشار (الأخبار) كان واسعاً جداً، وأن المقطع لخبر مروي مشوّه بحيث يجعل إعادة بناء المصادر في أي تفصيل ممكن هو أمر مستحيل[1].

التواريخ المنتهية:

فلأن المقطع المأخوذ في بداية هذا العمل وصولاً إلى إتمامه الناجح قد يكون موضوعاً صعباً، بمعنى أنه من ذهنية المؤرخ إلى كتابة المسودة النهائية (وهذه في العادة كانت تسمى المسودة أو مسودة) إلى النسخة النهائية من عمل الناسخ أو النسخة المبيضة أو مبيضة؛ فبعض الكتب والأعمال كانت تنتهي والبعض الآخر قد ترك غير منتهي أو بشكل جزئي، والبعض الآخر قد تخلى عنه المؤرخ نهائياً، فالحياة هي حياة غير مؤكدة وأكيدة، والتأخيرات والتأجيلات لم تكن غير مألوفة وغير شائعة، لذلك فإن عدداً من المشاريع غالباً ما كان يراد بها الخداع والحيلة.

---

[1] عن تاريخ ديونيسيوس كما أعيد بناؤه اعتماداً على مصدرين متأخرين ومترجمين ينظر بالمر A.Palmer في الدراسة باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (القرن السابع في تواريخ غربية سريانية) المطبوع في ليفربول ١٩٩٣، ص ٨٥-٢٢١.

إذن، وكما هو معروف في الوقت الحاضر، إن المؤرخين يعملون أو يقومون بعملهم على وفق طريقتهم الخاصة بهم، وأن الاتزان والائتلاف المكونة لعملهم إنما يحددها الزمن أو الوقت، والطاقة والفاعلية والمحرك أو الباعث: فابن عبد الظاهر (المتوفى ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) نقل أجزاءاً من سيرته الملكية على شكل حلقات إلى راعيه السلطان، الذي كافأة على ذلك العمل برداء فاخر وثمين. وكان بعض المؤرخين يؤلفون بسرعة، فالقسطلاني (المتوفى ٩٢١هـ/ ١٥١٧م) قد أنجز مسودة كتابه عن حياة النبي في الثاني من شهر شوال سنة ٨٩٨هـ/ ٢ تموز ١٤٩٣م، وأتمّ النسخة المبيضة النهائية في ١٥ من شهر شعبان (٣٠ مايس ١٤٩١م).والبعض الآخر يبدأ بمشروعه، لكنه يعجز عن المضي في إكماله، فابن الأثير ـ خلال مراحل عمله ـ وجد نفسه مشلولاً بعامل الكسل والتراخي وعدم الثقة بالذات، لذلك اضطر إلى ترك العمل بتاريخه (الكامل) فلم يقترب منه ولم يمسه مدة عشرين سنة؛ ثم أقدم عليه من خلال مساعدة أصدقائه فقط (وبضغط من الدولة) فعاد إلى الكتاب مرة ثانية.وعلى الرغم من أنه قد قضى أكثر من عشر سنوات لينجر ويقوم بتنقيحات من أجل جعله معاصراً للحقبة السابقة (عشرون سنة)، لكن ليس من الواضح والبين بأنه كان يعدّ عمله قد انتهى فعلاً. وهناك آخرون ممن كان يعمل ببطىء أو يشغل نفسه بامر ما؛ فقد قيل إن الصفدي أنه قرأ جميع طبقاته المعاصرة بصوت مرتفع في دمشق إبّان سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦- ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، غير أنه واصل العمل فيه إلى حين وفاته في سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م. (وواقعياً فهناك مؤلفون لأعمال وكتب أقصر بكثير قد وجدوا صعوبة فاشغلوا أنفسهم بشيء آخر أو بعمل غير بارع: فولت وايتمان Walt Whitman يبدو أنه انتج ما لا يقل عن تسع تحقيقات أو روايات لكتابه الموسوم بـ (أوراق العشب)Leaves of grass بأكثر من حقبة أربعين سنة.

وابن تغري بردي قد كتب رواية منفصلة بشأن حملة ضد جزيرة رودس، لكنه أضاعها، ولهذا السبب كان عليه أن يعيد كتابتها بصيغة مكثفة ومركزة.

وفي حالة خطط المقريزي (المتوفىٰ ٨٢٥هـ/ ١٤٤٢م) فإننا محظوظون لامتلاكنا مسّودة مبكرة لكتابه، يستطيع المرء أن يراجعها للموازنة بين انتاجه الذي انتهىٰ منه، إذ إنه كتبه علىٰ ورق مستعمل وقصصات من معلومات إضافية قد ادرجت وأقحمت في عدة مواضع من كتابه[1].

وفي بعض الحالات، يترك المؤلفون ثغرات في مسّوداتهم وذلك لسبب وجيه. والكثير من ذلك بمثل ما هو في صحيفة Advancers وهي من الصحف اليومية، ففي نعي الموتىٰ للشخصيات المعاصرة البارزة تكتب أعمدتها مسبقاً، ثم تضاف تواريخ الوفيات حينما تكون متوافرة. فطبقات ابن سعد (توفي ابن سعد ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) كما لا حظنا بالفعل آنفاً قد وصلت إلىٰ نهايتها بعد وفاة مؤلفها، والظاهر أن التلميذ قد أضاف تاريخ وفاته، فضلاً من أن العمل قد احتوىٰ أيضاً علىٰ عدد من الشخصيات المهمة ممن توفوا بعد عشرين سنة كاملة من وفاة ابن سعد. وقد امضىٰ ابن القلانسي عدة سنوات وهو يهذب ويحسن تاريخه لمدينة دمشق، ويذكر أنه ترك في كتابه في مواضع محددة بيضاء أو فراغات وأنه سيقوم يملئها ويدخل التصحيحات

---

[1] حول ابن عبد الظاهر ينظر هولت Holt في بحثه باللغة الإنجليزية المشار إليه آنفا الموسوم بـ (ثلاث ترجمات حياة) ص ٢٠؛ حول الصفدي، ينظر لتل Little في بحثه باللغة الإنجليزية المشار إليه آنفا الموسوم بـ (الصفدي، ص ١٩٨؛ حول القسطلاني ينظر فهرست أو دليل المخطوطات العربية الفارسية في بتنه/ بانكيبور جزء ١٥ ص٨٣؛ وحول ابن الأثير ينظر ريتشاردز في البحث باللغة الإنجليزية المشار إليه آنفا الموسوم بـ (ابن الأثير) ص ٧٩؛ وحول ابن تغري بردي ينظر بوبر Popper في بحثه باللغة الإنجليزية المذكور آنفا الموسوم بـ (نقد السخاوي) ص ٣٧٥؛ حول مسودة المقريزي ينظر التحقيق الذي حققه سيد A.F.Sayyid لكتاب (مسودات كتاب المواعظ والاعتبار) المطبوع في لندن (١٩٩٥) وكذلك بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (طرق مبكرة في تصنيف كتاب).

المطلوبة التي لم يتمكن على سردها مسبقاً تركها إلى أن يعيد كتابة الكتاب المسودة ثانية. ويظهر أن ابن حجر العسقلاني قد انتهى من وضع مسّودة كتابه عن الطبقات المشهورة والبارزة في القرن الثامن الميلادي/ الثاني للهجرة في سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦ إلا أنه واصل العمل به من أجل تقديم إضافات حتى بلغ به إلى سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣ مضيفاً ملاحظات ذيلية قليلة بعد ذلك أيضاً. وملأ ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) الأقسام المتعلقة بالشرق في مقدمته بعد أن ارتحل إلى هناك. ومؤرخ آخر من مؤرخي القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري من أهالي مدينة فاس قد شرح معتذراً إلى حدٍّ ما لأنه لم يتكن من أن يزود القارئ باسم الموظف الذي تولّى أمر الحجاج إلى مكة في سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤٠-٨٤١م ذلك لأنه كان حينها في مصر في حالة كهذه، على المرء أن يتخيل بما أعاقته رحلاته إلى مصر من كتابة ملاحظات مناسبة. والمؤلفون دون شك كانوا يأملون في الحصول على تقويمات إيجابية لمؤلفاتهم، لذلك فإنهم عند دفعهم نسخ من مؤلفاتهم وأعمالهم المعلنة عنها حديثاً كانوا يأملون بذلك، غير أننا أيضاً نعلم أنهم حاولوا أن يضمنوا تقريضاً جيداً من قبل القراء والنقاد يكتبها أولئك التلامذة الناصحين والطامحين الموثوق بهم، وهذه التقريضات ستدل في مسح الكتاب ومقدمته، وأحد هذه التقريضات قد كتبها ابن حجر العسقلاني قائلاً:

"لقد قرأت هذا الكتاب الذي يشهد بأن صاحبه ما هو إلّا الحكم العدل الذي لا يقبل أي رشاوى، وهذا فريد من نوعه. ومع أنه لديه من الزملاء والأقران (أي أصحاب المؤلفات والأعمال التي هي من نوعية مماثلة) مع مؤلفاته. ولقد تأملت فصوله فوجدت الفرحة والمسرّة مقبلة عليّ في كلّ فصل من تلك الفصول...وعندما نجعل جميع هذه المعلومات المفيدة والمنوّرة

جيئة وذهابا ؛ عندئذتصبح الحافّة الحادّة من لساني مملّة جدا لوصفه ذاك (أي لوصف ذلك الإطراء)".

وتقريض آخر قد كتب من قبل مؤلف غير معروف لكنه لا يمكن أن يكون سوىٰ ابن خلون نفسه إذ قال،" لقد قرأت هذا الكتاب . وهو مرج من المروج التي تفرح كلّ زائر ، وحديقة من الحدائق التي تثير السرور والبهجة في نفوس الناس الزائرين ، وملاذا لكل شاكّ وجاهل. إنه محيط بأمواجه الصاخبة، إنه مقال وكتاب مشذّب يخلو ومجرد من الحشو ، يتباهىٰ به ويفتخر به مجتمع مثقف عالمي وذلك لأسباب جليّة وواضحة. إنه حديقة ظليلة لمعرفة ومعلومات متباينة الأصناف من المعارف تتجدد فيها قوة ونشاط الشباب، إنه مساو للأنموذج الكامل للفكر الإنساني والعلم اللغوي والبوابة المشرعة الواسعة".

والمؤلفون ربما يرتّبون أن تقرض وتقوّم كتبهم بشكل إيجابي ولصالحهم، غير أن هذا الشيء لم يؤد إلىٰ توقف التقويمات السلبية، ولاسيما، في وضعنا، تلك التي يوجهها الأكاديميون المحترفون. ولعل هذا الجانب يوضح لنا لماذا رمىٰ ابن حجر بنفسه بمعزل عن النقاد إذ مضىٰ في تأليفه كتاب فتح الباري[1].

---

[1] حول يحيىٰ ينظر ابن النديم الفهرست ص ٣٢٢ (كذلك دوج Dodge في دراسته المشار إليها آنفا بعنوان – الفهرست ص ٦٣١) حول ابن عساكر والعشرة كتّاب ينظر روزنثال في دراسته المذكورة آنفاً (تقنية ومنهج ص ٢؛ حول مكافأة ابن خلدون ينظر ليفي بروفنسال E.Levi-Provencal في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (ملاحظة عن كتاب العمير التي عرضها ابن خلدون كفهرست مصادر عن القيروان وفاس) المنشور في مجلة (JA) مجلد ١٠٣ (١٩٢٣) ص ١٦١-١٦٨؛ وحول التقريض ينظر روزنثال في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (التقريض من مصر خلال القرن الرابع عشر للميلاد) المنشور في مجلة Oriens مجلد ٢٧-٢٨ (١٩٨١) ص ١٧٧-١٩٦ (والترجمات التي عدّلت قليلاً هي له أيضاً الموجودة علىٰ ص ١٩٠ وما بعدها من الصفحات؛ كذلك السيوطي في كتابه حسن المحاضرة (يذكر التقريضين).

فلم يكن المؤرخون المسلمون ـ ولا سيما في هذه الحقبة ـ غرباء عن التشجيع أو الترفع الذاتي Self Promotion. كذلك لم يكونوا غرباء في المناظرة والشجار. فسبط ابن الجوزي في مرآة الزمان يبدو أنه انتقد بقسوة في زمانه، وأن السيوطي قد هاجم القسطلاني بقوله إنه كان لا يعترف بعمله الخاص بالسيرة النبوية، وقد ذهب بعيداً جداً إلى أن جعل آراءه ومطاعنه عامة وعلى الجميع، مما دفع بالقسطلاني إلى أن يرحل إلى القاهرة من أجل أن يقدم اعتذاره شخصياً. فليس هناك من جديد بخصوص الحسد المهني (فقد اتهم الخطيب البغدادي بكل شيء له علاقة بالإنتحال ورمي أيضاً باللواط وإلى تعاطي الخمر). إلا أن القسطلاني كان يعمل داخل ما أصبح دفيئة أو مستنبتاً للتدوين التاريخي السوري والمصري، إذ صارت الأحساد والمنافسات والمنازعات أمراً مألوفاً (فقد كان كل من السخاوي والسيوطي كثيراً ما يغمغم ويتوعد الواحد للآخر) وقد أصبحت مقاييس ومعايير كتابة التاريخ واضحة المعالم، وكذلك القلق الشديد المرافق لذلك وعدم الاطمئنان وعدم الموثوقية هي الأخرى ملموسة وواضحة أيضاً. فابن كثير (المتوفى ٧٧٤هـ ـ ١٣٧٣م) قد أعاد حلماً يفيد بأنه كان مأخوذاً أو آخذاً إلى مهمة من قبل محدث مختص وذلك لأنه أخفق في ذكر مؤلف مشهور جداً في أحد مصنفاته. والواقع فإن جميع المؤرخين تقريباً كانوا يشددون ذلك ويتقمصونه"[1].

---

[1] حول سبط بن الجوزي ينظر جوو Guo في دراسته المشار إليها آنفا باللغة الإنجليزية الموسومة بـ (التدوين التاريخي في سوريا المملوكية) ص ١٧؛ وحول السيوطي والقسطلاني ينظر حاجي خليفة، كشف الظنون جزء ٦ ص٢٤٥ وما بعدها من الصفحات، كشف الظنون جزء ٦ ص ٢٤٥ وما بعدها من الصفحات، حول ابن حجر ينظر ملتي – دوغلاس F.Malti- Doglas في بحثه باللغة الإنجليزية الموسوم بـ (خلاف أو شجار وتأثيراته في الرواية التاريخية عن الخطيب البغدادي) المنشور في مجلة (SI) مجلد٤٦ (١٩٧٧) ص ١١٥–١٣٠؛ حول ابن كثير ينظر لاوست H.Laoust في البحث باللغة الفرنسية الموسوم بـ (ابن كثير المؤرخ) المنشور في مجلة أرابيكا Arabica مجلد ٢ (١٩٥٥) ص ٥٩.

هذا إذن هو كتاب صغير يتناول موضوع ضخم جداً. وبكلمات أوضح إن الكتاب قد أصبح في آخر المطاف مألوفاً للقارئ، ففي بعض من مغزاه أنه كتاب مختصر - ومعلوماته مركزة يقصد بها فقط أن يوحي بكونه يمثل خطوطاً كفافية Contours لمستودع كبيراً جداً وعميق جداً للتعليم والمعرفة.هكذا كان ينبغي أن يكون، إن جزءاً صغيراً فقط من رواية أدبية منتجة بغزارة قد حقق وفهم وصنف فيه، فكثير من هذه التواريخ الحولية/ الكرونوغرافية، تلك التي ترتبط بها الرواية التي هي بحدِّ ذاتها قليلة الأهمية موازنة بما تقوم به صيغ التدوين التاريخي الأخرى. آخذين بنظر الاعتبار كيف أن بضعاً أو على شكل أجزاء مؤلفة من كسر أو قطع من المخطوطات كانت بالنسبة إلى التواريخ الكبيرة التي كتبها مؤرخون كالطبري وابن مسكويه والصابئ والمسبّحي. فالمرء ربما يستنتج استنتاجاً معقولاً بأن تلك الرواية قد تركّز اهتمامها ومواردها في مكان آخر - ولاسيما في السيرة النبوية وفي طبقات/ بروسوغرافية المحدثين. آخذين بنظر الاعتبار كمية الوقت والجهد اللذي قد أمضاه المؤرخون في الحقبة الحديثة في تحقيق هوية وفي ضمّ المعلومات بعضها إلى البعض الآخر، وفي التحقيق والتأليف، وفي الترجمة وفي التعقيب والتعليق على أقوال الطبري وابن مسكويه والمؤرخين من آل الصابئ والمسبحي، والمرء ها هنا أيضاً قد يستنتج بأن العلماء الأوربيين لديهم الوقت والمال الإضافي (وكلاهما يعدّ سخيفاً ومضحكاً)، أو أن اهتماماتهم تختلف بوضوح عن اهتمامات أولئك المؤرخين والقرّاء قبل الحقبة الحديثة (وهذه في الحقيقة هي الحال في هذا الكتاب).فهذا الكتاب

الصغير قد حاول وسعىٰ إلىٰ أن يتسع لهذه المظاهر ووجهات النظر المختلفة، إلا أنني أغادره بل أتركه للآخرين لينتفعوا منه بالكامل لينطلق بسرعة في الانتشار والنشر في الشرق الأوسط، حيث يجعله متوافرا لأطياف واسعة للتدوين التاريخي. واقعاً أن الكثير من هذا كان قد تموضع بشكل كفافي بصيغة نصوص بحثية ألكترونية، التي تقدم تعهداً بأن تغيير وتبدل الكيفية التي يقرأ ويبحث فيها العلماء[1].فلقد لحظنا أن التدوين التاريخي وكذلك المؤرخين كانوا يقفون بل ويحتلون موقعاً علىٰ هامش المؤسسة الأكاديمية التي صممها مشرّعون ولصالحهم. أكثر من أن تنتج حقائق، إنها تبرز وتظهر وتمثل فقط الحقائق التي قدمت فعلاً علىٰ أنها مظهر من الله، إما أن يكون هذا الأمر مباشراً (عبر الوحي) أو غير مباشر عبر دراسة الفقيه للشريعة. وكانت مهمتها ووظيفتها بناءاً علىٰ ذلك، قد تحددت للإرشاد ولرفع المستوىٰ الأخلاقي وللتسلية وللأرشفة، أما بشأن مداها فإنه أولاً مقيداً بوساوس وشكوك المحدّث، وبصورة خاصة بالتحريم والحظر ضد التاريخ المعاصر. فالمحدّث يسلّم بالتاريخ ويقبله بكونه من العلوم الإسلامية، لكنه نادراً ما يرحب به. وبقيت هذه الحال حقيقة حتىٰ بعد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين، حينما ظهرت رواية التدوين التاريخي الواثقة بنفسها، فالمرء قد يندفع بالعمل بناء علىٰ الاهتمام والمصالح ويتأثر ويتوجه بحكم التقاليد التي كانت مستقلة بشكل متزايد عن اهتمامات المحدّثين. إن الكثير من حقبتنا تقريباً كان فيها المؤلفون مؤرخين بمعنىٰ أنهم كانوا يعملون بجزء من أوقاتهم فحسب، وإن منزلة اجتماعية كهذه التي تمتعوا بها قد أخذت أو اشتقت من النشاطات والفعاليات الأخرىٰ تلك التي

---

[1] إحدىٰ هذه هي http://www.alwaraq.com التي تفتخر أنها أفلحت في توفير مليون صفحة من النصوص العربية فوراً.

يحتمل أنهم قد تابعوها وواصلوها، إن كانت أكاديمية أم على خلاف ذلك. ومن الجانب الآخر، فإن كميات كثيرة جداً من التدوين التاريخي قد تم كتابته وكان هذا بالفعل واضحاً قبل القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين. وكان المسلمون يحثّون السير بشكل جيد لإنتاج رواية تبز وتبرز في حجمها ونوعها عن أي شيء كتبه اليهود والمسيحيون المعاصرين لتلك الحقبة. ولهذا الحافز وجهان. النجاح المثير والمذهل في بناء إمبراطورية خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين، الأول والثاني الهجريين، فلهذا خلقت سوقاً للقرّاء الجائعين لنهل الرواية التاريخية، ولا سيما بتلك الصيغ والأشكال في التاريخ الحولي/ الكرونوغرافي، وهي الأشكال التي تقدم وتعرض دروساً وكذلك تعرض نماذجاً من الحكّام ومن بلاطاتهم وصفوتهم أو ونخبهم الحضرية؛ وقد بقيت هذه السوق منتعشة على الرغم من انهيار الإمبراطورية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين/ الرابع والخامس الهجريين.أما الوجه الثاني فعلى الرغم من أنه كان ثابتاً ومخلصاً للمعيار والمبدأ الحديثي الذي ربما لم يعلن أو يعلم عن اهتماماته في التدوين التاريخي، إلا أن الكثير منهم كان متحمساً بخصوص تلك الصيغ والأشكال من التدوين التاريخي، تلك الصيغ التي تدعم المؤسسات الحديثية (ولاسيما مدارس الشريعة) وتدعم المواقف (ولاسيما تلك التي تعرض التبجيل والاحترام لمحمد الرسول الذي كان بحسب زعمهم إنموذجاً قابلاً للنقل والتأثير). وفي الممارسة والتطبيق كان هذا الاهتمام يعني بشكل خاص إلى كتابة الكثير جداً من طبقات / بروسوغرافي الفقهاء، وكذلك كتابة الكثير جداً من مؤلفات السيرة النبوية.

فالتدوين التاريخي أو علم التاريخ، هكذا، قد شغل موضع تكافؤ الضدّين في دولة الأدب، والواقع أنه لم يكن قد صار مؤسساتياً بالكامل وإن

هذا الحال قد تشرح ديناميته النسبية. فنحن فعلاً قد رأينا أن المؤرخين المسلمين قبل الحقبة الحديثة،وكذلك الكلاسيكيين كانوا قد وقروا وقلدوا وتمذهبوا وتنوعوا، وما أن ترسخوا وتوحدوا حتى صاروا أقوياء،فالقصة أو الرواية التاريخية قد نمت وترعرعت جنباً إلى جنب مع الصيغ والأشكال الأخرى للرواية وبضمنها رواية الحديث، وأن نشوء وظهور فرع ونظام للحديث قد أثر في التدوين التاريخي تأثيراً كثيراً إلى حدّ بعيد. وقد أشرت من هذا الكتاب آنفا إلى أن التدوين التاريخي كان صرفه هي في المرتبة الثانية تلك التي انجذب إليها الكثير جداً من عقليات وذهنيات حرف المرتبة الأولى.

كذلك بالإمكان توصيف شكل الرواية وهيأتها في الدويلات والنخب أو الصفوات، إذ تمّ إنتاج التدوين التاريخي أو علم التاريخ من توليفة من نخب اجتماعية قوية نسبياً وفي الدويلات الضعيفة نسبياً. فالنوع الأول قد أنتج أبناء مثقفون وهم مزودون بجميع الأدوات والوسائل الضرورية لكتابة تاريخ، رجال قد تحوّلوا إليه بمحض إرداتهم. طالما أنه بوسع الماضي أن يقوم بمهمة لتمثيل الحقائق ولتزويد النماذج إلى الزملاء المؤمنين، ولوضع معايير يوازن عن طريقها الحكام المعاصرين بصورة غير محببة. أما الدويلات قد أثبتت لصالحها وتداً وراهنت على مسألة التعليم والمعرفة بصورة عامة وعلى التدوين التاريخي بشكل خاص. فتقريباً جميع تلك العروضات والصور المدعومة من قبل داعمين ورعاة للماضي هو ذلك الذي يشرعن ممارستهم وسلطتهم (فالدويلات أن كانت قوية أو ضعيفة على حدٍّ سواء كانت تنشد إلى ترجمة سلطة الإجبار أو الجبر على الطاعة والخضوع لتدخلها في إمكان أو احتمالية الإقناع)،وأن التعلم والمعرفة الواسعتي النطاق (نظير التدوين التاريخي المعقد). قد اعتمد على شبكات حضرية للعلم – كالقراءة، والتعليم، والكتابة – التي رعتها ودعمتها ودافعت عنها تلك

الدويلات. إنّ هذا التجاذب والانجذاب الجماعي للمؤرخين والدويلات الطامحة هو الذي يفسر شكل وهيأة المؤرخين الكرونولوجيين الذين وقفوا واحتلوا مكانة في بداية هذا الكتاب. وذلك بالشروع في العراق والإنتهاء بمصر، فإن هذا التاريخ الكرونولوجي سيتبع خطى وآثار طريق الخلافة نفسها، من البصرة والكوفة في العصر العباسي الأول إلى قاهرة الأيوبيين والمماليك.

مقترحات بشأن قراءة مصادر إضافية

قد يجد القرّاء فائدة ومنفعة في قوائم الأسماء الآتية، التي يهدف من ورائها أن تكون ممثلة أكثر من كونها شاملة وكاملة، مشددة على النتاجات الحديثة على حساب بعض المعلومات القديمة، ومن أجل قائمة أسماء كاملة وخاصة للعناوين عن الحقبة التاريخية الأولى، ينظر د. عبد العزيز الدوري: ظهور أو نشأة الكتابة التاريخية بين العرب حققت وترجمت من قبل كونرد L.I.Conrad المطبوع في برنستون ١٩٨٣ ص ١٢ وما بعدها هامش ١، وحول الحقبة المملوكية فعلى القرّاء أن يستشيروا على الخط فهرست المصادر المملوكية، التي يمكن وجودها على:•

http://www.Lib.uchicago.edu/e/su/mideast/Mambib.html

• [وقد وزّع البروفسور روبنسون المصادر التي اعتمدها في كتابه إلى عدّة مجاميع، وبما أنه أداء علمي جديد فسأقوم بترجمة هذه المجاميع إلى اللغة العربية، كما وأنني سأذكر مصادره الإسلامية باللغة العربية. وفيما عدا ذلك سوف أترك قوائم أسماء مصادره بلغاتها الأصلية. وفي الواقع حاولت أن أقدّم ترجمات للهوامش التي استخدمها المؤلف إلى اللغة العربية مع الإشارة إلى أماكن طبعها والمجلات التي نشرت فيها البحوث التي اعتمدها . المترجم].

١-المسوحات، الدراسات، فهارس المصادر، المجاميع والمؤلفات المناسبة كمصادر معتمدة.

أ- الأعمال والمؤلفات المراجع.

ب- الدراسات بحقول معرفية محددة، المسوحات المصدرية، المؤلفات الجماعية.

ت- البحوث.

٢-الرواية حتى حوالي ١٥٠٠م/ ٩٠٥هـ.

أ- دراسات بحقول معرفية محددة ومجاميع.

ب- البحوث.

٣-أ- الرواية من ٩٥٠م/ ٣٣٨-٣٣٩هـ حتى - تقريباً - ١٥٠٠م/ ٩٠٥هـ

٤-ب-البحوث.

٥- بعض الترجمات.

أ- المجموعات.

٦-من البداية حتى حوالي ٩٥٠م/ ٣٣٨هـ.

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأساس:

ملاحظة: حينما تذكر عدة طبقات للمؤلفات العربية، فإن الطبعة المذكورة أولاً هي المعتمدة والمذكور في النص والمحتوى.•

-عباس، أ.شذرات من كتب مفقودة في التاريخ (طبعة بيروت ١٩٨٨).

-عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.مختصر سيرة رسول الله (القاهرة ١٣٧٩ هـ).

-عبد اللطيف البغدادي.كتاب الإفادة والإعتبار (دمشق ١٩٨٣).

-عبد الملك بن حبيب.كتاب الإفادة والاعتبار (دمشق ١٩٨٣).

-عبد الملك بن حبيب.تاريخ (مدريد ١٩٩٠).

-عبد الرزاق المقرّم.مقتل الحسين (قم حوالي ١٩٩).

-عبد الرزاق السمعاني.المصنف (بيروت ١٩٧٢).

•إبراهام بن داوود.كتاب الأحاديث (سفرها – قبّاله) تحقيق وترجمة C.D.Cohen (فيلادلفيا ١٩٦٧).أبو الفتح.

-كتاب التاريخ Annales Samaritanic (كوتا Gotha 1865).

-أبو الفداء.كتاب مذكرات أمير سوري.

The memoirs of a Syrian prince, Abu al-Fida, sulten of hama 672-732/1273-1331) trans, P.M.Holt (Wiesbaden1983).

-أبو إسحاق الشيرازي.طبقات الفقهاء (بيروت ١٩٧٠).

• [وملاحظة المترجم أن الأستاذ المذكور المؤلف قد رتب هذه المصادر القديمة حسب الحروف الأبجدية لكنها أثناء لا تتقيد بذلك واسم عباس حسب الحروف الأبجدية الإنجليزية يأتي أولاً Abbas لكنه بعد الترجمة يكون عباس أي ض٢من الأسماء التي تبتدأ بحرف (ع). المترجم].

-أبو شامه.كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول (قسم أول، القاهرة ١٩٥٦؛ الجزء الأول (القسم الثاني القاهرة ١٩٦٢).
-أغابيوس المنبجي.كتاب العنوان، تحقيق وترجمة فازبليف A.A.Vasiliev المنشور في Patrologia Orientalis المجلد ٨ (١٩١٢).
-أحمد بن إبراهيم العسقلاني.شفاء القلوب في مناقب النبي أيوب (بغداد ١٩٧٨).
-أخبار مجموعة، تحقيق وترجمة اجبر مخموا AJbar Machmua (مدريد ١٨٦٧).
-الأميري.بهجة المحافل وبغية الأماثل (المدينة ١٩٦٩).
-الأزدي البصري.فتوح الشام (كلكتا ١٨٥٤).
-الأزدي الموصلي.تاريخ الموصل (القاهرة ١٩٦٧).
-بابور.البابور نامة: مذكرات بابور، امير وامبراطور The Baburnama: Membirs of Babur, pince and Emporor W.M.Thackston
-(واشنطون D.C. ١٩٩٦)
-بهاء الدين بن شداد.سيرة صلاح الدين (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٩٦٢) ترجمة ريتشاردز D.S.Richards بعنوان The Rare and Eoellent History of saladin (Aldershat 2001).
-بحشل الواسطي.تاريخ واسط (بغداد ١٩٦٧).
-البلاذري:أنساب الأشراف، جرع (القسم ب) (القدس/ أورشليم ١٩٣٨) (القدس/ أورشليم ١٩٣٦) الجزء ٥ (القدس أورشليم ١٩٣٦)؛ الجزء ٦ (باء، أورشليم القدس ١٩٩٣).
-فتوح البلدان (ليدن ١٨٦٦).
-البلوي.سيرة أحمد بن طولون (القاهرة ١٩٣٩).
-بيبرس المنصوري.زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (بيروت ١٩٩٨).
-بيد.تاريخ بيد الكنسي للشعب الإنجليزي (تحقيق وترجمة كولجريف B.Colgrave وماينورز R.A.B.Mymorc (أكسفورد ١٩٩١ طبعة معادة).
-البخاري.الصحيح (ليدن -١٩٠٨).
-التاريخ الكبير (طبعة ثانية (حيدر آباد ١٩٥٨).
-الدبّاغ وناجي التنوخي.معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (القاهرة ١٩٦٨).
-الذهبي.أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخه أو بعد سماعه (بيروت ١٩٩٧).

-السيرة (بيروت ١٩٨١).
-الدينوري.الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨).
-الديار بكري.تاريخ الخميسي في أحوال أنفس النفيس (القاهرة ١٢٨٣هـ).
-الفسوي.كتاب المعرفة والتاريخ (بيروت ١٩٨١)؛ (المدينة ١٤١٠هـ).
-حاجي خليفة.كشف الظنون (ليبزج ١٨٣٥-١٨٥٨).
-الحكيم الترمذي.كتاب ختم الأولياء (بيروت ١٩٦٥).
-حنبل بن إسحاق.ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل (القاهرة ١٩٧٧).
-ابن عبد البر.الدرر في اختصار المغازي والسير (القاهرة ١٩٦٦).
-ابن عبد المنعم الحميري.الروض المعطار في أخبار الأقطار (بيروت ١٩٧٥).
-ابن عبد السلام السلمي.بداية المسؤول في تفضيل الرسول (بيروت + دمشق ١٩٨٣).
-ابن عبد الظاهر.تاريخ الملك الظاهر (فيسبادن Wiesbaden ١٩٨٣).
-ابن أبي شيبه.المصنف (بيروت ١٩٨٩).
-ابن أبي اصيبعة.عيون الأنباء في طبقات الأطباء (بيروت ١٩٦٥).
-ابن أبي يعلى.طبقات الحنابلة (القاهرة ١٩٥٢).
-ابن العديم.بغية الطلب في تاريخ حلب (دمشق ١٩٨٨).
-زبدة الحلب من تاريخ حلب (دمشق ١٩٦٨).
-ابن عساكر.تاريخ مدينة دمشق (بيروت ١٩٨٨).
-ابن أعثم الكوفي.كتاب الفتوح (حيدر آباد ١٩٦٨-١٩٧٥).
-ابن الأثير.الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٥).
-التاريخ الباهر في دولة الأتابكية (القاهرة ١٩٦٣) و (بغداد ١٩٦٣).
-أسد الغابة (بولاق ١٨٧١).
-ابن الأزرق الفارقي.تاريخ ميا فارقين (القاهرة ١٩٥٩).
-ابن الدوا داري.كنز الدرر وجامع الغرر (القاهرة ١٩٦١).
-ابن الفراء.كتاب رسل الملوك (بيروت ١٩٧٢).
-ابن الفرات.الأيوبيون والمماليك والصليبيون (تحقيق وترجمة U.and M.C.Lyons) كمبردج ١٩٧١.
-ابن حجر العسقلاني.انباء الغمر بأبناء العمر (حيدر آباد ١٩٦٧-١٩٧٦).

-المعجم المفهرس (بيروت ١٩٨٨).
-الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (القاهرة ١٩٦٨).
-تهذيب التهذيب (حيدر آباد ١٣٢٧هـ).
-ابن حزم.كتاب الأخلاق والسيّر (تحقيق وترجمة تونيجيه N.Toniche بعنوان باللغة الفرنسية الموسوم بـ، بيروت ١٩٦١) Epire morale.
-رسائل ابن حزم الأندلسي (بيروت ١٩٨٧).
-ابن هشام.السيرة النبوية (تحقيق السقا وآخرون (القاهرة وقد طبع طبعات كثيرة جداً. وترجمها غليوم A.Guillaume بعنوان The life of Mohammad وطبع في لندن ١٩٥٥، وأعيد طبعه في كراتشي ١٩٧٨).
-ابن الجوزي.المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (بيروت ١٩٩٢).
-سيرة عمر بن الخطاب (القاهرة بدون تاريخ).
-ابن كثير.البداية والنهاية (بيروت إعادة طبع القاهرة ١٩٣٢-١٩٧٧).
-الفصول في سيرة الرسول (بيروت ١٩٩٣).
-السيرة (القاهرة ١٩٦٦؛ ترجمها لي جاسيك T.Le Gassict بعنوان The Life of the prophet Muhammad London 1998-2000.
-قصص الأنبياء، ترجمها الأعظمي R.A.Azami (الرياض ١٩٩٩).
-ابن خلدون.المقدمة، ترجمها روزنثال F.Rosenthal بعنوان The Muqaddimah (New York 1958 والطبعة الثانية تحقيق في برنستون ١٩٦٧؛ وهناك تحقيق مختصر برنستون ١٩٦٩).
-ابن خلكان.وفيات الأعيان (بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢) وقد ترجم الوفيات دي سلان M.de slane بعنوان:
Ibn Khallikan's Bibliographical Dictionary Britain and Ireland - 1842-1871.
-وأعيد طبع الوفيات في بيروت ١٩٧٠).
-ابن ماجه.تاريخ الخلفاء (بيروت ١٩٧٩).
-ابن مسكويه:تجارب الأمم (لندن ١٩٢١، طهران ١٩٨٧) وقد ترجم جزئياً ترجمة امدروز H.F.Amedroz و مارغليوث D.S.Margoliouth بعنوان The Eclipse of the Abbasid caliphate: original chrpnicles of the Fourth Islamic century (oxford 1921).

-ابن النديم.الفهرست (طهران ١٩٧١) وأعيد طبعه عدة مرات بيروت)، وترجمة دوج B.Dodge بعنوان The Fihrist of al-Nadim (New York 1970.

-ابن النقيب. **The reliance of the Traveller, trans, by N.H.M.Keller (Evanston 1991).**

-ابن قاضي شهبة. كتاب طبقات الشافعية (حيدر آباد ١٩٧٨، القاهرة ١٩٩٨).

-ابن القلانسي.ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)؛ وقد ترجم (جب H.A.R.Gibb أقساماً منه بعنوان:

The Damascus chronicle f of the Grusades (London 1932, -reprinted 1967).

-ابن قتيبة. كتاب المعارف (القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٨١).

-ابن رجب.ذيل على طبقات الحنابلة (القاهرة ١٩٥٣).

-ابن سعد. كتاب الطبقات الكبرى (ليدن ١٩٠٤-١٩٤٠ ؛ بيروت ١٩٥٧-١٩٦٨).

-ابن الساعي.مختصر أخبار الخلفاء (القاهرة ١٣٠٩هـ).

-ابن حصري.مؤرخ دمشق ١٣٨٩-١٣٩٧ ترجمة وتحقيق برنر W.M.Brinner (Brekely ١٣٨٩-١٣٩٧ A Chronicle of Damascus 1963.

-ابن الطقطقى.الفخري، القاهرة ١٩٢٣.

-ابن واصل.مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (القاهرة ١٩٥٣).

-الأصفهاني. كتاب الأغاني (القاهرة ١٩٢٧-١٩٧٤).

-الجاحظ.رسائل الجاحظ (القاهرة ١٩٦٥) ج٢ ص ٧-٢٣؛ وترجمها شارل بلا بعنوان:

La Nabita de Djahiz: (un,document important pour L'histoire -politico- reli gieuse de L'Islam) in Annales de L;Institut des Etudes orieutales (Algiers) 10/1952, pp. 302-323.

-الجهشياري.كتاب الوزراء والكتّاب (القاهرة ١٩٣٨) وهناك قطع أخرىٰ بعنوان (نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتّاب) بيروت ١٩٦٤.

-الكلاعي.الاكتفاء بيروت، 1997.

-خليفة بن خياط.طبقات (دمشق ١٩٦٦).

-تاريخ (بيروت طبعة ثانية بغداد ١٩٦٧؛ دمشق ١٩٦٧، بيروت ١٩٩٥).

-الخطيب البغدادي.تاريخ بغداد (القاهرة ١٩٣١).

-الخوارزمي.مفاتيح العلوم (ليدن ١٨٩٥).

-الكندي. كتاب الولاة وكتاب القضاة (لندن ١٩١٢).
-الكسائي. Tales of the prophets of al-kisa, trans. W.m.Thackston (Boston 1978).
-كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق (القسم الثاني تحقيق بعنوان Fragmentq hisloricoam Arabicorum (Leiden 1869).
-وطبع في دمشق ١٩٧٢ الجزء الرابع (القسم ١).
-وطبع في دمشق ١٩٧٣ (الجزء الرابع القسم ٢).
-اللهجي. سيرة الإمام أحمد بن يحيى الناصر لدين الله (اكستر Exeter ١٩٩٠).
-لايل C.J.Lyall. محقق كتاب المفضليات.
-An Anthology of Ancient Arabian odes (oxford 1921-24).
-المقريزي. كتاب المقفى الكبير (بيروت ١٩٩١).
-كتاب الخطط (بولاق ١٢٧٠هـ).
-كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج٢ (القاهرة ١٩٥٨) وجزء ٤ (١٩٧٣).
-مسودات كتاب المواعظ والاعتبار (لندن ١٩٩٥).
-المسعودي. كتاب التنبيه والإشراف (ليدن ١٨٩٣).
-مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت ١٩٦٢-١٩٧٩) وقد ترجمه باربير C.Barbier de Meynard and J.B.Pavet de Courteille إلى اللغة الفرنسية بعنوان Les prairies d;or (paris 1966-1997).
-المزّي. تهذيب الكمال (بيروت ١٩٩٢).
-المؤيد في الدين الشيرازي. سيرة (بيروت ١٩٩٢).
-المغلطائي. الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء (دمشق وبيروت ١٩٩٦).
-محمد بن عبد الوهاب. مختصر سيرة رسول الله (بيروت ١٩٩٥).
-محمد بن سحنون. كتاب آداب المعلمين (الجزائر ١٩٧٣).
-محب الدين الطبري. خلاصة السير في أحوال سيد البشر (دلهي ١٣٤٣هـ).
-المسبّحي. الجزء الأربعون من أخبار مصر (القاهرة ١٩٧٨).
-مسلم بن الحجاج. كتاب الطبقات (رياض ١٩٩١).
-نبذة من كتاب التاريخ (موسكو ١٩٦٠).
-المنسوب الواقدي. فتوح الشام (كلكتا ١٨٥٤).

-تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق (دمشق ١٩٩٦).
-القاضي عياض.الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض (بيروت ١٩٨٤).
-الشفاء (القاهرة ١٩٧٧) وترجمة بيولي A.A.Bewley بعنوان:
Muhammad Messenger: ash shifa' of Qadi lyad (Granade - 1991).
-القلقشندي.صبح الأعشى (القاهرة ١٩٦٤).
-القفطي.أخبار الحكماء (القاهرة ١٣٢٦هـ).
-القشيري.تاريخ الرقة (حماه ١٩٥٩؛ دمشق ١٩٩٨).
-الصابيء، هلال.تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (لندن ١٩٠٤).
-الصفدي.أعيان العصر وأعوان النصر (فرانكفورت ١٩٩٠).
-نكت الهميان في نكت العميان (القاهرة ١٩١١).
-الوافي بالوفيات (ليبزج، اسطنبول وبيروت ١٩٣١).
-السهمي.تاريخ جرجان (حيدر آباد ١٩٥٠).
-السخاوي.الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة ١٣٥٥هـ).
-صالح بن أحمد بن حنبل.سيرة (الاسكندرية ١٩٨١؛ الرياض ١٩٩٥).
-سيف بن عمر.كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل وما سرّ عائشة وعلى:
-A Facsimile Edition of the Fragments Imam Muhammad Ibn saud Islamic university of Riyadh (Liden 1995).
-الصيمري.أخبار أبي حنيفة وأصحابه (حيدر آباد ١٩٧٤، وأعيد طبعه بيروت ١٩٧٦).
-سيبيوس Sebeos (منسوب).
-The Amenian history Attributed of sebeo, (trans, by R.W.Thomson with commentary by J.Howard- Johnston (Liverpool 1991).
-شافع بن علي.حسن المناقب السرية (رياض ١٩٧٦).
-سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج٨ (القسم الثاني) حيدر آباد ١٩٥٢.
-السهيلي.الروض الأنف في شرح السيرة النبوية (القاهرة ١٩٦٧).
-الصولي.أخبار الراضي لله والمتقي لله (بيروت ١٩٣٥) وترجمة كنارد M.Canard بعنوان:
Histoire de la dynastie abbaside de 322 a333 /933 a 944 - (Algiers 1950).

-أشعار أولاد الخلفاء (لندن ١٩٣٦).

-الأوراق (سنت بطرسبورغ ١٩٩٨).

-السيوطي.حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٨٦٣).

-الشماريخ في علم التاريخ (ليدن ١٨٩٤).

-الطبري.

-Das konstantopler Fragment des- Kitab Ihtilaf al – Fuqaha; des Abu Gafar Muhammad b. Garir at- Tabari (Leiden 1933).

-تاريخ الرسل والملوك (ليدن ١٨٧٩-١٩٠١) القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٩؛ ترجمه روزنثال F.Rosenthal إلى الإنجليزية بعنوان:

-The History of al- Tabari General Introduction, and from the creation to the flood (Albany 1989, al – Tabarc translation, Vol 1) T.Noldeke.

-وترجمه نولدكه بعنوان باللغة الألمانية بعنوان:

Geschichte der perser und arber zur zeit der sasaniden - (Leiden 1879).

-وترجمه أيضاً بعنوان:

-M.V.MC Donald Foundation of the community (Albany 1987) al- Tabari translation VOl- VII)

-وترجمه أيضاً راوسون E.Rowson بعنوان:

The Marwanid Restoration (Albany 1989 al- Tabari - translation vol XXII).

-وترجمة هندس m.Hinds بعنوان:

-The zenith of the Marwarid gouse (Albany 1990, al – Tabari translation, vol. X17),

-وترجمه أيضاً باورز D.S.Powers بعنوان:

The Empire in Transition (Albany 1989, al Tabari translation, - vol, XXIV).

-وترجمه فشباين وترجم منه إلى اللغة الإنجليزية بعنوان:

-The Abbasid state in Equilibrium (Albany 1989 al- Tabari translation, vol, xxx).

-التنوخي.نشوار المحاضرة (بيروت ١٩٧٣) وترجمه مرغليوث D.S.Margolioth بعنوان:

-The table- talk of a Mesopotamia Judge (London 1922).

-تاريخ سيستان (طهران ١٩٩٤).

-الثعالبي.

-The book of curious and Enterlainig Information trans by C.E. Bos worth (Edinburgh 1968).

-العليمي. مختصر طبقات الحنابلة (دمشق ١٩٢١، بيروت ١٩٨٣.

-عمر بن شبه. تاريخ المدينة المنورة (بيروت ١٩٩٠).

-أسامه بن منقذ.

-An Arad- Syrian Gentlemah and – worrior in the period of the vrusade, trans by P.K.Hitti (New York 1929, reprinted Beirut).

-الزبير بن بكار. أخبار الموفقيات (بغداد ١٩٧٢).

-زقنين، تاريخ زقنين.

-Zuqnin chronicle (third and fouth part) trans by A. Harrak as the zuqnin chronic (parts III and IV A.D.488-755) Tornto 1999.

المحتويات



الدكتور عبد الجبار ناجي

- حاصل على الماجستير من جامعة بغداد سنة 1964 بإشراف الدكتور صالح أحمد العلي.
- حاصل على الدكتوراه من جامعة لندن عام 1970 بإشراف المستشرق برنارد لويس.

من مؤلفاته:

- تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي.
- إسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية.
- بغداد في مؤلفات الرحالة الأجانب.
- دراسات في تاريخ المدن الإسلامية.
- نقد الرواية التاريخية عصر الرسالة أنموذجاً 2011.
- الاستشراق في التاريخ 2013.

من ترجماته:

- علي ومعاوية دراسة في الرواية التاريخية المبكرة للمستشرق بيترسن.
- دراسة الإدارة المدنية في العصر العباسي للمستشرقة كلاوسنر.
- إسهام الجغرافيين المسلمين في علم الجغرافيا للمستشرق بارتولد.
- التشيع والاستشراق عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن العقيدة الشيعية وأئمتها 2011.
- محمد والفتوحات الإسلامية ترجمه عن الإنكليزية للبروفسور فرانشيسكو كبرييلي 2011.

هذا الكتاب:

يندرج موضوع كتاب **البلاط والمجتمع الإسلامي وعلم التأريخ دراسة في سسيولوجيا الكتابة التاريخية عند المسلمين** ضمن المشاريع التاريخية الاستشراقية الحديثة المعنية بمتابعة الغواطس العميقة لتشكل العلوم الإنسانية عند المسلمين عبر التفتيش في جذورها السيو اجتماعية للكشف عن المؤثرات الواقعية المساهمة في تكوين ملامحها الرئيسة، فالنتائج المستنبطة عبر هذه المعالجة الفاعلة تكاد تكون مبتكرة في بابها، فضلاً عن الحركة الأفقية التي قارن فيها المؤلف بين طرق ومطالب التأليف التأريخي عند المسلمين مع اليوناني السرياني، فالدراسة هنا هي مبتكرة إلى حد كبير في مجال المناهج والطرائق الموظفة فيها والنتائج المستخلصة منها فمنذو صدور هذا الكتاب في العالم الغربي أصبح من المراجع الرئيسة في معالجة فكرة التاريخ عند المسلمين لحيوية المطالب التي جاء بها.


ISBN 978-0-9921030-1-9

